

جامعة الأزهر
كلية اللغات والترجمة
قسم اللغة العبرية وآدابها

القصة بين القرآن الكريم والتوراة

بحث مقدم من

سيد عطية علي مطاوع

المدرس المساعد بقسم اللغة العبرية وآدابها
لنيل درجة العالمية "الدكتوراة"
في اللغة العبرية وآدابها

إشراف

أ.د. محمد الرزق أحمد قنديل

أستاذ الأدب العبري المساعد
بكلية اللغات والترجمة
جامعة الأزهر

أ.د. فتحى محمد أبو عيسى

أستاذ الأدب العربى وعميد كلية
اللغة العبرية بالمنوفية
جامعة الأزهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا

إنك أنت العليم الحكيم

صلوات الله العظيم

IN THE NAME OF ALLAH, THE BENEFICENT,
THE MERCIFUL

They Said : « Be glorified, we have no knowledge except
that which YOU have taught us. Indeed YOU
are the KNOWER, the WISE » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ مِّنَ الْغَافِلِينَ .

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

سورة يوسف (آية ٢)

الهدى ..

الى من جالسى وكنت جزؤا منه .. ثم سلك وهو اُخلى الجزء منى
الى رُوح اُوحى . صلالة ووجاه
الى من قدمت الى اُمنع الهدايا . هدية الودع
الى اُسمى اُطال اُتت همها . حياء وحناء
الى ثمة زواجى . والى دفعتى الى اُضراج هذا البحر
الى اُمنيتى

سعيد عطية على ..

شكر وعرفان

وبعد فإننى أتقدم بوافر الشكر والعرفان بحسن التوجيه والرعاية إلى الأستاذ الدكتور / عبدالرازق أحمد قنديل الأستاذ المساعد بقسم اللغة العبرية بكلية اللغات والترجمة والذي كان لى شرف اتمام هذا البحث تحت إشرافه الدقيق وإرشاداته الموفقة ، والذي لم يتوان عن توجيهى بالإرشادات والنصائح العلمية طوال العمل فى هذا البحث رغم علمى بضييق وقته وكثرة مشاغله .

وإذا كان الواجب يحتم على إعطاء كل ذى حق حقه ، فلا بدّ من أن أتوجه بشكرى وامتنانى للسيد الأستاذ الدكتور / فتحى محمد أبوعيسى أستاذ الأدب العربى وعميد كلية اللغة العربية بالمنوفية الذى شارك فى إشراف على هذا البحث لما قدمه من عون خالص ، والذي كانت توجيهاته وملاحظاته منارةً استرشدت بهما فى إخراج هذا البحث على هذه الصورة التى لا أدعى لها الكمال ، فالكمال لله وحده ، كما لا يفوتنى أيضاً أن أوجه شكرى الخالص لزميلى وأخى الدكتور / سامى محمود الإمام المدرس بالقسم على ما بذله من وقت فى إخراج هذا البحث بخطه العبرى الجميل .

وحتى لا أنسى الأوفياء والمخلصين الذين عاونونى ولو بكلمة حق وصدق لهم منى الشكر الجزيل .

الباحث

مدخل إلى البحث

	أولاً : القصة وتطورها البعام
٢	كيف نشأت القصة
	تطور الفن القصصى
٣	تطور القصة فى الآداب العالمية
٥	فن القصة عند العرب
	ثانياً : عناصر القصة وخصائصها
١٠	تعريف القصة
١٢	مادة العمل القصصى
١٣	عناصر القصة
٢٠	ثالثاً : أهداف القصة

الباب الأول

القصة فى القرآن الكريم

٢٥	تمهيد
	الفصل الأول : أنواع القصة فى القرآن الكريم . عناصرها وأغراضها
٣٠	أولاً : أنواع القصة فى القرآن الكريم
٣٠	(١) القصة التاريخية
٣٩	(٢) القصة الواقعية
٤٢	(٣) القصة التمثيلية
٤٦	(٤) القصة العاطفية
٥٥	(٥) القصة الرمزية
٦١	ثانياً : عناصر القصة فى القرآن الكريم
٦٢	الأحداث

الموضوع	الصفحة
الزمان في القرآن الكريم	٦٨
العنصر المكاني	٧٨
(٢) الشخصيات	٩٠
(٣) الحوار في القصص القرآني	١١١
أغراض القصص القرآني	١٢٢
الفصل الثاني :	
الخصائص اللغوية والأسلوبية	١٤٢
أولاً : الخصائص اللغوية	١٤٤
الحروف وأصواتها	١٤٦
الكلمات وحروفها	١٥٠
الجمل وتركيبها	١٦٨
ثانياً : الخصائص الأسلوبية	١٨٢
أ - التقديم والتمهيد لعرض القصة	١٨٣
ب - الفجوات بين المشهد والمشهد	١٨٩
ج - التصوير الفني	١٩١
الفصل الثالث :	
القصة بين الإكمال والتوزيع في القرآن الكريم	
توزيع القصة في القرآن الكريم : منهجه وأسلوبه	١٩٣
القصة الكاملة في القرآن الكريم	٢١٨
الباب الثاني	
<u>القصة في التوراة</u>	
مقدمة	٢٣٥
الفصل الأول : أنواع القصة في التوراة . عناصرها وأغراضها	٢٤٠
أولاً : أنواع القصة في التوراة	٢٤٠

تابع / الفهرست

الصفحة	الموضوع
٢٤٠	(١) القصة التاريخية
٢٤٨	(٢) القصة السبئية
٢٥٣	(٣) قصص المعجزات
٢٥٩	(٤) القصص الأخلاقية
	عناصر القصة فى التوراة :
٢٦٦	أولاً : الأحداث
٢٨٦	مراحل الحكمة
٣٠٠	الزمان والمكان
٣٢٠	الشخصيات
٣٢٩	الحديث
٣٣٣	الأعمال
٣٤٥	أغراض القصص فى التوراة
	الفصل الثانى :
	الخصائص المميزة للقصة فى التوراة
٣٤٨	الخصائص اللغوية والأسلوبية
٣٤٩	الجرس الصوتى
٣٥٠	تكرار الجرس الصوتى
٣٥٢	الإيقاع
٣٥٣	دلالة الكلمة
٣٥٦	الترادف
٣٥٧	الاستعارة
٣٥٧	التشبيه
٣٥٨	التكرار
٣٦٢	تركيب الجملة

الموضوع _____ تابع / الفهرست

الصفحة

الموضوع

الفصل الثالث :

٣٧٢	توزيع القصص في التوراة
٣٧٣	أولاً : القصة الواحدة القصيرة
٣٨٨	ثانياً : المجموعة القصصية
٣٩٦	ثالثاً : القصة الطويلة

الباب الثالث

الدراسة المقارنة

٤١٤

مقدمة

الفصل الأول :

٤١٦	موضوع القصص بين القرآن الكريم والتوراة
٤٢٦	وَحْدَةُ القصة وَوَحْدَةُ السفر

الفصل الثاني :

٤٨١	الإعجاز في قصص القرآن الكريم والتوراة
٤٨١	أ - مفهوم الإعجاز في القرآن الكريم والتوراة
٤٩٣	ب - الإعجاز القصص في القرآن الكريم
٥٠٧	ج - العنصر البشري في التوراة

٥٢٧

الخاتمة

٥٣٤

المصادر والمراجع

المقدمة

من السمات الطيبة التي تحمد للإسلام والمسلمين أنه قد أعطى للعقل حريته ، وأمدّه بوسائل عديدة تعينه على أن يميز الخبيث من الطيب ، ومنحه دائماً أدوات التفوق والنبوغ . وصدق الحق تبارك وتعالى حين قال في كتابه الكريم : " عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ " .

ولقد كانت القصة القرآنية بمضامينها ، وتنوع وسائلها ، وإعجاز أسلوبها ، وعفيف ألفاظها واحدة من تلك الأدوات التي هياها القرآن الكريم لأصحاب العقول الواعية ، ليتعرفوا من خلالها على سنن الأولين ، وعلى ما سبقتهم به الأديان السابقة للإسلام ، ويكتشفون عن طريقها مدى تحريف المحرفين لمقدساتهم ، وتزييفهم لها .

ومن هنا ، كان حرصنا أن نتوصل من خلال دراستنا للقصة بين القرآن الكريم والتوراة إلى تحديد ما هو من الوحي الإلهي وما هو دخيل عليه من فعل النقلة والنساج لنصوص التوراة ، مستخدمين في ذلك أدوات البحث العلمي سالكين طريق المقارنة الموضوعية والشكلية لنصوص التوراة الحالية بما ورد في القرآن الكريم عن اليهود وأنبيائهم .

وحتى لا تختلط الأمور على البعض من أنه لا يجوز وضع نص إلهي في كفة ميزان المقارنة مع نص أثبت البحث العلمي الحديث - وبأقلام من يعتنقون اليهودية ومن يؤمنون بها من المسيحيين - أنه نص كُتب بأيدي بشرية تعددت مصادرها . نقول حتى لا ندع مجالاً للمتشككين نود أن نشير هنا إلى :

أولاً : أن القرآن الكريم كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن الله تكفل بحفظه : " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " .

ثانياً : أن القصص في التوراة قد تكون موضوعة أو محرفة كما جاء في القرآن الكريم ، وكما ثبت علمياً وبأيدي اليهود أنفسهم .

شالاً : أن الدراسة قد انصبّت حول الرؤية العامة والنظرة الكلية فى المقارنة بين قصص القرآن الكريم وقصص التوراة وذلك للوصول إلى موقف موضوعى يهدف إلى تثبيت اقتناع المسلم بعقيدته ، وإلى مزيد من البحث والدراسة لدى غير المسلمين لما بين أيديهم من نصوص يدعون قدسيتها علّها تفتح أمامهم أبواب الإيمان الحق .

ومن ثمّ فهذا المعنى فى الدراسة المقارنة - غير وارد - وإنما تتعدى المقارنة هذا المعنى إلى أطر أخرى تتعلق بالدراسة الفنية .

ويجب أن نعترف أن الموضوع بالغ الصعوبة والحساسية ، فهو صعب حيث أنه يتناول جانباً يتعلق بعقيدة دينية غير عقيدة الإسلام ، وهو حساس لأنه يتناول أشياء دقيقة جداً تتعلق بسيرة الأنبياء وحياتهم ورسالتهم ، الأمر الذى تنحى له الهامات تعظيماً وتبجيلاً من قبل الجميع ، وبناء على ذلك نشير إلى أننا سوف نلتزم فى بحثنا بالرجوع إلى الأصول المتعارف عليها فى تراثنا العربى الإسلامى .. لذا كان تقسيمنا لهذا البحث على النحو التالى :

مدخل إلى البحث :

وهو مدخل تمهيدى لابدّ منه قدمت فيه تمهيداً موجزاً لدراسة الأدب القصصى عامة ، آثرت أن اتبع فيه النقاط التالية :

أولاً : القصة وتطورها العام : تحدثت فيها عن نشأة القصة وتطورها فى الأدب بصفة عامة ، ثم فن القصة عند العرب خاصة .

ثانياً : عناصر القصة وخصائصها : وفيها تعرضت لتعريف القصة ، ثم عناصرها من أحداث وشخصيات وزمان ومكان وعقدة وحل ..

ثالثاً : أهداف القصة : أوضحت فيها أهم أهداف القصة وذلك لارتباط هذه الأهداف بالأصول الفنية الخالصة فى الإبداع القصصى .

وقد أفاد هذا المدخل كثيراً فى توضيح الدور العظيم للقصة من حيث اهتمامها بمشكلات الإنسان وعصره ، حيث يمدح فيها الإنسان ، لا على أنه أنموذج

عام يصلح لكل عصر وبيئة ، ولكن على أنه مخلوق حي ذو جوانب نفسية متعددة .
ثم انتقلت بعد ذلك إلى الباب الأول وموضوعه : القصة في القرآن الكريم :

وقد قسمت هذا الباب إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : وعنوانه : أنواع القصة في القرآن الكريم . عناصرها وأغراضها

وقد تناولت فيه الفروق اللغوية بين القصة والخبر والنبا والحديث ،
والتي كانت مستخدمة في القرآن الكريم كثيراً وإن كان قد فرق بينها في
المجال الذي استعملوا فيه جرياً على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام
وإعجاز . ثم انتقلت بعد ذلك إلى عرض أنواع القصة في القرآن الكريم وبيّنت
فيه أن القرآن استخدم - في أغراضه الدينية - كل أنواع القصة : القصص
التاريخية والقصة الواقعية والقصة التمثيلية والقصة العاطفية والقصص
الرمزية أو الإيجابية كقصة هبوط آدم من الجنة وذلك لما تحمله في جوهرها
من إحياءات نفسية .

ثم انتقلت بعد ذلك إلى عرض عناصر القصة في القرآن الكريم ومن خلال
عرض هذه العناصر ، اتضح لنا أن عناصر الأحداث والأشخاص والحوار والزمان
والمكان لا توجد مجتمعة في كل قصة قرآنية وموزعة التوزيع الذي يجعل لكل
عنصر منها قيمته وخطره في القصة بحيث لو اختفى لاختل التوازن الفني وانهد
ركن من أركان البناء ، والحقيقة أن ذلك ربما يرجع إلى أن توزيع العناصر
في القصة القرآنية كان يتبع الغرض الديني حيث نرى أن عنصر الأحداث هو
العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصد منها إلى التخويف والإنذار ، وعنصر
الأشخاص هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصد منها إلى الإفاضة والإحياء
أو تثبيت المؤمنين ، وعنصر الحوار هو العنصر البارز في الأقاصيص التي
يقصد منها إلى الدفاع عن الدعوة الإسلامية والرد على المعارضة وهكذا ..

ثم انتقلت بعد ذلك إلى أغراض القصص القرآني مبيناً المكانة العظيمة
للقصة القرآنية وقيمتها في التوجيه النفسى ، وفي الهداية إلى الحسنى
والطريق المستقيم .

أما الفصل الثاني من هذا الباب فقد جعلته للحديث عن :
الخصائص اللغوية والأسلوبية .

ومن خلال هذه الخصائص يتضح الكمال في الأداء بلا تغيير ولا اختلاف من مستوى إلى مستوى ، حيث يحمل طابع الصفة الإلهية ويدل على الصانع السدي لا يتغير من حال إلى حال وقد بينا أن أهم الخصائص اللغوية في القصص تدور حول جهات ثلاث : في الحروف ، والكلمات والجمل ، أما الخصائص الأسلوبية فقد عرضت لها من زاوية التركيب الأدبي للعناصر القصصية وما له من تأثير نفسي وفني على القارئ .

ونأتي بعد ذلك إلى ختام فصول هذا الباب وهو :

القصة بين الإكمال والتوزيع في القرآن الكريم : حيث لاحظ الدارسون والباحثون للقصة القرآنية أنه لا يلتزم فيها بالسرد القصصي ولكن يلتزم فيها بالوصول إلى الغاية من القصة ووفقاً لذلك نرى من القصص القرآنية ما تقدم كاملة الأحداث والمواقف في معرض واحد - كما في قصة يوسف - ومنها ما تقدم في حلقات ، يخص بكل حلقة منها معرض يتطلب هذه الحلقة من القصة فحسب ولذلك تعرضت في هذا الفصل إلى نقطتين : الأولى : توزيع القصص الواحدة في القرآن الكريم ومثلنا على ذلك قصة موسى ، وقصة إبراهيم ، وبعد أن بينت وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسي في هذين القصتين ، انتقلت إلى عرض النقطة الثانية وهي :

القصة الكاملة في القرآن الكريم : أي القصة التي وردت في حلقة كاملة في موضع واحد في القرآن الكريم نحو ما كان في قصة يوسف عليه السلام ، وبيّنت أن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء ، فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً ، ويوماً بعد يوم ، ومرحلة بعد مرحلة ، فلا تتم العبرة بها - كما لا يتم التنسيق الفني فيها - إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها .

وننتقل بعد ذلك إلى :

الباب الثاني : وموضوعه " القصة فى التوراة "

وقد قسمت هذا الباب بدوره إلى ثلاثة فصول :

/ الفصل الأول وعنوانه : أنواع القصة فى التوراة . عناصرها وأغراضها
حيث عرضت فيه أنواع القصة فى التوراة وبيّنت أن القصة فى التوراة
قد تنوّعت حسب ما يتطلبه الغرض منها فهناك القصة التاريخية ، وهى النوع
السائد فى التوراة حيث تهتم بتاريخ الآباء والأنبياء ، وهناك القصة السببية
حيث تهدف إلى توضيح وتبرير الموقف فى الزمن الحالى أكثر من تعلم العبرة
مما حدث فى الماضى . ثم قصص المعجزات وهى التى تظهر قوة الرب وسلطانه
على الطبيعة ، ثم القصص الأخلاقية التى تحمل بوجه عام عظة أخلاقية وتوجيهاً
دينيّاً ، ثم انتقلت إلى الحديث عن عناصر القصة فى التوراة من أحداث
وزمان ومكان وشخصيات وحوار .

أما الفصل الثانى من هذا الباب فتحدثت فيه عن أهم الخصائص اللغوية
والأسلوبية فى قصص التوراة تعرضت فيه إلى تركيب الجملة القصصية وروابطها
مثل واو التتالى ، ثم تحدثت عن أسلوب البناء القصصى فى التوراة .

أما الفصل الثالث فتحدثت فيه عن توزيع القصص فى التوراة ، حيث
قسمت القصص فى التوراة إلى ثلاثة أنواع ، من قصة منفردة قصيرة إلى مجموعة
قصصية تتكون من عدة قصص تربطها وحدة الشخصية ، ثم القصة الواحدة الطويلة .
ومن خلال عرض هذه الأنواع أظهرت الترابط بين هذه الأنواع وكيفية تطورها .

نأتى بعد ذلك إلى ختام أبواب هذا البحث وهو :

الدراسة المقارنة

وهو يتضمن فصلين ، جعلت الفصل الأول فيه للحديث عن : موضوع القصص
بين القرآن الكريم والتوراة : وقد آثرت فى هذا الفصل أن أبحث المواقف
العامة من القصص وروية القرآن والتوراة لها ، وذلك حتى لا يعتقد أنى أسوى
بين القرآن الكريم والتوراة ، ولذلك كان من المفيد عرض مقارن لعدة قصص
فى القرآن والتوراة لنكشف مدى خداع التشابه بين القصصين .

أما الفصل الثانى من هذا الباب فقد جعلته للحديث عن تقطيتين
متناقضتين :

الأولى : الإعجاز فى القصص القرآنى .

والثانية : العنصر البشرى فى التوراة .

وذلك حتى تكتمل أهداف البحث وأغراضه من توجيه الوعى الإسلامى الوجهة
الرشيدة فى القيام برسالته الأدبية الإنسانية .

وقد أنهيت هذا البحث بخاتمة تتضمن أهم ما أمكن التوصل إليه من
نتائج أرجو أن أكون قد وفقت إليها ، وحسبى أننى اجتهدت فإن كنت قد
أصبت فذلك فضل من الله وإن كانت الأخرى فحسبى قول الرسول الكريم صلى الله
عليه وسلم : " من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر
واحد " .

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبالله التوفيق {

الباحث

مدخل إلى البحث

- أولاً : القصة وتطورها العام
- ثانياً : عناصر القصة وخصائصها
- ثالثاً : أهداف القصة

مدخل إلى البحث

لا شك أن الأنواع الأدبية تتطور من عصر إلى عصر ، وقد يتولد بعضها من بعض ، فيظهر نوع أدبي جديد لا سابقة له في الظاهر ، لكن التعمق في دراسته يكشف عن أنه قد نشأ من نوع آخر مغاير له ، كما في نشأة الأقصوصة عن المثل .

إن الفن الأدبي بأنواعه كافة هو مرآة تعكس التغيرات اللغوية أو الاجتماعية أو السياسية لعصر من العصور ، ولا يعنى هذا أن الفن محاكاة للواقع الطبيعي كما هو عليه ، بل هو محاكاة نقدية لهذا الواقع تظهر من خلالها موقف الفنان ومدى تأثره بالطبيعة ، ومن ثم تصبح القصة عرضاً لفكرة مرت بخاطر الكاتب أو تسجيلاً لصورة تأثرت بها مخيلته ، أو بسطاً لعاطفة اختلج في صدره ، فأراد أن يعبر عنها بالكلام ليعل بها إلى أذهان القراء ، ومن هنا يمكننا القول بأن المشهد القصصى الذى يصوره القاص هو عبارة عن مشهد واقعى صور فى أسلوبه التعبيرى وطريقة حدسه هذه الصورة المشاهدة فى الطبيعة .

وحتى نسير على الطريق الصحيح فى دراسة القصة فى القرآن الكريم والتوراة ، آثرنا فى هذا المدخل أن نقدم تمهيداً موجزاً وافياً لدراسة الأدب القصصى عامة ، تتبعنا فيه النقاط التالية :

- أولاً : القصة وتطورها العام .
- ثانياً : عناصر القصة وخصائصها .
- ثالثاً : أهداف القصة .

أولاً : القصة وتطورها العام

كيف نشأت القصة ؟

يقول د. محمد حسين هيكل : " من اليسير أن يقدر الإنسان قدم القصص ، وأنه نشأ مع الإنسانية منذ نشأت " (١) "القصة تقال في كل مكان ، بين الشعوب البدائية ، وعند أشد الأمم رقياً ، ولو أنها في الحالة الأولى تفتقد نية القيام بعمل فني " (٢) .

" إن الحياة من أولها إلى آخرها قصة تتكرر في صور مختلفة باختلاف الأفراد ، واختلاف الأزمنة والأمكنة التي يعيشون فيها .. ويكفي أن نرجع إلى التاريخ الديني ، وإلى الكتب المقدسة نفسها ، فهذا التاريخ يقص على الناس من أخبار من تقدمهم ما فيه موعظة وعبرة ، والتاريخ نفسه ليس إلا قصصاً يسبغ عليه كل مؤرخ من خياله ما يسبغ على حياته قوةً وفيضاً .. ولذلك كثيراً ما يلجأ المؤرخون إلى ما كتب في عصر من العصور من قصص ، وما وضع أهله من رسائل يستلهمون هذه الصور الحية من فنون الأدب ليرسموا صورةً صحيحةً .. هذه الصلة الوثيقة بين القصص والتاريخ هي التي جعلتنا نستشهد بالتاريخ الديني للدلالة على قدم القصة ، كذلك مما جعلنا نستشهد بهذا التاريخ أنه لم يروى من قصص السابقين بقصد تحقيق وقائعها وتدوين تفاصيلها ، وإنما رواها عبراً ومزدجراً ، والرواية للعبرة والزجر تقتضي إختصار وقائع معينة من حياة من سبقوا يكون فيها موضع العبرة ، كما تقتضي صياغة هذه الوقائع في الأسلوب القوي الذي يدخل العبرة إلى النفس ولو كانت بطبيعتها جامدة .. من أن تفهمها " (٣) . ولا جدال في وجود أنواع أدبية تدور في فلك القص والحكمى ، كالحكاية الشعبية والملحمة والخرافة ، والأسطورة ، ومن هذه الألوان فن القصة الذي نحن بصددده .

- (١) د. محمد حسين هيكل : ثورة الأدب ، ص ٦٩ ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٧٨ .
- (٢) د. الطاهر أحمد مكي : القصة القصيرة ص ٧٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١٩٨٥ ، ٤ .
- (٣) د. محمد حسين هيكل : ثورة الأدب ، ص ٧٠ .

تطور الفن القصصى :

ينظر العلماء إلى تطور القصة من زاويتين : أولهما تطور مفهوم القصة في الآداب العالمية تطوراً تضافرت فيه الآداب جميعاً ..
وثانيهما تطورها في الأدب العربى ..
أولاً : تطور القصة في الآداب العالمية :

القصة في نشأتها الطويلة - كانت تختلط فيها الحقائق الإنسانية بالأمور الغيبية ، ولذلك عندما نتحدث عن نشأة القصة ، علينا أن ننتبه إلى الأدب ذا الطابع القصصى في مطلع ما نطلق عليه تجاوزاً القصة ، والأدب القصصى ، فالملحمة على سبيل المثال تمثلت فيها - منذ نشأتها - عناصر مسرحية ففى إنشادها ومواقفها ، وكان فيها كذلك عنصر قصصى ، كما كان يفهم من معنى القصة في القديم ، فوجدت في الملحمة عناصر مهدت للنشر القصصى الخيالى فى الأدب اليونانى (١) .

ثم ظهر النشر القصصى أول مظهر ، فى الأدب اليونانى فى القرن الثانى والثالث بعد الميلاد ، وتمثل النموذج العام لأحداث هذه القصص فى افتراق حبيبين تفصل بينهما أخطار مروعة ، ومنافسات خطيرة ، يفلتان منها بطرق عجيبه غير مألوفة ، ثم تختم ختاماً سعيداً بالتقاء الحبيبين .. أما فى الأدب الرومانى ، فقد ظهرت القصة - أول مظهرت - فى أواخر القرن الأول بعد الميلاد على نحو مخالف للقصة اليونانية ، فى بادئ الامر ، كما يتجلى ذلك

(١) وقد تمثلت هذه العناصر عند "هوميرس" فى ربطه "داعية الالم Pathos" (وهى الفعل الذى يهلك أو يؤلم ، وما إلى ذلك مما تسوقه المصائر ويكون مشار الرحمة) بالمخاطر التى قامت بها الشخصيات فى "الأوديسيا" ، وقد مهد كذلك للقصصى الخيالية النثرية - ما قام به شعراء المأسى اليونانية منذ "يوربيدس" من ربطهم العنصر العاطفى بالأحداث التى يسوقونها ، غيبية كانت أم إنسانية .. ومن جهة أخرى عمد المؤرخ اليونانى "كسينوفون Xonophon" إلى خلط الخيال بالتاريخ فيما يشبه القصة ، فى تأريخه لملك الفرس "كورشن" فى كتابه "كوربيديا" ..

انظر: د. محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ، ص ٤٦٤ - ٤٧٠ بتصرف ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

فى قصة "ساتيريكون" التى أُلغها "بترنيوس"، ثم تأثرت بالقصص اليونانية، وأشهر القصص التى يمثل بها لذلك التأثر قصة "أبوليوس" فى مسخ الإنسان إلى حيوان ثم إعادته إلى حاله الأول (١).

أما القصص فى الآداب الأوروبية منذ عصر النهضة، فقد نشأت وتمت معتمدة على ماوصل إليها من التراث الشرقى والأدب اليونانى والرومانى، وتأثرت كذلك بالروح المسيحية، وفى هذا العصر، كذلك، سبقت قصص المخاطرات غيرها من القصص، وكثيرا ما اعتمدت على الاساطير والجنيات وخوارق العادات... وقد تأثرت القصص فى أوروبا - منذ عصر النهضة بملاحم العصور الوسطى ومازخرت به من معانى البطولة، ولكنها نزعته إنسانية أوضح من ذى قبل، فظهرت "قصص الفروسية" التى اتسمت بطابع المثالية فى الوصف، ثم ظهرت بعد ذلك "قصص الرعاة" وهى وصف خيالى لعالم الرعاة والراعيات؛ على أن هذا النوع من القصص قد تقدم على غيره خطوات نحو الواقع، إذ جنح الكتاب فيه إلى وصف أماكن واقعية فى بلادهم جعلوها مجال الحوادث، التى دارت بين أبطال قصصهم... وفى القرن السادس عشر والسابع عشر، ظهر فى الأدب الإسباني جنس جديد من القصص وهو "قصص الشطار"، وهى قصص العادات والتقاليد للطبقات الدنيا فى المجتمع - وفيها مخاطرات يقصها المؤلف على لسانه كأنها حدثت له: "Picaresca"، وهى ذات صبغة هجائية للمجتمع ومن فيه، وقد كان لهذا النوع من القصص، الفضل فى خلو القصص من العناصر الخارقة للمألوف، وفى اتخاذ حوادث الحياة العادية أساساً للموضوعات القصصية، فأخذت القصة تتخلص من تأثير الملاحم، وتلقى أضواءً على حياة الطبقات الدنيا من الناس، وإن ظلت الناحية الفنية متخلفة فى هذه القصص، فكان سرد الأحداث يكاد يستأثر بعناية المؤلف كلها، والتحليل النفسى يكاد يكون مهملًا فى هذا النوع من القصص بعامة، ويكثر فيها الاستطراد، وترتيب

(١) من المعروف فى الملاحم القديمة مسخ الإنسان إلى حيوان أو شجرة أو حجر . وقصة "أبوليوس" عنوانها "الحمار الذهبى" وفيها تم مسخ "لوسيوس" إلى حمار ثم مودته إلى حالة الإنسان على يد كاهن للإلهة "إيزيس" .
انظر: د. محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث . ص ٤٦٧ . هامش ٢ .

الأحداث ترتيباً زمنياً لا رابطة فنية فيه ، وكثيراً ما يتدخل المؤلف لنفسه مباشرة في قصته ليشرح غاياتها التربوية والخلقية .. ثم تأثرت القصة بازدهار الكلاسيكية في القرن السابع عشر ، فدعا كثير من النقاد إلى أن تكون حوادث القصة ممكنة محتملة في سياقها لتتجرد من آثار مافوق الطبيعة ... ومع نهوض المسرح الكلاسيكي تطلعت القصة إلى التحليل النفسي ، ثم ظهرت اتجاهات حديثة أخرى في أواخر القرن الثامن عشر ، فعنى الكتاب بالفرد ونزواته ومثله ، وجعلوا منه وحدة الإصلاح في مجتمعهم ، وكانت هذه قضية من أخطر قضايا الرومانتيكيين ومن أتى بعدهم .. ثم قام المذهب الواقعي ثم الطبيعي على أنقاض المذهب الرومانتيكي ، فقرّبت القصة من الواقع ، وأصبح الكاتب يتبع في قصته الواقع على حسب منهج في البحث منظم استقصائي يجمع فيه معارفه باطلامه على وقائع الحياة اليومية الفردية والاجتماعية ويرتب هذه الوقائع لتكون مجالاً يحرك فيه شخصياته (١).

ومنذ "الواقعية" و"الطبيعية" اكتمل مفهوم القصة الحديث ، بعد أن خطا الخطوات التي أوجزنا القول فيها ، فتخلصت أولاً من العالم الغيبي والقوى العجيبة التي كانت تدينها من الملاحم ، ثم من العالم المثالي الذي كانت تبعد فيه عن الواقع والمألوف ، ثم من العالم الأرستقراطي الذي كانت تهتم فيه بطبقة خاصة هي الذروة من المجتمع ولا تمثله ، ثم لم تكتف بعد ذلك بالنزول إلى أغوار المجتمع لتسير مشكلاته ، بل غاصت كذلك في الجوانب المظلمة ، جوانب السوء في الأفراد والجماعات من أجل إصلاحها وعلاجها .

فن القصة عند العرب :

انقسم الباحثون عند تعرضهم لتأصيل فن القصة عند العرب. فمنهم من يرى أن العرب عرفوا فن القصة ، ومنهم من يرد هذا الفن إلى أوروبا ، ومن هؤلاء الذين أنكروا على العرب معرفتهم لفن القصة : "إسماعيل أدهم ، وإبراهيم ناجي" في كتابهما عن "توفيق الحكيم" حيث قالوا : "إن الذهنية العربية تنقصها

(١) د. محمد مننيمى هلال : النقد الأدبي الحديث ، ص ٤٧٧ - ٤٧٨ .

الطاقة إلى التجرد من الذاتية ، وجعل الظواهر الموضوعية في طبيعتها الموضوعية ، فمن هنا كان الفن العربي مظهرًا لتفتح ذاتية الفنان على نفسه ، ومن هنا كان في أغراضه فردية ، لأن الفنان يعيش في خطاره ، ولا تتجلى لــــه الأشياء في تطورها التاريخي ، ولهذا كانت القصة والمسرحية غريبة على فن العرب " ، ويصل إسماعيل أدهم إلى تسويغ نشأة القصة في الأدب العربي بقوله : "لم تنشأ القصة والأقصوصة في الأدب العربي الحديث من أصل عربي قديم كالمقامات والقصص الحماسية كما يظن البعض ، إنما نشأ فن القصص مترمرمًا في الأدب العربي الحديث تحت تأثير الآداب الأوروبية مباشرة " (١) .

ويقول "محمد غنيمي هلال" : "إن القصة لدى العرب لم تكن من جوهر الأدب كالشعر والخطابة والرسائل مثلاً ، ولذا كانت ميدان الوعاظ ، وكتّاب السير والوصايا ، والسمار ، يوردونها شواهد قصيرة على وصاياهم وما يذكرون من حكم ٠٠٠٠ ويقول : لو أننا عدنا مثل هذه الحكايات قصصاً لكانت القصص أقدم صورة للأدب في العالم لأن كل الشعوب الفطرية تسمر على هذا النحو البدائي" (٢) .

ويأخذ بعض الأدباء على القصة العربية القديمة "إنها لم تعن حق العناية بتصوير ملامح الأشخاص ، وسمات الهيئات ، وإن كانت لتتم عن كثير من صفات النفس وطباع الفطرة" (٣) . وعلى الجانب الآخر يقول "محمود تيمور" : "أكاد أزعم أن الأمة العربية لا ينافسها غيرها فيما صاغت من قوالب للتعبير عن القصص والأشعار به ، فنحن الذين قلنا من غابر الدهر : "قال الراوي" ، و"يحكى أن" ٠٠٠٠ و"كان ياما كان" ٠٠ إلى آخر تلك الفواتح التي يمهدها القصص العرب في مختلف العصور لما يسرد من أقاصيص" ٠٠ وفي رده على إنكار فن

(١) ملى شلش : في عالم القصة ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٢) د. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، ص ٤٩٢ .

(٣) علي النجدي ناصف : القصة في الشعر العربي إلى أوائل القرن الثاني الهجري ص ٤ - ٥ ، دار نهضة مصر ، بدون تاريخ ، وانظر : القصة العربية القديمة ، للأستاذ محمد مفيد الشوباشي ، ص ٥٨ .

القصة عند العرب يقول: " سارعنا إلى الإنكار على الأدب العربى أن فيــــه قصة، وماكان ذلك الإنكار إلا لأننا وضعنا نصب أميننا القصة الغربية، فــــى صياغتها الخاصة بها، وإطارها المرسوم لها، ورجعنا نتخذها المقيــــاس والميزان ، وفتشنا عن أمثالها فى أدبنا العربى ، فإذا هو قد خلا منهاــــ أو يكاد ، وشدّ ما أخطأنا فى هذا الوزن والمقياس ، فللأدب العربى قصــــى ذو صبغة خاصة به ، وإطار مرسوم له ، وهو يصرّ نفسية المجتمع العربى، فلا يقصر فى التصوير ، وإنما لنشهد فيه سماتنا وملامحنا واضحة، وكأننــــا لم نلفد فى مجتمعنا العربى - حتى اليوم - مايكشف عنه ذلك القصصــــى ملامح وسمات ، على الرغم من تعاقب العصور وتطاول الأمداد ، وهو فى جوهره وثيق الصلة بالوشائج الإنسانية التى هى جوهر القصص الفنى ، وإن تباينت الصياغة واختلف الإطار " (١).

والحق أنه كان للأرض التى نبتت العرب فيها، وعاشت عليها، وللعقيدة التى تدين بها عمل فى تحديد حظها من الخيال ، وتعيين نمطها من القصص القديم . فأما الأرض فذات طبيعة يغلب عليها السكون والاستقرار ، لا تأخذها أماسير جائحة ، ولا براكين شائرة ، ولا زلازل راجفة ، سماؤها صافية ، وكواكبها بادية مستقرة ... وأما العقيدة فوثنية يسيرة ، لكنها غالبة ، تعبد الإله الذى اتخذته من دون الله رباً ، فتختمه بالعبادة ، أو تتقرب به إلى الله زلفى . لاتعرف آلهة تتقسم الكون ، وتتوزع السلطان وأسرار الغيب .. فكان لذلك خيالها قصير المدى ، قريب المتناول ، كأنه لقطات الطائر ، أو خفقات الريح ، يستطيع أن يحكى وينسق ، وأن يصور ويبدع ، ولكن فى غير تهويل ولا استرسال مع الأوهام والخرافات ، عينه على الواقع ، ومذاهبه دائماً على هداه . إن هى إلا أحداث تصاق ، ومشاهد تعرض فى مسورة غول ، أو توهم جن ، أو أخذ عن رثى كاهن ، أو شيطان شاعر ، أو حوار ذى مغزى من الحكمة والموعظة يدور على ألسنة الحيوان ، أو مايشابه ذلك من جوانب الحياة فى المجرأ . (٢)

(١) محمود تيمور : دراسات فى القصة والمسرح ، ص ٦٥ ، المطبعة النموذجية ، القاهرة بدون تاريخ .
(٢) على النجدى ناصف : القصة فى الشعر العربى ، ص ٤ .

ولاشك أن الأدب الجاهلى كان يَصوِّر الحياة والإنسان فى العصر الذى كان ملدمة مقصودة لنزول القرآن الكريم بالعربية دون سواها؛ " فإذا كان القرآن الكريم هو صاحب الفضل فى صمود هذه اللغة وازدهارها وبقائها حية متطورة ، فإن الشعر الجاهلى كان مفتاحاً هاماً لدى الباحثين والدارسين فى مدارة النص القرآنى والغوص وراء أسرارهِ العليا " (١)

وفى هذا الصدد يقول " طه حسين " : " إن الامة العربية فى جاهليتها وإسلامها - وما أعقبهما من عصور أدبية زاهية - كانت تتمتع بحياة نقدية راقية ، والدليل على ذلك مابلغته الأمة حينذاك من الفصاحة والبلاغة " . ويقول : " ولدينا أبلغ دليل على تمكنهم من الفهم والنقد وهو نزول القرآن فيهم بهذا المستوى الرفيع من الإعجاز " (٢) .

والقرآن الكريم اصدق المصادر فى الإنباء عن حياة العرب باتفـاق الموافقين والمخالفين ، فإذا حدّثنا القرآن بشيء عن العرب أخذناه أخذ الواثق بصحته ، المظمئن إلى صدقه ، ثم نتتبع مقالات التاريخ والأدب ، ونمحـص منها ما يغلب على الظن صدقه حتى نصل إلى نتيجة علمية واضحة ، فقد وصف القرآن الكريم العرب بالفصاحة ، وذراية اللسان ، فقال فى قوم اظهروا الإيمان والودادة ، وأضـمروا الكفر والعداوة : " أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ " (٣) .

ونعتهم بالطول فى البلاغة فقال : " وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ " (٤) .

(١) د. محمد أبو الانوار : من قضايا الأدب الجاهلى ، ص ٨٠٣ مكتبة الشبيـاب . القاهرة ، ١٩٧٦ .

(٢) المرجع السابق ، عن : البيان سنة ١٩١١ ، مقال " الانتقاد " لـ طه حسين .

(٣) سورة الأحزاب من آية ١٩ .

(٤) سورة البقرة آية : ٢٠٤ .

وخصمهم بالتفوق في البيان فقال : " وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ
وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ " (١).
ووسمهم بقوة العارضة والدهاء ، إذ قال : " وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ
اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ " (٢).
وسجل عليهم اللدد في الخصومة ، والجدل في المحاوراة بقوله : " وَقَالُوا
لَهُ لَهْتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا هَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ " (٣) ، ويقولون :
" فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِنُهُ يَلْسَانُكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا " (٤).
وذكر عنهم أنهم أولو أحلام ونهى فقال : " أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا
أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ " (٥).

والحقيقة أن الطبيعة والعقل توحيدها أن الجاهليين كان لهم نشر
أدبي ، فليس هناك مانع يجعل ذلك مستحيلاً أو معدوماً ، وإذا كان لهم شعر
فلا بد أنه كان لهم نشر يتحلل فيه القائل من قيود الشعر التي قد تقصف
أمام الأديب فلا يستطيع أن يلتزمها ، وقد تحداهم القرآن بأن يأتوا بمثله
أو بعضه ، والقرآن الكريم ليس شعراً ، والتحدى لا يكون له معنى إلا إذا كان
في الناحية التي يزعم المتحدى أن له فيها نبوغاً ، ويدعى لنفسه عليها
قوة واقتداراً ، ومن ثم لابد أن الله قد أعجز أمة ذات قدرة فائقة على
النشر (٦).

إذاً ، هل كانت تلك الأوصاف كلها ، وهذا التحدى للعرب ، وهم فارغون
من أدب يغذى عقولهم ، ويربى نفوسهم تربية أدبية تقوم على التفاح بمسا
يخلب الألباب ويستميل الأسماع ، من منطق حسن وكلام بليغ ، وبيان بديع في فنون
من المعارف الإنسانية الأدبية يستحقون بها تلك الأوصاف (٧).

(١) سورة المنافقون: من آية ٤ .

(٢) سورة إبراهيم : آية ٤٦ .

(٣) سورة الزخرف : آية ٥٨ .

(٤) سورة مريم : آية ٩٧ .

(٥) سورة الطور: آية ٣٢ .

(٦) د. علي الجندي : في تاريخ الأدب الجاهلي ص ٢٥٨ ، دار المعارف ، القاهرة ،
سنة ١٩٨٤ .

(٧) صادق إبراهيم عرجون : الحياة الأدبية عند العرب قبل الإسلام ، بينى وبينى
الأستاذ محمد فريد وجدي ، ص ١٨ - ١٩ ، مطبعة الإرشاد ، القاهرة ، سنة ١٩٣٦ .

ثانياً : عناصر القصة وخصائصها

إن كل دراسة نظرية ، رغم تحاشيها لمعوقات التحديدات النظرية ، تنطلق من مجموعة من المسلمات النظرية التي تحتاج إلى كثير من التأمل والتمحيص ، وتؤدي بغموضها إلى تسطيق الدراسة التطبيقية . . . ودراستنا هذه لا تزعم لنفسها القدرة على تقديم تعريف نظري شامل لمصطلح القصة الذي يغطي القصة بكل خصائصها الفنية ، ولكني أسلم من البداية أن أي فن إبداعي حقيقي يستعصى بطبيعته على التعريفات الجامعة المانعة ، وبإني أن تحتويه أية قوالب جامدة . . ولكنها تطمح كأي محاولة في النقد النظري إلى استقرار واقع القصة ، وإلى تقصي بعض خصائصها البنائية والجمالية ، ومن ثم فإنها لاتدعى طرح أية نظريات شاملة في هذا المجال ، ولا حتى محاولة الوصول إلى تعريف لبعض عناصر العمل القصصي الأساسية ، وإنما همها هو التعرف على ملامح هذه العناصر ، وطبيعة عملها داخل العمل القصصي ، حتى تمهد الطريق أمام البحث في تحديد مفهوم القصة القرآنية ، والقصة في التوراة ، وتحديد أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما .

٢ - تعريف القصة :

القصة : "فن قولى درامى ، يسعى إلى خلق عالم إبداعي مواز في علاقاته للعالم الواقعي الذي يعيشه القصاص ، من خلال تجارب الفكر ، أو تجارب العاطفة أو تجارب الخيال" (١) .

أو بمعنى آخر القصة هي " التعبير عن الحياة ، بكل تفصيلاتها وجزئياتها كما تمر في الزمن ، ممثلة في الحوادث الخارجية والمشاعر الداخلية ، مع فارق واحد ، وهو أن القصة اختيار وتنسيق ، اختيار لحادثة

(١) د . محمد احمد العزب : عن اللغة والأدب والنقد . رومية تاريخية . . ورومية فنية ، ص ٣٨٩ ، ط ١ . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

أو عدة حوادث ، تبدأ وتنتهى فى زمن محدود ، وتصور غاية معينة ، وتتساق جزئياتها سياقة معينة لتؤدى إلى تصوير هذه الغاية " (١) .

" وكل قصة جيدة تعبر فى وحدتها من وَحدة فلسفتها ومفهومها للعالم ، وهذا المفهوم ليس انعكاساً لمعرفة محملة تهدف إلى توضيحه ، وإنما هو قبل أى شيء شكل من الإحساس بالعالم وبالحياة ، وترجمة لموقف منه ، ومحاولة الانسجام معه . . . وبذلك يمكن القول أن القصة : حكاية أدبية - تدرك لتقصص - قصيرة نسبياً - ذات خطة بسيطة - وحدث محدد - حول جانب من الحياة - لا فى واقعها العادى والمنطقى - وإنما طبقاً لنظرة مثالية ورمزية - لا تنمى أحداثاً وبيئات وشخوصاً - وإنما توجز فى لحظة واحدة ، حدثاً ذا معنى كبير " (٢) .

والحقيقة أن هناك تعريفات كثيرة للقصة لا يتسع المجال هنا لذكرها ، وإنما يمكن القول أن النقد الأدبى لم يستقر على مصطلح ثابت لهذا الجنس الأدبى ، وقد يكون مرجع ذلك لاتساع مجالات القصة وتنوعها ، فليس الواقع المحدود الصغير هو مجال القصة وحده ، وإنما هو الواقع الأبدى - كما يبدو خلال الواقع الوقتى ، وهو النماذج الإنسانية - كما تبدو من خلال الشخصيات القصصية ، وهذا الأمر يعود إلى مدى إبداع كل قاص ؛ ولكن يمكننا القول فى بساطة شديدة أن القصة جنس أدبى وسط بين الأقصوصة والرواية ، وليس الملائم الحجم فقط ، إنما فى المحيط الذى تشمله حيث أنها تقوم على محور ضيق محدود من الشخصيات والأحداث والمغامر .

(١) سيد قطب : النقد الأدبى . أصوله ومناهجه ص ٧٦ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(٢) د. الطاهر أحمد مكي : القصة القصيرة ص ٧٧ - ٧٨ ، دراسة ومختارات ، دار المعارف ، ط ٤ . القاهرة ، ١٩٨٥ .

مادة العمل القصصى :

عندما نتكلم عن مادة العمل القصصى ، نقول " إن القصة الإنسانية قد تتمثل عظمتها فى مستمر المشاهد ، كما تتمثل فى الأحداث الجسام ، وقد تتجلى براعتها فى دقائق الموضوعات وبسائطها ، كما تتجلى فى الشئون التى تمسك الدنيا وتشغل الناس ، وقد تظهر مهارتها فى فعاف الشخصيات وضالها ، كما تظهر فى شخصيات السيادة والتبرير ... فالمعول فى القصة على ما فيها من جوهر اصيل ، تدور حوله مشاهد القصة وحركاتها وأسلوب معالجتها ، وما هذا الجوهر إلا بضعة إنسانية فيها تبصرة بحقائق الحياة ... واستخلاص لسرائر النفوس " (١) .

"ويستطيع القصص الجيد فى نطاق الحدود الدقيقة التى تحكمه من الزمن والحدث والعاطفة والاهتمام والخبر المحدود ، أن يجعل الإبداع النفسى عابراً على الدوام ، بسيطاً وواضحاً ، ومن خلال خطوط قليلة عادية ، ولكنها صلبة دائماً ، وفى خدمة القص ، دون أن يعنى ذلك بأية حال أن القصة الجيدة تتطلب شخصيات ذات بساطة فكرية ، أو نفسيات غير معقدة " (٢) .

ولذا يتضح أن مادة العمل القصصى ترجع إلى مصدرين هما :

- (أ) الخبرات الذاتية التى يحصلها الكاتب من خلال تجاربه الخاصة .
- (ب) الخبرات التى يحصلها من خلال تجارب الآخرين ، ولكن بشروط أن يهضمها ويتمثلها جيداً حتى تصبح كأنها خبراته الخاصة ، ويكون صادقاً مع نفسه فى كل مايكتب ، وبهذا يستمد عمله القصصى من خبراته وخبرات الآخرين .

(١) محمود تيمور : دراسات فى القصة والمسرح ، ص ٩٦ ، المطبعة النموذجية ، القاهرة . بدون تاريخ .

(٢) د. الطاهر أحمد مكي : القصة القصيرة ، ص ٧٥ .

مناصر القصة :

استقرت الحركة النقدية على مجموعة من الأساسيات التي رأت أنها تشكل قواعد الخلق الحقيقي في فن القصة ، ومن هذه الأساسيات ما يتصل بعناصر العمل القصصى ، فوضعوا إطاراً خاصاً ، يضم مجموعة من العناصر الأساسية وهى :

١- الحادثة . ٢- الشخص . ٣- الزمان والمكان . ٤- البناء ويتضمن العقدة والحل .

أولاً : الحادثة :

وتسمى الحكاية ، وهى من أهم الخصائص التى تتميز بها القصة ، فهى تمثل العمود الفقرى للقصة ، " وهى التى تجعل القارئ يتشوق إلى معرفة الأحداث ، وإذا افتقدت القصة عنصر التشويق أصبحت بلا روح ، وتبعث الملل فى النفس " (١) .

"وتتكون الحادثة من بداية ووسط ونهاية ، فالبداية ، أو الموقف عند بعض النقاد ، ينشأ منها موقف معين ، وتنمو لتبلغ الوسط ، أو المرحلة التالية ، وتتجمع كلها لتنتهى إلى النقطة الفاصلة ، وهو سبب وجود الحادثة فى الأصل ، ولذلك يسمى النقاد المرحلة الأخيرة - وتمثل نهاية الحادثة - لحظة التنوير ؛ ولكن وجود حكاية تنطوى على هذه الأقسام من بداية ووسط ونهاية ، لايعنى دائماً ، وبالضرورة ، أنها تمرّ حادثة ، فقد تجيء أخبار متعددة تتجاوز ، وليست حادثة تنمو طبيعياً ، وتترابط أجزاءها ، كل جزء يرتبط بسابقه ، ويؤدى إلى ما يليه ، حتى يبلغ غايته " (٢) .

(١) د. مصطفى على عمر : القصة وتطورها فى الأدب المصرى الحديث ، ص ٢١ ، دار المعارف . القاهرة ، ١٩٨٢ .

(٢) د. الطاهر احمد مكى : القصة القصيرة ص ٧٨ .

"وتصوير الشخصية وهي تعمل لا يكفي لاكتمال الحادثة ، فالحادثة — المتكاملة هي تصوير الشخصية ، وهي تعمل عملاً له معنى . فكل قصة تعالج ماتعالج ، وتعنى ماتعنى فقط في نطاق الحادثة المعينة التي تصورها وليس خارج هذا النطاق ، ولذلك فكل حادثة لها معناها المعين الذي يميزها عن غيرها من الأحداث ، وهذا المعنى ينشأ من الحادثة نفسها ، فهي جزء لا يتجزأ منها . وبدون المعنى لا يمكن أن يتحقق للحادثة الاكتمال ، لأن أركان الحادثة الثلاثة وهي الفعل والفاعل والمعنى وَحْدَةً لا يمكن تجزئتها ، فليس للفعل والفاعل قيمة إن لم يكشفنا عن معنى " (١) .

ثانياً : الشخصيات :

" الاشخاص في القصة مدار المعاني الإنسانية ، ومحور الأفكار والآراء العامة ، ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة منذ انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياها ، إذ لا يسوق القاص أفكاره وقضاياها العامة منفصلة عن محيطها الحيوى ، بل ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع معاً ، وإلا كانت مجرد دعاية ، وفقدت بذلك أثرها الاجتماعى ، وقيمتها الفنية معاً ، فلا مناص من أن تحيا الأفكار في الأشخاص وتحيا بها الاشخاص ، وسط مجموعة من القيم الإنسانية يظهر فيها الوعى الفردى متفاعلاً مع الوعى العام ، في مظهر من مظاهر التفاعل ، على حسب ما يهدف إليه الكاتب ، في نظرته إلى هذه القيم ، وفي أغراضه الإنسانية ، ولا مناص من اتساق هذه الأغراض مع الغرض الفننى ، وهذا مظهر الصراع النفسى أو الاجتماعى يقوم به الأشخاص ضد المجتمع وعوامل الطبيعة . وقد يقوم به الشخص ضد نفسه " (٢) .

(١) د. رشاد رشدى : فن القصة القصيرة ، ص ٥٤ ، ط ١ . مكتبة الانجلو . القاهرة ، سنة ١٩٥٩ .

(١) د. محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ، ص ٥٢٦ .

رسم الشخصيات :

من المتفق عليه بشكل عام أن الحوادث فى معظم القصص الجيدة تنتج على نحو منطقى من طبائع الأشخاص الذين تضمهم هذه القصص ، وقد يقدم الكاتب أشخاصه بطريقتين عامتين :

- (أ) بطريقة مباشرة : بإبلاغ القارئ بمفاتيح الشخص وخصائصه .
 - (ب) من خلال الحدث ، بإظهار أفعال الشخص الذى يمكن معرفة شخصيته من خلالها .
- "والطريقة الأولى كثيرة الشيوخ بالنسبة للشخصيات الثانوية ، أما بالنسبة للشخصيات الرئيسية فتستخدم كلتا الطريقتين عادة " (١) .

والأشخاص - فى القصص بعامة - نوعان : ذوو المستوى الواحد ، ثم الشخصيات النامية ، والشخصية ذات المستوى الواحد هى الشخصية البسيطة فى صراعها ، غير المعقدة ، وتمثل صفة أو عاطفة واحدة ، وتظل سائدة بها من مبدأ القصة حتى نهايتها ، ويعوزها عنصر المفاجأة ، أما الشخصيات النامية فهى التى تتطور وتنمو قليلاً قليلاً ، بصراعها مع الأحداث أو المجتمع ، فتتكشف للقارئ كلما تقدمت فى القصة ، وتفجؤه بما تعنى به من جوانبها ومواطنها الإنسانية المعقدة (٢) .

ثالثاً : الزمان والمكان :

وجود الزمان عنصر أساسى فى القصة ، فبدون الزمان لا يمكن للقصة أن تستقيم ، وعلاقة القصة بالزمان علاقة مزدوجة ، فالقصة تصاغ فى داخل الزمان ، والزمان يصاغ فى داخل القصة ، والقصة تحتاج للزمان لى تقدم نفسها من خلاله ، مرحلة وراء أخرى ... وينطوى زمن الحدث على مجموعة من الأزمنة هى : زمن

(١) على شلش : فى عالم القصة ، ص ١٩١ ، ط١ مطبوعات دار الشعب - القاهرة ،

سنة ١٩٧٨ .

(٢) د. محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ، ص ٥٢٧ .

الحبكة وزمن القصة ، وزمن العمل القصصى نفسه ، ثم زمن قراءته ... وقبل الحديث عن هذه العناصر ، لابد من التفريق بين هذه الأزمنة المختلفة ، "لزمن الحبكة" مختلف من " زمن القصة " ، لأن زمن الحبكة قد يرتب ولسق أى ترتيب من الترتيبات المحتملة .

أما " زمن القصة " نفسه فهو مزيج من زمن الحبكة والزمن اللغوى الذى تصاغ فيه الأفعال أو تستخدم معه مجموعة معينة من الصيغ والاشتقاقات ... وهنا يدخل عنصر الاستمرارية أيضاً إلى جوار عنصر الترتيب .. بمعنى أن يفسرد العمل القصصى عدة صفحات لوصف حدث يستغرق وقوعه ثانية أو دقيقة ، بينما يسرد علينا ما دار فى السنوات الخمس التالية لهذه الدقيقة أو السابقة عليها فى جملة واحدة أو فقرة واحدة ، أما زمن القراءة فهو الزمن الذى تستغرقه القراءة ... قراءة وصف ما دار فى هذه الدقيقة ، والتى تحتاج منّا إلى ساعة ، وربما إلى ساعات ، بينما يحتاج منا قراءة ما دار فى السنوات الخمس إلى دقيقة أو دقائق (١) .

المكان :

لا بد للحدث من مكان ما ، ولا يقل المكان أهمية عن الزمن ، وإن كان أكثر استقراراً من الزمن وأقل خلافة فيه ، والمكان الذى تصوره القصة هو مكان قصصى قد يشابه غيره من الأماكن التى نعرفها ، ولكن له تفرد الخاص ، وله واقعيته الخاصة ، فمن المستحيل أن يكون مكاناً واقعياً ، ليس فقط لأنه مكان مرئى من وجهة نظر شخصية ما أو كاتب ما أو موقف ما حسب الطريقة التى يقدم بها ، ولكن لأنه مكان قد حدد جمالياً وأسرّ فى قبضة مجموعة من الكلمات ، وانتقيت مكوناته بعد أن استبعدت منها مكونات أخرى ، وأضاف له القارىء تصوره الخاص ، فالمكان فى القصة مكان مصاغ بمصطلح غير بصرى .. إنه مكان لانستطيع أن نراه ، وإن كان بإمكاننا تصوره ، إنه مكان فى زمن وهمى ، وهو

(١) صبرى حافظ : الخصائص البنائية للأقصوصة ، ص ٢٨ . مجلة فصول . المجلد الثانى . العدد السابع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

الزمن القصوى .. مكان مصاغ من ألفاظ لا من موجودات أو صور .. صحيح هناك مدة طرق تستطيع بها الكلمات أن تخلق مكاناً على الورق ، إما باستعمال الصفات المحسوسة التي تمكن القارئ من تصور المكان بشكل واضح ، أو بالإشارة إلى موجودات ومكونات فعلية لهذا المكان يستطيع القارئ أن يرجع إليها ، أو بالمقارنة مع أشياء وأمكنة مألوفة تمكن كنياتها ، القارئ من تصور هذا المكان .. غير أن كل هذه الأساليب مشروطة بالعين التي يُرى المكان عبرها ، وبالدّهن الذي سيتصوره خلال الكلمات .. وهى قضايا تجعل المكان القصوى أكثر خصوبة من كثير من الأمكنة الواقعية المشابهة (١).

رابعاً : البناء . ويتضمن العقدة والحل :

إن القصة المكتوبة تهذيب وتكرير ، أو هى بالأحرى سلسلة كاملة من التهذيب والتكرير لهذا النوع من التسلية والمتعة ، والعقدة (Plot) هى إحدى صور هذا التهذيب والتكرير ، فالعقدة بصفة أساسية هى ابتكار واختراع أدبى ، وهى أسلوب بسيط من أساليب تقطير أو تركيز التشعب والتهويم اللذين نجدهما فى قصص البطولات القديمة ، وهذا التقطير يتخذ بشكل جزئى من أجل الترفيه عن جمهور واع - جمهور يستمتع بأمور مثل الإطار والشكل ، ويهوى أن يرى قصة جيدة الحبكة ، فيها تشويق أو مفاجأة وأن تكون قد بلغت حـد التوكيد الواضح ، فالعقدة هى " إطار الوقائع ، أياً كانت بسيطة أو معقدة ، التى تُبنى عليها القصة ، أو هى حوادث الصراع المصور والمعروض كما تنتظم فى وَحْدَةٍ فنية " ، ومناصر العقدة هى : البداية التى تفترض النمو فى الحدث ، والوسط الذى يفترض وجود الحدث السابق والحدث اللاحق معاً ، والنهاية التى تتطلب الحوادث السابقة ، ولكنها لا تتطلب حدثاً لاحقاً ، وَحْدَةُ العقدة هى إذاً نتيجة العلاقة والترتيب اللازمين بين الحوادث وليس بالتركيز على شخصية واحدة (٢).

(١) المرجع السابق ص ٢٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٧ .

" ويجب أن تختتم القصة بإحكام ، دون أن تترك مجالاً لشغرات جديدة ، أو أية شروح تالية ، وليس مستحباً أن يجنح القصاص أو يسهو أو يتشاغل أو يهبط ، دون غاية ، في رسم الجو أو تصوير الشخصيات ، أو المناظر الطبيعية ، أو الحوار ، ومن الممكن طبعاً أن توجد هذه العناصر كلها في قصة ، ولكن في خدمة البناء القصصى " (١) .

وتختلف طريقة بناء العمل القصصى باختلاف نوع القصة طولاً وقصراً ، كما تختلف وفقاً لتصوير الكاتب لإطار عمله ومادته وطريقة كتابتها من حيث عدد الفصول ، والبدء والختام ... والمألوف في أسلوب البناء أن يتبجح الكاتب تخطيطاً محدداً بحيث تبدو الأحداث مترابطة يوءدى بعضها إلى بعض ، وتتجه شيئاً فشيئاً إلى التعقيد الذى يتطلب الحل ، وبذلك تسير في خط ممتد بين الهدف والنتيجة ..

والأثر الفنى لهذا الشكل البنائى في القصة أنه يشوق القارئ إلى الاستمرار في متابعة الأحداث في القصة حتى النهاية لكي يعرف على أى نحو تكون النتيجة ..

بقى عنصر آخر له وزن في القصة ، هو القيمة الشعورية ، فقد كان حديثنا إلى هذه اللحظة عن القيم التعبيرية ، و"المقصود بالقيمة الشعورية : الأفاق الشعورية التى يرتفع إليها الموضوع ، والتى تصور في ظلها الحوادث والشخصيات ... ولأشك أن للقيم التعبيرية - طريقة العرض وطريقة التعبير - قيمتها في تحديد قيمة القصة ، ولكنها وحدها لا تستقل بالتقويم ، ولابد من النظر إلى هذه الأفاق الشعورية ، ومدى مطابقة القيم التعبيرية لها ... فبعض القصاص يصور لنا الحوادث والشخصيات بغاية الدقة والبراعة من الناحية القصصية ، ولكنه لا يتجاوز بنا محيط هذه الحوادث والشخصيات المحدودة ، ولا محيط الفترة الزمنية التى تجرى فيها الحوادث ... وبعضهم يقفنا - بعد الحوادث - وجهاً لوجه أمام الحياة كلها : سننها الخالدة ، وأوضاعها الكونية

(١) د. الطاهر احمد مكى : القصة القصيرة ... ص ٧٥ .

واقدارها الشاملة . وهذا البعض لا يحدثنا عن هذه الشؤون حديثاً مباشراً ، إنما يبدعنا نتسرب من خلال الشخصيات المعينة إلى الإنسانية الخالدة - كما ترتسم في بصيرته - فتلك الحادثة جزء وكل ، وهذه الشخصية فرد ونموذج ... ويبلغ بعضهم في الإبداع إلى الحد الذي تصبح نماذج البشرية أبقي وأحيى من المخلوقات الإنسانية ، وتصبح أحداثه ووقائعهم سمة على الكون والدهر أوضح من الحوادث التاريخية ... وهذا المستوى أرقى من المستوى الأول بلا جدال (١) .

ونخرج من هذا البيان عن عناصر القصة وخصائصها الفنية ، إلى القول أن هذه العناصر قد لا تجتمع كلها في كل قصة ، وإنما لكل عمل ظروفه التي تخضع لظروف المؤلف ، وتصرفه فيما يحكى من أحداث وشخصيات ، وكيف يتدخل فنياً في عرضها .. مع الأخذ في الاعتبار أن هذه العناصر تحتاج إلى مواهب فنية حتى تحسن الاستفادة منها واستخدام ما هو ضروري في بناء حبكة القصة ، فأحياناً يلعب أحد العناصر القصصية دوراً رئيساً في إحدى القصص ، بينما هناك قصة أخرى تخلو منه تماماً دون أن يمس هذا - في شيء - حقيقة الجنس الأدبي أو روعة القصة وتماسك بنائها .

(١) سيد قطب : النقد الأدبي . أصوله ومناهجه ، ص ٨٠ . دار الفكر العربي ، القاهرة ، بدون تاريخ .

ثالثاً : أهداف القصة

حتم أن يكون لكل قصة هدف ، وإلا كانت القصة لغواً لا جدوى له ، والقاص ككل فنان آخر - مصور للحياة في مختلف ألوانها ، مترجم عما يتردد في مخيلته وما يجيش في صدره من معانٍ ومشاعر ، فهو إذا كتب فإنما يكتب لسبب لتصوير هذه المعاني والأهداف وإيضاح المشاعر ، بل أن الهدف يتحكم أيضاً في الأصول الفنية الخالصة نفسها ، وذلك لشدة ارتباط تلك الأصول بالهدف المنشود بحكم أنها ليست في النهاية إلا وسائل لتحقيق هذا الهدف ، فعندما تغير هدف "التراجيديا" مثلاً من تطهير النفس البشرية بواسطة الإثارة العاطفية إلى تحليل النفس البشرية والكشف عن العناصر التي تتصارع داخلها لتوجيه السلوك - رأينا الصراع الدامي - وهو مقوم فني أصيل - ينتقل من الصراع الخارجى بين الإنسان وقوة خارجة عن ذاته ، كالقدر عند اليونانيين القدماء - إلى صراع داخلى يجرى داخل النفس البشرية بين العقل والعاطفة ، أو الحب والواجب ، أو العواطف المتضاربة ، على نحو ما حدث عند كلاسيكيي القرن السابع عشر الميلادى (١) .

إذاً لا يكفي في دراسة الأدب على وجه عام ، والقصة على وجه خاص أن أشير إلى أنها مرآة للمجتمع وصورة تفصح عن جوانبه ونفسيات أهله ، ولكن علينا دراسة الأدب (في) المجتمع ، وليس بوصفه مجرد انعكاس للمجتمع ، ومع أن الفن يعمل من خلال أفراد - إذ أن مهمته تتعلق بالأفراد بما هم أفراد - إلا أن مهمة الأدب الاجتماعية لا تتضح إلا عند الالتزام بنظرة الأدب إلى المجتمع في كليته ؛ وللوصول إلى تلك المهمة الاجتماعية ، نقول أن الأدب ليس أعمالاً جامدة ، وإنما صيرورة ، فالأدب والمجتمع يعيشان في وحدة جدلية ، والوجود

(١) د. محمد مندور : الأدب وفنونه . ص ٩٨ . دار نهضة مصر ، ج ٢ ، القاهرة ، بدون تاريخ .

الاجتماعى لا يقوم إلا بتصميم الأدب فحسب ... فالقول بأن الادب " يفعل شيئاً " ليس كافياً ، وإنما يجب أن يكون للوظيفة هدف وغاية ، وهنا نرى أن الأدب يعمل كى يزيد من حرية الإنسان ، وهو عندما يقوم بمهمته على نحو صحيح ، يزيـد من تحرر الإنسان ، وتحرر المجتمع " (١) .

- ويمكن القول بأن للاديب فى مجتمعه مهمة يمكن أن نجعلها فيما يلى :
- أ - نقل التراث الروحى فى صورة يقبلها العصر ويدفع تلك الأفكار الموروثة إلى تيار الحياة .
 - ب - التعبير الصادق عن الحياة التى يعيش فيها بحيث يشعر قارئوه أنه يمشى ما فى نفوسهم من آمال وآلام .
 - ج - تنمية الحياة الأدبية بما يضيف إليها من مبتكرات .

وللفن القصصى فضل إلهام غيره من الفنون الجميلة ، فهو أسبق من الشعر ، ومن التصوير ، ومن الحفر ، بل من الموسيقى نفسها ، إلى التقاط صورة حياة الجماعة التى يعيش فيها وإثباتها على الورق ، ثم هو أقدر من هذه جميعاً على رسم أمل الجماعة فى المستقبل ، وتموير المثل الأعلى الذى تصبو إلى تحقيقه " (٢) ...

" إن القصة أياً كانت الحوادث التى تروىها ، إنما تدل على فكرة وتتصل بمثل أعلى فى نفس كاتبها .. حتى أن القصص التى تكتب للتسلية ليس هير ، لا يمكن أن تخلو من التعبير عن فكره فى نفس الكاتب .. أما القصص التى تُعدّ بحق أدباً ولفناً ، فالفكرة والمثل الأعلى يتكرران خلالها وضحين فى صور مختلفة وألوان شتى " (٣) . وعلى هذا فإننا نرى أن " القصة أعظم أداة لتحقيق

(١) جورج برناردشو : دراسة السوبرمان البرجوازى ص ١٥٦ - ١٥٧ ، مقال لكريستوفر كودويل . تقديم وترجمة : إبراهيم حماده . مجلة فصول . المجلد الخامس ، العدد الثالث ، سنة ١٩٨٥ .

(٢) د. محمد حسين هيكى : ثورة الأدب ، ص ٧٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

التغيير والتجديد فى مضمار الأدب النثرى ، فقد حوّلت القصة مركز الاهتمام من البلاط الملكى إلى الطبقة البرجوازية ، ثم إلى الفقير والعامل ، وأخيراً إلى الرجل العادى ، بغض النظر إلى مركزه (١).

والقصص التى حملت طابع القضايا الاجتماعية ، تمثلت فى اتجاهين يتلاقيان آخر الأمر هما : الفرد وحقوقه المهضومة التى تتطلب تغيير النظم القاشمة من ناحية ، ثم ما تستلزمه سعادة الفرد بعد ذلك من تعاون اجتماعى من نوع جديد من ناحية أخرى ، وصارت هذه القضايا أعمق أثراً فى علاج المجتمع ومسائلـه منذ عصر الرومانتيكيين ، إذ صارت الطبقة الوسطى ذات أثر فعّال فى المجتمع ، فصعدت فيه تنتقص حقوق الطبقات الارستقراطية التى لم يكن لها من مبرر . وصارت القصص من وسائل التعليم والتسلية معاً تحرك المشاعر وتوصى بالإصلاح ، ويكتشف بها القارئ نواحي فى نفسية المجتمع قد تغمض على المشرع الاقتصادى (٢).

وكانت القصص الرومانتيكية التى تدافع عن القضايا الاجتماعية تحمل الطابع العاطفى المشبوب الشائـر ، وتشير الأفكار إشارة مباشرة خطابية غالباً ، والشخصيات الرئيسية فيها ضحايا نظم المجتمع ، وهم رموز لطبقات اجتماعية ، يدافعون عن آرائهم أو يمثلونها فى بطولة يحيد بها مؤلفها عن مجرى الحقائق المألوفة فى عامة الناس ، وغالباً ماكان الشر - وهو هدف الهجمات فى هذه القصص - ممثلاً فى صورة الظلم الاجتماعى الذى يعانى منه الباشون والفقراء . وهكذا قصدت القصص ذات القضايا الاجتماعية إلى تنظيم الفرد فى علاقته بالمجتمع ونظمه ، والتأثير المباشر فى استبدال نظم بغيرها ، لإقرار العدالة الاجتماعية إقراراً مبنيّاً على الاعتقاد العميق فى حق

(١) د. مصرى عبد الحميد حنورة : الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الرواية ،

ص ٢٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ، سنة ١٩٧٩ .

(٢) د. محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ، ص ٤٨١ بتصرف .

الفرد ، ولهذا كثرت الآراء الحرة التى قفت قليلاً على امتياز الطبقات (١).

أما القصة الواقعية والطبيعية فلم تقتصر على الوقوف عند حدود الوقائع الطبيعية وتحاشى الأحداث العجيبة وغير المألوفة ، بل أضافت إلى اهتمامها بالطبقات الدنيا والمتوسطة خاصة أخرى ، هى كشف جوانب السوء والشر فى النفس الإنسانية ، فصوّرت المجتمعات والنفوس المترفة فريسة للفساد وللغرائز الحيوانية التى تنمو فى ظل المجتمعات المهددة بتغيير نفس نظمها ، انتظاراً لما يعوزها من إصلاح تستقر به أوضاعها (٢).

ومع ظهور الرمزية فى الأدب أصبح للقصاص طريقة فنية خاصة للتعبير عن مجموعة من الأفكار الانفعالية داخله ، مستخدماً الإيحاء والتلميح والإشارة ، فالرمزية قد ترتفع بالعمل الفنى إلى مستوى تجريدى - وفى الوقت نفسه - تصور الجزء الغامض من النفس الإنسانية .. أى أن الرمزية تمنح الأفكسار الباطنية شكلاً خارجياً " (٣).

ولقد آثر المربون أن يقدموا للنشء قصصاً إنسانية طبيعية من روائع القصص الذائعة مقربة إلى أذهانه بشتى أساليب التقريب ، وذلك حتى يطالع النشء صفحة الحياة كما تتجلى بها الأيام ، وحتى لا يقرأ شيئاً ثم يصادف فى حياته عكس ماقرأ . ولذلك قدموا له صوراً من القصص الإنسانية الصادق ، تبصره بحقائق النفوس ، وتكشف له مختلف السرائر حتى يستقيم ذوقه ، وتتفتح بصيرته ، فيستطيع أن يساير الحياة فى غير غفلة ، ولا تصنع ، ولا تستر . فالقصص الإنسانية هو النبع الصالح لكل من يغترف منه فى مختلف مراحل العمر . وهو نعم المؤدب لمن يلتمس منه جوهر الأدب ولباب التهذيب (٤).

(١) المرجع السابق ، ص ٤٨٢ بتصرف .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٨٣ بتصرف .

(٣) د. فاطمة الزهراء : العناصر الرمزية فى القصة القصيرة ص ٢٠ ، دار نهضة مصر للطبع والنشر . القاهرة ، سنة ١٩٨٤ .

(٤) محمود تيمور : دراسات فى القصة والمسرح ص ١٦٢ - ١٦٧ بتصرف ، المطبعة النموذجية . القاهرة ، بدون تاريخ .

ولقد نبّه محمود تيمور إلى ما يمكن أن يخدع الأدباء بعدم فهمهم رسالة القصة فقال " لقد تناقل النقاد أن القصة رسالتها تهذيب الأخلاق وتربية النفوس ، والتبصير بالمثل العليا في الحياة ، فانساق فريفاً من كتاب اللقمة وراء هذه الرسالة يحاولون أن يخرجوا قصصهم تتغنى بالفضائل ، وتنعى على الشرور والآثام ٠٠٠ وإذا كان لهذا القصص شأن مند من يبتغون ظاهراً من نصرة المثل العليا ، ويقيمون في أخيلتهم مجتمعاً فاضلاً من الناس قوامه عدل وحق وخير ، فهو عند الأدباء الفنانين قصص غير فنى ، برقه خُلب ، وماؤه سراب ٠٠ والقصص الفنى هو الذى لا يقتصر على الجانب الواعى من حياتنا اليومية ، واللون البادى من مجتمعنا الظاهر ، بل يتغلغل فيما وراء الوعى ، وينفذ إلى باطن الحياة والمجتمع ، حتى تتجلى له تلك الطوايا التى إليها مراجع الحفز والتوجيه ٠٠ والقصص الفنان هو الذى يبصرنا بالحقيقة الخافية والباعث المكنون ، فيرينا من أنفسنا مانسر ، ويمارحنا من أمرنا بمما نكتم ، فإن لم يفعل ذلك فهو أقرب إلى أن يكون صاحب عظمات طنانة ، تهتمز لها المنابر والمنمات ، فيمفق لها السامعون ماشاءوا أن يصفقوا ، وقلوبهم جميعاً فى شغل بما يظلم فيها من اشتات النزعات والغرائز ، ومن مختلف العقد النفيسة والملابس المتشابكة ، تسير بها على حكمها ، فى طوع أو على كره " (١).

وبهذا المفهوم الواقعى لاتجاهات القصة ، صارت القصة أعظم الأجناس الأدبية خطراً ، واحفلها بالآراء الفلسفية والاجتماعية والنفسية ، وأمسها بمشكلات الإنسان وعصره ، وفيها يصور الإنسان ، لا على أنه أنموذج عام يملح لكل عصر وبيئة ، ولكن على أنه مخلوق حى ذو جوانب نفسية متعددة ، يواجه موقفاً خاصاً ، وليست القصة الحديثة تقريراً من التجربة ، ولكنها تصوير حى للتجربة ، يوحى بمعانٍ إنسانية ونفسية عامة تتراعى من خلال الموقف الخاص ، وبهذا لاتفلد قيمتها الإنسانية لمعالجتها موقفاً إنسانياً قد ينتهى خطره ، أو قد لا يهتم قوماً لا يمتون إلى القارىء بطلا ، بل أن معانيها الإنسانية تتضح ويعظم خطرهما كلما تعمق الكاتب فى معالجة المشكلات والجوانب النفسية ، وفى تخصيصها بالمواقف التى يعالجها ، والفترة التى يتناولها فيها .

الباب الأول تمهيد القصة في القرآن الكريم

لا جدال في أن القرآن الكريم قد أثار ، في أساليبه الرسالية ، أكثر من أسلوب ، من أجل الوصول إلى عقل الإنسان وشعوره ، فيما يفكر به — في قضايا العقيدة والحياة ، ليقتنع بالفكرة — الحق ، التي ترتبط بالله ، وبالطريق — الحق الذي يصل بالإنسان إلى الله ... في أجواء رائعة تتناول فيها العقيدة إلى قضية تمتزج بالإحساس والشعور ، كما تنطلق فيه المشاعر الروحية في أجواء فكرية واسعة لتلا تعيش العقيدة جفاف الفكر ، أو يستسلم الفكر لسداجة العاطفة .

وكانت " القصة " من بين الطرق التي سلكها القرآن في هذا السبيل ، ولذلك لا يسعنا إلا أن نقر بأن هذا القصص بعض القرآن فيثبت لها ما يشبه لجميعه من إعجاز آياتها المشتملة على أسلوب القرآن التصويري المعجز في وَخْدة فنية رائعة . ونمل بذلك أيضاً إلى أن القصص القرآني أدب فني متكامل ، لأنه من عند الله — سبحانه وتعالى — وربما عن لسان أن يقول : أَنَّى للجماهير البسيطة أن تستجيب للأدب الفني الكامل ، وهي محدودة الوعي والادراك ، متخالفة الادواق ؟

الحقيقة أن الإحياءات التي يتضمنها القصص القرآني ، لا يمكن استيعابها جملة ، فالنصوص القرآنية تلمح عن إحياءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن ، وبقدر حاجته الظاهرة فيه . ويبقى لها رصيدها المذخور تنتفتح به على القلوب ، في شتى المواقف ، على قدر مقسوم .

إن الصورة الأدبية الفنية الكاملة يجد فيها كل ذوق ما يلائمه ، ولكل امرئ ناحية يتأثر بها ، ويستجيب لها ، حسبما تعنيه ملكاته ومداركه . والله سبحانه وتعالى لا يريد للعقل البشري أن يتبلد فيعطيه كل شيء يلغى الفكر ، ولكنه يريد للذهن أن ينشط وأن يفكر ويتدبر .

وقبل ان ننتقل الى تفصيل البحث فى فصول هذا الباب نعرض لمعنى
القصة منذ كل من اللغويين والبلاغيين وعلماء التفسير ، ثم نتبع ذلك
بالحديث عن الفرق بينها وبين النبأ والخبر والحديث .

إن علماء اللغة قد اكتفوا من الحديث عن القصة بتحديدات مبهمـة ،
وتعريفات ناقصة ، إذ أنهم اكتفوا بما يثيره لفظ القصة فى ذهن من معنى ،
وذلك ليس بالغريب عليهم فيما نرى فشان علماء اللغة أن يذكروا لنا معانى
الألفاظ أو ماتشيرها الألفاظ فى الأذهان من صور ، وليس من شأنهم أن يذكروا
الحدود الفنية ، والتعريفات العلمية ، ومايتبع ذلك من حديث تام شامل
عندما تكون الألفاظ من المصطلحات العلمية أو الفنية .

والمعانى التى وقف عندها علماء اللغة عند حديثهم عن مادة " قصص "
كثيرة ، ولعل أقربها إلى مانحن بمدده من حديث أدبى مارواه اللغويون عن
الأزهرى ، وعن الليث . يقول الاول : " القص : فعل القاص إذا قص القصص
والقصة معروفة .

ويقول الثانى : القص اتباع الأثر ويقال : خرج فلان قصصاً فى أثر
فلان ، وقصا ، وذلك إذا اقتفى أثره ، وقيل القاص يقص القصص لاتباعه خبراً
بعد خبر ، وسوق الكلام سوقاً (١) .

أما المفسرون : فيخطون بالمسألة خطوة إلى الأمام ، ذلك لأنهم ينظرون
إلى المسألة باعتبارين ، اعتبار لغوى يعتمدون فيه على ذلك التحصيل اللغوى
الذى صورنا منه طرفاً ، واعتبار دينى : ينظرون فيه من وجهة نظر خاصة ،
وهى قصد القرآن الكريم من قصصه وأهدافه التى ترمى إليها .

والإمام الرازى - رحمه الله - يجمع بين الاعتبارين . ويقرّب بين
الاتجاهين ، وذلك عند تفسيره للآية الكريمة : " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ " (٢) فيقول :

(١) ابن منظور : لسان العرب . مادة قصص .

(٢) سورة يوسف : الآية ٣ .

القصص اتباع الخبر بعضه بعضاً ، وأصله فى اللغة المتابعة ، قال تعالى :
" وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه " (١) أى اتبعى أثره ، وقال تعالى : " فَارْتَدَّا عَلَى
ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا " (٢) أى اتبعاً . وإنما سميت الحكاية قصة لأن الذى يقصص
الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً .

و"الرازى " إذ يذكر هذا إنما يحاول التقريب بين المعنى اللغوى
والاصطلاح الأدبى ، وذلك حين يربط بين الاثنين باستعماله لفظ " الحكاية "
واطلاق لفظ " القصة " عليها . ويقول أيضاً عند تفسيره لقوله تعالى : " إِنَّ هَذَا
لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ " (٣) . والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدى إلى
الدين ، ويبرشد إلى الحق ، ويأمر بطلب النجاة ، وهو قول يشرح معنى
القصص شرحاً دينياً كما نرى .

وقد استعمل القرآن الخبر والنبأ والحديث للتعبير عن القصة كثيراً ،
وإن كان قد فرق بينهم فى المجال الذى استعملوا فيه جرياً على ما قام عليه
نظمه من دقة ، وإحكام وإعجاز . فاستعمل النبأ والأنباء فى الإخبار عن
الآحداث التى مضى الزمن بعيداً بها . ولقها فى أطوائه ، على حين أن
استعمل الخبر والإخبار فى الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع .
أو التى لاتزال مشاهدتها قائمة ماثلة للعيان .

وقد وضع " أبو هلال العسكري " فروقاً لغوية ودلالية بين هذه الألفاظ
فيقول أن الفرق بين " الخبر " و" الحديث " : أن الخبر هو القول الذى يصح
وصفه بالصدق والكذب ، ويكون الإخبار به عن نفسك وعن غيرك ، وأصله أن يكون
الإخبار به عن غيرك وما به صار الخبر خبراً هو معنى غير صيغته ، لأنه يكون
على صيغة مالميس بخبر .

(١) سورة القصص من الآية ١١ .

(٢) سورة الكهف : من الآية ٦٤ .

(٣) سورة آل عمران ، من الآية ٦٢ .

والحديث في الأصل هو ما تخبر به عن نفسك من غير أن تسنده إلى غيرك وسمى حديثاً لأنه لا تقدم له وإنما هو شيء حدث لك فحدثت به، ثم كثر استعمال اللغتين حتى سمي كل واحد منهما باسم الآخر، فقليل للحديث خبر وللخبر حديث.

أما الفرق بين النبا والخبر أن النبا لا يكون إلا للإخبار بما لا يعلمه المخبر. فقد قال تعالى: "فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ" (١) وإنما استهزءوا به لأنهم لم يعلموا حقيقته، ولو علموا ذلك لتوقوه: يعني العذاب وقال تعالى: "ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقَمُهُ عَلَيْكَ" (٢).

أما الفرق بين القصة والحديث: أن القصة ما كان طويلاً من الأحاديث متحدثاً به من سلف، ومنه قوله تعالى: "نحن نقص عليك أحسن القصص" ولا يقال لله قصص لأن الوصف بذلك قد صار علماً لمن يتخذ القصة صناعة، وأصل القصص في العربية اتباع الشيء الشيء، وسمى الخبر الطويل قصصاً لأن بعضه يتبع بعضاً حتى يطول، وإذا استطال السامع الحديث قال هذا قصص. والحديث يكون ممن سلف، وعن من حضر، ويكون طويلاً وقصيراً، ويجوز أن يقال القصة هو الخبر عن الأمور التي يتلو بعضها بعضاً، والحديث يكون عن ذلك وعن غيره، والقصة قطع يستطيل ويتبع بعضها بعضاً مثل قص الثوب بالمقص وقص الجناح وما أشبه ذلك، وهذه قصة الرجل يعني الخبر عن مجموع أمره وسميت قصة لأنها يتبع بعضها بعضاً، حتى تحتوى على جميع أمره.

وفي القرآن الكريم أنباء لا تبلغ حدَّ القصص خلافاً لما توهمه بعض الكتّابين، والقرآن لم يسمها قصصاً لأنها ليست أحداثاً ماضية، ولا لخلوها عن تتبع الآثار الماضية فقط. ولكن لأنه ليس فيها إمداد في التصوير. فهي في ذاتها لا تصلح للتسمية بالقصة لعدم انطباق العبرة ووضوح الرواية للغرض القصص الأميل (٣).

(١) سورة الشعراء: من الآية ٦.

(٢) سورة هود: من الآية ١٠٠.

(٣) أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية ص ٢٩ - ٣٠، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان، بدون تاريخ، ضبطه وحققه حسام الدين القدسي.

وكثيراً ما يقع فى كتب التفسير " حكى الله تعالى " ، وينبغى تجنبه
قال الإمام ابو نصر القشيري (١) فى كتابه " المرشد " : قال معظم أئمتنا :
لا يقال : " كلام الله يحكى " ولا يقال : " حكى الله " لأن الحكاية إلتيان بمثل
الشيء ، وليس لكلامه - أى القرآن - مثل (٢) .

ويذكر بعض الباحثين قائلًا : " إن عرض القرآن للأحداث الماضية ليس
محاكاة لها ولا تمثيلًا لشخصها ومشاهدها ، وإنما هو بعث لها وإعادة لوجودها
فى هذا النظم الذى ينقل إلينا الماضى ، أو ينقلنا إليه ، فنطالع هناك
وجوه الحياة فى زمانها ومكانها حتى كأننا أبناء هذه القطعة أو القطع
من الزمن وأهله . فكان لفظ القصة أو القص أنسب لفظ يطلق على تلك الأنبياء
التي عرضها القرآن . إذ أن ذلك أشبه بقص أثر الشيء وتتبعه ، ثم الوقوف
عليه بذاته لا على صورته أو ما يشبه صورته ...

ونخلص من هذا كله إلى القول بأن القصص القرآن أنباء وأحداث
تاريخية لم تتلبس بشيء من الخيال ، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع ،
ومع هذا فقد اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من القصص من الإثارة
والتشويق مع قيامه على الحقائق المطلقة - الأمر الذى لا يصلح عليه القصص
الأدبى بحال أبداً " (٣) .

-
- (١) هو عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري الشافعى، أحد أئمة
الدنيا فى الفقه والأصول والتفسير ، توفى سنة ٥١٤ بنيسابور .
(٢) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ،
ص ١٧٧ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . المجلد الثانى ، مكتبة دار
التراث ، الطبعة الثالثة . القاهرة ، سنة ١٩٨٤م .
(٣) عبد الكريم الخطيب : القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ص ٤٥ ، دار الفكر
العربى . القاهرة ، سنة ١٩٦٥ .

الفصل الأول

أنواع القصة فى القرآن الكريم ، عناصرها ، وأغراضها

أولاً : أنواع القصة فى القرآن الكريم :

لقد استخدم القرآن - فى أغراضه الدينية البحتة - كل أنواع القصة : القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها . والقصة الواقعية التى تعرض أنموذجاً لحالة بشرية ، فيستوى أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأى شخص يتمثل فيه ذلك الأنموذج ، والقصة المضروبة للتمثيل ، والتى لا تمثل واقعة بنفسها ، ولكنها يمكن أن تقع فى أية لحظة وأى عصر من العصور (١) .

١ - القصة التاريخية :

قبل الحديث عن القصة التاريخية فى القرآن الكريم ، يجب أولاً أن نوضح مفهوم التاريخ فى القرآن ، "فالتاريخ" أو بتعبير القرآن : "أيام الله" يذكر فى موضعين : فى سورة إبراهيم الآية الخامسة (٢) ، وفى سورة الجاثية الآية الرابعة عشر (٣) ، هو ثالث مصادر المعرفة الإنسانية بناء على ما جاء فى القرآن ، فمن أهم أصول التعاليم التى جاء بها القرآن أن الأمم تتحاسب بمجموعها . وأن العذاب يُعجل لها فى الحياة الدنيا بما اكتسبت من سيئات ، ولكى يؤكد القرآن هذا المعنى فإنه دائب الإشارة إلى الأمم الخالية ، داعياً

-
- (١) محمد قطب : منهج الفن الإسلامى ، ص ١٥٨ ، دار الشروق ، القاهرة ط ٤ ، ١٩٨٠
(٢) قال تعالى : " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ " .
(٣) قال تعالى : " قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " .

إلى الاعتبار بتجارب البشر فى ماضيهم وفى حاضرهم ، فيقول سبحانه وتعالى :
 "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَذَكِّرْهُمْ
 بِآيَاتِ اللَّهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ" (١) ، " قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ
 سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ " (٢) ، " إِنْ يَفْسَقْكُمْ
 قَرْحٌ فَقَدْ مَنَّ الْقَوْمُ قَرْحٌ مِّثْلُهُ . وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلُهَا بَيْنَ النَّاسِ " (٣) ، "وَلِكُلِّ
 أُمَّةٍ أَجَلٌ" (٤) .

وهذه الآية الأخيرة مثل من أمثلة الأحكام التاريخية العامة يتجلى
 فيه التعيين والتحديد ، وهى فى صيغتها البالغة الإيجاز توحى إمكان دراسة
 حياة الجماعات البشرية دراسة علمية باعتبارها كائنات عضوية ، وعلى هذا
 فمن يزعم أن القرآن يخلو من بذور المذهب التاريخى يكون على ضلال مبين ،
 وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن خلدون فى تعريفه قد دان بالجانب الأكبر
 مما استوحاه فيها لما استوحاه من القرآن ، بل هو مدين أيضاً للقرآن إلى
 حد كبير حتى فى أحكامه على الأخلاق والطبائع .

على أن عناية القرآن بالتاريخ بوصفه مصدراً من مصادر المعرفة
 الإنسانية تذهب إلى أكثر من مجرد الإشارة إلى تعليمات تاريخية ، فقد وضع
 لنا قاعدة من أعمق مبادئ النقد التاريخى ، وبما أن التدقيق فى رواية
 الحقائق التى تكون مادة التاريخ شرط لا غنى عنه بوصفه علماً ، وبمــــا
 أن رواية الأخبار على وجهها الصحيح متوقفة على رواتها كل التوقف ، فإن
 أول قاعدة من قواعد النقد التاريخى هى القاعدة التى تقدر أن اخــــلاق
 الراوى عامل مهم فى الحكم على روايته . وفى هذا يقول القرآن " يٰٓأَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ مِّنْ بَنِيكُم مِّنْ فَتَنَيْنَا " (٥) .

- (١) سورة إبراهيم . آية ٥ .
 - (٢) سورة آل عمران . آية ١٣٧ .
 - (٣) سورة آل عمران من آية ١٤٠ .
 - (٤) سورة الأعراف من آية ٣٤ .
 - (٥) سورة الحجرات . من الآية ٦ .
- وانظر محمد راقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ترجمة
 عباس محمود - مصر ١٩٥٥ .

أما تفسير التاريخ من خلال القصص القرآني فينبني على أن الحاضر هو نتيجة الماضي ، وأن المستقبل متوقف على الحاضر : "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ" . وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ . وَمَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ " (١) .

ومن المستشرقين من لا يعتبر القرآن فيما قصه من أخبار مصدراً تاريخياً يمكن الاعتماد عليه ، وذلك لخلو هذه الأخبار من التفاصيل ، ومما يحددها في الزمان والمكان ، وعدم اتفاق بعضها مع ما جاء في كتب العهد القديم والجديد ، وكتب التاريخ القديمة .

الحقيقة أن هذا لا ينافي صدق القرآن أو صحة أخباره ، حيث إن التفاصيل التاريخية ليست من المقاصد التعليمية في قصص القرآن ، لأن قرب الحادثة أو بعدها في الزمان والمكان ، لا يؤثر فيما تحمل من عبر ، مادامت تلبيك الحوادث نابعة من غرائز الإنسان ، مرتبطة بما في كيانه من نوازع الاستقامة والانحراف ، قائمة على طريق الإنسانية التي لا تتغير في جوهرها بتغير الأجيال . فالقرآن الكريم لا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ، ولا لأجل التفكه به ، أو الإحاطة بتفاصيلها ، وإنما لأجل العبرة والموعظة والهداية : "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ" (٢) ، ولبیان سنن الاجتماع : "سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ" (٣) .

ومن المؤرخين النابهين من لا يذكر من وقائع التاريخ إلا ما يستنبط منه الأمور الكلية ، والأصول العامة ، ولا يحفل بالجزئيات لما يقع فيها من الخلاف الذي يذهب بالشقة ، ولما في قراءتها من الإسراف في الزمن ، فلا يكون عمله عرفة للتكذيب والطعن كما هو الشأن في أكثر المصنفات التي تستقصى الوقائع الجزئية (٤) .

(١) سورة الرعد من آية ١١ .

(٢) سورة يوسف من آية ١١١ .

(٣) سورة غافر من آية ٨٥ .

(٤) د . التهامي نفرة - سيكولوجية القصة في القرآن ، ص ٢٢١ - الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٧٤ .

أما إذا ورد في كتب التاريخ القديمة ما يخالف بعض هذا القصص القرآني ، فعلى أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه ، ونُقلَ إلينا بالتواتر الصحيح ، هو الحق . وما خالفه هو الباطل ، وناقله مخطئ أو كاذب ، فلا نعدده شبهة على القرآن ، لأن حال التاريخ القديم لم يكن من الدقة والتحري والضبط بحيث يكون حجة تعتمد في هذا المجال ، إذ لا رواية يوثق بها للمعرفة التامة بسيرة رجال سندها ، ولا تواتر يعتد به (١) .

وأما عدم اتفاق بعض القصص القرآني مع ما جاء في كتب العهد القديم فإن القرآن - بوصفه كتاباً سماوياً سلم من التبديل والتحريف بشهادة الباحثين المخلصين للحقيقة من غير المسلمين - جاء مصدقاً لما في التوراة والإنجيل المنزولين من عند الله ، وكاشفاً عن الحق فيهما بعد أن ألبسه التحريف بالباطل : " إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ " (٢) .

إن وحدة المصدر لهذه الكتب السماوية هي التي تجمع بينها على طريق سواء في مبادئ الدين وأصوله العامة ، وتجعل اختلافها في ذلك محالاً . وعلى هذا الاعتبار فإن تنزيه الله عن كل نقيصه ، والأنبياء عن كل معصية أصل لا يتغير في جميع الأديان ، وكلما وجدنا في نصوص العهد القديم ما يعارض مبدأ تنزيه الله ، أو عصمة الأنبياء ، أيقنا بتحريفه ، وقد خصصنا بحثاً كاملاً للحديث عن تحريف التوراة ، وذلك في الباب الثالث من هذا البحث مستنديين على أن القرآن الكريم مصدق لما قبله من الوحي : نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ... (٣)

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٢) سورة النمل : آية ٧٦ .

(٣) سورة آل عمران : ٢ - ٢ .

ونأتى هنا بواحدة من القصص التاريخية فى القرآن ونتتبع سير الأحداث فيها لنخرج فى النهاية إلى ان العرض التاريخى فى مثل هذه القصة حجة لاتقبل الطعن . تلك هى قصة " ذى القرنين " التى وردت فى سورة الكهف فى قوله تعالى : " وَيَسْأَلُونَكَ مَنِ ذِى الْقَرْنَيْنِ . قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا . إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ رِيشَ الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا . فَاتَّبَعَ سَبَبًا . حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا . قُلْنَا يَبْنَؤُا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ نَعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا . قَالَ أَتَأْتَانِي مِنْ هَٰذَا قَوْمٌ فَسُوفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا . وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ أَرْضٌ حَسَنَةٌ . وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُشْرًا . ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا . حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا . كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا . ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا . حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا . قَالُوا يَبْنَؤُا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا . قَالَ مَا مَكِّنَ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ . حَتَّى إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا . حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَكَارًا قَالُوا اتُّونِي أَفْرَغَ عَلَيْهِمْ قِطْرًا . لَمَّا انْطَعَمُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا . قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي . فَاِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ . وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا " (١) .

فى هذه القصة لم يذكر القرآن شيئاً عن شخصية ذى القرنين ... ونحن كذلك لن ندخل فى مناقشة حول من هو ذو القرنين وتحديد شخصيته إلى آخر هذا ... فليس المقصود فى القرآن الكريم من تحديد أعلام القصص ، أن يحدد شخص بنفسه لأن التشخيص قد يفسد القضية . فإذا حاولنا أن نحدد من هم أصحاب الكهف مثلاً .. ومن هو فرعون موسى ، ومن هو قارون ، إلى آخر الشخصيات التى ذكرت فى القرآن ، فإننا نتوه عن الحقيقة التى أراد الله سبحانه وتعالى أن نعرفها . ذلك أن هذه الشخصيات تتكرر فى كل زمان ومكان ،

وهى قصص مفروبة لكل عصر ، والعبرة هنا تأتى بالشيوع ، أى تأتى على من تنطبق عليهم القصة ، فى أى زمان كانوا وفى أى مكان وجدوا (١) ، وهذه هى السمة المطردة فى قصص القرآن ، فالتسجيل التاريخى ليس هو المقصود إنما الملامود هو العبرة المستفادة من القصة (٢) فعندما يضرب الله مثلاً بالذين كفروا : " امرأة نوح وامرأة لوط " ، فهو لا يعنى بذلك هاتين المرأتين بالذات فقط ، وإنما كل امرأة يكون زوجها صالحاً وتخون الله ، وعندما يضرب المثل بامرأة فرعون ، فإنما يعنى كل امرأة مؤمنة وزوجها كافر ، وهذا يتكرر فى كل عصر ، والحادثة الوحيدة التى لن تتكرر هى قصة مريم ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : " ومريم ابنة عمران " أى أنه نسبها لأبيها لأنها لا تتكرر . إذاً فالتشخيص فى القرآن الكريم ، ليس معناه انتهاء الحدث بالشخص ، ومن هنا فإننا حينما نتحدث عن ذى القرنين ، نتحدث عن رجل مكن الله له من كل شيء ، وآتاه من كل شيء سبباً ؛ ولاننتحدث عن الخلاف حول شخصية ذى القرنين ، ومن هو ، إلى آخر ما يراد به البعد عن الحكمة ، إلى فرميات ليست مطلوبة (٣) .

ومن البديهي أنه لاتجوز محاكاة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين

واضحين :

أولهما : إن التاريخ مولود حديث العهد ، فانتته أحداث لاتحصى فى تاريخ البشرية ، ولم يعلم عنها شيئاً . والقرآن يروى بعض هذه الأحداث التى ليس لها لدى التاريخ علم عنها .

وثانيهما : إن التاريخ ، وإن وعى بعض هذه الأحداث - هو عمل من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف . ونحن نشهد فى زماننا هذا - الذى تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص - أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يروى على أوجه شتى ، وينظر إليه

(١) محمد متولى الشعراوى : معجزة القرآن ، ص ٢٠٠ ، ج ٣ ، كتاب اليوم ، العدد ١٨٧ - ١٥ يونيو ١٩٨١ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن . المجلد الرابع ص ٢٢٨٩ ، ط ١٢ ، دار الشروق ، القاهرة ، سنة ١٩٨٦ م .

(٣) محمد متولى الشعراوى : معجزة القرآن ، ص ٢٠١ .

من زوايا مختلفة ، ويفسر تفسيرات متناقضة . ومن مثل هذا الركام يصنع التاريخ ، مهما قيل بعد ذلك فى التمهيم والتدقيق . فمجرد الكلام عــــن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص ، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التى ارتضاها البشر ، قبل أن تنكره العقيدة التى تقرّر أن القرآن هو القول الفصل ... وهو كلام لايقول به مؤمن بالقرآن ، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمى على السواء . إنما هو مرء !!! (١)

لقد سأل سائلون من ذى القرنين ، سألوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأوحى اليه الله بما هو وارد هنا من سيرته .. وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن فى هذه السيرة ، فنحن لانملك التوسع فيها بغير علم ، وقد وردت فى التفاسير أقوال كثيرة ولكنها لاتعتمد على يقين ، وينبغى أن تؤخذ بحذر ، لما فيها من إسرائيليات وأساطير . وقد سجل السياق القرآنى لذى القرنين ثلاث رحلات : واحدة إلى المغرب ، واحدة إلى المشرق ، وواحدة إلى مكان بين السدين .

ونقف هنا أمام ظاهرتين جديرتين بالملاحظة والاهتمام فى هذه الرحلات الثلاث أولهما : إن الله سبحانه وتعالى جعل لذى القرنين عملاً حين بلغ مغرب الشمس ... وجعل له عملاً حين بلغ بين السدين .. ولكن فى الرحلة الثالثة لم يجعل له عملاً .. إذاً لاشك أن المراد هنا هو ما ذكره الله سبحانه وتعالى : "لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا " . إن ذى القرنين قد وصل إلى مناطق فى الأرض لاتغيب عنها الشمس فترة طويلة ، أى أنه لايتعاقب عليها الليل والنهار كباقي أجزاء الكرة الأرضية .. بل تظل الشمس مشرقة عليها لفترة طويلة لا يسترها ظلام . فكان الله تعالى يريد أن يخبرنا أن هناك أماكن فى الأرض لاتخضع للقواعد تعاقب الليل والنهار كالتى تخضع لها باقى أجزاء الأرض ، وإنما تشرق الشمس عليها دون أن يسترها الظلام لفترة طويلة (٢).

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن . المجلد الرابع ، ص ٢٢٩٠ .

(٢) محمد متولى الشعراوى : معجزة القرآن ، ص ٢٠٣ .

أما الظاهرة الثانية ، فهي ظاهرة التناقض الفنى فى العرض .. فإن المشهد الذى يعرضه السياق هو مشهد مكشوف فى الطبيعة : الشمس ساطعة لا يسترها من القوم سائر . وكذلك ضمير ذى القرنين ونيّاته كلها مكشوفة لعلم الله .. وكذلك يتناقض المشهد فى الطبيعة وفى ضمير ذى القرنين على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة^(١) .

وهكذا تنتهى قصة ذى القرنين الأنموذج الطيب للحاكم الصالح ، يمكنه الله فى الأرض ، ويسر له الأسباب ، فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً ، ولكن لا يجبر ولا يتكبر ، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للفنى المادى ، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان ، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ، ولا يسخر أهلها فى أغراضه وأطماعه . إنما ينشر العدل فى كل مكان يحل به ، ويساعد المتخلفين ويدرك عنهم العدوان دون مقابل ، ويستخدم القوة التى يسرها الله له فى التعمير والإصلاح ، ودفع العدوان وإحقاق الحق . ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفعل الله ، ولا ينسى وهو فى إبان سطوته أن يعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة ، فتعود الأرض سطحاً أجرد مستوياً^(٢) .

" قَالَ : هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ . وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا " .

وهكذا فإن القصة التاريخية فى القرآن وإن لم يكن عرضاً تاريخياً بالمعنى المعروف ، لكنه حجة لا تقبل الطعن فى إثبات ماقص من وقائع تاريخية . ولقد أبان وجه الحق فيما دخل على بعض القصص من زيف أو تحريف ، سواء فى كتب العهدين ، القديم والجديد ، أو فى كتب التاريخ القديمة . وفى القرآن إشارات لا تخلو من أصول علم التاريخ وبدور فلسفته ، فعلى الدارس لقصصه ألا يقتص على معرفة الوقائع ، بل عليه أن يعرف أسبابها

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن . المجلد الرابع ، ص ٢٢٩٢ .

(٢) المرجع السابق .

ونتأفجها وسننها ، ليتعمق في فهم الحكمة التي يسير بها هذا الوجود وفسق
نواميسه من صنع الله ، وهي على أكمل نظام ، وأتقن ترتيب .

إن القرآن لم يقتصر على عرض لوحات مجردة لِماضى الإنسانية في صراع
قوى الخير والشر ، وإنما كان يهدف إلى بعث المثال من التاريخ ، لإثارة
الانفعالات الموحية بالهداية والإيمان ، واستغلال الأحداث التاريخية فى
التربية ومعالجة النزعات النفسية فى الإنسان ، وأمراض المجتمع الذى يعيش
فيه بما لتلك الأحداث من قوة مفروضة على النفس تحدث فيها انصهاراً ووعياً
وبلاغة وإحساس .

" ومن هنا كان هذا القمص التاريخى أشدَّ تأثيراً وأسمى طموحاً من
التاريخ ، لأنه يمد الإنسان بصلاح الإيمان والشباب ، ويعرفه بما لله من
نواميس قارة فى نظام الخلق والإبداع ، ومن سنن مطردة فى نظام الأقوام
والأمم ، سنن خاضعة لإرادة الله وليست مقيدة لها ، تتمل فيها الأسباب
بالمسببات ، فلا تتغير أو تتحول محابة لاحد من الناس ، لأنها محور عدل
الله وحكمته فى تدبير الأمور " (١) ، وصدق الحق سبحانه وتعالى فى قوله :
" لَلَّذِى كَانَ فى قَمَصِهِمْ مِثْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ، وَلَكِنْ تَصْدِيقُ
الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْقَوْمِ الْمُتَّقِينَ " (٢) .

(١) د . التهامى نفرة : سيكولوجية القمة فى القرآن ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٢) سورة يوسف ١١١ آية .

٢ - اللمة الواقعية :

وهي التي تعرض أنموذجاً لحالة بشرية ، فيستوى أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بهي شخص يتمثل فيه ذلك الأنموذج (١). ومن أمثلة ذلك : قصة ابنتي آدم والتي وردت في قوله تعالى : " وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ، فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ : لَأَقْتُلَنَّكَ . قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِكَ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ . وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ، فَفَتَلَهُ ، فَصَبَّحَ مِنَ الْخُسْرَى . فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ . قَالَ : يُؤْنِلْتَنِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ ، فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي . فَصَبَّحَ مِنَ النَّدَمِينَ ... " (٢).

هذه القصة تقدم أنموذجاً لطبيعة الشر والعدوان ، وأنموذجاً كذلك من العدوان الصارخ الذي لا مبرر له . كما تقدم أنموذجاً لطبيعة الخير والسماحة ، وأنموذجاً كذلك من الطيبة والوداعة . وتقفهما وجهاً لوجه ، كل منهما يتصرف وفق طبيعته (٣) ، حيث اتبع القرآن في هذه القصة أسلوب تصوير الشخصية ، وهو من الأساليب القرآنية الرائعة التي سار عليها وذلك بأن تقف الشخصيتان في حادثة معينة ، موقفين متباينين .. ثم ينطلق الحوار الناطق ، كلممة بكلمة ، والحوار الصامت ، عملاً بعمل ، ليعبر عن المعاني التي تجيش في نفس كل منهما إزاء موقفه .. ليفتح - من خلال ذلك - للإنسان الطريق الصحيح لممارسة الحياة في الإطار السليم (٤).

(١) محمد قطب : منهج الفن الاسلامي ، ص ١٥٧ .

(٢) سورة المائدة ٢٧ - ٣١ .

(٣) سيد قطب : في ظلال القرآن . المجلد الثاني ، ص ٨٧٤ .

(٤) محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن ، ص ٣٣١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٨٥ .

أما من السياق فتبدو القصة واهجاءاتها ملتحمة التحاماً قوياً مع الأحكام التالية لها في السياق القرآني ، ويحسن القارئ المتأمل للسياق بوظيفة هذه القصة في موقعها ، وبعمق الإيحاء الإقناعي الذي تسكبه في النفس وترسيه ، والاستعداد الذي تنشئه في القلب والعقل لتلقى الأحكام المشددة التي يواجه بها الإسلام جرائم الاعتداء على النفس والحياة ..

ولا يحدد السياق القرآني لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة . وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن " قابيل وهابيل " وإنهما هما ابنا آدم في هذه القصة ، وورود تفصيلات عن القضية بينهما ، والنزاع على اختيبيهما . فإننا نؤثر أن نستبقى القصة ، كما وردت - مجملة بدون تحديد - لأن هذه الروايات كلها موضع شك في إنها مأخوذة عن قصة التوراة الواردة في سفر التكوين (١) . وبقاء القصة مجملة - كما وردت في سياقها القرآني - يوهدى الغرض من مرضها ، ويوهدى الإيحاءات كاملة ، ولا تضيف التفصيلات شيئاً إلى هذه الأهداف الأساسية ..

ولا يكتفى السياق بالانتهاء من عرض القصة ، بل يلتقط الآثار العميقة التي تتركها في النفس رواية النبأ بهذا التسلسل ، ليجعل منها ركيزة شعورية للتشريع الذي فرض لتلافي الجريمة في نفس المجرم ، أو للقصاص العادل إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القصاص التي تنتظره : " مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا . وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ " (٢)

من أجل ذلك .. من أجل وجود هذه النماذج في البشرية .. من أجل الاعتداء على المسالمين الوادعين الخيرين الطيبين ، الذين لا يريدون شراً ولا عدواناً .. ومن أجل أن الموعظة والتحذير لا يجديان في بعض الجبلات المطبوعة

(١) التكوين (٤ : ١ - ١٧) .

(٢) سورة المائدة : ٣٢ .

على الشر ، وان المسألة والمواذمة لا تكفان الامتداء حين يكون الشر مميق
الجدور في النفس .. من أجل ذلك جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة كجريمة
من الكبائر ، تعدل جريمة قتل الناس جميعاً ، وجعلنا العمل على دفع القتل
واستحياء نفس واحدة عملاً عظيماً يعدل انقاذ الناس جميعاً .. ولقد كتب
الله ذلك المبدأ على بنى إسرائيل ، لأنهم كانوا - في ذلك الحين - هم أهل
الكتاب ، الذين يمثلون "دار الإسلام" ، ما أقاموا بينهم شريعة التوراة
بلا تحريف ولا إلتواء .. ولكن بنى إسرائيل تجاوزوا حدود شريعتهم - بعد
ما جاءتهم الرسل بالبينات الواضحة - وكانوا على عهد رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - وما يزالون يكثر فيهم المسرفون المتجاوزون لحدود شريعتهم .
والقرآن يسجل عليهم هذا الإسراف والتجاوز والامتداء ، بغير عذر ، ويسجل
عليهم كذلك انقطاع حجتهم على الله وسقوطها بمجيء الرسل إليهم ، وببيان
شريعتهم لهم (١) كما في قوله تعالى :

" وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي السَّ
الْأَرْضِ لَكُمُورُونَ " (٢) وهل من إسراف أشد من تجاوز حدود الله ؟ والتعدي على
شريعته ، بالتغيير أو بالاهمال ؟

إن هذه القصة الواقعية القصيرة أو " القصة الذرية " (٣) - قصة في
خمس آيات - لأنها تشبه الذرة في ضالتها ومساحة تأثيرها الكبير ، والتي
لغناها علينا القرآن في إطار الحوار القصير ، تجسد لنا الصورة الحية لشخصية
الإنسان الشرير إلى جانب شخصية الإنسان الخير ، لتربطنا بفكرة الخير
وتبعدنا عن فكرة الشر ، في موقف يوحى للناظر والمستمع ، بفضاعة موقف ذاك
إزاءة روعة موقف هذا ، حيث نرى الجريمة خالية من كل مبرراتها وحشياتها
العادلة التي تجعل منها عملاً عادلاً ، لأنها نشأت من حالة نفسية معقدة بالحسد ،
فليس للفضية فيها أى ذنب ، بل نجد - في جو الآية - أن الضحية لم تحاول

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن . المجلد الثاني ص ٨٧٧ - ٨٧٨ .

(٢) سورة المائدة من الآية ٣٢ .

(٣) على شلش : في عالم القصة ، ص ٢٩ ، ط (١) مطبوعات الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

ان تجعل من قبول قربانها ورفض قربان المجرم لها ، أساساً لأى تصرف استعراضى
يسىء إلى كرامته على الشكل الذى يتبعه الراجون أمام الخاسرين لأن خلُق
الأخ المؤمن كان بعيداً عن ذلك كل البعد .

ولعل قيمة هذه القصة ، أو بالأحرى ، عرض القرآن لهذه القصة ، تتمثل
فيما تخلقه فى نفس القارئ أو السامع ، من تأثير نفسى ضد الجريمة والمجرم ،
وتعاطف روى مع الفحيرة ، مما يترك آثاره على السلوك الإنسانى العام فيمما
يريد أن يقدم عليه من عمل ، أو يحكم عليه من أعمال الآخرين .

" ويمكن الاستفادة من مثل هذه القصة تربوياً إذ تعتبر هذه القصة وسيلة
حية للإيضاح عندما تتحول إلى عمل مسرحى أو ما يشبه ذلك ، وأسلوباً من
أساليب التوجيه والتربية فقد نجد من الخير لنا ، أن نجعلها إحدى القصص
الدينية التربوية التى نقدمها للأطفال أو للشباب ، بالأسلوب الذى يتناسب
مع ذهنياتهم فى عملية تصويرية حية ، بالكلمة أو بالصورة ، أو بالتمثيل
كما أنه يمكن استيحاء هذه القصة فى وضع قصص متنوعة قريبة إلى مثل هذه
الأجواء ، لتعالج قضية الجريمة والمجرم ، فى أى جانب من جوانبها ، سواء منها
الذى يتمثل بالقتل ، أو بالسرقة ، أو بالزنا ، أو بالظلم والاعتداء على
الناس بشكل عام . . لأن دور الأسلوب القرآنى هو دور تخطيط المنهج التربوى
ليسير عليه الآخرون فى حركة اتباع أو استيحاء وإبداع وليس دور إعطاء
النصوص ، لحفظها واستظهارها ، ونقلها بطريقة "بيغائية" جامدة لامتلاك
أن تتصرف أو تتحرك فى اتجاه التنوير^(١) .

٣ - القصة التمثيلية :

وهى نوع من أنواع المثل فى القرآن الكريم يطلق عليه المثل القياس ،
وهو سرد قصص أو وصف ، يتعاطى أحد أمرين ، فهو : إما أن يصور أنموذجاً
من السلوك الإنسانى بقصد التأديب أو التمثيل والتوضيح ، وإما أن يجسم

(١) محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

مبدأ يتعلق بملكوت الله ومخلوقاته (١).

وكما يتفتح الصدق الواقعي في القصص التاريخي ، وهو أكثر قصص القرآن ، فإن الصدق في القصص التمثيلي يلاحظ من وجهتين : موضوعية وفنية :

أما الوجهة الموضوعية ففي تمثيله بأشخاص غير معينين لم يكن لهم وجود بأسمائهم في واقع التاريخ ، ولكن وجود أمثالهم في واقع الحياة ممكن ، وذلك من حيث مواقفهم وتصرفاتهم التي تمليها نوازع نفسية راسخة في شعور الإنسان لأنها من طباعه وفي غرائزه .

وأما الوجهة الفنية ، ففي تصويره للشخصية من خلال الحوار تصويراً حياً ، وفي دقة نقله لمشاعرها وتعبيره عن مواجيدها وأحاسيسها ، وهذه وظيفة الفن (٢).

ومن أبدع القصص التمثيلي في القرآن قصة صاحب الجنتين لما فيها من تشخيص حي للمشاهد يقصر منه التعبير في أي أسلوب آخر غير الأسلوب القصصي ، والقصة تضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية ، وترسم أنموذجين واضحين للنفس المعترزة بزينة الحياة ، والنفس المعترزة بالله . وكلاهما أنموذج إنساني لطائفة من الناس : صاحب الجنتين أنموذج للرجل الشري ، تذهله الشروة ، وتبطره النعمة ، فينس القوة الكبرى التي تسيطر على أقسى دار الناس والحياة . ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفتنى ، فلن تخذله القسوة ولا الجاه . وصاحبه أنموذج للرجل المؤمن المعتر بآيمانه ، الذاكر لرئيسه ، يرى النعمة دليلاً على المنعم ، موحية لحمده وذكره ، لا لجوده وكفره (٣) :

(١) د. عبد المجيد عابدين : الأمثال في النشر العربي القديم ، ص ١٥٨ ، ط ١ ، دار مصر للطباعة . القاهرة ، ١٩٥٦ .
وانظر كذلك د. بكرى شيخ أمين : التعبير الفني في القرآن ص ٢٣١ ، دار الشروق ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٦ .

(٢) د. التهامي نفرة : سيكولوجية القصة في القرآن ، ص ٢٤٥ - ٢٤٨ .
(٣) سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢٢٧٠ .

"وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ ، وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا . كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكْلَهَا ، وَلَمْ تُظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا ، وَفُجِّرَتْ خِلْلَهُمَا نَهْرًا . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ . قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : أَكْثَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ تُظْفِقُ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا . لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ، وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا . فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ، وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا . وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا آنَفَقَ فِيهَا ، وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا . وَيَقُولُ لِيَلَيْتَنِي كُنْتُ كَمِثْلِ هَذَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةً يَنْمُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتِمِرًا ، هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ . هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا " (١) .

تبدأ القصة بمشهد الجنتين في ازدهار وفخامة ، ويختار التعبير كلمة "تظلم" (كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) في معنى تنقص وتمنع ، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر ، وازدهار وتكبر (٢) ... ونلاحظ أن صاحب الجنتين قد بدأ الحوار مع صاحبه من موقع الإحساس بالقوة ، بسبب ما يملك من كثرة المال والأتباع ، فكان خطابه - معه - ينطلق من محاولته لإخضاعه نفسياً بمواجهته بواقع الفارق الكبير بينهما ، وتميزه عنه ، أما صاحبه الموءم من الفقير فيقف في حوار مع صاحب الجنتين ، في موقع الإنسان الرسالي الذي يستنكر على هذا الغنى المزهو بغناه ، كفره باليوم الآخر ونسيانه لله ... ويبدأ في تذكيره بنعم الله عليه وحاجته إليه

(١) سورة الكهف : ٣٢ - ٤٤ .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن . المجلد الرابع ، ص ٢٢٧٠ .

فى كل شىء .. لىبقى مشدوداً إلیه فى حال الإحساس بالقوة ، كما یشعر
بالارتباط به فى حال الإحساس بالضعف ، لأن القوة به ، یهبها لمن یشاء
ویسلبها ممن یشاء .. وبهذا یتجدد لنا الفارق الكبير بین العقلیتیـــــن
والاتجاهین فى فهم الحیاة من خلال هذا الحوار الذى أداره القرآن الکریم
بین الرجلین لنستوحى منه الفكرة التى تحکم الموقف فى حساب القیم والمعانى
الکبیرة فى الإسلام (١) .

وتکتمل الصورة ، بالمشهد الأخير فى القمة ، حیث ینقلنا السیاق
فجأة من مشهد النماء والازدهار إلی مشهد الدمار والبوار . ومن هیئة البطر،
والاستکبار إلی هیئة الندم والاستغفار . فلقد کان ماتوقعه الرجل المؤمن :
"وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ یَقْلِبُ کَفَّیْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِیْهَا وَهِيَ خَاوِیَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا
وَقَوْلُ یَلِیتَنِی لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّیْ أَحَدًا" .. وهو مشهد شاخص کامل : الشمر کلّه
مدمر کإنما أخذ من کل جانب فلم یسلم منه شىء . والجنة خاویة على عروشها
مهشمة محطمة . وصاحبها یقلب کفیه أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده
الذاهب .. وهنا یتجدد لنا الدرس الرائع حیث نجد الإنسان المتجبر المزهو
بذاته وبثرائه ، عاریاً من کل شىء أمام الحقیقة الکبیرة التى تملأ الـکون ..
فلا نرى هناك إلا الله الذى یمنح ویأخذ ، ویعطى ویمنع .. فله الولاية الحق
على کل شىء : " وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ یَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ . وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا
هَٰذَاكَ الْوَلِیَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ . هُوَ خَیْرُ ثَوَابًا وَخَیْرُ عُقْبًا " .

ویسدل الستار على مشهد الجنة الخاویة على عروشها ، وموقف صاحبها
یقلب کفیه أسفاً وندماً ، وجلال الله یظلل الموقف ، حیث تتوارى قـــــدرة
الإنسان " (٢) .

(١) محمد حسین فضل الله : الحوار فى القرآن ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

(٢) سید قطب : فى ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢٢٧١ .

٤ - الكلمة العاطفية :

تكلم القرآن الكريم من الحب ، والهوى ، وتخلل الحب بعض قصصه لأهداف ومغنية أو مز بها القرآن الكريم لكي تستثمر فكراً كمطلق لدراسة السلوك الإنساني والعواطف البشرية ، وذلك خلال هدفها الديني المباشر .

مفهوم الحب في القرآن الكريم :

ظلت كلمة الحب من أكثر الألفاظ تردداً في القرآن الكريم ، من أي كلمة أخرى تعبر عن معناها أو جانب من هذا المعنى ، فلم ترد كلمة " العشق " في القرآن مطلقاً ٠٠٠ وقد وصف " العشق " بأنه تعبير عن الاشتها في حين أن " الحب " ميل قلبي ليس الاشتها ، دافعه أو غايته ، والأمر اللافت حقاً أن " الحب " في القرآن الكريم جاء لمجرد الميل والتعلق ، فوصف به الذين آمنوا : " وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ " (١) ، ووصف به المؤمنون بأن الله تعالى " يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ " (٢) ، و" قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ " (٣) ووصف به الانحراف في العبادة : " وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَتَخَذُونَ اللَّهَ أُتَادًا يَحِبُّونَهُمْ يَحِبُّ اللَّهُ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ " (٤) ، كما وصف به الميل والتعلق بصفة عامة بين أفراد الأسرة ، بل بين الإنسان وما يستهويه من متاع الدنيا : " قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ " (٥) ، وايضا : " زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ .. " (٦) .

(١) البقرة من آية ١٦٥ .

(٢) المائدة من آية ٥٤ .

(٣) آل عمران من آية ٣١ .

(٤) البقرة من آية ١٦٥ .

(٥) التوبة : آية ٢٤ .

(٦) آل عمران من آية ١٤ .

وقد جاء الفعل "لايحب" لشيئ الميل في نفس هذه الدائرة من الاستعمال العام : "قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ" (١) و"هَآنَتُمْ أَوْلَاءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالنَّكِتَةِ كَلِمَةٍ" (٢).

وقد جعل ابن قيم الجوزية ، الحبَّ أول خطايا البشرية ، وسبب معاناتها بالخروج من الجنة ، وإن دلَّ اللفظ على أنه مردود لقول آخرين لم يعنهمهم : "قالوا : وقد حبَّ الله سبحانه وتعالى إلى رسله وأنبيائه نساءهم وسرايرهم ، فكان آدم أبو البشر شديد المحبة لحواء ، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق زوجته منه ليسكن إليها . قالوا : وحبّه هو الذي حمله على موافقتها في الأكل من الشجرة . قالوا : وأول حب كان في هذا العالم حب آدم لحواء ، وصار ذلك سنة في ولده في المحبة بين الزوجين" (٣).

على أن الخطاب في الآيات القرآنية موجه غالباً إلى آدم وحواء معاً ، والوصف بالعصيان خصَّ به آدم وحده ، ولم يقل لنا "ابن القيم" إذا كانت سنة الحب "بين الزوجين" قد بدأت بآدم وحواء ، متى بدأت "سنة" الحب بين من ليسا بزوجين (٤) !!

والحب كتعبير عن علاقة الرجل بالمرأة لم يرد في القرآن الكريم إلا في سياق قصة يوسف وامرأة العزيز حيث (قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) ، وحينئذ فلنأخذ تقديم "الشغف" - وهو من شغاف القلب أي الباطن والصميم - قد خلج على هذا الاستعمال نوعاً من التخصيص أعان عليه السياق . والآن مع متابعة قصة يوسف وامرأة العزيز خطوة خطوة لنرى كيف تتجسد من خلالها الصورة الحيّة المعبرة التي أراد القرآن منا أن نتمثلها في حياة الأنبياء السابقين :

(١) الأنعام من آية ٧٦ .

(٢) آل عمران من آية ١١٩ .

(٣) ابن قيم الجوزية : روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، ص ١٦٩ .
وانظر : د. محمد حسن عبد الله : الحب في التراث العربي ص ١٢ . عالم المعرفة (٣٦) . الكويت سنة ١٩٨٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣ .

يوسف وامرأة العزيز : "وَرَأَى دَعَاةَ النَّاسِ يَوْمَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ . قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . وَلَئِنْ هَمَّتْ بِهِمْ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّي . كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ . وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ هِيَ رَأَى وَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ . إِنْ كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ . يَوْسُفَ أَفْرِضْ عَنْ هَذَا . وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ . وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكُونًا وَهَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْهِنَّ . فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا . إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ . وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجُنَ وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ . قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " (١) .

تلك الصورة كاملة في قصته مع امرأة العزيز .. الجو مشبع بالإغراء .. وبالعوامل التي تقود إلى الانحراف .. فيوسف شاب في المرحلة المتفجرة من شباب الغريزة وحيوتها وامرأة العزيز أنثى يحرق مشاعرهما وأحاسيسهما جمال يوسف الرائع وشبابه المتفجر .. والأجواء التي يعيشها الاثنان تهـمـسـة للألطف والاستلطاف للحب .. وتبدأ لتمهد للانحراف في ظل الخلوات .. والمشاعر تلتهب ، والغريزة تلهث ، في كيان هذه المرأة .. أما يوسف فلم يشغل ذهنه في هذا كله - للإيمان الذي يغمر قلبه ، والوفاء الذي يشعر به تجاه صاحب البيت (٢) .

(١) سورة يوسف آية ٢٣ إلى آية ٢٤ .
(٢) محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن ، ص ٢١٣ .

وقد كنى القرآن الكريم عن المرأة التى دعت يوسف إلى نفسها بقوله تعالى : " التى هو فى بيتها " سترأ على هذه المرأة ، حتى لا تفضح بين أهلها وتوجهها عن الملا . . كما أن فى إضافة يوسف إليها ، وبأنه فى بيتها ، إشارة إلى أنها ذات سلطان على يوسف ، الذى هو نزيل بيتها ، وربيب نعمتها ، وأن لها أن تأمر ، وعليه أن يطيع . . فإن لم يكن ذلك بسلطان جمالها ، كان بسلطان جاهها . . فكيف وببيديها سلطان الجمال وسلطان الجاه؟ (١)

ولذا فإن القمة لم تشر إلى أية مبادرة منه ، بل كانت المبادرة من امرأة العزيز . . وراودته عن نفسه . . وغلقت الابواب . . وقالت هيت لك . . هذه الدموة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة . . إنما تكون هى الدعوة الأخيرة . . وقد لا تكون أبداً إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً . . والفتى يعيش معها وقوته وفتوته تتكامل ، وأنوثتها هى كذلك تكمل وتنضج ، فلا بد كانت هناك إغراءات شتى خفيفة لطيفة ، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة (٢) .

فإذا كان من امرأة العزيز هذا الاسترخاء لجمالها وسلطانها أمام سلطان حبها ليوسف - فإن هذا إنما يدل على مدى تمكن الحب من قلبها ، حتى وقف بها هذا الموقف المهيمن لدلال المرأة ، وعفاف الحرّة ، وامتهان سلطان الجاه والجمال! (٣) .

(١) عبد الكريم الخطيب : قصتا آدم ويوسف عليهما السلام ، ص ٧٥ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٤ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ١٩٨٠ .

(٣) عبد الكريم الخطيب : قصتا آدم ويوسف عليهما السلام ، ص ٧٥ .

بعد هذا العرض المشّيع بالإشارة جاء رد يوسف يحمل كلمة الإيـمـان: "معاد الله" .. وكلمة الوفاء: "إنه ربى أحسن مثواى" .. ومضى يلخص لها الموقف فى كلمة حاسمة: "إنه لا يفلح الظالمون" .. فهى تظلم نفسها بالمعصية وتظلم زوجها بالخيانة، فى هذا الموقف، أما هو، فيلاحقه الشعور بأنـه سيتحول، إلى ظالم لنفسه، ولرب البيت الذى آواه ورعاه، فيما لـم تجاوب معها فى خط الانحراف والخيانة .. ولم تستجب للكلمة الحاسمة، فاعتبرتها دلالاً، أو خوفاً من النتائج .. وضاعفت الإغراء .. وهمت به لتثيـره وتنحرف به عن موقفه الصامد: "ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهـم ربـه" .. هو موقف طويل من الإغراء، بعدما أبى يوسف فى أول الأمر واستعصم .. وهو تصوير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف، ثم الاعتصام بالله فى النهاية والنجاة .. ولكن السياق القرآنى لم يفصل فى تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبـة، لأن المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحة المناسبة فى محيط القصة، وفى محيط الحياة البشرية المتكاملـة كذلك. فذكر طرفى الموقف بين الاعتصام فى أوله والاعتصام فى نهايته، مع الإمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيـف جميعاً (١).

ولم يكن أمام يوسف إلا الهرب بدينه وإيمانه وخلقه .. وانطلقت وراءه فى حركة مسعورة، لترجعه بكل قوة .. حتى تمزق قميصه من ذلك .. وكانت المفاجأة لهما بالمرصاد .. فالفيا سيدها لدى الباب .. وحاولت أن تبسرى نفسها لتكون فى موقف الضحية .. أمام المعتدى .. ولكن براءة يوسف كانت ظاهرة فى نبرات صوته، وصفاء روحه، وفى شهادة حاله التى تأكدت بالحكم

(١) سيد قطب: فى ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ١٩٨١.

الذى رفع القضية فى إطار مطلحته (١). واقتنع الزوج ببراءة يوسف ، وأقبل على امرأته ، لا ليدينها وحدها فى شخصها ، بل ليجعل التهمة مشاعة فى بنات جنسها جميعاً .. "قال إنه من كيدك "أيتها النساء" إن كيدك عظيم" .. إنه يتهمها بأنها المدبرة لهذا المنكر، والداعية إليه ، ولكنه يفلت هذا الاتهام بتلك الكياسة السياسية التى هى صفة الملوك ، ومن فى صفة الملوك .. ثم ينهى هذا الموقف بالجمع بين المرأة وفتاها ، فى مقام النصيح واللوم والتأنيب .. فيقول ليوسف : "يوسف أعرض عن هذا" ثم يلتفت العزيز إلى امرأته قائلاً : "واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين " وفى التعبير بلفظ الخاطئين ، بدلا من الخاطئات ، ليخفف عنها وقع التهمة ، فلا يجعـل الخطيئة ملامزة على بنات جنسها وحدهن ، بل يشاركهن الرجال فيها ، ولو أنه كان يريد أن يلقي امرأته بالاتهام المريح ، لقال لها : إنك كنت خاطئة ... ولكنه ، كان يخاطبها بما يقضى به أدب الملوك ، من اصطناع الكياسة ، واللباقة ، واللفظ " (٢).

ويسدل الستار على المشهد ومافيه .. وقد صور السياق تلك اللحظة بكل ملابساتها وانفعالاتها : " ولكن دون أن ينشأ منها معرضاً للنزوة الحيوانية الجاهرة ، ولامستنقعاً للوحل الجنى المقبوح " (٣).

ولم يحلّ السيد بين المرأة وفتاها .. ومضت الأمور فى طريقها .. ولكن للقصور جدراناً ، وفيها خدم وحشم . ومايجرى فى القصور لايمكن أن يظل مستورا ، وبخاصة فى الوسط الارستقراطى ، الذى ليمرلنساءه من هم إلا الحديث عما يجرى فى محيطهن .. وإلا تداول هذه الفضائح ولو كها على الألسن فى المجالس

(١) محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن ، ص ٣١٤ .

(٢) عبد الكريم الخطيب : قصتا آدم ويوسف عليهما السلام ، ص ٨٣ .

(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ١٩٨٣ .

والسهرات والزيارات : " وقال نسوة فى المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها من نفسه . قد شغلها حباً ، إنها لشراها فى هلال مابين " . لأول مرة نعرف أن المرأة هى امرأة العزيز ، وأن الرجل الذى اشتراه من مصر هو عزيز مصر - أى كبير وزرائها - ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر فى المدينة . ونتساءل هنا : ومادامية الكشف عن وجه المرأة وعن مكانتها فى المجتمع ؟ وقد كان يمكن أن تمضى أحداث القصة دون حاجة إلى معرفة هذه المرأة بالذات ، وحسبها أن تكون امرأة وقعت فى حب ربيبها ؟ ونقول - والله أعلم - أن القرآن الكريم لم يكشف عن وجه المرأة من قبل ، لأن الأحداث كانت تجرى على المستوى المألوف فى حياة عامة الناس وخاصتهم على السواء . . . فإى بيت كان يمكن أن يضم إليه يوسف وإى امرأة كان من الممكن - أن تراوده عن نفسه ، سواء أكانت امرأة ملك أو سوقة . . . إنها امرأة أياً كان وضعها الاجتماعى إذ لم يكن ليوسف خيار فى اختيار السيد الذى يملكه ، والمرأة التى تكون فى بيت هذا السيد . . . أما حين يكون للحدث ذكر ، شأن يراود به الكشف عن وقعه ، فى المجتمع وأثره فى الناس ، فإن الأمر يختلف بالنسبة لمن يتعلق به الحدث من حيث وضعه الاجتماعى ومكانته فى المجتمع ، فالحدث يكبر أو يصغر ، وتتسع دائرته أو تضيق ، تبعاً لما تعلق به الحدث . ومن البديهي أن تتعلق عيون الناس وآذانهم بأصحاب السلطان والسيادة فيهم ، يتسمعون إلى أخبارهم ، ويشتغلون بالحديث عنهم . . . وعلى الرغم من أن حادثة امرأة العزيز كانت فى دائرة ضيقة ، لا تتعدى المرأة ، ويوسف ، والعزيز زوجها ، فإنه سرعان ما نفذت العيون من خدم القصر إلى هذا السر ، ووقعت الأذان عليه ، فكان همساً على الشفاه ، ثم حديثاً دائراً على الألسنة ، أقرب إلى الإشاعة منه إلى الحقيقة - ومن هنا كان لابد من كشف وجه هذه المرأة التى اهتم الناس بأخبارها ، وشغلوا بالحديث عنها . . . إنها امرأة العزيز وأن بيتها ليضم سراً خطيراً . . . إنها تراود فتاها عن نفسه ، وهو يتأبى عليها ، وهو فى الوقت نفسه ملك يديها (١) .

(١) عبد الكريم الخطيب : قصتا آدم ويوسف عليهما السلام ، ص ٨٧ .

الأسلوب التربوي في القصة :

١ - إن قيمة هذا الحوار كله يظهر في تجسيد صورة المؤمن عندما يتعرض للاحتراق في جحيم تجربة الانحراف عن الخط المستقيم ، أمام نـسـداء الجنس .. فيقف مع إيمانه مهما كانت التضحيات والآلام .

٢ - يتفتح لنا من خلال المواقف المختلفة في مشاهد القصة أنه كان هناك حواراً صامتاً من جهة .. وحواراً طويلاً متنوعاً تدل عليه التجارب الفاشلة الممريرة التي حاولتها هذه المرأة - بما في ذلك المؤمن المتمسك بالنسائي الذي عقدته في بيتها .. وإن كانت كلمات الحوار بين يوسف وامرأة العزيز قصيرة جداً إلا أنها تقدم لنا الأنموذج الحي للموقف الإيماني الصلب أمام محاسن ومساوئ الإغراء ، للإيحاء بأن قضية الدعوة إلى العفة في المجالات الجنسية ، ليست من القضايا المثالية التي تبتعد عن واقع التطبيق العملي للحياة الإنسانية ، بل هي من قضايا الواقع التي تتمثل بأكثر من تجربة في أشد المواقف حرجية وصعوبة (١) .

٣ - هذا وقد ينظر بعض ذوى الأبصار الكلية إلى هذه القصة ، ومافيها من المواقف العاطفية بين الرجل والمرأة ، فيخيل لهم من ذلك القرآن الكريم إنما اصطنع هذا الموقف اصطناعاً ليرتضى به بعض الفرائز ، استهواءً للنفس ، وشداً لانتباهها ، كما يحدث ذلك في أغلب ما يعرض القصاصون من قصص .. وهذا لاشك فلال في الرأي ، وفساد في الإدراك .. فالقصص القرآني متنزل من عالم الحق ، لا يلتبس به باطل (٢) ، وإنما هو كما وصفه الحق سبحانه وتعالى في قوله : " وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ " (٣) .

(١) محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن ، ص ٣١٥ .

(٢) عبد الكريم الخطيب : قصص آدم ويوسف عليهما السلام ، ص ١٣٩ .

(٣) سورة الإسراء : من الآية ١٠٥ .

ولعل هذه الرواية تجعلنا نشير التفكير حول نقطتين مهمتين —————
نستوحيهما من مرض القصة :

أ - النقطة الأولى : إن الدين لا يتنكر للحديث عن الجوانب العاطفية
فى حياة الإنسان بما فى ذلك قصص الغرام والحب التى يعيشها الناس ، إذا
كانت تخدم الأهداف الرسالية ، باعتبارها تمثل موقفاً من مواقف الانتصار على
الفساد فى نوازعها الغريزية وشهواتها الجنسية .. لتعطينا الأنموذج الواقعى
للإنسان الذى ينسجم مع رسالة الله . كدليل حى على واقعية الإسلام فى شريعته ،
ومفاهيمه .. وربما تصور بعض المواقف المساوية للرجل والمرأة بسبب
انحراف خاص ، أو سلوك غير مسؤول .. فتنتطق القمة لتكون أسلوب ردع وتحذير
عن مثل هذه المواقف فى المستقبل .. ولهذا فإن من الممكن أن نستفيد من
ذلك فى التخطيط للأدب الإسلامى المتلزم ، بالأخذ بالاتجاه القصصى الذى يعطى
للمضمون العاطفى فى قصص الحب والغرام دوره الكبير فيما يؤلف من قصص ..
إلى جانب المضمون الاجتماعى ، والسياسى وغيرهما ..

ب - النقطة الثانية : إن الدين يتحدث عن العلاقات الجنسية —————
الشرمية أو المنحرفة - حديثاً طبيعياً كما يتحدث عن أية قضية أخرى —
علاقات الإنسان - مما يوحى بأنه لا يعتبر مثل هذه العلاقات ، فى مجالات المعرفة ،
شيئاً معيباً ، كما توحى به التقاليد الاجتماعية ، بل ربما نفهم من كثير من
الآيات والأحاديث التى تسمى الأشياء بأسمائها .. كما تسمى سائر أعضاء الجسم
العادية ، إن الإسلام لا يمانع فى الثقافة الجنسية حينما تخطط تخطيطاً سليماً
بعيداً من أجواء الإشارة تماماً كأي ثقافة أخرى (١) ..

وخلاصة القول أن قصة يوسف وامرأة العزيز عندما عرضت الفتنة التى وقع
فيها يوسف فإنها عرضت لحظة الضعف كما هى بلا " رتوش " ، إنها فتنة . إنها
ضعف . إنها خضوع لدافع من دوافع النفس الفطرية . ولكنها - على واقعيتها -
لا تستحق الاحتفال ، إلا من جانب واحد .. هو أن الإنسان يفتىء منها إلى نفسه ،
ويعرف أنها كانت لحظة ضعف فيرتفع عنها ، وينيب إلى الله (٢) .

(١) محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦

(٢) محمد قطب : منهج الفن الإسلامى ، ص ١٥٧ .

٥ - القصة الرمزية :

قبل ان نقدم أنموذجاً للقصة الرمزية في القرآن الكريم يجب أن نحدد نقطتين مهمتين لفهم " الرمزية " في قصص القرآن الكريم :

أولاهما : إن الرمزية في قصص القرآن الكريم قد جاءت لتأكيد قيمة المعاني الثانية في هذه القصص ، وهو ما يسمى بإيحاءات الألفاظ ووقعها النفس في الصورة الأدبية ، وهذا ينقلنا إلى أقدم تعريف للرمز على المستوى اللغوي قدمه " أرسطو " فهو يرى : " إن الكلمات رموز لمعاني الأشياء ، أي رموز لمفهوم الأشياء الحسية أولاً ثم التجريدية ، و "أن" الكلمات المنطوقة رموز لحالات النفس ، والكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة " (١).

أما الموسوعة الانجليزية فقد جاء منها : " إن الرمز " مصطلح أطلق على الموضوع المرئى الذى يمثل بالعقل تشابه " Semblance " شىء غير مرئى " not shown " ولكنه تحقق من طريق الارتباط به أو التداعى " Association " (٢).

إذاً فالرمز ليس نقلاً عن الواقع ، وإنما أخذ منه ثم تجاوزه ، وتكثيفه ليتخلص من واقع المادة ليرتفع إلى مجال التجريد . وهنا يتحقق الإيحاء " Suggestion " بالانفعالات والأفكار عن طريق إعادة خلقها في العقل كى يتم التعبير عن حالات نفسية تستعص على التفسير أو التقريير ، كفكرة الحياة والموت والانهاية وفقدان المعنى ، ولذا وجد ما أطلق عليه بعداً ثالثاً " A third dimenion " وهو البعد الإيحائى الذى

(١) د. محمد فتوح أحمد : الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، ص ٣٦ ، دار المعارف

مصر ، ١٩٧٠ .

Encyclopedia Britannica. Vol.21 P.701 year 1956.

(٢)

يحقق التوافق بين المحسوس والمجرد (١).

ثانياً : إن القرآن لا يقص قصة إلا ليواجه بها حالة .. ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلاً، فهو يتحرك حركة واقعية حية في وسط واقعي حي ، إنشده لا يقرر حقائقه للنظر المجرد ، ولا يقص قصصه لمجرد المتاع الفني (٢).

ولذا يمكن القول أن الرمزية في قصص القرآن نجدها في تعدد مشاهدته في السور لظروف وأسباب يستدعيها المقام ، فتجيء مطابقة للأحوال المتعددة وللمواقف الكثيرة ، وللنفوس المتغايرة ، لأن هذه المعاني أدل في كل أغراض القرآن ، وهي متصلة أوثق اتصال بالدلالات الأولى باعتبارها مبعث الإشارة ، والطريق إلى المعاني الشوانى ، كما أنها تتنوع إلى دينية ونفسية واجتماعية في إطار ديني تدعو إلى العقيدة الصحيحة ، وإلى الإيمان بالله ، وإلى خلق الأنموذج المتكامل (٣).

ومن نماذج القصة الرمزية في القرآن قصة آدم فهي من أكثر قصص القرآن شراً بالجوانب الرمزية والمعاني الشوانى ، ولتأخذ مشهداً مأثراً إبليس لآدم وزوجه والذي ذكره الله تعالى في قوله : " فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا ، وَقَالَ مَانِهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ، وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِيسْرٌ النَّاصِحِينَ " (٤). وفي قوله تعالى : " فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ .. قَالَ يَأْتَدُمُ : هَلْ أَذُنُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لَابِيْلَى " (٥).

Charles Chadwick : Symbolism. p.6 First Publication
Britain 1977.

(١)

- (٢) سيد قطب : في ظلال القرآن . ج ٣ ، ص ١٢٤٧ .
- (٣) د. فتحي أحمد عامر : المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ، منشأة المعارف . الاسكندرية ، ١٩٧٦ .
- (٤) سورة الأعراف : ٢١ و ٢٠ .
- (٥) سورة طه : الآية ١٢٠ .

١ - لاشك أن هذه الأوصاف التي خلعتها إبليس على الشجرة لاتلتقى مع الواقع ، ولاتستقيم مع الحق ، وإنما هي من تلفيقات إبليس وأكاذيبه ، ليخدع بها ويغري ، ومع هذا فإن المفسرين والقصاص قد ذهبوا في الحديث عن نوع الشجرة كل مذهب ، مستنديين في هذا إلى روايات معزوة إلى بعض الصحابة والتابعين أو إلى ما يرجع إلى مصادر إسرائيلية . والحقيقة أن القرآن الكريم إذ وقف بالشجرة دون أن يحدد نوعها ، وإنما ذلك لأنها معروفة معهودة لآدم وزوجته ، ثم إن عدم تحديد نوعها في الحديث إلينا عنها يسمح لأن يكون للشجرة مفهوم خاص مندنا ، لايدخل فيه نوعها .. أيا كان : فلنحاول أن نفهم ما ترمز إليه هذه الشجرة ؛ إن نهى آدم عن الاقتراب منها إنما هو امتحان له ، وابتلاء لعزيمته ، أمام الإغراء وحب الاستطلاع : " وَلَقَدْ عَاهَدْنَاكُمْ إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ ، فَتَنَّاوْكُمْ فَتَمَّ نَجْدُ لَهُ ، عَزْمًا " (١) .

ب - إن غريزة حب الاستطلاع أقوى غريزة متحركة في طفولة الإنسانية كما هي متحركة في طفولة الأطفال ، وطفولة الإنسانية كلها ، مندسة في كيان "آدم" ولهذا فإن هذا النهى الذي تلقاه آدم من ربه عن الاقتراب من الشجرة قد وقع من نفس آدم في موقعين :

١ - موقع الخوف من الجهة التي ألقت بهذا النهى ، والحد من أن يخالف مانهى عنه .

٢ - الرغبة الصارخة في مدانة هذه الشجرة والتعرف عليها ، وعلى ما يكمن فيها .

ثم إلى جانب هذه الرغبة الصارخة إلى مقاربة الشجرة ، كانت وسوسة إبليس لآدم ، وإغراؤه له . الأمر الذي مجل بخطوات آدم إلى الشجرة ، وسييره حثيثاً إليها ، ولو لم يقم إبليس من وراء آدم يغريه بالشجرة ويدفعه إليها ،

(١) سورة طه : الآية ١١٥ .

لسار هو وحده نحوها، ولبلغها ، ولأكل منها .. ولكن بعد زمن متراخ عن هذا الوقت الذى القرب فيه بالفعل من الشجرة وأكل منها (١).

وفى القصص القرآنى موقف كهذا الموقف الذى كان من آدم إزاء نهيه من الاقتراب من الشجرة ، فلقد نهى " صالح " عليه السلام قومه " ثمود " عن أن يعرفوا للنسالة بسوء ، فكان هذا النهى منه كأنه إغراء لهم بالعدوان عليها، هذا العدوان الذى كان سبباً فى إهلاكهم ، وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة هود " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا . قَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ . هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ . إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ . قَالُوا يَكْفُحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا . اتَّخَذْنَا أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ . قَالَ يَلْقَوْمِ آرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَقَاتِلِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ . فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَلْقَوْمِ هَٰذَا نَارُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ . فَذَرُوهَا تَاكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ مَذَابٌ قَرِيبٌ . فَعَفَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ . ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ . فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِمَّنْ خِزْيٌ يَوْمَئِذٍ . إِنْ رَبُّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ . وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جُثَمِينَ . كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا . أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ . أَلَا بُعْدًا لَثَمُودَ " (٢).

ج - ولهذا فإن الآيتين الكريمتين : " خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ " (٣) وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا " (٤) تكملان الصورة التى خلق عليها آدم ، وإن إغراء إبليس له قد مجل بظهور الإنسان فى آدم ..

(١) عبد الكريم الخطيب : قصص آدم ويوسف عليهما السلام ، ص ٣٨ .

(٢) سورة هود : الآيات من ٦١ إلى ٦٨ .

(٣) سورة الأنبياء : من الآية ٣٧ .

(٤) سورة الإسراء : من الآية ١١ .

وهكذا نرى أن قصة هبوط آدم كما جاءت في القرآن لها معنى ثان غير ظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب ، وهو بيان ارتقاء الإنسان من بدائية الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة على الشك والعصيان .. ويقول محمد إقبال : " وليس معنى الهبوط أى فساد أخلاقى ، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط ، إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس .. هو نوع من اليقظة من حلم الطبيعة ، أحدثتها خفقة من الشعور بأن للإنسان طلة عليّة بوجوده ، ويقول : إن القرآن لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب ، سجن فيه إنسانية شريرة العنصر ، بسبب ارتكابها خطيئة أصلية ، فالمعصية الأولى للإنسان كانت أول فعل له ، تتمثل فيه حرية الاختيار .. ولهذا تاب الله على آدم وغفر له " (١) .

د - تؤكد قصة آدم ما للنفس الإنسانية من حرية وخلود ، وتضع نظرية محددة معينة فى مصير الإنسان بوصفه وحدة من وحدات الوجود ، هذه النظرية ، فى شخصية الإنسان وفرديته يستحيل معها أن تزر وازرة وزر أخرى ، بل يقتضى أن كل امرئ بما كسب رهين ، ولذلك رفض القرآن الكريم فكرة الفداء ..

هـ - وهذه الجوانب الرمزية فى القصة لا تتنافى مع ما ذكرناه من أن القرآن الكريم لا يقص قصة إلا ليوافق بها حالة ، ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلاً . ومثال على ذلك ماورد فى ختام قصة آدم وتحذيره وذريته من إبليس وكيدته : " يٰٓبَنِيَّ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُّوَارِي سَوْءَ لِيْكُمْ وَرِيشًا . وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ " . ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . يٰٓبَنِيَّ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَُمُ الشَّيْطٰنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ مِنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ . إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ " (٢) .

(١) محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ، ص ١٠٩ و ٩٩

(٢) سورة الأعراف : آية ٢٦ و ٢٧ .

لابد أن نلاحظ أن مشهد العرى بعد ارتكاب المحذور، والخصف من ورق الجنة ، ثم هذا التعقيب بتذكير بنى آدم بنعمة الله فى إنزال اللباس الذى يوارى سواتهم والرياش الذى يتزينون به ، وتحذيرهم من فتنة الشيطان لهم لينزع عنهم لباسهم وريشهم كما نزع عن أبويهم - لابد أن نلاحظ أن ذكر هذه الحلقة من القصة والتعقيب عليها على هذا النحو ، إنما يواجه حالة واقعة فى المجتمع الجاهلى العربى المشرك ، حيث كانوا تحت تأثير أساطير وتقاليد معينة يطوفون بالببيت عرايا ، ويحرمون أنواعا من الثياب وأنواعا من الطعام فى فترة الحج ، ويزعمون أن هذا من شرع الله ، وأن الله قد حرّم عليهم هذا الذى يحرمونه على أنفسهم ، ومن ثمّ يجيء فى استعراض قصة البشرية وفى التعقيب عليها مايناسب ويواجه هذه الحالة الواقعية فى الجاهلية .. وفى كل جاهلية فى الحقيقة .. أليست سمة كل جاهلية هى التعرى والكشف وقلة الحياء من الله وقلة التقوى؟ (١)

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٢٤٧ .

ثانياً : عناصر القصة فى القرآن الكريم :

رغم أن القرآن الكريم يقص علينا القصص لأغراض دينية ، فإن ذلك لم يمنع وجود الخصائص الفنية فى عرضه للقصص ، "فالقرآن الكريم يجعل الجمال الفنى أداة ملاصقة للتأثير الوجدانى ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية ، بلغة الجمال الفنية " (١) .

ومناصر القصة هى الركن الأساسى فى بنائها ، وهى فى القصة القرآنية توزع توزيعاً يبلغ حد العجب من الناظر فيه بفكر ، والمتفطن له بفهم ، والفاحص عن أسرارہ بعمق ، فهو يوزع على أساس إبراز عنصر واحد وإلقاء الضوء القوى عليه حتى يحل مكان المدارة من القصة أو الأقصوصة وحتى يكاد ماعداه من عناصر أخرى أن يختفى أو يهمل ، فلن نجد عناصر الأحداث والأشخاص والحوار مجتمعة فى كل قصة قرآنية وموزعة التوزيع الذى يجعل لكل عنصر منها قيمته وخطره فى القصة بحيث لو اختفى لاختل التوازن الفنى وانهد ركن من أركان البناء القصصى لأن هذه الأشياء إنما تُطلب فى الرواية وفى القصة الطويلة ، والقصص القرآنى كان يجرى على أساس الأقصوصة لا القصة الطويلة ، وربما ان توزيع العناصر فى القصة القرآنية كان يتبع الغرض الدينى ويجرى معه فى مضمار ، فإننا نرى أن عنصر الأحداث هو العنصر البارز فى الأقاصيص التى يقصد منها إلى التخويف والإنذار ، وعنصر الأشخاص هو العنصر البارز فى الأقاصيص التى يقصد منها إلى الإفاضة والإيحاء أو تشبييت المومنين ، وعنصر الحوار هو العنصر البارز فى الأقاصيص التى يقصد منها إلى الدفاع عن الدعوة الإسلامية والرد على المعارضة وهكذا (٢) .

(١) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، ص ١٤١ ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

(٢) د. السيد تقى الدين : من الوجهة الأدبية فى دراسة القرآن الكريم ، ص ١٨٩ ، دار احياء الكتب العربية . القاهرة ، ١٩٨٤ .

الأحداث :

يتناول التعبير القرآني أحداث القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها . وكثيراً ما يستعين القرآن على إبرازها بوسائل مديدة منها :

أ - الوصف الدقيق المصور : كوقف نوح لإغراض قومه من دعوته (١) ، كما في قوله تعالى : " وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ مُدْبِرِينَ بِإِذَا دَعَا لَهُمْ فَأَصْرَأُ عَلَيْهِمْ فَأَصْرَأُ " (٢) .

ب - المعاني المعبرة عن المشاعر والانفعالات والأحوال النفسية كأنفعال لوط عندما جاءته رسل ربه : " وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَاءَ بِهِمْ وَقَسَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَجَاثَبَهُهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَخِفُونَ " (٣) ، لأنه كان يعرف قومه . ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشدود عجيبين ، ويدرك بذلك الفضيحة التي ستنااله ففسى فيولده (٤) .

ج - إبراز الصراع منسجماً مع المغزى العام للقصة : وهو دائماً صراع الخير والشر ، والحق والباطل ، أو الإيمان والكفر ، أو الفطرة السليمة والطوارئ التي تنجح بها ذات اليمين وذات الشمال . وهذا الصراع يكون حينئذٍ صراعاً مادياً : كوقف موسى عليه السلام مع السحرة لما رمى عصاه ورموا عصيهم : " قَالُوا يَمُوسَى إِنَّمَا أَنْتَ مُنَادٍ وَاتَّبَعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَكَانُوا كَافِرِينَ " (٥) . قال بطل القوم : " قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُنَادٍ وَاتَّبَعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَكَانُوا كَافِرِينَ " (٥) . قال بطل القوم : " قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُنَادٍ وَاتَّبَعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَكَانُوا كَافِرِينَ " (٥) . قال بطل القوم : " قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُنَادٍ وَاتَّبَعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَكَانُوا كَافِرِينَ " (٥) .

(١) د. التهامي نفرة : سيكولوجية القصة في القرآن ، ص ٣٥٠ .

(٢) سورة نوح : آية ٧ .

(٣) سورة هود : آية ٧٧ .

(٤) سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ١٩١٣ .

(٥) سورة طه : ٦٥ - ٦٩ .

وحينا صراعاً نفسياً داخلياً كموقف إبراهيم وتجاربه مع الكواكب والقمر والشمس ، فى رحلته من الإيمان الفطرى إلى الإيمان الوعى ، حيث وجد حقيقة الإلهية فى الوعى والادراك مطابقة لما استكن منها فى الفطرة والضمير : " فَلَمَّا جَنَّ عَلَى السَّيْلِ رَءَا كَوْكَبًا . قَالَ هَذَا رَبِّي . فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِلَهِينَ . فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ . قَالَ : لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِعَةً ، قَالَ : هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ . فَلَمَّا أَفَلَتْ . قَالَ : يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ " (١) .

وتأتى أهمية الصراع فى القصة القرآنية عندما يظهر أثره فى ربطه الأحداث من جهة ، والشخصيات من جهة أخرى ، والحوار من جهة ثالثة ، من جميع جهاتها ويستولى عليها ثم يمضى إلى غايته المرسومة : فمثلاً عندما ننظر إلى الصراع فى قصة يوسف عليه السلام نجده قائماً بين نفس يعقوب وأبنائه ، وبين يوسف وامرأة العزيز ، وبين يوسف وإخوته بعد تسلمه مقاليد مصر ، نجد الصراع وقد أمسك زمام القصة من جميع أطرافها ، وهو الذى قادها ووجه أحداثها وهو الذى كان الجاذب الكبير فى مختلف أجزائها ، على أنه لم يزد على طبيعته الأصلية التى هى صراع الخير والشر ، والحق والباطل ، والإيمان والضلال (٢) .

وطبيعة الأحداث فى القصص القرآنية مختلفة فهناك ذلك النوع من الأحداث الذى يكون نتيجة تدخل عنصر القضاء والقدر فى القصة (٣) ، فالأحداث التى جرت فيها قصة مولد موسى عليه السلام ، تنكشف إرادة الله فيها ، وتحدى القدر لفرعون رغم شدة حرصه على قتل أى طفل ذكر يولد ، حذراً من أن يكون هلاكه على يديه ، كما أخبره بذلك الكهنة ولكن يد القدر تقتحم بالوليد على فرعون قلب امرأته ، بعد ما اقتحمت به عليه حمته . لقد حمته بالمحبة . حمته

(١) سورة الانعام : ٧٦ - ٧٨ .

(٢) د. بكرى شيخ أمين : التعبير الفنى فى القرآن ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٣) د. السيد تقى الدين : من الوجهة الأدبية فى دراسة القرآن الكريم ، ص ١٩٠ .

بالحب الحانى فى قلب امرأة . وتحدث به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره .. وهان فرعون على الله أن يحمى منه الطفل الضعيف بغير هذا المستنار الرليق الشفيف من الحب (١) .. ونلاحظ أن تدخل القدر فى هذه الأحداث كسان خفياً، لأن نتائجها لم تنكشف إلا بعد وقوعها بمدة .. ولكن القدر يكسب تدخله بطريقة سافرة مكشوفة عندما يتحدى بالخوارق أو المعجزات ، وهى الأمور التى يجريها الله على يد رسوله أو يحدثها فى الكون استجابة لدموة الرسول حين التحدى وطلب البيّنة ، ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى: "فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ، فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّيْدِ الْعَظِيمِ . وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ . وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ " (٢) . أما المفاجأة فى الأحداث فهى متنوعة ومختلفة :

١ - فقد يكتم سر المفاجأة عن البطل والقراء ، حتى يكشف لهم معاً فى آن واحد ، كما فى قصة موسى مع العبد الصالح فى سورة الكهف (٣) ، حيث تبرز مفاجأتها المتعاقبة . وفى النهاية مع دهشة السر المكشوف يختفى الرجل كما بدا ، فقد يخطر للأذهان الدهشة بعد أن تصحو أن تسأل : من هذا ؟ ولكنها لن تتلقى جواباً . لقد مضى فى المجهول كما خرج من المجهول ، فالقصة تمثّل الحكمة الكبرى ، وهذه الحكمة لا تكشف من نفسها إلا بمقدار ثم تبقى مجهولة أبداً .

٢ - ومرة يكشف السر للقراء ، ويترك أبطال القصة عنه فى عمايسة ، وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون السر ، أولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين . وأغلب ما يكون ذلك فى موقع السخرية ، ليشارك القراء فيها ، منذ أول لحظة ، حيث تتاح لهم السخرية من تصرفات الممثلين (٤) . كما وقع فى قصة أصحاب الجنة

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن، المجلد الخامس ، ص ٢٦٧٩ ، وراجع قصة مولد موسى فى سورة القصص ، آيات ٣ - ١٢ .

(٢) سورة الشعراء : آيات ٦٣ - ٦٦ .

(٣) راجع القصة فى سورة الكهف : الآيات ٥٩ - ٨١ .

(٤) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن : ص ١٥٠ - ١٥٣ .

فى سورة القلم : " إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرَمْنَهَا
مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَشْنُونَ فَنَافَ عَلَيْهِمَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ
كَالْقَرِيرِ فَنَنَادُوا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صُرْمِينَ فَاَنْطَلَقُوا
وَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ أَن لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْهِمْ وَنَكِيزٌ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَدِيرِينَ
فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لِفَالُونَ لِمَ نَحْنُ مَخْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ
أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوَّمُونَ قَالُوا يَكُونُ لَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ عَسَىٰ رَبُّنَا
أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ
أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " (١).

وهذه القصة قد تكون متداولة ومعروفة، ولكن السياق القرآنى يكشف
عما وراء حوادثها، من فعل الله وقدرته، ومن ابتلاء وجزاء لبعض عباده .
ويكون هذا هو الجديد فى سياقها القرآنى . ومن خلال نصوصها وحركاتها
نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه فى تفكيرها وتصورها وحركاتها
بأهل الريف البسطاء السذج . ولعل هذا المستوى من النماذج البشرية كسان
أقرب إلى المخاطبين بالقصة، الذين كانوا يعاندون ويجحدون، ولكن نفوسهم
ليست شديدة التعقيد، إنما هى أقرب إلى الساذجة والبساطة .

والقصة من ناحية الأداء تمثل إحدى طرق الأداء الفنى للقصة فى القرآن
وفيه مفاجآت مشوقة، كما أن فيه سخرية بالكيد البشرى العاجز أمام تدبير
الله وكيد . وفيه حيوية فى العرض حتى لكأن السامع - أو القارئ يشهد
القصة حية تلح أحداثها أمامه وتتوالى، فيعلم ما لا يعلمه أصحاب الجنة من
أمرها . فقد شهد تلك اليد الخفية اللطيفة تمتد إليها فى الظلام، فتذهب
بشمرها كله . وهذا لون من ألوان التناسق فى التعبير الفنى القرآنى، يضاف
إلى نظائره هنالك .

والله سبحانه وتعالى يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئـة ،
ومما هو متداول بينهم من القصص ، فيربط بين سنته في الغابرين وسنته فى
الحاضرين ، ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم . وفى الوقت ذاته
يشعر المؤمنون بأن ما يرونه على المشركين - من كبراء قريش - من آثـار
النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله ، له عواقبه ، وله نتائجه . وسنته
أن يبتلى بالنعمة كما يبتلى بالبأساء سوا . فأما المتبطرون المانعـون
للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم ، فذلك كان مثلاً لعاقبتهم : " وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " . وأما المتقون الحذرون فلم عند ربهم
جَنَّتِ النِّعِيمُ : " إِنْ لِّلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمُ " .

وهو التقابل فى العاقبة ، كما أنه التقابل فى المسلك والحقيقة . . .
تقابل النقيضين اللذين اختلفت بهما الطريق ، فاختلفت بهما خاتمة
المطاف (١) .

٣ - ومرة يكشف بعض السر للقراء ، وهو خاف على البطل فى موضع ، وخاف
على القراء وعن البطل فى موضع آخر ، فى القمة الواحدة . مثال ذلك قصة
عرش بلقيس الذى جىء به فى غمضة ، وعرفنا نحن أنه بين يدي سليمان ، فى حين
أن بلقيس ظلت تجهل ما نعلم : " فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ " (٢) فهذه
مفاجأة عرفنا نحن سرها سلفاً ، وهذه المفاجأة الضخمة لم تكن لتخطر على بال
الملكة ولذلك جاء ردها : " كَأَنَّهُ هُوَ " (٣) ، وهذا الرد لا ينفى ولا يشبـه
ويدل على فـراسة وبديهة فى مواجهة المفاجأة العجيبة .

وهنا فجوة فى السياق ، فكأنما أخبرت بسر المفاجأة ، فقالت : انها
استعدت للتسليم والإسلام من قبل . أى منذ اعتزمت القدوم على سليمان بعد

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن : المجلد السادس ، ص ٣٦٦٦ - ٣٦٦٧ .

(٢) سورة النمل من آية ٤٢ .

(٣) سورة النمل : من الآية ٤٢ .

رد الهدية . وكان سليمان - عليه السلام - قد اعد للملكة مفاجأة أخرى ، لم يكشف السياق عنها بعد ، كما كشف عن المفاجأة الأولى قبل ذكر حضورها - وهذه طريقة أخرى في الأداء القرآني في القصة غير الطريقة الأولى : " رَقِيبٌ لَهَا اَدْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (١) .. لقد كانت المفاجأة قصرا من البلور ، أُقيمت أرضيته فوق الماء ، وظهر كأنه لُجَّة . فلما قيل لها : ادخلي الصرح ، حسبت أنها ستخوض تلك اللُجَّة ، فكشفت عن ساقَيْها . فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان من سرها .. ووقفت الملكة مفعومة مذهوشة أمام هذه العجائب التي تعجز البشر ، وتدلل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر . فرجعت إلى الله ، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره ، معلنة إسلامها " مع سليمان " لا لسليمان ولكن " لله رب العالمين " .

وهكذا سجل السياق القرآني هذه المفاجآت وأبرزها في أحداث القصة ، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله ، والإسلام له . فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله . لا غالب منهما ولا مغلوب وهما أخوان في الله ... رب العالمين - على قدم المساواة (٢) .

وقد لا يكون هناك سراً ، بل تواجه المفاجأة البطل والقراء في آن واحد ، ويعلمان سرها في الوقت نفسه .. وذلك كمفاجآت قصة مريم ، حين تتخذ من دون أهلها حجاباً ، فتفاجأ هناك بالروح الأمين في هيئة رجل ، فتقول : " إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا " (٣) . لقد عرفنا قبلها بلحظة أنه " الروح "

(١) سورة النمل : آية ٤٤ .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد الخامس ، ص ٢٦٤٢ .

(٣) سورة مريم من آية ١٨ .

ولكن الموقف لم يطل فقد أخبرها : " قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ
فُلْمًا زَكِيًّا " (١). وقد فوجئنا كذلك معها ، إذ أجاها المخاض إلى جـذع
النخلة : " قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ
تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا .. " (٢).

والقصة القرآنية يبرز أحداثه ويمورها بعاملين أساسيين ، هما

الزمان والمكان :

أولاً : العنصر الزمني :

إن العنصر الزمني مما تقوم عليه القصة الناجحة ، فإن الخيوط
الزمنية تمسك بكل جزئيات القصة حتى تطلع بها في الوقت المنشود. كما
أن اختفائه يستوجب اختفاء عنصر مهم من القصة .. ولذلك قبل أن نتحدث
عن العنصر الزمني في القصة القرآنية ، يجب أولاً أن ندرك مفهوم الزمان في
القرآن الكريم :

الزمان في القرآن الكريم :

في القرآن أنواع من الزمان أبرزها ثلاثة :

١ - الزمان الكوكبي :

وهو هذا الزمان الذي نقيم عليه حسابتنا ، من أيام وأقسامها
ومضاعفاتها . وفيه يقول الله تعالى : " وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا
آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْهَرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَـدَدَ
السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلاً " (٣).

(١) سورة مريم : آية ١٩ .

(٢) سورة مريم من آية ٢٣ . وانظر :

سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، ص ١٥٤ .

(٣) سورة الإسراء : آية ١٢ .

- أ - وبهذا الزمان الكوكبي تتحدد أعمار الأفراد ومراحل السن (١).
- ب - وهو الزمان الذى تتحدد به العبادات اليومية (٢).
- ج - والعبادات السنوية أو عبادة العمر كالحج (٣).
- د - ويربط العبادات ذات الطابع الاقتصادى والاجتماعى كالزكاة ، بالزمان ، فيقول عن الثمار : " وَكَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ " (٤).
- هـ - ويربط به أعمار الأمم ودورات ازدهارها وأفولها (٥).

٢ - ما قبل الزمان الكوكبى :

يقول تعالى : " وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ " (٦). والكواكب بما فيها من أجرام نعلم بها عدد السنين والحساب داخلة ضمن هذا " الخلق " ، فمفهوم " يوم " فى هذه الآية مختلف عن " اليوم " الذى نتعامل به فى حياتنا .

٣ - ما بعد الزمان الكوكبى :

يقول تعالى عن يوم القيامة : " يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ " (٧). وترد فى القرآن الكريم آيات تدل على طول ذلك اليوم ، بعد أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات : " تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ

- (١) انظر سورة الأحقاف : آية ١٥ .
- (٢) انظر سورة الإسراء : آية ٧٨ .
- (٣) انظر سورة البقرة : آية ١٨٥ ، وآية ١٩٧ .
- (٤) سورة الأنعام : من آية ١٤١ .
- (٥) انظر سورة القصص : آية ٧٨ .
- (٦) سورة ق : آية ٣٨ .
- (٧) سورة إبراهيم : آية ٤٨ .

خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ " (١)، ويقول : " وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ " (٢)

٤ - الزمان النفسى :

وفيه يبدو إحساس الإنسان بطول الزمن أو قصره . ويضرب الله مثالا ،

بحوار يدور يوم القيامة :

" قُلْ : كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ "

قَالُوا : لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِينَ .

قُلْ : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . أَفَحَسِبْتُمْ أَنْتُمْ

خَلَلْنَاكُمْ عِبَادًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَاتَرْجِعُونَ " (٣) .

وصفة القول أن الزمان فى القرآن : مقاييس معلومة ، ومقاييس مجهولة ،

سابقة ولاحقة ، وإحساس به ، قصراً أو امتداداً ، يطفى على القياس المعلوم (٤) .

الزمان والتجربة الشعورية :

تشير بعض آيات القرآن الكريم (٥) ، بما تبين من حقيقة مانعلمه عن

الزمان ، إلى وجود مستويات للشعور مجهولة لنا .. إن المعضلة الوجودية

التي تواجهنا هى كيف نحدد طبيعة الوجود النهائية . فكون العالم يلبث فى

زمان أمر لايقبل الشك ، ولكن لأن الزمان خارج عن أنفسنا يمكن أن نشك فى

وجوده ..

الحقيقة أن التغير المستمر لايمكن تصويره من غير زمان ، مقياساً على

تجربتنا الباطنة يكون معنى الوجود الشعورى ، الوجود فى زمان ، على أن

(١) سورة المعارج : آية ٤ .

(٢) سورة الحج من آية ٤٧ .

(٣) سورة المؤمنون : آيات ١١٢ - ١١٥ .

(٤) د. عبد العزيز كامل : القرآن والتاريخ ، مجلة عالم الفكر ، ص ١٢ - ١٤ .

(٥) راجع سورة يونس آية ٦ ، وسورة الفرقان آية ٦٢ ، وسورة لقمان آية ٢٩ ،

وسورة المؤمنون آية ٨٠ .

إنعام النظر فى طبيعة الحياة الشعورية يظهر أن النفس فى حياتها الباطنة تتجه من مركزها إلى الخارج ، وربما جاز لنا أن نقول فى وصفها أن لها قوتين : القوة العالمة ، والقوة العاملة . وقوة النفس العاملة تتعلق بما نسميه عالم الحيز - وهو موضوع علم النفس الارتباطى المعروف " بالمذهب الحسى " - أى النفس العملية التى تتعل فى الحياة اليومية بالترتيب الخارجى للموجودات التى تعين حالات شعورنا العابرة وتطبعها بصفات المتحيزة التى تعزل كلاً منها عن الآخر ... والاستعمق فى تحليل الحياة الشعورية يكشف لنا الناحية العالمة فى النفس ، فنحن نفوس فى أعماق نفوسنا ونبلغ المركز الداخلى للتجربة فى لحظات التأمل العميق فقط عندما تكون النفس العاملة معطلة . وحالات الشعور فى حياة هذه الذات العميقة تدوب كل واحدة منها فى الأخرى .. وزمان النفس العالمة يبدو كأنه آن مفرد ، تحليل النفس العاملة فى اتصالها بالعالم المتحيز إلى سلسلة من الآنات كحبات اللؤلؤ المنظومة فى خيط واحد ؛ وعلى هذا فإن فيها ديمومة بحتة لاتشوبها شائبة الحيز ..

وبشير القرآن بما تميز من وضوح وبساطة إلى ظاهرته تعاقب المصدا
 وعدة تعاقبها في الآيات الآتية : " وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ
 وَكَلَّمَ بِمِ يَذْنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
 أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَبِيرًا " (١) - و " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ
 بِقَدَرٍ وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالنَّبَرِ " (٢)

إننا إذا نظرنا إلى الحركة المتضمنة في الخلق من الخارج وهي ما أطلقنا عليه اسم " ماقبل الزمان الكوكبي " وحاولنا فهمها فهماً عقلياً ، وجدناها قد استغرقت آلاف السنين ، لأن اليوم الإلهي في لغة القرآن يعادل ألف سنة حسب ما أخبرنا الحق سبحانه وتعالى في قوله : " وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ " (٣) . وهذا الخلق الذي استغرق آلاف السنين هو من وجهة

(١) سورة الفرقان : ٥٨ - ٥٩ .

• 00 - 89

(٣) سورة الحج من آية ٤٧ •

نظر أخرى فعل مقرر غير منقسم "كلمح بالبصر" ، على أنه يستحيل علينا أن نعتبر في كلمات من هذا الإدراك الباطني للديمومة البحتة ، لأن اللغة تكيّفــــــــــــــــت بالزمان المجرد ، زمان النفس الفاعلة في كل يوم (١) .

أما إذا رجعنا إلى التأمل في القرآن الكريم ، نجد فيه كلمة من حرفين ، تعبر عن أقصى مدى التعبير عن تصور السرعة ، هذه الكلمة هي "كن" "وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" (٢) . وهي تعبير عن مقياس السرعة الإلهية ، التي تعتبر السرعة الضوئية بالمقياس إليها سرعة السلحفاة ، أو أدنى من ذلك ... فبين الكاف والنون تتم إبداعات القدرة الإلهية ، بمقياس كونى يلغى الزمن ، فلا يجعله شرطاً لإبداع الخالق ، وإن جعلته الإرادة المبدعة بعداً رابعاً للوجود ، وشرطاً لاستمراره ، فالزمن مخلوق كما أن المادة مخلوقة . ومن مدلول السرعة الكنيّة ، حيث لا زمن ، ومدلول السرعة السلحفائية - إن صح التعبير - تقع كل احتمالات قياس السرعة على اختلاف تصوراتها من جاذبية ، إلى صوتية ، إلى ضوئية ... وعلى هذا لا يكون مانقول عن السرعة الكنيّة (بين الكاف والنون) متعارفاً مع ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى : " وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ، الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ . الرَّحْمَنُ فَسُئِلَ بِهِ خَبِيرًا " (٣) .. لأن هذه مشيئة الإرادة التي تملك الإنجاز في لا زمن ، كما تملكه في نطاق الزمن ، وهي التي ربطت بين المادة والزمن (٤) .

-
- (١) محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام ، ص ٥٦ - ٥٧ .
(٢) سورة البقرة من آية ١١٧ ، وانظر أيضاً آل عمران ، آية ٤٧ وآية ٥٩ ، والأنعام آية ٧٣ ، والنحل آية ٤٠ ، ومريم آية ٣٥ ، ويس آية ٨٢ ، وغافر آية ٦٨ .
(٣) سورة الفرقان : آية ٥٨ - ٥٩ .
(٤) د. عبد الصبور شاهين : الدلالة العميقة في الكلمة القرآنية ، ص ١٥ ، مجلة منبر الإسلام ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، العدد ١٠ - السنة ٤٥ ، ١٩٨٧م

نعود إلى النفس العاملة حيث نجد أنها بمثابة جهاز مصحح للنفس العاملة ، من حيث إنها تتركب في كلية الشخصية المتماسكة جميع "الهنيات" (الهنا بالفتح والتشديد تستعمل للمكان الحس) ، والآفات - أى التغيير - اللبيل في المكان والزمان مما لاغنى منه للنفس العاملة . فالزمان المحس إذاً ، كما يكشفه التحليل العميق لحياتنا الشعورية ، ليس خيطاً من لحظات متفرقة متقلبة ، وإنما هو كل مركب ، ليس الماضى فيه متخلفاً ، ولكنه متحرك مع الحاضر ويؤثر فيه - والمستقبل يتصل بهذا الكل المركب لا بوصفه موجوداً أمامه ، ليُجتاز بعد ، وإنما يتصل بهذا الكل المركب بمعنى إنه ماثل فى طبيعته فى صورة إمكان قابل للتحقيق (١) .

والزمان باعتباره كلاً مركباً . هو الذى يسميه القرآن التقدير: "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ" (٢) ، و"التقدير" هو الزمان عندما ننظر إليه على أنه سابق على وقوع إمكانياته ، هو الزمن الخالص من شباك تتابع العلّة والمعلول ، أى حالة الرسم البيانى التى يفرضها الفهم المنطقى على الزمان ، وبالاختصار هو الزمان كما نشعر به ، لا كما نفكر فيه أو نحسبه . ولـ إذاً وجب أن يأتى بعد " التقدير " قوله تعالى : "وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَفِجٍ بِالبَصَرِ" (٣) فهى إشارة واحدة . أو كلمة واحدة يتم بها كل أمر : الجليل والصغير سواء . وليس هنالك جليل ولا صغير . إنما ذلك تقدير البشر للأشياء . وليس هنالك زمن ولا مايعادل لمح البصر ، إنما هو تشبيه لتقريب الأمر إلى حس البشر . فالزمن إن هو إلا تصور بشرى ناشئ من دورة أرضهم الصغيرة ، ولا وجود له فى حساب الله المطلق من هذه التهورات المحدودة (٤) .

(١) محمد إقبال : تحديد التفكير الدينى فى الاسلام ، ص ٦٥ .

(٢) سورة القمر : آية ٤٩ .

(٣) سورة القمر : آية ٥٠ .

(٤) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، المجلد السادس ، ص ٣٤٤١ .

والقصة القرآنية تساعد على توضيح أحداثها باستخدام أساليب الزمان

الأربعة ، ففي قصة يوسف نقرأ ثلاثة أساليب فى معاملة الزمان :

١ - ذكر العشاء فى قصة إخوة يوسف لأنه جزء من الليل يمكن فىه تدبير الجريمة . . ولذلك تستر إخوة يوسف فى ظلامه ، وجاءوا فيه إلى أبيهم يخبرونه هذا الخبر المشئوم المكذوب " وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ " (١) . . فهذه الجزئية من جزئيات الزمن حرص القرآن على ذكرها لأن لها مكاناً فى سير أحداث القصة . . ذلك أن ظلام الليل الذى اظلم هذا الكذب الذى وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله : " وَجَاءُوا عَلَى قَمِيمِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ " (٢) . هو نفسه الظلام الذى نم على الكذب ، ودل عليه ، وألقى فى خاطر الأب ، أن أبناءه لو كانوا صادقين فيما أخبروا لسارعوا إلى أبيهم بالحدث فى وقته ، لأن مثل هذا الحدث لايسكت عليه لحظة (٣) .

٢ - بعد أن أبى يوسف الاستجابة لمرأودة امرأة العزيز ، وشهد شاهد من أهلها ، بما يثبت براءته . قال العزيز : " يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِ لِذَنْبِكَ إِنَّكَ كَنُتْرٌ مِنَ الْخَاطِئِينَ " (٤) . ولكن أمرت امرأة العزيز على متابعته ماهى فيه . ويأتى قول الله تعالى : " ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُنتُهُ حَتَّى حِينٍ " (٥) . . وتسير القصة حتى ينبىء يوسف صاحبه فى السجن مارأوا فى المنام ، " وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَّ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ " (٦) .

(١) سورة يوسف : آية ١٦ .

(٢) سورة يوسف من آية ١٨ .

(٣) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث فى قصص القرآن ، ص ٥٩ .

(٤) سورة يوسف : آية ٢٩ .

(٥) سورة يوسف : آية ٣٥ .

(٦) سورة يوسف : آية ٤٢ .

ونقف عند قوله تعالى: "حتى حين" وقوله "بضع سنين" فـالـمـسـدـة
التي قضاهـا يوسف - رغم أهميتها - غير محددة في القـمـة . و"بضع" لغوياً قد
تكون بين الثلاث والتسع ، وعدم التحديد هنا يزيد من الإحساس بالظلم
الواقع على يوسف ، وبفساد نظام الحكم وقتئذ ، فساداً يمكن أن يبقى فيه
البريء سجيناً مدة لا حساب للزمن فيها ، السجين دفعته اهواء الحكم وسلطنة
الحاكمين إلى السجن ، وقد تدفعه إلى النور شهادة ساقى الخمر ، أو وساطة
من حاشية الحاكم (١) ، ومن ناحية أخرى يبرهن عدم التحديد على أن يوسف
دو مزم متين وصبر عجيب (٢) .

٣ - ويبدو حساب الزمن دقيقاً إذا كنا بسبيل التخطيط وإنقاذ الناس
من المجاعة المنتظرة ، لا مجال هنا لبضع سنين أو إلى حين . ولكن المجال
تجميع جهود وتحديد مدة وتنظيم عمل ، وفي هذا يقول الله تعالى عن الخطة
التي رسمها يوسف ليقابل بها المجاعة المنتظرة: " قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ
دَابَّاً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تُخْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْمُرُونَ " (٣) .

والخطة ثلاث مراحل : سبع سنين لكل من المرطبتين الأولى والثانية ،
وواحدة للمرحلة الثالثة . ولكل من الثلاث عمل يختلف عن الأخرى :

الأولى : تحديد مدة ، إنتاج زراعي ، ينبغي أن يرتفع فيه معـسـدل
الانتاج ، "دَابَّاً" ، ومع وفرة الانتاج تقييد الاستهلاك ويتمثل في قوله تعالى :
"إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ" وذلك من أجل ادخار أكبر قدر ممكن من المحصول
يتمثل في قوله تعالى : "فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُبُلِهِ" .

(١) د. عبد العزيز كامل : القرآن والتاريخ . عالم الفكر ، ص ١٥ - ١٦ .

(٢) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث في قصص القرآن ، ص ٦٠ .

(٣) سورة يوسف : آية ٤٧ - ٤٩ .

الثانية : مرحلة استهلاك منظم يتوفر فيها عدالة التوزيع ودقته ، فلا يأتى الاستهلاك على كل المخزون ، ويتمثل هذا فى قوله تعالى : " يَا كُلُّنَا مَالَدُمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ " .

الثالثة : مرحلة إعادة الاستثمار ، وذلك بعد ارتفاع الفيضان - بعد لحظ السنوات السبع - فتجد الأرض البذور المدخرة ، فيزرع الناس ويحصدون ويعصرون ..

ارتبط حساب الزمان هنا بالتخطيط والعدل ، كما ارتبط إغفال الزمان بالتسيب والظلم ، وكان تعريف الزمان وتنكيره ، عاملاً ساعد على إبراز الظاهرة الاجتماعية ، ويبدو من هذا كيف تخدم الحقيقة التاريخية هدف القصة فى القرآن ، وأن تحديد الزمان فيه ، على أساس انتقائى ، مرتبط بالهدف وهو العبرة ، دون اقتصار على مجرد المعرفة (١) .

وفى خواتيم هذه السورة نقرأ الربط بين السرد والهدف فى قوله

تعالى :

" لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (٢) .

ونلاحظ كذلك فى قصص القرآن الكريم ، أنه يسلك بالزمن - إذا تناوله - مسلك التدرج فى تتابع أحداثه ، إلا فى موضع واحد فيما نذكر .. وهو قصة البقرة التى لم تذكر فى القرآن الكريم أكثر من مرة واحدة .. فإن الله سبحانه بدأ فى هذه القصة بذكر الشرط الثانى منها (٣) ، فعندما نقرأها نقف أمام مجهول لانعرف ماوراءه ، فنحن لانعرف فى مبدأ عرض القصة لماذا يأمُر الله بنى إسرائيل أن يذبحوا بقرة ، كما أن بنى إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا ،

(١) د. عبد العزيز كامل : القرآن والتاريخ . مجلة عالم الفكر ، ص ١٦ - ١٧ .

(٢) سورة يوسف : آية ١١١ .

(٣) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث فى قصص القرآن ، ص ٦١ .

وفى هذا اختبار لمدى الطاعة والاستجابة والتسليم ... ولذلك تم تأخير الشطر الأول ، فقد كانت العناية متجهة إلى ناحية الحوار فى أمر البقرة ، ولبونها وصفاتها الأخرى ، فلا نرى الحوار ينقطع ليثبت مادار بين موسى وربه ، على حين أنهم كانوا فى كل مرة يطلبون منه أن يسأل ربه ، فكان يسأله ، ثم يعود إليهم بالجواب ... ولكن سياق القصة لا يقول : أنه سأل ربه ولا أن ربه أجابه .. ليكون فى ذلك أيضا تشويق لمبدأ القصة .. فإن داعية المعرفة تتحرك لطلب السبب فى أمر الله جل شأنه بنى إسرائيل بذبح البقرة (١) : " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَمُرُّ السَّيْطَرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقَى الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيكََ فِيهَا قَالُوا الْفَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ " (٢) ثم تنتهى إلى المباحثة فى الخاتمة - كما بوغت بها بنو إسرائيل - انتفاض الميمنت مبعوثاً ناطقاً ، على ضربة من بعض جسد لبقرة بكماء مذبوحة ، ليس فيها من حياة ولا مادة حياة (٣) : " وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَوِّسُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " (٤) .

- (١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ٨٠ .
- (٢) سورة البقرة : آيات ٦٧ - ٧١ .
- (٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، المجلد الاول ، ص ٨٠ .
- (٤) سورة البقرة : ٧٢ - ٧٣ .

ثانياً : العنصر المكانى :

يقرر القرآن الكريم أن العالم لم يخلق عبثاً : " وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَغَيْرٍ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ . وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " (١) ، وهذه الحقيقة ، يجب أن توضع موضع الاعتبار : " إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا ، وَعَلَى جُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً " (٢) .. وفوق هذا فالعالم مرتب على نحو يجعله قابلاً للزيادة والامتداد : " يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ " (٣) .. فليس هذا العالم كتلة ، وليس جامداً غير قابل للتغير والتبدل ، بل ربما استقر في أعماق كيانه حلم نهضة جديدة : " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ . إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (٤) .

والحق أن حركات الكون واهتزازاته الخفية ، وهذا الزمان السابح في صمت يبدو لأنظارنا البشرية في صورة تقلب الليل والنهار ، يعده القرآن إحدى آيات الله الكبرى : " يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ " (٥) .

وهذا الامتداد العظيم في الزمان والمكان يحمل في طياته الأمل في أن الإنسان الذي يجب عليه أن يتفكر في آيات الله سيتم غلبته على الطبيعة بالكشف من الوسائل التي تجعل هذه الغلبة واقعة (٦) .

-
- (١) سورة الدخان : الآيتان ٣٨ - ٣٩ .
 - (٢) سورة آل عمران : الآيتان ١٩٠ - ١٩١ .
 - (٣) سورة فاطر من آية ١ .
 - (٤) سورة العنكبوت : آية ٢٠ .
 - (٥) سورة النور : آية ٤٤ .
 - (٦) محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام ، ص ١٧ ، ١٨ .

وسوف يوضح لنا " المكان " فى القصة القرآنية ، طبيعة هذا الأمل وإمكانية تحقيقه ، واضعين فى الاعتبار الناحية الفنية فى ذكر المكان ، فالقرآن الكريم لم يلتفت لذكر المكان فى القصة إلا إذا كان له وضع خاص يوتر فى سير الحدث أو يبرز ملامحه أو يقيم شواهد نفسية وروحية تفتقد لها القصة (١) :

ولذلك يختلف مدى وضوح المكان من قصة إلى أخرى :

(أ) فقد يذكر المكان باسمه الصريح المعروف كالمسجد الحرام والمسجد الأقصى (٢) . فلا يختلف فيه وقت نزول القرآن ولا بعده .
(ب) وقد يذكر الاسم العلم ولكن يختلف فى تحديد موقعه كالجودى : جبل نوح (٣) .

(ج) وقد يذكر بصفته كـ " ربوة ذات قرار ومعين " (٤) فتتعدد فى تفسيرها وتحديداتها الآراء .

(د) وقد تذكر القصة دون إشارة إلى المكان مثل قصة إدريس (٥)
(هـ) وقد يذكر اسم صاحب القصة دون أن تذكر قصته كذى الكفل (٦) وقوم تبع (٧) .

(و) وقد ينسب صاحب القصة إلى المكان كاصحاب الرس (٨) دون عرض القصة .
(ز) وقد تذكر القصة دون تحديد لمكانها ولا اسم صاحبها كقصة الرجل المؤمن فى سورة يس (٩) .

(١) د. فؤاد على رضا: من علوم القرآن، ص ١٩٠ . لبنان ط ١٩٨٣، ٢.

(٢) سورة الإسراء : آية ١ .

(٣) راجع القصة فى سورة هود .

(٤) راجع القصة فى سورة المؤمنون .

(٥) سورة مريم : آية ٥٦ ، وسورة الأنبياء : آية ٨٥ .

(٦) سورة الأنبياء : آية ٨٥ .

(٧) سورة الدخان : آية ٣٧ ، وسورة ق : آية ١٤ .

(٨) سورة الفرقان : آية ٣٨ ؛ وسورة ق : آية ١٢ .

(٩) راجع القصة فى سورة يس : آيات ٢٠ إلى ٢٩ .

(د) وقد تُذكر مجموعة من الأقسام في نسق واحد كأنها قواعد تسيّر عليها الرسالات مثل قوله تعالى : " أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَبْلُكُمْ نُوحٍ وَكَانٍ وَشُعُوبٌ وَآلِدِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ . جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ عَنْ آفَاقِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ . وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ " (١) .

وتتتابع بعد هذا الآيات توفح ماحدث للرسل وألوانهم وجزاء من اتبعوهم ومن أمرضوا عنهم في الدنيا والآخره ...

الوحدة الجغرافية : التوزيع والعلاقات :

أولاً : منطقة القلب : اهم مكان يعنى به القرآن الكريم هو المسجد الحرام . وهذا البيت هو مركز منطقة القلب في قصص القرآن والتاريخ الانساني التي ذكر الله فيها اكبر عدد من الأسماء متجمعة : البيت . مكة . مقام ابراهيم . الصفا . والمروة . عرفات . المشعر الحرام .

ثانياً : نطاق الغزوات :

وحول منطقة القلب هذه نطاق أوسع يمكن أن نسميه " نطاق الغزوات " جاءت فيه الأماكن الآتية : " المدينة " (٢) ، " بدر " (٣) ، " حنين " (٤) . وفيها نرى اتساعاً في المساحة وقلة في عدد الأماكن المذكورة بأسمائها (٥) .

(١) سورة ابراهيم : آية ٩ .

(٢) راجع سورة التوبة : آية ١٢٠ ، والأحزاب : آية ١٣ .

(٣) راجع سورة آل عمران : آية ١٢٣ ، والانفال : آية ٣٤ .

(٤) راجع سورة التوبة : آية ٢٥ .

(٥) د. عبد العزيز كامل : القرآن والتاريخ ، ص ١٩ .

ثالثاً : الدائرة الثالثة :

ولإذا اعتبرنا البيت الحرام أو مكة مركز دائرة نصف قطرها نحو ١٢٠٠ كيلو متراً ، وجدنا اليمن والعراق والشام ومصر تقع على محيط هذه الدائرة أو قريباً منها . وفي نطاق هذه الدائرة أو الحلقة الثالثة وقعت معظم أحداث القمص القرآني :

١ - ومن المركز يمتد محور جنوبي إلى اليمن وبه قصص عاد ونبيهم هود :
"وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ" (١) . . وهي جبال الرمل باليمن .
ويصف الله مواطنهم بالغنى .

وجاء في هذا المحور ذكر سبأ :
"لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ" (٢) ولا زالت
أثار السد والجنتين باقية .

٢ - ومن المركز يمتد محور شمالي ، يذكر فيه الله عدة أماكن متتابعة على طريق التجارة ،

أ - قرى لوط في قوله تعالى : "وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ" (٣) . ثم وصفها بقوله : "وَأَنَّهَا لَیْسَیْلٌ مُّقِیْمٌ" (٤) . وهي الموءتفكات في قوله تعالى :
"والموءتفكة اهوى" (٥) .

ب - أصحاب الأيكة في قوله تعالى : "وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ" (٦)
وهي مدين في قوله تعالى : "وَالِیْ مَدَیْنٍ أَخَاهُمْ شُعَیْبٌ" (٧) .

- (١) سورة الأحقاف: من آية ٢١ .
- (٢) سورة سبأ: من آية ١٥ .
- (٣) سورة الحجر : آية ٦٧ .
- (٤) سورة الحجر : آية ٧٦ .
- (٥) سورة النجم : آية ٥٣ .
- (٦) سورة الحجر : آية ٧٨ .
- (٧) سورة الأعراف: من آية ٨٥ .

ج - ديار ثمود وهم أصحاب الحجر في قوله تعالى : " وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ، وَاتَّخَذْتَهُمْ آيَاتِنَا فُكَاوُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ، وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ، فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْحِجِينَ " (١) .

وتضم هذه الأماكن قصص لوط ، وشعيب نبي مدين ، وصالح نبي ثمود
فروع المحور الشمالي : ويتفرع هذا المحور إلى ثلاث شعب :

١ - الأولى : شمالية تصل بنا إلى المسجد الأقصى في قوله تعالى :
" سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " (٢) .
وذكر الله ديار الروم في قوله تعالى :
" غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي رَفْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ " (٣) .

ب - الثانية : شمالية شرقية : ويمكن أن نعتبرها إمتدادا لقوس بلاد الشام الموصل إلى العراق . وإليها جاءت الإشارة في قوله تعالى :
" وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ " (٤) . وتتمثل بالعراق قصص نوح وإبراهيم .

ج - الثالثة : شمالية غربية : إلى مصر . وردت باسمها الصريح كما وردت سيناء : " أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي " (٥) .
" وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْأَكْلِيينَ " (٦) . وترتبط بها قصص إدريس - في بعض الأقوال - وإبراهيم ، وإسحاق وبنيه ، وإسماعيل ويوسف ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد في ليلة الإسراء وبولده إبراهيم من ماريقة القبطية (٧) .

-
- (١) سورة الحجر : ٨٠ - ٨٣ .
(٢) سورة الإسراء : آية ١ .
(٣) سورة الروم : ٢ - ٤ .
(٤) سورة البقرة من آية ١٠٢ .
(٥) سورة الزخرف من آية ٥١ .
(٦) سورة المؤمنون : آية ٢٠ .
(٧) د عبد العزيز كامل : القرآن والتاريخ ، مجلة عالم الفكر ، ص ١٩ - ٢٠ .

الوحدة الجغرافية والعبرة من القصص :

١ - هناك ارتباط قوى بين منطقة القلب ومناسك الحج وقصص إبراهيم وإسماعيل ومحمد - صلى الله عليه وسلم - . ولازالت هذه المنطقة قلب العالم الإسلامي النابض بالأمر الإلهي لإبراهيم : " وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ " (١) .

٢ - ثم هناك الرحلات التجارية التى قام بها سكان منطقة القلب إلى اليمن جنوباً والعراق والشام ومصر شمالاً والتى نقرأ توقيتها فى قول الله : " لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِلْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ " (٢) . وكيف أن هذا التنظيم والتدبر فيه ، آية تدعو إلى الإيمان وعبادة الله ..

٣ - وفى الحلقة الوسطى أماكن الغزوات ، وترتبط جميعاً بسيرة النبى بما فيها من عبر تمثل فيها غزوتا بدر وحنين ..

٤ - أما الحلقة الثالثة : فالله يصف بعض قصصها بأنها لسبيل مقيم ، وبإمام مبين وخاطبنا عن قوم لوط : " وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْحِحِينَ وَاَللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (٣) . فاعتبر هذا المرور من وسائل التفكير والتأمل .. فهذه الأماكن إذاً من وسائل التأمل . وهى بهذا تساعدنا على زيادة الاعتبار من القصص ..

قصص لم يذكر الله مكانها فى القرآن :

ومع هذا لا يمكن القول بأن قصص القرآن كله له ارتباطاته المكانية التى يمكن ادخالها فى حلقة من الحلقات السابقة ، ويمكن تقسيم هذا القصص إلى مجموعتين :

(١) سورة الحج : آية ٢٧ .

(٢) سورة قريش

(٣) سورة الصافات : ١٣٧ - ١٣٨

المجموعة الاولى :

قصص ما قبل الطوفان وبخاصة قصة آدم ، وتشمل قصص إدريس ونوح .
وفى هذه المجموعة لانكاد نجد ذكراً للمكان إلا ما جاء فى أمر الجودى فى
قصة نوح . ولا زال موضعه محل جدل . والمكان رغم ضالته فى هذه المجموعة
أوضح فى القصص المتأخر - نوح - عن القصص الأقدم - آدم وإدريس - والجودى
مرتبط بأحداث ما بعد الطوفان . وعلى هذا نستطيع أن نستبعد التحديد المكانى
استبعاداً كاملاً من قصص ما قبل الطوفان (١) .

المجموعة الثانية :

قصص سورة الكهف . وإن كثرت فيها الأقوال ، ويهمننا فى دراسة هذه
المجموعة أنها تعطى الامتداد المكانى فى التاريخ فى قول الله تعالى :
"حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ" (٢) ، "حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ" (٣) . ولا يصرفه
التجوال عن مسئوليات محددة عليه أن يحملها : "حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ
وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا" (٤) . وهنا أقام معهم السد محكماً
لنوباً وشاركوا فى العمل . وعندما رفعه واختبره قال : "هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي" (٥)
وبين قصتي أصحاب الكهف ، وذى القرنين ، نجد قصة موسى والعبد الصالح ، وهى
قصة لم يطلبها كفار قريش ؛ ثم قصتي "آدم" وقصة الصاحبين " . وهذا الاغفال
أو التعميم الذى نراه فى الأماكن ، يمكن أن نراه فى نواح أخرى من قصص
الكهف مثل عدد أصحاب الكهف . وفى قصة ذى القرنين عبارات عامة . . حتى
أنه ذكر بصفته دون اسمه . . فإذا لجأت قريش إلى يهود تستنصرهم على النبى

(١) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث فى قصص القرآن ، ص ٢٧٧ .

(٢) سورة الكهف: من آية ٨٦ .

(٣) سورة الكهف: من آية ٩٠ .

(٤) سورة الكهف : آية ٩٣ .

(٥) سورة الكهف: من آية ٩٨ .

وتحاول أن تأخذ من الكتب القديمة مادة تمتحن بها الوحي من جهة وتحسدى
النبي بهذه القصص أن يخرجوا بأسئلتهم عن النطاق الجغرافى الذى ظل فيه
لصص القرآن . . والحق أن الآيات آتت من عند الله تحسم هذه الاتجاه ، وليست
فى عدد أصحاب الكهف : " سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ . وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ
كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ . وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَكُنْتَهُمْ كَلْبُهُمْ . قُل رَّبِّىَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ
مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ . فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ . وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ
أَحَدًا " (١) . ولنلق كثيرًا عند الأمرين الأخيرين فى هذه الآيات ثم نقرأ نهى
الله نبيه عن الارتباط مع اليهود أو قريش بموعده يتعلق بالوحي : " وَلَا تَقُولَنَّ
لِشَاقِمِائِي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ " (٢) .

ولعلنا بذلك نستطيع أن ندرك جانباً من العبرة فى وضع قصة موسى
والعبد الصالح بين قصتى أصحاب الكهف وذى القرنين . فالصحة بين موسى
والعبد الصالح تستمر مادام موسى متبعاً شرط العبد الصالح : " فَإِنْ أَتَبَعْتَنِى
فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَخْبُرَكَ مِنْهُ دِكْرًا " (٣) بعد أن مهد لذلك بتحذيره :
" إِنْكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ؟ " (٤) .

وتأتى المشكلات - كما يقول القرطبى (٥) - قريبة مما حدث فى حياة
موسى ، فيقول فى تفسير الآيات التى وقعت لموسى مع العبد الصالح : إنها
حجة على موسى ، وعجبا له . وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودى :
يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت فى التابوت مطروحاً فى اليم ، فلما أنكر
أمر الغلام قيل له : أين إنكارك هذا من وكرك القبطى وقضائك عليه ، فلمما

(١) سورة الكهف : آية ٢٢ .

(٢) سورة الكهف : آية ٢٣ .

(٣) سورة الكهف : آية ٧٠ .

(٤) سورة الكهف : ٦٧ - ٦٨ .

(٥) أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصارى القرطبى : تفسير القرطبى . الجامع
لأحكام القرآن ، ج ٦ ، ص ٤٠٧٢ . كتاب الشعب . القاهرة .

انكر اقامة الجدار نودى : أين هذا من رفعك حجر البشر لبنات شعيب دون أجر . ومع هذا لم يستطع موسى الصبر . وكان سكوته - إن سكت - فاتحاً لباب العلم - وسواء له - حين سأل - مغلّقاً هذا الباب .

وأحسب أنه من هذه الزاوية نستطيع أن نلمس جانباً من النهج الذى ساق الله به قصص هذه السورة بالذات .

وصفوة القول فى المكان :

إنه لم يكن من أهداف القرآن أن يستغرق الأماكن حصراً وتسجيلاً . وإنما اكتفى بأن أورد لنا نمطاً واضحاً من الدراسة يتمثل فى مركز ودوائر متتابعة فى الاتساع ومحاور تربط بين القلب والأطراف ، فالقلب هو البيت الحرام ، وهو مركز التاريخ الإنسانى : أول بيت وضع للناس ، وحوله دائرة الغزوات حيث يتمثل الدفاع عن العقيدة وحماتها ، وتليها دائرة الاعتبار فى اللص الممتد على المحورين الشمالى بفروعه والجنوبى ، ثم دائرة واسعة غير محدودة تمثل وجوب السير فى الأرض لمزيد من الاعتبار ، سيراً إلى مطالع الشمس ومغاربها ، وعملاً فى مجال العقيدة ، والإنشاء والتعمير ، والحصول على مزيد من العلم مع التوافق الدائم لله : " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا " (١) وهى بدورها ممهدة لتطوير المجتمعات وبناء افضل للتاريخ الإنسانى ، وهى معان تمثلها جميعاً قصص سورة الكهف دون ان تنفرد بها (٢) .

القدرة الإلهية وحواجز الغيب :

١ - لقد مزق القرآن حواجز الغيب وحاجز الزمن الماضى ، وحاجز الزمن المستقبل ، وحاجز المكان ، على أن هناك أيضاً حاجزاً آخر ، هو حاجز النفس البشرية ، ما يخفيه الإنسان داخل نفسه .

(١) سورة الكهف من آية ٢٠ .

(٢) د . عبد العزيز كامل : القرآن والتاريخ ، مجلة عالم الفكر ، ص ٢١ .

ولقد مزق القرآن حاجر الزمن الماضى ، فيخبرنا بما حدث للأمم السابقة
ويلقى علينا قصص الرسل السابقين ، ويكفى أن نقرأ فى القرآن : ما كنست ،
وما كنت ، وما كنت لنعرف كم أخبر الله رسوله بأنباء من الغيب الماضى :
"وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُنْفِقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيَّهَمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ" (١).
و"وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ" (٢).
و"وَمَا كُنْتَ شَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا .." (٣)
و"وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ" (٤).

وهكذا نرى أن القرآن مزق حجاب الزمن الماضى فى أكثر من مناسبة
ليخبر محمد-عليه الصلاة والسلام- بالأخبار الصحيحة عمن سبقوه من الرسل
والأنبياء ... ويصح ما حُرف من الكتب السماوية ، ذلك لأن التحدى للقرآن من
تمزيق حجاب الزمن الماضى ، وصل إلى أدنى أسرار الرسالات السماوية السماوية
فصحها لهم ، وبين ما حُرفوه منها وما أخفوه ، وتحداهم أن يكذبوا ما جاء فى
القرآن فلم يستطيعوا ، ومن ذلك قوله تعالى : "ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ
الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ" (٥).

ثم بعد ذلك مزق القرآن حجاب المستقبل : انظر إلى قوله سبحانه
وتعالى "سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ" (٦) تبشر بانتصار المسلمين فى بدر،
وقد نزلت هذه الآية فى مكة والمسلمون قلة . وكذلك قوله سبحانه وتعالى :
"الَّذِينَ هُمْ يَأْتُونَ فِي الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ
لَهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ
يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" (٧). ثم يمضى القرآن ليمعن فى التحدى :

- (١) سورة آل عمران من آية ٤٤ .
- (٢) سورة القصص من آية ٤٤ .
- (٣) سورة القصص من آية ٤٥ .
- (٤) سورة القصص من آية ٤٦ .
- (٥) سورة مريم : آية ٣٤ .
- (٦) سورة القمر : آية ٤٥ .
- (٧) سورة الروم : آيات ١ - ٥ .

"وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" (١).

لقد قص القرآن أنه بعد بضع سنين ستحدث معركة بين الفرس والروم

ويهتمر فيها الروم ..

ثم مَرَّقَ الله حجاب المكان لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وجاء ففى أدق الأمور وهو حديث النفس : " ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله .. " فالقرآن هنا لا يقول لهم لقد هتكت حاجر الماضى ، وأخبرتكم بأنباء الأوليين ، ولا يقول لهم سأهتك حاجر المكان ، وأخبركم بما يدور فى بقعة قريبة لآترونها ، بل يقول : سأهتك حاجر النفس ، وأخبركم بما فى أنفسكم ، أى بما فى داخل صدوركم بما لم تهمس به شفاكم ، وكان يكفى لكى يكذب الكافرون محمداً أن يقولوا لم تحدثنا أنفسنا بهذا ، إذاً فالقرآن فى هتكه لحجاب المكان دخل إلى داخل النفس البشرية ، وإلى داخل نفوس غير المؤمنين الذين يهتمهم هدم الإسلام ، قال تعالى : " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ شَهِواْ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعودُونَ لِمَا شَهِواْ عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَمَعصِيَةِ الرَّسُولِ ، وَإِذَا جَاءوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ، وَيَقُولُونَ فِىْ أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ، حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فِىْئْسَ الْمَصِيرُ " (٢).

وبعد أن وجدنا أن لكل من الزمان والمكان أثرهما فى بناء القصة القرآنية وفى لباسها ثوباً من الواقع الذى يجتذب إصغاء القارىء وانتباهه نجد أيضاً مايقابل ذلك تماماً إذ كثيراً مايعرض الحدث مجرداً عن ذكر الزمان والمكان اللذين وقع فيهما ، مع عدم الإخلال بسير الحادثة ، بل إنه قد يضيف إليها جمالاً فى الأداء ولنستمع إلى قوله تعالى : " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ، فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ : مُوتُواْ ، ثُمَّ أَخْيَاهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَذُوْ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ " (٣). فى أى ارض كانوا؟ وفى أى زمان خرجوا من ديارهم وهم أُلُوفٌ حَذَرَ الموت ؟ لم يذكر النص القرآنى

(١) سورة الروم : آية ٦ .

(٢) سورة المجادلة : آية ٨ . انظر : محمد متولى الشعراوى : معجزة القرآن ،

ص ١٠٣ - ١٠٩ بتصرف .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٤٣ .

ذلك مع الوضع فى الاعتبار أن الله سبحانه وتعالى لو أراد بياناً عنهم
لبين ، كما يجىء القصص المحدد فى القرآن ، إنما هذه عبرة وعظة يــــراد
مفزاها ، ولا يشكل المكان والزمان أهمية فيها إذ أن تحديد الأماكن والأزمان
لايزيد هنا شيئاً على عبرة القصة ومفزاها ، إنما يراد هنا تصحيح التصور عن
الموت والحياة ، وأسبابهما الظاهرة ، وحقيقتهما المضمرة ، ورد الأمر فيهما
إلى القدرة المدبرة ، والاطمئنان إلى قدر الله فيهما ، والمعنى فى حــــمــــل
التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع ، فالمقدر كائن ، والموت والحياة
بيد الله فى نهاية المطاف . يراد القول : إن الحذر من الموت لايجــــبــــدى
وأن الفرع والهلع لايزيدان حياة ، ولايمدان أجلاً ، ويردان قضاء ، وأن الله
هو واهب الحياة ، وهو آخذ الحياة ، وإنه متفضل فى الحالتين : حين يهــــب
وحين يسترد ، والحكمة الإلهية كامنة خلف الهبة وخلف الاسترداد ، وأن مصلحة
الناس متحققة فى هذا وذاك ، وأن فضل الله عليهم متحقق فى الأخذ والمنح
سواء . . . ثم جاء قوله تعالى بعد هذه الأقصوة ، أو القصة الذريــــة :
"وَلَقَدْ عَلَّمُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (١) . . هنا ندرك ظرفاً
من حكمة الله فى سوق هذه التجربة للجماعة المسلمة فى جيلها الأول ، وفى
أجيالها جميعا . . . الا يقعدن بكم حب الحياة ، وحذر الموت ، عن الجهاد فى
سبيل الله . وبعد تقرير تلك الإحياءات الإيمانية التربوية الكريمة ، التــــى
تضمنتها الحادثة يأت بعد ذلك دور الجمال الفنى فى الأداء : "أَلَمْ تَرَ إِلَى
الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ؟" . . إن فى التعبير استعراضاً
لهذه الألوف ولهذه الصفوف استعراضاً ترسمه هاتان الكلمتان : " ألم تر؟" . . وأى
تعبير آخر ماكان ليرسم أمام المخيلة هذا الاستعراض كما رسمته هاتــــان
الكلمتان العاديتان فى موضعهما المختار . . ومن مشهد الألوف المولفة ، الحذرة
من الموت ، المتلפתة من الذعر . . إلى مشهد الموت المطبق فى لحظة ، ومن
خلال كلمة : " موتوا " . . كل هذا الحذر ، وكل هذا التجمع ، وكل هــــذه

المحاولة .. كلها ذهبت هباءً في كلمة واحدة : "موتوا" .. ليلقى ذلك في الحس
عيب المحاولة ، وضلالة المنهج ؛ كما يلقي صرامة القضاء ، وسرعة الفصل
عند الله ..

"ثم أحياءهم" .. هكذا بلا تفصيل للوسيلة .. إنها القدرة المالكية
زمام الموت وزمام الحياة ، المتصرف في شئون العباد ، لا تر لها إرادة ،
ولا يكون إلا ماتشاً .. وهذا التعبير يلقي الظل المناسب على مشهد الموت
ومشهد الحياة : "وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" . مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْصًا
حَسَنًا فَيُضَعِّفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " (١) .

ونحن في مشهد إماتة وإحياء . قبض للروح وإطلاق .. فلما جاء ذكر
الرزق كان التعبير : " والله يقبض ويبسط " .. متناهماً في الحركة مسح
قبض الروح وإطلاقها في إيجاز كذلك واختصار :

موتوا ————— يقبض
يقبض ————— أحياءهم

وهكذا يبدو التناسق العجيب في تصوير المشاهد إلى جوار التناسق
العجيب ، في إحياء المعاني وجمال الأداء بالرغم من إغفال عنصر الزمان
والمكان (٢) .

٢ - الشخصيات :

إن المذهب المتبع في رسم الشخصيات في القصة القرآنية أو في معظمها
على أقل تقدير كان المذهب غير المباشر ، أي عرض الشخوص في تفكيرهم
وأعمالهم ، وحركاتهم ، ويترك لنا نحن التعرف عليها من طرق تفكيرها ونهج
أعمالها وسبحات روحها حتى لكانها الشخص الذي نعاشره منذ زمن فعرفنا خلقه
ومزاجه وطوايا عقله وحنايا فؤاده (٣) .

(١) سورة البقرة : الآيتان ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن : المجلد الأول ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٣) د. السيد تقى الدين : من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

وهذا المذهب سمة فنية محضة ، وهو بعينه غرض للقاص الفني المجرد -
وما هو ذا القاص القرآني ، ووجهته الأولى هي الدعوة الدينية ، يلمُ فـ
الطريق بهذه السمة أيضاً ، فتبرز في قصصه جميعاً ، ويرسم بضع "نمـ
إنسانية" من هذه الشخصيات ، تتجاوز حدود الشخصية المعينة إلى الشخصية
النمذجية (١) .

ومهما تكن صورة هذه الشخصية فإنها بطبيعة الحال هي التي تحرك
الأحداث ، وتضطرب بها ، أو تقوم الأحداث نفسها بتحريك الشخصيات ، أو تتساوق
وتتوازن ، فلا تطفئ الشخصية على الحدث ، ولا يطفئ الحدث على الشخصية (٢) .

فالقرآن حرص على إحداث الترابط الوثيق بين الشخص والحدث مع الوحدة
في أخلاقيات الشخصية فلا تتغير ملامحها ، أو تبهر صورها فلا تقوم على وجه
واحد دون اضطراب أو تناقض أو تبديل وتحوير (٣) .

لذلك لم يعن القرآن برسم الخطوط الشكلية للشخصية ، وإبراز ملامحها
الخارجية ، كما يفعل بعض المولعين بالقص ، فيذكرون مثلاً لون الشعر والعينين
ووصف الفم والأنف والجبين ، وتشبيه نبرات الصوت والمشية ، وتفسير نظرات
الفرح ، والحزن والغضب ، وابتهامات البراءة والمكر والسخرية ، ونحو
ذلك من الأوصاف الفيزيولوجية التي تجعل الشخصية كأنها ماثلة للعيان ،
لأن ذلك كله لا يخدم أي غرض ديني من أغراض القصة القرآنية ، وإنما يكشف
القرآن عن مزاج الشخصية ، وعن دوافعها وانفعالاتها ، وسلوكها من خلال
الوصف ، أو سرد الأحداث بصورة عرضية لم تقلد لذاتها بالأصالة (٤) .

-
- (١) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، ص ١٦٤ .
 - (٢) د . بكرى شيخ أمين : التعبير الفني في القرآن ، ص ٢٢١ .
 - (٣) د . فؤاد على رضا : من علوم القرآن ، ص ١٩١ .
 - (٤) د . التهامي نفرة : سيكولوجية القصة في القرآن ، ص ٣٦٠ .

الأشخاص والأبطال :

إن القرآن الكريم ليس مجرد تاريخ أنبياء ولا تاريخ ملوك ، فمن الأنبياء من أفلل القرآن ذكره " مِنْهُمْ مَن قَمَعَكَ عَلَيْهِمْ وَمِنْهُمْ مَن لَّمْ يَنْقُصْ عَلَيْكَ " (١) ، وعنايته بالملوك والحكام محدودة وما ذكره القرآن عن الملوك والحكام ليس سوى نماذج أعطاها تبين مشاهد من الحكم ، لتكون لمن بعدهم عظة وذكرى .. والقرآن الكريم يذكر من الأسماء ما تدمو إليه حاجة القصص ، حتى تترك أثرها في نفس القارئ أو السامع ، ولا يسرف في ذلك البيان حتى لا تفتقر روعته ... ولكنه يمثل للقارئ أو السامع صوراً حية تهز المشاعر في دائرة الشخصيات التي تدور حولها أحداث القصة .. ويتطلب ذلك في القصص القرآني بالذات ، أن تكون الأشخاص كائنة في الوجود ومعروفة مستيقنة لكل من القارئ والسامع ..

ولهذا التأكيد البالغ لوجود الشخصيات التي ذكرها القصص القرآني بأسمائها ، أثر بعيد في الأحداث التي تشارك فيها . وفي الأعمال التي تضاف إليها ... حيث يرى المرء وحدة الحركة بين الشخصيات والأعمال التي تصدر منها .. وحيث لا تلوح لعين الناظر شخصيات مهزوزة متعددة تحاول كل منها أن تمسك بالحدث بعد أن يبرز ويأخذ مكانه في الوجود (٢) . ولذلك عندما نبحث في شخوص القرآن ، نجد أنها تعكس نظرة القرآن الكلية لأمر الوجود؛ النظرة التي تظم المبدأ والمعاد، والإنسان والكون ، ومناشط الحياة الإنسانية حتى ان القرآن يتحدث مما صغر من الخلق كالنمل ، كما يتحدث عما عظم كالسماوات البروج ومواقع النجوم .. وهذه النظرة تنعكس على شخوص التاريخ

(١) سورة غافر: من آية ٧٨ .

(٢) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث في قصص القرآن ، ص ٦٦ .

فى القرآن وأبطاله ، فشخص القرآن مجموعة بشرية متكاملة بحيث كانت مصادر للإلهام وأسوة للناس مصداقاً لقوله تعالى فيما قصّ على رسوله عن الأنبياء: "أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْلُهُمْ اقْتَدِهِ" (١). وإذا كان المصطفى - وهو رحمة الله المهداة وخاتم النبيين - يدعو ربه إلى الاهتداء بمن سبق من الأنبياء ، فما أحرانا أن نطيل الوقوف عند هذه النماذج الإنسانية ، ومن ارتبط بلقمصهم ، أو جاهد على فترة منهم (٢).

فى الأنبياء نجد نماذج متكاملة من الأعمار ، طفولة عيسى ، وشباب إبراهيم ، وكهولة محمد ، ثم شيخوخة إبراهيم ونوح . ويقابل هذا من النساء : طفولة مريم وشبابها ونضج امرأة فرعون وإيمانها ، ثم زوج إبراهيم ، وقد تقدمت بها السن : " قَالَتْ يَوُوسُفُ أَيُّهَا الْفَجْرُ وَهُوَ أَجْدُ مِنِّي إِنْ أَنَا إِلَّا نَسْوَةٌ فِى الْأَوَّلِينَ " (٣).

ونقرأ نماذج متعددة من الأثر وموقع المؤمن فيها : نجد الابن المؤمن والأب الكافر فى قصة إبراهيم ، والأب المؤمن والابن الكافر فى قصة نوح ، والزوج الصالح والزوجة الطالحة ، فى قصة نوح أيضاً ، والزوجة المؤمنة والزوج الكافر فى قصة امرأة فرعون ، والأب الصالح وقد توزع أبنائه بين الصلاح والحسد والأحقاد كيوسف وأخوته ، حتى أكرم الله الجميع بالنبوة وجمع الشمل : " قَالَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ الْيَوْمَ . يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ" (٤). ويختبر الله الإنسان فى صحته وماله كما فى قصة أيوب . وفى الهجرة من وطنه وهى لدر أكثر من نبى ورسول . وقد تنهى حياته بأن يموت شهيداً كما فى قصة يحيى ، وقد يلقى فى السجن كيوسف ، وقد يختبره الله بإقبال الدنيا كسليمان :

(١) سورة الانعام: من آية ٩٠ .

(٢) د. عبد العزيز كامل : القرآن والتاريخ : مجلة عالم الفكر ، ص ٣٠ .

(٣) سورة هود : آية ٧٢ .

(٤) سورة يوسف : الآيتان ٩٢ - ٩٣ .

"قَالَ : هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ" (١).

وقد يبتلى بأن يصرف عنه قومه ، ويرمونه بالجنون واله حر والكهانسة والكلب ، وقد لقي الرسول هذا كله واحتمله ، ونفى القرآن الكريم هذا كله ، وسجل الصراع الشديد وصبر الرسول والمؤمنين معه . يقول تعالى : " أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالْقَرَاءُ وَذُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ " (٢).

وبذلك نرى فى القمص القرآنى رحمة الله وقد أدركت رضيعاً لا يدرك من أمره شيئاً : " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَلَتْقِيهِ فِي سِجِّينَ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ؕ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ " (٣).

وشاباً وقف وحيداً يدافع عن الحق : " قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ " (٤) ثم كان من قومه أن " قَالُوا خَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَنْحَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ " (٥).

وتدرك شيخاً كبيراً أمضى السنين داعياً إلى الله فلم يستجب له إلا القليل ، يقول الله تعالى عن نوح : " فَكَذَّبُوهُ فَانْتَبِهْ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ " (٦).

-
- (١) سورة النمل من آية ٤٠ .
 - (٢) سورة البقرة : آية ٢١٤ .
 - (٣) سورة القصص : آية ٧ .
 - (٤) سورة الانبياء : آية ٦٠ .
 - (٥) سورة الانبياء : ٦٨ - ٦٩ .
 - (٦) سورة الاحراف : آية ٦٤ .

وقد تدرك الرحمة وحيداً كيونس عندما ابتلعه الحوت ثم نبذه في العراء
أو جمعاً محصوراً بين الماء والعدو: " فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ . قَالَ أَضْحَبُ
مُوسَى : إِنَّا لَمَدْرَكُونَ . قَالَ : كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ " (١).

وقد تكون النجاة برآء، كما في هجرة المصطفى من مكة إلى المدينة،
أو بحرآ كما في قصة نوح والسفينة (٢).

رسم الشخصيات في القصة :

الأشخاص في القصص القرآني من نوع الشخصيات النامية، أي التي تتطور
وتنمو قليلاً قليلاً، بصراعها مع الأحداث أو المجتمع، فتتكشف للقارئ كلما
تقدمت في القصة، وتفجوه بما تغنى به من جوانبها وعواطفها الإنسانية
المعلدة، وهذا التصوير الفني للشخصيات يقدمه لنا القرآن بشكل مقنع، فلا
يعزو إليها من الصفات إلا ما يبرر موقفها تبريراً موضوعياً في محيط القيم
التي تتفاعل معها ..

وفي كل لقمة من قصص القرآن تقريباً، نجد شخصاً أو أشخاصاً يقومون
بدور رئيسي فيها، إلى جانب شخصيات أخرى ذات دور أو أدوار ثانوية، يقوم
بينهم جميعاً رباط يوحد لإتجاه القصة ويتضافر على ثمار حركتها، وعلى دعم
الفكرة أو الأفكار الجوهرية فيها، وذلك بتلاقيهم في حركتهم نحو مصائرهم،
وتجاه الموقف العام في القصة، ويلاحظ في التصوير القرآني لهذين النوعين
من الشخصيات أنهما مأخوذان من واقع الحياة، وكل شخصية منهما لها
دورها ورسالتها التي توهمها في خدمة أغراض القصة وأهدافها (٣).

(١) سورة الشعراء : ٦١ - ٦٢ .

(٢) د. عبد العزيز كامل : القرآن والتاريخ . مجلة عالم الفكر، ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) د. محمد غنيمي هلال : النقاد الأدبي الحديث : ص ٥٣٠، ٥٣٣ .

ومن النماذج الإنسانية التي قدمتها القصة القرآنية، وتجاوزت بها حدود الشخصية المعينة إلى الشخصية النموذجية، نشير فيما يلي إلى أبرز شخصيات القصص القرآني :

١ - شخصية إبراهيم :

لقد كانت شخصية إبراهيم محورا لأحداث مختلفة كشفت عن ملامحها في تطور رائع ، إنه أنموذج الهدوء ، والتسامح والحلم : " إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ^(١) لها هو ذا في صباه ، دائب التفكير والتأمل يبحث عن ربه : " فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَارِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي . فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَارِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي ، هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ : يَلْفُومٌ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَحَاجَّةٌ قَوْمُهُ ، قَالَ أَتَعْجَبُونَنِي بِإِلَهِهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ " (٢) .

ثم وهو يحاور أباه في معبوده ، ويقنعه أن يهجر عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنه شيئا ، وينهاه عن عبادة الشيطان ، لأنه يخاف عليه أن يمسّه عذاب من الرحمن ، ويكون للشيطان وليا . ويقف الأب من ابنه موقفا غليظا طلبا ويأمره أن ينتهي عن آرائه ومعتقداته ، ويعجب منه كيف يرغب عن آلهة أبيه ، ثم يهدده بالرجم ، أو الطرد إن لم ينته ويتراجع . ويبقى الفتى أدبيا ، بارآ، محبا لأبيه ، جديرا بتحمل رسالة السماء ، متلطفا في جوابه

(١) سورة هود : آية ٧٥ ، وانظر أيضا سورة التوبة : آية ١١٤ .

(٢) سورة الأنعام : ٧٦ - ٨٠ .

لأبيه ، فيقول له : " سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ، إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيظًا وَأَقْتَرِلُكُمْ وَمَاتَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَمَّا أَكُونُ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا " (١) . وإبراهيم الهادي الرزين الوقور في صباه ، وشبابه يبقى هو هو في شيخوخته ، بل تزيده الشيخوخة وقاراً وريانة ، وعقلاً . ذلك أنه حين ينزل في مكة مع أهله وأسرته يجد الأرض قفرًا ، والدنيا قحلاً ، والمكان جديماً ، فيروح يديه إلى السماء ضارِعاً إلى من آمن به ويجار داعياً : " رَبَّنَا إِنِّي أَكْثَرْتُ مِنْ دُرَيْتِي يَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " (٢) ومثل هذا الهدوء والإيمان ، وطاعة الله تتجلى حين يرى في المنام أنسه يذبح ابنه ، فيلبى ، ويطيع ، وتكون معجزة الفداء بذبح عظيم (٣) .

وهكذا برزت شخصية إبراهيم المثالية ، من خلال هذه المواقف ، فكان مثلاً في حصافة الرأي ، وحب التطلع إلى اليقين ، والامتنال لأمر الله في تفان وإخلاص ، والرفق والحلم والرافة والحنان . وقد تجمع في شخصه من جليل الخصال ما تفرق من غيره من الناس على مدى الأجيال . فكان أمة بذاته كما أثنى الله عليه : " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِنِعْمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَاتَّبَعَتْهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ " (٤) .

ولاعجب ، لإبراهيم صاحب القلب الكبير الذي وسع الناس بمحبته ولينه ، يحنو على قومه ، رغم إيذائهم له . فهو لا يطلب العذاب والهلاك لمن مصاه ، وإنما يكلهم إلى رحمة الله وغفرانه فيقول عن قومه : " رَبِّ إِنَّهُمْ هُنَّ أَفْئِلُنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (٥) .

(١) سورة مريم : ٤٧ - ٤٨ .

(٢) سورة إبراهيم : آية ٣٧ .

(٣) د . بكرى شيخ أمين : التعبير الفني في القرآن ، ص ٢٢٢ .

(٤) سورة النحل : الآيات ١٢٠ - ١٢٢ .

(٥) سورة إبراهيم : آية ٣٦ .

كما أن ماجيل عليه من سخاء ورأفة أبان عنه احتفاؤه بضيوفه وإكرامهم ، وسوء ال ربه أن يعفوا عن قوم ابن أخيه لوط ، وقد أبلغه ضيوفه من الملائكة أنهم مرسلون إلى لوط ليأمره بالخروج من القرية مبغ أهله لليل الصبح ، موعد هلاك قومه . فكان يجادل ربه في شأنهم رجاء أن ينظر إليهم بعين الرحمة (١).

وبينما يرسم بعض القصص القرآني لشخصية إبراهيم هذه السمات ، نراه يرسم لشخصية " موسى " مثلاً سمات أخرى ، منها ما يلتقى معها ، وفيها ما يقابلها . فيجعل منه أنموذجاً للزعيم القوي المندفع بحدة الطبع والمزاج ، وسرعة الانفعال ، وحساسية الوجدان . ولعل هذه السمات هي التي جعلت نجاحه قوياً في قيادة شعب طلب المراس ، معقد النفسية ، وهو شعب بنى إسرائيل الذي كان من طبعه التلكؤ في الطاعة ، والجمود في المشاعر ، والمراوغة ، والسخرية في المواقف الجديدة ، ومقاومة شيع الحكام المصريين الذين كان من أخلاقهم البغي والكبر ، واحتقار الفقراء والضعفاء ، وتقديس الكبراء وذوى الشراء : " اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ " (٢).

٢ - شخصية موسى : أنموذج للزعيم المندفع العصبى المزاج :

فها هو ذا قد رُبى في قصر فرعون ، وتحت سمعه وبصره ، وأصبح فتى قوياً : " وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ " (٣) وهنا يبدو الإنفعال العصبى واضحاً .

وسرعان ما تندهب هذه الدفعة العصبية ، فيثوب إلى نفسه شأن العصبيين : " قَالَ : هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، فَاغْفِرْ لِي . فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَى فَلَن أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ " (٤).

(١) د. التهامي نشره : سيكولوجية القصة في القرآن ، ص ٣٦٤ - ٣٦٦ .

(٢) سورة الانعام : من آية ١٢٤ .

(٣) سورة القصص : من آية ١٥ .

(٤) سورة القصص : من آية ١٥ - ١٧ .

"فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ" (١) ... وتعبير مصور لهيئة معروفة: هيئة المتفرع المتلقت للشر في كل حركة . وتلك سمة العصبيين أيضا .

ومع هذا ، إنه ينظر : " فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ " مرة أخرى على رجل آخر ، : " قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ " (٢) ولكنه يهتم بالرجل الآخر كما هم بالأمس ، وينسيه الاندفاع استغفاره وندمه وخوفه وترقبه ، لولا أن يذكره من يهتم به بفعلته ، فيتذكر ويخش : " فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَلْمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَمْلِكُنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسَكَ بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ " (٣) .

وحينئذ ينصح له بالرحيل رجل جاء من أقصى المدينة يسعى ، فيرحل منها كما ملنا . فلندعه هنا لنلتقى به في فترة ثانية من حياته بعد عشر سنوات ، فلعله قد هدا وصار رجلاً هادئ الطبع حلیم النفس :

كلا ، فهذا هو ذا ينادى من جانب الطور الأيمن : أن ألق عصاك ، فالهاها فإذا هي حية تسعى ومايكاد يراها حتى يثب جرياً ، لاي عقب ولا يلوى .

إنه الفتى العصبي نفسه ولو أنه قد صار رجلاً ، فغيره كان يخاف نعم ، ولكن لعله كان يبتعد منها ، ويقف ليتأمل هذه العجيبة الكبرى (٤) ..

ثم لندعه فترة أخرى ، لنرى ماذا يصنع الزمن في أعصابه :

لقد انتصر على السحرة ، وقد استخلص بنى إسرائيل ، وعبر بهم البحر ، ثم ذهب إلى ميعاد ربه على الطور ، وإنه لنبي . ولكن ها هو ذا يسأل ربه سوءاً عجباً : " قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ . قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي " (٥) .. ثم حدث ما لا تحتمله أيية أعصاب إنسانية : " فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا

(١) سورة القصص من آية ١٨ .

(٢) سورة القصص من آية ١٨ .

(٣) سورة القصص : آية ١٩ .

(٤) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن : ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٥) سورة الأعراف من آية ١٤٣ .

أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ " (١) .. عودة العصبى
فى سرمة واندفاع !

ثم هاهو ذا يعود ، فيجد قومه قد اتخذوا لهم عجلًا إلهًا ، وفى يديه
الألواح التى أوحاها الله إليه ، فما يترث وماينى : " وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ
وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ " (٢) ... وإنه ليمفى منفعلًا يشد رأس أخيه
ولحيته ولا يسمع له قولًا : " قَالَ : يَكْبَتُونَ لَاتَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي . إِنِّي
خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ : فَرَّقْتُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي " (٣) ..

وحين يعلم أن " السامرى " هو الذى فعل الفعلة ، يلتفت إليه مفضبًا ،
ويسأله مستنكرًا . حتى إذا علم سر العجل : " قَالَ : فَادْهَبْ ، فَإِنَّ لَكَ فِي
الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي
ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ، لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا " (٤) .. وهكذا فى حنق
ظاهر وحركة متوترة ..

فلندعه سنوات أخرى : لقد ذهب قومه فى التيه ونحسه قد صار كهلاً
حينما افترق منهم ، ولقى الرجل الذى طلب إليه أن يصحبه ليعلمه مما آتاه
الله علماً . ونحن نعلم أنه لم يستطع أن يصبر حتى ينبئه بسر مايصنع مرة
ومرة ومرة ، فافترقا ...

تلك شخصية موحدة بارزة ، وأنموذج إنسانى واضح فى كل مرحلة من
مراحل القصة جميعاً (٥) . وهكذا نلاحظ أن إبراز سمات الشخصية فى القرآن يقوم
على مبدأ عام يسمى فى علم النفس " اتساق شخصية الفرد " بحيث أن سلوكه

(١) سورة الاعراف : آية ١٤٣ .

(٢) سورة الاعراف من آية ١٥٠ .

(٣) سورة طه : آية ٩٤ .

(٤) سورة طه : آية ٩٧ .

(٥) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن : ص ١٦٥ - ١٦٦ .

يبتناغم بصفة مستمرة مع الظروف الداخلية والخارجية التي يتعرض لها، وذلك بما يحمل من خصائص معينة تلازمه من موقف لآخر، وتؤثر في سلوكه، وتحدد وجهته ونمطه .. ومادلك إلا لأن القرآن قد عبّر بأمانة عن تصرف الشخصية في مواقفها، واستخدم دقة التعبير عن مشاعرها، ومدق الترجمة الباطنية من خواطرها. فهي رغم تعدد مواقفها وتنوعها في مواطن متفرقة من القرآن لا يتناقض جمعها في موضع أو سورة، لانعدام الوحدة الموضوعية بينها، لكننا نجد في تلك الشخصية من توافق العناصر، واختلاف الصفات، وتفاعيل السمات المزاجية والخلقية على الخصوص. ما يلقي الأضواء على جوانبها النفسية (١).

فلذا انتقلنا إلى شخصية يوسف عليه السلام، وما كان فيها من سمات تترجح بين الإنسانية والمثالية بين مطلع حياته، وفي كنف أبيه يعقوب عليه السلام، وفي بيت عزيز مصر، ثم في جلوسه أمينا على خزائن الأرض وحاكماً.. ومثل شخصية يوسف المترجحة بين الإنسانية والمثالية شخصية سليمان عليه السلام، وقصته مع ملكة سبا، إنها تعكس مرة صورة الإنسان، وأخرى صورة النبي، وشالكة هذه وتلك، دون أن تطفئ واحدة على الأخرى (٢).

الأبطال المجهولون :

ومما تفرّد به القرآن عنايته بالأبطال المجهولين، فيخصص لهم عدداً من الآيات، وتفاصيل من الحوار وإشادة بالمواقف، ويسلط عليهم من الأضواء أكثر مما يسقط على بعض الأنبياء .. وقد تجاوز القرآن في هذه المجموعة من القصص بعض عناصر التحديد من الأسماء والأماكن والأزمنة، وإن تباين هذا التجاوز من قمة إلى أخرى، وأكثر نماذج الأبطال المجهولين تفصيلاً في القرآن

(١) د. التهامي نفرة : سيكولوجية القمة في القرآن، ص ٣٦١، ٣٦٩ .
(٢) د. بكرى شيخ أمين : التعبير الفني في القرآن، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

هي " مؤ من آل فرعون " : وتبدأ قصته من قوله تعالى :
 " وَلَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ
 رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ
 يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ " (١) .

إلى قوله تعالى :
 " فَسَتَذَكَّرُونَ مَا آقُولُ لَكُمْ وَأَقْوِيضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَعِيرٌ
 بِالنَّاعِبِينَ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا كُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ
 النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ
 أَشَدَّ الْعَذَابِ " (٢) .

ثم يذكر ربنا بعد ختام القصة ومشاهد القيامة ، قاعدة وشيعة الصلة
 بكل داعٍ إلى الله : " إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ
 سُوءُ الدَّارِ " (٣) .

والقصة مما تفرد به القرآن ، وهي درس عن الحق والدعوة إليـه ،
 لجأ فيها المؤمن إلى تذكير قومه بالآخرة ، ثم ذكّرهم بقوم نوح وعاد وشمود ،
 وربط جحودهم بما حدث من آباؤهم بعد وفاة يوسف : " حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ
 يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا " (٤) . وكيف وقف المؤمن يعارض فرعون ، وهو يأمر
 وزيره هامان أن يبني له صرحاً يبلغ به أسباب السماوات ليطلع إلى إله موسى .
 ثم دعا قوم فرعون إلى اتباع الحق . وصرّ الرجل بإيمانه بعد أن كان يكتمه ،
 وحذر قومه مغبة سيئات ما مكروا . ونجّى الله المؤمن وحاق بآل فرعون سوء
 العذاب (٥) .

-
- (١) سورة غافر : آية ٢٨ .
 (٢) سورة غافر : آية ٤٤ - ٤٦ .
 (٣) سورة غافر : ٥١ - ٥٢ .
 (٤) سورة غافر من آية ٣٤ .
 (٥) د. عبد العزيز كامل : القرآن والتاريخ : مجلة عالم الفكر ، ص ٣٦ - ٣٧ .

وهذا النظر مما يلقي الضوء على مثل قولك^ل الله عز وجل : " وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ . فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ " (١) .. ونقرأ حتى آخر الآية نجد أن ليس فيها أسماء .. حتى للمرسلين .. فهذه الشخصيات المغطاة النكرات لاتدعو ضرورة إلى كشفها أو التعريف بها ، لأنها لاتؤدى دورها فى الحدث القصصى هنا باعتبارات خاصة مميزة لها .. وإنما هى مثل عام لجنسها كله فى صلاحيته للقيام بهذا الدور .. ومن هنا تكون عمومية المثل وصلاحيته وشموله لجميع الأفراد فيما ضرب له ، وسبق من أجله ، ولأن غرض السامعين أو القارئين ، وعبرة القصة ، ونتاج الموعظة لاتستدعى أكثر من ذلك (٢) .

مما سبق عرضه يتضح لنا أن المحور الرئيسى لهذه القصص جميعاً هو الإيمان بالله تعالى ، إلا أن نشاطات هؤلاء الأبطال فى المجتمع متنوعة ، وتمثل الحرف الرئيسة زراعة وصناعة وتشبيداً ... وهذه البطولات المجهولة ممتدة ولاتزال تظهر فى نصرة الحق . يقول الله تعالى : " مَنِ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا " (٣) .

وجزاء الله لكل عامل من هؤلاء قائم :
" فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذُكِّرُوا وَاتُّبِتُ بِعَمَلِهِمْ مِّنْ بَعْضِ فَعَلْدَيْنَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَلَاكُفْرَنَ مِنْهُمْ سَيِّفَاتِهِمْ وَلَدْخَلْتَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ . وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ " (٤) .

(١) سورة يس : ١٣ - ١٤ .

(٢) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث فى قصص القرآن ، ص ٦٦ - ٦٧ .

(٣) سورة الأحزاب : آية ٢٣ .

(٤) سورة آل عمران : آية ١٩٥ .

والآيات دعوة إلى متابعة المسيرة في بناء الحياة على الخير
وممرانها بالعمل الصالح وهي تنير السبيل أمام بطولات جديدة دون أن تقتصرها
على مواقع محددة من المجتمع . وطوة القول أن البطولة في القرآن لا تقتصر
على الأنبياء ، وإن كان لهم فيه النصيب الأوفى ، ولاتقف كثيراً عند الملوك ،
وإنما تمتد مظلتها لتشمل الأبطال المجهولين والجموع المؤمنة . وإذا كانت
العناية قد زادت في الاتجاهات التاريخية المعاصرة بحركات الشعوب
والجماعات الإنسانية ، وفيها الكثير من البطولات المجهولة . فإن قطاعات
التاريخ التي عرضها القرآن الكريم تضم هذا جميعاً وتتسع له (١).

شخصية المرأة :

جاء القرآن الكريم بحقوق مشروعة للمرأة لم يسبق إليها في دستور
شريعة أو دستور دين ، وأكرم من ذلك لها أنه رفعها من المهانة إلى مكانة
الإنسان المعدود من ذرية آدم وزوجه ، وبرأها من رجس الشيطان ومن حطية
الحيوان ..

وأعظم من جميع الحقوق الشرعية التي كسبتها المرأة من القرآن الكريم
لأول مرة أنه رفع عنها لعنة الخطيئة الأبدية ووصمة الجسد المزدول . فكل
من الزوجين قد وسوله الشيطان واستحق الغفران بالتوبة والندم (٢) :
" فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَهُمَا " (٣)

وكلاهما ظلم نفسه بدنبيه :
" قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
الْخَاسِرِينَ " (٤) . وليس على ذرية آدم وزوجه من بنين وبنات جريرة تلحقهم بعد
أبويهم أو تلحق أحداً من الأبناء بجريرة الأباء :

- (١) د. عبد العزيز كامل : القرآن والتاريخ ، مجلة عالم الفكر، ص ٣٧ .
- (٢) عباس محمود العقاد : المرأة في القرآن، ص ٥٥، دار نهضة مصر، القاهرة .
- (٣) سورة الاعراف من آية ٢٠ .
- (٤) سورة الاعراف : آية ٢٣ .

".. تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ، وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (١)

ولذلك حرص القرآن الكريم في قصصه على تقدير المساواة بين الرجل والمرأة ، في طبيعتهما البشرية ، وأنه ليس لأحدهما من مقومات الإنسانية أكثر مما للآخر ، وأنه لا فضل لأحدهما على الآخر بحسب عنصريه الإنساني وخلقته الأول ، وأن المفاضلة بين أي رجل وأية امرأة إنما تقوم على أمور أخبرى خارجة عن طبيعتهما ، وهي الأمور المتعلقة بالكفاية والعلم والخلق .. وما إلى ذلك ، كما هو شأن المفاضلة بين الرجال أنفسهم بعضهم مع بعض (٢) .

وتبرز المساواة بينهما في القيمة الإنسانية المشتركة ، في قصة إبراهيم وتبشيره بـ غلام ، فقد كانت البشارة مرة له : " وَبَشِّرْهُ بِقَوْلٍ كَلِيمٍ " (٣) ومرة لزوجته : " فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ " (٤) .. وذلك لا يدل على أن في القصة واقعيتين مختلفتين ، أو أن القرآن يتناول مسائل التاريخ في حرية فنية ، كما يرى الناظرين في قصص القرآن (٥) ، ولكنه يدل على نظرة القرآن إلى الزوجيين وكأنهما شيء واحد في الشعور الإنساني . فإسحاق ابنهما معاً ، فهما شريكان في هذه المنّة (٦) .

ويتضح من ذلك أن القرآن الكريم أعطى للمرأة مكانة واضحة في القصة لأمرين أولهما ارتباط القصة بالدعوة (٧) ، وثانيهما إبراز مساواتها مع الرجل

- (١) سورة البقرة : آية ١٣٤ .
- (٢) د. علي عبد الواحد وافي : المرأة في الإسلام ، ص ٣٩ ، دار نهضة مصر ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
- (٣) سورة الداريات من آية ٢٨ .
- (٤) سورة هود من آية ٧١ .
- (٥) د. محمد أحمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم ، ص ٢٤٧ ، مكتبة الانجلو ، ط ٤ ، القاهرة ، ١٩٧٢ . حيث يقول : " إن المعاني الأدبية والفنية هي مقصود القرآن من القصص ، وهي الأمور التي يبحث عنها ، وهي الأمور التي تجعل الحادثة الواحدة تصور بصور مختلفة ، ويعبر عنها بعببارات متفاوتة حسب الظروف والمناسبات .
- (٦) د. التهامي نفرة : سيكولوجية القصة في القرآن ، ص ٤٠٠ - ٤٠١ .
- (٧) د. فؤاد على رضا : من علوم القرآن ، ص ١٩١ .

فى صفاته الطبيعية . جسمانية وعقلية وروحية .. وإن كان هناك شيء من التمييز فإنه شيء يدمو إليه تنسيق العناية الإلهية .. كما يشير إلى ذلك قوله سبحانه : " هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا . فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ " (١) .

فلذا ذكرت المرأة فى القرآن أو فى قصص القرآن فذلك لأن وضعها يستوجب لها ذلك . وحكم الواقع والمجتمع والنظام يقتضيه (٢) . وبالنظر والتأمل نجد النواحي التى تدمج المرأة فى القصص القرآنى الكريم تقرر فى النفوس معانى هى بالمرأة ألمق وأنوثتها بها أحق . كما أنها تحقق عبراً لاتتحقق دون ذكر المرأة فنذكر من ذلك على سبيل المثال :

١ - عاطفة الأمومة :

تتمثل بمميزاتةا فى المرأة ولاتتمثل بغيرها ، وكذلك الحنان الأنشوى والعطف الإنسانى ، وذلك كله يتحقق فى قصة ميلاد موسى :

" وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ . لَأَتَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِعًا . إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْكِرِينَ . وَقَالَتْ لَأُخِثِمَ قُبَيْهِ فَبَصَرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَافِقَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ . فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " (٣) .

تتجلى هنا يد القدرة الالهية فى حماية موسى ، حمايته بالمحبة ، ذلك الستار الرقيق الشفيف ، لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال ، حمته بالحب الحانى

(١) سورة الأعراف من آية ١٨٩ .

(٢) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث فى قصص القرآن ، ص ٧٠ .

(٣) سورة القصص : ٩ - ١٣ .

فى قلب امرأة ، وتحدث به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره - وهان فرعون على الله ان يحمى منه الطفل بغير هذا الستار الشفيف (١).

٢ - الحياء والخجل :

فالحياء الطبيعى والخجل المحبب لا يتجلى على وجهه الصحيح الصادق فى غير المرأة ولننظر فى قصة موسى مع بنات شيخ مدين : " وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَذْيَنَ، وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ . قَالَا : مَا خَطْبُكُمَا . قَالَتَا : لَأَنسَقِيَ حَتَّى يُمْدَرَ الرَّعَاءُ وَأَبُوكَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ . فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ . قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا . فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ . قَالَ : لَاتَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " (٢)

ونقف هنا عند قوله تعالى : " تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ " حيث تبرز فيه مشيئة الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال . " على استحياء " فى غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء . جاءته لتنهى إليه دعوة فى أقصر لفظ وأخصر وأدله : " إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا " . فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح ، لا التلجلج والتعثر والربكة . وذلك كذلك من إحياء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة . فالفتاة القويمة تستحى بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم ، ولكنها لشقتها بطهارتها واستقامتها لاتضطرب . الاضطراب الذى يطمح ويغرى ويهيج ، إنما تتحدث فى وضوح بالقدر المطلبوب ولا تزيد (٣) .

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن : المجلد الخامس ، ص ٢٦٧٩ .

(٢) سورة القصص : ٢٣ - ٢٥ .

(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، المجلد الخامس ، ص ٢٦٨٧ .

لمريم بالذات وهو اختيارها دون نساء العالمين كلهن : " وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَمْرُؤُا اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ " (١) - اختيارها لتفح مولودا دون أن يمسه رجل . ولذلك لم يذكر القرآن الكريم اسم امرأة فرعون ، لأن القرآن حين تأتي أخبار المعجزات والقصص الإيمانية ، لا يذكر الله سبحانه وتعالى الاسم كاملاً ، لأن هذه لمحات إيمانية مقصود أن يقتدى بها الناس . ولو أنهم ذكروا بإسمائهم كاملة ، لكانت هذه المعجزات خاصة بهم لا تتكرر لغيرهم . .
إلا مريم - فكلما ذكرت في القرآن (٢) . . لأن معجزة الميلاد من أنثى بلا ذكر - لن تتكرر بالنسبة لنساء العالمين كلهن إلى يوم القيامة . . ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى لم يستخدم لفظ "نساء الأرض" ، ولكنه استخدم لفظ "نساء العالمين" ، أي نساء الإنس والجن وكل مخلوقات الله . . لن توجد أنثى يتكرر لها ما حدث لمريم - مما اصطفاه الله سبحانه وتعالى به ، وهي معجزة الميلاد من أنثى بدون ذكر (٣) .

وكانت على نقيض ذلك امرأة لوط ، وامرأة نوح ، فكلتاها لم تهتد بنور النبوة المشرق في بيتها ، بل تحولت عن زوجها النبي إلى الجبهة المعادية وخانت دعوته ، وكانت حرباً عليه مع الكافرين . فأصابهما ما أصابهم من عذاب اليم : " ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا ، فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَقِيلَ : ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ " (٤) .

- (١) سورة آل عمران : الآيتان ٤٢ - ٤٣ .
- (٢) ورد اسم "مريم" في القرآن الكريم ٢٤ مرة .
راجع اسم مريم في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٦٦٥ . وضعه محمد فؤاد عبد الباقي . دار الفكر . ط ٢ ، القاهرة ١٩٨١ .
- (٣) محمد متولى الشعراوى : معجزة القرآن ، ص ٣٧٨ .
- (٤) سورة التحريم : آية ١٠ .

وفى إشارة القرآن هنا مايوكد المسؤولية الفردية : فكل إنسان رجل أو امرأة مسؤول عن ذاته ، ولن يعفيه من هذه المسؤولية شيء (١) .

كذلك فإن القصة القرآنى يشير إلى ضعف المرأة أحياناً أمام عاطفة الحب حتى إنها لتندفع فى بعض الأحيان دون أن تشعر إلى مكان ينبغى خلافه .. فقد راودت يوسف وغلقت الأبواب .. وقالت : هيت لك .. إلى أن مكرت به حين تعلف من متابعة الهوى الجموح وامتنع عن الإصغاء إلى داعى الشهوة والإثم والجريمة ، وآثر مرضاة الله ، وقال : " إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ . إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ " (٢) .

وفى هذه القصة تظهر وهى عاشقة ؛ وهى منتقمة لكبريائها ؛ وهى ناعمة ، كما صور لنا أيضا القصة القرآنى المرأة وهى فى مكان المدارة الدولية ، ملكة ذات دولة ودلال .. وذات سلطان وجلال ، ولها فى قومها المكان الذى اكتسبته بعقلها وحكمتها وتدبيرها قبل ان تكتسبه بملكها وسلطانها .. يتمثل ذلك فى ملكة "سبا" وماكان بينها وبين سليمان مما ورد فى قصة الهدى — إذ يقول : " إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ " (٣) ، واستطاعت تلك الملكة أن تدبر أمر ملكها ، وتستشير قومها إلى أن اجتمعت بنبى الله سليمان ، وأسلمت معه لله رب العالمين " (٤) .

وهناك تساؤل مشار حول المرأة فى القصة القرآنى : هل إذا خلت القصة القرآنية من المرأة يكون لتلك القصة مكانها من التأثير والإشارة فى نفس القارئ ، شأنها هذا شأن القصة التى تظل فيها المرأة بوجهها ؟

(١) د. التهامى نقرة : سيكولوجية القصة فى القرآن ، ص ٤٠٢ .

(٢) سورة يوسف من آية ٢٣ .

(٣) سورة النمل : آية ٢٣ .

(٤) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث فى قصص القرآن ، ص ٧١ .

فى الحقيقة لقد جاءت القصة القرآنية خالية من ذكر المرأة، أو الإشارة إليها، تلميحاً أو تصريحاً، وقد تمثل ذلك فى قصص كثيرة أبرزها قصص سورة الكهف، مثل قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة موسى والعبدة الصالح، وقصة ذى القرنين .. وجاءت أيضاً القصة القرآنية والمرأة تكاد تكون العنصر الغالب فيها مثل قصة يوسف، وقصة ملكة سبأ، وقصة مريم ..

ومن دراسة هذين الأنموذجين من القصص القرآنى يبدو لنا فى وضوح بَيِّن أن وجود المرأة فى القصص القرآنى أو عدم وجودها، ليس له وزن فى حساب هذا القصص، إلا من حيث تقرير الواقع، وما يقضى به منطق الحق فى الحدث التى تصوره القصة القرآنية وتعرضه منها، وكان لها مكانها البارز فيه كأنموذج من نماذج الحياة الإنسانية، التى تلتبس منها العبرة والعظة، أما إذا لم يكن للمرأة هذا الواقع الحقيقى فى الحدث، ولم يكن لها أثر فى إبراز عبرة أو موعظة، فإنه لا يكون للمرأة مكان فى القصة القرآنية، بحال أبداً، لأن القرآن الكريم إنما ينقل قصص من واقع الحياة الماضية، ويبعث الأحداث الغابرة من مرقدها على النحو الذى كانت عليه من قبل، وعلى ماكان لها من موقف فى الحدث الذى تنقله القصة القرآنية (١).

وليس من أهداف القصة القرآنية أن تستعرض أمثالاً لحب وهوى المرأة وماطفتها إن لم يكن ذلك لحكمة أرادها الحق سبحانه وتعالى مثلاً وعبرة لأولى الألباب .

٢ - الحوار فى القصص القرآنى :

لللمسة فى القرآن الكريم طريقتان :

(١) طريقة عرض الأحداث بشكل تقريرى ينتقل فيه الحدث من مرحلة إلى

مرحلة حتى يبلغ نهايته .

(١) عبد الكريم الخطيب : قصص آدم ويوسف عليهما السلام ، ص ٣ و ٤ .

ب) طريقة الحوار .. الذى يحاول أن يمثل فيه كل طرف من أطراف اللامة، ولكل بطل من أبطالها دوره الذى يعبر عنه بأسلوب واضح، ويشير فيها بعض اللامايا التى يلف ازاها البطل الآخر ليعبر عن دوره بكل أمانة ووضوح ..

أما قيمة الطريقة الأولى، فتتمثل فى ملاحظتها للقضايا الصغيرة فى التاريخ، ووقوف القاص، موقف المرشد الذى يقود تفكير السامعيــــن أو القارئــــين إلى النقاط الأساسية فى أسلوب يقرب من التلقين الذى يراد منه تعبئة الفراغ بشكل دقيق ..

وأما طريقة الحوار، فإن قيمتها فى محاولتها تبسيط الفكرة فى جميع مجالاتها، فلا يترك أى جانب خفى فيها، لأن كل طرف من أطراف الحوار يحاول أن يشير الجوانب التى يؤمن بها ويدافع عنها .. وهناك نقطة أخرى، يتميز فيها الحوار، وهى أنها تجسد الموقف فنشعر فيه بالحياة المتحركة التى تنتقل من موقف إلى موقف، ومن جو إلى جو، وتعيش فيها الأحداث الماضية من خلال أبطالها الذين نشعر بهم، ونحن مندمجون فى القصة - يتحركون أمامنا فى أدوارهم وأوضاعهم كما لو كنا حاضرين معهم ..

ومن الطبيعى أننا لانستطيع الحصول على أكثر هذه الجوانب فى عرض اللامة بالطريقة التقريرية التى تتحدث عن الموضوع بأسلوب الحكايسة أو التقرير، وإن كانت تعطينا معرفة تفصيلية للموقف ..

وربما كان هذا هو السبب فى تركيز القرآن الكريم على الحوار القصصى فى أكثر من موقف، وفى أكثر من قصة من أجل التأكيد على الصورة الحقيقية المتجسدة المتحركة للتاريخ الرسالى الذى يراد له أن يرتبسط بالحاضر، فى عملية وخذة رسالية رائعة، أو للقضايا الحيوية التى يريد القرآن الكريم إشارتها فى حياة الناس وتعميقها فى نفوسهم (١).

(١) محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

ولذلك تميز الحوار القصص القرآني بأنه لم يكن مصدره دائماً هو الإنسان ، كما هو المألوف ، بل اشتركت فيه عناصر متباينة :
فنجد في القصص القرآني حواراً :

بين الله والملائكة :

" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ... " (١)

وبين الله والإنسان :

" أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ أَمٍّ ثُمَّ بَعَثَهُ . قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. " (٢)

وبين الله وإبليس :

" قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ . قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا . فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ " (٣)

وبين الإنسان والملائكة :

" وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُمِّ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ... " (٤)

وبين الإنسان والحيوان :

" وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ : مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ .. " (٥)

(١) سورة البقرة من آية ٣٠ .

(٢) سورة البقرة من آية ٢٥٩ .

(٣) سورة الأعراف : الآيات ١٢ - ١٤ .

(٤) سورة ص : الآيات ٢١ - ٢٢ .

(٥) سورة النمل : آية ٢٠ - إلى آية ٢٢ . والخوض في الطريقة التي جرى بها

الحوار بين هذه العناصر المتباينة لا يجدي . وقد استشكل بعض المفسرين ولاسيما علماء الكلام منهم خطاب الرب سبحانه للشيطان في هذا التصاور الطويل ، واختلفوا فيه : هل هو خطاب بواسطة الملائكة كالوحي لرسول البشر؟ أم بغير واسطة وكيف ؟ وهو يقتضي التكريم ؟ وهل أن ما قصه القرآن على لسان الهدهد تخيل أو تمثيل ، أو تعبير بلسان الحال ؟ .. إن محاولة الإجابة على مثل هذه التساؤلات تفضي إلى التحكم ، والإيمان بدعونا إلى التسليم بأن ما جاء في هذا الحوار حق ، دون البحث في كلفيته .
انظر: د. التهامي نغرة : سيكولوجية القصة في القرآن ، ص ٤١٤ .

والحوار فى القمص القرآنى يجرى فى نمط أساليبه الرفيعة . مهما كانت الأشخاص والمتحاورون ، فهى مقابلة بين شخصين أو أكثر ، يعبر عن معانيها أرفع الكلام وأسماء وأمرقه فى مرماه ، إنه صور تخرج خبايا النفوس ، فيصورها خالقها من خلالها ، وتكشف عن طوايا الصدور ، فيعرضها الرب سبحانه على وجهها .. ونحن حين نقف بين يدي أحد مواقف القرآن فى حوار القصة نجد المشهد كله حاضراً مشخفاً يملأ الأسماع والأبصار ، ويملأ حتما تلك الفراغات والفجوات التى تقع عادة بين ثنايا الحوار وطوايا الصراع من غير تعمل أو تكلف أو اصطناع (١) .

ولاشك أن الحوار الذى يديره القرآن فى دقة وحساسية لإحياء مشاهد القمص أو تصوير انفعالات الأشخاص قد اقتضى اتباع أسلوب اللاعنف ، وطريقة اللين لأن القصة القرآنية مرتبطة بالخط القرآنى الكبير ، وهو الدعوة إلى الله وإرشاد الناس إلى الحق . وإن شئنا أن نستزيد تصوراً لذلك ، فلنتابع الحوار فى قصة موسى عليه السلام :

الحوار فى موسى :

لقد كانت قصة موسى عليه السلام ، فى القرآن الكريم ، من أكثر القصص القرآنى توزيعاً فى سورة ، فقد ذكرت فيما يقرب من الثلاثين موضعاً أو تزيد ، ولعل قيمتها فى هذه الحياة المتحركة أبداً .. فى شخصية موسى اللاوية التى دخلت إلى الحياة فى ظروف صعبة ، فى أول ولادته ، وفى المجتمع الملهور المستعبد فى ذلك الوقت ، وفى الحياة القلقة التى درج فيها فى أول خطواته ، مما جعله يختزن ذلك كله فى كيانه ، ليواجه الحياة من موقع

(١) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث فى قصص القرآن ، ص ٧٣ و ٧٥ .

الشعور بالقوة التى ما أن تمتد فى الصراع الذى يحاول أن يجرها بعيداً حتى ترجع إلى الله سبحانه فى موقف إنابة وابتهاال . ولقد مرت حياته بمواقف صعبة جداً ، قبل أن يرسله الله نبياً إلى فرعون ، فحفلت بالكثير من الأحداث والمواقف . مما ترك أثراً فى شخصيته ، فجعلها تهتز قليلاً فى شعور خفى قلق من قوة الطغيان والكفر ، المتمثلة فى فرعون وسيطرته الكبيرة الممتدة فى حياة أمته (١) :

حواره مع الله :

ولذلك وقف موسى - أمام تكليفه بالرسالة - فى الموقف الخائى الذى يتقبل الرسالة بإيمان ، ولكنه يريد أن يستجمع - فى نفسه وفى خطواته - مناصر جديدة من القوة ، التى يستمدّها من أُلطاف الله من جهته ، ومن مشاركة أخيه له من جهة أخرى . ولقد أبرز الحوار هذا الموقف العميب الذى وقفه موسى ، وهو يتلقى من الله سبحانه التكليف بالذهاب إلى فرعون لأداء الرسالة إليه . هذا الحوار الذى تنطبق عليه قاعدة المشاهد الأربعة التى جاءت فى القرآن الكريم ، عن هذه المرحلة فى سورة " طه " ، و " القصص " و " الشعراء " ، و " النمل " ، ثم الصور المجملّة غاية الإجمال فى " الفرقان " ، و " السجدة " ، و " النازعات " ، فالتفصيل الذى تبدو فيه الصورة بكل معالمها الكبرى ، ومعظم خطوطها الفرعية ، تأتى فى موضع ثم لا تلبث أن تتأكد هذه الصورة بتلك المعالم بصورة قريبة منها ، وإن كان الإجمال يعوض بإيراد تفاصيل جديدة ، تحفظ للصورة طرافة ، تعينها على استشارة الاهتمام ، وبعبث التشوف والتطلع ، ثم تأتى بعد ذلك الصور التى يزيد نصيبها من الإيجاز ، ليكون دورها إبراز خلاصة الحدث ، وكأنه الحكم النهائى الذى يستنبطه حكمة هذا كله ، وتبدأ الصورة الكبرى فى سورة " طه " إذ يقول الله تعالى :

(١) محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن ، ص ٢٦٣ .

"وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَعْلِمِ النَّاسَ لَدُنِّي أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ فَلَا يَمُدُّكَ مِنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ" (١).

ثم تبدأ المناجاة : " وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَىٰ ؟ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيَّهَا وَآهَشُ بِهَا عَلَىٰ غَمَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَارِبُ أُخْرَىٰ قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَىٰ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَا فِيهَا حَيَّةً فَاصْبِرْ ، قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ . سَتُعِيدُهُمَا بَسِيرَتَهَا الْأُولَىٰ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَشَافًا مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ " (٢). ثم تختتم المناجاة أيضاً في سورة " طه " : " اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي دَعْوَىٰكَ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّنَعْلَمَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْسَأْنَا نَحَافَ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِئَ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَأْنَا وَأَرَىٰ فَاْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ، وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ " (٣).

ثم تأتي السورة التالية ، سورة القصص ، أقل ترسلاً ، في إيراد التفاصيل ولكن مع الحرص على جوهر الواقعة ، وفي صيغة بطبيعة الحال ، مخالفة للصيغة الأولى ، أولاً لاعتبارات الإيجاز والإجمال ، ولإحداث التناسق أو الاتساق مع العبارة المستعملة في هذه الصورة ، وإليقاع العام في السورة ، التي هي الإطار الشامل ، وتبدأ الصورة بالمناجاة ، ثم تتبعها الوقائع بلا تمهيد :

"... يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ . يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ . إِنَّكَ يَدُوكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَشَافًا مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ . وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ . فَذَلِكُنَا بُرْهَانُنَا مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . قَالَ : رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ، وَأَخِي هَارُونُ

- (١) سورة طه : الآيات ١٣ - ١٦ .
(٢) سورة طه : الآيات ١٧ - ٢٣ .
(٣) سورة طه : الآيات ٤٢ - ٤٧ .

هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْنَا مَعِيَ رِذَاءًا يُبَدِّقُنِي . إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون .
قَالَ : سَنَدُّكَ مَعْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ مُلْكَنَا ، فَلَا يَمْلِكُونَ إِلَيْكُمَا رِشَايَتِنَا ،
أَنْتُمَا كُنْ أَتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ " (١) .

والمقابلة بين ماجاء فى سورة " طه " ، وما جاء فى سورة " القصص " تبرز تماماً ، منهج القرآن الكريم فى التفصيل فى الموضوع الذى يختاره الله تعالى ، ومنهجه فى الإيجاز فى الموضوع الذى يختاره لذلك رب العالمين " (٢) ومن ناحية أخرى عرض الحلقة من القصة التى تؤدى الغرض منها وتبرزه فى إطار السياق العام للسورة التى تعرض منها ، " فالقصة القرآنية تخضع فى طريقة عرضها للغرض المراد من هذا العرض . فهى أداة تربية للنفسوس وسيلة تقرير لمعان وحقائق ومبادئ . وهى تتناسق فى هذا مع السياق الذى تُعرض فيه ، وتتعاون فى بناء القلوب ، وبناء الحقائق التى تعمر هذه القلوب " (٣) .

حواره مع فرعون :

إن من أخطر مشاهد القصة القرآنية ، وأكثرها دلالة على دور هذه القصة وأعظمها امتلاء بخصائص القصة وتنوع أسلوب الحوار فيها ، ذلك المشهد الذى دار الحوار فيه بين موسى عليه السلام من جانب ، وفرعون مصر من جانب آخر ، وفى هذا الحوار تتضح فلسفتا التوحيد والشرك ، فتتصارع حجج الحق مع دعاوى الباطل ، فى إيجاز ووضوح ، مع سرعة فى الهجوم والدفاع حتى يتحول الموقف إلى مبارزة فكرية . . . وقد جاء ذكر هذا المشهد فى عدة

- (١) سورة القصص : آيات ٣٠ - ٣٥ .
- (٢) فتحى رضوان : القصة القرآنية ، ص ١١٨ ، ١١٩ ، كتاب الهلال ، عدد ٣٣٢ ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- (٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، المجلد الخامس ، ص ٢٦٧٦ .

لقطات في سور " الأعراف " ، " ف " طه " ، ف الشعراء " .

وبمقارنة هذه اللقطات يتضح جلياً الطارق بين أسلوب الإفاضة والإطناب ، وأسلوب الإيجاز والاقتضاب ، ففي الأسلوبين ، نستطيع أن نعرف جوهر الحوار والأفكار الأساسية ، التي دار حولها ، وموقف المتحاورين وحجة كل منهما وحالته النفسية من الهدوء والطمأنينة في جانب ، والقلق والانفعال والإذلال بالقوة في جانب آخر ، ولكن في الإسهاب نجد الأفكسار مبسطة وعناصرها جميعاً مذكورة ، والأمثلة المتعددة كلها واردة ، ويستغنى عن هذا كله في مواضع الإجمال (١) ، ففي سورة طه نقراً قوله تعالى :

" قَالَ : فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى . قَالَ : رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . قَالَ : فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى . قَالَ : عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَفْلُحُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ تَحَاتِّ شَتَّى . كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى . مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى " (٢) .

٢ - أسلوب المراوغة في الحوار :

لقد تجاهل فرعون في - البداية - معرفة رب موسى وهارون ، السدى يحملان رسالته وحاول أن يشير السوءال أمامهما منه ، كعملية إيحائية لقومه ، بأن القضية لاتعدو أن تكون متعلقة بشخص منافس له غير معروف .. وكان جواب موسى كلمة جامعة تفع السائل في موقع الجهل التام ، ولكن فرعون لم يستسلم وبدأ في إشارة سوءال آخر يريد به صرف الأنظار عن الجواب

(١) فتحى رهبان : القصة القرآنية ، ص ١٢٥ .

(٢) سورة طه : آية ٤٩ الى آية ٥٥ .

الذى لم يستطع مواجهته بشيء يذكر ، وتوجيه الانتباه نحو قضية جانبية ، تخلق جواً من الإشارة التى تعكّر الأجواء ضد الرسالة والرسول ، وهو موضوع القرون الأولى التى كانت تسير فى غير خط الإيمان .. وكان جواب موسى ، أن علمها منذ الله فهو يعلم ماعملوا ويحفظه فى كتاب يواجههم به يوم القيامة .. ثم أعاد موسى الحديث عن الله وخلق الأرض التى مهدها وسلك فيها السبل التى جعلها صالحة للحياة ، وخلق السماء التى تهب الحياة للأرض مما تنزله من ماء يبعث الخصب الذى تنتفع به الناس والأنعام ، ثم لخص الدورة التى يقطعها الإنسان فى هذه الأرض ، منذ بداية وجوده ، إلى خروجه منها ليقف بين يدي الله .

"وهذه لفظة بارعة من موسى - النبى - يواجه بها فرعون بخلاف ما أراد من الهروب عن جو الإضافة فى الحديث عن الله خشية منه أن يؤثر موسى على أفكار من حوله ، الذين كانوا يستمعون إلى الحوار بترقب ولهفة ، إذ لم يسبق لأحد أن واجه فرعون بمثل ماواجه به موسى من دعوة وحوار" (١) .

ب - أسلوب الازدراء والاستخفاف :

كما يتضح من قول فرعون لموسى فى سورة الشعراء : " أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ، وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ " (٢) .

وذلك للتحقير من شأن موسى فى قومه والخط من منزلته عندهم ، فيذكره بتربيته فى قصره ، ويذكره بحادث مقتل المصرى فى تهويل وتجسيم : " وفعلت فعلتك التى فعلت " .. أى فعلتك البشعة الشنيعة التى لا يليق الحديث عنها

(١) محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٢) سورة الشعراء : آيات ١٨ - ١٩ .

بالألفاظ المفتوحة، فعلتها " وأنت من الكافرين " برب العالمين الذى تقول به اليوم ، ولكن موسى وقد استجاب الله دعاءه انطلق يجيبه تهكمًا بهتهم : " فَعَلَّتْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الْمَقَالِينَ ، فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ، فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ . وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ " (١).

ويلاحظ من ناحية التنسيق الفنى فى التعبير : " أن حرف الفاصلة فى السورة هو الميم أو النون وقبلها مد . فقله : من المرسلين . يتمشى موسيقياً مع الإيقاع السائد فى السورة ، بعكس مالمو قيل : وجعلنى رسولاً . ولكنه مع هذا يؤدى معنى مقصوداً . وهو انه واحد من كثيرين وأن الامر ليس بحد ولا عجيب . وهكذا يجتمع التناسق الفنى والدينى فى التعبير " (٢).

وبذلك يتضح لنا كيف تصرف القرآن فى التلوين ، وكيف يربط جو القصة مع ما هو فيه من المناسبات ، ويحكم أسلوبها بكل جو يلابسها من أجواء الكلام ، ويجعل جو السورة الواحدة مقياس العرض الرفيع الأنيق .. فهناك معانٍ متقاربة بين قصة موسى فى سورة " الشعراء " ، وقصة موسى فى سورة " طه " ، وقصة موسى فى سورة " القصص " ، وغيرها من السور، ولكن الأسلوب مختلف بين هذه وتلك ، اختلاف كل سورة عن الأخرى فى مسلكها البيانى الخصيب ، وعرضها الربانى العجيب ، مما يدرك بالذوق على تفاوته ..

ومن مزايا الحركة المتنقلة بين أبعاد القصة فى القرآن ، ملء الفراغات التى تكون عادة بين مقاطع الحوار ، حتى يشعر القارئ أو السامع أو المشاهد بأنه يعيش فعلاً مع أحداث القصة ، يتنقل مع أشخاصها ويحاور

(١) سورة الشعراء : ٢٠ - ٢٢ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن . المجلد الخامس ، ص ٢٥٩١ .

أبطالها، ويشفق لهم أو منهم ، أو عليهم .. فلكل قصة - موقف أو مواقف تجتذب المتأمل ، وتستفيد الناظر المتمهل ، وتندمج في سلك الهدايات الرقيقة والمومضة الحسنة ..

وهذا هو السر في أن القرآن الكريم تارة يختصر القصة ، وأحياناً يطيل في عرضها ، ثم هو في موقف يأخذ بعض جوانبها ، وفي موقف آخر يأخذ بعضاً بغاية الحكمة ، ودقة التصوير ، وجمال التقدير .. هذا . ونجد القصص القرآني الكريم يتميز بالصدق في مدلولاته والتحقيق لمعاني ألفاظه وعباراته .. والتثبت من مفاهيم أبطاله وشخصياته .. فالشخصيات فيه حقائق لها وجودها الذاتي ولها منطقتها وسلوكها ، ولها منزعها واتجاهها ، ولها استقلالها وكيانها ، وليس وراءها في أي مشهد ما ، أو في أي موقف من المواقف يد تحركها ، أو أصابع تشدها ، أو " مخرج " يفصل دورها على " قدها " ، أو مؤلف يضع الكلمات في الأفواه ، ويشد الشفاه بالعبارة والحوار ..

من أجل هذا ، كان للحوار القصص في القرآن شأواً بعيداً جداً في إحياء المشاهد التي ضم عليها الحدث القصص ، وفي إقدارها على التأثير بالكلمة في تصوير رائع مليء بالحركة .

ومن هنا ، نستطيع أن ندرك الفرق الكبير والبنون الشاسع بين القصص الأدبي الذي تتحرك فيه الأشخاص وتتحدث بما يفع القاص على ألسنتهم من حوار ، والقصص القرآني الكريم الذي يمكن القول فيه : بأنه جميعه انفعالات وانطباعات تمور الحق ، وتتلون في ألوان الصدق ، لما فيها من تحقيق الواقع العجيب ، وتصوير الصدق القوي الذي يملأ النفوس إيماناً . ويرحم المشاعر بالإنسانية الرشيدة ، والهدايات السديدة ، ضرورة أنه من القرآن " كَتَبَ أَكْثَرُ أَيْلَتِهِ ثُمَّ قُلَّتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ " (١) و " إِنَّهُمْ

لَقَوْلٍ فَمَلَّ . وَمَا هُوَ بِالْمَهْلِ " (١) هذا وفي ختام الحديث من عناصر القصة القرآنية ينبغي القول : " إن من حكمة القصة القرآنية عدم استيفاء العناصر في موقف واحد ، بل هي موزعة التوزيع الذي يترك في كل موقف أشـهـره المنشود . وهذا يرتبط ارتباطاً واضحاً بمفهوم سليم . . . وهو أن القصص القرآنية في جملته يجرى مجرى الأقصوصة لا مجرى القصة الطويلة ، ومن أسرار ذلك أن تكون النفوس مشوقة إلى استيفاء بعض العناصر ، فتـدرك جانباً منها في مقام وجانباً آخر في مقام آخر ، وهكذا حتى تستكمل القصة جميع عناصرها ، ويبلغ الأمر مبلغه من المعاني المنشودة التي يستهدفها القرآن الكريم من قصصه " (٢) .

أغراض القصص القرآنية :

إن اشتمال القرآن الكريم على هذه الوفرة الغزيرة من القصص الواسع المحكم ، ليدل على الأهمية الكبيرة والمكانة العظيمة للقصة القرآنية ، وقيمتها في التوجيه النفسي ، وفي الهداية إلى الحق وإلى طريق مستقيم . . . ولم يكن هذا القصص سرداً مجرداً لبعض الروايات القديمة يتسلى بها السامعون ، ثم يغفلون عن حكايتها أو يتعطلون ، . . . إن هذا القصص كان تاريخاً لسيرة الدعوة الدينية ، وكيف خطت مجراها بين الناس منذ فجر الخليقة ، وما هي العقبات التي اعترضتها ؟ وهل وقفت عندها أو تغلبت عليها ؟ وماذا صنع الأنبياء بإزائها وكيف قبلت الأمم المدعوة رسالات الله ؟ أو صدت عنها ، بم انتهى الصراع بين الغي والرشد (٣) .

(١) سورة الطارق : ١٣-١٤

(٢) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث في قصص القرآن ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٣) د. حفنى محمد شرف : إعجاز القرآن البيانى ، بين النظرية والتطبيق ، ص ٢٩٣ ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، الكتاب الرابع ، القاهرة ١٩٧٠ .

"وهكذا قضى سبحانه أن تجيء القصة القرآنية متجاوبة مع غريزة
"حب الاستطلاع" مشبعة لها . على صفة لا يحسن فيها المستمع بضغط التكليف ،
ومشقة الامر والنهي ، وهكذا أصبحت القصة على المدى الطويل لها دورها
في التأشير ، وفي مجرى الحياة من حيث لا يشعر الإنسان " (١) .

والحكمة المنشودة من وراء هذا القصة المتنوع نقرأها في قوله
تعالى : " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَنَرُ
وَلَكِنْ تَمْذِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (٢) .

فالقرآن كتاب الدعوة وتاريخها . وفي "ثنايا السرد التاريخي
لأخبار الأولين يزداد عرض الدعوة وضوحاً ويستبين منهجها الذي تحدو البشرية
إليه ، والذي لا يختلف وإن اختلفت العصور وكثرت الدهور . وإنما لنجد فيما
قص القرآن الكريم من وصايا الأنبياء ونماذجهم وإرشادهم لأمتهم ، كلاماً
منسقاً ، وهدياً منسجماً ، مدر من مشكاة واحدة ، وإنساق إلى هدف واحد ،
يمهد أوله لآخره وتصدق نهاياته بداياته ، وكأنهم خطباء فوق منبر واحد ،
مع إنه بين النبي والنبي أزمان وأزمان ، وبين الأمة والأمة تغيّرت قسرى ،
وبادت أمصار ، هذا وقد عرض القرآن الكريم قصصاً أخرى لم يكن أبطالها
أنبياء ولا مرسلين ، وإنما أقوام من هنا أو من هناك ممن طوهم الدهر
ولكن بقيت ذكراهم - إن خيراً أو شراً باقية أمام الناس ماثلة أمام أعينهم
علّهم يثوبون إلى دينهم ، فالدين يهدف إلى صلاح المعتقد ، وتدبير حياة
الإنسان على الوجه الآتم ، فليس الدين بمعزل عن الحياة ، وبذلك تكون
القصة إحدى وسائله الكثيرة إلى أغراضه الدينية ، والتي تتمثل في إبلاغ
هذه الدعوة وتشبيتها " (٣) ، فقد " تناولت القصة القرآنية جميع الأغراض

(١) د. محمود محمد عمار : الدعوة من خلال القصة القرآنية ، مجلة منبر الإسلام
ص ١٢ ، العدد ١١ . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

(٢) سورة يوسف : آية ١١١ .

(٣) د. حفنى محمد شرف : إعجاز القرآن البيانى : ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

القرآنية ، في إثبات الوحي والرسالة ، وإثبات وحدانية الله الواحد القهار ، وتوحد الأديان في أساسها ، ومظاهر القدرة الإلهية ، وعاقبة الخير والشر ، والإنذار والتبشير ، والصبر والجزع ، والشكر والبطر .. وكثير غيرها من الأغراض الدينية والمرامى الخلقية ، قد تناولته القصة ، وكانت أداة وسبيلاً إليه " (١) ... وفوق كل ذلك رقت القصة القرآنية ذوق العرب والمسلمين ، وارثت بأساليب البيان عندهم ، ومهدت لهذه الآثار الضخمة من الكتب والموسوعات ، ودواوين الشعر " (٢) .

وفي الحقيقة أن أول أهداف القصة القرآنية وأغراضها نستمدّها من الظروف التي أوجت بهذا القصص .. ، فقد جاء أن " النضر بن الحارث " كان يجلس إلى الناس كما كان يجلس الرسول - عليه الصلاة والسلام - وكانت قريش تستملح حديثه ، وتنصرف من النبي ، فكان طبيعياً - ومحمد - صلى الله عليه وسلم - بمدد البرهنة على أن ما جاء به حق - أن يعلمه الله سبحانه وتعالى مثل هذا القصص ليبلغه إلى قومه عساهم يؤمنون ، وعن غيهم الفاسد يرجعون ، وما كان لهم - لو أنهم أرادوا وجه الحق - إلا أن يؤمنوا به ، ويمدقوا دعواه ، محمد - صلى الله عليه وسلم - لم يكن كاتباً ولا قارئاً ، ولا عرف عنه أنه يجلس إلى أخبار اليهود والنصارى ، فإذا جاء وأخبر عن أمم بادت وقرون خلت ، وأسهب في قصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى - عليهم السلام - أفلا يدل ذلك على أن ما يقوله حق ؟ لقد اتخذ القرآن من هذه القصص دليلاً على أنه وحى يوحى .. ولنا كان من أغراض القصة القرآنية :

(١) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، ص ١٢٠ .

(٢) فتحى رضوان : القصة القرآنية ، ص ٨ .

أولاً : إثبات الوحي والرسالة :

فالقرآن ينص على هذا الغرض نصاً في مقدمات بعض القصص أو في أعقابها حيث جاء قوله تعالى في أول سورة "يوسف" : " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا مَرَبِّيًا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ " (١).

وفي سورة " هود " التي وردت بعد قصة نوح نقراً قوله تعالى : " تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا " (٢) .

ثانياً : الدعوة إلى الصبر والثقة في الله :

لأنه إذا عرض سبحانه وتعالى على نبيه سيرة أصحاب الدعوات — أقوامهم ، ومآلاتهم من متاعب ، وما صادفهم من أزمات انكشف عنه وانزاح فمه ، وثبت على دعواه — . والقرآن يبرز ذلك في قوله سبحانه : " وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْشِئُ بِهِ قُرْآنًا مِثْلَ هَٰذَا الْغَافِلِينَ " (٣) .

وهكذا كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — يجد في هذا القصص صدى

نفسه .

ثالثاً : التوجيه والإرشاد :

لأن لا ينكر أحد أبداً ما جاء به القصص القرآني من توجيهات دينية قد تدحض كل خلق أو عادات أو آراء زائفة . . فالقصص القرآني يتهجه إلى تحقيق دعوة السماء للأرض من الإيمان بالله ورسوله ، وذلك بشرح العقائد وتصويرها وحسن التصرف فيها . . وقد وجه القرآن الكريم إلى هذا الهدف في جوامع

(١) سورة يوسف : آية ٣ و٢ .

(٢) سورة هود : من آية ٤٩ .

(٣) سورة هود : آية ١٢٠ .

من مباراته بقوله سبحانه : " وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ . فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى . وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ . فَاسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ مَلِكِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ " (١) .

وهنا نرى أن الله سبحانه أضاف إلى ذلك القصص ، الأمر بالسير في الأرض لزيادة العظة والامتبار ، وتوجيه العباد إلى تطبيق كل ماورد في القصص القرآني على الواقع الخارجى . وإرشادهم إلى أن الخير في اتباع ما يوحى إلى رسوله وما يدعوهم الرسول إليه .

رابعاً : الترغيب والترهيب :

ويقترن أمر السير في الأرض بالإنذار والتخويف ، فالإنذار في القصص القرآني له معنى تهدييى إصلاحى يهدى به الله من شاء من عباده إلى الطريق الحق وإلى صراط مستقيم... ومازلنا نمارس هذه السنة الإلهية الكريمة فى نظام الكون والوجود :

" أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً . وَأَسَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا . وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ " (٢) .

وهذا الغرض من أغراض القصص القرآني يجعلنا ننظر تساؤلاً حولـه : إن الإنذار بالعذاب ، ونحوه من أغراض القرآن الكريم فى غير القصص . فما الذى يدعو إلى هذا اللون من القول . وإلى الحفل به والعناية بأمره ؟ والجواب : إن ذلك لحق . ولكن الذى يجب التنبيه عليه والالتفات إليه ، هو أن للقصص من التأثير على النفوس بمقتضى فطرها ما ليس لغيره من ألوان القول ، فهو لون يبين أن ما نذر الله سبحانه به من العذاب قد وقع

(١) سورة النحل : آية ٣٦ .

(٢) سورة الروم من آية ٩ .

لَمَنْ جَدَّ - وَعَنَدَ - ونزع عن رحابة الإيمان وعمق العقيدة ، وإصالة الحقيق ،
إلى ضنك الباطل وزيف الخلال (١).

خامساً : إبراز وحدة الدعوة بين الأنبياء :

إذ أن المدقق في القصص القرآني بقلب عامر بالإيمان وإعمال سليم
للعقل لابد أن يشعر أن من أهم أهداف هذا القصص القرآني إبراز حقيقة
عقيدية مهمة تتضح خلال السرد التاريخي وهي أن الأنبياء والرسل جميعاً
عليهم صلوات الله وسلامه جاءوا بكلمة واحدة وقضية واحدة على تتابع
الأجيال . كلمة واحدة هي : لا إله إلا الله . وقضية واحدة هي : اعبدوا
الله مالكم من إله غيره ..

هذا الهدف من أهم أهداف القصص القرآني في الحقيقة ، يبدو بارزاً
شديد البروز من خلال السرد القرآني ، وتتخذ له وسائل شتى :
أ - فأحياناً يوحد أسلوب القصص (مع التنوع الواضح في القرآن)
بحيث تجيء العبارة موحدة على لسان كل رسول ، في الشريط المتتابع للرسل :
كل رسول يقول الكلمة ويمضي ، ويأتي من بعده بنفس الكلمة بلا تغيير .

ب - وتارة يقال عن قوم معينين أنهم كذبوا "الرسل" مع أنهم لم
يُرسل إليهم إلا رسول واحد ، ليوحى التعبير بأن تكذيب الرسول الواحد هو
بمثابة تكذيب الرسل كلهم .

ج - وتارة يقال عن أقوام متعمدين أنهم عصوا "رسول" ربهم ، فيوضح
ذلك أن كل أمة كذبت رسولها ، ويوحى في ذات الوقت أنه كانما هو رسول واحد
الذي بُعِثَ إلى هذه الأقوام جميعاً ، لأنهم - على اختلاف أقوامهم ، وأزمانهم
وأماكنهم ولغاتهم - قد قالوا ذات الكلمة ، وعرضوا ذات القضية .. ومن هنا

(١) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث في قصص القرآن ، ص ٩٦ .

فالرسل جميعاً كأنهم رسول واحد يتكرر لكل قوم من الأقسام ..

فمن أمثلة النوع الأول ما جاء من الرسل في سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الشعراء بصفة خاصة : " لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ • فَقَالَ : يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ • إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ... وَإِلَىٰ مَا مِنْ آخَاهُمْ هُودًا • قَالَ : يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ • أَفَأَنْتُمْ تَتَّبِعُونَ • • وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا • قَالَ : يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ • قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ • هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ • • وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا • قَالَ : يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ • قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ • فَآزِفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ • • " (١) .

ومن أمثلة النوع الثاني سورة الشعراء : حيث جمعت بين الوسيطتين ، إذ وحدت قول الرسل كلهم في عبارة واحدة يكررها كل رسول ، ثم جعلت كل قوم بمفردهم يكذبون " المرسلين " جميعاً ، بتكذيبهم للرسول الخاص الذى أُرسل إليهم • وكذلك ما جاء في سورة الفرقان عن قوم نوح من أنهم كَذَّبُوا " الرسل " مع أنهم كَذَّبُوا رسولهم الخاص وحده وهو " نوح " ولكن ذلك بمشابهة تكذيب الرسل جميعاً :

" وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ • وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً • وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا " (٢)

ومن أمثلة النوع الثالث ما جاء من أنباء ثمود وعاد ، وفرعون ، والموءتفكات ، في سورة الحاقة : " كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ • فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ • وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ مَزْمَرٍ عَاتِيَةٍ • سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَلَيْنِيةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَىٰ الْقَوْمَ فِيهَا مَرْعًا كَانَتْهُمْ • أَعْجَارُ نَخْلٍ خَاوِيَةً • قَهْلًا تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ • وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَةُ بِالْخَاطِئَةِ • فَعَصَوْا رُسُلَ رَبِّهِمْ فَاغَدْهُمْ أَغْدَةً • رَآيْنَاهُ " (٣) .

- (١) سورة الأعراف : من ٥٩ إلى ٨٥ • ثم انظر سورة هود من ٢٥ إلى ٨٤ ، وسورة الشعراء من ١٠٥ إلى ١٨٠ •
- (٢) سورة الفرقان : آية ٢٧ •
- (٣) سورة الحاقة : آية ٤ إلى آية ١٠ •

والتعبير - وإن كان يفهم منه أن كل فرقة من هؤلاء قد عصت رسولها - إلا أن اللفظة فيه واضحة ، أن الرسل كلهم الذين أرسلوا إلى فرعون ، ومن قبله ، والموت تفككات قد جمعوا في رسول واحد ، لأن مهمتهم كلها واحدة ، وقضيتهم كلها واحدة .. فكانهم رسول واحد تكرر بعثه لكل فرقة منهم في حينها ..

وكذلك ما جاء في سورة الشعراء عن " موسى وهارون " معاً ، أنهم " رسول " رب العالمين : " قَالَ كَلَّا ، فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ فَأَيُّهَا فِرْعَوْنُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أُرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ " (١) . وليس هناك لبس على الإطلاق في أن المتكلم اثنان معاً لا واحد ، لأن الأمر صادر إليهما معاً : " فقولاً " ، وإنيهما يقولان : " أرسل معنا بني إسرائيل " فموسى وهارون يتكلمان معاً .. وحتى لو فرضنا أن موسى وحده الذي يتكلم باسميهما معاً فهو يقول " إِنَّا " ولا يقول " أَنَا " .. أي أنه يتكلم بضمير المثنى لا المفرد ، ومع ذلك يقول " إِنَّا رسول رب العالمين " لأنهما - وهما شخصان - يقومان بمهمة واحدة ورسالة واحدة فكانهما رسول واحد (٢) .

سادساً : وَحْدَةُ الْمَعَارِضَةِ :

ومن الأهداف المهمة ، الموازية في أهميتها لقضية وَحْدَةِ الرِّسَالَةِ وَوَحْدَةِ الرِّسْلِ ، إبراز الموقف الموحد الذي تقفه الجاهليات جميعاً من رسلها الذين أرسلوا إليها .. فكما أنها رسالة واحدة مكررة ، وإن اختلف الأشخاص واللغات ، والزمان والمكان ، فهي كذلك جاهلية واحدة مكررة ، وإن اختلف الأشخاص واللغات ، والزمان والمكان :- " كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ اتَّوَمَوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ " (٣) .

(١) سورة الشعراء : ١٥ - ١٧ .

(٢) محمد قطب : دراسات قرآنية ص ١٠٢ - ١٠٤ ، دار الشروق ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

(٣) سورة الذاريات : ٥٢ - ٥٣ .

وهكذا نرى أنه دور واحد تقوم به الجاهلية دائماً
إزاء هذه الدموية البسيطة غاية البساطة ، الخطيرة غاية الخطورة .. دموية
لا إله إلا الله .. والقرآن يبرز هذا الدور إبرازاً تاماً في قصص الأنبياء ..
وقد كان من أهداف هذا الإبراز ولا شك أن يقال للرسول - صلى الله عليه
وسلم - وللمؤمنين : أن ماتفعله بكم جاهلية قريش من اضطهاد وتعذيب ،
هو عينه الذي صنعه كل جاهلية من قبل في التاريخ .. ثم كانت النهاية
دائماً هي انتصار الحق ، وهزيمة الباطل والعذاب للمكذبين ، ولنقــــرأ

قول الحق تبارك وتعالى حيث يقول :

" فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِكَايِلَتَنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ " (١) (نوح) .

" فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِكَايِلَتَنَا وَمَا كَانُوا مَوْمِنِينَ " (٢) (هود) .

" فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَلِيمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ
يَلْقَوْمِ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تَحِبُّونَ التَّالِمِينَ " (٣) (صالح) .
" فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ

مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ مَلِقَبُهُ الْمُجْرِمِينَ " (٤) (لوط) .

" فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَلِيمِينَ . الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا
كَانَ لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا . الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ . فَتَوَلَّى عَنْهُمْ
وَقَالَ يَلْقَوْمِ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ . فَكَيْفَ أَتَى عَلَى قَوْمِ
كَافِرِينَ " (٥) (شعيب) .

(١) سورة الأعراف : آية ٦٤ .

(٢) سورة الأعراف : آية ٧٢ .

(٣) سورة الأعراف : ٧٨ - ٧٩ .

(٤) سورة الأعراف : ٨٣ - ٨٤ .

(٥) سورة الأعراف : ٩١ - ٩٣ .

كان هذا هدفاً قائماً بالنسبة للمؤمنين إزاء اضطهاد قريش لهم
ولت نزول هذا القرآن .. ولكنه هدف قائم أبداً طالما كانت فـى الأرض
جاهلية من أى نوع ، ودعاة يعلنون دائماً: لا إله إلا الله ، فيفظهـدون
ويعذبون ويقتلون . (١)

سابعاً : موازنة النـبى وإمداده بالمعجزات :

ويضاف إلى أهداف القصـ القرآنى تأييد النـبى - صلى الله عليه وسلم
- فيما اصطفاه الله له من الرسالة ، ولهذا التأييد هدف آخر غير هدف
التثبيت والتسرية ، فإن التثبيت هدف يتجلى فى تحمل الشدائد ، ومقابـلة
الأذى بقلب ثابت ، والصبر على المكاره .. أما التأييد فيتصل بالتحـدى
بالغيب ، والإعجاز بمعرفة تفاصيل لا يطلع عليها إلا علام الغيوب .. فهو يوحى
بها إلى من يصطفيه من عباده : " وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ . وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ . وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً " (٢) .

ثامناً : بيان الأمل المشترك بين دين " محمد " ودين إبراهيم بصفة خاصة ،
ثم أديان بنى إسرائيل بصفة عامة ، وإبراز أن هذا الاتصال أشد من الاتصال
العام بين جميع الأديان . فتكررت الإشارة إلى هذا فى قصـ إبراهيم وموسى
وعيسى :

" إِنْ هَذَا لَفِى الصَّحْفِ الْأَوَّلِ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى " (٣) " أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ
بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى . أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى " (٤) " إِنْ أَوَّلَى
النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِىُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا " (٥) "مِلَّةَ أَبِيكُمْ

- (١) محمد قطب : دراسات قرآنية ، ص ١٠٩ .
- (٢) سورة النساء من آية ١١٣ . وانظر : السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث
فى قصـ القرآن ، ص ١٠٦ .
- (٣) سورة الأعلى : ١٨ و ١٩ .
- (٤) سورة النجم : ٢٨ - ٢٩ .
- (٥) سورة آل عمران من آية ٦٨ .

إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ " (١) و " وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مِمَّا دَخَلْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ
تعالى " وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ،
وَمُهَيِّئًا لَهُ " (٢) .

تاسعاً : بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفياؤه ، كقصص إبراهيم وموسى
وعيسى ، وسليمان وداود وزكريا ويونس ، فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء
الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى ، ويكون إبرازها هو الغرض
الأول ، فمن تقدير القرآن الكريم لحياة سيدنا إبراهيم وبيان نعم الله
عليه ، قوله سبحانه : " وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا . وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِمَّنَ
الصَّالِحِينَ " (٣) .

وإن للسادة الصوفية شرحاً جميلاً لكلمة " الصالحين " حينما ترد ، في
مثل هذه المقامات ، أنهم يقولون : " الصالحون للحضرة الإلهية ، فيكون معنًى
الآية الكريمة : وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، لحضرتنا .. هذا وقد أتت
عدة أوصاف لإبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم نذكر منها :

- إنه كان مسلماً : أى أسلم وجهه لله وأخلص له العبادة .
- وإنه كان أمة : والأمة والجماعة من كان على الحق ولو كان وحده
فهو قدوة يقتدى بها في الحق ، وهو إمام .
- وإنه كان قائماً : والقائم هو الخاضع الخاشع .
- وإنه كان حنيفاً : والحنيف هو الذى لا ينحرف ولا يميل ميل نزعات ،
أو ميل شرك .
- وإنه كان حليماً .

(١) سورة الحج : آية ٧٨ .

(٢) سورة المائدة : ٤٦ - ٤٨ .

(٣) سورة البقرة من آية ١٣٠ .

ساقط من، ملى

المر

الحادى عشر : التحذير من الغواية واتباع الشيطان :

ومن اهم أغراض القصص القرآنى ذلك الغرض الذى يرمى إلى تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان ، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم ، وإبراز هذه العداوة من طريق القصة أروع وأقوى ، وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة فى النفس تدعو إلى الشر ، واسنادها إلى هذا العدو الذى لا يريد بالناس الخير (١).

الثانى عشر : التربية والتهذيب :

قصص القرآن متناسق فى منهجه التربوى مع منهج القرآن ، فهو تطبيق بالمثال الحى لهذا المنهج المتكامل ، ذلك أن القرآن بقصصه ومواعظه وتوجيهاته العقائدية والتشريعية وَحْدَةً متناسقة ، وإن تنوعت طرقه فى التبليغ ، والتعليم قصد الإمعان فى التأشير ، وتجديد نشاط النفس بتجديد انتقاله فى السورة الواحدة من غرض إلى آخر ، مع ارتباط وثيق بالمحاور العام الذى يجمع تلك الأغراض على اختلافها .. ولهذا كانت الوسائل والأهداف فى القصة القرآنية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ، فبحيوية العرض فى القصة ، وقوة التخيل والتصوير فيها ، وتهيئة اللحظة الحاسمة التى تبلغ فيها حرارة الانفعال النفسى درجة الانصهار ، يحصل من التأثير بالتوجيه التربوى مالا يحصل عند إقحام ذلك التوجيه على النفس وهى فى راحتها واسترخائها ، أو فى انطلاقها وتحررها . وفى قصص القرآن إذاً تربية دينية لها أثر عميق فى النفوس مصدرها : عقيدة تظم الخالق والإنسان والكون ، وتقوم على أساس أن كل خلق كريم هو فى ذلك الشعور الباطن ، وهو الإيمان بالله الذى جعل الكون معرضاً رائعاً تتجلى فيها حقيقة الألوهية بأشارها ، وتملأ جوانب الإنسانية بآياتها : " فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَنفَعَهَا ءِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ " (٢).

(١) سيد قطب : التمهيد فى القرآن ، ص ١٢٧ .

(٢) سورة يونس : آية ٩٨ .

والحقيقة التي يوءكدها القصص القرآنى أن موازين القيم والأخلاق مرتبطة بميزان الله . فالكفر ظلمة وظلال ، والإيمان نور وهداية ، فلا إصلاح بغير عقيدة ، ولاتربية بغير إيمان " وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ " (١). ولذلك كان للقصة القرآنية دوراً عظيماً فى تربية العقيدة وتعهدتها وتنميتها، إذ ليست الغاية من التربية سوى تكوين العواطف الصالحة ، ولكن هذه العواطف لاتصبح أساساً للخلق الكريم إلا إذا تحولت إلى اتجاهات يكون ينبوعها الدائم هو العقيدة ، مصدر الإيمان والخير والأمن (٢).

ولقد واجه " إبراهيم " قومه الجاحدين المشركين بحجة ألهمه الله إياها، وهى أن من يخلص لله لا يخاف من دونه ، فهو أحق بالاطمئنان والأمن من الملحد والمشرک ، " وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِكُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ " (٣).

الثالث عشر :

وللقصص القرآنى أهداف وأغراض أخرى كريمة لاتفاير ما أشرنا إليه وما أسلفنا الكلام فيه ، وكلها تتمثل بالأغراض الرئيسة والأهداف الحقيقية، ومنبثقة عنها فى معنى هداية القرآن الكريم ، فهى فروع لتلك الأغراض والأصول ، وهى تتجه فى جملتها إلى ناحيتين :

١ - ناحية تتمثل بهدف التوحيد والإيمان السليم . وذلك هو التوكل على الله والاعتزاز به . وهو فى عرضه القرآنى مما يحقق الأسوة الصالحة، والقُدوة الطيبة ، ويملا النفس المطمئنة بالعة بالله واللجوء إلى حماه ، فى حوار

(١) سورة النور من آية ٤٠ .

(٢) د. التهامى نفرة : سيكولوجية القمة فى القرآن ، ص ٥٤٣ - ٥٤٧ .

(٣) سورة الأنعام : ٨١ و ٨٢ .

الأنبياء مع الكفار نجد فيضاً من التوكل ، وغمراً من الإيمان والتبتل ، فنقرأ في قصة نوح ما ذكر الله سبحانه في سورة يونس إذ يقول : " وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَلْقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِكَالَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونِ كَانَتْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ " (١).

وفي قصة إبراهيم ، ما هو أعجب ، وهي متفرقة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، كما تفرقت من قبلها قصة نوح . ففي سورة الشعراء دار هذا الحوار بينه وبين قومه : " قَالَ : أَفَرِيتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدَوٌّ لِيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ " (٢).

ولننظر في مَرَأَى آخر من جوانب ذلك الحوار .. وكيف انتهى أمره مع قومه إلى أن يلقوه في النار ، ولمن كانت العقوبة ؟ وما مدى استهتارهم به وبدعوته : " قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ . أَفَرَأَيْتُمْ لَكُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ . أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ .. قُلْنَا : يَلَنَّا كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ... وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ " (٣).

أما توكل " موسى " على ربه فقد أضفى توكلاً عجيباً لمن آمن معه .. فقالوا لفرعون - كما يقصّ سبحانه في سورة طه : " قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَیِّنَاتِ ، وَالَّذِي فَطَرَنَا . فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ . إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّمَا آمَنَ بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا . وَمَا أُكْرِهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ . وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى " (٤).

(١) سورة يونس :	٧١ - ٧٢ .
(٢) سورة الشعراء :	٧٥ - ٨٢ .
(٣) سورة الأنبياء :	٦٦ - ٧٠ .
(٤) سورة طه :	٧٢ - ٧٣ .

ب - وأما الناحية الأخرى من تلك الأهداف الفرعية المنبثقة من الأغراض الرئيسية لقصص القرآن ، فهي تعليم الأدب في الحوار ، والمناقشة مهما غلظ المجرمون الكفار ، وتصوير الذوق والرقعة ، والتلطف والعطف .. ولقد تجلّى هذا المعنى سافراً في قصة موسى إذ أرسله الله سبحانه إلى فرعون بسلطان مبين ومعه أخوه هارون .. وزودهما بقوله العظيم وتوجيهه الرشيد الحكيم : " أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ " (١) .

ولقد صور الله سبحانه خلق المرسلين في هذا المعنى الكريم في عدة مناسبات في جوامع الكلمات ، إذ يقول سبحانه في بعض ذلك : " جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَانْتُونَا بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .. وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ " (٢) .

يتضح من هذه المحاورات أن المرسلين يقابلون كل غلظة وجفوة ، وكل شدة في الخطاب وقسوة ، بكل أدب رفيع وسلوك كريم ، وتوجيه صادق كريم ، ومعرفة أمينة دقيقة وتسامح ورحمة جديرة أن تحوّل كل عناد إلى انقياد ، وأن تترد كل غواية إلى أدب وهداية .. وذلك من الدروس المستفادة والعبر الصادقة الحقة التي يجب أن ترتفع بمستوانا إليها ، ونخلق بسلوكنا معها فـ في المعاملة وفي التفاهم والمخالفة وفي كل شئون الحياة .. وهكذا يكون القرآن وقصصه هداية ورعاية ، وموعظة وعبرة ، وأسوة وقدوة (٣) .

(١) سورة طه : ٤٣ - ٤٤ .

(٢) سورة إبراهيم : ٩ - ١٠ .

(٣) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث في قصص القرآن ، ص ١١٠ و ١١٨ .

الدعوة والقصاص القرآني :

من خلال قصة إبراهيم وحواره مع أبيه تستمد الدعوة الإسلامية أول أسلحتها. هو سلاح الحكمة : " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا . يَا أَبَتِ إِنِّي إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ . إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَمِيًّا . يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا . قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ الْإِهَتَى يَبْرَاهِيمُ . لَيْسَ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ مَا سَتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي . إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا . وَأَعْتَزَلَكُم مَّاتَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا . فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ . وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا " (١).

تبدو في هذه الحلقة من القصة شخصية إبراهيم الرضّ الحليم .. تبدو وداعته وحلمه في ألفاظه وتعبيراته وفي تصرفاته ومواجهته للجهالة من أبيه، كما تتجلى رحمة الله به وتعويفه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة تنسل أمة كبيرة ، فيها الأنبياء وفيها الصالحون . وقد خلف من بعدهم خلف أضعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ينحرفون عن الضراط الذي سته لهم أبوه إبراهيم هم هؤلاء المشركون (٢) ..

"وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ" التذكير هنا غراء وسلوى للرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم إنه التذكير بإبراهيم عليه السلام بالذات : (١) لأنه أبوهم . (ب) والمشركون مقرون بنبوته وحقية رسالته .. فهي نقطة إتفاق يضعها الداعي بين أيدي المدعويين ليلتقوا معه عليها ، فيكون ذلك أدعى للإصغاء إليه والإقبال عليه .. ثم تلخص الآية الكريمة عناصر القوة في شخصيته : " إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا " .. إذاً فهو يتقدم إلى ساحة الدعوة ومعه

(١) سورة مريم : آية ٤١ - ٥٠ .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢٣١١ .

أسلحته .. إيماناً وخلقاً وحكمة ، فمن مظاهر حكيمته عليه الصلاة والسلام مناداته لأبيه : يَا أَبَتَ . فحق الابوة يفرض عليه ألاّ يناديه باسمه المجرد ، وحق الدموة يتقاضاه أن يكون في خطابه رفيعاً رقيقاً ، ولذلك لم يقل يا أبى ، وإنما : يا أبت ، بما تحمله زيادة التاء من زيادة برّ ومودة ، ثم أنه يكررها أكثر من مرة ، وذلك ليخفف بالتكرار من حدة والده ، وليفرض عليه بها إخراجاً يمنعه من مبادرته بالثورة ، أو تأخيرها على الأقل ..

ثم يتجه إبراهيم إلى مخاطبة عقل أبيه : " يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى اهدك صراطاً سوياً " .. وبعد ذلك يتجه عليه السلام إلى وجدان أبيه ليهزه بعمق : " يا أبت لاتعبد الشيطان . إن الشيطان كـان للرحمن عصياً " .

ويلاحظ هنا أن إبراهيم عليه السلام لا يريد الضغط على قلب أبيه بالتخفيف ليفجره تفجيراً ، لكنه فقط ينبّه ، يضيء شمعته ، فلعلها تنير الطريق . والآيات التالية توضح لنا ذلك :

أ - لم يؤكّد إبراهيم عليه السلام وقوع العذاب .. وإنما هو فقط يخاف وقوعه ..

ب - ثم إنه يخاف من العذاب أن " يمسّه " لا أن يسحقه .

ج - ويخاف أن يمسّه من قبل " الرحمن " ولا يقول من " الجبار " مثلاً .

أى أنه لا يضغط بعنف ، لكنه يعبر الطريق إلى قلبه برفق ولين ، لعله يلين .. يقول ابن القيم تعليقاً على موقف إبراهيم : وتأمل قول إبراهيم الخليل لأبيه : " يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً " .. فابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيرة ، ولم يسمه باسمه . ثم أخرج الكلام معه مخرج السوءال : فقال : لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ، ولم يقل : لاتعبد . ثم قال : " يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك " .. فلم يقل له : إنك جاهل لا علم عندك ، بل عدل عن هذه العبارة إلى الطفيف عبارة تدل على هذا المعنى فقال : " جاءنى من العلم ما لم يأتك " ثم قال : " فاتبعنى اهدك صراطاً سوياً " .. ثم قال : " يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب

من الرحمن فتكون للشيطان ولياً " فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه ، كما
يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه ، وقال : " يمسك " فذكر لفظ الممس
الذى هو ألطف من غيره ، ثم نكر العذاب ، ثم ذكر الرحمن ..

وهذه الحكمة في معالجة الموقف شاهد صدق على ما يجب أن يتحلّى به
الداعية من خصائص لولاها لما أتت الدعوة أُكَلِّها - بل إن الداعية حين يتجرد
منها يكون عبثاً على الدعوة لا سند لها ..

تواضع الداعية :

وفي التعبير بقوله تعالى : " عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً " تواضع
يتوّج هامة الداعية الذي يرجع كل شيء إلى الله تعالى ، ولا يقطع بما سيكون
عليه ، بل يتركه لتقدير الله تعالى وذلك قوله : " عسى ألا أكون " وإذا كان
قوله : " شقياً " تعريضاً بأبيه وقومه ، فإنه الأسلوب الممسك بالخيط فلا
يلطعه فلعل فرصة قريبة تتاح للعودة إليه .. ولا تغفل قوله " وأعتزلكم "
ولم يقل " واعتزلك " رعاية لمشاعر الأبوة .. وتلديرا من الابن لوالده مهما
كانت درجته من الجود والجمود ..

ونرى من هذا كله كيف يتخذ الاستدراج طريقاً لاثبات الدموى ، وذلك
بأن يبدأ الخطيب في إلقاء الريب في نفوس من يخاطبهم ، ثم يلقي إليهم
ببعض ما تنتجه الأدلة مغضياً النظر عن النتائج الحقيقية السليمة التي تنتجها
البراهن ، حتى إذا اطمأن إلى أنه قد أخذ بزمام الجماعة يقودها حيث شاء ،
ألقي إليهم بالنتائج كلها لبراهينه ، والاستدراج كما رأينا يكون في
المقامات الخطابية التي يكون الخطيب فيها متصدياً للدعوة لأمر لم تألفه
الجماعة ، أو لفكرة تناقض أمراً اتفقت عليه ..

إن إبراهيم عليه السلام كمسلم ينزّه لسانه عن الفحش ، ثم هو كداعية
مأمور أن يتلطف بالمدعو لاسيما إذا كان أباه ، وأن يرتب الكلام في أحسن
اتساق وأن يسوقه أرشق مساق (١).

(١) د. محمود محمد عمارة : اصول الدعوة من خلال القصة القرآنية . منبر الاسلام
ص ٧٢ - ٧٤ . العدد (١١١) .

وأخيراً : إذا وضعنا في حسابنا هذا كله كان لنا في النهاية أن نجتمع خيوطاً عديدة يمثل كل منها غرضاً مهماً من أغراض القصص القرآني ، ولكن هذه الخيوط كلها تلتقى عند نقطة واحدة ، وتتجاذب لدى عقدة موحدة ، تلكم هي الناحية الدينية ، والدعوة إليها بتلك الطريقة المهدبة الوعظية ، ولا غرو فقد خاطب القرآن الكريم بهذا القصص حاسة الوجدان الدينية ، بلغته الجمال الفنية ، فإذا أدركنا أن الفن والدين صنوان في أعماق النفوس ، ولقراءة الحس أدركنا أيضاً مدى ماوصلت إليه هذه الأغراض من نجاح ، وأى نجاح "وَاللَّهُ هَالِكٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" (١) . " لقد وعى القرآن قصص الأولين مع أنبيائهم ، وجدّد على الناس ذكرها ، وذلك لكي يــــــداوى عللاً متشابهة ، ويطب أمراضاً متماثلة ، ومن أجل هذا كثرت القصص لتحصى جملة كبيرة من الأمراض الاجتماعية ، وتستأمل جرثومتها بصنوف العبر وشتى النذر ، إن القرآن وهو يقص أنبياء الأولين يحولها إلى دواء سائل عام ، يسكب من قطراته على نفوس المعاندين يبغى شفاءها دون نظر إلى تراخي القرون واختلاف المخاطبين " (٢) .

" ان القصص القرآني دروس في العقيدة ، دروس في حقيقة لا اله إلا الله .. وإن كان ثوبه ثوب القصة ، وإن كان فيه من الجمال التعبيري والتصوير الفني ما يأخذ بالالباب " (٣) .

- - - -

(١) سورة يوسف من آية ٢١ .

(٢) د . حفنى محمد شرف : إعجاز القرآن اليبانى ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٣) محمد قطب : دراسات قرآنية ، ص ١١١ .

الفصل الثانى

الخصائص اللغوية والأسلوبية

يقول تعالى: " أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا" (١). إن التناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التى لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبداً . ومستوياتها ومجالاتها، مما تختلف العقول والأجيال فى ادراك مداها ، ولكن كل عقل وكل جيل يجسد منها - بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه - ما يملك ادراكه ، فى محيط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى .. ومن ثم فان كل فرد، وكل جيل ، مخاطب بهذه الآية ، ومستطيع - عند التدبر وفق منهج مستقيم - أن يدرك من هذه الظاهرة - ظاهرة عدم الاختلاف ، أو ظاهرة التناسق - ماتهيه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه ..

تتجلى هذه الظاهرة - ظاهرة عدم الاختلاف - ابتداءً فى التعبير القرآنى من ناحية الأداء وظرائقه الفنية .. ففى كلام البشر تبدو القمم والسفوح ، التوفيق والتعثر ، القوة والضعف ، التحليق والهبوط .. إلى آخر الظواهر التى تتجلى معها سمات البشر ، وأخصها سمة " التغيير " أى الاختلاف المستمر الدائم من حال إلى حال ، يبدو ذلك فى كلام البشر ، واضحاً عندما نستعرض أعمال الأديب الواحد ، أو المفكر الواحد ، أو الفنان الواحد ، أو أى كان فى صناعته ، التى يبدو فيها الوسم البشرى واضحاً .. وهو التغيير والاختلاف " (٢) .. والحقيقة أن النقد الحديث يقول إن " العمل الفنى يطمح إلى الكمال ، أى أنه فى صورته المثالية كامل - ولكنه لا يرقى إلى هذه الصورة المثالية أبداً ، فهو مرتبط بنقصان البشر ، وما هو فى الحقيقة إلا سجل مجد لمشاعر وأفكار أبعد ما تكون عن الكمال شكلاً ومضموناً ، ويقول العماد

(١) سورة النساء : آية ٨٢ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، المجلد الثانى ، ص ٧٢١ .

الأصفيانى : لا يكتب إنسان كتاباً فى يومه إلا قال فى غده : لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر ، وحتى عندما يمل العمل إلى " الصورة النهائية " فإن ذلك لا يكون إبداعاً بالكمال أبداً ، فالصورة المكتملة ليست كاملة لأنها تستند إلى معايير لاتتغير تختلف من مكان إلى مكان ومن عصر إلى عصر .. ومن جمهور إلى جمهور فى نفس الزمان والمكان " (١) .

هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح أن عكسها وهو الثبات ، والتناسق ، هو الظاهرة الملحوظة فى القرآن - ونحن نتحدث فقط عن ناحية التعبير اللفظى والأداء الأسلوبى - " فهناك مستوى واحد فى هذا الكتاب المعجز - تختلف ألوانه باختلاف الموضوعات التى يتناولها - ولكن مستواه وأفقه ، والكمال فى الأداء بلا تغيير ولا اختلاف من مستوى إلى مستوى - كما هو الحال فى كل ما يصنع الإنسان - إنه يحمل طابع الصفة الإلهية ويدل على الصانع ، يدل على الوجود الذى لا يتغير من حال إلى حال ، ولاتتوالى عليه الأحوال " (٢) .

وإذا تأملنا القمة القرآنية والأسلوب الذى قدمت به ، وماله من تأثير نفسى وفنى ، اتضح وجه تسميتها " بالقمة " لا استناداً إلى مدلولها اللغوى فقط ، باعتبار أن أمل الاشتقاق للفظ " قمة " يلتقى فى المعنى مع المدلول الذى اتبنى عليه أصل التسمية القرآنية ، وهو : الإعلام بالنبأ ، " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ " (٣) ، أو تتبع الأثر وتقصيه : " وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ " (٤) ، بل واعتماداً على ما فى عرضها من طرق فنية ، " رغم أن شروط

(١) د. محمد عنانى : خرافة الكمال : جريدة الأهرام ١٩٨٨/٥/٢٧ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، المجلد الثانى ، ص ٧٢١ .

(٣) سورة الكهف من آية ١٣ .

(٤) سورة القصص من آية ١١ .

اللمسة بمعناها الاصطلاحي لاتنطبق عليها غالباً ، لأنها إلى الأقصوصة أقرب ،
وذلك لقصرها ، واقتصار القرآن في أكثر الأحيان على ذكر حلقة منها أو أكثر ،
وعدم استيفائها كل عناصر القصة مجتمعة ، من حوار وأشخاص وزمان ومكان
وعقدة ، كما شاع ذلك في معظم القصص الفنية (١) . فالقصة القرآنية
لايقصد بها العمل الفني المجرد ، بل هي مزيج من العمل الفني والعلمي
والديني ، كما هو شأن البيان القرآني جميعه ، ومعنى ذلك أن من يطلب فيها
أحد تلك المقاصد لاشك أنه واجده فيها على أرقى مايمكن أن يصل إليه الكمال
في العمل الأدبي ، كما أشار البيان القرآني نفسه إلى ذلك في قوله تعالى :
" نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ " (٢) ، " فالقرآن لم يحدد وجه الاحسنية .. أهو
أحسن القصص بياناً وأسلوباً ، أم أحسنه صدقاً فنياً ، أم أحسنه صدقاً واقعياً ،
أم أحسنه عرضاً لوقائع التاريخ القديم ، أم أحسنه وصولاً إلى متلقيه ،
أم أحسنه قياماً على الحقائق وناباً عن الخيال ؟ هو أحسن القصص في كل ذلك
وغير ذلك كما قال عنه منزله وموحيه جلّ وعلا " (٣) ... وسنحاول فيما يلي
أن نكشف عما نوفق إليه من جوانب تلك الاحسنية في الخصائص اللغوية
والأسلوبية .

أولاً : الخصائص اللغوية :

" القرآن هو ضمير الحياة العربية ، وهو من اللغة كالروح الإلهية
التي تستقر في مواهب الإنسان فتضمن لأشاره الخلود ، ثم لايدل عليها حين
التعرف إلا بصفات كل نفس لمواقع تلك الأشار منها ، كأن هذه الروح تحاول
أن تفسح عن معاني النبوغ الفني في آشارها الخالدة ، فلا تجد أقرب إلى
عرضها من أن تهيج الإحساس بها في كل نفس ، فيجزئ ذلك في البيان عنها ،

(١) د. التهامي نقره : سيكولوجية القصة في القرآن : ص ٨٦ .

(٢) سورة يوسف من آية ٣ .

(٣) د. إبراهيم عوضين : البيان القصصي في القرآن الكريم - ص ١٤ . مطبعة
السعادة . القاهرة ، ط ١ ، سنة ١٩٧٧ .

لأن الإحساس إنما هو اللغة النفسية الكاملة " (١).

والقصص القرآني باب من أبواب البيان القرآني العظيم .. ففيه من إعجاز القرآن ما في سائر أبوابه .. ونحن إنما نبحث الإعجاز اللغوي في القصص القرآني ، نبحث ما أنفرد به في نفسه على وجه الإعجاز ، لا من جهة ما يشركه فيه غيره على أي وجه من الوجوه ، وبذلك يتركز بحثنا عند الخصائص اللغوية في القصص القرآني ، من ناحية اللفظ والمعنى .

" ومن أظهر الفروق بين أنواع الخصائص اللغوية في القصص القرآني ، وبين هذه الأنواع في كلام الأدباء ، أن نظم القصص القرآني يقتضي كل ما فيه منها اقتضاءً طبيعياً بحيث يبني هو عليها لأنها في أصل تركيبه ، ولاتبنى هي عليه ، فليس فيه من المذاهب الكلامية التي بنيت عليها علوم البلاغة ..

فالمصور البلاغية في الإبداع القصص القرآني ، إنما هي وجه من نظم حروفه ، بخلاف ما نجده في كلام الأدباء ، فهذه الصور تصنع لموضعها وتبنى عليه فربما وُفّت وربما أخلفت ، ولو هي رفعت من نظم قصصه ثم نزل غيرها فـ في مكانها لرأينا النظم نفسه غير مختلف ، وتدرك بذلك مزية عظيمة في توازن حروفه ، واختلف مخرجها وتناسب أصواتها ، ونحو هذا مما هو أصل الفصاحة ، ومما لا تغني فيه استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا غيرها ، لأنه وجه من تأليف الحروف ونسق اللفظ فيها ؛ وأنواع البلاغة فيه إنما هي من وجوه التأليف بين معاني الكلمات .. فالحرف الواحد في القصة القرآنية معجز في موضعه ، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة ، وهذا هو السر في إعجاز جملته القصصية إعجازاً أبدياً ، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية " (٢).

وبذلك يتضح لنا أن أهم الخصائص اللغوية في القصص تدور حول جهات

ثلاث: في الحروف ، والكلمات والجمل :

(١) مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ٢٠٩ ، دار الفكر

العربي ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

أولاً : الحروف وأصواتها :

لما قرىء القرآن على العرب ، رأوا حروفه فى كلماته ، وكلماته فى جملته ، أحياناً لغوية رائعة ، كأنها لاشتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هى توقيعها (١) ، فلم يفتهم هذا المعنى ، وإنه أمر لا قبل لهم به ، وكان ذلك أبين فى عجزهم ، حتى أن من عارضه منهم ، "كمسليمة" ، جنح فى خرافاته إلى محاسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف فى اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البيانى ، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية ، وإنما هى فى أوزان الكلمات وأجرام الحروف دون ماعداها ، وليس يتفق ذلك فى شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع ..

وليس يخفى أن مادة الصوت هى مظهر الانفعال النفسى ، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب فى تنوع الصوت ، بما يخرج فيه مــــداً أو غنة أو ليناً ، أو شدة ، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة فى اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما فى النفس من أصولها ، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع ؛ أو الإطناب والبسط ، بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ، وحسبنا بهذا اعتباراً فى إعجاز النظم الموسيقى فى القرآن وقصصه ، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية فى الهمس والجهر ، والشدة والرخاوة ، والتفخيم والترقيق ، والتفشى والتكرير ، ونحو ذلك مما هو بلاغة الصوت فى لفظة الموسيقى ...

(١) كل الذين يدركون أسرار الموسيقى وفلسفتها ، لا يرون فى الفن العربى بجملته شيئاً يعدل هذا التناسب الذى هو طبيعى فى كلمات القرآن وأصوات حروفها ، وما منهم من يستطيع أن يفتهم فى ذلك حرفاً واحداً ؛ ويعلم القرآن على الموسيقى أنه مع هذه الخاصة العجيبة ليس من الموسيقى .
انظر : المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

وما هذه الفواصل التي تنتهى بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبصار التي تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذى يساق عليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب ، وتراها أكثر ماتنتهى بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعىان فى الموسيقى نفسها ، أو بالمدّ، وهو كذلك طبيعى فى القرآن (١) ، فإن لم تنته بواحدة من هذه ، كان انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى ، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها ، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعها ، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر مانجد إلا فى الجمل القصار ، ولا يكون إلا بحرف قوى يستتبع القلقلّة أو الصغير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقى (٢) .

وبتطبيق هذا النظم الموسيقى العجيب على سورة " مريم " ، الذى يستغرق القصص نحو ثلثيها ، نحس أن للصورة إيقاعاً موسيقياً خاصاً . فحتّى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق : " رَضِيَا . سَرِيَا . حَفِيَا . نَجِيَا " ، فأما المواضع التى تقتضى الشدّ والعنف ، فتجىء فيها الفاصلة مشددة دالاً فى الغالب : " مَدَا . ضِدَا . إِدَا . هَدَا " ، أو " زَايا : عَزَا ، أَرَا " . وتنوع الإيقاع الموسيقى والفاصلة بتنوع الجوّ والموضوع يبدو جلياً فى هذه السورة . فهى تبدأ بقصة زكريا ويحيى ، فتسير الفاصلة هكذا :

" ذَكَرْ رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَا . إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ... الخ " (٣)

(١) وقال بعض العلماء : كثر فى القرآن ختم الفواصل بحروف المدّ واللين وإلحاق النون ، وحكمة وجودها التمكن من التطريب بذلك ، كما قال سيبويه : إنهم (أى العرب) إذا ترنّموا يلحقون الألف والياء والنون ، لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنّموا وجاء فى القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع ، وهذا قول ناقص .

انظر : مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن : ص ٢١٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢١٦ - ٢١٧ بتصرف

(٣) راجع سورة مريم : الآيات من ١ إلى ١٥ .

وتليها قصة مريم وعيسى فتسير الفاصلة على النظام نفسه :

" وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . . . إلخ " (١)

إلى أن ينتهي القمص ، ويحيى التعقيب ، لتقرير حقيقة "عيسى بن مريم" وللفضل في قضية نبوته ، فيختلف نظام الفواصل . فتطول الفاصلة ، وتنتهي بحرف الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف لا بالياء الممدودة الرخيفة .

على النحو التالي :

" ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . . إلخ " (٢)

وهكذا يتغير نظام الفاصلة فتطول ، وتصبح بحرف النون أو بحرف الميم وقبلهما مدّ طويل . وكانما هو في هذه الآيات الأخيرة يمدد حكماً بعد نهاية القصة ، مستمداً منها . ولهجة الحكم تقتضى أسلوباً موسيقياً غير أسلوبي الاستعراض وتقتضى إيقاعاً قوياً رصيناً ، بدل إيقاع القصة الرخى المسترسل ، وكانما لهذا السبب كان التغيير . .

وبمجرد الانتهاء من إصدار هذا الحكم وإلقاء ذلك التقرير وعماد السياق إلى القصص عادت الفاصلة الرخية المديدة :

" وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ مَدِينًا نَبِيًّا . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُفْنِي عَنْكَ شَيْئًا . . إلخ " (٣) .

حتى إذا جاء ذكر المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام ، تغير الإيقاع الموسيقي ، وجرس الفاصلة : " قُلْ : مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا . حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ ، وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا . . إلخ " (٤) .

- (١) راجع سورة مريم : الآيات من ١٦ إلى ٢٧ .
- (٢) راجع سورة مريم : الآيات من ٢٤ إلى ٤٠ .
- (٣) راجع سورة مريم : الآيات من ٤١ إلى ٧٤ .
- (٤) راجع سورة مريم : الآيات من ٧٥ إلى ٨٧ .

وفى موقع الاستنكار يشدد الجرس والنغم بتشديد الدال :
" وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَوَاتُ
يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ... الخ " (١).

" وهكذا يسير الإيقاع الموسيقى فى السورة وفق المعنى والجو، ويشارك
فى إبقاء الظل الذى يتناسق مع المعنى فى ثنايا السورة ، وفق انتقالات
السياق من جو إلى جو ، ومن معنى إلى معنى " (٢).

" إن الفاصلة القرآنية ترد وهى تحمل شحنتين فى آن واحد : شحنة من
الوقع الموسيقى ، وشحنة من المعنى المتمم للآية . فالمعنى هو الذى يتحكم
فى نوع الفاصلة ، ثم يأتى النغم الموسيقى متمماً للروعة التى يتميز بها
أسلوب القرآن " (٣).

" وهذه هى طريقة الاستهداء الصوتى فى اللغة ، وأثرها طبيعى فى كل
نفس ، فهى تشبه فى القرآن أن تكون صوت إعجازه الذى يخاطب به كل نفس تفهمه
وكل نفس لا تفهمه ، ثم لا يجد من النفوس على أى حال إلا الإقرار والاستجابة ،
ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذى يطمع فيه أو فى
أكثره ، ولمّا وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى اللغات
الأخرى ، ولكنه انفرد بهذا الوجه للعجز ، فتألفت كلماته من حروف لو سقط
واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر ، لكان ذلك خلاً بيّناً أو
ضعفاً ظاهراً فى نسق الوزن وجرس النغمة ، وفى حس السمع وذوق اللسان ، وفى
انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفشاء بعضها إلى بعض " (٤).

(١) راجع سورة مريم الآيات من ٨٨ إلى ٩٨ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن . المجلد الرابع ، ص ٢٣٠٠ - ٢٣٠١ .

(٣) د. التهامى نفرة : سيكولوجية القصة فى القرآن ، ص ٤٩٢ .

(٤) مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن : ص ٢١٧ .

ومثال ذلك مانجده فى قصة إبراهيم عليه السلام : " قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ " (١).

فقد خطفت ياء المتكلم فى " يهدين ويسقين ويشفين ويحيين " محافظة على حرف الفاصلة مع " تعبدون ، والأقدمون ، والدين ... " .
ومثله فى قصة موسى والعبد الصالح : قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ . فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا " (٢) ، فلو مددنا ياء نبغى كما هو القياس لاختل الوزن نوعاً من الاختلال . . وأحياناً لا يكون هناك عدول عن صيغة قياسية ، ومع ذلك نلاحظ الموسيقى الكامنة فى التركيب ، والتي تختل لو غيرنا نظامه مثلاً ماجاء فى قصة زكريا : " ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّنَا خَلِيفًا . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا " (٣) فلو حاولنا مثلاً أن نغير فقط وضع كلمة " منى " فنجعلها سابقة لكلمة " العظم " : لأحسنا بما يشبه الكسر فى الوزن الموسيقى ، ذلك أنها تتوازن مع " إِنِّي " فى صدر الآية هكذا : " قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي " . .

" وهكذا نلاحظ نوعاً من الموسيقى الداخلية ، يكمن فى نسيج اللفظة المفردة ، وتركيب الجملة الواحدة ، وهو يُدرك بحاسة خفية ، وهبة لَدْنِيَّة " (٤) .

ثانياً : الكلمات وحروفها :

الكلمة فى الحقيقة الوضعية إنما هى صوت النفس ، وصوت العقل ، وصوت الحس ، إما صوت النفس : فهو الصوت الموسيقى الذى يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة

(١) سورة الشعراء : الآيات من ٧٥ إلى ٨٢ .

(٢) سورة الكهف : آية ٦٤ .

(٣) راجع سورة مريم : الآيات من ٢ إلى ٤ .

(٤) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن : ص ٨٩ - ٩٠ .

متساوقة وعلى نضد متساو، بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعنى فى سبيلـه
إلى النفس، إن وقف عندها هذا المعنى قُطِعَ به ...
أما صوت العقل : فهو الصوت المعنوى الذى يكون من لطائف التركيب
فى جملة الكلام ، ومن الوجوه البليانية التى يداور بها المعنى ، لا يخطئ
طريق النفس من أى الجهات انتحى بها .
أما صوت الحس : فهو أبلغهن شأنًا ، لا يكون إلا من دقة التصوّر المعنوى،
والإبداع فى تلوين الخطاب ، ومجاذبة النفس مرة وموادعتها مرة ، بمـ
يسوقه إليها من طرائف المعانى ..
وإذا ذهبنا نبحث فى أصول البلاغة الإنسانية عن حقيقة نفسية ثابتة
قد اطردت فى اللغات جميعاً ، وهى فى كل لغة تعدّ أملاً فى بلاغتها ، لما أصبنا
غير هذه الحقيقة التى لا تظهر فى شيء من الكلام ظهورها فى القرآن وهى :
- الاقتصاد فى التأثير على الحس النفسى :

ونلاحظ ذلك فى كلمات القمص القرآنى ، فهى لا تُسرف على النفس ،
ولا تستفرغ مجهودها ، بل هى مقتمدة فى كل أنواع التأثير عليها ، فلا تضييق
به ولا تنفر منه " (١) ، ولذلك نجد الكلمات فى القمص القرآنى ، تتميز
بمميزات منها :

١ - جمال وقعها فى السمع (٢) :

ويرجع ذلك إلى دقة القرآن فى استخدامه للآفاظ وحسن اختيارهـا
فى مواقعها . فقد جاء على لسان السحرة الذين آمنوا بموسى رغم ما أوعدهم
به فرعون من عقاب شديد : " رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا " (٣) .

- (١) مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن : ص ٢٢٠ - ٢٢٤ بتصرف .
- (٢) د. السيد تقى الدين : من الوجهة الأدبية فى دراسة القرآن ص ١٥٠ .
- (٣) سورة الأعراف من آية ١٢٦ .

فإن مايشيره لفظ " أفرغ " ومايوحي به من لين ورفق وطمأنينة يحسها من هذا جسمه بما يلقي عليه . وهذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسانية التي ينالها من مَنَح الصبر الجميل ، فإذا جاء إلى العذاب استخدم لفظ " صَبَّ " فقال : " فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ " (١) وهي موءنة بالشدة والقسوة معاً ...

" وهكذا فإن للألفاظ أطيافاً وظلالاً وأصداء في النفس ، كما أن لجرسها إيقاعاً في الأذن .. والكلمات في التعبير ، كالألوان في الرسوم ، والأنغام في الموسيقى ، ويكفي أن نقرأ ماورد في قصة " زكريا " من دماء ، وتميزه بإيقاعه الغنائي ؛ ودعاء " إبراهيم " وأصوات ألفاظه المتقطعة المتهدجة ، ودعاء " نوح " المجلجل المديد ، فهي كلها في سموها وحرارتها كأنها أناشيد السماء " (٢) .

٢ - " اتساقها الكامل مع المعنى " (٣) :

أ - العلاقة بين الآية وفكرتها :

حيث نلاحظ الانسجام بين الفكرة التي تحملها الآية ، والخاتمة التي تنتهي بالفاصلة ، ولنقرأ قوله تعالى مثلاً على لسان عيسى عليه السلام عندما يسأله ربه يوم القيامة : " أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ " (٤) ، فيجيب فيما يجيب : " إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَفْرِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (٥) .

(١) سورة الفجر : آية ١٣ .

(٢) د. التهامي نفرة : سيكولوجية القمة في القرآن ، ص ٤٩٤ - ٤٩٥ .

(٣) د. السيد تقى الدين : من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن ، ص ١٥٠ .

(٤) سورة المائدة من آية ١١٦ .

(٥) سورة المائدة : آية ١١٨ .

فقد نتساءل عندما نقرأ هذه الآية : لماذا لم تثنه بقوله مثلاً:
وإن تغفر لهم فإنك أنت (الغفور) الرحيم ، مع إن السياق يوحى بالغفران؟
ولكننا إذا أمعنا النظر وجدنا أن الذى استحق العذاب لا يستطيع أن يغفر
له إلا من كانت سلطته أعلى السلطات ، وقوته أعظم القوى ، وعزته فوق كل
عزة ، ومن كان كذلك وجب أن يكون متمفناً بالحكمة التى يساندها العقل
والمنطق السليم ، وينأى عنها الحمق والتسرع والظلم والتهور ، وإذا جاءت
الفاصلة بالعزة مقترنة بالحكمة ، فلأن القادر على العقاب عزيز دائماً ...
ولكن ليس كل عزيز عادلاً . فكم من ملوك وحكام ومن بينهم سلطان على الناس
فى هذه الدنيا ملكوا العزة ، إلا أنهم فقدوا الحكمة التى يسندها العدل
والعقل والسلوك المستقيم ، ولذلك نجد أن ربط الحكمة بالعزة تعبير رائع ،
وتصوير جامع ، وبيان قاطع لخالق عزيز حكيم " (١) .

والحق أنه ما انتهت آية إلا بفاصلة ملائمة كل الملائمة لمعناها ،
مستقرة فى مكانها ، غير نافرة ولا قلقة .
ب - " ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه " (٢) :

" إن أسلوب القرآن يتألق فى اختيار ألفاظه ووضعها فى الأماكن
اللائقة بها ، بحيث تكون مستقرة فى مكانها مطمئنة فى قرارها ، ولما بين
الألفاظ من فروق دقيقة فى دلالتها يستخدم كل حيث يودى معناه فى دققة
فائقة ، فكانها توءمن بأن هذا المكان كانما خلقت له تلك الكلمة بعينها ،
وأن كلمة أخرى لاتستطيع توفيق المعنى الذى وقف به أختها ، فكل لفظة من
افراد القرآن وضعت لتودى نصيبها من المعنى أقوى أداً . ولذلك لانجسد
فيه ترادفاً ، بل كل كلمة تحمل معنى جديداً ، ولها فى النفس إيحاءات
خاصة ، ولذا دعا القرآن إلى عدم استخدام لفظ مكان آخر " (٣) : " قَالَتِ الْأَعْرَابُ

- (١) د. التهامي نفرة : سيكولوجية القمة فى القرآن ، ص ٤٩٣ .
(٢) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ،
ص ٧٨ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج٤ ، دار التراث ، القاهرة بدون
تاريخ .
(٣) د. حفنى محمد شرف : إعجاز القرآن البيانى ، ص ٢٢٢ .

ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ" (١)
ولذلك لا يجوز القول بوقوع الترادف في لغة القرآن لأنه كلام فصلت عباراته
وأحكمت ألفاظه ووضع كل حرف فيه باتقان بديع ، ولذا وجب علينا —
دراستنا للغة القصص القرآني أن نتتبع ألفاظه لنبرز ما بينها من —
دقيقة ودلالات مميزة :

— كل ... وأجمع : في قصة الاحتفاء بميلاد آدم ودعوة الملائكة إلى

السجود له :

" فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ " (٢)

وقال الخليل وسيبويه : إن مجيئهما في الآية على هذا النحو لإفادة التأكيد
بعد التأكيد . وهذا الكلام صحيح من وجهة النظر النحوية ، ولكن هذا لا يعني
أنهما مترادفان في التأكيد فيقال فيهما " تأكيد بعد تأكيد " وإنما لكل
منهما تأكيد خاص وجهته المنفردة .. فلفظ " كل " في صوره المختلفة يدل
على الإحاطة والشمول ، أما لفظ " أجمع " فيدل على الضم والاجتماع . فيكون
الأول تأكيداً لمعنى الوحدة في الفاعل . والثاني تأكيداً لمعنى الوحدة في
الفعل .. ويكون ذكرهما معاً في الآية الكريمة لإحكام البيان في صفة السجود
وهيئة ليدل بالأول (كلهم) على عموم الامتثال ، وبالثاني (أجمعون)
على سرعة الاستجابة ... وبهذا يكون التأكيد بـ (كل) لإفادة أن العدد العديد
صار فرداً واحداً في امتثال الفعل ويكون التأكيد بـ (أجمع) لإفادة أن العدد
العديد صار فرداً واحداً في حركة الفعل ..

وقد سُئل " المبرد " عن اجتماع اللفظين في الآية فقال : لو قال :
" فسجد الملائكة " احتمل أن يكون سجد بعضهم . فلما قال (كلهم) زال هذا
الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا . ثم بعد ذلك بقي احتمال آخر وهو أنهم
سجدوا دفعة واحدة أو سجد كلهم وأحد منهم في وقت آخر . فلما قال (أجمعون)
ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة (٣).

- (١) سورة الحجرات : الآية ١٤ .
(٢) سورة الحجر : الآية ٣٠ ، سورة ص : الآية ٧٢ .
(٣) د. علي اليمني دردير : أسرار الترادف في القرآن الكريم ، ص ٣٢ - ٣٣ ، دار
ابن حنظل . القاهرة ، ١٩٨٥ .

وتتجلى هذه الدقة أيضاً فى قوله تعالى فى قصة لوط عليه السلام :

" إِيَّاءَآلِ لُوطٍ إِنَّا لَمَنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ " (١)

فقد ذكر لفظ "أجمعين" دون أن يأتى معه بلفظ "كل" . لأن المقام مقام إحاطة وشمول فى هيئة الفعل وحركة الزمن لأن النجاة تحققت للنّاجين من آلِه فى لحظة واحدة ، هى نفس اللحظة التى تحقق فيها الهلاك بالصيحة على المجرمين من قومه . ولم يقل (كلهم) لأن النجاة لم تتحقق لكل فرد من آل بدليل قوله (إِيَّآأُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا لِمَنَ الْغَلْبِيرِينَ) (٢) ولو قال (إِنَّا لَمَنَجُّوهُمْ كلهم) لكان ذلك منافياً للاستثناء (٣).

- الزوج ... والبعل

فالزوج يدل على رباط الشناثية بين قرينين فإذا انفك هذا الرباط انتفت صفة الزوجية فيهما .. وأما لفظ " البعل " فيفيد معنى الفحولة فى المعاشرة الزوجية .-

وفى إطار هذه الفروق الدقيقة جاء اللفظان فى مواضعهما من القرآن الكريم ، ويخصنا هنا ما جاء فى قصة إبراهيم عليه السلام : " قَالَتْ يَلُوتَىٰ يَلُوتَىٰ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا " (٤).

فالموقف موقف دهشة واستغراب ، فقد بشر الملائكة إبراهيم بالولد وهو شيخ كبير وامراته عجوز عقيم ، فلما سمعت استغربت الخبر وعبرت عن موضع الغرابة فيه بقولها (أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا) . وهى محقة حين تبين قولها على معهود الحياة فى استعدادات الطبيعة البشرية التى يقتضى التناسل فيها خصوبة الشباب فى الام وبعولة الشباب فى الزوج ..

(١) سورة الحجر : آية ٥٩ .

(٢) سورة الحجر : آية ٦٠ .

(٣) د . على اليمنى دردير : أسرار الترادف ، ص ٣٤ .

(٤) سورة هود : آية ٧٢ .

وهذا من أَلْفِ الإشارات في إلهام القصد ، ولو قالت (وزوجى شيخاً) لم يتحقق لها ذلك ، فإن الشيخوخة لا تتنافى مع الزوجية ولا تكون مبعث إنكار واستغراب .. ويؤكد هذا المعنى قولها " شيخاً " بالنصب فهي لم ترد الإخبار وإلا لقالت " بعلى شيخ " ولكنها أرادت اظهار الحال التى عليها بعلمها من الشيخوخة التى تحول دون تحقق البعولة فيه .. وقد اعتبر " الواحدى " ذلك من لطائف النحو وقال انه قائم مقام قولها : أشير إلى بعلى حال كونه شيخاً... والمقصود تعريف هذه الحال المخصوصة وهى الشيخوخة .. (١).

— السنة ... والعام :

فقد اختلف التعبير بهما في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام :
" قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ،
ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْمِلُونَ .
ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَقْمِرُونَ " (٢).

وهذه المخالفة في التعبير تلفت النظر وتشد الانتباه ، فظاهراً السياق يقتضى أن يتوافق التعبير ويترد اللفظ ليوائم نسق العبارات، والخروج على هذا النسق يدل على أن وراءه حكمة بيان وإحكام معنى :

أولاً : السنة :

ويوحى جُزْئها في اللغة بمعناها ، وهو معنى يدور حول الحدة والقطع ، والضمور والجفاف .. وجاء بهذا المعنى في قوله تعالى : " وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُ آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ " (٣) أى الشدة والقحط .

ثانياً : العام :

وهو من العوم بمعنى السباحة والانتشار ، ودلالته دلالة خير ورخاء ، إذا فالعام زمن مخصوص بالخير موصوف بالرخاء .

- (١) د . على اليمنى دردير : أسرار الترادف ، ص ١٣١ - ١٣٢ .
- (٢) سورة يوسف : آيات ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ .
- (٣) سورة الأعراف من آية ١٣٠ .

وفى ضوء هذا تتكشف بعض جوانب السرّ فى اختلافها . فى لغة القرآن ، فقد جاء لفظ السنين فى قوله : " تزرعون سبع سنين دأباً " . وقوله : " ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد " . أى سبع سنين ، لأن المقام مقام شدة ومعاناة وتفتير فى الأقوات وتضييق فى الأرزاق يدل عليه السياق ويصّرح به المقال ، ويحمل عليه حسن التدبّر لنسق العبارات : " تزرعون .. دأباً فما حصدتم فذروه .. إلا قليلاً مما تاكلون .. شداد ياكلن ما قدمتم لهنّ إلا قليلاً مما تحصنون " . وهى عبارات تصوّر واقع المعاناة ، وتكشف عن الجذب العام والقطط الطويل ..

أما لفظ العام فقد جاء فى قوله : " ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون " . لأنه مقام الفرج بعد الضيق ، والرخاء بعد الشدة ، والخصب العقيم بعد الجذب والجفاف ..

" وبهذا يتبين لنا أن المخالفة بين لفظيهما مخالفة بيان واختلاف مقام لا مخالفة ترادف واختلاف تنويع فى العبارات " (١) .

ومثل هذا اختلاف التعبير بهما فى قصة نوح ، فى الآية الكريمة :
" وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا " (٢)
وكان مقتضى التناسب البلاغى فى السياق يتطلب المطابقة بينهما فى أسلوب الاستثناء ، فيقال (ألف سنة إلا خمسين سنة) .. وإنما خالف بينهما على هذا النحو ، للدلالة على أنهما زمانان متغايران وأن أيام لبثه عليه السلام فى دعوة قومه كانت أيام معاناة ومشقة وجهاد ، لاقى فيها أشدّ ألوان العنت والمخاضة مما جعله يشكو إلى الله إصرارهم على الكفر ، وعنادهم لدعوة الحق ويستصرخه : " قَالَ : رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دَعَائِي إِلَّا فِرَارًا ، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِيءَاذَانِهِمْ وَاسْتَفْسَوْا شِيَابَهُمْ ، وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا " (٣) .

(١) د . على اليمنى دردير : أسرار الترادف ، ص ١١٧ - ١١٩ .

(٢) سورة العنكبوت من آية ١٤ .

(٣) سورة نوح : من الآية ٥ إلى ٧ .

- وقال: رَبِّ إِنِّهْم مَعُونِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَرْزُقْهُ مَالُهُ، وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا، وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا " (١).

ولما اشتد عندهم وزاد ضلالهم قال: " رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا " (٢). مما يدل على أن أيامه معهم كانت سنين مشقة لا أعوام راحة ورخاء ، ثم جاء الطوفان فاقطلع جذور الكفر وطهر وجه الأرض ، وعم السلام والأمان والرخاء فعاش عليه السلام أياماً هي أعوام رخاء ووثام (٣).

- أكل ... وافترس

يقول " الخطابي " فى تفسيره لقوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام: " وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ " (٤).

إن الافتراس معناه فى فعل السبع القتل فحسب ، وأصل الفرس دق العنق، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلًا ، وأنه أتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مقللاً ولا عظماً ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم بإيصالهم بأثر باق يشهد على صحة مذكروه ، فادعوا فيه الأكل ، ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفرس لا يعطى تمام هذا المعنى ، فلم يملح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكـل (٥) .

- البث ... والحن

فقد جاء فى قصة يوسف لفظ البث معطوفاً على الحزن ، فى قوله تعالى: " قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ " (٦). ولدقة الفرق بينهما عدهما كثير من العلماء من المترادف الذى يختلف لفظه ويتحد معناه . وأصل البث فى اللغة : التفريق والانتشار (٧)، ومنه فى القرآن الكريم:

(١) سورة نوح : من الآية ٢١ الى ٢٢ .

(٢) سورة نوح : آية ٢٦ .

(٣) د. على اليمنى دردير : أسرار الترادف ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٤) سورة يوسف من آية ١٣ .

(٥) أبو سليمان محمد بن الخطابي : ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، ص ٣٦ ، تحقيق الأستاذ محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام " القاهرة ، بدون تاريخ

(٦) سورة يوسف : آية ٨٦ .

(٧) ابن منظور : لسان العرب ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

- " وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا " (١)

- "يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ" (٢)

فالبث : الهم الشديد سمى بذلك لعدم قدرة صاحبه على تحمله حين يجتمع ويتكاثف فيضيق الصدر به ويضعف العزم عن كتمانته فيبيته الناس ، ويتخفف إليهم منه ..

أما " الحزن " : فأصله فى اللغة الغلظ والخشونة ، ومنه قليل للأرض الغليظة الصلبة حزن (٣) ، فالحزن : الهم الذى يسيطر على صاحبه ويستولى عليه الأيام والليالى حتى يعجز عن معالجته ونسيانه ، وسمى بذلك لغلظه وتأبيه على السلوان .. وهو معنى فى الهم غير معنى البث ، وعطفه فى الآية عطف تغاير لا عطف ترادف .. والقصد من ذكرهما معاً الجمع بين نوعى الهم للدلالة على أن " يعقوب " عليه السلام إنما يفرع إلى الله وحده فى كل أحواله ويشكوله وحده أنواع همومه : الحزن القديم الذى تسلط واشتد وازداد مع الأيام صلابة وغلظاً ، لايلين مع الزمن ولاينقاد للنسيان ، والبث الجديد الذى نما وتزايد حتى ملأ الصدر على رحابته وضاقت به الصبر على سعيه ، فلم يجد له حيلة ولم يستطع له علاجاً إلا أن يبيته إلى الله ويستعين به عليه (٤).

- الخشية ... والخوف

يقول " الزركشى " : لا يكاد اللغوى يفرق بينهما ، ولا شك أن الخشيّة أعلى من الخوف ، وهى أشد الخوف ، فإنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية إذا كانت يابسة وذلك فوات بالكلية ، والخوف من قولهم : ناقة خوفساء ، إذا كان بها داء وذلك نقص وليس بفوات .. وُفرق بينهما أيضاً ، بأن الخشيّة تكون من عظم المخشى وإن كان الخاشى قوياً ، والخوف يكون من ضعف الخائف ، وإن كان المخوف أمراً يسيراً ، ويدل على ذلك أن الخاء والشين والياء فى

(١) سورة الواقعة : آية ٥ - ٦ .

(٢) سورة القارعة : آية ٤ .

(٣) ابن منظور : لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٨٦٢ .

(٤) د. على اليمنى دردير : أسرار الترادف ، ص ٦٧ - ٦٨ .

تقاليبها تدل على العظمة ، قالوا : شيخ للسيد الكبير ، والخيش لما عظم من الكتان ، والخاء والواو والفاء فى تقاليبها تدل على الضعف (١) .

و"لابى هلال " رأى فى الفرق بين الكلمتين يذهب فيه إلى أن الخوف : يتعلق بالمكروه وبترك المكروه ، والخشية تتعلق بمنزل المكروه ولا يسمى الخوف من نفس المكروه خشية ولهذا قال تعالى : " وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ " (٢) . وقال تعالى على لسان " هارون " عليه السلام : " إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ " (٣) ، وذلك لأنه خشى القول الموءدى إلى الفرقة ، والموءدى إلى الشئ بمنزلة من يفعلنه (٤) .

إذاً فالخوف فى رأى " أبى هلال " ، إنما يكون مع التوقع والترقب فى موقف مجهول النتائج ظنى الاحتمالات ، وعليه تكون الخشية خاصة بالحالة التى تصاحب الضرر المتيقن والخطر المشهود ، أى أن الخوف : شعور يتعلق بالضرر المنتظر ، والخشية : حالة تنشأ عند وقوع الضرر المنظور .

وهذا الذى أشار إليه " أبو هلال " فى معنى الخوف أشار إليه الراغب فى تفسير قوله تعالى : " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ " (٥) . فقال : عبّر بالخشية فى جانب العلماء لتيقنهم بعظمة الله وعلمهم بجلاله ، ومثله : " مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ " (٦) أى خاف خوف المتيقن العالم (٧) .

وهذه الملاحظات الدقيقة فى الفرق بين دلالتيهما معتبرة فى الآيات التى تعرضت لذكرهما فى القصص الآتية :

-
- (١) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى : البرهان فى علوم القرآن، ج ٤ ، ص ٧٨ .
 - (٢) سورة الرعد من آية ٢١ .
 - (٣) سورة طه من آية ٩٤ .
 - (٤) أبو هلال العسكري : الفروق اللغوية ، ص ٢٠٠ .
 - (٥) سورة فاطر من آية ٢٨ .
 - (٦) سورة ق من آية ٣٣ .
 - (٧) د. على اليمنى دردير : أسرار الترادف ، ص ٥٥ - ٥٧ .

أ - قصة " موسى وعبوره البحر " : فى قوله تعالى : " وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا . لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ " (١).

ففى جانب توقع الخطر من لحاق فرعون بهم وإيقاعه بهم قال لــــه : (لا تخاف) بشارة له بالأمان والنجاة وأنه لا يقع له مجرد الشعور بالخوف من أن يدركه فرعون ويؤذيه ، وليشعره بأن أمر فرعون هين وخطره ضعيف .. وفى جانب خطر الغرق قال (ولا تخشى) لأن الشعور بالخطر عند قــــوم يسكرون وسط الماء أمر عظيم وخطر ومتيقن منظور ، فكان التعبير بقولــــه (ولا تخشى) تعبيراً مناسباً ليقنع كل مظاهر الخوف من نفوسهم ، ولذا حذف المخشى لتذهب النفس فيه كل مذهب ، فلا يترك له مصدرًا يخشاه ..

ب - وقوله تعالى فى قصة " يوسف " : " وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ " (٢) ، حيث عبر بالخوف دون الخشية ليفيد أن ذلك إنما كان منه على سبيل التوقع والشك لا على سبيل التيقن والجزم ..

ج - وقوله تعالى فى قصة " موسى والعبد الصالح " : " وَأَمَّا الْفُلُّ فَأَمَّا أَبُوهُ مُوْسَىٰ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا " (٣).
عبر بالخشية دون الخوف ليفيد أن ذلك إنما كان من العبد الصالح على أساس من علم ويقين لأن قتل النفس لا يقع لمجرد خوف من خطر ضعيف مــــظنون (٤).

- الحية .. والجان ... والشعبان

فقد وصف القرآن بها عصا موسى عليه السلام فى مقامات مختلفة .. وملحظ التدبر أن المشبه فيها شىء واحد والمشبه به شىء واحد كذلك ، اختلفت اسماؤه اختلاف ترادف لا اختلاف تباين .. وبدهى أن هذا الاختلاف يتوافق مع

(١) سورة طه : آية ٧٧ .

(٢) سورة يوسف من آية ١٣ .

(٣) سورة الكهف : آية ٨٠ .

(٤) د. على اليمنى دردير : أسرار الترادف ، ص ٥٨ - ٥٩ .

الاختلاف في جهة الإلحاق المرادة في ملمح التشبيه ..

فالحية : اسم لما عظم من الأفاعي ، واشتقاقه من الحياة أو من التحوي بمعنى التجمع والتلوي ، ومنه سُميت المعى حوايا لتجمعها والتواشها .. وقد شُبِّهت عصا موسى بالحية لاكتساب هذه المعاني في قوله تعالى : " وَمَاتِلُوكَ بِيَمِينِكَ يَلْمُوسَى . قَالَ : هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَكْرَبٌ أُخْرَى . قَالَ : أَلْقِهَا يَلْمُوسَى . فَالْقَلْبُ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى " (١).

فهذه هي الحالة الأولى التي يتعرف موسى عليه السلام على مظهر المعجزة في عصاه ، وقد أراد الله أن يطلعه على هذا السر ليكون على خبر منــــه ، فهي ليست عصا يتوكأ عليها ويهشربها على غنمه ، وإنما هي معجزة رسالــــة وبرهان رسول ، فقد كانت في يمينه عصا جافة ميتة فإذا هي تتحول بقــــدرة الإعجاز إلى حياة تتحرك ومخلوق يسعى ..

" وإذا تدبرنا لفظ " حية " أوحى لنا بالمقابلة المستورة بينها وبين كلمة " عصا " وهي مقابلة تقوم برهاناً على الإعجاز حين تصوّر لنا مظاهر الموت في العصا ، مشاهد حياة تتحرك وتسعى .. وبهذا يكون لفظ " حية " أصدق الأسماء الثلاثة تعبيراً عن معناه في مقام السياق " (٢).

أما لفظ " جان " ، فقد جاء يلائم مقامه في قوله تعالى : " وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْرِئاً " (٣).

إن الجان اسم لما دق من الأفاعي وخف ، وهو في تصاريفه يدور حول معاني الخفة والرشاقة المصحوبة بالعجب والخيلاء (٤) ، ولهذا جاء مناسباً لكلمة " تهتز " في التشبيه ليعطى التصور الدقيق لحركة العصا حين تحوّلت إلى أفعى دقيق الجسم خفيف الحركة يتراقص في استعراض للرشاقة يأخذ بالألباب (٥).

- (١) سورة طه : ١٧ - ٢٠ :
 (٢) د. علي اليمني دردير : أسرار الترادف ، ص ٩٨ - ٩٩ .
 (٣) سورة النمل من آية ١٠ - وراجع سورة القصص ، آية ٣١ .
 (٤) ابن منظور : لسان العرب ، ص ٧٠٤ ، حيث يشير إلى معنى أن العصا صارت تتحرك كما يتحرك الجان حركة خفيفة ، ويقول أبو العباس : شبهها فــــي عظمها بالشعبان وفي خفتها بالجان .
 (٥) د. علي اليمني دردير : أسرار الترادف ، ص ١٠٠ .

ثم يأتى لفظ " شعبان " فى موضعه من قوله تعالى : " فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ " (١) وهو لفظ يدل على تفجر الحركة وسرعة انسيابها وأصله من شعب الماء إذا تفجر وانساب ، وهو أيضاً يدل على معنى الضخامة والفضامة ، ومنه قيل : الأشعبان للوجه الضخم ، وبه سمى الشعبان لضخامته .
فلفظ " شعبان " بدلالته على هذه المعانى أنسب الأسماء الثلاثة بالبيان فى المقام الذى جاء فيه ، وهو مقام تحدّ ونزال جمع فيه فرعون الأجناد ، وحشد له السحرة والحواة فسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجساءوا بسحر عظيم ، وقال لموسى متحدياً : إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت ممن الصادقين ، فألقى موسى عصاه فتحوّلت إلى شعبان ضخم مهول ينساب فى حركة سريعة وانقضاء خاطف فليلقف ما يافكون ، وبهذا تمدق الآية وتحقق المعجزة ويقول السحرة آمنا برّب العالمين .

فالموقف على هذا النحو من التآزم والشدة لايناسبه إلا أن تكون العصا على هيئة الشعبان ضخامة منظر ، وسرعة انقضاء وقوة افتراس ليحقق جـو العرب والرهبنة فتكون الغلبة ويتأكد العجز (٢) .
وهكذا يكون كل واحد من الأسماء الثلاثة قد جاء تعبيراً دقيقاً يـصوّر حالة خاصة فى مقام خاص . ولو أن واحداً من هذه الأسماء الثلاثة جاء فى موضع صاحبه لاختل هذا التناسب المحكم البديع .

وهكذا يتأكد لنا من هذا البيان الواضح من لغة القصص القرآنى بما لايدع مجالاً للشك أن لغة القرآن لا تُفَرِّد الترادف بمعناه العام ، وإنما تحتفظ لكل لفظة منه بمقامها الخاص ومعناها المميّز ، الأمر الذى يجعل من ألفاظه مهما ترادفت وتقاربت ذوات مستقلة لا تتماثل ولا تتكرر ولا تتبادل مواضعها فى الدلالة أو السياق .

(١) سورة الأعراف : آية ١٠٧ ، الشعراء : آية ٣٢ .
(٢) د . على اليمنى دردير : أسرار الترادف ، ص ١٠١ .

ج - مشاكلة اللفظ للمعنى :

من الأسرار التي استدعت انتباه الباحثين ما اطلق على تسميته بمشاكلة اللفظ للمعنى ، فالمعنى إذا كان جزلاً كان اللفظ كذلك وإن كان " الزركشى " فى البرهان يعكس القضية حين يقول : " ومتى كان اللفظ جزلاً كان المعنى كذلك " (١) . . . والأمثلة التي توضح لنا هذه المشاكلة كثيرة ، وسنعرض منها ما هو خاص بالقصة القرآنية :

١ - يقول الله تعالى فى قصة عيسى عليه السلام : " إِنْ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ " (٢) ، ولم يقل من " طين " كما أخبر به سبحانه فى غير موضع : " إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ " (٣) . إنما عدل عن الطين الذى هو مجموع الماء والتراب إلى ذكر مجرد التراب لمعنى لطيف ، وذلك أنه أدنى العنصرين وأكثرهما ، لَمَّا كان المقصود مقابلة مَنْ ادَّعى فى المسيح الإلهية أتى بما يصغر أمر خلقه عند مَنْ ادَّعى ذلك ، فلهذا كان الإتيان بلفظ التراب أمس فى المعنى من غيره من العناصر ، وَلَمَّا أراد سبحانه الامتنان على بنى إسرائيل أخبرهم أن يخلق لهم من الطين كهيئة الطير ، تعظيماً لأمر ما يخلقه بإذنه ، إذ كان المطلوب الاعتداد عليهم بخلقه ليعظموا قدر النعمة به . .

ومنه قوله تعالى : " وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ " (٤) فإنه سبحانه إنما اقتصر على ذكر الماء دون بقية العناصر ، لأنه أتى بصيغة الاستغراق ، وليس فى العناصر الأربع ، ما يعم جميع المخلوقات إلا الماء ، ليدخل الحيوان البحرى فيها . .

(١) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى : البرهان ، ج ٣ ، ص ٣٧٨ .

(٢) سورة آل عمران من آية ٥٩ .

(٣) سورة ص : آية ٧١ .

(٤) سورة النور من آية ٤٥ .

٢ - قوله تعالى في قصة يوسف : " قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُونَ تَذَكَّرْ يَٰيُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ " (١) .. لقد نقلت الآية مواقف غريبة ، وقفها أبناء يعقوب من أبيهم وأخويهم ، فقد ألقوا "يوسف" في الجب وجاءوا على قميصه بدم كذب ، وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، وكذبوا على أبيهم ، ونالوا منه ، واتهموا أخاهم بالسرقة ، وجاءوا أباهم يزفون إليه خبر اتهامه مستشعدين بأهل القرية ، فسكت الأب على ألم ومض ، وتولى عنهم وتذكر يوسف وتأسف عليه ، وبكى حتى فقد بصره .. وقد حملت الآية هذه الغرابة من جهات كثيرة :

أ - فتاء القسم أغرب أدوات القسم وهي لاتجىء إلا في المواقع الغريبة على عكس الواو والباء .

ب - و"كان" أكثر استعمالاً من "فتىء" ، وفتىء لاتستعمل بدون "ما" ومجيئها بدونها غريب أيضاً ..

ج - وقد آتت الآية بأغرب ألفاظ الهلاك ، وهو "الحَرَضُ" .. فمواقف بنى إسرائيل الغريبة حملتها الألفاظ التي جاءت غريبة من حيث مجيء القسم بالتاء دون الواو والباء ، ومجيء "فتىء" دون "كان" واستعمالها بدون "ما" ، وكذلك التعبير " بالحَرَضُ " دون الهلاك (٢)

والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام ، وله نظائر في لغتهم ، وكم من لفظة غريبة عندهم لاتحسن إلا في موضعها ، ولا يكون حسنهما على غرابتهما إلا أنها توءد المعنى الذى سبقت له بلفظها وهيئة منطقها ، فكأن فنى تأليف حروفها معنى حسياً ، وفى تأليف أصواتها معنى مثله فى النفس ..

٣ - ومن الألفاظ التى لم يستخدمها القرآن لفظة (الأجر) وليس فيها من خفة التركيب الا الهمزة ، وسائرهما نافر متقلقل لايملح مع هذا المد فى صوت ولا تركيبه على قاعدة نَظْم القرآن ، فلما احتاج إليها لَفَظَهَا وَلَفَظَ مرادفها وهو (القرمذ) وكلاهما استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما ،

(١) سورة يوسف : آية ٨٥ .

(٢) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى : البرهان ، ج ٣ ، ص ٣٧٨ .

ثم أخرج معناها بالطف عبارة وأرقها وأعذبها . وساقها فى بيان مكشوف يفتح المصح ، وذلك فى قوله تعالى : " وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَلْهَمُنْ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا " (١) . فلننظر هل نجد فى سر الفصاحة وفى روعة الإعجاز أبعد أو أبعد من هذا ؟ لننظر ونتأمل كيف عبّر عن الأجر بقوله : " فأوقد لى ياهامان على الطين " ولننظر مولى هذه القلقلة التى هى فى الدال من قوله (فأوقد) ومايتلوها من رقعة اللام ، فإنها فى أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسنه ، وكأنما تنتزع النفس انتزاعاً . .

وليس الإعجاز فى اختراع تلك العبارة فحسب ، ولكن ما ترمى إليه إعجازاً آخر ، فإنها تحقر شأن فرعون ، وتصف ذلاله ، وتسفه رأيه ، إذ طمّح أن يبلغ الأسباب ، أسباب السماوات فيطلع إلى إله موسى ، وهو لا يجد وسيلة إلى ذلك المستحيل ولو نصب الأرض سلماً ، إلا شيئاً يصنعه هامان من الطين (٢) .

٤ - وما يشد فى القرآن الكريم حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز ، حتى أننا لو تدبرنا الآيات التى لانقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة ، وهى بالطبع فطنة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز ، فإننا نرى إعجازها أبلغ ما يكون فى نظمها وجهات سردها ، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيرها عنه ، لنظم حروفه ومكانه من النطق فى الجملة ، أو لنكتة أخرى من نكت المعانى التى وردت فيها الآية بحيث يوجد شيئاً فيما ليس فيه شيء ، ولنتأمل قول الله تعالى فى قصة " ضربات مصر " : " فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ " (٣) ، فإنها خمسة أسماء ، أخفها فى اللفظ

(١) سورة القصص من آية ٢٨ .

(٢) فى التعبير كلمة أخرى جلية : وتلك أن فرعون يريد أن يبنى صرحاً يبلغ به السماء فعبر بالإيقاد على الطين تهكماً على فرعون ، لأن البناء فى مثل هذا لا يزال يرتفع بلا نهاية ، وإعداد الأجر يجب أن يكون كذلك مستمراً باستمرار الإيقاد على الطين ، ثم تشعر العبارة أن النتيجة لاشيء ، فكانه لم يخرج لائناً ولا مبنياً به ، وما هو إلا البدء والاستمرار فى البدء .

انظر : مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن ، ص ٢٣٤ .
(٣) سورة الأعراف من آية ١٣٣ .

(الطوفان والجراد والدم) وأثقلها (القمل والضفادع) فقدّم (الطوفان) لمكان المَدِّين فيها ، حتى يأنس اللسان بخفتها ، ثم (الجراد) وفيها كذلك مدّ ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفهما فى اللسان وأبعدهما فى الصوت لمكان تلك الغنة فيه ، ثم جاء بلفظة (الدم) آخرًا ، وهى أخف الخمسة وأقلها حروفًا ، ليُسرع اللسان فيها ويستقيم لها ذوق النظم ويتم بها هذا الإعجاز فى التركيب " (١) .

هـ - ولما كان الأصل فى نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية ، استحال أن يقع فى تركيبه مايسوغ الحكم فى كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو مايجرى مجرى الحشو والاعتراض ، ومن الكلمات التى يقول النحاة أنها زائدة قوله تعالى فى قصة يوسف : " فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا " (٢) ، فإن النحاة يقولون أن " أن " زائدة ، أى فى الإعراب ، فيظن أنها كذلك فى النظم ويقاس عليها ، مع أن فى هذه الزيادة لوناً من التصوير ، لو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته ، فإن المراد هو تصوير الفصل الذى كان بين قيام البشير بقميص يوسف ومجيئه ، لبعد ماكان بين يوسف وأبيه عليهما السلام ، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب توءكدهما ، وتمف الطرب لمقدمه واستقراره ، غنة هذه النون فى الكلمة الفاصلة ، وهى " أن " فى قوله : " أن جاء " (٣) .
ومنه : " مَامْنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ " (٤) ، بدليل الآية الأخرى : " مَامْنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ " (٥) ، ليس المعنى : مامنعك من ترك السجود ؟ فإنه ترك ، فلا يستقيم

(١) مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن ، ص ٢٣٥ .

(٢) سورة يوسف من آية ٩٦ .

(٣) مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن ، ص ٢٣١ .

(٤) سورة الأعراف من آية ١٢ .

(٥) سورة ص من آية ٧٥ .

التوبيخ عليه .. وقيل : ليست بزائدة من وجهين :
أحدهما : أن التقدير مادعاك إلى ألا تسجد ؟ لأن الصارف عن الشيء
داعٍ إلى تركه ، فيشتركان في كونهما من أسباب عدم الفعل ..
الثاني : أن التقدير مامنعك من ألا تسجد .

وهذا أقرب مما قبله ، لأن فيه إبقاء المنع على أصله ، وعدم زيادتها أولى
لأن حذف حرف الجر مع " أن " كثير كثرة لاتمل إلى المجاز ، والزيادة فـفى
درجتها .. بالإضافة إلى أن في زيادتها تأكيد الاثبات ، فإن وضع " لا " نَفَـى
مادخلت عليه ، فهي معارضة للإثبات ، ولا يخفى أن حصول الحكم مع المعـارض
أثبت مما إذا لم يعترضه المعارض ؛ أو أسقط معنى ماكان من شأنه أن يسقط (١)
وبهذا الذى قدمنا ونحوه مما أمسكنا عنه ولم نستقص فى أمثلته لأنه
أمر مطرد - بالإضافة إلى ما لم نَحْط به خَبراً - نعرف أن القرآن على العموم -
والقصص فيه على الخصوص- أعجز فى اللغة بطريقة النظم وهيئة الـوضع .. فكل
كلمة منه مادامت فى موضعها فهي من بعض إعجازه ، ومن هنا ينساق بنا الكلام
الى القول فى النوع الثالث :

ثالثاً : الجمل وتركيبها :

الجملة هى مظهر الكلام ، وهى الصورة النفسية للتأليف الطبيعى ،
إذ يُحِيلُ بها الإنسان هذه المادة المخلوقة فى الطبيعة ، إلى معانٍ تصوِّرها فى
نفسه أو يصفها ؛ ترى النفس هذه المادة وتحسُّها . على حين قد لا يراها المتكلم
الذى أهدافها لكلامه غرضاً ، ولكنه بالكلام كأنه يراها .. هذا من ناحية التأليف
عند البشر ، أما فى القرآن عندما ننظر إلى جملة القصص من جهة تركيبها ،
نجد أنه انتظم أسباب الإعجاز من الصوت فى الحرف ، إلى الحرف فى الكلمة ،
إلى الكلمة فى الجملة ، حتى يكون الأمر مقدراً على تركيب الحواس النفسية فى
الإنسان تقديراً يطابق وضعها وقواها وتصرفها ، وذلك إيجاد خلقى لا يقبل للناس

(١) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، ج ٣ ، ص ٧٩ - ٨٠ .

به ولم يتهيا ، إلا في هذه العربية عن طريق المعجزة التي لا تكون معجزة حتى تخرق العادة ، وتفوت المؤلف وتعجز الطوق ، وإنما امتنع أن يكون في مقدور الخلق ، لأنه تفصيل للحروف على النحو الذي يأخذه فيه تركيب الحياة ، من تناسب الأجزاء في الدقيق والجليل ، وقيام بعضها ببعض لا يغنى منها شيء من شيء في أصل التركيب وحكمته .. وروح التركيب هذه ، لم تُعرف قط فـ في كلام عربي غير القرآن ، وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقه الناس ، ولولاها لم يكن بحيث هو كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين ، إذ نراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها ، ثم إلى تأليف هذا النظم : فمن ههنا تعلق بعضه على بعض ، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة ، هي صفة إعجازه في جملة التركيب ، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب (١) . كالمواعظ والحكم والتعليم ، وضرب الأمثال ، هذا غير القصص القرآني الذي لا تخلو قصة من قصمه إلا وضمير الجلالة للمتكلم يحرسها ويحميها من فطنة أن تكون من كلام أحد غير الله سبحانه (١) .

" وإذا كان علماء المعاني يجعلون البلاغة درجات فإنهم مقرون دون جدال أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من البلاغة الذي هو الإعجاز عينه " (٢) ... حقيقة أن القرآن كان علم البلاغة عند العرب ، ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم .. إننا لا يحق القول أن القرآن جاء بالاستعارة أو بالمجاز لأنه مجاز ، أو بالكناية لأنها كناية ، أو ما يطرده مع هذه الأسماء والمصطلحات إنما يريد به وضع معجز في نسق الفاظه ، وارتباط معانيه على وجوه السياسيين من البيان والمنطق ، فجري على أصولهما في أرقى ما تبلغه الفطرة اللغوية على إطلاقها في هذه العربية ، فهو يستعير حيث يستعير ، ويتجاوز حيث يتجاوز ، ويطنب ويوجز ويؤكد ويعترض ويكرر إلى آخر ما أحصى في

(١) د. محمد أحمد الغمراوي : الإسلام في عصر العلم ، ص ٢٣٤ .

(٢) د. السيد تقى الدين : من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن ، ص ١٥١ .

البلاغة ومذاهبيها، لأنه لو خرج عن ذلك لخرج من أن يكون معجزاً في جهة من جهاته ولاستبان فيه شمة نقص يمكن أن يكون في موضعه ما هو أكمل منه وأبلغ في القصد والاستيفاء، فما علوم البلاغة كلها إلا بعض الوسائل في التنبيه إليه، فهي تعطى القدرة على النظر والفهم ولكنها لاتعطى بمقدار ذلك في العمل والصنعة، ولذلك سوف نجمل تفصيلاً أو نشير إلى بعض الوجوه المعجزة في لغة القصة القرآنية من الناحية البلاغية، فالقرآن الكريم ليس كتاباً يتخير منه فيستجاد بعضه، ويصفح عن بعضه، إنما هو وحى بمعانيه وألفاظه، فهو بائن بنفسه من الكلام الإنساني، ولا بد أن يكون فائدة للناس كافية ليعملوا، وصادقاً على الناس كافة ليستفيدوا، ومعجزاً للناس كافة ليصدقوا (١).

الإعجاز في بلاغة الجملة في القصة القرآنية :

١ - الإجمال :

وله وجهاته الكثيرة في تركيب الجملة منها :

أ - أن يعرض من ألفاظ مختلفة مشتركة وقعت في التركيب، كقوله تعالى في قصة موسى : " وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ " (٢) بمعنى الجماعة، وفي قوله عن إبراهيم عليه السلام : " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً " (٣) بمعنى الرجل الجامع للخير المقتدى به . وبمعنى الدين في قوله تعالى : " إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ " (٤) وبمعنى الزمان في قوله تعالى : " وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ " (٥).

ب - حذف في الكلام : كقوله تعالى في قصة قوم صالح : " وَاتَيْنَا شَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً " (٦)، أي آية مبصرة، فظلموا أنفسهم بقتلها، وليس المراد أن الناقة

كانت مبصرة لا عمياء .

(١) مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن ، ص ٢٥٨ ، ٢٧٢ بتصرف .

(٢) سورة القصص من آية ٢٣ .

(٣) سورة النحل من آية ١٢٠ .

(٤) سورة الزخرف من آية ٢٢ ، ٢٣ .

(٥) سورة يوسف من آية ٤٥ .

(٦) سورة الإسراء من آية ٥٩ .

ج - من جهة عدم كثرة استعماله الآن : كقوله تعالى فى قصة صاحب الجنتين :
 "فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَّيْهِ" (١) أى نادماً .

د - من جهة التقديم والتأخير : كقوله تعالى فى قصة إبراهيم : "حَتَّى
 تَقُولُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ" (٢) ، معناه " قَدْ كَانَتْ لَكُمْ
 أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ " (٣) .. وهناك ما قُدم
 والنِّية به التأخير مثل قوله تعالى فى قصة : إبراهيم والعلائكة : "... فَلَمَّا
 رَأَوْا آيَاتِهِمْ لَاتَمَلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا
 إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ وَامْرَأَتَهُ قَائِمَةً فَفَحِكتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ
 يَعْقُوبَ قَالَتْ يَوِيلَتِيْءَ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
 عَجِيبٌ " (٤) . وكان كان لهذا التقديم وجهان :

أحدهما : يعتمد على التفسير اللغوى وهو : ضحكت المرأة . حاضنته
 وقد اعتمد البعض عليه فى تفسير الآية . وقيل أصله : فبشرناها بإسحاق
 فضحكت : أى حاضت بعد الكبر عند البشرى ، فعادت إلى عادات النساء من الحيض
 والحمل والولادة (٥) .

والثانى : يعتمد على التفسير النفسى : فقد روى " الأزهري " عن
 " الفراء " فى تفسير هذه الآية : لما قال رسل الله عز وجل لعبدته وخليلته
 إبراهيم : لا تخف ، ضحكت عند ذلك امرأته ، وكانت قائمة عليهم ، وهو قاعده ،
 فضحكت فبشرت بعد الضحك بإسحاق ، وإنما ضحكت سروراً بالأمن ، لأنها خافت
 كما خاف إبراهيم (٥) .

(١) سورة الكهف من آية ٤٢ .

(٢) سورة الممتحنة من آية ٤ .

(٣) سورة هود : ٧٠-٧٢ .

(٤) الإمام الزركشى : البرهان فى علوم القرآن . ج ٣ ، ص ٢٨٠ .

(٥) ابن منظور : لسان العرب ، ج ٤ - ص ٢٥٥٨ .

ويقول الأستاذ العقاد : هنا خوف فاطمئنان فبشرى مفاجئة على غير انتظار ، فتعجب . لاتملك سارة أن تجهر به . فتقول : إن هذا لشئ عجيب ... ويقول إن كل عوامل الضحك النفسية التى ظهرت للباحثين النفسانيين فى تفسيراتهم - تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتى بالضحك حيث يأتى الضحك مطرداً فى مواضعه المختلفة من تحول الشعور: طمأنينة بعد خوف ، ومعرفة بعد نكران ، وبشارة بما ليس فى الحسبان من الولادة بعد سن اليأس وخيبة الأمل فى الذرية زمناً طويلاً تعتلج فيه النفس بأشقات من دواعى الحزن والفراء والغيرة والتسليم . . ولاتفنى هنا كلمة " سَرَتْ " أو "كلمة "استبشرت " أو " فَرِحَتْ " ، فى مكان كلمة " ضَحِكَت " . فإن الضحك هو الأثر الملائم لهذه الحالة التى تشابكت فأصبحت فى قرارة النفس حالات متناقضات (١) .

٢ - تنوع أسلوب الخطاب : ويأتى على أوجه كثيرة منها :

١ - خطاب النوع : نحو " يَلْبِنِي إِسْرَآئِيل " (٢) ، والمراد "أبناء يعقوب" من الكتابيين ولم يذكروا فى القرآن إلا بهذا ، دون " يابنى يعقوب " . وسره أن القوم لما خطبوا بعبادة الله ، وذكروا بدين أسلافهم ، موعظة لهم ، وتنبيهاً من غفلتهم ، سمو بالاسم الذى فيه تذكرة بالله ، فإن "إسرائيل" اسم مضاف إلى الله سبحانه فى التأويل ، ولهذا دعا النبى صلى الله عليه وسلم قوماً إلى الإسلام يقال لهم : " بنو عبد الله " ، قال : " يابنى عبد الله " ، إن الله قد حسن اسم أبيكم " يحرضهم بذلك على ما يقتضيه اسمه من العبودية . ولما ذكر موهبتة وتبشيريه به قال : " يعقوب " ، وكان أولى من إسرائيل ، لأنها موهبة تعقب أخرى ، وبشرى عقب بها بشرى فقال : " فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ " (٣) ، وإن كان اسم يعقوب عبرانياً ، لكن لفظه موافق للعربى ، من العقب والتعقيب . والعجزة هنا فى مشاكلة الاسمين للملأمين .

(١) عباس محمود العقاد : جحا الفاحك المضحك ، ص ٧١ ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(٢) سورة البقرة من آية ٤٠ .
(٣) سورة هود من آية ٧١ .

وكذلك قد يكون للشخص اسمان ، فيقتصر على احدهما دون الآخر لمقصد :
ومنه قوله تعالى على لسان عيسى : " وَمَبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ " (١)
ولم يلائل "محمد" ، لأنه لم يكن محمداً حتى كان أحمد ، حمد ربه ، فنبأه
وشرفه ، فلذلك تقدم على محمد فذكره عيسى به . ومنه أن " مَدَّيْن " هم
أصحاب الأيكة ، إلا أنه سبحانه حين أخبر عن مَدَّيْن قال : " أَخَاهُم شُعَيْبًا " (٢) ،
وحيث أخبر عن الأيكة لم يقل " أخوهم " : " كَذَّبَ أَصْحَابُ النَّيْكََةِ الْمُرْسَلِينَ " (٣) ،
" وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ " (٤) ، " وَشَمُودَ وَقَوْمَ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ " (٥) ،
" وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُتَيْعٍ " (٦) ، والحكمة فيه أنه لما عرفهم بالنسب ، وهو
أخوهم في ذلك النسب ذكره ، ولما عرفهم بالأيكة التي أصابتهم فيها
العذاب لم يقل أخوهم ، وأخرجه عنهم ..

ومنه " وَذَا النُّونِ " (٧) ، فإضافه إلى الحوت والمراد " يونس " وقال
في سورة اللهم : " وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ " (٨) ، وإضافة " بذي " أشرف من
إضافة " بصاحب " ، ولفظ " النون " أشرف من " الحوت " ولذلك وجد في حروف
التهجى ، كقوله : " ن وَالْقَلَمِ " (٩) . وقد قيل أنه قسم وليس في الآخر
ما يشرفه بذلك (١٠) .

ب - خطاب الاثنين بلفظ الواحد :

كقوله تعالى في قصة موسى : " فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى " (١١) ، أى " وهارون "

وفيه وجهان :

- (١) سورة الصف من آية ٦ .
- (٢) سورة الأعراف آية من ٨٥ ، هود : آية ٨٤ ، العنكبوت : آية ٣٦ .
- (٣) سورة الشعراء : آية ١٧٦ .
- (٤) سورة الحجر : آية ٧٨ .
- (٥) سورة ص من آية ١٣ .
- (٦) سورة ق من آية ١٤ .
- (٧) سورة الأنبياء من آية ٨٧ .
- (٨) سورة القلم من آية ٤٨ .
- (٩) سورة القلم من آية ١ .
- (١٠) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى : البرهان في علوم القرآن ، ج ١ ، ص ١٦٠ - ١٦٢ .
- (١١) سورة طه : من آية ٤٩ .

أحدهما : أنه أفرد موسى عليه السلام بالنداء بمعنى التخصيص والتوقف
إذ كان هو صاحب مظيم الرسالة وكريم الآيات .
والثاني : لَمَّا كان هارون أفصح لساناً منه ، على ما نطق به القرآن
ثبت من جواب الخصم الألد . ومثله في قصة آدم : " فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ
فَتَشْقَى " (١) وفيه أيضاً وجهان :
أحدهما : إنما أفرده بالشقاء من حيث كان المخاطب أولاً والمقصود
في الكلام .

والثاني : لأن الله جعل الشقاء في معيشة الدنيا في حيز الرجال ،
ويحتمل الاغضاء من ذكر المرأة ، ولهذا قيل : من الكرم ستر الحرم .
وقوله : " فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (٢) ، فهما
اثنان ولكنهما يذهبان في مهمة واحدة برسالة واحدة . فهما رسول رب العالمين .
وقوله تعالى في قصة آدم : " فَتَابَ عَلَيْهِ " (٤) ، ولم يقل " عليهما " .
اكتفاء بالخبر عن أحدهما بالدلالة عليه (٥) .

ج - خطاب الجمع بعد الواحد :

كقوله تعالى في قصة موسى : " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا
لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " (٦)
فشئى في الأول ، ثم جمع ثم أفرد ، لأنه خوطب أولاً موسى وهارون ، لأنهم
المعتبوعان ، ثم سبق لخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ،
لأنه واجب عليهم ، ثم خص موسى بالبشارة تعظيماً له ...

-
- (١) سورة طه: من آية ١١ .
 - (٢) سورة الشعراء: من آية ١٦ .
 - (٣) سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد الخامس ، ص ٢٥٩٠ .
 - (٤) سورة البقرة: من آية ٣٧ .
 - (٥) الزركشى : البرهان في علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ - ٢١١ ، ٢٤٠ - ٢٤١ .
 - (٦) سورة يونس ، آية ٨٧ .

د - خطاب الاعتبار :

كقوله تعالى فى قصة صالح لما هلك قومه : "فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَؤُمْ لَقَدْ أَهْلَفْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ التَّامِحِينَ" (١) ، خاطبهم بعد هلاكهم ، إما لأنهم يسمعون ذلك كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم بأهل بدر وقال : "والله ما أنتم باسمع منهم " ، وإما للاعتبار كقوله : "قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا" (٢) .

٣ - الكناية :

أ - إن للقرآن الكريم فى قممه المثل الأعلى والمنزلة التى تعجز عنها أساليب الأدباء ، ومعلوم أن لكتاب الله تعالى غاية أخلاقية لها مكانها البارز بين الغايات السامية التى يحققها ذلك الكتاب المعجز ، وإذا كان هذا شأنه فلا بد من أن تتفق ألفاظه وأساليبه وصوره البيانية مع هذه الغاية ، وهذا يفسر لنا خلوه تماماً من كل ما يجرح الذوق أو يخدش الحياء ، أو يتعارض مع التربية الخلقية التى يفرسها ذلك الكتاب الكريم فى النفوس المؤمنة ... فلننظر إلى الأدب العالى والذوق الرفيع ، وصور الكناية التى تؤدى الغرض أداًءً أبلغ من التصريح ، فى قصة يوسف وامرأة العزيز حيث توالى الكنايات وأخذ بعضها بعناق بعض ، لأن الحقائق المعبر عنها بها مما يجب ستره وتغطيته ، فادت الكناية دورها أبلغ اداًءً : " وَرَأَى وَدَّتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ تَفْسِيرِ " (٣) . فقد كنى بالمرادة عن الفحشاء التى طلبتها هذه المرأة منه ، وقد عبر عن هذا المعنى بعبارة مهذبة أغنت عن القبيح (٤) .

-
- (١) سورة الأعراف : آية ٧٩ . وانظر الزركشى : البرهان فى علوم القرآن . ج ٢ . ص ٢٤٥ .
(٢) سورة العنكبوت : آية ٢٠ .
(٣) سورة يوسف من آية ٢٣ .
(٤) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ .

ومن لطيف الكنايات وأحسنها قوله تعالى في القصة عن "مريم": "وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا" (١) وهي كناية عن فرج القميص ، أى لم يعلق ثوبها ربيصة ، فهي ظاهرة الأثواب ، وفروج القميص أربعة : الكَنّ ، والأعلى ، والأسفل ، وليس المراد غير هذا ، فقد أخطأ من تَوَهّم هنا الفرج الحقيقي ، فإن القرآن أنزه معنى ، وألطف إشارة ، وأملح عبارة من أن يريد ماذهب إليه وهم الجاهل ، لاسيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس ، فأضيف القدس إلى القدوس ، ونزّهت القائنة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس (٢) .. إذاً فإحصان الفرج هنا رمز للطهارة ، وإيماء للعفة ، وإشارة إلى تكامل الأنموذج الإنسانى ، فى أم عيسى عليهما السلام .

ب - ومن صور الكناية فى القصة القرآنية " التعريض والتلويح " ، وأما التعريض : فإنه الدلالة على المعنى عن طريق المفهوم ، وسمى تعريضاً لأن المعنى باعتباره يفهم من عرض اللفظ ، أى من جانبه ، ويسمى التلويح ، لأن المتكلم يلوح منه للسامع مايريده ، كقوله تعالى فى قصة "إبراهيم" **قَالَ بَلْ فَعَلَّكَ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظِقُونَ** " (٣) ، لأن غرضه بقوله : " فاسألوهم " على سبيل الاستهزاء ، وإقامة الحجة عليهم بما عرض لهم به ، من عجز كبير الأضنام عن الفعل ، مستدلاً على ذلك بعدم إجابتهم إذا سُئِلُوا ، ولم يرد بقوله : " بل فعله كبيرهم هذا " ، نسبة الفعل الصادر عنه إلى الضم ، فدلالة هذا الكلام عجز كبير الأضنام عن الفعل بطريق الحقيقة (٤) .

ج - ومن صور الكناية فى القصة القرآنية أيضاً : التوجيه ، وهو ما احتمال معنيين ويؤتى به عند فطنة المخاطب ، كقوله تعالى فى قصة ميلاد موسى : **" هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ "** (٥) ، فـ

(١) سورة الأنبياء من آية ٩١ .

(٢) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

(٣) سورة الأنبياء : آية ٦٣ .

(٤) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ٣١١ .

(٥) سورة القصص من آية ١٢ .

الضمير في (له) يحتمل أن يكون لموسى ، وأن يكون لفرعون . وبهذا تخلصت أخت موسى من قولهم : (انك عرفته) ، فقالت : أردت : " ناصحون للمليك " والرد على من اعترض عليه بأن هذا في لغة العرب لا في كلامها ، أن الحكاية مطابقة لما قالت ، وإن كانت بلغة أخرى (١) .

٤ - الإيضاح بعد الإبهام : ليرى المعنى في صورتين ، أو ليكون بيانه بعد التشوف إليه ، لأنه يكون الذو وأشرف عندها ، وأقوى لحفظها وذكرها ، كقوله تعالى في قصة موسى : " وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَنًا مِمَّا مَيَّسَتْ رَيْبُ الْأَرْبَعِينَ لَيْلَةً " (٢) ، وأعاد قوله : " أربعين " وإن كان معلوماً من " الثلاثين " و " العشر " أنها أربعون لنفى اللبس ، لأن العشر لما أتت بعد الثلاثين ، التي هي نص في المواعدة دخلها الاحتمال أن تكون من غير المواعدة فأعاد ذكر " الأربعين " نفياً لهذا الاحتمال ، وليعلم أن جميع العــــدد للمواعدة .

وإن قال قائل : إذا كان زمن المواعدة أربعين فليَمَ كانت " ثلاثين " ثم عشرًا ؟

أجاب ابن عساكر (٣) : بأن العشر إنما فُصلَ من أولئك ؟ ليتحدّد قرب انقضاء المواعدة ، ويكون فيه متأهباً مجتمع الرأي ، حاضر الذهن ؛ لأنه لو ذكر " الأربعين " أولاً لكانت متساوية ، فإذا جعل العشر فيها إتماماً لها استشعرت النفس قرب التمام ، وتجدد بذلك عزم لم يتقدم .

(١) ونظيره جواب ابن الجوزي لمن قال له : من كان أفضل عند النبي صلى الله عليه وسلم ؟ أبو بكر أم علي ؟ فقال : من كانت ابنته تحبه . . والإشكال في ضمير : "ابنته" وضمير " تحبه " فإن فاطمة الزهراء ابنة الرسول كانت زوج علي ، وعائشة بنت الصديق كانت زوج الرسول .

انظر : الزركشى : البرهان في علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٢) سورة الأعراف من آية ١٤٢ .

(٣) هو محمد بن علي بن الخضر الفسائي المعروف بابن عساكر ، تلميذ أبي القاسم السهيلي صاحب كتاب التعريف والأعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام ، وكتاب ابن عساكر ذيل عليه ، جمع بينهما شيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة في كتاب واحد سماه " التبيان " .

انظر : الإمام الزركشى : البرهان في علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ - ٤٧٩ .

ولكن المواعدة في سورة البقرة وردت أربعين ليلة ولم يَقْمِلِ العشر منها : " وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً " (١) .. وذلك لانه قصد في " الأعراف" ذكر صفة المواعدة والإخبار عن كيفية وقوعها فذكر على صفتها ، وفي " البقرة" إنما ذكر الامتنان على بنى إسرائيل بما أنعم به عليهم فذكر نِعْمَةً عليهم مَجْمَلَةً ، فقال : " وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ " (٢) ، " وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ " (٣)

هـ - الخروج على خلاف الأصل : فالأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة ، وأصل المحدث عنه كذلك . والأصل أنه إذا ذُكِرَ شَيْئاً أن يذكر مضمراً للاستغناء عنه بالظاهر السابق ، والخروج على الأصل في تركيب الجملة في القصص القرآنية له مقاصد عظيمة منها :

أ - قصد التعظيم : كقوله تعالى في قصة صاحب الجنتين : " لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا " (٤) ، فأعاد ذكر " الرب " لما فيه من التعظيم والهضم للخصم . ومثله في قصة مريم : " وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ " (٥) .

ب - قصد الإهانة والتحقير : كقوله تعالى في قصة موسى وفرعون : " وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ " (٦) .

ج - إزالة اللبس حيث يكون الضمير يُوهم أنه غير المراد : كقوله تعالى في قصة يوسف : " ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ " (٧) ، إنما حُسِّنَ إظهار الوعاء مع أَنَّ الأصل " فاستخرجها منه " لتقدم ذكره ، لأنه لو قيل ذلك لأوهم عود الضمير على الأخ ، فيصير كأن الأخ مباشر لطلب خروج الوعاء ، وليس كذلك لما في المباشرة من الأذى الذي تأباه النفوس ، الآية ، فأعيد لفظ الظاهر لنفى هذا ..

-
- (١) سورة البقرة من آية ٥١ .
 - (٢) سورة البقرة من آية ٥٠ .
 - (٣) سورة البقرة من آية ٤٩ .
 - (٤) سورة الكهف : آية ٢٨ .
 - (٥) سورة آل عمران من آية ٢٧ .
 - (٦) سورة غافر من آية ٢٧ .
 - (٧) سورة يوسف من آية ٧٦ .

وإنما لم يضمن الأخ ، فيقال : " ثم استخرجها من وعائه " لأمرين :
أحدهما : أن ضمير الفاعل فى " استخرجها " ليوسف عليه السلام ، فلو
قال : " من وعائه " لتوهم أنه يوسف ، لأنه أقرب مذكور فأظهر لذلك .
والثانى : أن الأخ مذكور مضاف إليه ، ولم يذكر فيما تقدم مقصودا ،
بالنسبة الإخبارية ، فلما أحتج إلى إعادة ما ، وأضيف إليه أظهره أيضا (١) .

د - قصد العموم : كقوله تعالى فى قصة " موسى والعبد الصالح :
" حَتَّى إِذَا آتَيْنَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا " (٢) ، ولم يقل " استطعهم " للإشعار
بتأكيد العموم ، وأنهما لم يتركا أحدا من أهلها إلا استطعماه وآبى ، ومع
ذلك قابلهم بأحسن الجزاء ، وفيه التنبيه على محاسن الأخلاق ، ودفع السيئة
بالحسنة ..

وقوله تعالى فى قصة يوسف : " وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسُ لَأَمَّارَةٌ
بِالسُّوءِ " (٣) ، فإنه لو قيل : إنها لأماراة " لاقتضى تخصيص ذلك ، فأتى بالظاهر
ليدل على أن المراد التعميم ، مع إنه برىء من ذلك بقوله بعده : " إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّي " (٤) ، وقوله : " إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ " (٤) ، ولم يقل " إنه " إما للتعظيم
وإما للاستلذاذ (٥) ..

هـ - الاستثناء والاستدراك : ويبدو واضحا فى تركيب الجملة كقوله
تعالى فى قصة آدم : " فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ .. إِلَّا إِبْلِيسَ " (٦) ، فإن
فيه معنى زائداً على الاستثناء ، هو تعظيم أمر الكبيرة التى أتى بها إبليس
من كونه خرق لإجماع الملائكة ، وفارق جميع الملائكة الأعلى بخروجه مما دخلوا

(١) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ٤٨٥ - ٤٩٠ .

(٢) سورة الكهف من آية ٧٧ .

(٣) سورة يوسف من ٥٣ ، وفى حاشية إحدى النسخ : " هذا مقول امرأة العزيز ،
ويوسف عند هذه المقالة فى السجن ، بدليل قوله : " ائتوني به " وأيضا
قوله للرسول : " ارجع إلى ربك " ولم يخرج معه ، وبدليل قوله صلى الله
عليه وسلم : لو كنت من يوسف لأجبت الداعى " .

(٤) سورة يوسف من آية ٥٣ .

(٥) الإمام الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .

(٦) سورة الحجر : ٣٠ - ٣١ .

فيه من السجود لآدم ..

ومنه قوله تعالى في قصة نوح : " فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا " (١) فإن في الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تهويلاً على السامع ، ليشهد عذر نوح عليه السلام في الدعاء على قومه . وحكمة الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تعظيم للمدة ، ليكون أول ما يباشر السمع ذكر " الألف " واختصار القرآن اللفظ ، فإن لفظ القرآن أخضر من تسعمائة وخمسين عاماً ولأن لفظ القرآن يفيد حصر العدد المذكور ولا يحتمل الزيادة عليه ولا النقص (٢) .

٦ - الاحتراس : وهو أن يكون الكلام محتتملاً لشيء بعيد فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال مثل قوله تعالى على لسان النملة في قصة سليمان : " لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ " (٣) . فقوله : " وهم لا يشعرون " احتراس ببيان أن من قُدل سليمان وفضله وفضل جنوده أنهم لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بالآ يشعروا بها . وقد قيل : إنما كان تبسم سليمان سروراً بهذه الكلمة منها ، ولذلك أكد التبسم بالضحك ، لانهم يقولون : تبسم كتبسم الغضبان ، لينبه على أن تبسمه تبسم سرور ..

وكذا قوله تعالى في قصة الطوفان : " وَقِيلَ بَعْدَ لُلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " (٤) فإن سبحانه لما أخبر بهلاك من هلك بالطوفان ، عقَّبهم بالدعاء عليهم ، ووصفهم بالظلم ، ليعلم أن جميعهم كان مستحقاً للعذاب ، احتراس من ضعف يومهم أن الهلاك بعمومه ربما شمل من لا يستحق العذاب ، فلما دعا على الظالمين ، ووصفهم بالظلم على استحقاقهم كما نزل بهم وحل بساحتهم ، مع قوله أولاً : " وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ " (٥) .

(١) سورة العنكبوت من آية ١٤ .

(٢) الزركشى : البرهان في علوم القرآن ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

(٣) سورة النمل من آية ١٨ .

(٤) سورة هود من آية ٤٤ .

(٥) سورة هود من آية ٣٧ .

وأعجب احتراس وقع فى القصص القرآنى قوله تعالى مخاطباً لنبيه عليه الصلاة والسلام : " وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ . . . (١) . . . وقال عن موسى : " وَتَدَيَّنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ " (٢) ، فلَمَّا نفى سبحانه عن رسوله أن يكون بالمكان الذى قضى لموسى فيه الأمر عَرَفَ المكان بالغربى ، ولم يلائل فى هذا الموضع " الأيمن " كما قال " وَتَدَيَّنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ " (٢) أدباً مع النبى صلى الله عليه وسلم أن ينفى عنه كونه بالجانب الأيمن ، أو يسلب عنه لفظاً مشتقاً من اليمين ، أو مشاركاً لمادته ، وَلَمَّا أخبر عن موسى عليه السلام ذكر الجانب الأيمن تشريفاً لموسى ، فراعى فى المقامين حسن الأدب معهما تعليماً للأمة ، وهو أصل عظيم فى الأدب فى الخطاب (٣) .

وعلى هذا نستطيع - بعد الذى قدمنا - أن نكتفى بهذه الإشارة من تلك الجزئيات المحدودة ، من نواحى الإعجاز فى باب القصص القرآنى من ناحية البيان والبلاغة . . . ذلك الإعجاز الذى منح اللفظ العربى امتداداً فى المدلول ، فأحدث ثورة لغوية لم تعرفها لسغات البشر ، ويمكن أن نلخص نواحى الإعجاز فى نقاط ثلاث :

أولها : أنه قد حدث بتأثير كتاب على لغة ، وهو أمر لم يحدث فى تاريخ الإنسان منذ عرف اللغة .

وثانيها : أن أساس التحدى فى الإعجاز هو الكلمة بكل بنياتها ، فقد نجد فى القرآن كلمة على حرف واحد ، أفادت من الاستعمال القرآنى تعدداً فى المعنى ، وسعة فى الاستعمال ، وقد تكون على حرفين وثلاثة ، وأربعة ، وخمسة ، وهذا هو المقياس الكمى الذى وقفت عنده بنية الكلمة العربية المجردة .

وثالثها : قابلية اللفظ القرآنى لتحمل المزيد من الدلالة ، وهو بذلك يمنح العربية مرونة فى الأداء ومواكبة لتطور العلم ، وقدرة على استيعاب حقائقه فى كل جيل ، ولاشك أن ذلك كله يلقى على بيان القصص تأثير تركيبى عميق . . . ندرك منه فصاحة الأسلوب وبلاغة العبارة وسمو المعنى والمفهوم ،

(١) سورة القصص من آية ٤٤ .

(٢) سورة مريم من آية ٥٢ .

(٣) الإمام الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، ج ٣ ، ص ٦٥ - ٦٦ .

وشراء الفكر والمضمون .

" ولاننسى أن نذكر فوق ذلك ما قالته الأعرابية - حين أعجب بعض الناس ببعض شعرها - : (ما ترك لنا القرآن من بيان وهو يقول : " وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْ مَوْسَى أَنْ أَرْضِعْهِ فَإِذَا خُفِيَ عَلَيْهِ فَأَلْقَاهُ فِي السَّمِّ وَلَاتَخَافِ وَلَا تَحْزَنِ . إِنَّكَ رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاهِلُونَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ " (١) فقد جمع في آية واحدة بين أمرين . . . ونهين وبشارتين) ، هذا إلى أنها لم تعن بأن تشير في الآية إلى مصطلح القوم في لطف التصوير ، وما تلتقيه الدقة في التعبير بالشرط وفي إيشار بعض أدواته على بعض . وما تلتقيه الدقة في اختيار الفاصلة التي تساير أجراس السورة ، أو أنغامها الموسيقية المتوترة " (٢) .

ثانياً : الخصائص الأسلوبية :

ونقصد بالأسلوب تلك الطريقة التي يتم بها التركيب الأدبي للعناصر القصصية ، ومما لاشك فيه أن القصة القرآنية تعدُّ أول قصة ملتزمة عرفها الأدب العربي ، فإذا تأملنا في الأسلوب الذي قدمت به ، وماله من تأثير نفسي وفني ، اتضح وجه تسميتها " بالقصة " لا استناداً إلى مدلولها اللغوي فقط ، باعتبار أن أصل الاشتقاق للفظ (قصة) يلتقي في المعنى مع المدلول الذي انبنى عليه أصل التسمية القرآنية ، وهو الإعلام بالذنب " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ " (٣) ، أو تتبع الأثر وتقصيه : " وَقَالَتِ لَخُثِمَ قُصِّهِ " (٤) ، بسبب واعتمادها على ما في مرضها من طرق فنية .

ولاننسى أن أسلوب القصص القرآني هو أسلوب التخاطب ومن هنا وضحت في قصصه أساليب الحدث والمشاهدة خاصة في مبدأ القصة (٥) .

(١) سورة القصص : آية ٧ .

(٢) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث في قصص القرآن ، ص ١٥٨ .

(٣) سورة الكهف من آية ١٣ .

(٤) سورة القصص من آية ١١ .

(٥) د. السيد تقى الدين : من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم ، ص ١٩٢ .

وهناك خصائص أسلوبية عامة تحقق الغرض الدينى للقصة القرآنية ، عن طريق جمالها الفنى ، إذ أن هذا الجمال الفنى يجعل وزودها إلى النفس أيسر ، ووقعها فى الوجدان أعمق ، وهذه الخصائص تمثلها بعض الطواهيـر الفنية التى لها حساب معلوم فى الدراسة الفنية للقصة الحرة فى عالم الفنون (١) ، منها :

(١) تنوع طريقة العرض : " إن البيان القرآنى يحدد الغرض من القصة ويسلك له الطريق الذى يوصل إليه ، متوسلاً فى طريقه إلى غرضه بالوسائل البليانية المناسبة أتم المناسبة . ومن ثم تنوعت الطرائق تبعاً لتنوع الأغراض ، واختلفت الوسائل البليانية تبعاً لتنوع الطرائق " (٢) .

١ - التقديم والتمهيد لعرض القصة :

وخير مثال لذلك هى " قصة الخلق " ، أو " النشأة الاولى " ، ففسد ورد فى سورة الأعراف تقديم قوى للقصة خلق آدم ، تبدأ به السورة : يقول تعالى : " الْمَص . كَتَبْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ ، فَلَا يَكُنْ فِي مَذْرِكَ حَرْجٌ مِنْهُ لِيَتَنَذِرَ بِهِ وَذِكْرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ " (٣) .

إن خطاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو خطاب لقومه الذين يجاهدوهم بهذا القرآن . وكل مايجىء فى السورة بعد ذلك من قصص ، ومن وصف لرحلة البشرية الطويلة ، وعودتها من الرحلة المرسومة ، وكل مايعرض من مشاهد فى صفحة الكون وفى يوم القيامة ، إنما هو خطاب غير مباشر - وأحياناً مباشر - للنبي صلى الله عليه وسلم وقومه للإنذار والتذكير ، كما يشير هذا المطلع القصير . . . ولأن الأمر كذلك من الشغل ومن الفراغة ، ومن النفوس ومن المقاومة لهذا التغيير الكامل الشامل الذى تستهدفه هذه العقيدة فى حياة الناس وتصوراتهم ، فإن السياق يباكر القوم بالتهديد القاسم ، ويذكرهم

(١) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، ص ١٤٨ .

(٢) د . إبراهيم عوضين : البيان القصصى فى القرآن الكريم ، ص ١١٦ .

(٣) سورة الأعراف : ١ - ٢ .

بمضائر المكذابين ، ويعرض عليهم مصارع الغابرين ... جملة قبل أن يأخذ فى اللطم المفصل عنهم فى مواضعه من السياق : " وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ . فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا : إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَلَنَسْتَلِ الْذِّينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلِ الْمُرْسَلِينَ . فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَمَ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ . وَالتَّوْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ، فَمَنْ شَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ " (١) .

وبعد هذه المقدمة تبدأ القصة ، تبدأ بالحديث عن التمكين للجنس البشرى فى الأرض ، وذلك بما أودع الله هذا الكون من خصائص وموافقات تسمح بحياة هذا الجنس وتمكينه فى الأرض ، وبما أودع الله هذا الجنس من خصائص وموافقات متوافقة مع الكون ، ومن قدرة على التصرف إلى نوااميسه واستخدامها والانتفاع بطاقاته ومقدراته وأقواته ، " وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ " (٢) .

وليس هذا إلا التمهيد لعرض قصة النشأة الأولى ، وتصوير نقطة الانطلاق للبشرية فرحلتها المرسومة ، والسياق يركز فى هذه السورة على هذه النقطة ، ويعرض قصة النشأة ، ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للإنذار والتذكير ، المستمدتين مما فى مشاهدنا وأحداثها من عِظَاتٍ مَوْحِيَةٍ ، ومَوْثِرَاتٍ عميقة : " وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ، ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ " (٣) .

وبهذا المشهد فى نقطة الانطلاق يتحدد مصير الرحلة كلها ، ومصائر المرتحلين جميعاً .. وتلوح طلايح المعركة الكبرى التى لاتهدأ لحظة طوال الرحلة ، بين هذا العدد الجاهر بالعداوة ، وبين آدم جميعاً . كما تلوح نقط الضعف فى الكائن الإنسانى جُمْلَةً ، ومنافذ الشيطان إليه منها ..

(١) سورة الأعراف : ٤ - ٩ .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٠ .

(٣) سورة الأعراف : آية ١١ - ثم بقية القصة من آية ١٠ إلى آية ٢٧ .

ومن ثم يتخذ السياق من المشهد مناسبة للتعقيب الطويل ، بالانذار والتحذير : "يَبْنِيَّ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوَازِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ". ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ . يَبْنِيَّ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا . إِنَّهُ يَرُوكُمُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ . إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ " (١) .

٢ - وقد يمهد للقصة بمقدمة توحى بخاتمتها على نحو مانرى فى قصة "يوسف" فأحداثها تبدأ عقب تقديم روميا يوسف التى قصها على أبيه وتنبؤ أبيه بما ينتظره فى المستقبل من شان عظيم : "إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا . وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ . قَالَ يَبْنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا . إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ . إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " (٢) .

ثم تبدأ مشاهد القصة وأحداثها ، حتى اذا كانت خاتمتها عرفنا انها كانت تصويرا دقيقا لانتقال الروميا الى واقع متدرج مع الايام (٣) : "وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا . وَقَالَ يَلَابَتْ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ . قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا . وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي . إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " (٤) .

٣ - وقد يمهد للقصة بذكر ملخص لها يشوق إليها ، وينبئه إلى ماتنطوى عليه من مقاصد القصة القرآنية ، ويعالج ماقد يشار حول أحداثها ، من تشكيك أو ماقد يشار حول أفكارها من آراء ، ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك ، كما نرى فى قصة أصحاب الكهف ، فقد مهد لأحداث القصة بقوله تعالى : "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا . إِذْ آوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرَبْنَا عَلَىٰ

(١) سورة الأعراف : آية ٢٦ - ٢٧ .

(٢) سورة يوسف : آية ٤ - ٦ .

(٣) د . إبراهيم عوضين : البيان القصصى فى القرآن الكريم ، ص ١٢٠ .

(٤) سورة يوسف : آية ١٠٠ .

عَادَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا . ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنُعَلِّمَ آيَ الْكِتَابِ أَخَصَّ لِمَا
لَبِثُوا أَمَدًا " (١) .

ذلك ملخص للقصة ، ثم تتبعه تفصيلات تشاورهم قبل دخولهم الكهف .
وحالتهم بعد دخوله ، ونومهم ، ويقظتهم ، وإرسالهم واحداً منهم ليشترى
لهم طعاماً ، وكشفه في المدينة ، وعودته ، وموتهم ، وبناء المعبد عليهم ،
واختلاف القوم في أمرهم .. إلخ . فكان هذا التلخيص كان مقدمة مشوقة
للتفصيلات (٢) .

٤ - ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها ، ثم تبدأ القصة بعد ذلك من
أولها وتسير بتفصيل خطواتها . وذلك كقصة موسى في سورة القصص . وهي تبدأ
هكذا : " تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ
مِنْهُمْ يُذِخُّ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ
عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنَمَكِّنَ
لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهُمَّنَّ وَجُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ " (٣) .

ثم يفيض في تفصيلات قصة موسى : مولده ونشأته ورضاعه وكبره وقتله
المصري وخروجه .. فكان هذه المقدمة ، التي تكشف الغاية من القصة كانت
تمهيداً مشوقاً لمعرفة الطريقة التي تتحقق بها الغاية المرسومة المعلومة (٤) .

٥ - وقد يذكر القصة بدون مقدمات ولا تمهيد ، مكتفياً بإيماء إلى
محور القصة ، على نحو ما جاء في قصة سليمان مع ملكة سبأ ، فالقصة تبدأ
في محور العلم والايمان ، ومن ثم بدأت بعد قوله تعالى : " وَلَقَدْ آتَيْنَا
دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ
الْمُؤْمِنِينَ " (٥) . وكما نرى في الحلقة التي تعرضها سورة الأنبياء من قصة

(١) سورة الكهف : ٩ - ١٢ .

(٢) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، ص ١٤٩ .

(٣) سورة القصص : ٢ - ٦ .

(٤) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، ص ١٤٩ .

(٥) سورة النمل : آية ١٥ .

إبراهيم ، فالقمة تدور في محور الجدل العقلي القائم على التعقل والاعتزان ، ومن ثم بدأت بعد قوله : " وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ مَبْلُغِينَ " (١). ثم تلا ذلك قوله تعالى : " إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذَا السَّمِيعُ الَّذِي أَنْتُمْ لَهَا عَكِفُونَ " (٢).

٦ - وقد يقدم أحداث القمة وفق ترتيبها الواقعي ، فيصبح متلقى القصة مشاركاً لأصحابها ، في الانتقال مع أحداثها ومواقفها ، على نحو ما نرى في قصة مريم التي تقدمها سورة مريم ، وما نرى في قصة إبراهيم التي تعرضها سورة الأنبياء ، فنحن مع قصة مريم ننتقل معها من حدث إلى حدث ونمرّ معها بالضيق جاهلين نهايته حتى نصل معها في النهاية إلى سماع صوت طفلها عيسى يبرئ ساحتها ويعرف بنفسه ، ونحن مع قصة إبراهيم ننتقل معه في تحديه لقومه وسخريته من معبوداتهم ، ونتردد معه دون أن ينكشف لنا شيء ينمّ عما تنتهي به القصة ، حتى نراه في النهاية كما رأى نفسه محفوظاً من النار التي أُلقي فيها لتحريقه (٣).

٧ - وقد يقدم أحداث القمة وفق ترتيب آخر ليُجعل لنا بالكشف عن مفاجآت القصة ، إيماء إلى أن من وقائع الحياة ما يمكن للعاقل المؤمن البصير إدراكه قبل أن يقع ليعمل على تدارك نفسه . كما نرى في قصة أصحاب الجنة التي قدمتها سورة القلم فبعد بدء أحداثها مباشرة قدم حدثاً يعرفنا بما آل إليه أمر الجنة دون أن يوضح ذلك على مسار القصة ، أو يصيبها بأدنى قلق أو اضطراب : " إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ فَطَافَ عَلَيْهِمَا طَافٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لِفَالِكُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ

(١) سورة الأنبياء : آية ٥١ .

(٢) سورة الأنبياء : آية ٥٢ .

(٣) د. إبراهيم عوفين : البيان القصص في القرآن الكريم ، ص ١٢٠ .

عَلَى بَعْضٍ يَتَتَلَوْنَهُ قَالُوا يَلْوِيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاهِرِينَ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ " (١).

٨ - البيان القرآنى فى بعض مشاهد قصصه يعتمد على احضار الاحداث دون تدخل بالرواية وما تستلزمه من حكاية على السنة الاشخاص . وكل ما يصنع منه انه ينسب الى عنوان المشهد أو موضوعه بما يتناسب مع السياق البيانى العام ، ثم يختلف لتصدر الاحداث والاقوال من اصحابها مباشرة على استمرار مانعها حديثا باسم (التمثيلية) ، فيصبح متلقى المشهد كأنه حاضرا وقائمه بنفسه دون واسطة . على نحو ما جاء فى قصة ابراهيم عليه السلام اذ يقدم القرآن مشهد بناء الكعبة فنرى ابراهيم واسماعيل امامنا باشخاصهما بينيان ونسمعهما بالسنتهما يدعوان ، حتى كأنهما معنا فى عصرنا هذا أو كأننا انتقلنا اليهما فى الماضى نعايشهما : " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ . إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (٢).

فالبيان هنا لم يتدخل إلا برفع الستار عن المشهد ، وذلك قول الله تعالى : " إِذْ يَرْفَعُ " فكلما (إذ) هنا تمثل المفتاح الذى ينقلنا إلى الحدث الواقع أو ينقل الحدث ذاته إلينا فنشارك أشخاصه الزمان والمكان والحياة (٣).

٩ - والقرآن فى أكثر قصصه يعتمد على أسلوب الأقمصة فى العرض ، فيسيطر بذلك على الموقف ، لينتقى من الأحداث التى وقعت ما يحقق الهدف ، وينسجها فى إطار فنى لا يخرج عن الحقيقة ، ولا ينبو على الواقع ، فالبيان

(١) سورة القلم : آية ١٧ - ٣٢ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٢٧ - ١٢٩ .

(٣) د . ابراهيم عوضين : البيان القصصى فى القرآن الكريم ، ص ١١٦ .

القرآنى - هنا - يحرك الأشخاص الحركة نفسها التى تحركوها فى الواقع - الماضى ، غير أنه ينتقل بهم فى قفزات ، متجاوزاً من ذلك ما يراه لا يفيد فى الغرض ، فيجمع بذلك بين الصدق الواقعى والصدق الفنى ، إذ لا يتوسل إلى إبراز موضوعه بوسائل مخترعة ينسب فيها إلى أشخاص ما هم منه براء ، ولا يترك ركام الأحداث الجانبية يطغى على الموضوع فيضل المتلقى ، وينأى به بعيداً عن الموقف الحقيقى ، ولذا يغلب على قصصه نسبة الأقوال إلى أصحابها بواسطة (قال)، وقصص ما حدث بما يناسب من وسائل الرواية والسرد القصصى ، على نحو ما جاء فى قصة أصحاب الكهف ، وقصة سليمان ، وقصة يوسف ..

بيد أن تنمية الأحداث فى بعض قصصه تعتمد بالدرجة الأولى على الوصف والتصوير كما توضحه قصة أصحاب الكهف ، وفى بعضها تعتمد بالدرجة الأولى على الحوار كما فى قصة " موسى والعبد الصالح " التى قدمتها سورة الكهف .. وقد يجمع بين الوسيلتين بدرجة متقاربة فى تنمية الأحداث كما فى قصة سليمان وملكة سبا . ونبحث عن السر فى ذلك فنجد أنه يرجع إلى موضوع القصة ، وإلى الغاية منها ، فالقصة التى يقصد بها الوعظ وإرساء قيم خلقية يهتم فيها بالقصص الوامض المستوعب ، والقصة التى يقصد بها إقرار عقيدة أو توضيح فكرة يهتم فيها بالقصص الحوارى ، فتبث فى ثنايا الحوار الخفيف ما يصعب على العقل البشرى استساغته من أفكار وعقائد . فإذا اجتمع فى القصة المقصدان نجدها تقوم على السرد الوامض والحوارى بدرجة تتقارب تقارب المقصدين فيها ، وتتفاوت تفاوتها (١).

ب - وثانية هذه الخصائص الفنية فى عرض القصة ، تلك الفجوات بين المشهد والمشهد ، التى يتركها تقسيم المشاهد و"قص" المناظر، بحيث تتسرك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال ، ويستمتع بإقامة القنطرة

(١) د. إبراهيم عوفين : البيان القصصى فى القرآن الكريم ، ص ١١٧ - ١١٨ .

بين المشهد والمشهد اللاحق ..

وهذه طريقة متبعة في جميع القصص القرآني على وجه التقريب ، ولنضرب عليها مثلاً من قصة يوسف ، فالقصة قد قسمت ثمانية وعشرين مشهداً ، فلنعرض بعض مشاهدتها :

لقد قدم إخوة يوسف وهو " على خزائن الأرض " ، في سنوات الجلب ، يطلبون القمح ، فطلب إليهم أن يحضروا أخاهم الآخر .. شقيقه .. فأحضروه - على كره من أبيه - ثم وضع صواع الملك في رَحْلِهِ وأخذ به رهينة ، باسم انه سارق ، ليلبّيه يوسف عنده .. ثم هاهم أولاء إخوته ينتحون جانباً ليتشاوروا في أمرهم ، وقد أبى عليهم يوسف أن يأخذ أحدهم مكانه : " فَلَمَّا اسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا . قَالَ كَبِيرُهُمْ . أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ . وَمِن قَبْل مَفَرْتُمْ فِي يَوْسُفَ فَلَن أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِيَ . وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَدَابَّتْ إِيَّانَا ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ . وَسَأَلَ الْقُرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " (١) ..

وهنا يسدل الستار ، لنتلقى بهم في مشهد آخر لا في مصر ولا في الطريق ، ولكن أمام أبيهم ، وقد قالوا له ما وصّاهم به أخوهم دون أن نسمعهم يقولونه . إنما يرفع الستار مرة أخرى لنجد أباهم يخاطبهم : " قَالَ : بَلَى سَوَّلْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمَرَ . فَصَبْرٌ جَمِيلٌ . عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا . إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " (٢) ويسدل الستار ..

وهنا نرى مشهداً آخر بين يعقوب وبنيه ، نراه قد ابيضت عيناه من الحزن ، وهو دائم الحسرة على يوسف ، وأبناؤه يستنكرون عليه هذا كله : " وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلَّاسُ عَلَى يُوسُفَ وَأَبِيقَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ " قالوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذْكُرُ يُّوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ .

(١) سورة يوسف : الآيات ٨٠ - ٨٢ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٨٣ .

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ يَلْبَسُونَ
أَزْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِ الشُّرُكَاءَ
بَشَيْءَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ " (١).

وهنا يسدل الستار ، ويطوون الطريق لانعلم عنهم فيه شيئا ، إنما يرفع
الستار فنجدهم في مصر أمام يوسف : " فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا : يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ
مَسْنَا وَآهْلَنَا الضُّرُّ ، وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ . فَأَوْفَلْنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا .
إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَمَدِّحِينَ " (٢).

ج - وثالثة الخصائص الفنية في عرض القصة - التصوير الفني :

إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن . فهو يُعبّر بالصورة
المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس
والمشهد المنظور . وعن الأنموذج الإنساني والطبيعة البشرية . ثم يرتقى بالصورة
التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة . فإذا المعنى
الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا الأنموذج
الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية . فأما الحوادث
والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها
الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل . فمما
يكاد يبدأ العرض حتى يَجِئِلُ المستمعين نظارة ، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح
الحوادث الأول ، الذي وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر ، وتشجـدد
الحركات ، وينس المستمع أن هذا كلام يُتلى ، ومَثَلٌ يُضْرَب ، ويتخيل أنه منظر
يُعرَض ، وحادث يقع . فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال
بشتى الوجدانات ، المنبعثة من الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ، وهـذه
كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتتم عن الأحاسيس المضمرة . إنها الحياة وليسـت
حكاية الحياة ..

(١) سورة يوسف : الآيات ٨٤ - ٨٧ .

(٢) سورة يوسف : آية ٨٨ .

وانظر : سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصوّر المعنى ذهنى والحالة النفسيّة ،
وتشخص الأنموذج الإنسانى أو الحادث المروى ، إنما هي ألفاظ جامدة ، لا ألوان
تصوّر ، ولا شخوص تعبّر ، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في تعبير القرآن (١) .

وبعد لقد استطردنا في تتبع معظم خصائص القصة القرآنية . ولكن مما
لا شك فيه أن قوة العرض والإحياء هي السمة البارزة في مشاهد القصة جميعها .
وأن هذا اللون هو الذى يطبعها ، ويغلب فيها على الألوان الأخرى .

(١) سيد قطب : التمهيد الفنى فى القرآن ، ص ٢٤ .

الفصل الثالث

القصة بين الاكمال والتوزيع فى القرآن الكريم

توزيع القصة فى القرآن الكريم : منهجه وأسلوبه :

يُرد القصص القرآنى فى مواقع ومناسبات ، وهذه المناسبات التى يُساق القصص من أجلها هى التى تحدد مسار القصة ، والحلقة التى تعرض منها ، والصورة التى تأتى عليها ، والطريقة التى تُؤدى بها ، تنسيقاً للجو الروحى والفكرى والفنى الذى تُعرض فيه ، وبذلك تؤدى دورها الموضوعى ، وتحقق غايتها النفسىة ، وتلقى إيقاعها المطلوب (١) .

ولذلك يلاحظ الدارسون للقصة القرآنية أنه لا يُلتزم فيها بالسرد القصصى ، ولكن يلتزم فيها بالوصول إلى الغاية من القصة ، ووفقاً لذلك الالتزام نرى من القصص القرآنية ما تقدّم كاملاً الأحداث والمواقف فى معرض واحد - كما فى قصة يوسف - ومنها ما تقدم فى حلقات ، يَخُصُّ بكل حلقة منها معرض يتطلب هذه الحلقة من القصة فحسب . ولأمانع فى أشياء ذلك من تكرار موقف مشترك بين حلقتين ..

ولاشك فى أن هذا المنهج من أبرز الخصائص الفنية فى القصة القرآنية التى يعجز المخلوق عن مجارات البيان القرآنى فيها ، لِمَا يحوج إلى استجماع القوى الفنية جميعاً فى وقت واحد ، حتى لا يسقط موقف فى معرض أو يزداد موقف ، وحتى يتمكن من إدراك أبعاد المعرض وحصص متطلباته من الأحداث ، والقدرة على حشد تلك الأحداث واستهلالها من القصة بحيث لا يهتز المسار الفنى فيها ، وبحيث لا يتناقض حدث فى حلقة سابقة مع حدث فى حلقة لاحقة (٢) .

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٥٥ .

(٢) د . إبراهيم عوضين : البيان القصصى فى القرآن الكريم ، ص ١٢٥ .

ومن هنا ظن بعض الدراسين أن هنالك تكرار في القصص القرآنى ، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتى ، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة ، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة ، من ناحية القدر الذى يساق ، وطريقة الأداء في السياق ، وأنه حينما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤدبه بنفى حقيقة التكرار (١) .

وعلى الرغم من أن هذه الخصيصة إحدى أسرار الإعجاز القرآنى ، إلا أن هناك من يزعم أن في القصة القرآنية خلقاً للحوادث أو تصرفاً فيها ، يقصد به إلى مجرد الفن - بمعنى التزييق الذى يتقيد بواقع ، وأن الشخصية في القصة القرآنية ليست حقيقية وإنما هي شخصية فنية اخترعها البيان القصصى ، ومن ثمّ فهي في تلك الحلقة غيرها في الحلقة الأخرى وإن اتفقت معها في التسمية ، ومن ثمّ فالأحداث التى تدور في تلك الحلقة لا تمت بملء تاريخية ولا واقعية للأحداث المماثلة لها التى تدور في الحلقة الأخرى ..

والحقيقة أن عرض الشخصية الواحدة في أكثر من معرض ليس تكراراً ، ولا تناقضاً ، وإنما هو - الاستجابة للأحداث والمواقف والغاية من القصة ، لأن الشخصية - كما قررنا من قبل في معرض الحديث عن الشخصية في القصة القرآنية - ليست مقصودة لذاتها ، ولأن عرض الحديث كذلك - ليس مقصوداً لذاته ، وإلا لجمعت كل أحداثها ، ورتبت ترتيباً زمنياً أو فنياً ، ثم ذكرت مع شخصيتها في قصة واحدة .. وإلا أصبح لكل قصة معرض واحد تقدم فيه كاملة الأحداث والمشاهد ، تطلبها المعرض كاملة أو لم يطلبها .. ولم يسر القرآن هذا المسار في قصصه ، ولكنه يعرض للشخصية مع حدث معين من أحداثها فيمزوج بينهما ، ثم يقدم الشخص متفاعلاً بذلك الحدث لاغير ، لترى العظة والعبرة من خلال هذا الأنموذج مع ذلك الحدث ، ثم تنتهى المشاهد المصورة ، وتطوى القصة عند ذلك ، وتنتقل إلى موقف آخر ، فإذا عرض بعد ذلك ما يستدعى هذه الشخصية ذاتها مع حدث آخر رأيت حلقة أخرى - أو قصة أخرى - ذات مضمون جديد وإن تراءت تكراراً لما سبق في سورة أخرى ..

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، ص ٥٥ .

فشبهة التكرار - كما نرى - ما جاءت إلا من تكرار الشخصية ، وعدم

الومى بقيمتها فى القصة القرآنية (١).

ولقد حظى هذا الموضوع بجهود البلاغيين والنقاد قديماً وحديثاً ، واستغرق قدراً كبيراً من جهدهم ، وما من مؤلف فى البلاغة والنقد قديماً وحديثاً إلا تناول هذه الظاهرة فى القصة القرآنية ، ولقد انقسم الباحثون إلى فريقين الأول يرى أن التكرار منهج ثابت من مناهج القرآن ، ولا يوجد فقط فى القصص القرآنية وأنباء الرسل ، وأحاديث الأقوام الغابرين ؛ بل يوجد فى كـل ما تناوله كتاب الله العظيم قياماً بالرسالة التى أسندها الله إليه ، وأنزل آياته من أجلها ، أما الفريق الآخر فينفى التكرار تماماً ، وفيما يلى نوضح أهم آراء هذين الفريقين :

يقول صاحب البرهان : " لقد غلط من أنكر كونه (أى التكرار) مـن أساليب الفصاحة ، ظناً أنه لا فائدة له ، وليس كذلك بل هو من محاسنها ، لاسيما إذا تعلق بعضه ببعض ، وذلك أن عادة العرب فى خطاباتها ، إذا أبهمت بشئ إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه ، أو قصدت الدعاء عليه ، كرّرت توكيده ، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم ، عليه أو الاجتهاد فى الدعاء عليه ، حيث تقصد الدعاء ، وإنما نزل القرآن بلسانهم ، وكانت مخاطبته جارية فيما بين بعضهم وبعض ، وبهذا المثلك تستحكم الحجة عليهم فى عجزهم عن المعارضة . وعلى ذلك يحتمل ماورد من تكرار المواعظ والوعود والوعيد ، لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة ، وكلها داعية إلى الشهوات ، ولا يقيم ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع ، قال تعالى : " وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ " (٢) وبذلك تكون الفائدة العظمى من التكرار هى التقرير ، وقد قيل : الكـلام إذا تكرر تقرر ، وقد أخبر الله سبحانه بالسبب الذى لأجله كرر الأناسيـص والأخبار فى القرآن فقال : " وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ " (٣) ، وقال :

(١) د. إبراهيم عوضين : البيان القصصى فى القرآن الكريم ، ص ١٢٦ .

(٢) سورة القمر من آية ١٧ . وانظر : الزركشى : البرهان . ج ٣ . ص ٩٠ .

(٣) سورة القصص : آية ٥١ .

:"وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا" (١)، وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى ، خشية تناسي الأول ، لطول العهد به . ثم ينتقل " صاحب البرهان " إلى تكرار القصة في القرآن الكريم ، كقصته إبليس في السجود لآدم ، وقصة موسى وغيره من الأنبياء ، ويقول إنما هي تكررت لفائدة ظلت عنه في الموضع الآخر وهي أمور :

أحدهما : أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً ، ألا ترى أنه ذكر الحية (٢) في عصا موسى عليه السلام ، وذكرها في موضع آخر شعباناً (٣) ، ففائدته أن ليس كل حية شعباناً ، وهذه عادة البلغاء ، أن يكرر أحدهم ، في آخر خطبته أو قصيدته كلمة ، لصفة زائدة ..

الثانية : أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله ، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين ، وكان أكثر من آمن به مهاجرين ، فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى آخرين ، وكذلك سائر القصص ، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجمع فيها ، فيكون فيه إفادة القوم ، وزيادة تأكيد وتبصرة ، لآخرين وهم الحاضرون .

الثالثة : تسليته لقلب النبي - صلى الله عليه وسلم - مما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم . قال تعالى : " وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ " (٤) .

الرابعة : أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى مافيه من الفصاحة .

الخامسة : أن الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام ، فلهذا كررت القصص دون الأحكام .

السادسة : أن الله تعالى أنزل هذا القرآن ، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لمحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم ،

(١) سورة طه من آية ١١٣ .

(٢) في قوله تعالى في سورة طه آية ٢٠ " فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى " .

(٣) في قوله تعالى في سورة الأعراف آية ١٠٧ : " فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ " .

(٤) سورة هود من آية ١٢٠ .

بان كرر ذكر القصة فى مواضع ، إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بـأى نظم جاءوا ، بأى عبارة عبّروا ..

السابعة : أنه لما سخر العرب بالقرآن قال : " فَاتُّوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ " (١) وقال فى موضع آخر : " فَاتُّوا بِعَشْرِ سُوْرٍ " (٢) ، فلو ذكر قصة آدم مثلاً فى موضع واحد واكتفى بها لقال العربى بما قال الله تعالى : " فَاتُّوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ " "إيتونا أنتم بسورة من مثله " ، فأنزله سبحانه فى تعداد السور ، دفعاً لحجتهم من كل وجه ..

الثامنة : أن القصة الواحدة من هذه القصص ، كقصة موسى مع فرعون - وإن ظنَّ أنها لاتغاير الأخرى - فقد يوجد فى ألفاظها زيادة ونقصان وتقديس وتأخير ، وتلك حال المعانى الواقعة بحسب تلك الألفاظ ؛ فإن كل واحد لا بد وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه ، لايوقف عليه إلا منها دون غيرها ؛ فكان الله تعالى فرّق ذكرَ مادار بينهما وجعله أجزاء ، ثم قسم تلك الأجزاء على تارات التكرار لتوجد متفرقة فيها ؛ ولو جمعت تلك القصص فى موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة ؛ من انفراد كل قصة منها بموضع ، كما وقع فى القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة ، فاجتمعت فى هذه الخاصة ؛ من نظم القرآن عدة معانٍ عجيبة :

منها : أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع فى اللفظ هجنة ، ولا أحدث ملاً ، فباين بذلك كلام المخلوقين ..

ومنها : أنه ألبسها زيادة ونقصاناً وتقديماً وتأخيراً ، ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها ، فيكون شيئاً معاداً ، فنزّهه عن ذلك بهذه التغييرات ..

ومنها : أن المعانى التى اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة فى تارات التكرير فيجد البليغ - لما فيها من التغيير - ميلاً

(١) سورة البقرة من آية ٢٣ .

(٢) سورة هود من آية ١٣ .

الى سماعها، لما جُبلت عليه النفوس من حب التنقل فى الأشياء المتجددة التى لكل منها حصة من الالتذاد به مستأنفة ٠٠

ومنها : ظهور الأمر العجيب فى إخراج صور متباينة فى النظم بمعنى واحد؛ وقد كان المشركون فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم يعجبون من اتساع الأمر فى تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير أنواع النظم ، وبيان وجوه التاليف ، فعرفهم الله سبحانه بأن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية ، ولا يقع على كلامه عدد ؛ لقوله تعالى : " قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا " (١) ، وكفوله : " وَلَوْ أَكْمَأُفَى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ " (٢) ويرى " الخطابى " : أن التكرار بلاغة. وترك التكرار فى الموضع الذى يستدعيه إخلال بالبلاغة فيقول : " تكرار الكلام على ضربين : أحدهما مذموم ، وهو ما كان مستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغواً وليس فى القرآن شيء من هذا النوع ؛ والضرب الآخر : ما كان بخلاف هذه الصفة ، فإن ترك التكرار فى الموضع الذى يقتضيه وتدعو الحاجة إليه فيه ، بإزاء تكلف الزيادة فى وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار ، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله فى الأمور المهمة التى قد تعظم العناية بها ، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها " (٣)

وقد وقف " القاضى عبد الجبار " عند التكرار فى القصص القرآنى ، وردّ طعن الطاعنين بسببه ، وبيّن أنه من الوجوه التى تجلّت فيها براعة القرآن وظهر فيها إعجازه ، كما بيّن أن هذا التكرار كان تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتشبيهاً لفؤاده على مدى ثلاث وعشرين سنة هى مدة نزول القرآن ، كما

(١) سورة الكهف : آية ١٠٩ .

(٢) سورة لقمان من آية ٢٧ .

انظر : الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى : البرهان فى علوم القرآن

ج ٣ ، ص ٢٦ - ٢٨ .

(٣) الخطابى : بيان إعجاز القرآن . ص ٥٢ .

ذكر أن التكرار المعيب هو ما يكون في الموطن الواحد أما إذا تعددت مواطنه فإنه بلاغة وفصاحة . ولهذا قال تعالى : " وَكَلَّا نَقْصَّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِيَتْ بِهِمْ فَوْادِلُكَ " (١) .

كما يرى " القاضي عبد الجبار " أنه قد يكون السرف في هذا التكرار في قصص القرآن ، أن يكون تسجيلاً لكلام السابقين ، والأحداث التي وقعت لهم ، فيكون هذا التكرار مختصاً بكل حالة ، فيقول في ذلك : " على أن كثيراً مما ذكره الله تعالى في قصص الأنبياء المتقدمين ، لا يمتنع أن يكون تكرر منهم في أوقات ، فكان ذكره بحسب تكرراره ، وذلك مما يدل على عظم شأن القرآن أيضاً " (٢) .

ويقول " مصطفى صادق الرافعي " في تعليقه على هذه الظاهرة : " لقد خفى هذا المعنى (التكرار) على بعض الملحدين وأشباههم ومن لانفاد لهم فسر اسرار العربية ومقاصد الخطاب والتأني بالسياسة البيانية إلى هذه المقاصد ، فزعموا به المزاعم السخيفة وأحالوه إلى النقص والوهن ، وقالوا إن هذا التكرار ضعف وضيق من قوة وسعة ، وهو - أخزاهم الله - كان أروع وأبلغ وأسرى عن الفصحاء من أهل اللغة والمتصرفين فيها ، ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيروه لو كان عيباً " (٣) .

ويقول أيضاً : وفي بعض ذلك التكرار معنى آخر فطن إليه بعض علمائنا ولم يكشف لهم عن سره ، وأول من نبّه عليه الجاحظ في كتاب (الحيوان) إذ قال " ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب ، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى والحذف ، وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام " (٤) .

-
- (١) سورة هود : من آية ١٢٠ .
 - (٢) القاضي عبد الجبار : المغنى ص ٤٠٠ . تحقيق : أمين الخولى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .
 - (٣) مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن ، ص ١٩٤ .
 - (٤) المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

سابقہ من، دل

۱۰

وهكذا في كل ماتقدم رأينا البلاغيين يتفنون على بلاغة ما جاء في القرآن الكريم من آياته وقصصه مكرراً في أكثر من موطن ومردداً في أكثر من موضع ، وأن تكرار القصة الواحدة في القرآن الكريم وثيق الصلة بمنهج القصة ، إذ هو يخدم غرضين في آن واحد :

١ - غرض فني :

ويتمثل في تجديد أسلوبها إيراداً وتمويراً ، والتفنن في عرضها إيجازاً وإطناباً ، والتنوع في أدائها لفظاً ومعنى ..

٢ - غرض نفسي :

وذلك بما له من تأثير في النفوس ، لأن المكرر ينطبع في تجاويـف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها كما هو مقرر في علم النفس (١) :

ومن آراء الفريق الآخر الذي لا يقر بوجود التكرار مطلقاً في القرآن الكريم نستعرض رأي الدكتور " محمد أحمد خلف الله " الذي يذهب إلى أن عجز العقل الإسلامي عن أن يفهم الأسرار التي من أجلها كان التكرار يرجع إلى أنه اعتمد المذهب التاريخي في فهم القصة القرآني ، ومن هنا رأى الكثيرون عند القصص القرآني من الآيات المتشابهات . يقول الطبري (المتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار فقيمة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني) .

ويقول : " ولو أن العقل الإسلامي أقام فهمه للقصص القرآني على أساس فني وأدبي لما وقف هذه الوقفة ولعرف منذ اللحظة الأولى الذي عدّه تكراراً ليس من التكرار في شيء لأن هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص ، وأن مقاصد القرآن من مواظ وعبر ومن إنذارات وبشارات تختلف في موطن عنها في آخر ، ومن هنا كان الاختلاف . لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى اختلاف الصور

(١) د. التهامي نفرة : سيكولوجية القصة في القرآن ، ص ١١٦ .

الأدبية .. فقص القرآن من قصة موسى في سورة " طه " غيره من قصة موسى في سورة " النمل " ، وقصة موسى في سورة " طه " قصة مستقلة ، وقصته في سورة " النمل " قصة مستقلة . ومن الوجهة الأدبية هذه قصة وتلك قصة أخرى . وعلى هذا فلا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه " (١) .

وأما من رآه في وَحْدَةِ الشخصية فيقول : " ليس من شك في أنك لاتستطيع أن تغلب الاتفاق في الشخصية على بقية العناصر القصصية ، من خلاف في المقاصد والأغراض ، واختلاف في الصور والألفاظ ، واختلاف في النسق والترتيب ، واختلاف في فن البناء والتركيب - ومن هنا نحس أن الاختلاف القائم على أساس الأحداث أيضا يزول ، فكون البشارة بالغلام مرة لسارة وأخرى لإبراهيم عليه السلام لايعتبر من الاختلاف لأن هذه قصة وتلك قصة ، وكذلك غير هذا المثال من آيات القصص الذي يتغاير فيه التعبير " (٢) .

ويقول : " إن هذا الوجه من الرأي يبطل ذلك القول الخاطئ الذي يقول به المستشرقون من تطور الشخصية القصصية في القرآن الكريم بتطور أغراض النبي عليه السلام ودوافعه والظروف المحيطة به والمناسبات التي تدعوه إلى بعض المواقف . ذلك التطور الذي يمثلون له ما حدث في شخصية إبراهيم عليه السلام ، لأن أساس هذا القول أن الْوَحْدَةَ القصصية تقوم على وَحْدَةِ الشخصية وهو قول باطل ، يريحنا منه تقرير أن هذه الْوَحْدَةُ ، إنما هي وحدة الغرض والعبرة لا وحدة الشخص ، ومن هنا تكون هذه قصة وتلك قصة ، وتكون أقاصيص متعددة لشخص واحد عن موقف واحد ، لتعدد الأغراض واختلاف صور العرض باختلاف المقصد والغرض " (٣) .

(١) د. محمد أحمد خلف الله : الفن القصص في القرآن الكريم ، ص ٣٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٩٧ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٩٧ .

وغنى عن البيان أن المقدمة التى بنى عليها " الدكتور خلف الله " حكمه فى عدم التزام القرآن الكريم للواقع فى قصصه غير صحيحة . والمقدمة تتمثل فى إقراره بوجود مفارقات بين ما يكرر من أحداث القصة الواحدة ، وسوف ندفع هذه الشبهة عند عرضنا لقصة موسى موزعة فى إحدى عشرة سورة من سور القرآن الكريم ، لننفي وجود هذه المفارقات التى لا يبررها على افتراض وجودها ما يقتضيه العمل الفنى والأدبى من تصرف فى عناصر الأحداث أو الشخصية . لأن هذا - وإن جاز فى القصص الأدبى التاريخى - لا يجوز بحال فى القصص القرآنى والله تعالى يقول : " لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ . مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى " (١) .

إن الجمال الفنى فى قصص القرآن لا يعتمد على الخلق والابتكار والخيال ، ولكن على صدق الرواية ، وإبداع العرض ، وجمال الأداء .

أما من ناحية الوَحْدَةِ القصصية فيقول " الدكتور خلف الله " باستحالة الجمع بين ماجاء من قصة إبراهيم عليه السلام مفرقاً بين سور " البقرة " و " هود " و " الأنبياء " فى وَحْدَةٍ قصصية وكذلك قصص غيره من الأنبياء .

ولقد انطوى هذا القول على مغالطات جسيمة لأن الوَحْدَةَ القصصية ، حسب ما نعرف عليه النقاد - " هى وَحْدَةٌ بطل القصة أو وَحْدَةٌ موضوعها ، ووحدة البطل هنا هى " إبراهيم " فى سورة البقرة ، فى بداية نبوته عندما أراد أن يطمئن قلبه فسأل ربه برهاناً على كيفية البعث ، وهى " إبراهيم " أيضاً فى سورة الأنبياء عندما أراد أن يرفع بين أعين قومه برهاناً على ضلالهم فى عبادة الأصنام : " فَجَعَلَهُمْ جَذَادًا ، إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ " (٢) وكاد ينجح فى مهمته مع قومه لولا أنهم نكسوا على رؤوسهم ٠٠ وهى " إبراهيم " أيضاً ، فى سورة مريم حينما رأى نفسه عاجزاً عن هداية أبيه وهو أقرب الناس إليه وأكرمهم عليه إلى الإيمان بدعوته " (٣) .

(١) سورة يوسف من آية ١١١ .

(٢) سورة الأنبياء من آية ٥٨ .

(٣) د. السيد تقى الدين : من الوجهة الأدبية فى دراسة القرآن الكريم ، ص ١٧٤ .

أما وحدة الموضوع فهي بالجملة طلب " إبراهيم " وهو يباشر دعوتـــه أن يقتنع هو بها بينه وبين نفسه ، ثم محاولته أن يقنع بها قومه ثم عجزه عن إقناع أبيه وماتخلل ذلك من إلقاءه في النار ، وإقدامه على ذبح إسماعيل ونجاته من النار ونجاة ابنه من الذبح ، وهجرته إلى مكة مع زوجته هاجر وبناء الكعبة وأخيراً مشيئة الله وقدرته في الهداية والإرشاد .. هذه هي الوَحْدَةُ القصصية في قصة إبراهيم ومثلها في قصص الأنبياء (١). وأما مَنْ يقول بالتعارض في قصص القرآن من المحدثين ، فإنما يعنى تناقضاً ، في حين أن التناقض معدوم ، لانعدام شروطه المتفق عليها عند علماء المنطق : وهي الاختلاف بين قضيتين في الكم والكيف والجهة ، والاتفاق بينهما في وَحَدَات ثمانية : الموضوع والمحمول والزمان والمكان بالإضافة والشروط والقوة والفعل والجزء والكل (٢).

وإذا أمعنا النظر فيما يبدو لنا من اختلاف بين سورتين أو أكثر في القصة القرآنية الواحدة على ضوء هذه القاعدة المنطقية ، فلا بد أن نهتدي إلى انعدام وَحْدَةٍ فأكثر من تلك الْوَحَدَات التي لا يكون التناقض إلا بتوفرها معاً . وإذا فلا تناقض .. وذلك ما أردنا توضيحه فيما يتعلق بقضية قد شغلت حياً في فكر المفكرين والباحثين نظم منها في النهاية إلى أن ماتوهمه البعض من أنه تكرار لا ينقص من عظمة وإعجاز القصص القرآني كما نود أن نقول أن التكرار لم يقع مطلقاً في قصص القرآن الكريم ، وإنما التكرار وقع على بعض الحقائق في القصة ليس فيها كلها ورود القصة الواحدة - في معظم الحالات - مكررة في مواضيع شتى لا يتناولها كلها - غالباً - إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ومعظمه إشارات لموضع العبرة فيها أما جسم القصة كلها فلا يكرر إلا نادراً ، ولمناسبات خاصة في السياق اقتضاها الموقف الذي نزلت فيه ، وهذا ما يؤكد علماء التفسير عند ذكرهم أسباب النزول لكل قصة على حدة ،

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

(٢) سعد الدين التفتزاني : تهذيب المنطق . ص ١٥٦ - مصر ١٣١٥ هـ .

وإن كانت جميعها متداخلة أو تمثل مرحلة واحدة .. وأن الإنسان حين يقرأ هذه الحلقات المكررة من القصة الواحدة ملاحظاً السياق الذى وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً فى اختيار الحلقة التى تعرض هنا أو هناك ، وفى طريقة عرضها كذلك ، على أن هناك ما يشبه أن يكون نظاماً مقررأ فى عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة .. ويتضح هذا حين تُقرأ بحسب ترتيب نزولها - فمعظم القصص يبدأ بإشارات مقتضبة ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً ، ثم تعرض حلقات كبيرة تكوّن فى مجموعها جسم القصة - وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكثيرة عند المناسبات - حتى إذا استوفت القصة حلقاتها عادت هذه الإشارات هى كل ما يُعرض منها (١) .

وفيما عدا التحليل النادر الذى يكرر بلفظه لهدف مقصود، نجد أن الظاهرة الحقيقية ليست هى " التكرار " وإنما هى التوزيع أو التنويع ، ولنتتبع ذلك فى بعض قصص القرآن :

١ - لنتأمل معا قصة " موسى عليه السلام " فى معارضها المختلفة استيضاحاً عند التزام البيان القرآنى لمنهجه ، وتقديراً لتلك الخصيصة الفنية فى القصص القرآنى نلاحظ :

(١) إن المواطن القرآنية التى ذكرت فيها قصة موسى - لا موسى فحسب - تبلغ إحدى عشرة سورة وهى : (البقرة - المائدة - الأعراف - يونس - الكهف - طه - الشعراء - النمل - القصص - غافر - النازعات) منها سورتان مدنيّتان هما (البقرة والمائدة) ..

ويلاحظ أن ما جاء فى البقرة إنما هو فى ثنايا قصة بنى إسرائيل الممتدة عبر تاريخ طويل مع موسى وغير موسى ، فذكر طرف من قصة موسى معهم فى سورة البقرة جاء عَرَضاً فى أثناء تذكير الله إياهم بما كان منه من إكرام لهم ، وما كان منهم من عنادٍ وصِدْرٍ عن دين الله ، وكفران بأنعم الله سبحانه : " وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ " (٢) .

(١) د. حفنى محمد شرف : إعجاز القرآن البيانى ، ص ٣٠٦ .
وانظر أيضاً : سيد قطب : التفسير الفنى فى القرآن ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) سورة البقرة : آية ٥٠ .

وقد وردت تفصيلات هذه النجاة في السور المكيّة التي نزلت من قبل .
أما هنا فهي مجرد التذكير لقوم يعرفون القصة . سواء من القرآن المكيّ ،
أو من كتبهم وأقاصيصهم المحفوظة . إنما يذكرهم بها في صورة مشهد ، ليستعيدوا
تصورها ، ويتأثروا بهذا التصرّ ، وكانهم هم الذين كانوا ينظرون إلى فرق
البحر ، ونجاة بنى إسرائيل بقيادة موسى - عليه السلام - على مشهد منهم -
ومرأى ، وخاصة الاستحياء هذه من أبرز خصائص التعبير القرآني العجيب (١) .

(ب) إن السور التي تعرضت لقصة موسى قدمت منها عشرين مشهداً هي :

- ١ - ما أحاط بولادة موسى من أحداث ودفع فرعون إلى تقتيل من يولد ذكراً
لبنى إسرائيل .
- ٢ - خوف الأم على وليدها وما أوحى به الله إليها .
- ٣ - وقوع موسى في يد فرعون وموقف امرأته منه .
- ٤ - إشفاق أمه عليه وبحبها عنه .
- ٥ - إعادته إليها لترضعه بعد أن يمتنع عن المراضعات .
- ٦ - بلوغه مرحلة الشباب وما كان منه في تلك الفترة ، من معاونة الإسرائيليين
على قتل المصري ، ثم فراره حين علم باثتار القوم به .
- ٧ - اتجاهه إلى مدين ، والتقاؤه بشيخ مدين ، وتزوجه إحدى ابنتيه .
- ٨ - عودته إلى مصر بأهله ومواقع في رحلة العودة .
- ٩ - تكليفه بالرسالة ، وتخوفه من لقاء فرعون ، وطلبه من الله أن يعينه -
بهارون أخيه .
- ١٠ - مواجهة موسى لفرعون .
- ١١ - إيمان السحرة .
- ١٢ - خروج موسى ببني إسرائيل من مصر ، وتعقب فرعون لهم .
- ١٣ - مطالبة بنى إسرائيل موسى أن يجعل لهم صنماً .

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٧١ .

- ١٤ - دعوتهم إلى دخول الأرض المقدسة .
- ١٥ - معاقبتهم بالتيه .
- ١٦ - خروج موسى لميقات ربه مستخلفاً هارون في قومه .
- ١٧ - لقاء موسى بربه وعودته .
- ١٨ - غضب موسى لاتخاذ بنى إسرائيل العجل .
- ١٩ - طلبهم رؤية الله جهرة .
- ٢٠ - استسقاء موسى لقومه .

هذه هي قصة موسى مع بنى إسرائيل من مبدئها إلى منتهاها، وهي لـم تات كاملة في موضع واحد من القرآن الكريم ، بل اشتملتها إحدى عشرة سورة ، واختتمت كل سورة بعدة مشاهد منها - على حسب ما يقتضيه السياق - بحيث تبدو في تفردا قصة مستقلة متكاملة البنيان واضحة الحدود .

فإذا أخذنا كل حلقة من تلكم الحلقات ، ونسقناها مع غيرها، رأينا القصة الشاملة لحياة موسى كلها مع بنى إسرائيل ، متكاملة البنيان ، متلاحمة النسيج ، تربطها الوحدّة بمختلف مظاهرها - على الرغم من توزعها هذا التوزع- سواء وحدّة الموضوع ، أو وحدّة السياق التعبيري ، أو وحدّة الجو النفسى دون أن نرى فيها تكرارا ، أو تحتاج إلى توضيح أو تبين ، وهذا إكـام وقدرة لا طوق لمخلوق على السير في طريقها (١) .

وسنكتفى فيما يلي بعرض المشاهد السبعة الأولى (من الولادة إلى البعث) وسنجد أنها قدّمت في سورتين في معارض مختلفة ، وبتفاوت فيما بين كل موضع ، هما سورة (طه) وسورة (القصص) .

أما لقطات (القصص) فيبرزها قوله تعالى :

١ - " إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَفْعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذِيعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ . إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُفْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُفَصِّلُ لَهُمْ فِي

(١) د . إبراهيم عوضين : البيان القصصى في القرآن الكريم ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

الْأَرْضِ ، وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ " .

٢ - " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالَتْ فِي الْيَمِّ
وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ " .

٣ - " فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ
وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ
عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا . وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ " .

٤ - " وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِيدًا إِنْ كَانَتْ لِتَبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهَا لَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ " .

٥ - " وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَافِعَ مِنْ قَبْلُ . فَقَالَتْ : هَلْ آدَلَكُمُ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ
يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ . فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ
أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " .

٦ - " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ
هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْلَبَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ
فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُخِلٌ مُبِينٌ
قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ
رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا
يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْنِ يَسْتَصْرِخُهُ . قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ
فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي
كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْنِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ
مِنَ الْمُصْلِحِينَ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ
يَأْتِمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ .
قَالَ : رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " .

٧ - وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ
 وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ
 تَذَوَّدَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَقِي حَتَّى يَمُوتَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ
 كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ
 فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
 أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ . قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبَاطُي اسْتَعْجِرْهُ . إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ
 قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجْتُ
 أَثَمْتُ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمُتَّكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ
 الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ . أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ . وَاللَّهُ
 عَلَيَّ مَانِقُولٌ وَكَيْلٌ " (١)

ولفظات (طه) تبرزها قوله تعالى :

- ٢٠١ : " وَلَقَدْ مَنَّاَ عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى . إِذْ أَوْحَيْنَاَ إِلَيْكَ مَا يُوحَى ، أَنْ
 اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ " .
 ٢ : " فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ . وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً
 مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي " .
 ٤ : " إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ " .
 ٥ : " فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ " .
 ٦ : " وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا " .
 ٧ : " فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ " (٢)

واضح من هذه النظرة ما بين الحلقيتين من اختلاف بيِّن ، يقرره السياق : فالمشاهد
 في سورة القصص ، بناء قصص مقصود ليرى بنو إسرائيل منها فضل الله عليهم ،
 ويرى فيها غير بنو إسرائيل أنموذجاً بشرياً يحركه الصراع بين الحق والباطل ،

(١) سورة القصص : الآيات من ٤ - ٢٨ .
 (٢) سورة طه : الآيات من ٣٧ - ٤٠ .

ولكن الله يتدخل المرة بعد الأخرى ليوجه الصراع فى الواجهة التى تحقق النصر فى النهاية للحق وأمواله ..

أما فى سورة " طه " فالمشاهد لاتعدو أن تكون إشارات سريعة تلفت نظر موسى إلى وقوف الله بجانبه فيما سبق ، مما يؤكد له أنه سبحانه سوف يكون بجانبه فى كل خطوة تالية مهما بدا فيها من صعوبات ومشقات ، ولذلك فـبيان هذه المشاهد إنما جاءت بعد أن كُلف موسى بتبليغ فرعون ما أرسل به إليه ، فابدى موسى عليه السلام تخوفه من فرعون ، وطلب من الله أن يشد أزره بهارون أخيه ، فاستجاب له الله ممتناً عليه بفيض نعمه المتوالى ، مشيراً بذللك إلى ما يستوجبه من تفجيات ، فى سبيل الله المنعم الكبير (١).

فهى كما نرى - ليست تكراراً للقصة ، ولكنها عدة إشارات اعترضت قصة موسى فى سورة " طه " لما ذكرت من أسباب - ثم هى - كما نرى - حديث خاص إلى موسى عليه السلام يذكره بقدرة الله التى لاتتناهى ولا تحد . ومن ثم كانت تلكم اللقطات مجملة إجمالاً عجيباً . بحيث لا يكاد الإنسان يحس بأن هناك فاصلاً اعترض مسار الأحداث الطبيعى ، وبحيث لاتسير المشاهد فى طريق قلق ، وإن كان هو المسار الطبيعى ، فلوزالت هذه اللقطات بعض التفصيل لانقطع الخيط الذى يربط القارئ بالقصة الأصلية ، ولو أُجملت اللقطات أكثر من ذلك - وهو غير ممكن البتة - أو حذفت وسارت القصة فى طريقها من غير اعتراض لأصبحت القصة قلقلة ، ولأصبح بناؤها مهلهلاً (٢).

لاشك أن توزيع القصة الواحدة فى عدة سور يؤدى إلى اختلاف عوامل التأثير فى النفس الإنسانية ، وذلك لتجدد الأسلوب فى الأداء تجدداً يمد الشاعر بنشاط لايفتر . فهذا عرض جديد لقصة " نوح " فى سورة (القمر) ، وقد سبقت لإنداز المقرئين عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم - بما أصاب قوم " نوح "

(١) د. إبراهيم عوضين : البيان القمى فى القرآن الكريم ، ص ١٣٩ - ١٤١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

أول المكذبين برسالات السماء - من نكال وعذاب . وهى فى هذه السورة الحلقة الأولى من خمس حلقات جُسمت كلها مصارع قوم نوح وعاد وشمود ولوط وفرعون فى جو مفرع رهيب :

" كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ .
فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا
الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ .
تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ . وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ . فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَتُذَرٍ ؟ " (١) .

وأخص ما يمتاز به أسلوب العرض هنا : الإيجاز البليغ ، والإيقاع الموسيقى السريع ، ولا شك أن للرنين الصوتي أثره القوي في تصوير الحادثة ، شأن القصص الذي نزل في الفترة الأولى للدعوة . فقد كان يعتمد على الإيجاز والموسيقى اللغوية الأخاذة ، وإبراز الحوادث لزلزلة المشركين من موقف العناد . وقد ذكر الله قصة نوح وما كان من قومه في عشر سور ، وهذا التوزيع مضمود في القرآن ، لأنه ليس الغرض من عرض القصة القرآنية تعليم التاريخ منها ، بل بناء الأفكار والمشاعر عليها في شتى المناسبات ، وبمختلف الأساليب . "ولاشك أن ذكر جانب من القصة في سورة لم يذكر في سورة أخرى أثناء عرضها لتلك القصة نفسها ، هو من سمات المنهج القرآني في القصة باقتصارها على موطن القصة منها ، واختلاف المناسبات التي تعرض فيها يسمح بإعادة ذكرها أو ذكر حلقة منها بأسلوب يلائم تلك المناسبة . وهو ميدان فسيح للتصوير الفني والقيم التعبيرية ، وتفنن القرآن في المعاني باختلاف طرق أدائها وأساليب عرضها هو من آيات إعجازه البياني" (٢) .

(١) سورة القمر : آيات من ٩ : ١٦ .
(٢) د . التهامي نفرة : سيكولوجية القصة في القرآن ، ص ٥٠٧ .

- "وتوزيع القصة الواحدة في القرآن الكريم في عدة سور هو من آثار خضوعها للغرض الديني ، حيث تعرض بالقدر الذي يكفى لأداء هذا الغرض ، ومن الحلقة التي تتفق معه ، فمرة تعرض القصة من أولها ، ومرة من وسطها ، ومرة من آخرها ، وتارة تعرض كاملة ، وتارة يكتفى ببعض حلقاتها ، وتارة تتوسط بين هذا وذاك ، حسبما تكون العبرة في هذا الجزء أو ذاك ، على النحو التالي :

١ - نجد قصصاً تعرض منذ الحلقة الأولى : حلقة ميلاد بطلها ، لأن في مولده عظة بارزة وذلك مثل : قصة آدم (منذ خلقه) وفيها مظهر لقدرة الله ، وكمال علمه ، ونعمته على آدم وبنيه .. ومثل مولد "عيسى ابن مريم" : وهو يعرض بتفصيل كامل ، ذلك أن مولده هو الآية الكبرى في حياته ، وحول هذا المولد قام الجدل كله ، وعنه تفرعت كل قضايا المسيحية قبل الإسلام وبعده ... ولقمة " مريم " : فقد نُذِرَتْ لله وهي في بطن أمها ، وتولى كفالتها زكريا ، ثم رزقت منذ مولدها رزقاً حسناً من عند الله ، فكانت " كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا . قَالَ : يَمْزِيغُ آتِي لَكَ هَذَا ؟ قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ " (١) ... ثم تطوى حلقاتها حتى تأتي حلقة ميلاد عيسى ، وهي الحلقة المهمة الثانية في حياته ، وقصة " موسى " : لأن لمولده في عهد اضطهاد بني إسرائيل ، وتذبيح الذكور من أطفالهم ، ونجاته هو من ذلك مع وجوده بين آل فرعون أنفسهم ... قيمة خاصة في بيان رعاية الله له ، وإعداده إعداداً خاصاً للمهمة التي سينهض بها ، ثم تعرض من حياته حلقاتها ذات المغزى .. و" إسماعيل " و" إسحاق " تعرض حلقة مولدهما ، لأن في هذا المولد عبرة . فأولهما رزقه إبراهيم على الكبر ، وأسكنه - على الرغم منه - بجوار البيت المحرم ، والثاني بُشِّرَ به وامراته عجوز . وقد بلغ من الكبر عتياً - وكذلك يذكر مولد يحيى لزكريا ، بعد أن وهن منه العظم واشتعل الرأس شيباً " (٢) .

(١) سورة آل عمران من آية ٣٧ .

(٢) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

ب - ونجد قصصاً أخرى تعرض من حلقة متأخرة نسبياً : فإبراهيم تبسداً لصلته فتى ينظر فى السماء فيرى نجماً ، فيظنه إلهه ، فإذا أفل قال لأحسب الأفلين . ثم ينظر مرة أخرى فيرى القمر ، فيظنه ربه ، ولكنه يأفل كذلك ، فيتركه ويمضى . ثم ينظر إلى الشمس فيعجبه كبرها ، ويظنها - ولاشك - إلهاً ، ولكنها تخلف ظنه هى الأخرى ، فيفنى إلى ربه الذى لا يرى . . ويدعو أبــــاه وقومه إلى هذا الإله الواحد فلا يجيبونه ، فيحطم أصنامهم فى غفلة منهم حيث يقولون : " سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يَقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ " (١) ، ويهمون بإحراقه ، فهنجبه الله منهم : " قُلْنَا : يَسَارُ كُونِى بَرْدًا وَتِلْمَأَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ " (٢) .

ج - ثم نجد قصصاً لاتعرض إلا فى حلقة متأخرة جداً : فنوح وهــــود وصالح ولوط وشعيب ، وكثيرون غيرهم ، لاتعرض قصصهم إلا عند حلقة الرسالة ، وهى الحلقة الوحيدة التى تعرض من حياتهم ، لأنها أهم حلقة منها ، والعبارة كامنة فيها (٣) . .

- وتوزيع القصة الواحدة فى عدة سور من القرآن الكريم كان من دوافعه التناسق المعنوى والنفسى بين القصص التى يعرضها القرآن والسياق الذى يعرضها فيه ، وانسجام مرضها فى هذا السياق مع الغرض الدينى والمظهر الفنى سواء بسواء (٤) .

فالله سبحانه وتعالى ذكر قصة قوم نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى فى سورة (الأعراف ، وهود ، والشعراء) ولم يذكر معهم قصة إبراهيم ، وإنما ذكرها فى سورة (الأنبياء ، ومريم ، والعنكبوت ، والصفات) . والسرى فى ذلك أن تلك السور الأولى ذكر الله فيها نصر رسله بإهلاك قومهم ، ونجاء الرسل وأتباعهم . وهذه السور لم يقتصر فيها على ذكر من أهلك من الأمم ، بل كان المقصود ذكر الأنبياء ، وإن لم يذكر قومهم ، ولهذا سميست

(١) سورة الأنبياء من آية ٦٠ .

(٢) سورة الأنبياء : آية ٦٩ .

(٣) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، ص ١٣٦ .

(٤) المرجع السابق . ص ٧٦ .

سورة الأنبياء ، فذكر فيها إكرامه للأنبياء ، وبدأ فيها بقصة إبراهيم ، إذ كان الملقود ذكر كرامته الأنبياء قبل "محمد" ، و"إبراهيم" أكرمهم الله ، وهو خير البرية ، وهو أب أكثرهم ، وليس هو أب نوح ولوط ، ولكن لوط ممن آتاه ، وأيوب من ذريته ، بدليل قوله تعالى في سورة الأنعام : " وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ " (١) .

وأما سورة (العنكبوت) ، فإنه سبحانه وتعالى ذكر فيها امتحانه للمؤمنين ، ونصره لهم ، وحاجتهم إلى الجهاد ، وذكر فيها حسن العقابة لمن صبر ، وعاقبة من كذب الرسل ، فذكر قصة إبراهيم ، لأنها من النمط الأول . وكذلك في سورة الصافات قال فيها : " وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ . فَنَظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ " (٢) ، وهذا يقتضى أنها عاقبة رديئة ، إما بكونهم غلبوا ودلّوا ، وإما بكونهم أهلكوا ، ولهذا ذكر قصة " إلیاس " دون غيرها ، ولم يذكر إهلاك قومه ، بل قال " فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُخْضَرُونَ " (٣) . وقد روى أن الله رفع " إلیاس " ، وهذا يقتضى عذابهم في الآخرة ، فإن " إلیاس " لم يقيم بينهم ، و" إلیاس " المعروف بعد " موسى " من بنى إسرائيل ، وبعد " موسى " لم يهلك المكذبين بعذاب الاستئصال ، وبعد " نوح " لم يهلك جميع النوع ، وقد بعث الله في كل أمة نذيراً ، والله سبحانه لم يذكر عن قوم إبراهيم أنهم أهلكوا ، كما ذكر ذلك عن غيرهم ، بل ذكر أنهم ألقوه في النار ، فجعلها برداً وسلاماً ، وفي هذا ظهور برهانه وآياته ، حيث أدلهم ونصره ، " فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَشْقَالِينَ " (٤) . وهذا من جنس المجاهد الذى يعرض عدوه ، والقصص الأول من جنس المجاهد الذى قتل عدوه ، وإبراهيم بعد هذا لم يقم بينهم بل هاجر وتركهم ، وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين أظهرهم حتى هلكوا ، ولم يوجد فى حق " إبراهيم " سبب الهلاك ، وهو إقامته فيهم ، وانتظار العذاب النازل ، وهكذا " محمد " صلى الله عليه وسلم - مع قومه ، لم يقم فيهم ، بل خرج عنهم حتى أظهره الله عليهم بعد ذلك ،

- (١) سورة الأنعام من آية ٨٤ .
- (٢) سورة الصافات : الآيات ٧٢، ٧٣، ٧٤ .
- (٣) سورة الصافات : آية ١٢٧ .
- (٤) سورة الصافات : آية ٩٨ .

و"محمد" و"إبراهيم" أفضل الرسل ، فإنهم إذا علموا حصل المقصود ، وقد يتوب منهم من تاب ، كما جرى لقوم " يونس" ، فهذا التناقض الفني والموضوعي - والله أعلم - هو السرفى أنه سبحانه لم يذكر قصة (إبراهيم) مع هؤلاء ، لأنها ليست من جنس واقعتهم (١) .

فان قيل : فما وجه الخصوصية بمحمد وإبراهيم بذلك ؟

فالجواب : أما حالة " إبراهيم " فكانت إلى الرحمة أميل ، فلم يسع في هلاك قومه لا بالدعاء ولا بالمقام ودوام إقامة الحجة عليهم ، وقد قال الله تعالى : " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَتُسَكِّنَنَّكَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ " (٢) ، وكان كل قوم يطلبون هلاك نبيهم فعوقبوا ، وقوم إبراهيم وإن أوصلوه إلى العذاب ، لكن جعله الله عليه برءاً وسلاماً ، ولم يفعلوا بعد ذلك ما يستحقون به العذاب ، إذ الدنيا ليست دار الجزاء العام ، وإنما فيها من الجزاء ما تحصل به الحكمة والمصلحة ، كما في العقوبات الشرعية ، فمن أرادوا عداوة أحد من أتباع الأنبياء ليهلكوه فعصمه الله ، وجعل صورة الهلاك نعمة في حقه ، ولم يهلكك أعداءه بل أخزاهم ونصره ، فهو أشبه بإبراهيم عليه السلام ، إذ عصمه الله من كيدهم وأظهره حتى صارت الحرب بينهم وبينه سجلاً ، ثم كانت له العاقبة فهو أشبه بحال محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن محمداً سيد الجميع ، وهو خليل الله ، كما أن إبراهيم عليه السلام خليله ، والخيلاان هما أفضل الجميع ، وفي طريقتهما من الرأفة والرحمة ما ليس في طريق غيرهما (٣) .

ومن دوافع توزيع القصة الواحدة في القرآن الكريم ، بيان ماليـس

بين في نفسه : ومنه قوله تعالى :

(١) الزركشى : البرهان في علوم القرآن ، المجلد الثالث ، ص ٣١٣ و ٣١٠ .

(٢) سورة إبراهيم : ١٤ و ١٣ .

(٣) المرجع السابق : ص ٣٢ .

١ - فى قصة لوط : " فَأَشْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ

مِنْكُمْ أَحَدٌ ، وَأَمْضُوا حَيْثُ تَوَّعَدْتُمُوهُمْ " (١) ، فلم يستثن امرأته

فى هذا الموضوع ، وهى مستثناة فى المعنى بقوله

فى الآية الأخرى :

" فَأَشْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ " (٢) ،

فأظهر الاستثناء فى هذه الآية .

ب - فى قصة ضيف إبراهيم : إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَامًا . قَالَ :

إِنَّمَا مِنْكُمْ وَجِلُونَ " (٣) ، اختصر جوابه لبيانته فى موضع آخر : " فَقَالُوا : سَلَامًا .

قَالَ : سَلَامٌ " (٤) .

ج - فى قصة " صالح " مع ثمود : " وَلَقَدْ أَزْ سَفْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ

صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ " (٥) ، تفسير هذا الاختصام

ما قال فى سورة أخرى : " قَالِ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا

لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ : اتَّعَلَمُونَ أَنْ صَالِحًا مَّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِمْ ... " (٦) .

د - وقوله تعالى فى قصة نوح عليه السلام : " إِنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ " (٧)

بين فى موضع آخر : " وَتَمَرَّضَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا " (٨) .

هـ - وقوله حكاية عن فرعون لعنه الله : " وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ

الرَّشَادِ " (٩) . فرد عليه فى قوله : " وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ " (١٠) .

(١) سورة الحجر : آية ٦٥ .

(٢) سورة هود من آية ٨١ .

(٣) سورة الحجر : آية ٥٢ .

(٤) سورة الذاريات من آية ٢٥ .

(٥) سورة النمل : آية ٤٥ .

(٦) سورة الأعراف من آية ٧٥ .

(٧) سورة القمر من آية ١٠ .

(٨) سورة الأنبياء من آية ٧٧ .

(٩) سورة غافر من آية ٢٩ .

(١٠) سورة هود من آية ٩٧ .

و - وقوله : " وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ " (١) أى أوعية للعلم ، فقليل لهم :
" وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا " (٢) .

ز - وجعل بعضهم من هذا قوله تعالى فى قمة موسى عليه السلام :
" لَسَّالَهُ رَبِّىَّ أَرْنِىْ أَنْظُرَ إِلَيْكَ " (٣) . قال فإن آية البقرة وهى قوله :
" حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً " (٤) ، تدل على أن قوله : " رب أرنى " ، لم يكن عن
نفسه ، وإنما أراد به مطالبة قومه ، ولم يثبت فى التوراة أنه سأل الرومية
إلا وقت حضور قومه معه ، وسوء الهم ذلك (٥) .

ومن هذا العرض يتقرر أن القصص القرآنى له سماته التى تميزه ولـه
خصائصه الفنية التى ترقى به عن متناول المخلوقين ، وأنه لم يلابسه شىء
من الخيال القصصى ، ولم يدخل عليه شىء غير الواقع ، إذ هو ليس عملاً فنياً
مستقلاً ، فى موضوعه ، وطريقة عرضه ، وإدارة أحداثه ، كما هو الشأن فى القصة
الفنية الحرة التى ترمى إلى أداء غرض فنى مجرد . إنما هو - إلى جوار كونه
عملاً فنياً - خاضع فى موضوعه ، وفى طريقة صوغه ، وإدارة حوادثه لمقتضى
الأغراض الدينية ، ومع ذلك فإنه ليشتمل - مع قيامه على الحقائق المطلقة -
من ألوان الإشارة والتشويق مالم يشتمل عليه غيره من القصص .

وبتعبير آخر نقرر أن القصة القرآنية تخاطب العقل بأصدق منطق
وأوضحه وهى فى الوقت ذاته تخاطب الوجدان والمشاعر بأقرب حديث إليها وأحبه -
كما هو الشأن فى سائر التعبيرات القرآنية - إذ يجعل الجمال الفنى أداة
مقصودة للتأثير فى الوجدان ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال
الفنية ، والوجدان الذى يدرك الجمال الفنى الرفيع ويتأثر به يصبح وجداناً
حسن الاستعداد لاستقبال المؤثرات الدينية والتأثر بها .

(١) سورة البقرة من آية ٨٨ .

(٢) سورة الإسراء من آية ٨٥ .

(٣) سورة الأعراف من آية ١٤٣ .

(٤) سورة البقرة من آية ٥٥ .

(٥) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، المجلد الثانى ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

" ومن ثم كانت الوَحْدَةُ في القصة القرآنية على غير ما عهد المخلوقون من أدباء ونقاد ، فهي وَحْدَةٌ في الموضوع ، وَوَحْدَةٌ في الجو ، وَوَحْدَةٌ في النسق ، وَوَحْدَةٌ في المنهج التأثيري ، وَوَحْدَةٌ في الممار القرآني على عمومهِ ، فالقصة في سور القرآن جزء منها متلاحم أتم التلاحم لانحن تبايناً ، ولا نجد افتراقاً ، فالقصة في السورة مثل الآية فيها ، تمثل اللبنة في البنية المحكمــــــــــــــــة القويــــــــــــــــة " (١) .

ب - القصة الكاملة في القرآن الكريم :

هناك قصص وردت في حلقة كاملة في موضع واحد في القرآن الكريم ، ولم يتم توزيعها في حلقات على سور القرآن الكريم مثل بقية قصصه ، كقصة "البقرة" التي أمر بنو إسرائيل بذبحها في سورة البقرة ، وقصة "أصحاب القرية" في سورة "يس" ، وقصة نبال الخمم إذ تسوروا المحراب في سورة "ص" ، وقصة "موسى والخضر" ، وكذلك قصة "أصحاب الكهف" وأصحاب الجنتين ، وذو القرنين وغيرها ، لكن الأملر يختلف في قصة يوسف وذلك للأسباب الآتية :

أولاً : انفردت قصة يوسف بسورة كاملة من طوال السور ، سُميت باسم "يوسف" الذي تدور حوله معظم أحداث القصة ... وهذا ما لم يكن لأية قصة أخرى من قصص الأنبياء غير نوح عليه السلام ، الذي سُميت باسمه سورة من قصار السور ، هي سورة نوح ، على حين أن بعض الأنبياء قد سميت بعض السور باسمهم كسورة هود وسورة إبراهيم ، ولكنها لم تكن خالصة للحديث عنهم ، بل شاركهم في ذلك غيرهم من الأنبياء (٢) .

(١) د. إبراهيم عوضين : البيان القصص في القرآن الكريم ، ص ١٦٢ .
(٢) عبد الكريم الخطيب : قصتا آدم ويوسف عليهما السلام ، ص ٤٦ .

ثانياً : جاءت قصة يوسف فى معرض واحد فى القرآن الكريم ، وفى ثمان وتسعين آية ، ابتداءً من الآية الرابعة من السورة إلى الآية الواحدة بعـد المائة .. وهذه ظاهرة لم تكن فى قصة نبي من الأنبياء ، حيث تتعدد المعارض ، وتتوزع المشاهد فى كل قصة ، فالقصة القرآنية - غير قصة يوسف - يرد حلقات ، تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وجوها . وحتى القصص الذى ورد كاملاً فى سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب ورد مختصراً مجملًا . أما قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها فى سورة واحدة ، وهو طابع منفرد فى السور القرآنية جميعاً ..

هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة ، ويؤيدها أداء كاملاً ... ذلك أنها تبدأ بروءيا يوسف ، وتنتهى بتأويلها ، بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات فى سورة وتكون بقيتها فى سورة أخرى (١) .

وقد علّل " الزركشى " ذلك بوجوه منها :

أ - مافيها من تشبيب النسوة به ، وتضمن الإخبار عن حال امرأة ونسوة افتتن بأبدع الناس جمالاً ، وأرفعهم مثلاً ، فناسب عدم تكرارها لما فيها من الإغواء والستر عن ذلك ، وقد صحّ الحاكم فى مستدركه حديثاً مرفوعاً : النهى عن تعليم النساء سورة يوسف .

ب - إنها اختصت بحصول الفرج بعد الشدة ، بخلاف غيرها من القصص ، فإن مالها إلى الوبال ، كقصة إبليس ، وقوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وغيرهم ، فلما اختصت هذه القصة فى سائر القصص : بذلك اتفقت الدواعى على نقلها لخروجها عن سمت القصص .

ج - إشارة إلى عجز العرب ، كأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : إن كان من تلقاء نفسى تمديره على الفصاحة ، فافعلوا فى قصة يوسف ما فعلت فى قصص سائر الأنبياء " (٢) .

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ١٩٥١ .

(٢) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، ج ٣ ، ص ٢٩ - ٣٠ .

أما " الألوسى " فيقول : " ان قصص الأنبياء إنما كررت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم . والحاجة دامية إلى ذلك مع كل موقف يتحدث فيه القرآن من تكذيب الكفار للرسول - طى الله عليه وسلم - ، فلمَّا ساق موقفاً من موالف التكذيب ساق فى أثره قصة منذرة بحلول العذاب لما حلَّ بالمكذبيين ، وقصة يوسف عليه السلام لم يقصد منها ذلك ، وبهذا أيضاً يكون الجواب عن عدم تكرير قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين ، وقصة موسى مع الخضر ، وقصة الذبيح " .

" وقد أعترض بأن قصة آدم عليه السلام كررت مع أنه ليس المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم : وأجيب بأنها وإن لم يكن المقصود بها إفادة ما ذكر إلا أن فيها من الزجر عن المعصية ما يجعلها أشبه ماتكون بتلك القصص التى كررت لذلك " (١) .

ثالثاً : اذا كان للمرأة مكان بارز فى قصة يوسف ، وإذا كان دور المرأة فى تلك القصة هو الدور الذى يشتهي الرجل منها ، ويشوقه الحديث الذى يعرض لوسائل كيدها ، وأساليب اغرائها ، وشباك مغامراتها - فإن دورها فى القصة لم يكن مستجلباً ليملا فراغاً فيها ، أو ليلطف من جو المأساة التى ضمت عليها ، أو ليجدد نشاط المتلقى لها ... وإنما كان حدثاً جارياً مع اتجاه أحداثها ، فى الصراع بين الخير والشر ، فيما بين الناس عامة ، وفيما بين الإنسان ونفسه خاصة ... وصدق القرآن فى نقله للأحداث ، وبلاغته فى عرضها ، هو الذى يعطى القصة القرآنية هذا الجلال ، وتلك الروعة التى يستشعر المرء معها ما يستشعر العابد فى محراب صلاته ضراعة وخشوع ، وأن جلال الحق يرتفع بمشاعر الإنسان ، ويسمو بمدركاته إلى حيث يعطى الإنسان من ذات نفسه للحق كل ما فى وسعه من إيمان به وولاء له ..

(١) د. فتحى عبد القادر : من بلاغة القرآن الكريم فى سورة يوسف عليه السلام . ص ٤٤ ، ط ١ . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٨٥ .

فالمراة فى القصص القرآنى لاتستجلب لغاية غير العبرة والعظة ،
ولاتأخذ مكاناً فى القصة إلا حيث تكون درساً مستفاداً فى الدعوة إلى الخير
والعدل ، والإحسان ، وفى التنفير من الشرّ والبغى والعدوان (١) .

والذى نجده فى قصة يوسف من روعة البيان وجلال العرض ، ومن سمو
بالعاطفة ، واستعلاء بالنفس على الشهوات ، وقيادتها إلى موقع الخير على
طريق مفروش بالأشواك ، محفوف بالمكاره - نجده كذلك فى قصة أصحاب الكهف ،
أو قصة موسى والعبد الصالح مثلاً ، وفى كلتا القصتين لايبدو وجه المـرأة ،
ولايشار إليها من قريب أو بعيد ..

رابعاً : فى هذه القصة ، كما هو الشأن فى معظم القصص القرآنى يتجلى
سلطان " القدر " حيث تجرى الأحداث فى مجرى يرى الناس منه مايكرهون أو يحبون ،
حسب مايحسبون ويقدرّون ، ثم تجيء الخاتمة على غير ما حسبوا وقدرّوا ، إذ الذى
حسبوه خيراً هو شر ، وإذا الذى ظنّوه شراً هو خير ، ممداقاً لقوله تعالى :
" وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ . وَاللَّهُ
يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ " (٢) .

خامساً : تتحرك الأحداث فى قصة يوسف حركة مسابقة لحركة الزمن ، حيث
ينمو الحدث نمواً طبيعياً مع سير الأيام والليالى ، كما ينمو الكائن الحى
ويتطور مع مسيرة الزمن .. فالمغير يكبر والكبير يشيخ ويهرم ، والعواطف
الشابة الحارة الشائرة تبرد وتهدا .. وهكذا تظهر بصمات الزمن على وجوه
الناس ، وعقولهم وقلوبهم ، كُلَّمَا خَطَا بِهِمِ الزَّمَنُ خَطْوَةٌ إِلَى الْأَمَامِ .. فالزمن
عنصر له مكانه ، وله وزنه وحسابه فى تلك القصة (٣) .

(١) مبد الكريم الخطيب : قصتا آدم ويوسف عليهما السلام ، ص ٤٧ .

(٢) سورة البقرة من آية ٢١٦ .

(٣) المرجع السابق : ص ٤٨ .

سادساً : إن قصة يوسف هي القصة القرآنية التي جاء في صدرها قول الله تعالى : " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ " ، ولذلك نجد من يستند على هذه المقدمة ويقول : " إن قصة يوسف - من حيث البناء القصصي - هي أجود قصة في القرآن ، ولعله من أجل هذا عدّها القرآن من أحسن القصص حين قال : " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ " (١) .

وهذا القول معناه أن غير قصة يوسف من قصص القرآن أقل جودة وأضعف فناً ، وهو نقد وحكم على القصص لا يتفق مع إعجازه وتحديده ، لأن القرآن حين تحدّى العرب أن يأتوا بمثله لم يقف من مسائل التحدى عند حدود غير القصص ، لقد تحدّى بالقرآن كله قصصاً وغير قصص ، فقد أبطل هذا القول ذلك النقد حتماً ، وإلا لجاء أحد كتّاب القصص المحدثين المجيدين وعمد إلى قصة قرآنية غير قصة يوسف وجعلها أكثر فنية حسب المصطلح عليه بين المحدثين ، من كتّاب القصة ، ويكون بذلك قد كسّر التحدى بالقصص القرآني ، وبالقرآن الذي أنزل للبشيرة في كل عصر ، لإعجازه وتحديده لا يقتصر على العرب ، ولكنه يمتد إلى البشرية في كل العصور .

"والخطأ ومنشؤه كامن في الحكم على القرآن بمعيّار اصطلاحى لجودة القصص يشترط وحدة الموضوع وإحكام التميم وجود الحكمة والانتفاع بالحوادث الاستطراذية ، والقرآن هو المرجع ، وهو الحكم في كل ما تعرض له القرآن قصصاً أو غير قصص ، فناً أو غير فن" (٢) .

سابعاً : إن قصة يوسف تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصّة ، بل قد ماتمثلة النموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسى والعقيدى والتربوى والحركى أيضاً . . ومع أن المنهج القرآنى واحد في موضوعه وفي أدائه ، إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا

(١) د. محمد أحمد خلف الله : الفن القصصى في القرآن الكريم ، ص ٢١٤ .

(٢) د. محمد أحمد الغمراوى : الإسلام في عصر العلم ، ص ٢٥٣ .

المنهج من الناحية الفنية للأداء (١) :

أ - اشخاص القصة :

أشخاص القصة هنا - على طولها - يكادون لا يتجاوزون بيت يعقوب إلا بالقدر الذى تطوّرت به الأحداث حين أصبح بطل القصة بعيداً عن اهله ، ومع ذلك نلاحظ أن الأشخاص يقدمون على حسب الحاجة إليهم فى القصة ، فليسوا جميعاً على مستوى واحد ، فالمنهج فى تقديم الأشخاص إن هو إلا منهج قرأنى خاص به ، يشف من جانب من الإعجاز البيانى ، حيث يلتزم بتقديم الشخصية فى الحدود التى يحتاجها دورها فى القصة ، وفى الوقت الذى تطلبها فيه ، دون تقصير أو إطالة وتزييد (٢) .

إن القصة تعرض شخصية يوسف - عليه السلام - وهى الشخصية الرئيسية فى القصة - عرضاً كاملاً فى كل مجالات حياتها ، بكل جوانب هذه الحياة ، وبكامل استجابات هذه الشخصية فى هذه الجوانب وفى تلك المجالات ، وتعرض أنشـواع الابتلاءات التى تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسية فى القصة ، وهى ابتلاءات متنوعة فى طبيعتها وفى اتجاهاتها .. ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء .. وابتلاءات الفتنة بالشهوة ، والفتنة بالسلطان ، وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات .. ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقياً خالصاً متجرداً فى وقفته الأخيرة ، متجهاً إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع :

" رَبِّ قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطْرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . تَوَقَّنِي مُسْلِماً . وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ " (٣) .

وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسية فى القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز ، وفى مساحات متناسبة من رقعة العرض ، وعلى أبعاد

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ١٩٥١ .
(٢) د . إبراهيم عوضين : البيان القصصى فى القرآن الكريم ، ص ٨٤ - ٨٥ .
(٣) سورة يوسف : آية ١٠١ .

متفاوتة من مركز الرواية ، وفي أوضاع خاصة من الأضواء والظلال .. وتتعامل اللقمة مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة ، متمثلة في نماذج متنوعة: أنموذج يعقوب الوالد المحب الملهوف والنبى المظمئن الموصول .. وأنموذج أخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمواءمة والمناورة ، ومواجهة آثار الجريمة ، والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة ، متميزاً فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة ومواقفها ..

وأنموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأنثوية ، كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك ، إلى جانب طابعها الشخصى الخاص الواضح في تصرفها وضوح انطباعات البيئة ..

وأنموذج النسوة من طبقة العلية في مصر ، والأضواء التى تلقىها على البيئة ، ومنطقها كما يتجلى في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها ، وفي إغرائهن كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهن جميعاً . وما وراء أستار القصور ودسائرها ومناوراتها ، كما يتجلى في سجن يوسف بصفحة خاصة .. وأنموذج "العزيز" وعليه ظلال طبقته ، وبيئته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه ، فتتضح في شخصيته طبيعة سمت الإمارة ، ثم ضعف النخوة ، وغلبة الرياء الاجتماعى وستر الظواهر وانقازها ، وفيه تتمثل كل خصائص بيئته .. وأنموذج "الملك" في خطفه يتوارى بعدها كما توارى العزيز في منطقة الظلال بعيداً عن منطقة الأضواء في مجال العرض المتناسق .. وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة في هذا الحشد من الشخصيات والبيئات ، وهذا الحشد من المواقف والمشاهد ، وهذا الحشد من الحركات والمشاعر .. وممع استيفاء القصة لكل ملامح " الواقعية " السليمة المتكاملة وخصائصها فى كل شخصية وفى كل موقف وفى كل خالصة .. فإنها تمثل الأنموذج الكامل لمنهج الإسلام فى الأداء الفنى للقصة ، ذلك الأداء المادق ، الرائع بمدقه العميق وواقعيتها السليمة .. المنهج الذى لا يهمل خلصة بشرية واقعية واحدة ، فقد أمت

القصة بألوان من الضعف البشرى ، بما فيها لحظة الضعف الجنس . ودون أن تزور - أى تزوير - فى تصوير النفس البشرية بواقعيتها الكاملة فى هذه المواقف ، ودون أن تغفل أية لحظة حقيقية من لمحات النفس أو الموقف ، فإنها لم تسف قط لتنشئ مستنقعا مقررآ للفطرة السليمة ، وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعى الكامل فى تنوع الشخصيات وتنوع المواقف (١) .

ب - أحداث القصة :

والواقعية الصادقة الأمانة النظيفة السليمة فى الوقت نفسه ، لا تقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية التى تحفل بها القصة فى هذا المجال الواسع ، على هذا المستوى الراجع ، ولكنها تتجلى كذلك فى واقعية الأحداث والسرد والعرض وصدقها وطبيعتها ، فى مكانها وزمانها ، وفى بيئتها وملابساتها .. فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة تجيء فى أوانها ، وتجىء فى الصورة المتوقعة لها ، وتجىء فى مكانها من مسرح العرض ، متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعتها جريان الحياة بها ..

حتى لحظات الجنس فى القصة ومواقفه أخذت مساحتها كاملة - فى حدود المنهج النظيف اللائق " بالإنسان " فى غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البشرية فى شمولها وصدقها وتكاملها - ولكن استيفاء تلك اللحظات لمساحتها المتناسقة مع بقية الأحداث والمواقف لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هى كل واقعية الكائن البشرى . وكما لو كانت هى محور حياته كلها (٢) فلاشك أن هناك مواقف كثيرة كانت بين امرأة العزيز وفتاها ، ولكن شيئا من ذلك لا علاقة له بمسار القصة ، ولذلك أُسِدِل عليه الستار ، حتى يخيّل للناظر أن موقف المراودة لاغير هو الذى كان ... كما أن البيان القرآنى يتجاوز الحديث عن تسرب نبال المراودة من قصر العزيز إلى نساء المدينة . إذ لا يضيف ذلك

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن . ج ٤ ، ص ١٩٥٢ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٩٥٩ .

لللمعة جديداً ، بل إنه يعترض تحرك القصة في مسارها الطبيعي ، فهي أحداث ومواقف استطرادية لاتتعلق بالحدث الرئيسي ، ولاتضيف إليه ما ينميّه ويطوّره في السبيل القصصى ، فالفنية البيانية ترفض الاشتغال بأى شئ من ذلك فى هذه القصة (١).

وعلى العكس من ذلك ، فان كل ماتناولته القصة والاحداث والمواقف يمدّ الحدث الرئيسى بزادٍ ينمو به فى مساره المخصوص به ، فتنشئة الغلام فى بيت العزيز تقوى آصرة المرأة به ، بما يطمعها فيه ، ويغريها به ، ويوقعه فى محنة تصهر نفسه وتخلصها من أوشابها وأوضارها ، حيث يمل به تماسكها أمامها إلى السجن وظلماته ، وهو صابر على كل ما يعاينيه دون أن يستسلم لدواعى الخيانة ، تمهيداً لأن يتولى أخطر منصب فى الدولة فى أعص وقت تمر به البلاد .. فتماسك يوسف أمام المراودة والإصرار عليها ، والتهديد بسببها لاتهدف القصة من ورائه إلى بيان عفة يوسف ، فهذا غرض جانبى لاتقوم عليه لذاته ، وإنما هى تهدف إلى أن هذا الموقف اليوسفى رشحه لأن يكون على خزائن الأرض ، لأنه - كما قال للملك - حفيظ عليم ، وقيامه على خزائن الأرض منحه فرصة الالتقاء بإخوته القادمين للحصول على الزاد .. وهكذا تحركت القصة من هذا المنطلق إلى نهايتها .. فتأبى يوسف على الخيانة ليس خصوصية له ، إذ جميع الأنبياء والمرسلين صفوة مختارة من بين الناس ، يتميزون على غيرهم باشتغالهم على صفات الخير جميعها ، وتأبىهم على صفات الشر جميعها ، فليس يوسف فى ذلك فلتة ، لكن البيان القرآنى ركز فى قصة يوسف على تلك الصفقة لأنها تسلم إلى الاحداث التالية وتُنمّيها ، لتصل إلى تحقيق روءياه التى رآها فى طفولته (٢) . فهناك حبكة بين التقدمة للقصة والتعقيب عليها ، الذى يواجه تكذيب قريش بالوحي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتقرير مأخوذ من

(١) د . إبراهيم عوضين : البيان القصصى فى القرآن الكريم ، ص ٩٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ٩٣ .

هذا القمص الذى لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حاضراً وقائعه:
"ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ
وَهُمْ يَمْكُرُونَ " (١).

وهذا التعليب يترابط مع التقديم للقصة فى الاتجاه ذاته :
" نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ، وَإِنْ كُنْتَ
مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ " (٢).

والتقديم والتعليب على هذا النحو يؤلفان مؤثراً موحياً مــــن
المؤثرات الكثيرة فى سياق القصة ، لتقرير الحقيقة التى يعرضانها ،
وتوكيدها ، فى مواجهة الاعتراض والتكذيب .. وما يسمّى بالعقدة الفنية واضح فى
القصة ، فهى تبدأ بالرواية يقصها يوسف على أبيه ، فينبئه أبوه بأن سيكون
له شأن عظيم ، وينمحه بالألقاب على إخوته كى لا يثير حسدهم فيغريهم
الشيطان به فيكيدون له ... ثم تسير القصة بعد ذلك ، وكأنما هى تأويل
للرواية ولما توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرواية فى
النهاية أنهى السياق القصة ، وبذلك تجيء الخاتمة فتحل العقدة حلّاً طبيعياً
لاتعمل فيه ولا اصطناع (٣).

وهكذا تتلاحم مواقف القصة ومشاهدها تلاحماً عفويّاً طبيعياً ، لا قلق فيه ،
ولا اصطناع ، فى أحداثها ولا اضطراب فى تتابعها ، ولا انحراف فى مسارها ،
بحيث لانعثر فى حياة يوسف على حدث يفيد تلك القصة إلا وجدناه فى مكانه منها
بالقدر الذى يحتاجه البناء القصصى .

ثامناً : الجانب النفسى فى القصة :

من المناسب القول أن قصة يوسف فى القرآن هى قصة الشخصية والأحداث
معاً ، فهى لاتسجل واقعاً فحسب ، ولكنها تنتصر للقيم الإنسانية الجديرة بالخلود ،

(١) سورة يوسف : آية ١٠٢ .

(٢) سورة يوسف : آية ٣ .

(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ١٩٦٥ .

انها تنتصر للإيمان ، للصبر ، للعفاف ، للأمانة ، للإخلاص ..
وقد أهرزت صراع النفس أملاً في الحظوة ، أو إشباعاً لظماً الحسب ،
وقام بالأدوار فيها شخصيات متباينة في السن ، وفي المكانة الاجتماعية . ولكل
منها طابعها الخاص وفق التربية والتجارب التي مرت بسكل منها : كالبراءة ،
والحسد ، والعلم ، والحكمة .

"وهكذا فإن الدارس لهذه القصة في القرآن يستطيع أن يبرز شخصيات
نفسية من أبطال القصة ، ومن بعض كلماتها وإشاراتهما ، فنحن نلاحظ كلمة الصبر
مثلاً ، كانت دائماً على لسان يعقوب ، والاستعاذة من الظلم على لسان يوسف ،
وتوكيد الإيمان على لسان إخوته . كما نلاحظ أن في الإمكان وضع عناوين لبعض
السلوك الذي فرط من شخصياتها . كالتبرير والاسقاط والكذب والغيرة ،
والقلق ، والإحساس بالذنب ، ونحو ذلك من الحيل اللاشعورية التي يلجأ إليها
الإنسان في معاملاته النفسية ، والتي يسميها علم النفس " آليات عقلية " ،
يغالب بها المرء إحباطه وقلقه وتوتره الناشئ عن فشله ، وهو يحاول تحقيق
رغباته " (١) .

فإخوة يوسف مثلاً ظلوا ضحايا الكبت الذي عانوه ، كي يخفوا رغبتهم في
التخلص من يوسف ، حتى يخلو لهم حبّ أبيهم ، ولكنهم كانوا يفشلون في إخفائها
وكبتها ، بل كثيراً ما تبدو فيما يصدر عنهم من مواقف أو كلمات ضد يوسف ، مما
جعل يعقوب يشك في حسن نياتهم عندما دعوا يوسف أن يلعب . فقال لهم :
" وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ " (٢)

وكان من نتيجة هذا الكبت ومعاناته أن انحرفوا بتفكيرهم .. فكل ما كان يهمهم
تحقيقه هو أن يحولوا بين يوسف وأبيه ، فاتفقوا على قتله ، وتلطّخ قميصه
بالدم ، وادعاء أن الذئب أكله لَمَّا ذهبوا يتسابقون وتركوه عند متاعهم . ولكن
التلفيق كان واضحاً ، لأن القميص لم يكن ممزقاً بأشار أسنان الذئب ، مما جعل
يعقوب لا يصدقهم . ولهذا كان يدعوهم دائماً إلى أن يتقصّوا آثار أخيه ، ولو

(١) د. التهامي نفرة : سيكولوجية القصة في القرآن ، ص ٥١٤ و ٥١٦ .

(٢) سورة يوسف من آية ١٣ .

أنه صدقهم في دعواهم لَمَّا أَصَرَ عَلَى أَنْ يَقْتُلُوا آثَارَهُ ..
وقد وقعوا في حالة (التبرير) كما يفعل الذئب ، إذ يعتمد إلى تفسير سلوكه ليبين لنفسه وللناس أن لسلوكه هذا أسباباً معقولة ، فهم يقولون :
" يَسَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ .. وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا . فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ . وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ " (١) .

وإذا كان " الاسقاط " هو حيلة يسقط بها المرء نقائصه وعيوبه على الآخرين .. ويهمه بالدرجة الأولى أن يلمقها بمن يظن أنه ينافسه مباشرة ، وإذا كان هذا هو مفهوم الاسقاط في علم النفس ، فإن القرآن الكريم روى ذلك من إخوة يوسف ، حينما دس يوسف صاع الملك في متاع أخيه ، وألقى القبض عليه بتهمة السرقة ليستبقيه ، دون أن يكشف لهم عن شخصيته . إذ تقول الآية الكريمة على لسانهم :

" إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ " (٢)

ولو استقصينا لوجدنا في السورة آيات أخرى تتحدث في بساطة عن أدق التطريعات لعلم النفس الحديث (٣) .

تاسعاً : الإعجاز البياني في القصة :

إن المتأمل في بناء القصة يجد أن التلازم بين أحداثها ومواقفها وبين محورها ، ليس هو مظهر الإحكام والتناسق في البناء القصصي فحسب ، بل يجسد ان من ذلك - كذلك - التلازم بين الأحداث والمواقف وبين العبارات البيانية ، فالعبارة القرآنية توعد في ذلك المجال دوراً مهماً ، بحيث لا تنفصل عبارة واحدة عن موقعها ، فهي بمعناها وإيماءاتها وظلالها كيان حي في جسم القصة النابض :

-
- (١) سورة يوسف من آية ١٧ .
 - (٢) سورة يوسف من آية ٧٧ .
 - (٣) المرجع السابق : ص ٥١٧ .

١ - نلمس ذلك فى نداء يوسف أباه فى مبتدأ القصة حيث كان غلاماً صغيراً ، بقوله : "يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً ... " وفى خاتمة القصة حيث كان رجلاً مكتملاً مسئولاً بقوله : " يا أبت هذا تاويل رؤىي ... " فالتاء توحى بتعلق يوسف بأبيه ، وما يكتنه له من حبٍّ وودٍّ لا يتأثران بمرور الزمان ولا بتغيير الأحوال ، فيوسف عزيز مصر أمام أبيه هو يوسف الطفل الذى يقصّ رؤياه على أبيه . وفارق بين يوسف فى ذلك وبين إخوته الذين شابت عاطفتهم نحو أبيهم شواذب المادة فلم يروا فيه سوى أب فقالوا : ... يا أبانا استغفر لنا ... " وبذلك فإننا مع يوسف نكاد نرى عاطفة البنوة شاحصة محسوسة ..

٢ - ونلمس ذلك فى الفجوة بين حديث الابن مع أبيه وتأمّر الإخوة التى تحدثها " لَلَدُّ " فى قوله تعالى : " لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين .. " فبالإضافة إلى معناها اللغوى الذى تمنحه التعبير من تحقيق وتأكيد لما يليها من أحداث ، تهيبّ الذهن إلى أن هناك تغييراً فى العواطف البشرية وانتقالاً من الحب الأبوى الخالص إلى غيرة الإخوة وتحاسدهم المتمثلين فى تأمرهم على يوسف ، وتومئ إلى أن هناك مشهداً فى القصة خطيراً يوشك أن تبدأ أحداثه (١) ..

٣ - ونلمس ذلك فى قوله تعالى : " قال قائل منهم ... " فإسناد القول إلى قائل مسن الإخوة بدلاً من إسناده إلى واحد منهم أو نحو ذلك ، يومئ إلى أن هذا القول كان فى أثناء نقاش ، وأخذ ورد بين الإخوة فيما يصنعونه للتخلص من يوسف ، فهو قول مسبوق ، بأقوال ، صدر من بعض القائلين ..

٤ - ونلمس ذلك فى قوله تعالى على لسان هذا القائل من إخوة يوسف : " ... إن كنتم فاعلين " ، فتعليق رايه على هذا الشرط يوحى بأنه غير موافق على التخلص من يوسف ، وإنما هى الاستجابة لرأى الأغلبية ، والإذعان عن غير اقتناع ..

(١) د. إبراهيم عوضين : البيان القصصى فى القرآن الكريم ، ص ٩٦ - ٩٨ .

٥ - ونلمس ذلك فى عبارة يوسف : " معاذ الله إن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ... " .. ولم يقل : إلا من سرق ، فأتى بالعبارة الدقيقة التى تؤيد الغرض منها فى معرض الحديث ، والتى لا يخرج بها يوسف على الواقع المجهول ، وهى براءة أخيه من السرقة ، فعبارة " من وجدنا متاعنا عنده " لاتنفى التهمة فتكشف خطة يوسف ، ولا تثبتها فيكون متجنباً على برى ..

٦ - ونلمس ذلك فى قوله تعالى : " فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه " حيث الاحتم (أن) بين (لَمَّا) ، و (جَاء) ، لتضيف إلى المضمون اللغوى إحياء بأن هذا الحديث الغريب المعجز كان متوقعاً " فَلَمَّا أن جاء البشير " فكأن هناك من ينتظر هذا المجرى ، فلما تحقق ذلك المنتظر ترتب عليه ما ترتب من إلقاء البشير قميص يوسف على وجه أبيه ، ويرشح هذا الإحياء أن يعقوب كان يحس فى داخله بشئ من ذلك ، فهو القائل لبنيه حين فصلت العير : " إبنى لأجسد ريح يوسف " فالتوقع كان موجوداً ، ولايناسب ذلك الحال تعبير عما حدث بدون (أن) ، كما ان مجيء (أن) فى الجملة يمدّها بإحياء آخر يكشف عن طول السفر وبعد ما بين يوسف وأبيه ، فزمن المجيء ليس مستمراً ولكنه مقطوع لطوله ، فهو مراحل ، وكلمة (أن) هى التى تعطى هذا الإحياء ... " فَلَمَّا أن جاء البشير " فالجملة بدون (أن) لاتحمل هذا الإحياء ، ومن كم كانت (أن) هنا ضرورية لإعطاء المتلقى تصويراً للفعل الذى كان بين قيام البشير بقميص يوسف ومجيئه (١) .

وهكذا يتقرر لدى من يتأمل البيان القرآنى أن هناك وَحْدَةً شاملة تسرى فى خلال القصة ، بحيث لاتنبو فيها عبارة واحدة عن مسار القصة ، ولايشذ فيها موقف واحد عن المقصد منها ، وبحيث لايفتقد المتأمل فيها من الموءمنين أسباب الهدى والرحمة .

(١) المرجع السابق ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

عاشراً : ومن لطائف التناسق في الاداء القرآنى في هذه القصة ، تكرر عبارات معينة تواف جزءاً من جو القصة وشخصيتها الخاصة (١) ، ومن نماذج هذه اللطائف :

- ١ - ذكر العلم كثيراً ، وما يقابله من الجهل وقلة العلم في مواضع شتى :
 - " وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " .
- " وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " .
- " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " .
- " فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " .
- " قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْرَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عِلَّمَنِي رَبِّي " .
- " إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ . أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " .
- " قَالُوا أَفْعَلَتْ أَهْلُكُمْ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَهْلَامِ بِعَلِيمِينَ " .
- " يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ " .
- " وَقَالَ الْمَلِكُ اسْتَوْصِنِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ " .
- " ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ " .
- " قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ . إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ " .
- " ... وَإِنَّهُ لَكَاذِبٌ كَذِبٌ لَمَّا عِلَّمْنَاهُ . وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " .
- " قَالُوا تَا لَلَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ لِتُنْفِسُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سُرْقِيينَ " .
- " قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّاتٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ " .

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ١٩٦٦ .

- " فَلَمَّا اسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَعُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ " ..
- " وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ " .
- " مَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " .
- " قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ "
- " قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ " .
- " قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " .
- " رَبِّ قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ .. " .

وهي ظاهرة بارزة تلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفه في قصة يوسف (١) .

٢ - ومن لطائف التناسق أن يذكر يوسف الحبيب الكيس اللطيف المدخل ، صفة الله المناسبة ... " اللطيف " .. في الموقف الذي يتجلى فيه لطف الله في التصريف :

" وَرَفَعَ أَبُوتُ عَلَى الْعَرْشِ . وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا . وَقَالَ : يَا أَيُّهَا هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا . وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ .. وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي .. إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ .. إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " (٢) .

وهكذا بدأت قصة يوسف وانتهت في سورة واحدة ، وذلك لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء . فهي رويًا تتحقق رويدًا رويدًا ، ويومًا بعد يوم ، ومرحلة بعد مرحلة . فلا تتم العبرة بها - كما لا يتم التنسيق الفني فيها - إلا بـ ... يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها . وإفراد حلقة واحدة منها في موضع لا يحقق شيئاً من هذا كله كما يحققه أفراد بعض الحلقات في قصص الرسل

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٦٧ .

(٢) سورة يوسف : آية ١٠٠ .

الآخرين ، كحلقة قصة " سليمان " مع ملكة سبأ ، أو حلقة قصة مولد " مريم " أو حلقة قصة مولد " ميسى " ، أو حلقة قصة " نوح " والطوفان ٠٠٠ إلخ فهذه الحلقات تلى بالغرض منها كاملاً فى مواضعها ، أما قصة يوسف فتقتضى أن تتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها ، من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم :

" نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ، بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ " (١).

الباب الثانى القصة فى التوراة

مقدمة :

يرتبط اليهود ارتباطاً وثيقاً بنصوصهم المقدسة ، وهم وإن اختلفوا فى قدسية هذه النصوص ونسبتها جميعاً لموسى عليه السلام - فإنهم جميعاً يتفقون على أن أسفار موسى الخمسة التى يطلق عليها "التوراة" أو "الشريعة" (١) ، هى الأسفار التى لا يتسرب إليها الشك ، وهى المعتمدة لديهم . وتضم فى محتواها كل ما يتعلق بأمورهم وتنظيم حياتهم ، وإن تحفظ البعض فى رأيه وأثيرت حول النص بعض المشاكل .

التوراة : תורה

هى أعظم كتاب دينى لدى الإسرائيليين ، وتوصف بأنها أنزلت على موسى من الله فى طور سيناء ، وتنقسم التوراة إلى خمسة أسفار ويعرف كل سفر بالكلمة العبرية التى يبدأ بها وهى تتابع فى شكلها الذى بين أيدينا على النظام التالى :

(١) وهى فى الآرامية { ܬܘܪܐ } ، أى التعاليم وقوانين الرب التى تلقاها موسى ووضعها أمام بنى إسرائيل (التثنية ٥٤:٤) . ويطلق عليها أيضاً اسم "פרשת תולדות ה'ה' - كتاب توراة الرب " (أخبار الأيام الثانى ١٧ : ٤) ، أما يهود الأسكندرية فيطلقون عليها اسم "תולדות הקדושים" - أى كتاب القوانين " وكذلك أيضاً يطلق عليها فى الترجمة السبعينية ، إلا أن الاسم "תורה" يشير أيضاً إلى التعاليم الأخلاقية والتأديبية لأنها تشتمل قواعد تحدد سلوك الإنسان كل أيام حياته ، وكذلك أحداث بنى إسرائيل بينما القوانين قسم واحد من محتواها . ويطلق حكماء التلمود على التوراة اسم (חמשה חומשי תורה - خمسة أخماس التوراة) (מגילה ט"ו) وأيضاً (חמשים - أخماس) ومفردها חמש .
انظر : אנציקלופדיה אוצר ישראל , חלק עשירי , עמ' 237
מהדורה שלישית , לונדון , בהוצאת שאפי"א וא-
לנטין ושותפיו , בשנת תרצ"ה לפ"ק .

يشوع والأسفار الخمسة للتوراة ... وعندما ترجم العهد القديم إلى اللغتين اللاتينية احتفظت الترجمة اللاتينية ببعض المسميات الإغريقية لأسفار العهد القديم ، ومعظم هذه المسميات تعبر عن المضمون الرئيس أو الفكر الرئيسة التي تدور حولها أحداث كتب العهد القديم ..

وبالنسبة للتوراة فقد أطلق على السفر الأول : " Genesis - التكوين " وعلى السفر الثانى : " Exodus - الخروج " ، والثالث : " Leviticus - اللاويين " ، وعلى السفر الرابع : " Numeri - العدد " ، والخامس : " Deuteronomium - أى إعادة الشريعة وتكرارها " (١) .

" وقد خرجت أبحاث العلماء فى نصوص التوراة إلى أن روايتها ترجع إلى مصادر (٢) مختلفة منها ما هو موغل فى القدم ، ومنها ما هو حديث متأخر ،

- (١) راجع : - د. حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى . أطواره ومذاهبه . ص ١٣ وما بعدها . قسم البحوث والدراسات الفلسطينية . القاهرة سنة ١٩٧٥ .
- موريس بوكاي : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم - ص ٢٣ وما بعدها . دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٧٩ .
- زكى شنودة : المجتمع اليهودى . ص ٢٨٦ وما بعدها . مكتبة الخانجى . القاهرة . بدون تاريخ .

- م. ز. س. : מבוא המקרא , ספר ראשון , עמ' 6-8 , הדפסה תש"ל . הוצאת *קרית ספר בע"מ , ירושלים תשל"ג .
(٢) يكاد يتفق علماء العهد القديم على أن روايته ترجع إلى مصادر أربعة هى :
أ - المصدر البهوى : ويرجع تاريخه إلى القرن التاسع ق م وهو المصدر الذى يطلق عليه اسم " יהוה " علماً على رب العبرانيين القومى القديم .

ب - المصدر الإلهيمى : وقد كُتب تقريباً فى القرن الثامن ق م فى مملكة إسرائيل الشمالية وهو الذى يطلق اسم " إلهيم " علماً على الله فى الشمال وهذان المصدران يتفقان فى الخطوط العريضة للموضوع الذى يتناولانه .
ج - مصدر التثنية : وهو مصدر تشريعى بحت ، لا يهتم كثيراً بالأساطير الشعبية ، ويمثله بصورة واضحة آخر أسفار التوراة وهو سفر التثنية .
د - مصدر حواشى الكهنة : ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس ق م وذلك فى عهد عزرا ونحميا بعد العودة من السبي البابلى فى ظل الامبراطورية الفارسية حين كانت لهؤلاء الكهنة القوة والسلطان فى شعبهم .

وما نتج من ذلك من خلط فى رواية النصوص ومزج بين بعضها إلى أن وصلت إلينا بصورتها المتداولة " (١) .

ومن ناحية أخرى يكاد يتفق معظم الباحثين فى العهد القديم ، على أن التوراة فى معظم أسفارها هى مجموعة من القصص ، ومع ذلك كان البحث الأدبى لهذه القصص قضية جانبية إلى حد ما ، حيث لم تهتم بحوث التوراة إلا بقضايا نقد المصادر ونقد النصوص والإعداد الأدبى لها ، أى مشاكل التكوين القصص دون التعرض للخصائص الفنية للقصص نفسها - وإذا كانت قد وجدت بعض الأعمال التى تعرضت لذلك إلا أنها لم تبخل من القوة التى تجعل من هذه الدراسة الأدبية لقصص التوراة تياراً يهتم بالجوانب الأدبية والفنية فيها ، بل ظلت عملاً ثانوياً وهامشياً .

ولذلك عندما نريد الوقوف على ماهية القصة فى التوراة ، وجب علينا الاقترب منها بروية أدبية - مع استخدام أساليب البحث الأدبى وأدوات وقواعد علم الأدب . ووفقاً لطرق البحث الأدبى ، فإن تركيزنا فى هذا الباب .. سينصب على الناحية البنائية للقصة فى التوراة من حيث عناصر العمل القصصى من حادثة وشخصيات وزمان ومكان ومن حيث الخصائص الفنية لأساليب التعبير اللفوى ، خلال دراسة التكنيك وكيفية البناء وطرق السرد القصصى ، وما شابه ذلك من

= انظر : د. عبد الرازق أحمد قنديل : الأثر الإسلامى فى الفكر الدينى اليهودى . ص ٣ . هامش (١) .

ويجب أن نشير هنا إلى أن هناك مصادر أخرى للتوراة غير هذه المصادر الأربعة .. وهناك مصدر هام لم يتمكن النقاد من ضمه بسهولة إلى مصادر المصادر الأربعة الرئيسية ولذلك أعطوه علامة تميزه عن غيره وهى : L وهو اختصار لكلمة Lay وترجمتها هنا : " العامى " أو غير الكهنوتى . وقد اعتبر (ايسفلت) هذا المصدر أقدم المصادر على الإطلاق لاحتوائه على عناصر تبدو أصلية وبدائية فى نفس الوقت .

انظر : د. محمد خليفة حسن أحمد . علاقة الإسلام باليهودية ، ص ٨٣ - ٨٤ .

دار الثقافة . القاهرة سنة ١٩٨٨ .

(١) د. عبد الرازق أحمد قنديل : الأثر الإسلامى فى الفكر الدينى اليهودى ص ٣ .

الموضوعات التي تتصل بعملية القص ، وذلك حتى تتضح لنا الملامح الرئيسية في عملية القص ، سواء كانت ترمز إلى عناصر القصة ، أو تأثير القصة الفعّال على القارئ الذي يظهر في رد فعله إزاء الإبداع الفني القصصى . ويجدر القول أن من لا يهتم بالبحث في الشكل الفني لقصص التوراة لا يمكن أن يصل في بحثه ودراسته إلى عمق المضمون والإدراك الدينى لهذه القصص ، إذ أن مضمون القصة وموضوعها وخصائصها لا يمكن أن تنفصل عن بنائها الفني ، ولا يمكن لكل منهما أن يقوم منفرداً في تحقيق هدف القصة .

.. ..

الباب الثانى : القصة فى التوراة

الفصل الاول : أنواع القصة فى التوراة . عناصرها

وأغراضها

أولاً : أنواع القصة فى التوراة :

لم تكتب القصص فى التوراة لمجرد تقديم الغبطة والمتعة الجمالية للقارئ أو المستمع ، بل كتبت لكى تبرز أنماط حياة الآباء وسلوكياتهم وأخلاقياتهم ، حتى يقتدى بها اليهود (١) . ومن هنا نجد أن التوراة قد دوت تاريخ العالم من بدء الكون إلى غرق الأرض بالطوفان فى خمسة إصحاحات ، ودوت تاريخ العالم من انحسار الطوفان إلى هجرة " إبراهيم " فى إصحاحين آخرين ، ثم أمسكت عن مطالعتنا بشيء من مدنية ذلك العصر على عراقتها إلا حين يتصل الأمر باليهود ، وكما أغفلت الحديث عن تلك الشعوب الموعلة فى القدم المؤهلة الحضارة التى ازدهرت فى الشرق ولم تمتد يدها بالأذى إلى شعوب غربى آسيا (٢) .

ولعل عرضنا لأهم أنواع القصص فى التوراة يفسر لنا مبعث ذلك الإغفال، حيث تنوعت القصص حسب ما يتطلبه الغرض من القصة . . وفيما يلى عرض لأهم أنواع القصص فى التوراة .

١ - القصة التاريخية :

معظم القصص فى التوراة قصص تاريخية تروى تاريخ الآباء والأنبياء، ولكن حينما ننظر فى علم التاريخ نجده يعمل فى وصف الأعمال والأحداث التى كان لها تأثير على تاريخ الشعوب وعلى تطور الإنسانية ، ولا يغوص فى وصف الحياة الخاصة للشخصيات التاريخية ، فهذا الأمر تهتم به الرواية ، ولذلك فتاريخ " الآباء "

(١) מנשה דובשני : מבוא כללי למקרא , עמ' ١٥٢ , מהדורה - שנה , הוצאת ספרים . יבנה בע"ם . ישראל , תשל"ח .

(٢) عصام الدين حفى ناصف : الأسطورة والوعى ص ٤ دار العالم الجديد - ط ١ - القاهرة سنة ١٩٧٦ .

ليس تاريخاً بالمعنى المجرد ، بل قصص امتزجت ببعض الأسس التاريخية التي
ينعدم فيها الانسجام التاريخي ، فالتوراة تخصص أحد عشر إصحاحاً لوصف تطوّر
البشرية خلال ألفى سنة منذ أيام " آدم " حتى " إبراهيم " ، ولفترة " الآباء "
- ثلاثة أجيال فقط - تسعة وثلاثون إصحاحاً تصف فيهم المضمون الجوهرى لحياتهم
الشخصية والأسرية ، أما سفر الخروج فنجد أن الإصحاح الأول والثاني منسـمـه
يتحدثان عن نشأة بنى إسرائيل فى مصر ، بينما تفرد أربعة إصحاحات كاملة
للحديث عن جيل واحد وهو جيل الخارجين من مصر " (١) .

وأبرز مثال يطالعنا فى التوراة للقيمة التاريخية ، قصة " قايين -
وهابيل " حيث نجد أن لعنة الله على قايين قد محت امتيازَه بحق البكـورة
فانقطع حُفدته وهم شعوب الشرق عن أن تنتظمهم سلسلة التاريخ واتمل الخيط
القصصى فى سفر التكوين من بدء الخليقة مباشرة إلى شعب الله المختار طبقاً
للتعريف اليهودى للشعب الإسرائيلى .

וַהֲאֵלֹהִים יָרָע אֶת-חַוָּה אִשְׁתּוֹ וַתַּהַר וַתֵּלֶד אֶת-
קַיִן וַתֹּאמֶר קָנִיתִי אִישׁ אֶת-יְהוָה: וַתֹּסֶף לֵלֶדֶת אֶת-אָחִיו
אֶת-הָבֶל וְהָיוּ הָאָדָם רֹעִים זֵאֵן וְקַיִן הָיָה עֹבֵד אֲדָמָה: וְהָיָה
מִקֵּץ יָמִים נָבִיא קַיִן מִדְּבַר הָאֲדָמָה מִנְּחָה לַיהוָה: וְהָבֶל
הָבִיא נֹס-הוּא מִבְּכֹרוֹת צֹאן וּמִסֻּלְבָּתָן וַיִּשַׁע יְהוָה אֶל-הָבֶל
וְאֶל-מִנְחָתוֹ: וְאֶל-קַיִן וְאֶל-מִנְחָתוֹ לֹא שָׂגָה וַיִּחַר לְקַיִן
מְאֹד וַיִּפְּלוּ פָנָיו: וַיֹּאמֶר יְהוָה אֶל-קַיִן לָמָּה חָרָה לָךְ וְלָמָּה
נָפְלוּ פָנֶיךָ: הֲלוֹא אִם-תֵּיטִיב שָׂאֵחַ וְאִם לֹא תֵיטִיב לַפֶּתַח
חַטָּאת רֹבֵץ וְאֵלֶיךָ תִּשְׁקָחוּ וְאַתָּה תִּמְשָׁל-בּוֹ: וַיֹּאמֶר קַיִן
אֶל-הָבֶל אָחִיו וְהָיוּ בְּחִיּוֹתָם בִּצְדָה וַיִּקָּם קַיִן אֶל-הָבֶל
אָחִיו וַיַּהַרְגֵהוּ: וַיֹּאמֶר יְהוָה אֶל-קַיִן אֵי הָבֶל אָחִיךָ וַיֹּאמֶר
לֹא יָדַעְתִּי הֲשֹׁמֵר אָחִי אָנֹכִי: וַיֹּאמֶר מַה עָשִׂיתָ קוֹל דְּמִי

(١) מבוא בללי למקרא . עמ' ١٧٥ .

אֶחָיִךְ צִעֲקִים אֵלַי מִן־הָאֲדָמָה: וְעַתָּה אֲרֹר אֶתָּה מִן־
הָאֲדָמָה אֲשֶׁר פָּצְתָה אֶת־פִּיהָ לְקַחְתָּ אֶת־דַּמִּי אֶחָיִךְ מִיָּדְךָ:
כִּי תִשָּׁבֵר אֶת־הָאֲדָמָה לֹא־חֲסָךְ תַּת־כַּחֲסָה לָךְ נָע וְנָר
תִּהְיֶה בְּאֶרֶץ: וַיֹּאמֶר קִין אֶל־יְהוָה וְדוּל עֹנִי מִנְּשׂוּאָה: הֵן
נָתַתָּ אֹתִי הַיּוֹם מֵעַל פְּנֵי הָאֲדָמָה וּמִכַּעֲנִיךָ אֶפְסָר וְהָיִיתִי נָע
וְנָר בְּאֶרֶץ וְהָיָה כָל־מִצְאֵי יְהַרְגֵנִי: וַיֹּאמֶר לוֹ יְהוָה לִבְנֵי
כָל־הָרֶגֶל קִין שֹׂבַע־תִּים גָּשָׁם וְשֶׁשׁ יִהְיֶה לְקִין אוֹת לְבִלְתִּי
הַכּוֹת־אוֹתוֹ כָּל־מִצְאֵי: וַיֵּצֵא קִין מִלְּפָנֵי יְהוָה וַיֵּשֶׁב בְּאֶרֶץ־
נֹדֶד קִדְמַת־עֵדֶן: וַיִּבֶעַ קִין אֶת־אֵשֶׁתוֹ וַתֵּהָרֶה וַתֵּלֶךְ אֶת־
הַנֶּגֶד וְהָיָה בֵּנָה עֵיר וַתִּקְרָא שֵׁם הָעֵיר כְּשֵׁם בְּנוֹ הַנֶּגֶד: (1)

ترجمة القصة إلى العربية : " وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت
قايين . وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب . ثم عادت فولدت أخاه هابيل . وكان
هابيل راعياً للغنم وكان قايين عاملاً في الأرض . وحدث من بعد أيام أن قايين
قدم من أثمار الأرض قرباناً للرب . وقدم هابيل أيضاً من أبقار غنمه وممن
سمّانها . فنظر الرب إلى هابيل وقربانه . ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر .
فاغتاض قايين جداً وسقط وجهه . فقال الرب لقايين لماذا اغتضت ولماذا سقط
وجهك ؟ إن أحسنت أفلا رفع وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليــــك
اشتياقها وأنت تسود عليها . وكلم قايين هابيل أخاه . وحدث إذ كانا في
الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله . فقال الرب لقايين : أين هابيل
أخوك ؟ فقال : لا أعلم . آحارس أنا لأخي ! فقال : ماذا فعلت لا موت دم أخيك
صارخ إليّ من الأرض (2) . فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم

(1) בְּרֵאשִׁית , ד , נ - 21 .

(2) هذا القول يراد به معناه الحرفي ، فقد كان العبريون يعتقدون أن دم
القتيل لا يزال يفيض ويصرخ ولا يفتأ يتعقب القاتل حتى يولجه رمسه ،
فعندهم أن دم الإنسان أو الحيوان هو حياته أو - على الأقل - أن روحه
تكمّن في دمه ، ومن هنا نشأ تحريم أكل الدم عند اليهود " لكن تحفظ من

أخيك من يدك . متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها . تائهاً وهارباً تكون فى الأرض . فقال قايين للرب : عقابى أعظم من أن يحتمل . إنك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك اختفى وأكون تائهاً وهارباً فى الأرض . فيكون كل من وجدنى يقتلنى . فقال له الرب : لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه . وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده فخرج قايين من لادن الرب وسكن فى أرض نود شرقى عدن . وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك . وكان يبنى مدينة . فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك .

= من أن تاكل الدم لأن الدم هو الحياة ولا ينبغي لك أن تأكل الحياة مع اللحم " (تشنية ١٢ : ٢٣) . ولهذا ملك الهلح على قايين ليه بعدما سفك دم أخيه هابيل وأصبح يحس أنه مطلوب بدمه . . وقد تذكر أخوة يوسف جنايتهم عليه وتذكروها حين اتهمهم يوسف ، ولما يعرفوه على حقيقتهم بأنهم قدموا مصر لكى يتحسوا أخبارها : " فأجابهم رؤاويين قائلاً : ألم أكلمكم قائلاً لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا فهو ذا دمه يطلب " (تكوين ٤٢ : ٢٢) .

وشبه بهذا ما كانت تذهب إليه جاهلية العرب من أن هناك طائراً يخلق من رأس المقتول يالف المقابر فى الليل ولا يزال يصرخ قائلاً : اسقونى . اسقونى ولا يكف عن المطالبة بالاقتماص للقتيل الذى ظل دمه حتى يقتل قاتله . ولذلك كانوا يطلقون على هذا الطائر اسم "المدى" أو "الهامة" قال الشاعر الأصمعي العدواني :

يا عمرو ألا تدع شتمى ومنقصتى اضربك حيث تقول الهامة اسقونى
ومن هنا نشأ تحريم سفك الدم ووجوب تطهر الجنود بعد القتال من اهراق دم العدو ومن لمسه حتى لا ينتقلوا ذلك الدم إلى عشييرتهم فتنتقل معه أرواح القتلى من الأعداء فيحتاج لها الاقتماص من قتلة أصحابها ، ومصدق ذلك قول موسى لجنوده وقد عادوا بعدما أعملوا السيف فى رقاب أهل مدين : " وأما أنتم فأنزلوا خارج المحلة سعة أيام . وتطهروا / كل من قتل نفساً وكل من مس قتيلاً فى اليوم الثالث وفى السابع أنتم وسيكم وكل متاع من جلد وكل مصنوع من شعر معز وكل متاع من خشب تطهرونه " (عدد ٣١ : ١٩ - ٢٠) .

راجع : عصام الدين حفى ناصف : اليهودية فى العقيدة والتاريخ . دار العالم الجديد . القاهرة سنة ١٩٧٧ . ص ٥٧ - ٦٠ .

ومن ملاحظتنا على هذه القصة :

١ - الاسم " *י'פ* " كما قالت حواء " اقتنيت رجلاً من عند الرب " : هو في نظرها مجرد " قنية " ، ولهذا أسمته "قايين" . ويتصل هذا الاسم بفعل عبري معناه " يفرط " أو " يظعن " ، فهو ينطوي في تضاعيفه على معنى العنف أو القتل كما يَنِمُّ على اسم جد مخترع الآلات الحديدية وأسلحة الدمار (١) ، ويحتمل أنه سَمَّى بهذا الاسم على اسم " الحربة *הקין* " (٢) - التي قتل بها ، أو اشتق من *הקירה* أي العويل وهو صوت النحيب الذي أحاط بقتله (٣) .

٢ - أما الابن الثاني . فقد دعى " هابل " *הבל* " وهو لفظ عبري زعم " يوسيفوس " أنه " حزن " أو " حسة " ، بيد أن العلماء المحدثين يفسرونه بمعنى " عدم " أو " وهن " أو " باطل " . وهي تسمية تلقى ظلال الشك على القصة كلها (٤) .

٣ - يبدو أن القاص أراد أن يرمز إلى أن القتل نتيجة الغيرة ، من خلال دوافع اقتصادية ، فالرب يعرض عن يفلح الأرض - رجل الاستيطان المستقر - ويتقرب من راعي الغنم المتجول ، وربما توجيه قايين إلى التجوال كان من أسس التوبة (٥) .

(١) " واتخذ لامك لنفسه امرأتين .. فولدت عادة يابال . الذي كان أبا لساكني لخيام ورعاة المواشي . واسم أخيه يوبال . الذي كان أبا لكل ضارب بالعود والمزمار . وطفلة أيضا ولدت توبال قايين الضارب كل آلة من نحاس وحديد " (تكوين ٤ : ١٩ - ٢٢) .

انظر : عصام الدين حفني ناصف : الأسطورة والوعي : ص ٦ .

(٢) راجع صموئيل الثاني ٢١ : ١٦ .

(٣) *אנציקלופדיה אוצר ישראל, חלק תשי"ע, העורך יהודה איזעלנשטיין, עמ' ١٧٦.*

(٤) عصام الدين حفني ناصف : الأسطورة والوعي . ص ٧ .

(٥) راجع (التكوين ٤ : ١٤ - ١٥)

وانظر : *לבסיקין מקראי, בעריכת מנחם סוליאלי, ז"ל - ומשה ברכוז, עמ' ٧٨٦. חלק שני. הוצאת דביר תל-אביב. הדפסה שניה תשל"ו.*

٤ - لم توضع لنا القصة لِمَ أعرض يَهُوهٌ عن قربان قايين واقتحمته عينه؟ وربما يجلى لنا علم الأساطير ما غمض من هذا الأمر ، فقد كان مبدأ التفحيط من المعالم البارزة في ديانة اليهود وليس ثَمَّ غفران للإثم بلا سفح دم ، فعلى اليهود أن يقدموا الأضاحى بين الحين والحين . وفي ناموس موسى الخاص باللاويين أن أهم واجبات أولئك الكهنة هو إحراق ما يقربه أفراد الشعب من تقدمات الإثم ، ومن ثَمَّ لم يكن عسيراً علينا أن ندرك كيف عمد اليهود الذين كتبوا التوراة أو الذين نقحوها بعد السبى البابلى إلى إسباغ هذا اللون الدموى على قصة التكوين تبريراً للتفحيط بالحيوان (١) .

٥ - لم تطلعننا القصة على العلامات التى استبان بها كل من الأخوين مصير قربانه ، وهى كذلك لم تخبرنا بفحوى الحديث الذى دار بين الأخوين ، ولكن يبدو من السياق أن أحدهما نقض التعايش السلمى بينه وبين أخيه وأنه استفزه بذلك الحديث الذى أعقبه مصرعه (٢) .

٦ - نلاحظ فى القصة موتيف : " **אות לבית' הפות אותו כל מוצאו** "

- علامة لكى لا يقتله كل من يجده " . ويحتمل من هذا الموتيف أن القصة تحتوى على بقايا عادات كان يتبعها القتلة . وعلى الرغم من أنه ليس فى وسعنا أن نأمل فى أن نحدد الشكل الحقيقى لهذه العلامة ، فإن علم الأساطير ربما يعيننا على تفهم ملامحها العامة على الأقل :

أ - فيرى " روبرتمون سميث " أن تلك العلامة كانت رمزاً للقبيلة " **אֶת הַשִּׁבְט** " ، وهى شعار يحمله كل فرد من أفراد القبيلة بقصد حمايته ، وذلك عن طريق الإشارة إلى أنه ينتمى إلى جماعة يمكن أن تتشاور لقتله (٣) .

-
- (١) عصام الدين حنفى ناصف : الأسطورة والوعى ، ص ٨ و ٩ .
(٢) المرجع السابق : ص ١٣ .
(٣) جيمس فريزر : الفولكلور فى العهد القديم ص ٧٣ . ت . د . نبيلة إبراهيم
الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة سنة ١٩٧٢ .

ب - ولكن هذا التفسير إذا ارتفعناه بالنسبة لعلامة " قايين " لا يتلاءم مع موقف " قايين " تماماً ، ذلك لأنه تفسير يتسم بالعمومية التامة . فإذا كانت العلامة من شأنها أن تحمي كل فرد من أفراد القبيلة ، سواء أكان قاتلاً أم غير قاتل ، فإن حوادث قصة " قايين " في مجموعها ، تنحوي إلى أن تبرز لنا أن علامة " قايين " لم يكن يحملها كل فرد من أفراد جماعة " قايين " ، وإنما كانت خاصة بقايين وحده .

ج - نخلص من حكاية " قايين " نفسها إلى أن قايين كان معرضاً لأخطار أخرى خلاف كونه معرضاً لأن يقتله أي فرد يقابله لكونه طريد مجتمعه ، حيث يتضح أن دم الأخ المقتول يشكل خطراً طبيعياً على القاتل ، فقد لوّث دم القاتل الأرض ، ومنعها من أن تفيض بخيراتها ، ومن ثمّ كان الاعتقاد في أن القاتل قد بث السم في منابع الحياة ، ونتيجة لذلك فقد عرض مصدر طعامه ، وربما طعام غيره ، للخطر . ومن المسلمّ به ، بناءً على وجهة النظر هذه ، أنه يتحتم معاقبة القاتل وطرده من البلد الذي يشكل وجوده فيه خطراً على الدوام . إنه أصبح أشبه بمبتلى الطاعون ، ومحاطاً بجو من السموم ، ومصاباً بعدوى الموت ، وربما تلوثت الأرض بلمسة من يده (١) .

د - على أن دم هابيل في القصة ليس هو الشيء الوحيد الذي شخّصه القاص ، فإذا كان قد صوّر الدم يصرخ صراخاً عالياً ، فقد صور الأرض فاعرة فاعها لتستقبل دم الضحية . وفي ملحمة " الإلياذة " (٢) شخص أخيل الأرض على نحو مماثل ، إذ صوّر الأرض تشرب من دم " أجاممنون " القاتل . ولكن ظلّح الصفات الإنسانية على الأرض يمتد خطوة أبعد من ذلك في قصة " قايين وهابيل " ،

(١) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

(٢) الإلياذة L laid ملحمة " هوميروس " سيد شعراء اليونان ويصف فيها حرب طروادة بعد حصارها ، حيث تبدأ حوادث الإلياذة في السنة العاشرة من حصار طروادة . وفي الملحمة نرى صورة وافية لحياة الطرواديين في الحصار ، وما يسود المحاربين من روح الفروسية .
أنظر : د . محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث . ص ٩١ .

ذلك أن " الأرض أحلت اللعنة بالقاتل " كما تقول القصة ، وعندما حاول أن يفلحها لم تنبت له خيراتها ، لأنه قدر له أن يصبح هائماً شديداً على وجه الأرض . والمقصود بذلك فيما يبدو هو أن الأرض ، وقد تلوثت بدم القتييل واستامت لجريمة الدم ، آبت أن تتيج للحب الذي بذره المجرم أن ينمو ويحمل ثماراً ، بل إنها طردت القتييل من الأرض الخصبة التي عبَّ عليها من قبل ، وأخرجته إلى المتاهات القاحلة حيث يهيم فيها بلا مأوى ولا طعام (١) .

هـ - كل هذه الحقائق السابقة تشير إلى احتمال أن العلامة التي يميز بها القاتل لا يقصد بها أولاً حماية القاتل نفسه ، بل يقصد بها حماية الآخرين الذين يصادفهم ، وإلا انتقلت إليهم عدوى الدنس إذا ما اتصلوا به ، فيحلَّ بهم غضب الإله الذي استاء لفعلته ، أو يحلَّ بهم غضب شبح القتييل الذي يطارده . أى أن العلامة ، باختصار ، ربما كانت إشارة خطر تحذر الناس من خطر القاتل ، شأنها شأن الرداء الخاص الذي كان يتحتم على المجدوم في بنى إسرائيل أن يرتديه ليحذر الأصحاء من خطره (٢) .

٧ - كم تذكر لنا القصة كيف " خرج قايين من لدن الرب " والرب فلى كل مكان ؟ (٣) ومن ذلك نرى أن يهوه ليس هو الروح اللانهائية للكون بل هو إله محلى منظور تراه العيون (٤) .

- (١) وليست فكرة أن الأرض كائن حي يصارع ضد ما يرتكبه سكانها من إثم ويطردهم بازدياد من أحضانها ، غريبة في التوراة ، فنقرأ في سفر اللاويين " أم الأرض تقذف سكانها " إذا هم دنسوها . كما أن الاسرائيليين قد حذروا تحذيراً رهيباً من ألا يحافظوا على شريعة الرب وأحكامه : " فلا تقذفكم الأرض بتنجيسكم إياها كما قذفت الشعوب التي قبلكم " (اللاويين ١٨ : ٢٨) .
- (٢) حيث جاء في سفر اللاويين ١٣ : ٤٥ : " والأبرص الذي فيه الضربة تكون ثيابه مشقوقة ورأسه يكون مكشوفاً ويغطى شاربيه وينادى نجس نجس " .
انظر : جيمس فريزر : الفولكلور في العهد القديم ص ٧٦ .
- (٣) كما فعل يونا (Jonah) من محاولته الهرب من وجه الرب تخلصاً مما كلفه آياه من المضي إلى نينوى وإبلاغهم الرسالة هناك " فقام يونا ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش فدفن أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب " راجع (يونا ١ : ٣) .
- (٤) عصام الدين حفنى ناصف : الأسطورة والوعى ، ص ١٦ .

٨ - وتشير القصة إلى تحدى " قايين " لمشيئة الرب : " وعرف قايين - امرأته فحبلت وولدت حنوك . وكان يبني مدينة . فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك " . وهذا الاستقرار في المدينة لا يتفق واللعنة الإلهية التي فرضت عليه أن يظل تائهاً وهارباً في الأرض (١) .

لكل ما تقدم نجد أن هذه القصة التي وردت في التوراة والتي تدعى لنفسها التاريخية لا يمكن إثباتها بالعودة للتاريخ نفسه ، لتظل قصة دينية يختلف المفسرون في معناها .

٢ - القصة السببية : (٢)

وانتساب القصة لهذا النوع لا يلب منها النواة التاريخية ، بل يتجه بهدف القصة إلى توضيح وتبرير الموقف في الزمن الحالي أكثر من تعلم العبرة مما حدث في الماضي ، من ذلك :

١ - قصة يعقوب في بيت إيل : لما سافر " يعقوب " إلى ما بين النهرين هارباً من وجه أخيه " عيسو " ، بات في مكان قرب مدينة " لوز " ، ورأى هناك رؤياه التي ظهر له فيها الله في تلك الليلة فدعا اسم المدينة حينئذ " بيت إيل " ، والقصة كما وردت في سفر التكوين نقدمها كما هي :

וַיֵּצֵא יַעֲקֹב מִבְּעֵר שֶׁבַע וַיֵּלֶךְ חֲרָנָה: וַיִּפְגַּע
בְּמָקוֹם וַיֵּלֶן שָׁם כִּי-בָא הַשֹּׁמֵשׁ וַיִּקַּח מִאֲבָנֵי הַמָּקוֹם וַיִּשֶׂם
מִקְרָאֲשָׁתוֹ וַיִּשָּׁבֵב בְּמָקוֹם הַהוּא: וַיַּחֲלֹם וַיַּהֲרֶה סֹלֶם מִצֵּב
אֲרָצָה וּרְאִשׁוֹ מִנֵּיץ הַשָּׁמַיְמָה וַיַּהֲרֶה מִלְאָכָיו אֱלֹהִים עֲלֵיָם
וַיִּרְדּוּ בָּו: וַיַּהֲרֶה וַיָּבֵן צֵלָיִל וַיֹּאמֶר אֲנִי וַיַּהֲרֶה אֱלֹהִי

- (١) المرجع السابق : ص ١٧ .
(٢) ويعرف بروفيسور " أ.أ. زليغم " " القصة السببية - ١٩٥٥-
הא"טולוג' " بأنها قصة تتضمن أحداثاً عن الماضي البعيد وهدف هذه
الأحداث هو تبرير أو توضيح أحداث في الزمن الحالي كمثل أو موقف معين
أو عُرف .
" أ.أ. زليغم : יסודות אייטולוג'ים בהיסטוריוגר-
אנظر :
פיה המקראית , עמ' ١٤١ , צ'ין כו ת"א , תשב"א .

אברהם אביך ואלהי יצחק הארץ אשר אתה עבב עליה
 לת אחננה ולזרעה: והנה זרעך בעפר הארץ ופרצת גמה
 וקדמה וצפנה וגבה ונברכו בך כל-משפחת האדמה
 וזרעך: והנה אנכי עמך ושמרתיו בכל אשר-תלך
 ותשבתיך אל-האדמה הזאת כי לא אעזבך עד אשר אס-
 עשיתי את אשר-דברתי לך: ויבן יעקב משכנו ויאמר
 אבן גש יהיה במקום הזה ואנכי לא ידעתי: ויבא ויאמר
 מה-נורא המקום הזה אין זה בי אס-בית אלהים וזה שער
 השמים: תשכל יעקב בבקר בקח את-האבן אשר-שם
 וקאטתיו וישם אתה מצבה חלק שמן על-ראשה: ויקרא
 את-שם-המקום ההוא בית-אל ואולם לח שם-העיר
 לראשונה: בקר יעקב נדר לאמר אס-יהיה אלהים עמדי
 ושמרני בדרך הזה אשר אנכי הולך ונתן-לי לחם לאכל
 ובגד ללבוש: ושכתי בשלום אל-בית אבי יהיה יהוה לי
 לאלהים: והאבן הזאת אשר-שיתי מצבה יהיה בית
 אלהים וכל אשר תתן-לי עֹד אעשרנו לך: (1)

- الترجمة العربية :

وخرج يعقوب من بئر سبع ولهب نحو حاران : وصادف مكاناً وبيات هناك
 لأن الشمس كانت قد غابت . وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع
 في ذلك المكان : ورأى حلمًا وإذا سلم منموبة على الأرض ورأسها يمس السماء ..
 وهودا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها : وهو ذا الرب واقف عليها فقال أنا
 الرب إله إبراهيم أبيك وإله اسحق . الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها
 لك ولنسلك : ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً .
 ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض : وها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب
 وأردك إلى هذه الأرض . لأنني أتركك حتى أفعل ما كلمتك به : فاستيقظ يعقوب
 من نومه وقال حقاً إن الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم : وخاف وقال ما
 أرهب هذا المكان . ما هذا . إلا بيت الله وهذا باب السماء : وبكر يعقوب في

(1) בראשית, כח, ' - כב .

المصباح وأخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصب زيتاً على رأسه :
ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل . ولكن اسم المدينة أولاً كان لوز : ونسدر
يعقوب ندرأ قائلًا إن كان الله معى وحفظنى فى هذا الطريق الذى أنا سائر
فيه وأعطانى خبراً لكل وثياباً لللبس : ورجعت بسلام إلى بيت أبى يكون الرب
لى إلهها : وهذا الحجر الذى أقمتة عموداً يكون بيت الله وكل ما تعطينى فإنى
أعشره لك " :

من هذه القصة يمكن أن نلاحظ :

١ - إن حكاية حلم " يعقوب " قد حكيت فيما يبلو ، وكما لاحظ النقاد
ذلك ، لكى تفسر قدسية " بيت إيل " (١) ، ذلك المكان البالغ فى القدم الذى
ربما كان يقدسه سكان أرض كنعان الأصليون ، قبل أن يغزوها العبريون
ويستقروا فيها بزمان طويل (٢) .

٢ - تركزت فى القصة عدة موتيفات أسطورية نلخصها فيما يلى :

أ - الاعتقاد فى أن الآلهة تتمثل للإنسان فى رؤياه وتكشف له عن إرادتها
امتقاداً كان ينتشر فى الزمن القديم . ووفقاً لهذا الاعتقاد كان الناس
يلوذون بالمعابد والأماكن المقدسة الأخرى وينامون هناك حتى تظهر لهم القوى
العلوية فى رؤياهم وتتحدث معهم ، إذ كان من الطبيعى أن يعتقدوا أن الآلهة
أو أرواح الأشخاص المولاهين أكثر ما تتمثل لهم فى تلك الأماكن المخصصة
 لعبادتها (٣) .

ب - سلم السماء : لقد كان المكان الصخرى المنعزل بين التلال الجرداء
الذى نام عنده يعقوب ورأى فى منامه أن الملائكة تهبط وتمعد على سلم يصل
بين السماء والأرض ، يختلف كل الاختلاف عن أماكن النبوة التى كانت تقـع
وسط الطبيعة الجميلة فى كل من بلاد الإغريق والرومان ، والاعتقاد فى وجود

(١) מבוא כללי למקרא . עמ' ١٦١ .

(٢) جيمس فريزر : الفولكلور فى العهد القديم . ص ٢٢٧ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٢٧ .

مثل هذا المسلم الذى تستخدمه الكائنات الإلهية أو أرواح الموتى يصادفنا فى بقاع كثيرة من أنحاء العالم ، فقد كانوا يضعون سلالم مصغرة فى القبور لئلى يسهلوا للأرواح عملية الصعود إلى مكان البركة ، ويكثر الحديث من سَلَم فى كتابات أهرامات الجيزة ، كان الملوك المصريون المتوفون يرتقون عليه إلى السماء ، بل إنه قد عثر على سلالم فى قبور الفراعنة ، وربما كان الغرض منها مساعدة الأرواح عند الخروج من القبور ، وربما كان الغرض منها مسامحتهم على الصعود إلى السماء وفقاً لاعتقاد الناس (١) .

ج - الحجر المقدس : كانت الأحجار المقدسة أو الأعمدة الصخرية تعد فى العادة معابد مقدسة عند الكنعانيين والعبريين فى الزمن القديم ، ولم يحكم الإسرائيليون على هذه الآثار الحجرية البسيطة بوصفها بقايا عبادات وثنية ، ودعوا إلى هدمها ومنعوا تشييدها إلا فى عصور متأخرة ، وذلك بدافع تطور جوهر ديانتهم ، وكانوا يعتقدون فى الأصل أن الرب كان يسكن حقاً فى هذه الأحجار ، وكان إحساسهم بالرهبة من سكنى الرب لهذه الأحجار هو الذى يخلق عليها قدسيتها ، ومن ثم فقد أعلن يعقوب أن الحجر الذى نصبه فى " بيت إيل " ينبغى أن يكون بيت الرب .

وفى ضوء هذه الموازنات لا نستطيع أن نحدد ما إذا كانت قمة يعقوب تعد رواية متوارثة لحادثة حقيقية ، أم أنها وضعت لتفسير قدسية هذا المكان الذى كان يرتبط بهذه العادة من قبل ، فمن المحتمل أنه كان بأرض كنعان العديد من هذه الأحجار المقدسة أو بيوت الأرباب ، وكان ينظر إليها جميعاً على أنها مساكن لأرواح قوية ، ومن ثم فقد كانت تظلى بالزيت . ومن المؤكد أن عبارة " بيت إيل " أو بيت الإله كانت اسماً مألوفاً لأحجار مقدسة من نوع معين كان يوجد فى فلسطين . وقد استعار الأغريق هذه العبارة وحوروها إلى " بيتيل - وس " أو " بيتيل - لون " ، وهى تشير إلى الأحجار المستديرة السوداء التى تسكنها أو يتقمصها روح من الأرواح يتحرك فى الهواء وينطق

بنبوءات في صوت كالمفبر في وسع الساحر أن يترجمه ، ومن المحتمل من ناحية أخرى أن الحجر المقدس الذي ينسب إلى يعقوب في " بيت إيل " كان من هذه الأحجار الصلبة المنتصبة ، أو إحدى الأعمدة الخشنة التي كان العبريون يسمونها " אֲבָנֵי זֶכֶד " (١) ، وهي تلك الأحجار التي كانت ملحقة بمعابد الكنعانيين والإسرائيليين المبكرة (٢) .

وينسب إلى هذا النوع من القصص : قصة إقطاع إبراهيم سبع نعـاج لأبيمالك تفسر مصدر الاسم بئر سبع " אֲבִימָלַךְ בֵּית שֶׁע " (٣) ، وقصة ضحك " سارة " تبرر التسمية " إسحق ' אִשְׁחָק " (٤) ، وقصة صراع يعقوب مع الملك تفسر تسمية المكان الذي شهد صراعهما بـ " פְּנֵי אֵל " أي " وجه الرب " ، حيث فسر هذا الاسم بقوله " لأنني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي " (٥) ، كما تفسر هذه القصة أيضاً امتناع اليهود عن أكل عرق النساء : " لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء الذي على حق الفخذ إلى هذا اليوم ، لأنه ضرب حـق فخذ يعقوب على عرق النساء " (٦) .

ويلخص بروفيسور " زليجمان " ما سبق ويقول إن واقع الأحداث التاريخية سببه كلمة الرب في الماضي ، فاليهود تاريخهم مقدس يعبر عن الإرادة الربانية ، فإنه إسرائيل يتدخل في التاريخ اليهودي من أونة لأخرى ، والأمة اليهودية لم تأت للوجود من خلال تطور تاريخي وإنما ظهرت من خلال تدخل إلهي مباشر ، أي أن الخالق قد حل في الشعب وتاريخ الشعب (٧) .

(١) راجع (تكوين ٢٢: ٢٨ و ٢٠: ٣٥) و(صموئيل الثاني ١٨: ١٨) و(خروج ٢١: ١٣ و ٩: ٢٣)

(٢) جيمس فريزر : الفولكلور في العهد القديم . ص ٢٣٥ و ٢٤٢ .

(٣) تكوين ٢١ : ٢١ .

(٤) تكوين ١٨ : ٩ - ١٥ .

(٥) تكوين ٣٢ : ٣٠ .

(٦) تكوين ٣٢ : ٣٢ .

(٧) 'סודות איטולוגיים בהיסטוריוגרפיה המקראית עמ' ١٦٥.

٣ - قصص المعجزات :

وهي التي تظهر قوة الرب وسلطانه على الطبيعة ، وعلى سير الأحداث التاريخية أيضاً ، ومن هذا النوع قصة " ضربات مصر - *מַכּוֹת מִצְרַיִם* " وقصة الخروج من مصر *יְצִיאַת מִצְרַיִם* " وإن كانت قصة الخروج تنسب أيضاً إلى القصص التاريخية (١) ولذلك عند عرضها لها سنكتفي بعرض مشهد انفلاق البحر وعبور بني إسرائيل وغرق فرعون وجنوده :

قصة انفلاق البحر وعبور بني إسرائيل :

بعد أن علم فرعون مصر بهروب بني إسرائيل جمع جنوده واتبعهم حتى يردهم إلى عبوديته ، وكان بنو إسرائيل قد بلغوا ساحل البحر " ، وأطلع عليهم مع شروق الشمس فآيقنوا بالهلاك وأن فرعون باطش بهم فسكن موسى روعهم وضرب البحر كما أمره الرب . وقد قمت التوراة هذا المشهد على النحو التالي :

וּפָרַעְהָהּ הַקְרִיב וַיִּשְׂאֵל בְּנֵי־יִשְׂרָאֵל אֶת־עֲבֹדֵיהֶם וְהָיָה
מִצְרַיִם . וַיִּסַּע אַחֲרֵיהֶם וַיִּרְאוּ מָאֹד וַיַּצַּעְקוּ בְּנֵי־יִשְׂרָאֵל
אֶל־יְהוָה : וַיֹּאמֶר אֱלֹה־מֹשֶׁה הַמִּכְלִי אֶת־קְדָרִים בְּמִצְרַיִם
לְקַחְתָּנוּ לְמוֹת בְּמִדְבָּר מִהַדְּוָאֵת עָשִׂיתָ לָּנוּ לְהוֹצִיאָנוּ
מִמִּצְרַיִם : הֲלֹא־נָהָה הַדָּבָר אֲשֶׁר דִּבַּרְנוּ אֵלֶיךָ בְּמִצְרַיִם
לֵאמֹר חָרַל מִמֶּנּוּ וַנַּעֲבֶדְהָ אֶת־מִצְרַיִם כִּי טוֹב לָנוּ עֲבֹד
אֶת־מִצְרַיִם מִמוֹתָנוּ בְּמִדְבָּר : וַיֹּאמֶר מֹשֶׁה אֶל־הָעָם אֱלֹה־
תִּירְאוּ הַתְּנַצְּבוּ וְדָאוּ אֶת־יְשׁוּעַת יְהוָה אֲשֶׁר־הַנַּעֲשֶׂה לָכֶם
הַיּוֹם כִּי אֲשֶׁר רָאִיתֶם אֶת־מִצְרַיִם הַיּוֹם לֹא תִסְפוּ לְרֹאאֶתָם
עוֹד עַד־עוֹלָם : וְהָיָה וְלָתֶם לָכֶם וְאַתֶּם תַּחֲרֹשׁוּ : פ
וַיֹּאמֶר יְהוָה אֱלֹה־מֹשֶׁה מִהַחֲצֹק אֵלַי דִּבַּר אֱלֹה־בְנֵי־
יִשְׂרָאֵל וַיִּסְעוּ : וְאַתָּה הָרַם אֶת־מִטָּה וְנָטָה אֶת־הַדָּרָךְ עַל־
הָיָם וַיִּקְרַעְהוּ וַיִּבָּא בְּנֵי־יִשְׂרָאֵל בַּתֵּיבָה הָיָם בִּדְבָשָׁה : (٢)

(١) מבוא כללי למקרא . עמ' 172 .

(٢) שמות , י' - טז .

- فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راظون وراءهم ، ففرعوا جداً وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب . وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية . ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر . اليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين . لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية . فقال موسى للشعب لا تخافوا . قفوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنع لكم اليوم . فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضاً إلى الأبد . الرب يقاتل عنكم وأنتم تسكتون . فقال الرب لموسى مالك تصرخ إلي . قل لبني إسرائيل أن يرحلوا . وارفع أنت عصاك ومد يدك على البحر وشقه . فيدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة .

ثم ضرب موسى البحر كما أمره الرب ، فانفلق حتى ظهرت أرضه ، فأمر موسى بنو إسرائيل بالعبور فيه فعبروا من الشاطئ الغربي إلى الشاطئ الشرقي . وأشرف في ذلك الحين فرعون على الموضع الذي عبر منه بنو إسرائيل ، فرأى طريقاً في البحر لا وعورة فيه ، وبنى إسرائيل بين فرقى الماء لهم يمشهم أذى . فطمع أن يعبر في أثرهم فيردهم هو وجنوده . فاقتحموا الطريق اليابس في البحر خلف بني إسرائيل . فلما جاز بنو إسرائيل البحر - ولم يبق أحد منهم بين المياه المنحصرة ، وفرعون قد توسط البحر هو وجنوده انطبق البحر عليهم وعاد كما كان أولاً . وغرق فرعون وجنوده ولم يفلت منهم أحد ممن اقتحم الماء . وقد قمت التوراة هذا المشهد على النحو التالي :

וַיִּשָּׂא מֹשֶׁה אֶת־הַדָּוָר עַל־הָעָם
וַיֹּאמֶר יְהוָה אֶת־הָעָם בְּרוּחַ קָדְשׁ עֲזָה כָּל־הַלַּיְלָה וַיִּשָּׂא
אֶת־הָעָם לַחֲרֹבָה וַיַּבְקִעֵם הָעָם: וַיָּבֹאוּ בְּעֶדְיוֹ שְׂרָאֵל בְּתוֹךְ
הָעָם בַּיָּבֵשׁ וַיִּמְצְאוּ לָהֶם הוֹדָה מִיָּמִינָם וּמִשְׁמָאלָם: וַיַּרְדּוּ
מִצְרַיִם וַיָּבֹאוּ אֶחָד־הֶם בַּל כּוֹס פָּרֹעַ רַבָּם וַיַּרְשֻׁוּ אֶל־
תוֹךְ הָעָם: - - - - -
וַיֹּאמֶר יְהוָה אֶל־מֹשֶׁה נִשֵּׂא אֶת־הַדָּוָר עַל־הָעָם וַיִּשָּׂא הָעָם
עַל־מִצְרַיִם עַל־רַבָּם וְעַל־פָּרֹעִי: וַיִּשָּׂא מֹשֶׁה אֶת־הַדָּוָר עַל־
הָעָם וַיִּשָּׂב הָעָם לַפְּנֹת בִּקְרֹל לְאַיִקָּהוּ וּמִצְרַיִם נָסִים לַקְרָאֲתוֹ

וַיִּנָּעַר יְהוָה אֶת־מִצְרַיִם בְּתוֹךְ הַיָּם: וַיָּשְׁבוּ הַיָּם וַיִּכְסּוּ אֶת־
הָרֶכֶב וְאֶת־הַפָּרָשִׁים לְכָל הַיּוֹם פָּרְעֹה הַבָּאִים אַחֲרֵיהֶם
בָּיָם לֹא־נִשְׁאַר בָּהֶם עַד־אַחֶר: וַכֵּן יִשְׂרָאֵל הִלְכוּ בַּיָּבֵשׁ
בְּתוֹךְ הַיָּם וְהַיָּם חָלַה מִימִינָם וּמִשְׁמָאלָם: וַיֹּשַׁע יְהוָה
בַּיּוֹם הַהוּא אֶת־יִשְׂרָאֵל מִיַּד מִצְרַיִם וַיֵּרָא יִשְׂרָאֵל אֶת־
מִצְרַיִם מֵת עַל־שַׁפַּת הַיָּם: וַיֵּרָא יִשְׂרָאֵל אֶת־הַיָּד הַגְּדֹלָה
אֲשֶׁר עָשָׂה יְהוָה בַּמִּצְרַיִם וַיִּרְאוּ הָעָם אֶת־יְהוָה וַיֹּאמְרוּ
בְּיַהוָה וּבְמֹשֶׁה עֲבָדָיו: (1)

- ומד מוס ידה עלی البحر . فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة
כל الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء . فدخل بنو إسرائيل في وسط
البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم . وتبعهم المصريون
ودخلوا وراءهم . جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر ... فقال
الرب لموسى مَد يَدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم
وفرسانهم . فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله
الدائمة والمصريون هاربون إلى لقائه . فدفع الرب المصريين في وسط
البحر . فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم
في البحر . لم يبق منهم ولا واحد . وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة
في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم .. فخلص الرب في ذلك
اليوم إسرائيل من يد المصريين . ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطئ
البحر . ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذى صنعته الرب بالمصريين . فخلص
الشعب الرب وآمنوا بالرب ويعبده موسى .

ולנא עלی هذه القصة عدة ملاحظات منها :

1 - تصف لنا شكاوى بنى إسرائيل لموسى وضيقتهم وفرعهم عند رؤيتهم
فرعون مصر وجنوده. خلفهم : التوتر بين القائد الذى كرس حياته لفكرة سامية

(1) שמות , ד' . כא - כג , כו - לא .

شجاعة ، والشعب الذى يتبعه ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تصف لنا التطلع إلى حياة الاستقرار والرزق ، وبذلك فهذه القصص لا يوجد فيها أساس دينى عقائدى فى حد ذاتها ، ولكن التوراة هى التى وضعتها فى هذا الإطار العقائدى المسبوك ، فلا فصل هنا بين التمرد على رسول الرب والتمرد على الرب نفسه . ولكن من قوة إيمانه بالرب يستمد " موسى " قوته مرة بعد أخرى لمواجهة تمرد بنى إسرائيل (١) .

٢ - يبدو أن حادثة شق البحر قد ارتبطت بامكانيات مادية تطوع الحدث لمنطق الواقع الإنسانى ، فقد أجمع ما وصل إليه العلم التاريخى والجغرافى أن " بحر سوف " סוף " جنوب شرقى بحيرة المنزلة ، مجرد مستنقعات ضحلة ، تخضع مياهها لحركة الريح ، ومن ثم (مد موسى يده إلى البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل ، وجعل البحر يابسة ، وأنشق الماء) ولما عبر بنو إسرائيل تغيير مجرى الريح فأطبق على فرعون وقومه . وفى حالة الاطباق لا يحتاج الإغراق إلى أعماق (٢) .

(١) אנציקלופדיה מקראית, חלק ה', עמ' 494.

Judaica Encyclopaedia, Moses, P. 381. Keter Publishing House Jerusalem Ltd., 1972.

(٢) أما فى قصة عبور (نهر الأردن) فقد كان النهر ممتلئاً إلى جميع شطوطه ، لهذا خشى الرب عدم تمديد هذه المعجزة ، فكلم " يشوع " أن يحضر اثنتى عشر رجلاً ، (رجلاً واحداً من كل سبط) ويأمرهم أن يحملوا من هنا من وسط الأردن من موقف أرجل الكهنة راسخة - اثنتى عشر حجراً ، ويضعوها (فى البيت الذى تبيتون فيه الليلة) حتى (إذا سأل غداً بنوكم قائلين - وما لكم وهذه الحجارة تقولون أن مياه الأردن قد انغلقت أمام تابوت عهد الرب . فتكون هذه الحجارة تذكراً لبنى إسرائيل إلى الدهر) (راجع سفر يشوع الإصحاح الرابع) وحتى يعظم أمر يشوع ، كما كان أمر موسى ، فإن كاتب السفر لا يفوته أن يجمع بين الحدثين الخارقين على لسان يشوع :

- (تعلمون بنيكم قائلين على اليابسة عبر إسرائيل هذا الأردن ، لأن الرب ألهمكم قد بين مياه الأردن من أمامكم ، حتى عبرتم كما فعل الرب إليهم ببحر سوف الذى يبسه من أمامنا حتى عبرنا) (راجع يشوع ٤: ٢١/٢٢) =

٣ - بعد معجزة شق البحر وتخليص الرب إسرائيل من يد المصريين ، فإن موسى وبني إسرائيل يترنمون بتسبيحة للرب يصفون فيها الرب بأنه " رجل الحرب 'הוזה איש מלחמה " (١) ، وتشير قصة الخروج إلى أن بنى إسرائيل حين خروجهم من مصر كانوا مسلحين : **והמושים ללוא בני-ישראל מארץ מצרים** " (٢) - وصعد بنو إسرائيل متجهزين من أرض مصر - وأشار حكماء بنى إسرائيل إلى أن بنى إسرائيل قد خرجوا من مصر ومعهم خمسة عشر نوعاً من الأسلحة ، وأن الرب هو الذى كان يوحى إلى موسى بخطط الحرب والخديعة فيأمره بالتجسس وجمع المعلومات قبل الهجوم على أرض كنعان .. وهكذا نجد أن التوراة بعد قصة الخروج تطبع العقيدة الإسرائيلية برباط وثيق بين " حرب إسرائيل " و " رب إسرائيل " ، حيث يصبح هذا الرب هو " رب الجنود " ، الذى يمهّد لبني إسرائيل السبيل لتحقيق مآربهم فى الغزو والاحتلال وطرد الشعوب (٣) .

٤ - إن معجزة انشقاق البحر فى قصة الخروج هى محور الاهتمام فى القصة ، وليس الحدث ذاته الذى قد نعجز عن فهمه علمياً ، وهذا يخرج بنا من مجال التفكير التاريخى إلى مجال التفكير اللاهوتى العقائدى ، والذى يعلل كل حادثة ، ويفهمها فى إطار ما تعنيه دينياً ، فالمصادر المصرية تكاد لم تذكر شيئاً ذا أهمية لحادثة خروج العبريين التى اعتبرت المصــــادــــر الإسرائيلية حادثة رئيسة ، وهذا يعنى أن حادثة تاريخية معينة قد تكون

= ويكاد يفتح فى يدينا مفتاح هذا السر حين استمر قائلاً : (لكى تعلم جميع شعوب الأرض يد الرب أنها قوية ، لكى تخافوا الرب إلهكم كل الأيام) ، (راجع يشوع ٢٤:٤) ، فكان الهدف من (المعجزة) بث روح الخوف فى نفوس الأعداء ، مع تقوية معنويات بنى إسرائيل .
أنظر : د. كامل سعبان : دراسة فى التوراة والإنجيل . ص ٧٤ - ٧٥ ، ط ١ .
القاهرة سنة ١٩٨١ .

- (١) الخروج : ١٥ : ٣ .
- (٢) الخروج : ١٣ : ١٨ .
- (٣) د. رشاد عبدالله الشامى : الشخصية اليهودية والروح العدوانية ص ١٦٨ - ١٦٩ ، عالم المعرفة (١٠٢) الكويت سنة ١٩٨٦ .

أهميتها التاريخية ضئيلة ، ومع ذلك تتحول في التفكير اللاهوتي إلى حادثة ذات معنى ديني كبير (١) .

هـ - تنسب قصة الخروج إلى مصدرين أساسيين من مصادر التوراة ، وهما المصدر الإلهومي والمصدر اليهودي ، وكل مصدر له رؤيته الخاصة ، فالمصدر اليهودي يصور خروج بني إسرائيل وهم على علاقة طيبة بالمصريين ، حيث نقرأ :
וַיְהִי יְהוָה אֱלֹהֵינוּ
חָן הָעַם בְּעֵינֵי מִצְרַיִם גַּם הָאֱלֹהִים מִשָּׁחַ נָדוּל מֵאֵל בְּאֶרֶץ
מִצְרַיִם בְּעֵינֵי עֲבָדֵי-פַרְעֹה וּבְעֵינֵי הָעָם: (٢)

- وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين وكان الرجل موسى أيضاً ذا نعمة كبيرة في أرض مصر وفي نظر عبيد فرعون وفي نظر الشعب .

وينسب لهذا المصدر أيضاً خلق فكرة أرض إسرائيل كمصطلح مفضل يطلق على كنعان الأرض الممتلئة عسلاً ولبناً (٣) .

(١) وهذا يشير الى أن القيمة الدينية عند المؤرخ الإسرائيلي أهم من الحادثة التاريخية . فهذه القيمة هي التي يعتمد عليها مفهوم الإيمان في الديانة اليهودية ، فبالنسبة لهذا المؤرخ الوقائع الواردة في العهد القديم ليست مهمة لذاتها ، ولكنها مهمة للدور الذي تلعبه في الدين . وهذا يجعلنا نشعر أحياناً بإمكانية وضع حادثة تاريخية أو اختلاقها لتوائم فكرة دينية معينة ، وكثير من وقائع التاريخ الإسرائيلي تحتاج للتمحيص التاريخي وللقند المنهجي الموضوعي . فلقد أصبح التاريخ عند المؤرخ الإسرائيلي وسيلة أو أداة تستغل لتحقيق وعود الإله لشعبه .. ولهذا كثيراً ما نجد الحادثة تتحول إلى معجزة في نظر المؤرخ الإسرائيلي وإذا كان من الممكن دراسة الحادثة دراسة تاريخية فمن الصعب دراسة المعجزة بنفس المقاييس التاريخية المعروفة ولا يمكن إخضاعها للتحليل العلمي .

أنظر : د. محمد خليفة حسن أحمد : دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة ص ٦٤ . دار الثقافة . القاهرة سنة ١٩٨٥ .

(٢) שמות , ١٧ , ١٨ .

(٣) د. محمد خليفة حسن أحمد : علاقة الإسلام باليهودية . ص ٢٧ - ٢٨ .

٤ - القصص الأخلاقية :

وهي القصص التي تتضمن بوجه عام عظة أخلاقية وتوجيهاً دينياً - مع مراعاة أنه من المحتمل أن تتضمن القصة التاريخية " أو " القصة السببية " أو " قصص المعجزات " توجيهات دينية وجوانب أخلاقية ، فمثلاً قصة خروج آدم من الجنة تلقى الضوء على تاريخ الإنسان الأول ، ولكنها أيضاً تتضمن توجيهاً دينياً خلقياً وهو أن عصيان الله وعدم التحكم في الغريزة هما من الكبائر (١) ، وكذلك قصة الطوفان فهي قصة تاريخية ولكنها تشير إلى عقاب الإنسانية بسبب خطاياها (٢) ، وقصة التقريب " ספור העקדה " (٣) فهي تنسب إلى قصص المعجزات التي وردت في التوراة ولكنها تشير إلى طاعة إبراهيم وإيمانه بالرب (٤) ، ولكن هناك أيضاً قصص أخلاقية فقط مثل قصة " إبراهيم والملائكة " (٥) التي تشير إلى حسن الضيافة وإلى التوجيه الأخلاقي البارز :
" מעשה אבות סימן לבנים - الولد على سرّ أبيه " (٦) .

ولكن قبل عرض هذا النوع من القصص نقول أن للتوجيه الخلقى وجهين :
وجه إيجابى يسير فى اتجاه يودى إلى تقرير المبادئ الخلقية التى يبراد دعمها ، ووجه سلبى يسير فى اتجاه يودى إلى إدانة الأنماط الخلقية التى يبراد استنكارها . فما عسى أن يكون حظ قصص التوراة من القيمة الخلقية على ضوء هذا المفهوم ؟

أول ما يطالعنا بهذا المدد ما نسبته التوراة لإبراهيم فى قصته مع فرعون مصر ، فقد ذكرت على لسان إبراهيم عندما عقد العزم على التوجه مع زوجته سارة إلى مصر هرباً من القحط أنه قال :

- (١) راجع القصة فى سفر التكوين الإصحاح الثانى والثالث .
- (٢) راجع القصة فى سفر التكوين الإصحاح السادس والسابع .
- (٣) التكوين ٢٢ : ١ - ١٩ .
- (٤) מבוא פללי למקרא , עמ' ١٦٢ .
- (٥) التكوين ١٨ : ٢ - ٨ .
- (٦) מבוא פללי למקרא , עמ' ١٦٢ .

וְהָיָה כְּאִשֶּׁר הִקְרִיב לְבֹא מִצְרָיִם וַיֹּאמֶר
 אֶל-שְׂרָי אִשְׁתּוֹ הִנֵּה-נָא יָדַעְתִּי כִּי אִשָּׁה וּפְתִיחַ מִדְּרָאֵה אָתָּה:
 וְהָיָה כִּי-יִרְאוּ אֹתָךְ הַמִּצְרִיִּים וְאָמְרוּ אִשְׁתּוֹ זֹאת וְהָרְגוּ אֹתִי
 וְאֹתָךְ וַחַיּוֹ: אֲמַר-נָא אֶתְחִי אֵת לַמַּעַן יִטְבֹּד-לִי בַעֲבוּרְךָ
 וְחַיִּתָּה נַפְשִׁי בְּלִלְךָ: וְהָיָה כְּבֹא אֲבָרָם מִצְרָיִם וַיִּרְאוּ
 הַמִּצְרִיִּים אֶת-הָאִשָּׁה כִּי-יֹפֶה הוּא מְאֹד: וַיִּרְאוּ אֹתָהּ שְׂרָי
 פְרָעָה וַיְהַלְלוּ אֹתָהּ אֶל-פְּרָעָה וַתִּקַּח הָאִשָּׁה בֵּית פְּרָעָה:
 וְלֹא-בָרָם הִיטִיב בַּעֲבוּרָהּ וַיְהִי-לָהּ צֶאֱן-וּבָקָר וַחֲמֹלִים
 וְעֶבְדִּים וְשִׁפְחֹת וְאֶתְנֵת וְנִמְלִים:

- وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لسراى امرأته إنى قد علمت أنك
 امرأة حسنة المظهر : فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته ،
 فيقتلوننى ويستبقونك : قولى إنك أختى . ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى
 من أجلك : فحدث لما دخل إبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها
 حسنة جداً : ورآها وزراء فرعون ومدحوها لدى فرعون . فاخذت المرأة إلى بيت
 فرعون : فصنع إلى إبرام خيراً بسببها . وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد
 وإماء وأتن وجمال . "

بعد ذلك أعادت التوراة هذه القصة ذاتها مرة أخرى حين نزل إبراهيم
 وامراته مغتربين فى أرض جرار فروت على لسان إبراهيم أنه قال عن سارة
 إنها أخته مما حدى " بأبيمالك " ملك جرار إلى أخذها عنده ، فلما اكتشف
 الحقيقة عَنف إبراهيم على خداعه إياه ولكنه فى الوقت نفسه أعطاه غنماً
 وبقرًا وعبيدًا وإماءً وألفًا من الفضة وردَّ إليه امرأته (٢) .

ثم لم تكتفِ التوراة بحادثى إبراهيم فروت نفس القصة مع ابنه اسحاق
 حين قصد إلى أرض جرار ليقيم فيها :

וַיִּשְׁאֲלוּ אֹנֶשֶׁי הַמָּקוֹם לְאִשְׁתּוֹ וַיֹּאמֶר אֶתְחִי הוּא כִּי
 יִרְאָה לְאִמִּר אִשְׁתִּי כִּי-יִהְיֶה אֹנֶשֶׁי הַמָּקוֹם עַל-רִבְקָה כִּי-

(١) זרעא ש'ט' ב', א' - ט'.

(٢) راجع التكوين الإصحاح ٢٠ .

שובת מראה הוא: נהי כי ארבו-לו שם הנמים ונשקף
אבימלך מלך פלשתים בעד החלון ונרא והנה יצחק
מוצחק את רבקה אשתו: ונקרא אבימלך ליצחק ויאמר
אלה הנח אשתך הוא ואיך אמרת אשתי הוא ויאמר אליו
יצחק כי אמרתי פן-אמית עליה: ויאמר אבימלך מה-
זאת עשית לנו כמעט שכב אחר העם את-אשתך והבאת
עלינו אשם: (1)

وسأله أهل المكان عن امرأته ، فقال هي أختي لأنه خاف أن يقول امرأتي
لعل أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المظهر . وحصلت
إذ طالت له الأيام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر
فإذا إسحاق يلعب رفقة امرأته ، فدعا أبيمالك إسحاق وقال : إنما هي
امراتك فكيف قلت هي أختي . فقال له إسحاق لاني قلت لعلّي أموت بسببها .
فقال أبيمالك : ما هذا الذي صنعت بنا . لولا قليل لأضغ أحد الشعب مع
امراتك فطبت علينا دنياً .

التعليق :

١ - لقد أغفل كتاب سفر التكوين أن يبينوا لنا كم كان عمر سارة عندما
أدهلت بجمالها ملوك الشرق الأدنى فبذلوا لزوجها ما جعله يغدو من ذوى الثراء
بيد أننا نستطيع أن نستنبط ذلك من الأرقام المبعثرة التي وردت عرضاً فى
سياق القصة :

أ - رزق تارح عندما أتى من العمر ٧٠ عاماً بابنه إبراهيم : " وعاش
تارح سبعين سنة وولد إبراهيم وناحور وهاران " (٢) .

ب - " كانت أيام تارح مئتين وخمسين ، ومات تارح فى حاران " (٣) .

ج - ويؤخذ من ذلك أن أبرام عاش فى كنف أبيه ببلدة حاران ٢٠٥ - ٧٠ =
١٣٥ سنة .

د - ثم خرج القوم من حاران إلى كنعان ؛ إذاً فإبراهيم كان قد ناهز

(١) ٢٦ : ١١ ، ٢٣ : ١١ .

(٢) التكوين ١١ : ٢٦ .

(٣) التكوين ١١ : ٣٣ .

من العمر ١٢٥ سنة عندما خرج من حاران ، لولا أن التوراة عادت فاخترلت هذا الرقم وأكدت أنه لم يكن عندئذ قد تجاوز ٧٥ عاماً .

" كان إبراهيم ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران " (١) .

هـ - وعندما أوفى إبراهيم على المائة من عمره بشره الرب بأنه سيرزق ابنه اسحاق " فسقط إبراهيم على وجهه وضحك . وقال في قلبه هل يولد لابن مائة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة " (٢) .

و - وبما أن سارة تضفر إبراهيم بعشر سنوات فقد كانت تناهر السبعين من عمرها عندما افتنن بها فرعون مصر وكانت في التسعين من عمرها عندما أخذها زوجها إلى ملك جرار .

٢ - من الواضح أن ذلك لم يكن وليد خلل في عقول الرجال أو فساد في أمزجتهم ولكنه كان وليد اضطراب في كيان القمة (٣) .

٣ - ولا نجد في هذه القصص الثلاث التي نسبتها التوراة إلى إبراهيم واسحاق وتعقيباً أوجز ولا أوضح من القول بأن ما تنطوى عليه من إيهاء ضمنى بإباحة استخدام الزوجة اتقاء لضر متوهم أو ابتغاء لكسب مرجو قد أفسح منذ أقدم العصور أمام اليهود مجاًلاً فريداً لتطبيق القاعدة اللائقية :
" *המטרה מקדשת את האמצעים* - الغاية تبرر الوسيلة
(الوسيلة) " ، أيا كانت الغاية وكانت الوسيلة (٤) .

وتنتقل بنا التوراة بعد ذلك إلى لون آخر من الأخلاقيات الجنسية ترويه بنفس البساطة وكأنه من الأحداث العادية المألوفة في حياة الناس ، ذلك أنها قصت علينا تفصيلاً ما نسبته إلى ابنتي لوط حينما اثمرتا بسقيه الخمر ليثمل فتضطجع كل منهما معه ليلة حتى يكون له منهما نسل :

(١) التكوين ١٢ : ٤ .

(٢) التكوين ١٧ : ١٧ .

(٣) عصام الدين حفنى ناصف : الأسطورة والوعى : ص ٣٨ - ٤٠ .

(٤) د. صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى ص ٦٢ - ٦٣ ، عالم الكتب . القاهرة ، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٠ .

וְתֹאמַר הַבְּכִירָה
 אֶל-הַצְעִירָה אָבִינוּ זָקֵן וְאִישׁ אֵין בְּאֶרֶץ לְבֹא עָלֵינוּ בְּדֶרֶךְ
 כָּל-הָאָרֶץ: לָכֵן נִשְׁקָה אֶת-אָבִינוּ זָקֵן וְנִשְׁכְּבָה עִמּוֹ וְנִתְּנָה
 מֵאָבִינוּ זָרַע: וְנִשְׁקִין אֶת-אֲבִיהֶן זָקֵן בְּלִילָה הִוא וְנִתְּבָא
 הַבְּכִירָה וְנִשְׁכְּבָה אֶת-אֲבִיהָ וְלֹא-יָרַע בְּשִׁכְבָּהּ וּבְקִוְמָה:
 וְהָיָה מִמַּחֲלַת וְתֹאמַר הַבְּכִירָה אֶל-הַצְעִירָה הֵן-שְׁכַבְתִּי
 אִמָּשׁ אֶת-אָבִי נִשְׁקֵנוּ זָקֵן גַּם-הַלַּיְלָה וּבֹאִי שְׁכְבִי עִמּוֹ וְנִתְּנָה
 מֵאָבִינוּ זָרַע: וְנִשְׁקִין גַּם בְּלִילָה הִוא אֶת-אֲבִיהֶן זָקֵן
 וְנִתְּבָא הַצְעִירָה וְנִשְׁכְּבָה עִמּוֹ וְלֹא-יָרַע בְּשִׁכְבָּהּ וּבְקִוְמָה:
 וְנִתְּנָה שְׁתֵּי בְנוֹת-לוֹט מֵאֲבִיהֶן: וְנִתְּלַד הַבְּכִירָה בֶּן-נִתְקַרָא
 שְׁמוֹ מוֹאָב הִוא אָבִי-מוֹאָב עַד-הַיּוֹם: וְהַצְעִירָה גַּם-הִוא
 נִתְּלַדָה בֶּן-נִתְקַרָא שְׁמוֹ בֶּן-עַמִּי הִוא אָבִי בְנֵי-עַמּוֹן עַד-
 הַיּוֹם: (ו)

وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا
 كعادة كل الأرض . هلم نسقي أبانا خمراً ونفطع معه فنحیی من أبينا نسلاً .
 فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها . ولم
 يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد
 اضطجعت البارحة مع أبي . نسقيه خمراً الليلة فادخلي اضطجعي معه . فنحیی
 من أبينا نسلاً . فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً . وقامت المفتری
 واضطجعت معه . فحبلت ابنتا لوط من أبيهما . فولدت البكر ابناً ودعت اسمه
 موآب . وهو أبو الموابیین إلى اليوم . والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت
 اسمه بن عمی وهو أبو بنی عمون إلى اليوم " .

التعليق :

١ - لوط ابن أخى إبراهيم ، ذلك الرجل الطيب ، الذى حاول أن يصلح
 من أمر (سدوم) الفاجرة ، فلم يفلح ، وتآمرت عليه زوجته . فكان أن أمطر

(١) בראשית יט, לא - לא .

الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً فاحترقتا ، وصارت امرأة لوط
عمود ملح (١) .

٢ - هذا ختام قصة تلك العشيرة التي جمحت بها شهواتها فتنكرت لربها
ولجت في غيها فعاقبها الله على العصيان نكال الآخرة والأولى . وهي قصة
محبوبة ، فحواها أنه لا ينبغي للمرء أن ينقاد لشهواته أو يحيد عن الطريق
السوى وأن رأس الحكمة مخافة الله ، وهو فحوى مقبول لما فيه من حض على
مكارم الاخلاق . ولكن القصة التي بين أيدينا لم تقنع بأن تكون قصة كاملة
ذات رأس ورجلين وأصرت على أن يكون لها ذيل ولو أبطل هذا الذيل قيمتها
وأفقدناها مغزاها وجعلها الى البهيمية أدنى فأصبحت غير جديرة بأن يطالعها
الأحداث وبخاصة لأن القاص أو المعد قد أسهب في تفصيل حوادثها المأجنة
دون أن يعلق عليها بكلمة استنكار ، فرأينا أنه لأمر ما لم تطب لابنتي لوط
الاقامة بين أظهر الناس فاعتزلوهما مع أبيهما ، وصعدوا ثلاثتهم في الجبل
فاتخذوا لهم مقاما في كهف قمى . ولوط هو الذى قال منذ أيام خلت :

" أنا لا أقدر أن أهرب الى الجبل لعل الشر يدركنى فأموت " (٢)

ولكن ما أسهل العثور على العلل لمن يعتزم الوصول الى هدفه وغرضه ،
فبيت القصيد فيما تبسطه القصة أن هذا الزنا أثمر ولدين نفلين أسس كل

(١) راجع التكوين ١٩ : ٢٦ .

وكان الناس في عصر " هوميروس " ما يزالون يشاهدون " Nibo " التمثال
الذى صارت إليه " نبوب " عندما شاهدت أبولو وأخاه آرتميس يذبحان
أبناءها الاثنى عشر . لأنها كانت تباهى أمها " لاثيو " زوجة " زيوس "
بكثرة بنيتها . وقد لبثت تبكى حتى استحالت تمثالا من الحجر كان هو
أيضا تنهمر منه الدموع . وكان الناس في القرن الأول من الميلاد مـ
يزالون يشهدون عمود الملح الذى صارت إليه امرأة لوط ، فقد كتب المؤرخ
الشهير " يوسيفوس " يقول : لقد استحالت عموداً من الملح ، لا يزال باقياً
حتى اليوم وقد رأيته " . ومع ذلك . لم يخطر ببال أحد من أمراء أوروبا
أو رجال الكنيسة فيها أن يرسل بعثة لاكتشاف هذا الأثر الخالد .
انظر : عصام الدين حنفى ناصف : الأسطورة والوعى : ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) راجع التكوين ١٩ : ١٩ .

منهما شعباً قوياً ، وهذين الشعبين القويين ، بنى مَوَّاب وبنى عمون لبنا إلى زمن ادراج هذه القصة فى التوراة يناصبان اليهود العداء ويكيلان لهم الضربة تلو الضربة ، ولم يجد اليهود مثلبة ينتقمون بها من مروءتهما أعظم من رميهما بأنهما ابنا سفاح (١) .

٣ - يرى بعض علماء الأساطير أن هذه القصة تضمينية أسطورية مهاجرة من أصل مصرى ، وترد فى الميثولوجيا المصرية ، مرتبطة بآلهة الموت "نفتيس" التى سماها " بلوتارخ " : " أفروديت " إذ تروى الأسطورة أن هذه الإلهة كانت تتمنى أن تنجب طفلاً من أخيها الأكبر " أوزوريس " ، ولهذا الغرض أسكرته ، وضاجعته ، وكان ثمرة هذا اللقاء الدنس إنجابها للإله " أنوبيس " (٢) .

ويستخلص من هذا الجانب من القصة الأخلاقية فى التوراة أن السياق الذى وردت فيه القصة العديدة للتحلل الجنى ما يشير إلى أن "رب" إسرائيل فى ذلك الحين كان كثيراً ما يقف من ذلك التحلل موقفاً " شائياً " أى موقفاً يجمع بين اتجاهين متعارضين فى نفس الوقت هما الإباحة والإدانة فى آن معا . فبينما كان يعلن إنكار السلوك الجنى المبتذل إذا بهذا الإنكار يصاغ فيما يشبه الاعتذار لصاحبه والتمجيد لشخصه ...

وفى النهاية نتساءل أية قيمة أخلاقية ينفثها هذا اللون من قصص التوراة (٣) .

-
- (١) عصام الدين حفى ناصف : الأسطورة والوعى ، ص ٦١ - ٦٤ .
 - (٢) شوقى عبد الحكيم : أساطير وفولكلور العالم العربى ، ج ١ - ص ١١٩ ، روزاليوسف - القاهرة .
 - (٣) د. صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى ، ص ٦٦ .

عناصر القصة في التوراة

ان لكل قصة تفرد وتميز تختلف بها عن القصص الأخرى ، ولكن الإطار العام للعمل القصصى يتكون من عناصر عامة وتكنيك بناء يجب أن تتوافر فى كل قصة ، وعناصر العمل القصصى وبنائه تمسك ببعضها البعض ، وتعمل خلال علاقة متبادلة وتأثير متبادل ولكى نصل إلى معرفة منهجية ومنظمة لطرق البناء الفنسى سيكون ضرورياً تفتيت نسيج القصة للوقوف على عناصر العمل القصصى ، حتى نصل فى النهاية إلى تحليل أدبى كامل لإطار هذا العمل القصصى .

أولاً : الأحداث :

وهى مجموعة من الوقائع الجزئية المترابطة التى تتميز قصة عن غيرها ، ولابد لأصغر وحدة قصصية أن تشتمل على حدث واحد على الأقل ، والأحداث فى قصص التوراة لها أهداف متعددة- منها :

- أ - استخدامها كعناصر للحبكة القصصية أو السرد القصصى .
- ب - تقوم برسم ملامح شخصيات القصة .
- ج - تعبر عن المعنى المقصود من القصة .

وتتبع الوحدات القصصية المفيرة تسلسلاً زمنياً وكذلك سببياً ، أى أن الأحداث ترتب فى تعاقب زمنى ، الحدث وراء الآخر ، أما فى التعاقب السببى فيكون فيه الحدث الواحد نتيجة للحدث السابق له ، والسبب فى الحدث التالى له .. ومع هذا فهناك أحداث ليست حلقات كاملة فى التسلسل السببى ، أى أنها تكون فقط سبباً لحدث آخر ، وليست نتيجة لحدث سابق ، ومثال ذلك توجيه الحية للمرأة فى قصة الخروج من جنة عدن (١)، قد تسبب فى الأكل من شجرة المحرمة ولكن هذا التوجيه ذاته ليس نتيجة لحدث سابق (٢) .

(١) راجع سفر التكوين . الإصحاح الثالث .

(٢) שמעון בר אפרת , העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' ١١٥ , ספרית פועלים , ישראל תש"ס , ١٩٦٩ .

فبناء المشاهد هنا أخذ الشكل المنقلب المزدوج ، فيه الحركة ذاهبة وعائدة ، حية ، امرأة ، آدم — آدم ، امرأة ، حية ، امرأة ، آدم .

وهكذا يبرز التعاقب بين المشاهد ... الله يظهر خمس مرات ، والمرأة أربع مرات ، وآدم ثلاث مرات ، والحية مرتين ، وهذا البناء يشير إلى الأهمية النسبية للشخصيات في حبكة القصة وعلى رأسهم آدم لأنه هو الأول ، وأيضاً الأخير الذى يتجه الله إليه .

في المشهد الأول تقوم الحية بالخطوة الأولى كمبادرة ، والمرأة تقوم بالربط فهي مُقرر بها ومُقررة ، أما آدم فهو الهدف ، وكذلك في المشهد الثانى هو الهدف فيه . وهذا البناء المعكوس يلائم فكرة المقابلة بالمثل : فخطيئة تناول الطعام تسببت في عقوبة تناول الطعام ، وغواية المرأة لآدم أدت إلى سيادة آدم على المرأة ... إذاً كان البناء متناسقاً مع المضمون بالاضافة الى تدعيم الانطباع عنه (١) .

وهناك ترتيب آخر لبناء المشاهد في قصة بركة إسحاق :

١- إسحاق - عيسو	٢- رفقة - يعقوب	٣- إسحاق - يعقوب
٤- إسحاق - عيسو	٥- رفقة - يعقوب	٦- إسحاق - يعقوب

لاشك أنه بناء أدبى منسق ، فالشخصيات الأربعة في القصة لا تلتقى معاً في وقت واحد إلا مرتين فقط ، ومع إنهم أبناء أسرة واحدة ، فانهم يكونون معسكرين متعارضين : إسحاق وعيسو في جانب ، ورفقة ويعقوب في جانب آخر .. ففي المشهدين (١) و (٤) يلتقى أعضاء المعسكر الأول ، وفي المشهدين (٢) و (٥) يلتقى أعضاء المعسكر الثانى ، وفي المشهدين (٣) و (٦) فقط يلتقى أعضاء المعسكرين المتعارضين ، أما الخصمان الأساسيان يعقوب وعيسو فلا يلتقيان ... وحين نتأمل المشاهد كلها نجد أن المشهد الرئيس هو المشهد الثالث حيث تصل فيه الإشارة إلى قمتها ويفوز يعقوب ببركة أبيه ... أما الحلّ فيأتى في المشهد السادس الذى ينتهى فيه المدام : ففيه يلتقى إسحاق ويعقوب مرة

(١) העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' ١١٨ .

ثانية ولكن هذه المرة ليفترقا ، فإبعاد يعقوب عن المنزل سيمنع اللقاء
الخطر بينه وبين أخيه خصمه ...

أيضاً يبرز البناء المتناسق في ترتيب ظهور الوالدين والابنيين :
فالوالدان يظهران وفقاً لهذا الترتيب :

إسحاق رفقة إسحاق إسحاق رفقة إسحاق

أما الابنان فيظهران بهذا الترتيب :

عيسو يعقوب يعقوب عيسو يعقوب يعقوب

بالنسبة للوالدين فإسحاق هو الشخصية الرئيسية ... لكن أيضاً رفقة
تدخل في الصورة من أجل ترتيب الأمور .. أما الابنان : فيعقوب يظهر مرتين
أي ضعف ظهور عيسو ..

وعندما نتأمل في ترتيب بناء المشاهد نجد أنه ليس فقط متناسقاً ، بل
أيضاً متقاطعاً : (١)

(١) إسحاق - عيسو

(٢) رفقة - يعقوب

(٣) إسحاق - يعقوب

(٤) إسحاق - عيسو

(٥) رفقة - يعقوب

(٦) إسحاق - يعقوب

وبتحليل الترتيب نجد أن إسحاق يلتقى مع واحد من أبنيه ويمنحه
البركة في المشهدين (٣) و(٤) ، وواضح أن هناك تقابل تعارضى بين هذين

(١) يجب التمييز بين البناء الدائرى أو الإطاري (٢٠٠٢) الذى تنتهى فيه القصة
بنفس شخصيات المشهد الأول والبناء المتعاقب الذى يبدأ بالمشهد الأول فالشأنى
فالشأنى فالأول (أ، ب، ب، أ) ، أما البناء المعقوف أو المعكوس ففيه المشهد
الأول يقابل المشهد الثانى ، والثانى يقابل الأول

أ ب
ب أ

أنظر : العلائق האמנות של הספור במקרא , למ' ١١٨ .

المشهدين ، اللذين يحيط بهما المشهدين (٢) و (٥) واللذين تخطط فيهما الام طريق ابنها المفضل ، أما المشهدان (١) و (٦) اللذان تفتح وتغلق بهما مجموعة المشاهد ، ففيهما يرسل إسحاق ابنه إلى الطريق ولكن اتجاه الطريق هنا مختلف وهوية الابن المرسل مختلفة ، وهذا الفارق يجسد التطور الذي حدث في الحكمة منذ بداية القصة وحتى نهايتها ، وفي هذين المشهدين (١) و (٦) تظهر أيضاً رفقة كشخصية مصاحبة ، في البداية كمستمعة لما يقوله إسحاق لعيسو وفي النهاية كناصحة لإسحاق بخصوص يعقوب ..

وهكذا مكس هذا البناء المنسق العلاقات الأسرية : فهناك والدان ، الابن المفضل ابناً على الآخر والام تفضل أخيه .. ولهذا لائم البناء المتقاطع هذا الانقلاب الذي حدث في الموقف نتيجة لتبدل المواقف الرئيسية بين الابنين (١).

وإذا نظرنا إلى قصة " إبراهيم " عليه السلام في التوراة نرى أيضاً أن الاب مختلف مع الزوجة على نظرتهم للبناء ، لقد أحب إبراهيم إسماعيل وكان مستعداً ليكتفى به كوريث له ، وقد استمر " إبراهيم " في تسامحه نحو ابنه إسماعيل حتى بعد مولد " إسحاق " ، وكان يحاول تهدئة سارة ووقف أعمالها ضد هاجر وإسماعيل ، ونفس الفكرة تظهر هنا في قصة عيسو ويعقوب حيث يحب أبوهما إسحاق عيسو الذي يقابل إسماعيل في حين تحب رفقة يعقوب الذي يقابل إسحاق . وتذكر التوراة أن حب إسحاق لعيسو راجع إلى أنه رجل صيد ويحب له ما يشتهي ، إلا أنها لم توضح سبب حب رفقة ليعقوب (٢) ، حيث تقول على لسان إسحاق :

נֹא זָכַנְתִּי לְאִי יְהוָה יוֹם מוֹתִי: וְעָתָה שָׂא-נָא כְּלִיף סֶלֶיךָ
וְקָשְׁתְּךָ וְצֵא הַסֵּדָה וְצוּדָה לִי צִידָה: וְעָשָׂה-לִּי מִטְעָמִים
כְּאֲשֶׁר אֲהַבְתִּי וְהִבִּיאָה לִּי וְאֶכְלָה כְּעֹבֵד הַבְּרֶכֶת וְנִפְשִׁי
בְּיָרְחָם אֲמִית: (٢) - وقال إني قد شخت ولا أعرف يوم

- (١) שם , דלמ' 119 .
- (٢) د . عبد الخالق بكر : البناء الأدبي في قصص يعقوب وعيسو ص ١٢١ . مطبعة كلية اللغات والترجمة . العدد الثامن عشر ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- (٣) פראשית , כא , ב - ד .

وفاتى فالآن خذ عدتك وجعبتك وقوسك وأخرج إلى البرية وتصيد لى صيداً واصنع لى
أطعمة كما أحب وأحضرها لأكل حتى تباركك نفسى قبل أن أموت " .

قصة رؤيا يعقوب :

من الطبيعى أن تؤدى خديعة يعقوب لأخيه " عيسو " ، على نحو ما سردته
التوراة ، إلى حدوث خطوة بين الأخوين . وقد تالم الأخ الأكبر نتيجة إحساسه
بخطأ لا يحتمل ، ودفعته طبيعته العاطفية لأن ينتقم من أخيه الأصغر الذى
تمكّن بحذقه أن يسلبه حقه فى الإرث . أما يعقوب فقد خاف على حياته من أخيه ،
كما شاركته أمه - التى تواطأت معه فى جريمته - مخاوفه ، ومن ثمّ فقد
استقر رأيها على أن تدع يعقوب يرحل إلى مكان آمن ريثما يهدأ غضب أخيه ،
الذى كان رغم غضبه ، متسامحاً كريماً . وراى الأم أن ترسل يعقوب إلى خاله
" لابان " فى " حران " . وفى الطريق جلس يعقوب ليستريح ثم راح فى نوم عميق
فراى فى منامه كأنه يبصر سُلماً يمل ما بين الأرض والسماء وكانت الملائكة
تتحرك عليه صاعدة هابطة . ثم أبصر الرب يقف بجانبه ويعهده بأن الأرض التى
تحيط به جميعاً ستصبح له ولذريته من بعده . عند ذاك استيقظ من نومـه
مدعوراً وهو يقول : " حقا إن الرب فى هذا المكان وأنا لم أعلم . وخشاف
وقال : ما أرهب هذا المكان . ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء " (١) .

ونلاحظ أن أحداث قصة رؤيا يعقوب كما وردت فى سفر التكوين الإصحاح
الثامن والعشرين ، تتكون من مشهدين رئيسيين ، الأول يقص استعداد يعقوب
للنوم فى الليل ، بالإضافة إلى الرؤيا نفسها ، والثانى يصف استيقاظه
وردود أفعاله عقب الاستيقاظ تجاه الرؤيا ، والمقابلة واضحة بين المشهدين
تبرزها استخدام نفس الكلمات وجذورها فى كل مشهد :

(١) راجع التكوين ٢٨ : ١٦ و ١٧ .

المشهد الأول

الفقرة (11) :

ויפגע במקום וילן שם כי בא
השמש ויקח מאבני המקום
וישם מראשיתו וישכב במקום
ההוא.

ومصادف مكاناً وبات هناك لأن الشمس
كانت قد غابت . وأخذ من حجارة
المكان ووضعها تحت رأسه فاضطجع في
ذلك المكان

الفقرة (12) :

ויחלם והנה שלם מוצב ארצה
ולאש מגיע השמימה והנה
מלאכי אלהים עלים ויורדים בו.

ورأى حتماً وإذا سلم منصوبة على
الأرض ورأسها يمس السماء . وهوذا
ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها .

الفقرة (13) :

והנה יהוה נצב עליו ויאמר
אני יהוה אלהי אברהם אביך
ואלהי יצחק. הארץ אשר אתה
שוכב עליה לך אתננה ולזרעך:

وهوذا الرب واقف عليها فقال : أنا
الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق .
الأرض التي أنت مضطجع عليها لك
ولنسلك .

المشهد الثاني

الفقرة (16) :

וייקץ יעקב משנתו ויאמר אבן
יש יהוה במקום הזה ואנוכי
לא ידעתי.

فاستيقظ يعقوب من نومه وقال : حقاً
إن الرب في هذا المكان وأنا لم
أعلم

الفقرة (17) :

וי"רא ויאמר מה נירא המקום
הזה אין זה כי אם בית -
אלהים וזה שער השמים.

وخاف وقال ما أُرهب هذا المكان . ما
هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء .

الفقرة (18) :

וישכם יעקב בבקר ויקח את -
האבן אשר שם מראשיתו
וישם אותה מצבה ויצק
שמן על-ראשה :

وبكر يعقوب في الصباح وأخذ الحجر
الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً
وصب زيتاً على رأسه .

الفقرة (١٥) :

והנה אנכי עמך ושמרתך
בפל אשר-תלך והשבתך
אל-האדמה הזאת כי
לא מעזבך עד אשר אם
לעשית את אשר-דברתי לך.

وها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب
وأردك إلى هذه الأرض لأنى لا أتركك
حتى أفعل ما كلمتك به .

الفقرة (١٩) :

ויקרא את שם-המקום ההוא
בית-אל ואולם לוז שם-העיר
לראשנה :
ודعا اسم ذلك المكان بيت إيل .
ولكن اسم المدينة أولاً كان لوز .

الفقرة (٢٠) :

וידר יעקב נדר לאמר אם-
יהיה אלהים עמדי ושמרני
בדרך הזה אשר אנכי הולך
ונתן-לי לחם לאכל ובגד
ללבוש :

ونذر يعقوب نذراً قائلاً إن كان الله
معي وحفظني في هذا الطريق الذى أنا
سائر فيه وأعطاني خبزاً لأكل وثياباً
للبس .

الفقرة (٢١) :

ושבתי בשלום אל-בית אבי
וקיה יהוה לי לאלהים :
ورجعت بسلام إلى بيت أبى يكون الرب
لى إلها .

الفقرة (٢٢) :

והאבן הזאת אשר-שמתי מצבה
יהיה בית אלהים וכל אשר תתן
לי עשר מעשרנו לך :
وهذا الحجر الذى أقمته عموداً يكون بيت
الله وكل ما تعطيني فإنى أعشره لك .

من المقابلة بين مشهدي القصة نلاحظ أن كلمة "מקום" - مكان " تترد ثلاث مرات في المشهد الأول ، وهي تتكرر ثلاث مرات في المشهد الثاني . يعقوب " يصادف " في هذا الموقف " مكاناً ما " في طريقه من " بئر سبع " إلى " حاران " ، ويقرر البقاء للمبيت هذه الليلة ، لكنه بعد الرؤيا يدرك أن المكان ليس مجرد مكان ، بل بيت الله : "שער השמים" باب السماء " والاسم الجدير به هو "בית-אל" بيت إيل " . وفي هذا المكان أخذ يعقوب أحد الأحجار ، مجرد حجر من أحجار المكان ، ووضع تحت رأسه ، وهو الحجر الذي أخذ يعقوب في المشهد الثاني ووضع عموداً - أي العمود الذي يجب أن يخلده ويرمز به إلى السلم الذي رآه في الرؤيا ، أي السلم الذي كان منموياً على الأرض ، وفوقه يقف الرب ، ولذلك ينصب يعقوب الحجر كالعمود في شكل رأس مثل السلم ، بين الأرض والسماء . وفي الرؤيا رأس السلم يصل إلى السماء ولذلك يصب يعقوب الزيت على رأس ذلك الحجر العمود ، الذي وضعه تحت رأسه ، وفي هذا تعبير عن اللقاء بين الأرض والسماء ، بين الإنسان والله ...

وفي مقابل الوعد الإلهي في المشهد الأول ، بأن يكون الله معه ، يحفظه حيثما يذهب ويعيده إلى هذه الأرض ، يقابله في المشهد الثاني نذر يعقوب ، وهو إن كان الله معه ويحفظه في الطريق الذي يذهب فيه ، ويعيده في سلام إلى بيت أبيه فإنه عندئذ سيجعل هذا الحجر العمود بيتاً للرب .. ويشكره بأن يقرب لجلالته عشرًا من كل ما سيهبه له ..

من خلال هذا التسلسل في أحداث المشهدين نلاحظ صعود دلالي مهم : فالحجر البسيط أصبح في البداية عموداً ، وفي النهاية بيتاً للرب ..
إذاً فهذا التقابل في البناء يشير إلى أنه في مقابل تجلّي الرب يأتي عمل يعقوب ، وفي مقابل وعد الله يجيء نذر يعقوب ، فالرب هو صاحب المبادرة ، وتبعاً لذلك يجيء رد الإنسان (١) .

(١) העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' 122-123.

وأحيانا لا تكون العلاقة بين مشاهد القمة ، علاقة تقابل أو توازى ،
كما فى النماذج السابقة ، بل علاقة تعارض ، ومثال على ذلك قصة بابل ———
بابل (١) .

قصة برج بابل :

لم يذكر كاتبو التوراة ، والذين ضمنوا الفصول الأولى من سفر التكوين
آراءهم عن الأصول البشرية ، شيئاً عن الوسيلة التى يمكن أن يكونوا قد
تصوروا أن الإنسان قد جعل بها على أهم القدرات التى تميزه عن الحيوان ، وهى
القدرة على الكلام البين . بل إنهم على العكس ، قد افترضوا فيما يبدو ،
أن الإنسان قد منح تلك المقدرة ، منذ الأزل ، بل تصوروا أن هذه المقدرة
كانت قاسماً مشتركاً بين الإنسان والحيوان ، إذا كان لنا أن نستدل على ذلك
من خلال حديث الإنسان مع الحيوان فى جنة عدن ، ومهما يكن الأمر فإن كُتَّاب
التوراة قد فسروا اختلاف اللغات التى تحدثت بها الأجناس الإنسانية المختلفة
من خلال القصة التالية التى وردت فى سفر التكوين :

كان الجنس البشرى بأسره ، يتحدث لغة واحدة ، فى بداية الحياة . ثم
انتقل هؤلاء الناس بوصفهم بدوا ، على هيئة قافلة واحدة كبيرة من جهة
الشرق ، حتى وصلوا الى سهل " شenaar " الفسيحة أو الى أرض بابل ، وهناك
حظوا رجالهم وقرروا بناء مدينة وبرج يصل إلى عنان السماء ، والسبب الذى
دفعهم إلى بناء هذا البرج ، هو أن يكون البرج علامة لهم من ناحية ، وحتى
لا يتفرق الناس على سطح الأرض من ناحية أخرى . وبينما كانوا يشيدون البرج
هبط الرب من السماء ليبرر المدينة والبرج الذى كان الناس يعلنون به فى
سرعة فائقة ، فسأه هذا المنظر وقال لهم : " ها هم أولاء شعب واحد له لسان
واحد ، وهذا ما شرعوا فى عمله ، ولن يمنعهم شئ من تحقيق غرضهم " (٢) ،
فعمد العزم على أن يقضى على هذه الخطة فى مهدها . وقال لنفسه أو لمجمعه

(١) التكوين ١١ : ١ - ٩ .

(٢) التكوين ١١ : ٦ .

السماءى : " لنهبط إلى الأرض ونبلبل لغتهم حتى لا يفهم بعضهم بعضاً " (١) .
ومند ذاك هبط الرب وبلبل لغتهم وفرقهم على وجه الأرض . ومن ثم فقد كـف
الناس عن بناء المدينة والبرج . وقد أطلق على هذا المكان اسم بابل ومعناه
البليلة ، لأن الرب قد بلبل فيه لغات الناس جميعاً (٢) .

ولنا تعليق على صحة هذه القصة قبل عرض مشاهد بناء الحبكة :

أولاً - أن ما أدلت به هذه القصة بسبب اختلاف اللغات وتعدد اللهجات
على وجه المعمورة لا يرى فيه علم الموازنة بين اللغات إلا أوهاماً لا تمت إلى
الحقيقة بنسب ، فقد زعم :

- ١ - إن الجنس البشرى كان إلى ما بعد الطوفان بفترة من الزمن وإلى
قبيل مولد إبراهيم ينطق كله لساناً واحداً .
- ٢ - وإن الحال كانت على أن تظل كذلك لولا تلك المحاولة لبناء البرج .
- ٣ - وإن جميع لغات الأرض ولدت فى بابل من اللغة الأم - وهى العبرية -
ولادة خارقة للعادة بمعجزة .
- ٤ - وإنه ليس بين لغات الأرض جميعاً لغة تبلغ من العمر خمسة آلاف سنة
غير اللغة العبرية (٣) .

والحقيقة أن مشهد هذه القصة قد صور فى أرض بابل ، ذلك أن كلمة
بابل هى الصيغة العبرية الوحيدة لاسم هذه المدينة ، أما كون الكلمة هى
الصيغة الشائعة المستخلصة من الفعل " בָּלַל " أو " בִּלְבִּל " بلبل
بالأرامية " بمعنى بَلَّل ، فهذا خطأ ، وكثير من قصص التوراة مبعثها اشتقاق
لغوى خاطئ ، أما المعنى الحقيقى للكلمة كما يتضح من الصيغة التى كُـوِّن

(١) التكوين ١١ : ٧ .

(٢) التكوين ١١ : ٩ .

(٣) عصام الدين حفى ناصف : اليهودية فى العقيدة والتاريخ ، ص ١٨٥ ، دار
العالم الجديد . القاهرة . ط ١ ، ١٩٧٧ .

بها الاسم فى المخطوطات فهو فيما يبدو بوابة الرب (باب - إيل ، أو باب - إيلو) (١) ونفس اللفظة ترجمة الكلمة السومرية "كادنجرأ " (٢) .

أما البناء الحيكى للقصة كما وردت فى سفر التكوين الإصحاح الحادى عشر فهو يتكون من مشهدين يظهر التعارض بينهما : فى المشهد الأول (الفقرات من ١ إلى ٤) يعمل البشر ، وفى الثانى (٥ - ٩) يعمل الله ، فسى الأول يتطلع البشر لبناء مدينة ، وبرج يصل إلى عنان السماء . وفى المشهد الثانى ينزل الله إلى الأرض لى يرى المدينة والبرج .

فى المشهد الأول هناك وحدة لغوية ، والبشر يريدون الحفاظ على وحدتهم بالإقامة فى مكان واحد ، بينما فى الثانى يبلبل الله لغتهم وينشرهم فوق الأرض .

وهذا البناء نلاحظه فى القصة من خلال الكلمات وجذور الكلمات الموجودة

فى المشهدين :

المشهد الثانى (٥ - ٩)

المشهد الأول (١ - ٤)

לם אחד ושפה אחת .

שפה אחת ודברים אחדים .

شعب واحد ولسان واحد

لسان واحد وكلمات واحدة

הבה .

הבה הבה .

هلم

هلم

هلم

ויהדלו לבנות .

בבנה .

فكفوا عن البناء

نبنى

- (١) جيمس فريزر : الفولكلور فى العهد القديم . ص ٢٢٢ .
 - (٢) قاموس الكتاب المقدس . مكتبة المشعل ببيروت ص ١٥٢ . ط ٦ . سنة ١٩٨١ .
- ونجد فى الإنجليزية أن كلمة Babel تعنى بابل أو جلبة أو جمهورا من الناس يتكلمون دفعة واحدة ، وقد اشتقوا منها Babelsih أى مبلبل أو ذا جلبة وتشوش Babelism ومعناها كلام مشوش أو لفظ Babble ومعناها شرثر أو هدرم وتمثلها فى الألمانية Babeln .
- انظر : عصام الدين حفى ناصف : اليهودية فى العقيدة والتاريخ، ص ١٨٨ .

שמה בבל .

נעשה שם .

اسمها بابل

نصنع اسماً

הפיצם על פני כל הארץ

פן נפוצ על-פני כל הארץ

يبددهم على وجه كل الأرض

لئلا نتبدد على وجه كل الأرض

وبواسطة استخدام نفس الكلمات والجذور نشأ في نفس الوقت بناء متعامد

(متصالب) أدى أيضاً إلى إبراز التعارض بين المشهدين :

كل الأرض لغة واحدة

כל הארץ שפה אחת

هناك

שם

بعضهم لبعض

איש אל דעהו

هلم نصنع لبنا

הבה נלבנה לבנים

نبني لأنفسنا

נבנה לנו

مدينة وبرجا

עיר ומגדל

المدينة والبرج

את העיר ואת המגדל

الذین كان بنو آدم يبنيونهما

אשר בנו בני האדם

هلم ننزل ونبلبل

הבה נרדה ונבלה

كل واحد لغة زميله

איש שפת דעהו

من هناك

משם

لغة كل الأرض

שפת כל הארץ

وهكذا أدى هذا البناء المتعامد والمتعارض إلى تدعيم مضمون القصة

التي تبحث العمل والعمل المضاد من خلال إبراز الفارق الكبير بين الطرفين :

الله والإنسان (1) .

وهكذا يختتم سفر التكوين التاريخ العام للجنس البشري في العصور

الأولى منذ بدء الخليقة بقمة برج بابل ، وتفرق الناس في شتى بقاع العالم

(1) העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' 127 .

من هذا المركز الذى كانوا يجتمعون فيه . ثم يفيق السفر نطاق قممه ويركزها حول الشعب الإسرائيلى وحده . وهنا يتخذ التاريخ شكل سلسلة من التراجـم يصور من خلالها مصير هذه الأمة لا فى هيئة خطوط باهتة عامة ، وإنما فى مجموعات من الصور الملونة البراقة التى تسجل مغامرات الرجال الأفـراد، أجداد هذا الجنس ، ويتمدر هذا المعرض التصويرى الذى صورت مناظره بخلفية من الطبيعة الهادئة أحداث شخصية إبراهيم الجليلة ، فبعد أن ترك إبراهيم بابل ، موطن ميلاده ، قيل أنه رحل إلى أرض كنعان ، وهناك ظهر له الرب و أكد له المستقبل الباهر والمجد لبنى جنسه ولكى يؤكد الرب هذا الوعد لإبراهيم ، ارتضى ، كما قيل ، أن يعقد بينه وبين إبراهيم عهداً مقدساً ، متبعاً فى ذلك كل المظاهر المألوفة التى كانت تُتبع بين الناس فى مثل هذه الظروف ، وتقدم لنا قمة هذا العهد لمحة ممتعة عن الوسيلة التى كان يتبعها المتعاهدون فى ذلك العمر بقصد عقد ملزم بين الطرفين المتعاقدين فيروى لنا سفر التكوين أن الرب أمر إبراهيم قائلاً :

נֹאמֶר אֱלֹהֵי קַחָה לִּי עֹלָה מִשְׁלָשָׁת וְעֹז מִשְׁלָשָׁת
וְאֵיל מִשְׁלָשׁ וְחֵר וְנוֹזֵל: וַיִּקַּח-לוֹ אֶת-כָּל-אֵלֶּה וַיִּבְחַר
אֹתָם בְּחֹקֶךָ נִתְּנָן אִישׁ-בְּחֵרָו לִקְרַאת רֵעֵהוּ וְאֶת-הַצֶּפֶר לֹא
בָחַר: וַיַּרְדּוּ הָעֵשׂ עַל-הַפְּגָרִים וַיַּשֶּׁב אֹתָם אִבְרָהָם: וַיְהִי
הַשְּׁמֶשׁ לָבוֹא וַיַּחֲדֹטָה נִפְלָה עַל-אִבְרָהָם וַהֲגָה אִמָּה הַשֶּׁבֶה
נִדְלָה נִפְלֹת עָלָיו: וַיֹּאמֶר לְאִבְרָהָם יְדַע הִדַּע כִּי-עַר וַיַּהֲגָה
זָרָעָךְ בְּאֶרֶץ לֹא לָהֶם וְשִׁבְדוֹם וְעַנּוּ אֹתָם אֶרְבַּע מֵאוֹת שָׁנָה:
וְגַם אֶת-הַנְּטִי אֲשֶׁר נִשְׁבְּדוּ בֶן אֲבִי וְאֶחָד-בֶּן נִצְאוּ בְרִכְשׁ
נָדוּל: וְאַתָּה תָּבוֹא אֶל-אֲבֹתֶיךָ בְּשָׁלוֹם תִּקְבֹּר בְּשִׂיבָה
טוֹבָה: וְדוֹר רַבִּיעִי יָשׁוּבוּ הֵנָּה כִּי לֹא-שָׁלֵם עֹנֵן הָאֲמָרִי
עַד-הַנֶּהָה: וַיְהִי הַשְּׁמֶשׁ כָּאֵה וְעֹלָה הָגָה וַהֲגָה מִנּוֹר עָשָׂן
וּלְפִיד אֵשׁ אֲשֶׁר עָבַר בֵּין הַנְּטִרִים הָאֵלֶּה: בְּיוֹם הַהוּא בָרַת

יְהוָה אֶת־אַבְרָם בְּרִית לְאֱמֹר לְזֶרַעַךְ נָתַתִּי אֶת־הָאָרֶץ
הַזֹּאת מִן־הַנָּהָר עַד־הַנָּהָר הַגָּדֹל נְהַר־פָּרָח: (١) .

" فقال له خذ لي عطة عمرها ثلاث سنين ، ونعجة عمرها ثلاث سنين وكبش عمره ثلاث سنين وبيمامة وحمامة ، فأخذها كلها وشرها من الوسط وجعل شطر كل واحد مقابل صاحبه . وأما الطير فلم يشطره . فنزلت الجوارح على الجثث وكان إبراهيم يزرعها . ولمّا صارت الشمس إلى المغيب وقع على إبراهيم سبات . وإذا رعبه مظلمة عظيمة واقعة عليه . فقال لإبراهيم اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم . فيذلونهم أربعمئة سنة . ثم الأمة التي يستعبدون لها أنا أدينها . وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيللة . وأما أنت فتمض إلى آبائك بسلام وتدفن بشيعة صالحة . وفي الجيل الرابع يرجعون إلى هنا . لأن ذنب الأموريين ليس إلى الآن كاملاً . ثم غابت الشمس فصارت العتمة ، وإذا تنّور دخان ومصباح نار يتصاعد بين تلك القطع . ففى ذلك اليوم قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً قاذلاً . لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات " .

(١) בְּרֵאשִׁית טו, ט-כח .

ويلاحظ من خلال هذا الوصف أن الفرع الذي انتاب إبراهيم عند مغيب الشمس كان نذيراً بقدوم الرب الذي مر بين أجزاء الضحية في هيئة أتون يتصاعد منه الدخان أو شعلة من النار . وبهذا يكون الرب قد استجاب للتقالييد الشرعية التي كان يتطلبها قانون العبريين القدماء للتصديق على العهد (أرميا ٣٤ : ١٨) .

والمتعاهدون كانوا ، في العصور القديمة ، عند عقد اتفاقية ما يذبحون حيواناً ويقطعون عدة قطع ويمر المتعاقدون بينها ، وبذلك تكون الشعيرة التي قام بها إبراهيم تتكون من عنصرين متميزين ، وإن كانا متلازمين ، أما العنصر الأول فهو شطر الضحية إلى شطرين ، وأما العنصر الثاني فهو مرور المتعاهدين بين أجزاء الضحية ، والعنصر الأول يفسر بنظرية الجزاء وأما العنصر الثاني فيفسر بنظرية السر المقدس ، وكلتا النظريتان تكمل أحدهما الأخرى ، وتقدمان تفسيراً لهذه الشعيرة .

أنظر : جيمس فريزر : الفولكلور في العهد القديم ج ٢ . ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ،

و ص ٢٥٧ .

وبفضل هذا العهد حظيت شخصية إبراهيم بمكانة عظيمة عند بنى إسرائيل فهو الرجل الذى تراءى الله له وتحدث إليه وأعطاه موثقاً أن يمكن لذريته فى الأرض ، وبذلك نجد أن أهم أحداث قصص إبراهيم هى التى تسرد التجليات السبعة التى تراءى الله له فيها ، فهى فى نظر التوراة محطات على طريق الإنسان ، من بداية العلاقة المتبادلة بين هذا الرجل العظيم وإلهه ، حتى اكتمالها : (١)

التجلى الأول : وفيه يرسل الله الرجل من بيته إلى الأرض التى يريها إياها " 'רַאדָּהוּ " ، أى يرسله من أجل مهمته ، ويعدده بأن يخرج منه شعباً ، ويباركه فى الطريق :

וַיֹּאמֶר יְהוָה אֶל-אַבְרָם לֵךְ-לְךָ מֵאֲדָמָה וּמִכַּלְדֵּתָהּ וּמִבֵּית
אֲבִיךָ אֶל-הָאֶרֶץ אֲשֶׁר אֲרָאָה: וְאֵשְׁכֶחָ לְנֹחַל וְאֶבְרָהָם
וְאֶמְדָּלָהּ שָׂמָךְ וְהָיָה בְרָכָה: (٢)

"وقال الرب لإبراهيم اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك . فاجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك . وتكون بركة . وأبارك مباركيك ولا عنك لعنة . وتبارك فيك جميع قبائل الأرض " .

التجلى الثانى : وحدث فى الأرض الجديدة ، بعد أن عبرها إبراهيم ، وكما وعده بها الله أى الأرض التى سيريها له " הַאֲרֶץ הַזֹּאת هذه الأرض " ومن هذا التجلى يشعر القارىء أن إبراهيم هو الإنسان الأول فى التوراة .

וַיֵּלֶךְ יְהוָה אֶל-אַבְרָם וַיֹּאמֶר
לְאֶבְרָם אֲמֵן אֶתְהַאֲרֵץ מֵאַחַת וְכֵן שָׁם מִנְּפֶשׁ לִיחָהּ הַנֶּרְאָה
אֵלָיו: (٣)

وتراءى الرب لإبراهيم وقال لتسلك أعطى هذه الأرض . فبنى هناك مذبحاً للرب الذى ظهر له " .

(١) מרדכי מרטן בובר , דרכו של מקרא , עמ' ٧٧ , עיונים בדפוס סגנון בתנ"ך , מוסד ביאליק , ירושלים תשכ"ד .

(٢) בראשית , ב' א-ג .

(٣) בראשית , ב' ז .

التجلى الثالث : ويحدث بعد انفصال إبراهيم عن لوط ، وحتى لا يكون هناك أغراض أخرى تجاه الأمم تعوق موقفه . وفى هذا التجلى تكررت الرؤية ولكن هذه المرة عن رؤية كل الأرض ، التى وعده الرب بها " **כל הארץ** " وعلى إبراهيم عبورها كلها لكن تصبح بسيره فيها ملكاً له (١) . والجوهر فى هذا التجلى هو الأرض ، لدرجة أن عفار الأرض أصبح رمزاً لكثرة الشعب ، وبالارتباط بهذه الأرض يستطيع الشعب أداء مهمته :

ויהיה אמר אל-אברהם אחרי הפרד-לוט מעמלו שא נא
עליך וראה מן-המקום אשר-אתה שם צפנה ונגבה וגדנה
ונקמה: כי את-כל-הארץ אשר-אתה ראה לך אתנה
ולזרעה עד-עולם: ושמי את-זרעה בעפר הארץ אשר
אם-יוכל איש לקנות את-עפר הארץ גם-זרעה ימנה:
קום התהלך בארץ לארצה ולרחבה כי לך אתנה: (٢)

- وقال الرب لإبراهيم بعد اعتزال لوط عنه . ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً . لأن كل الأرض التى تراها أعطيتها لك ولنسلك إلى الأبد . واجعل نسلك كتراب الأرض ، حيث إذا استطاع أحد أن يبعد تراب الأرض فنسلك أيضاً يبعد " .

التجلى الرابع : ويشمل الإصحاح الخامس عشر كله ، ويتصل بقصة حـرب إبراهيم مع الملوك عن طريق " التورية " والجرى الصوتى المشترك للفعـل " **בא** " فى بداية القصة والاسم **בא** فى بداية التجلى ، وهذه العلاقة تبدو أكثر وضوحاً عندما نقابل رؤية الأرض فى التجلى الثالث مع رؤية السماء فى التجلى الرابع ، وتتضح أكثر عندما يتم وصف الله فى قول " ملكى صادق " وفى إجابة إبراهيم - وذلك فى القصة الموجودة بين التجلى الثالث والرابع - بأنه " **קונה שמים וארץ** " (٣) - مالك السماء والأرض " .

(١) كما أشير إلى هذه الدلالة فى قول يشوع للشعب فى اجتماعه بشكيم فى مكان الإقامة الأولى لإبراهيم فى الأرض : " **ואוכל אותו בכל ארץ כנען** " - وسرت به فى كل أرض كنعان " (يشوع ٢٤ : ٢) .

(٢) **בראשית ١٥ : ٢٠** .

(٣) راجع التكوين ١٤ : ٢٢ .

في هذا التجلي الأوسط تصعد " الرؤية ٧٧/٧٧ " التي تكررت في التحليلات الثلاثة الأولى إلى درجة " الرؤيا النبوية ٧٧/٧٧ " (١)، ولذلك نجد أن الإصحاح كله كُتِبَ بأسلوب رؤيا الأنبياء (٢) .

في التحليلات السابقة كان الوعد يتم بصورة مباشرة للوريث الشيخ ، ولكن في هذا التجلي يقطع الله مع إبراهيم ميثاقاً عن طريق مرور الرب بين أجزاء الضحية والذي رآه إبراهيم في صورة تنور دخان وشعلة نار ... أيضاً في هذا التجلي بشارة لخروج بني إسرائيل من مصر ، فليس من حاران عن طريق النداء الإلهي أخرج الله إبراهيم ، بل من أور الكلدانيين أخرجوه وهو لا يعلم ، من أجل أحضاره إلى هذه الأرض ، وحقيقة أن اسم مصر لم يذكر في هذا التجلي ولكن قيل أن بني إسرائيل سيعذبون أربعمئة سنة في الشتات ثم يخرجون بأملاك جزيلة .. أما حديث الله لإبراهيم بأنه الذي أخرج من عالم الأمم فيرمز إلى بداية الوصايا العشر ، حيث يقول الله للشعب في سيناء بأنه هو الذي " أخرج ١٧/١٧٧ : " من وسط هذا الشعب الغريب ..

التجلي الخامس : وفيه يظهر " ٧٧/٧٧ " الله لإبراهيم وهو على مشارف العام المائة ، ويأمره صراحة بالسير أمامه ليكون كاملاً ، وفي هذا التجلي يعطيه الله اسماً جديداً بإضافة حرف من حروف اسم الله إلى اسم " إبراهيم " ليصبح " إبراهيم " ، ثم يعده بأمر أشمل ، وهو : أبوته لأمم كثيرة ، أي شعوب إنسانية ، وبحيث تكون إسرائيل هي الطريق إليها ، وفي هذا التجلي أعطى الله إبراهيم علامة العهد وهي الختان :

(١) وتستعمل في العهد القديم لمعنيين :

(أ) الحلم في المنام (اشعيا ٢٩ : ٧) .

(ب) الإعلان الإلهي (مزامير ٨٩ : ١٩ ، اشعيا ١ : ١) .

والواقع أنهما بمعنى واحد ، لأن الرب يستخدم كليهما لإعلان إرادته وحكمه عن طريق الأنبياء أو الأتقياء . انظر قاموس الكتاب المقدس - ص ٣٩٤ ، ط ٦

بيروت سنة ١٩٨١ .

(٢) דרכו של מקרא , עמ' ٦٦.

וְהָיָה אֱבֶרְךָ בְּכָל-הַיָּמִים שָׁנָה וְהַשָּׁנָה שָׁנָה וְנָלֵךְ
וְהָיָה אֱבֶרְךָ בְּכָל-הַיָּמִים וְנָאֵמַר אֵלָיו אֲנִי-אֵל שְׂדֵי הַתְּהֵלֶלֶךְ לִפְנֵי
וְהָיָה הַמִּיָּדָה: וְהָיָה בְּרִיתִי בֵּינִי וּבֵינְךָ וְאָבְרָהָם אָמַר:
מֵאֲדָר: וְנִפְלָא אֲבָרְךָ עַל-פְּנֵי וְנִדְבָר אֵתָּה אֱלֹהִים לֵאמֹר:
אֲנִי הֵנָּה בְּרִיתִי אִתְּךָ וְהָיִיתָ לֵאבִי הַמְּנוֹן נוֹגֵם: וְלֹא-יִקְרָא
עוֹד אֶת-שְׁמֶךָ אֲבָרְךָ וְהָיָה שְׁמֶךָ אֲבָרְךָ כִּי אֲבִי-הַמְּנוֹן נוֹגֵם
נִתְקַיֵּם: וְהַפְּרִתִּי אִתְּךָ בְּמֵאֲדָר מֵאֲדָר וְהַתִּיךָ לְנוֹגֵם וּמִלְכִּים
מִמֶּךָ נִצָּחָה: וְהַקְּמֵנִי אֶת-בְּרִיתִי בֵּינִי וּבֵינְךָ וְכִּינָה וְזָרָעָה
אֲחֵרֶיךָ לְדִרְתָּם לְבָרִית עוֹלָם לְהַנִּיחַ לָךְ לֵאלֹהִים וְלִזְרָעָה
אֲחֵרֶיךָ: וְהַתִּי לָךְ וְלִזְרָעָה אֲחֵרֶיךָ אֵת אֶרֶץ מִנְּדִיךְ אֵת
כָּל-אֶרֶץ כְּנָעַן לְאַחֲזָה עוֹלָם וְהָיִיתִי לָהֶם לֵאלֹהִים: וְנָאֵמַר
אֱלֹהִים אֱלֹהֵי-אֲבָרְךָ וְהָיָה אֶת-בְּרִיתִי הַשְּׁמֵרָה אִתְּךָ וְזָרָעָה
אֲחֵרֶיךָ לְדִרְתָּם: זֹאת בְּרִיתִי אֲשֶׁר תִּשְׁמְרוּ בֵּינִי וּבֵינְכֶם
וְכִּינָה וְזָרָעָה אֲחֵרֶיךָ הַמְּנוֹל לָכֶם כָּל-זָכָר: וְנִמְלָאֵם אֵת בְּשֶׁר
עַרְלָתְכֶם וְהָיָה לְאוֹת בְּרִית בֵּינִי וּבֵינְכֶם:

" ولما كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبرام وقال له أنا
الله القدير . سر أمامي وكن كاملاً . فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً
جداً . فسقط إبراهيم على وجهه وتكلم الله معه قائلاً . أما أنا فلهذا عهدي معك
وتكون أبا لجمهور من الأمم . فلا يدعى اسمك بعد إبراهيم بل يكون اسمك إبراهيم
لأنني اجعلك أبا لجمهور من الأمم . وأكثرك كثيراً جداً واجعلك أمماً . وملوك
منك يخرجون . وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً
أبدياً . لاكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك . وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض
غربيك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً ، وأكون إلههم . وقال الله لإبراهيم : وأما أنت
فتحفظ عهدي . أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم . هذا هو عهدي الذي تحفظونه
بيننا وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر . فتختنون في لحم
غريبتكم . فيكون علامة عهد بيني وبينكم " .

(1) בְּרִית אֱבֶרְךָ . א' - א' .

التجلى السادس :

مرة أخرى تبدأ أحداث التجلى السادس بالفعل " **וְאַתָּה** — **וְאַתָּה** " (١)

وتراعى . وفى هذا التجلى يبرز أكثر وأكثر اللقاء بين الله والإنسان ، والذي تظهر من خلاله الصورة الودية جداً للقصة التورائية : يحضر ثلاثة رجال عند إبراهيم ، ينظر إليهم ، وهم " واقفون عنده **וְאַתָּה** **וְאַתָּה** " فيدعوهم للدخول لمنزله ، ثم يأكلون على مائدته وهو " **וְאַתָּה** **וְאַתָּה** " (٢) - واقف لديهم ، وهم يتحدثون على لسان واحد ، أى بلغة المفرد لا بلغة الجمع ، كان المتحدث هو الله ، ثم يبشرونه بميلاد ابن له فى العام القادم، ثم يأتى حديث الله إلى ذاته ، قبل حديثه مع إبراهيم ، ومن خلال حديث الله إلى ذاته ندرك أن " طريق الله **וְאַתָּה** " ليس مجازاً أو استعارة ، إنما هو طريق حقيقى سار فيه إبراهيم إلى داخل تاريخ العالم ، ولذلك يشير هذا الحديث - كما أشارت التوراة أكثر من مرة - إلى أنه على بنى إسرائيل السير فى هذا الطريق ، طريق الإيمان بالله ؛ ويشير الله إلى جوهر هذا الطريق بقوله : " **וְאַתָּה** **וְאַתָּה** " (٣) - العمل براً وعدلاً .

وفى حديث إبراهيم مع الله تتضح مقدرة إبراهيم على القيام بمهام النبوة ، حيث يعبر عن ذلك بمقولة من أشجع الأقوال المنسوبة للبشر فى التوراة ، مقولة رجل يملأ من أجل إنقاذ الآخرين ويفضى بروحه من أجلهم : " **וְאַתָּה** **וְאַתָּה** **וְאַתָּה** ؟ " (٤) - آديان كل الأرض لا يمنع عدلاً ؟

وهكذا بواسطة هذا التكرار اللغوى الذى لا نجده إلا فى قصص إبراهيم ، يتم عرض أحداث لقاء الله بالرجل الصادق ، ومن خلال ذلك يكتمل طريق النبوة ، فالآن يستحق إبراهيم أن يطلق عليه " النبي " (٥) .

(١) **וְאַתָּה** **וְאַתָּה** .

(٢) **וְאַתָּה** **וְאַתָּה** .

(٣) **וְאַתָּה** **וְאַתָּה** .

(٤) **וְאַתָּה** **וְאַתָּה** .

(٥) **וְאַתָּה** **וְאַתָּה** .

التجلى السابع : وبهذا التجلى تظهر علاقة جديدة بين الله وإبراهيم ، ففيه يتم الحديث عن " بئر سبع " المكان الذى سيتم فيه التجلى السابع ومنه ينطلق إبراهيم إلى " جبل المورية " من أجل أن يجتاز الاختبار الأخير ليحصل على البركة العليا ، ولذلك يعتبر هذا التجلى بمثابة حجر الزاوية فى بناء أحداث قصص التجليات ..

من هذه الأحداث نجد أن التوراة قد نسبت لإبراهيم ثلاثة أمور : الأول أعلنت عنه فى صراحة وهو أن إبراهيم هو منشأ هذا الشعب ، والثانى عن طريق علاقة هذا الرجل بالتاريخ - أى دور هذا الشعب فى تكوين شعوب الإنسانية ، والثالث عن طريق رموز قصص إبراهيم : ميلاد النبوة .. وفى قصصه تتحد ثلاثة تقاليد دينية : ٢ - تقليد الأسرة عن أبيها الأول ، وهذا التقليد يصونه الشعب .

ب - تقليد عن سة الله على طريق إيمان ، وهذا التقليد تمونه التوراة .

ج - تقليد عن بداية النبوة ، التى استمرت مع الانبياء (١) .

مراحل الحكمة :

الحكمة القصصية لابد لها من الافتتاحية تستخدم كمقدمة للقصة ، وهذه الافتتاحية ضمن إطار عام يدفع أحداث القصة فى تسلسل إلى غاية محدودة ، وهذه الافتتاحية تقوم بإمداد المعلومات الخلفية عن أحداث القصة ، وتعرض الشخصيات وأسمائها وأوصافها ومكانتها وما بينها من علاقات ، بالإضافة إلى الحقائق الضرورية لفهم القصة والموقف فى بداية الحكمة ، وتعرض الافتتاحية أيضاً أحداثاً وقعت قبل بداية الحكمة الحالية ، إن كانت تلقى الضوء على قصة الحكاية ... وأحياناً لا تكون هناك ضرورة لعرض معلومات سابقة ، لأن الأحداث التى تكون خلفية القصة تكون معروفة لجمهور القراء ، وهذا على ما يبدو السبب فى اختفاء معلومات خلفية كثيرة فى قصص التوراة ، تبدو ضرورية

(١) ١٠٦٧ של מקרא , לאמ' ٨٥-٨٦ .

للقارئ في عصرنا ، فالقارئ أو المستمع في عصر التوراة كان باستطاعته أن يستمد المعلومات الخفية من معرفته بالأشخاص والأحداث من واقع حياته أو من الماضي ، بينما القارئ في غير عصر التوراة يجد صعوبة كبيرة في فهم القصة بسبب نقص تلك المعلومات (١) .

وأحيانا نجد في الحقائق المعروضة في الافتتاحية إشارة للتطورات التي ستحدث مع استمرار الحبكة وتطورها ، ومثال ذلك ما نجده في بدايات قصة " قايين وهابيل " حيث يتم عرض البطلين وتقديم تفاصيل عنهما بواسطة البناء التعامدى :

וַתֵּהָר וַתֵּלֶד אֶת קַיִן
וַתוֹסֶף לָלֶדֶת אֶת אָחִיו אָדָם
וַיְהִי הַבֶּל לְעֵהָ אָחִין
וַיִּקֵּן הָיָה עֹבֵד אֲדָמָה .
فحبلت وولدت قايين
وعادت وولدت أخيه هابيل
وكان هابيل راعي غنم
وكان قايين عاملاً في الأرض .

ويشير هذا البناء إلى التصادم والتضاد بين الأخوين ، كما يتضح من

الفقرات التالية عن طريق البناء التعامدى أيضا :

" וַיֵּבֶא קַיִן מִפְרִי הָאֲדָמָה מִנְחָה לַיהוָה :
וְהַבֵּל הֵבִיא גַם הוּא מִבְכּוֹת צֹאֲנוֹ וּמַחְלָבָהּ
וַיִּשַׁע יְהוָה אֶל הַבֵּל וְאֶל מִנְחָתוֹ
וְאֶל קַיִן וְאֶל מִנְחָתוֹ לֹא שָׁעָה " (٢)

(١) העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' 129 .

(٢) בדאשית ד , א-ב .

(٣) בדאשית ד , ג-ה .

" وقدّم قايين من أشمار الأرض قرباناً للرب
وهابيل قدّم هو أيضاً من ابكار غنمه ومن سمّانها .
فنظر الرب إلى هابيل وقربانه
وإلى قايين وقربانه لم ينظر "

وهكذا كان " هابيل " الذي نال الحظوة لدى ربه راعياً للغنم ، على
حين كان قايين الذي أعرض الرب عن قربانه فلاحاً يعمل في الأرض وهو ما أطلعنا
عليه افتتاحية الحكمة^(١).

أما من ناحية البناء فهناك طريقتان لتقديم مادة الافتتاحية من أجل
إخبار القارئ بها : الطريقة الأولى هي تركيز كل المعلومات السابقة في
بداية القصة ، أما الطريقة الثانية فتقدم المعلومات بشكل تدريجي مع سير
القصة .. ومثال للطريقة الأولى نجده في قصة يعقوب وإسرائيل :

בִּי מִן־הַבָּאָר הָהוּא יִשְׁקֶנּוּ הַגִּדְדִּים וְהָאֶבֶן יָדֹלָה עַל־פִּי
הַבָּאָר: וְנִאֲסְפוּ־עֲמָה כָּל־הַגִּדְדִּים וְנִלְלוּ אֶת־הָאֶבֶן מֵעַל־
פִּי הַבָּאָר וְהִשְׁקֶנּוּ אֶת־הָעֵצִים וְהָשִׁיבוּ אֶת־הָאֶבֶן עַל־פִּי
הַבָּאָר לַמִּקְמָה: (٢)

" لانهم كانوا من تلك البئر يسقون القطعان . والحجر على فم البئر
كان كبيراً . فكان يجتمع إلى هناك جميع القطعان فيدحرجون الحجر عن فم
البئر ويسقون الغنم . ثم يردون الحجر على فم البئر إلى مكانه " .

وأحيانا يتم عرض الشخصيات في افتتاحية الحكمة كما في قصة إبراهيم
وسارة : **וְשָׂרָה אִשְׁתּוֹ אֲבִדָה לֹא יָלְדָה לוֹ וְלֹה שְׂפָמָה מִצְרִית**
וְשָׂמָה הָגֵר (٣) - " وسارة امرأة إبراهيم لم تلد له . وكانت لها
جارية مصرية اسمها هاجر " .

(١) عصام الدين حفنى ناصف : الأسطورة والوعى ، ص ١٣ .

(٢) **בְּרֵאשִׁית כט, ב-ג** .

(٣) **בְּרֵאשִׁית טז, א** .

وجدير بالذكر أنه لا تُقدّم في افتتاحية الحكمة معلومات لا تؤدي وظيفة في سير الحكمة - ربما باستثناء سلسلة الأنساب التي كانت ذات أهمية كبيرة في نظر السابقين -

وجدير بالاهتمام أيضاً أنه في كل الحالات التي تعرض لنا فيها افتتاحية الحكمة تفاصيل عن الشخصيات والمعلومات الخلفية ، يتم ربط هذه التفاصيل بعد ذلك مباشرة في وحدة عضوية مع مقدمة الحكاية نفسها ، أي ينشأ مَعْبَرًا مستقيماً بين الافتتاحية وذلك الجزء من القصة الذي يبحث الفعل الحقيقي ، على نحو ما رأينا في قصة إبراهيم وسارة فبعد المعلومات التي وردت في الافتتاحية بأن سارة امرأة إبراهيم لم تلد له ، ولها جارية مصرية اسمها هاجر ، قيل بعد ذلك مباشرة : " וְהָאִמְרָ שְׂרָי אֵל אַבְרָם הָנָה-נָא לַצֶּרֶן יְהוָה מְלֻדָּת בָּא נָא אֵל שְׁפָחַת אֹלִי אֲבִיךָ מִמֶּנָּה " (١) - " فقالت سارة لإبراهيم هوذا الرب قد أمسكني عن الولادة . أدخل على جاريته . لعلّي أرزق منها بنين " .

ويتضح لنا من تسلسل الحكمة أن التفاصيل عن الشخصيات والمعلومات الخلفية التي تقدمها افتتاحية العرض في بداية القصة ، يتم ذكرها مرة أخرى مع استمرار القصة ، سواء على لسان القاص أو على لسان إحدى الشخصيات ، وهذه الازدواجية لا يمكن تفسيرها بوجه عام ، بل ينبغي بحثها في كل قصة على حدة ، لأنه في حالات كثيرة يأتي التكرار لإبراز قضية مهمة في القصة (٢) ، كما في قصة " يعقوب وإسرائيل " حيث تتكرر المعلومات التي وردت في الافتتاحية ، فالقاص يخبرنا في بداية القصة أنه عندما كانت تجتمع كل القطعان كانوا يدرجون الحجر من فوق فتحة البئر ، من أجل سقاية الغنم ، ثم مع استمرار القصة نسمع من الرعاة أنفسهم : "לֹא נוֹכַל עַד אֲשֶׁר יֵאָסְפוּ כָל הָעֵדְרִים וּגְלָלוּ אֶת הָאֵבֶן מֵעַל פִּי הַבְּאֵר וְהִשְׁקִינוּ הָאֵן " (٣) - " فقالوا

(١) בדאשית טז, ב .

(٢) העיצוב האמנותי של הסיפור במקרא , עמ' ١٣٢ .

(٣) בדאשית כט, ח' .

لا نستطيع حتى تجتمع جميع القطعان ويخرجوا الحجر عن فتحة البئر . ثم نسقى الغنم " - فالتكرار هنا جاء لإشارة اهتمام القارئ ، فقد قرأ بعد ذلك

مباشرة **וַהֲיוּ כְאִסְדֵּי רֶאֶה**

יַעֲקֹב אֶת־רִחֵל בַּת־לֵבָן אִמּוֹ וְאֶת־זָאן לֵבָן אִמּוֹ

וַיָּשָׁב יַעֲקֹב וַיֵּלֶךְ אֶת־הָאֵבֶן מִעַל פִּי הַבְּאֵר וַיִּסֶּק אֶת־זָאן

לֵבָן אִמּוֹ: (1) - ولما أبصر يعقوب راحيل بنت لابان خاله وغنم

لابان خاله أن يعقوب تقدم ودحرج الحجر عن فتحة البئر وسقى غنم لابان خاله " .

هنا يبرز بشكل واضح ذكر " لابان خاله " ثلاث مرات ، ومن هنا يتضح أن حـب

يعقوب لأسرة أمه كان عظيماً ، فعلى الفور قام ودحرج بمفرده الحجر الكبير

من فوق فتحة البئر . . . إذاً فالمعلومات التي تم تقديمها في افتتاحية

الحبكة ، بجانب أنها تُقدِّم لإمداد القارئ بالمعلومات الضرورية لفهم القصة ،

فإنها تُقدِّم مرة أخرى مع سير القصة ، لكي تبرز قضايا هامة أو تشير إلى

دلالات غير واضحة (2) .

وهناك حالات - ليست نادرة - تقدم فيها المعلومات الخلفية ، وما يتصل

بالشخصيات ، مع سير القصة فقط ، ولم تقدم إطلاقاً في افتتاحية العرض ، نحو

ما نرى في القصة حول " عبد إبراهيم ورفقة " ، فإننا لا نتعرف على رفقة

على الفور في البداية ، بل عندما تظهر فقط مع الغنم بجوار البئر ، حيث

يقف في نفس الوقت عبد إبراهيم ، وفي اللحظة التي عرفها العبد فيهما ،

וַהֲיוּ כְאִסְדֵּי

יִצְחָק אִסְדֵּי יִלְדָה לְבִתְוָעֵל בֶּן־מִלְכָּה אִשְׁתֵּי נָחֹר אִמּוֹ

אֲבִדְהֶם וּבְדָה עַל־שָׁבְקָה: וַהֲיוּ כְאִסְדֵּי שִׁבְתִּי מִרְאֵה מֵאֵד בְּתוֹלָה

וְאִישׁ לֹא יָדָעָה (3) - " فإذا رفقة التي ولدت لبثوغيل ابن ملكة امرأة

ناحور أخى إبراهيم خارجة وجرّتها على كتفها . وكانت الفتاة حسنة المنظر

جداً وعذراء لم يعرفها رجل " .

(1) בדאשית כט, י'

(2) העיצוב האמנותי של הסיפור במקרא, עמ' 133 .

(3) בדאשית כד, טו-טז .

وأحياناً يتم تقديم جزء من المعلومات الخلفية وما يتصل بالشخصيات في بداية القصة وجزء آخر مع سير القصة نحو ما نراه في قصة " يعقوب وراحييل " فالقاص يذكر في بداية القصة أنه مع تجميع كل القطعان يسحبون الحجر الكبير من فوق فتحة البئر (١) ، لكن راحيل - التي لا تقوم بدور إيجابى في القصة - لا يقدمها القاص إلا مع سير القصة ، عندما تأتى مع غنم أبيها إلى البئر ويراهها يعقوب (٢) ، والقاص مع ظهورها الأول لا يذكر شيئاً عن جمالها وحسن منظرها ، بل يذكر فقط أنها ابنة خال يعقوب ، أى أن الذى دفع يعقوب لإزاحة الحجر بمفرده من فوق البئر ليس جمال راحيل ، بل كونها قريبة أمه ، أما جمال راحيل وحسن منظرها فقد ذكره القاص فقط عندما طلبها يعقوب لتكسونه زوجة له واستعداداه للاشتغال سبع سنين من أجلها ، فذكر القاص جمالها فى هذا الموضع ليوضح لماذا أحب " يعقوب " " راحيل " دون أختها البكر "ليئة" (٣) .

وبذلك نصل إلى إجابة شاملة لازدواجية المعلومات وتكرارها فأحياناً تقدم المعلومات الخلفية في بداية القصة ، ثم تتكرر بنفس الصورة أو بأخرى مع سير القصة ، لتأكيد هذه المعلومات ، وأحياناً تقدم المعلومات مع سير القصة فى مكانها الطبيعى فى الحبكة ، وهنا يقصد القاص إلى إبراز "المفعول" أو " الشخصية الجانبية " ، وليس " الفاعل " أو الشخصية الرئيسية ، وأحياناً يتم تقديم جزء من المعلومات فى بداية القصة ، والجزء الآخر مع سيرها ، وذلك طبقاً للدور الذى عليها أن تؤديه داخل السياق (٤) .

وتتطور الحبكة خلال سلسلة من الأحداث الجزئية إلى حدث رئيسى ، وهو المحرك الرئيسى للتغيير ، ومنه تعود الحبكة عن طريق الأحداث المختلفة إلى الرفع النهائى ، وإذا رسمنا الخط الذى يمل بين هذين الوضعين ، صعدوده

(١) راجع التكوين ٢٩ : ٢ - ٣ .

(٢) راجع التكوين ٢٩ : ٩ - ١٠ .

(٣) راجع التكوين ٢٩ : ١٧ - ١٨ .

(٤) העליון האמנותי של הספור במקרא , עמ' 135 .

وهبوطه ، نصل إلى إطار الحكمة ، وفي الغالب يبرز النموذج الكلاسيكى على قصص التوراة ، حيث يصعد خط الحكمة من نقطة البداية المتوترة مجتازاً مرحلة العقدة إلى ذروة الصدام والإشارة ، ومنها يهبط بسرعة إلى نقطة النهاية الهادئة . وهذا التطور نلاحظه فى قصة " تقريب إبراهيم لابنه " (١) ، حيث تبدأ القصة بطرح سؤال ، وهو أساس الإشارة فى القصة ، فالقاص يذكر أن الله يمتحن إبراهيم ، وهنا يختار القارئ ويتساءل : هل سيجتاز إبراهيم الامتحان الصعب أم سيقرب ابنه وحيد ، الذى أنجيه بعد طول انتظار ، وهنا تقوم أحداث القصة بتقريب القارئ بشكل تدريجى إلى نقطة الذروة : فى البداية استعداد إبراهيم لتقديم ابنه ، وخروجه إلى الطريق ، وما يحدث له حتى وصوله إلى المكان المخصص لتقديم ابنه ، وهنا يذكر القاص بالتفصيل الأعمال الأخيرة التى يؤديها إبراهيم من أجل تنفيذ الأمر الإلهى : فهو يبنى المذبح ، ويرتب الحطب ، ويوثق ابنه ويضعه فوق الحطب وهكذا حتى تصل أحداث القصة إلى اللحظة الحاسمة ، التى يمد فيها إبراهيم يده لياخذ السكين لذبح ابنه ، وفى هذه اللحظة والتى تصل فيها الإشارة إلى قمتها ، يحدث التحول : فينادى ملك الرب من السماء إبراهيم ، ليمنع فى اللحظة الأخيرة تنفيذ هذا العمل الرهيب ، ومن هنا يهبط خط الحكمة بسرعة ، فإبراهيم يسمع كلمات الملك الهادئة ، ويرى كبشاً فيصعده محرقة للرب بدل ابنه ، وبعد كلمات أخرى من ملك الرب يعود إبراهيم إلى غلمانه ، ليرجع الجميع إلى البيت . عند النظر إلى هذه الأحداث لأول وهلة لا نلاحظ تغير شئ ، ولكن عند التأمل ندرك التحول العظيم الذى حدث ، ولكنه تحول داخلى لا خارجى : فقد اجتاز إبراهيم بالفعل الامتحان الصعب عندما أثبت استعداده لتقديم أغلى ما عنده إلى الرب ... وهذا التحول فى اتجاه تطور الحكمة ، والذى حدث عند النقطة التى وصل فيها التوتر إلى ذروته ، لهو أمر شائع فى قصص التوراة ، كما نلاحظ ذلك فى قصة يعقوب وعيسو : فبعد عودة يعقوب إلى البيت بعد أن قضى عشرين سنة من العمل عند خاله لابان ، تتأكد حقيقة خوف يعقوب من لقاء المرتقب مع عيسو بسبب

خداعه له ، من أجل الحصول على بركة أبيه ، وعزم عيسو أن يقتله ، مما اضطر يعقوب للهرب ، والآن عند عودته يسمع أن عيسو سيأتى لملاقاته بصحبة أربعمئة رجل ، فيخاف يعقوب خوفاً شديداً حتى أنه يقرر تقسيم أهله إلى معسكرين :

" **כִּי אִם יָבוֹא עֲשׂוֹ אֶל הַמַּחֲנֶה הָאֶחָד וְהַפְּהוּ וְהָיָה הַמַּחֲנֶה הַנֶּשְׁאָר לְפָלִיטָה** (١) - " لأنه إذا جاء عيسو إلى المعسكر الواحد وضربه يكون المعسكر الباقي ناجياً " ، ويملئ يعقوب مبتهلاً إلى الله أن ينقذه من أخيه ، ثم يرسل قطعان كثيرة هدية لأخيه ، ونلاحظ الفاصل الزمني بين كل قطيع وآخر ، على أمل أن يهدأ غضب عيسو قبل اللقاء معه - ورغم ذلك كله يظل الخوف مسيطراً على يعقوب - كما يتضح من الحدث العرضي الذي يحكى صراعه مع الرجل حتى الفجر (٢) - وفي الصباح يرى يعقوب عيسو قادماً لملاقاته وبصحبة أربعمئة رجل ، فيسجد أمامه سبع مرات ، وفي هذه اللحظة الحاسمة يتقدم عيسو لملاقاته .. ولكن عكس ما كان متوقعاً ، حيث يسقط عيسو عند يعقوب ويحتضنه ويقبله (٣) ، ويتضح عدم وجود فغينة في قلب عيسو (٤) .

وهناك ظاهرة بنائية أخرى نلاحظها في عدد من قصص التوراة ويمكن بواسطتها تحديد إطار الحكمة ، وهي النهاية الوهمية ، على عكس النمماذج السابقة التي فيها يمتد خط حبكة القصة ، حيث يصعد بالتدريج إلى نقطة الذروة ، ثم يهبط منها بسرعة إلى النهاية الساكنة ، ولكن في هذه الظاهرة نلاحظ أنه بعد الصعود التدريجي إلى الذروة والهبوط السريع إلى موقف ساكن ، لا تنتهي القصة ، إنما تحتدم من جديد ، وتعد مرة أخرى إلى نقطة الذروة ، وبعد ذلك فقط تهبط إلى نقطة النهاية الحقيقية نحو ما حدث في قصة " بركة اسحاق " (٥) : التي استهلت بتنكر يعقوب على هيئة أخيه " عيسو " لـ

(١) **בְּרֵאשִׁית ל"ב، ח' .**

(٢) راجع التكوين ٣٢ : ٢٤ .

(٣) راجع التكوين ٣٣ : ٤ .

(٤) **הַעֲלִיצוּב הָאֶמְנוּתִי שֶׁל הַסְּפֹר בַּמִּקְרָא** ، **לַעֲמ' ١٣٦ .**

(٥) راجع التكوين : الاصحاح ٢٧ .

يفوز ببركة أبيه ، وهذه الافتتاحية طرحت سؤالاً مهماً : هل سيحقق يعقوب مراده أم سيتم كشف خدعته ؟ وهذا التساؤل هو السبب الأول للإشارة والتوتر في هذه القصة ، وعدم تأكيد يعقوب من نجاحه يأتي على لسانه : **אָוֹלַי 'מִשְׁנֵי אָבִי - וְהִיִּיתִי בְעֵינָיו כְּמַתְעַתֵּעַ וְהִבָּאתִי עַל קִלְלָה וְלֹא בִרְכָה** (١) - ربما يجسّس أبي فأكون في عينيه كمتهاون وأجلب على نفسي لعنة لا بركة " .. ثم يردد التوتر مع قدوم يعقوب عند أبيه وقوله له : **אָבִי 'אָבִי** * (٢) .. ثم يردد التوتر أكثر عندما يسأله إسحاق : **" מִי אַתָּה בֶּן "** (٣) - من أنت يا بني " ، ويعقوب يجيبه بكذب صريح : **" אָנֹכִי לֵשׁוּ בְכֻדָּה "** (٤) أنا عيسو بكرك " ، ثم تمل الإشارة إلى الذروة عندما يتحسس إسحاق ابنه من أجل أن يعرف : **הֲאֵתָה זֶה בֶּן לֵשׁוּ אִם לֹא** (٥) - أنت ابني عيسو أم لا " ، وبعد الفحص الجسدي تنجح خدعة يعقوب ، ولكن صوته ما زال يشير الشكوك في نجاحه ، ولكن بعد أن منح إسحاق يعقوب البركة تخف حدة التوتر وتهدأ الأحداث إلا أن القصة لا تنتهي عند ذلك ، إذ يبدأ التوتر في الصعود من جديد حيث يخرج يعقوب ويدخل عيسو ؛ ثم تهدأ الأحداث مرة أخرى عندما يترك يعقوب المنزل وينشأ بُعد جسدي بين الأخوين الخصمين ، ولكن الارتقاء التام لا يحدث إلا بعد التماثل النهائي بين يعقوب وعيسو فقط بعد مرور عشرين سنة (٦) .

أما نهاية أحداث القصة فيشار إليها بوضوح تام في عديد من قصص التوراة ، فمثلاً عندما يقص في بداية القصة أو أثنائها ، أن شخصاً ترك مكانه وذهب إلى مكان آخر ، فإنه يذكر أكثر من مرة في نهاية القصة أن نفس الشخص قد عاد إلى مكانه ، وبذلك يشعر القارئ أن القصة قد تمت ، وأحياناً يشار

(١) **בְּרֵאשִׁית כב, י"ב .**

(٢) **בְּרֵאשִׁית כב, י"ח .**

(٣) **שֵׁם שֵׁם, ח .**

(٤) **שֵׁם שֵׁם, י"ט .**

(٥) **שֵׁם שֵׁם, כא .**

(٦) **הַעֲצִיב הָאֲמֵנוֹת שֶׁל הַסְּפֹר בַּמִּקְרָא , עמ' ١٣٧ .**

إلى هذه النهاية مع تغيير طفيف فبدلاً من ذكر أن فلان قد ذهب ، يقال أنه تم إرساله ، مثال ذلك نهاية قصة إبراهيم وسارة في مصر (١) ، فيقول : " וַיֵּלֶךְ לְעַלְיוֹן פְּדֵעָה אֲנָשִׁים וַיִּשְׁלַחוּ אוֹתוֹ וְאֵת אִשְׁתּוֹ וְאֵת כָּל אֲשֶׁר לוֹ (٢) - " فأوصى عليه فرعون رجلاً فشيّعوه وامراته وكل ما كان له " .. وأحياناً أخرى يتم الجمع بين هاتين الصيغتين للإشارة إلى نهاية القصة فيذكر أنه تم إرسال فلان ، وأنه ذهب أيضاً : نحو ما نجد في قصة زيارة يثرو لموسى فى الصحراء (٣) حيث تنتهى هكذا : " וַיִּשְׁלַחוּ מֹשֶׁה אֶת חֹתְנוֹ וַיֵּלֶךְ לוֹ אֶל אֲדָמִי (٤) - ثم صرف موسى حماء فمضى إلى أرضه " .

وفى حالات عديدة تنأت هذه النهاية لتنتهى مرحلة فى القصة ، أو فىى لتنتهى مشهداً أو موقفاً ومثال ذلك : بعد قصة تجلّى الله لموسى من وسط العليقة - وهو التجلّى الذى أنزل فيه رسالة الذهاب إلى فرعون وإخراج بنى إسرائيل من مصر ، قيل : " וַיֵּלֶךְ מֹשֶׁה וַיָּשָׁב אֶל יִתְרֵה חֹתְנוֹ " (٥) - فمضى موسى ورجع إلى شيوخ حميه " ، ولكن القصة مع ذلك لا تنتهى ، بل تستمر " וַיֹּאמֶר לוֹ אֱלֹכֶיךָ נָא וְאַשׁוּבָה אֶל אֲחִי אֲשֶׁר בְּמִצְרַיִם (٦) : وقال له : أنا أذهب وأرجع إلى إخوتى الذين فى مصر " ، وبعد ذلك تسرد الأحداث كيفية قيام موسى بأداء الرسالة التى اختاره الله لها فى هذا التجلّى (٧) .

الحوار : يقول " مائير فايس מאיר (١٩٥٠) : " إن أهم عنصر فى الانتاج القصصى هو " الحوار الداخلى " ، وهو ما بين الحديث المباشر والحديث

(١) راجع التكوين ١٢ : ١٠ - ٢٢ .

(٢) בדאשית 'ב, כ.

(٣) שמות 'ח.

(٤) שמות 'ח, כז.

(٥) שמות ד, 'ח.

(٦) שם שם .

(٧) העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' ١٤٣ .

غير المباشر ، أى هو حديث القاص حول الشخصية التى يقصّ عنها ، فكلّمات القاص ليست إلا خواطر أشخاصه ، تماماً مثلما تنسحب الحكمة فى سرد زماننا ، وتدخل الأفكار غير المعلنة للشخصية إلى مركز القمة ، فإن هذا العنصر يتطور أكثر وأكثر ، ولذلك يتضح أنه لعدم وجود الوصف النفساني المباشر فى القصة المباشرة ، فإنها تخلق من " الحوار الداخلى " (١) .

ويرتبط " الحوار " فى القصة الترواوية بعدد الشخصيات العاملة فيها ، ففي المشهد الواحد لا يزيد عدد الشخصيات العاملة عن اثنين ، وذلك تخلصاً من تعدد الحوار ، وكذلك أيضاً عندما يكون عدد الشخصيات العاملة فى القصة كبيراً جداً ، فإنه يظهر فى كل مشهد من المشاهد عدداً محدوداً جداً من الشخصيات الفعّالة - فأحياناً توجد فى خلفيّة المشهد شخصيات " صامتة " لا تشترك فى الأحداث بشكل فعّال - لذلك فإن الاهتمام لا يثبّت ، بل يتركّز فى طور محدودة ، وفى هذه الحالة يجب الأخذ فى الاعتبار أن أحد المشاركين فى الحوار ليس شخصية واحدة بل مجموعة شخصيات ، مثل الحوار بين " لوط " ورجال سدوم :

וְאִישׁ הָעִיר אִישׁ סָדֹם נִכְסוּ עַל-חֶמְלֶיךָ מִיָּמֶךָ וְשָׂדֶדֶקָן
כָּל-הָעָם מִקְנָחָה: וְהָקָדָא אֶל-לוֹט וַיֹּאמְרוּ לוֹ אַתָּה הָאִישׁ
אֲשֶׁר-בָּאָה אֵלֶיךָ הַלַּיְלָה הַזֶּה וְיִצְחָא אֵלָיו וַיִּדְרֹשׁ אֹתָם: וַיֵּבֶא
אֹתָם לֹט הַפְּתָח וַיִּסְתְּלֵם כֵּן אֶתְרוּ: וַיֹּאמֶר אֶל־הֵנָּה
אִשִּׁי תָקַעַנִי הַחֲדָלָה לִי שְׂעִי בָנוֹת אֲשֶׁר לֹא-יָדְעוּ אִישׁ

(١) מאיר וייס , מלאכת הספור במקרא , עמ' 403 , מולד , כ' , 1962 .

(٢) جرت التوراة على استعمال كلمة " المعرفة " بمعنى " المضاجعة " فى قصص سفر التكوين حيث يغلب الممدران اليهودى والالوهيمى ، وذلك على طريقة الاستعارة والمجاز ومن ذلك ما جاء فى قصة آدم وحواء : " והאדם ידע את חוה אשתו ותהר " وعرف آدم حواء امرأته فحبلت "בגאשתא" وقصة " قايين وهابيل "ידע קיין את אשתו ותהר - وعرف قايين امرأته فحبلت " (בגאשית 4: 17) ولمزيد من الأمثلة انظر التكوين 25: 4 ؛ 1: 14 ؛ 16: 24 ؛ 26: 28 .

انظر : ابن سوشن , קונקורדנציה חדשה לתורה נביאים וכתובים , כ' א-כ , עמ' 434 , הוצאת קרית ספר , בע"מ מ- הדורה שלישית , ירושלים תשמ"א 1981 .

אֲדִיחָה־נָא אֶתְהֵן אֲלֵיכֶם וְעָשִׂי לָהֶן כְּטוֹב בְּעֵינֵיכֶם דָּק⁽¹⁾
לְאִנְשֵׁים הָאֵל אֶל-תַּעֲשִׂי דְבָר כִּי-עַל-בֶּן כְּאִי בְּגַל קָרְתִּי:

- أحاط بالبيت رجال المدينة - رجال سدوم من الحَدَث إلى الشيخ . من الشعب من أقصاها . فنادوا لوطاً وقالوا له أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة . أخرجهما إلينا لنعرفهما . فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب وراءه . وقال لا تفعلوا شراً يا إخوتي . هوذا لي ابنتان لم تعرفهما رجلاً . أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم . وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما قد دخلا تحن ظل سقفي " .

نلاحظ أن هذه المجموعة من الرجال ليست إلا شخصية جماعية ، لذا لا يجب أن نرى في هذا الحديث " حواراً متعدداً " ، ولكن حوار شئائي أي " ديالوج"⁽²⁾ . وكذلك في قصة " جنة عدن " ، وبعد الأكل من شجرة " معرفة الخير والشر " ، يدور حوار بين أربع شخصيات : اللؤلؤم - المرأة - الحية⁽³⁾ ، ولكننا لا نرى في هذا الحوار " حواراً متعدداً " حيث يتحدث الله مع كل شخصية بمفردها ...

ولكن يمكن أن نرى في الحوار بين " حامور وشكيم " من ناحية وأبناء يعقوب من ناحية أخرى حواراً متعدداً ، وهو الذي جاء في قصة اغتصاب دينا⁽⁴⁾ . ففي هذا الحوار يظهر أبناء يعقوب كشخصية جماعية - كذلك يظهر يعقوب نفسه في المشهد ولكنه لا يشترك في الحوار - ويبدأ الحوار بطلب " حامور " دينا زوجة لابنه ، ثم يتحدث بعده " شكيم " ويؤكد تلبية له مطلب ، مقابل زواجه من دينا ، ثم يتحدث أبناء يعقوب ويكون ردهم موجهًا لحامور وشكيم معاً ..

(1) בדאשית ט, ד-ח'.

(2) - העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' 716 .
- ש. טלמון , דרכי הספור במקרא , עמ' 45 ואלך , ירושלים תשכ"ה .

(3) רاجع التكوين 3 : 8 - 19 .

(4) راجع التكوين 34 : 8 - 18 .

إذاً في هذا الحوار يشترك ثلاثة أطراف : الطرف الأول شخصية جماعية يمثلها أبناء يعقوب ، أما الطرفان الثانى والثالث - حمور وشكيم- فهما يمثلان طرفاً واحداً إذ تقبلان رداً واحداً مع ملاحظة الاختلاف البين بين حديث " حمور " وحديث " شكيم " وإن كان هدفهما مشترك وهو المطالبة بديننا ، ومع ذلك فإن تبريراتهما مختلفة ، فحمور زعيم " الحويين " يتحدث عن إقامة علاقات قرابة بين الجماعتين القويتين :

וְהַחֲמִיטִי אֶתְּנוּ בְּנֵי־בֶשֶׁל הַתְּנִי־לָנוּ וְאַחֵר־

בְּנֵינוּ הָקִינוּ לָכֶם : וְאַתְּנוּ תִּשְׁבּוּ וְהָאֲרִיץ תִּהְיֶה לַבְּנֵיכֶם

שְׁבוּ וְסִקְלוֹתֵי הַחֲמִיטִי בְּהִי (١) - وصاهرونا . تعطوننا بناتكم وتأخذون لكم بناتنا وتسكنون معنا وتكون الأرض قدامكم اسكنوا واتجروا فيها واملكوا بها " أما "شكيم" فيقدم تبريرات ذات طابع شخصى :

הָרָבוּ עָלַי מְאֹד מִתָּר וּמִתָּן וְאַתְּמָה בְּאֶשֶׁר הָאֲמִירָן אֵלַי וְהַתְּנִי־לִי אֶת־הַיְּהוּדִים לְאִשְׁתִּי : -
كثروا على جدا مهراً وعطية ، فاعطى كما تقولون لى . وأعطونى الفتاة زوجة " .

كذلك يسمت الأبطال فى مشاهد قصصية عديدة فى التوراة ، وذلك فى اللحظات التى ينتظر فيها القارىء حديثهم (٢) . فمثلاً لم تظهرنا قصصة " قايين وهابيل " على العلامات التى استبان بها كل من الأخوين مصير قربانه ، وهى كذلك لم تخبرنا بفحوى الحديث الذى دار بين الأخوين ، ولكن يبدو من السياق أن أحدهما نقض التعايش السلمى بينه وبين أخيه وأنه استفزه بذلك الحديث الذى أعقبه مصرعه (٤) .

وربما تعود قلة المحادثات فى القصة التورائية للأسباب الآتية :
أولاً : أن أغراض القصة التورائية تتفق مع إيجازها ، فهى تحتاج فقط للحوار الذى يسبق الحكمة لضرورة فهمها ، فحديث أبطال القصة التورائية حديث مختصر يهتم فقط بجوهر الأشياء وماهيتها (٥) .

(١) בדאשית לד, ט-י.

(٢) בדאשית לד, יב.

(٣) מבוא פללי למקרא , עמ' 762.

(٤) عصام الدين حفى ناصف : الأسطورة والوعى : ص ١٢ .

(٥) מבוא פללי למקרא , עמ' 763.

ثانياً : فى قصص عديدة يتحدث الله ، ولذلك على الأبطال تنفيذ ما أمروا به : فماذا يمكن أن يضيف " آدم " بعد أن قال الله كلمته ؟ و " نوح " يتلقى أمر الله بصنع الفلك ، ولا يسأل ولا يتناقش ، عليه أن يمتثل للأمر ، وفى مقابل ذلك نجد هناك أبطالاً تتجه بالحديث والأسئلة إلى الله مثل إبراهيم وموسى وغيرهما ، ولكن هذه التساؤلات هى سر التفكير التورائى ، أى التفكير ملياً فى طرق العناية الإلهية ومصير الإنسان ١٠

ثالثاً : أحياناً نجد فى الصمت نفسه دلالة ، فعندما وقف إخوة يوسف أمامه فى مصر وقال بعضهم لبعض :

" **אֲכַל־אֲשָׁמִים** / **אֲנַחְנוּ עַל-אֲחֵינוּ אֲשֶׁר רָאִינוּ עֲרֹת נִפְשָׁו** "

בְּהִתְחַנְנָנוּ אֵלֵינוּ וְלֹא שָׁמַעְנוּ (١) - حقا أننا مذنبون إلى أخيها الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع " من هنا ندرك أن " يوسف " قد أشفق عليهم ، والتوراة لم تذكر لنا هذا الحديث فى مشهد بيعه ، لأنها لو قصته علينا فى هذا المشهد لاشتد غضبنا ضد إخوة يوسف وشخصيتهم الظالمة بسبب قسوة قلوبهم وآذانهم الرافضة لسماع توصلات أخيهم التعس ، بالإضافة إلى أن يوسف نفسه قال بعد ذلك لإخوته " **אתם חשבתם לל' רעה** ، **אלהים חשבה לטובה** - ^(٢) أنتم قمدمت لى شرآ . أما الله فقصد به خيرا " . إذاً صمت يوسف فى البداية خفف قليلاً من فداحة جريمة إخوته ، بالإضافة إلى أنه كان تحقيقاً لوحى الله " لإبرام " قبل أن يقطع معه العهد " **ב'ר'ך** - **בין הבתרים** " ، بأن نسله سيكونون غرباء فى أرض ليست لهم ويستعبدون ويدلون من قبل أصحاب هذه الأرض أربعمئة سنة (٣) .

ويطلق " مائير فايس " على هذه الظاهرة اسم : " العودة للـتوراء -

" - **לצנון אחורה** " (٤) وسوف نتناول هذه

(١) **בראשית מב, כא.**

(٢) **בראשית נ, כ.**

(٣) راجع التكوين ١٥ : ١٣ .

(٤) **מלאכת הספור במקרא**, עמ' 402-406 .

الطاهرة - بالبحث عند الحديث عن الزمان في القصة التوراوية .

الزمان والمكان :

في معظم قصص التوراة تنتهي المشاهد بتحديد أماكن الأحداث ، وأحياناً أخرى عن طريق أزمنة الأحداث ، أى أن كل مشهد يحدث في مكان وزمان آخر - فمثلاً قصة " عبد إبراهيم ورفقة " : (١) تنقسم إلى مشهدين كبيرين فضلاً عن المقدمة والخاتمة ، فالمقدمة أو الافتتاحية تحدث في بيت " إبراهيم " قبل خروج العبد إلى الطريق ، والخاتمة تحدث في الحقل بالنقب عند عودة العبد مع " رفقة " ، والمشهدان الأساسيان يحدثان في آرام النهرين ، الأول بجوار البئر ، والثاني في بيت بتوئيل (٢) .

الزمان :

وبما أن جوهر القصة هو حدث في زمن ، فإن تحديد طابع القصة يكون أكثر فعالية عن طريق تحريك القصة بالزمن ، وحيث أن زمن القص لا يكون مطابقاً أبداً مع زمن القصة ، لذلك يعتقد بعض المحدثين من الباحثين في فن القصة أنه لا توجد وسيلة مؤكدة لإدراك ماهية القصة موضوع البحث ، أكثر من تتبع العلاقة بين الزمن الذي قصت فيه ، والزمن الذي تقمه قصة الحدث ، أى تتبع العلاقة بين الأزمنة : " الترتيب الزمني داخل القصة Chronological Time " ، " زمن القص Fictional Time " ، و " زمن قراءة القصة Reader's Clock Time " ، وهذا التتبع سوف يوضح ويظهر التفصيل الذي تطيل فيه القصة ، والذي توجزه (٣) .

أولاً - مدة الزمن :- أى المدة التي يستغرقها الزمن داخل القصة :-

هناك أهمية كبيرة لدراسة العلاقة بين زمن القص ، وزمن القصة . فمن

(١) راجع التكوين : ٢٤ .

(٢) העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' 121 .

(٣) מלאכת הספור במקרא , עמ' 404 .

خلال دراسة العلاقة بين هذين الزمنيين تتضح لنا العلاقة النسبية بين أجزاء القصة المختلفة من جانب والإطار العام للقصة من جانب آخر ، لأن استيضاح العلاقة بين الزمنيين يفتح أمام أعيننا الصورة التي تعرض بها الأحداث داخل القصة ، وبالتالي فإنه يمكن استخلاص النتائج بشأن مغزى القصة وموضوعها الرئيسي (١) .

وبالنسبة لزمن القص (وهو الزمن المطلوب لقراءة القصة أو قصتها) ، فيمكن قياسه بسهولة ، لأنه واضح ويقع خارج إطار القصة ، ولكن الصعوبة الحقيقية تكمن في معرفة زمن القصة ، أي الزمن الداخلى المستخدم فيها ، وهناك وسيلتان لمعرفة الزمن ومعرفة أنواعه وعلاقاته ، وهاتان الوسيلتان مرتبطتان باللغة وهما :

- (١) أزمنة الأفعال المستخدمة فى القصة .
 - (٢) كلمات التعبير عن الزمن فى القصة (سنة ، يوم ، أمس ، غدا .. إلخ) .
- وقد قيمة أزمنة الفعل فى تحديد الزمن محدودة للغاية . ولكن إذا افترضنا أن أزمنة الفعل تُعبّر فعلاً عن الزمن ، فهى لا تُستطيع أن تعبر إلا عن الزمن بصورة عامة ، ولكن الأمر يختلف بالنسبة للكلمات المعبرة عن الزمن . أى الأسماء ، وأسماء الفاعل والإضافة .. إلخ . فكلمات التعبير عن الزمن ، وبخاصة الأسماء حينما تكون مصحوبة بأرقام يمكنها أن تحدد الزمن بصورة دقيقة ويمكنها أيضاً أن تحدد المدة التى يستغرقها الزمن ، وهذه الكلمات تنقسم إلى علامات استمرار ، وعلامات موعد (٢) ، وتكثر علامات الاستمرار الزمنى

(١) שם שם , למ' 404 .

وقد أدرك حكماء التلمود دلالة الاختلاف فى العلاقة بين الزمنيين ، وذلك بالرجوع إلى عدم التناسق بين إيجاز الكلمات عن أجيال عديدة فى إصحاح واحد ، واستندوا على الوصف التفصيلي عن أعمال ٢٢ سنة ليوסף فى أربعة إصحاحات ، فى أن يقرأوا أربعة فصول من التوراة فى أربع سبوت بعد تلاوة الفصل الأسبوعى . שם שם , למ' 404 .

(٢) הלצוב האמנותי של הספור במקרא , למ' 155 .

فی قصص التوراة، ففي، قصة الخلق: **וַיִּקְרָא אֱלֹהִים לְדָקִיעַ שָׁמַיִם וַיְהִי-
לָעֶרֶב וַיְהִי בֹקֶר יוֹם שֵׁשׁ⁽¹⁾** - ودعا الله الجدد سماء . وكان مساء . وكان صباح
يوماً ثانياً " .

وفي قصة الطوفان: **וַיְהִי הַגֹּשֶׁם עַל הָאָדָם אַרְבַּעַת יָמִים וָאַרְבַּעִים לַיְלָה
וְكَانَ الْمَطَرُ عَلَى الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً** " .

وفي قصة زواج يعقوب وراحيل: **וַיַּעֲבֹד יַעֲקֹב בְּדָחַל שִׁבְעַת שָׁנִים⁽²⁾**
فخدم يعقوب براحيل سبع سنين " .

وفي قصة إقامة بني إسرائيل في مصر: **"וּמוֹשֶׁב בְּנֵי יִשְׂרָאֵל אֲשֶׁר יֵשְׁבוּ
בְּמִצְרַיִם שְׁלֹשִׁים שָׁנָה וְאַרְבַּעַת מֵאוֹת שָׁנָה⁽⁴⁾** - وأما إقامة بني إسرائيل
التي أقاموها في مصر فكانت أربعمئة وثلاثين سنة " .

أما علامات الموعد فمثل ما ورد في قصة عيد إبراهيم: **"וַיִּבְדֹּךְ הַגַּמְלִים
מִחוּץ לְעֵיר אֵל בְּאֶרֶץ הַמִּיִּם לָעֵת עֶרֶב לָעֵת צֹאת הַשָּׁאֲבוֹת⁽⁵⁾**
وأناخ الجمال خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء وقت خروج المستقيّات " .

وفي قصة بني إسرائيل في مصر: **"מִדּוּעַ לֹא פָלִיתֶם חֶקְבִּם לְלִבָּן
כְּתִמּוֹל שְׁלוֹשׁוֹם גָּם תִּמּוֹל גָּם הַיּוֹם⁽⁶⁾** - لماذا لم تكملوا فريفتكم من صنع اللبن
أمس واليوم كالأمس وأول أمس " .

وهكذا تساهم علامات الموعد في الإحساس بزمن القصة ، ولكنها لا توضح
لنا طول المدة الزمنية إلا إذا ارتبطت بعلاقات بينها وبين أحداث القصة (7) .

(1) בדאשית א, ח' .

(2) שם ז, יב' .

(3) שם כט, כב' .

(4) שמות יב, מ' .

(5) בדאשית כד, יא' .

(6) שמות ה, יד' .

(7) העיצוב האמנותי של הספור במקרא, עמ' 155-156 .

ومع ذلك فإنه ليس بواسطة علامات الزمن بنوعيتها ، يتم فقط تشكييل الزمن داخل القمص ، حيث إنها لا تعطينا الإحساس بالزمن الحقيقي القائم والمتدفق بلا توقف .. فالمورة الكاملة للزمن لا تصاغ بمساعدة المعطيات المباشرة للزمن ، وإنما تصاغ من خلال الأحداث الواردة فى القصة ، وبما أن الأحداث تقع داخل إطار الزمن ، فإنها تحدد أنماطه بدرجة كبيرة ، وتنفى عليه مضموناً زمنياً (١) .

وأيضاً من الممكن أن يتوقف الزمن تماماً داخل القصة ويظل بعض الوقت بلا حراك . وتوقف الزمن يتم داخل القصة فى حالتين :

(١) حينما تتضمن القصة بعض التفسيرات أو التوضيحات أو وجهات نظر من المؤلف .

(٢) حينما يستطرد المؤلف فى تقديم أوصاف معينة . وهذا يعنى أن أى تدخل من جانب المؤلف فى القصة يؤدى مباشرة إلى وقف حركة الزمن . أو بصورة أكثر دقة الخروج عن إطار الزمن ..

والقصاص فى قصص التوراة يتدخل غالباً خلال جمل قصيرة ، وبالتالى فإن حالات توقف الزمن نادرة جداً وإذا جاءت فإنها تكون قصيرة للغاية ..

وبهذا يمكننا القول أن أغلب قصص التوراة قصص حركية ، تسيطر عليها الحركة ، بل إنه يمكننا القول أن الحركة فيها سريعة بصفة عامة . ومثالنا على ذلك البداية الأولى لقصة موسى ، فالإيقاع فيها سريع جداً والأحداث

متلاحقة : " וַיִּקַּח אִישׁ מִבְּתוּלֵי לֵנִי וַתְּהִי אֶת־בְּתוּלָתִי : וַתֵּסֶר הָאִשָּׁה וַתֵּלֶד בֵּן וַתֵּרָא אִתּוֹ כִּי־טוֹב הוּא וַתַּצְפֵּנֵהוּ שְׁלֵשָׁה יָרְחִים : וְלֹא־יָבִילָהּ עוֹד הַצְּפֵנִי וַתִּקַּח־לּוֹ תָבַח לֵמֹא וַתְּהַמְרָה בְּחֶמֶד וּבְזִפְתָּ וַתֵּשֶׂם בָּהּ אֶת־הַלֵּל וַתֵּשֶׂם בְּסוּף עַל־שִׁפְתָּ הַיָּאֵר : וַתַּחֲבֹב אֶת־הוּא מִרַחֵק לְרַעָה מִה־נִּשְׁעָה לוֹ : וַתֵּרָד בַּחֲפָזָהּ לַרְחֵץ עַל־הַיָּאֵר וַנַּעֲרָתֶיהָ הִלָּכָת עַל־יַד הַיָּאֵר

ותרא את-התכה בתוך הסוף ותשלח את-אמסה ותקחה:
ותפתח ותראהו את-הגלד ותהנהגער בכה ותחטל עליו
ותאמר מילדי העברים זה: ותאמר אחתו אל-בת-פרעה
האלף וקראתי לך אשה מלכה מן העברות וסניק לך את-
הגלד: ותאמר-לה בת-פרעה לבי נתלך העלמה ותקרא
את-אם הגלד: ותאמר לה בת-פרעה הילכי את-הגלד
הזה ותניקהו לי ואני אמן את-שכרך ותקח האשה הגלד (1)
ותניקהו: ונקל הגלד ותבאחל לבת-פרעה ויהי-לה לבן

" וذهب رجل من بيت لوى وأخذ بنت لوى . فحبلت المرأة وولدت ابناً .
ولما رآته أنه حسن خيأته ثلاثة أشهر . ولما لم يمكنها أن تخبئه بعهد .
أخذت له سقياً من البردى وظلته بالحر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعتة على
الحناء على حافة النهر ، ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به ، فنزلت
ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواربها ماشيات على جانب النهر . فرأت
السقيا بين الحنفاء فأرسلت أمتها وأخذته . ولما فتحت رأت الولد وإذا هو
صبى يبكى . فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين . فقالت أخته لابنة
فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة مرفعة من العبرانيات لترفع لك الولد . فقالت
لها ابنة فرعون اذهبي . فذهبت الفتاة ودعت أم الولد . فقالت لها ابنة
فرعون اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لى وأنا أعطى أجرتك . فأخذت المرأة الولد
وأرضعته . ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابناً " .

وعندما نتتبع جذور العلاقة المتغيرة بين زمن القص وزمن الحدث
المقصود ، سنتضح لنا الأبعاد التي على أساسها اختار القاص تفاصيل الحكمة
داخل القصة ، هل اتبع طريقة القفزات الزمنية ، أي أطال في تفصيل الحدث
(2) وأطال في تفصيل الحدث (ب) وحذف ما بينهما من أحداث ، أم أقام جسراً
من التفاصيل عن طريق عرض ما حدث بينهما ، وهل هذا العرض هو ذكر الزمن
الذي مر ، أم وصف الزمن لا بشكل مجرد من أجل معرفة الزمن فقط ، وإنما بشكل
يجعل القارئ يشعر بطول الزمن الذي مر ؟ (2)

(1) נשמות ב.א.-י.
(2) מלאכת הספור במקרא , עמ' 404.

ويلاحظ أن سرعة الزمن داخل المشهد القصصى قريبة من زمن القص ، وذلك لأن المشهد يعتمد فى جوهره على الحديث ، فعندما يتم عرض فعل كجزء من المشهد ، فإن زمنه يستمر أكثر من زمن القص ، نحو ما جاء فى قصة الذبيح :

וַיְבָאוּ אֶל-הַמִּקְוֹם אֲשֶׁר אָמַר-לָו הָאֱלֹהִים לַבֶּן שָׁם אֲבִרְהָם אֶת-הַמִּזְבֵּחַ וְעָרָף אֶת-הַעֲצִים וַיַּעֲקֹר אֶת-דָּוִדָּם בְּלוּ וְהָשָׂם אֹתוֹ עַל-הַמִּזְבֵּחַ מִמַּעַל לְעֵצִים: (١) - وآتيا إلى الموضع الذى قال له الله وبنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب " .

فرغم التفاصيل الكثيرة بشأن أعمال إبراهيم ، فلاشك أن بناء المذبح وترتيب الأخشاب وربط إسحاق ووضعه على الأخشاب ، قد أخذت زمناً طويلاً لا يتناسب مع الزمن المطلوب لقراءة الفقرة التى تسرد هذه الأعمال : وهذه هى القاعدة ولكن هناك استثناء لها ، أى أن العمل المعروض فى المشهد يحدث فى زمن أقصر من زمن القص ، وهو ما حدث فى الفقرة التالية للفقرة السابقة :

וַיִּשְׁלַח אֲבִרְהָם אֶת-דָּוִד וַיִּקַּח אֶת-הַמִּזְבֵּחַ לְעֹשֶׂת אֶת-דָּוִד: (٢)

- ومدَّ إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه " .

فالعمل هنا ينقسم إلى عمليتين فرعيتين : أ - مد اليد - ب - وأخذ السكين ، ويضاف إليهما نية القائم بالعمل ، هذا فى الوقت الذى يكون فيه زمن القص أكثر من زمن الحدث المقموص ، ومن خلال ذلك يتجه اهتمام القارئ إلى ذلك العمل ، الذى يعتبر نقطة الذروة فى القصة (٣) . ولكن من غير الممكن قص قصة تمتد خلال مساحة زمنية معروفة بتكنيك العرض المشهدى فقط ، فربما كان بإمكان العرض المشهدى تقديم جزء زمنى محدود ، ولكن القصة يجب أن تربط بين هذه الأجزاء الزمنية المحدودة ، ويجب أن تعطى الشعـور

(١) בראשית כב, ט.

(٢) בראשית כב, י.
(٣) העיצוב האמנותי של הספור במקרא, עמ' 159-160.

بالاستمرارية والتواصل ، وعليها أن تقدم معلومات بشأن تسلسل الأحداث التي وقعت بمرور الزمن ، لذلك تستخدم القمة السرد المركّز ، ومع إننا في أغلب قصص التوراة نجد أن أجزاء السرد المركّز قصيرة جداً ، والعرض المشهد يشغل مساحة أكبر ، إلا أن هناك أيضاً قصص ، يقص الجزء الأكبر منها ، أو تقصص بكاملها بتكنيك السرد المركّز ، حيث أن الزمن في السرد المركّز يتبدّل بسرعة أكبر من الزمن في العرض المشهد ، لكن سرعته ليست واحدة أو ثابتة ، فالفروق في نسب سرعة زمن المقصوص داخل السرد المركّز يمكن أن تكون قوية ، وسنرى هذا الأمر بوضوح أكثر بعد المقارنة بين هذه الأحداث :

- ٢ - "וירדף אחיו דרך שבנת ימים" (١) - وطارده مسيرة سبعة أيام " .
 ب - "ותהר לאה ותלד בן" (٢) - فحبلت ليثاء وولدت ابناً " .
 ج - "ועבד יעקב ברחל שבע שנים" (٣) - فخدم يعقوب من أجل راحيل سبع سنين " .

في الحدث الأول يذكر القاص مدة الأيام ، وفي الثاني مدة الشهور ، وفي الثالث مدة السنوات ، وتفسير ذلك بالنسبة الزمنية نجد أن النسبة بين زمن القص وزمن الحدث المقصوص في الحدث الأول هي نسب متفاوتة (٤) .
 أما ظاهرة القفزات الزمنية داخل المشاهد القصصية في قصص التوراة ، حيث أنه من غير الممكن ملء كل لحظة زمنية داخل القمة ؛ ولذلك يقوم القاص بقفزات زمنية بين أجزاء العرض المشهد أو السرد المركّز - وهذه الظاهرة تنقسم إلى نوعين :

- ١ - قفزات متصلة .
 ب - قفزات غير متصلة .

(١) בדאשית לא , כג .
 (٢) בדאשית כט , לב .
 (٣) בדאשית כט , כ .
 (٤) הע'צוב האמנותי של הספור במקרא . לג' ١٦٥

أما القفزات غير المتصلة فهي نادرة الحدوث ، حيث ترتبط الأجزاء بوجه عام في السرد المركز بين مشاهد القصة ، لكن القفزات الزمنية من هذا النوع تكثر بين القصص المختلفة ، مثال قصة ولادة موسى (١) ، حيث تبدأ بجزء سردي مركز ، يقص ولادة موسى ، وأن أمه خبأته مدة ثلاثة شهور ، ووضعت بعد ذلك في سبط من البردى وتركته على حافة النهر .. ثم يسرد جزء آخر بالمعرض المشهدى ، فيه نعرف ان ابنة فرعون تأخذ الطفل من الماء وتعطيه لامرأة عبرانية لكي ترضعه .. في هذا المشهد موسى ما زال طفلاً رضيعاً ، بينما في المشاهد التالية التي يحكى فيها عن قتله لرجل مصرى ، وعن تدخله في النزاع بين الرجلين العبرانيين ، هو فيهما رجل بالغ ، وبسبب هذه الفجوة الزمنية تتمثل الاخبار عن طريق السرد المركز : " **וַיִּגְדַּל הַיֶּלֶד וַתְּבַאֲהוּ לְבַת פַּרְעֹה וַיְהִי לָהּ לְבֶן.. וַיְהִי בַיָּמִים הָהֵם וַיִּגְדַּל מֹשֶׁה** (٢) - ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصارت لها ابناً .. وحدث في تلك الايام لما كبر موسى " .. ثم مع استمرار القصة يحكى أن موسى هرب إلى أرض مدين لأن فرعون كان يطلب قتله ، ثم يمكث في أرض مدين مع الكاهن ويتزوج ابنته .

بين هذه القصة والقصص التالية التي تحكى الخروج من مصر ، تفصل فجوة زمنية كبيرة ، حيث يقول الله لموسى : " **לֵךְ שׁוּב מִצְרַיִם כִּי מָתוּ כָל-הָאֲנָשִׁים הַמִּבְקָשִׁים אֶת נַפְשְׁךָ** (٣) - اذهب ارجع إلى مصر - لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك " .. وموسى نفسه يصل لعممر الثمانين (٤) ..

وعن هذه الفجوة الزمنية - الموجودة بين القصص المختلفة - لا يوجد أى ربط يصل بينها ، مثلما لا يوجد أى ربط للفجوة الزمنية بين قصص بنى إسرائيل في الصحراء في السنة الأولى والثانية لخروجهم من مصر ، وبين القصص

(١) راجع الخروج : الاصحاح الثانى .

(٢) **נַשְׁמוֹת ב, א'-א.**

(٣) **נַשְׁמוֹת ד, יט.**

(٤) **נַשְׁמוֹת ז, ٢٠.**

التي تسرد أحداثهم في السنة الأربعة ، فليس هناك أى سرد قصص بشأن الثمان والثلاثين سنة التي مكثوها في الصحراء ، وهذه الفجوة الزمنية لا يوجد لها أى ذكر بأى شكل ما ، ولذلك بدا أن هذه السنوات عديمة الأهمية في نظـر القاص (١) .

أما القفزات الزمنية من النوع الأول ، التي تتصل ببعضها البعض ، سواء التي توجد داخل القصة الواحدة أو القصص المختلفة ، فيحتمل أن الاتصال بينها يشير بدقة إلى الفترة الزمنية الخالية ويحتمل أنها عامة وغير دقيقة ، فبين ولادة موسى ووضعه في صندوق البردى تفصل فترة زمنية ، والقاص يذكر طول الفترة بدقة : " **וַתֵּצֵא מֶלֶךְ מִצְרָיִם** " (٢) - خباته ثلاثة أشهر " . ومع أن هذه الفترة تمر في غمضة عين ، إلا أن ذكرها بدقة يشير إلى أهمية عنصر الزمن في هذا الحدث . . . ثلاثة أشهر والام تخبى طفلها موسى ، تجعلنا نتخيل مدى رعب الأم طوال هذه الفترة ، والقلق الذي ملا قلبها ، والشك من نجاحها في إنقاذ حياة ابنها . ثم عدم ظهور الطفل طوال هذه الأشهر الثلاثة يجعلنا نؤمن بمعجزة تؤدي إلى إنقاذه من الغرق في مياه النهر (٣) .

هذا فيما يتعلق باستمرارية الزمن ونسب سرعته المتغيرة ، لكن بالإضافة إلى هذا الزمن التقويمي (الحسابي) ، فهناك الزمن النفسي ، وليس المقصود هنا الزمن النفسي الخاص بشخصيات القصة (٤) ، وإنما المقصود هو المعدل الزمني ونسبة تقدمه من حيث الإحساس الداخلي به لدى القارئ بالزمن،

(١) **העיצוב האמנותי של הספור במקרא** . עמ' 163

(٢) **שמות ב' : ב'**

(٣) **העיצוב האמנותי של הספור במקרא** . עמ' 163

(٤) وهو موجود أيضا في القصة التورائية ، مثال قصة زواج يعقوب : " **וַיֵּלֶבֶד** " .

עָקֵב בְּדַחַל שְׁבַע שָׁנִים וַיְהִי בְּעֵינָיו כְּמַיִם אֲחֵדִים בְּאַהֲבַתוֹ אֶתָּה " . فخدم يعقوب من أجل راحيل سبع سنين ، وكانت في عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها " . **בְּרַאשִׁית כ"ב** .

فمعدل سرعة تدفق الزمن في نظر القارئ يتأثر بعوامل مختلفة : فالترتابة تبطن معدل السرعة ، والاهتمام والتوتر يزيدان من سرعته ، وأغلب قصص التوراة ذات توتر بالغ ، وتتضمن مادة جذابة جداً ، فهي مليئة ومفعمة بالأحداث غير التقليدية والوقائع الدرامية والتناقضات الشديدة ، والصراعات القوية ، فالأزمة تعقب الأزمة ، والشخصيات تأخذ في التعقيد مع سير الحكمة ، والقارئ ينتظر مستعداً لحل هذه التعقيدات ، فكل شيء حركي وهادف ومركّز للغاية ، الأمر الذي يجعل اهتمام القارئ منصباً دائماً إلى الأمام وإلى ما هو آت ، فالقصص تحتشد بشخصيات رئيسة وحكمة جوهرية ، حيث تخلو تقريباً من الانحرافات ، فأسلوبها مباشر وبسيط وغير معقد ، كل هذه العوامل تعمل على خلق معدل نفسى سريع (١) ..

لكن أحياناً يبطل معدل سرعة الزمن في القصة بواسطة تكرار معلومات معروفة للقارئ. أي نص موضوع أكثر من مرة .. وهذه الظاهرة شائعة بكثرة في قصص التوراة ، فالمعلومات التي يتم سردها تفصيلاً ، تعاد وتذكر بعد ذلك مع سير الحكمة ، وأحياناً يرد أمر أو اقتراح أو نبوءة .. إلخ ، وبعد ذلك يذكر التنفيذ أو التحقيق ، وكذلك أيضاً يتم ذكر حدث أو فعل أو حديث ، وبعد ذلك يرد تقرير من إحدى الشخصيات عن هذا الحدث أو الفعل أو الحديث ، وأحياناً أخرى يأتي التكرار في الجملة التالية مباشرة نحو ما جاء في قصة الطوفان :

וְהָיוּ הַמִּקְבֹּל אֲרֻבָּיִם
יוֹם עַל-הָאָרֶץ נִבְרְוּ הַמִּים וַיִּשְׂאוּ אֶת-הַתְּהוֹמָה וַיִּקְרָם מַעַל
הָאָרֶץ: נִבְרְוּ הַמִּים מִדְּבֵי מַאֲד עַל-הָאָרֶץ וַתִּלָּךְ הַתְּהוֹמָה
עַל-פְּנֵי הַמִּים: וַהַמִּים נִבְרְוּ מַאֲד מַאֲד עַל-הָאָרֶץ וַיִּכְסּוּ
כָּל-הַהָרִים הַגְּבוּלִים אֲשֶׁר-תַּחַת כָּל-הַשָּׁמַיִם: הַמַּיִם עָלְתָה
אֲמָה מִלְּמַעְלָה נִבְרְוּ הַמִּים הַכֶּסֶּם הַהָרִים: וַיָּגֹעַ כָּל-בָּשָׂר
הַרְגָם עַל-הָאָרֶץ בַּעֲוֹן וּבִבְהֵמָה וּבְכָל-הַחַיָּה
הַסֹּבֵץ עַל-הָאָרֶץ וְכָל הָאָדָם: כֹּל אֲשֶׁר נִשְׁמַת-רוּחַ חַיִּים

(١) הע'צוב האמנות' של הספור במקרא . עמ' 168

באפיו מכל אשר בחרבה מהו: נמח את-כל-הקום
אשר על-פני האדמה מאדם עד-בהמה עד-רמש ועד-
עוף השמים נמחו מן-הארץ נשאר אך-נח ואשר אתו
בתבה: (1)

- وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض . وتكاثرت المياه ورفعت
الفلک . فارتفع عن الأرض . وتعاضمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض . فكان
الفلک يسير على وجه المياه . وتعاضمت المياه كثيراً جداً على الأرض . فتغطت
جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء . خمس عشرة ذراعاً في الارتفاع
تعاضمت المياه . فتغطت الجبال . فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض . من
الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع
الناس . كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات . فمحا
الله كل قائم كان على وجه الأرض . الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء .
فانمحت من الأرض . وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط " .

ولكن ما السبب في حدوث مثل هذا التكرار ، وخاصة أنه يمكن تحاشيه ،
مثلاً حدث في حالات كثيرة ، باستخدام صيغ معينة مثل : " 'ו' / 'ו' /
وكان كذلك ، فقد جاء في قصة الخلق : **נאמר אלהים יקוו המים מים**
אל-מקום אחד ותראה הנהמה וחסדן: (2) - وقال الله لتجتمع المياه
تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة . وكان كذلك " .

- **נאמר אלהים יהי מארת ברקיע השמים למסדיל בין המים**
ובין המים ויהי לאחת ולמשלים ולמים ושמים: ויהי
למארת ברקיע השמים לקאיר על-הארץ וחסדן: (3)

- وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفعل بين النهار والليل
وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين وتكون أنواراً في جلد السماء لتنبير على
الأرض . وكان كذلك " .

- (1) **בראשית 2, 1-2, 11** .
- (2) **בראשית 1, 6-7** .
- (3) **בראשית 1, 6-7, 8** .

خاصة وأنه ليس من المقبول القول بأن هذا التكرار يهدف إلى إبطاء معدل سرعة الزمن - وإن كان ذلك قد يحدث أحياناً - ولكنه يعتبر كنتيجة هامشية ؛ من هنا يمكن القول بصفة عامة أن التكرار في مثل هذه المواضع (١) يعتبر تأكيداً للحدث كما يقوم بوظائف أخرى ، خاصة في إطار تكوين الشخصيات .

ثانياً : ترتيب الزمن : أي الترتيب الموضوعي للزمن والترتيب القصصي له .

هناك اتجاه عام في قصص التوراة على المقابلة بين ترتيب زمن القص ، وترتيب زمن الحدث المقصوص ، حيث يشكل زمن القصة ليتدفق في اتجاه واحد من الماضي إلى المستقبل ، ولقصص التوراة وسيلة خاصة بها للتعبير عن الترتيب الزمني المتعاقب لل أحداث ، وهي "واو التتالي" ، فهذه الوسيلة تنظم وقائع القصة فوق خط الزمن كسلسلة من النقاط المتتالية ، وهذه "الواو" تصل بين هذه النقاط كحلقات السلسلة ، وهي تساهم بدرجة كبيرة في خلق الإحساس بالتتابع والاستمرارية في قصص التوراة ، وبفضل شيوعها فإنها تترك بصماتها وطابعها في تحديد شكل القصة في التوراة (٢) .

وهل يتحرك الزمن إلى الأمام فقط - أي يسير في خط مباشر - أم أحياناً يتراجع إلى الوراء وتطرح أحداث الماضي ، وهو ما يعرف بالانجليزية Flash Back (٣) ، وهي الظاهرة التي أطلق عليها " جونكل " H. Gunkel " اسم Nachholung أي " השלמת החסר " - إكمال النقص .

والحقيقة أن باحثي الأدب الحديث لم يحدوا بعد بدقة مدلولات هذه الظاهرة ، ويقولون أنه يجب النظر إلى هذه الظاهرة لا على أنها ظاهرة عامة

- (١) העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' ١٦٩-١٧٠.
- (٢) נשם נשם , עמ' ١٧٣.
- (٣) أي רצף אחורה : חזרת מאורע שקדם בהמשך הספור - ذكر حدث سابق مع سير القصة .

انظر : R. Alcalay: The Complete English Hebrew Dictionary Volume I. (A-L) Printed in Israel by Massada Ltd. 1981.

ولكن بحثها في كل قصة على حدة ، كما حدد باحثو القصة أنواع " الرجوع إلى الوراء " ووظائفها المختلفة ، وذكروا أن أبسط أنواع هذه الظاهرة — " تبليغ المعلومات " التي لم يطرحها القاص في بداية القصة ولكن في منتصفها وهذا النوع شائع جداً في الرواية الطويلة ، حيث يكون تبليغ المعلومات ضرورياً لفهم أحداث الحكمة ...

ولكن أحياناً يكون " الرجوع إلى الوراء " ضرورياً لفهم الحكمة ، وإنما لتقويم أحداث الحكمة للوصول إلى مغزى القصة ، وهذا التكنيك لطرح الماضي وتوضيحه مرحلة بعد مرحلة على لسان متحدثين مختلفين أو من قبيل المؤلف ، موجود أيضاً في قصص التوراة ، فالقصة التورائية تخفى إلى حد ما التقويم المباشر لأعمال أبطالها ، وهي بهذه الطريقة تقدم الأعمال من زوايا مختلفة ؛ فعندما نطق هذه الظاهرة على قصة سارة في بيت أبيمالك (١). نجد أن حقيقة الأحداث ودوافع الأعمال تتضح للقارئ رويداً رويداً من أربع حالات " رجوع إلى الوراء " من خلال :

- أ - كلمات الرب إلى أبيمالك .
- ب - كلمات أبيمالك .
- ج - كلمات إبراهيم .
- د - كلمات القاص .

وفي هذه الحالة ليس المقصود هو إبداع القاص وبراعته الفنية في قصص الحدث أو التقديم والتأخير؛ وإنما المقصود هو الإشارة إلى مغزى القصة في تقديم الحدث .. ويكثر الباحثون في أدب القصة من مخاطر " الرجوع إلى الوراء " ويقولون أن خيط الحكمة من شأنه أن ينقطع ، حيث يتسع الحدث الذي يعرض الماضي ، لحدث عرضي مستقل لا يلتحم مع أحداث الحكمة الرئيسية ، ولكن القصة في التوراة تتغلب على هذه المخاطر عن طريق الاختصار ، فبرغم ترك الواقع والرجوع إلى الوراء ، إلا أن هذا يستغرق لحظة، ومباشرة تعود الأحداث إلى واقع بطل القصة (٢) .

(١) راجع سفر التكوين : الإصحاح العشرين .

(٢) מלאכת הספור במקרא , למ' 405 .

والقصة في التوراة قدمت " رجوع إلى الوراء " لم يود إلى الخروج عن الواقع ، وإنما طرح الوعي الماضي فقط من أجل إيضاح الوعي الحاضر ، ولذلك لم يأت الماضي كخلفية تتعارض مع الحاضر ، ولكن كجزء من وعي الحاضر ، فالماضي يبرق ويقتحم الحاضر مثلما وردت هذه الظاهرة في قصة بيع يوسف في الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين حيث لم يذكر أن يوسف توسل إلى إخوته ، ولكنهم عندما يقفون أمامه وَيَتَهَمُونَ. يقولون : "זאמר איש אל - אחיו אבל אשמים אנחנו על-אחינו אשר דאינו צרת נפשנו^(١) בהתחנונו אלינו ולא שמענו על כן באה אלינו הצרה הזאת " - وقالوا بعضهم لبعض : حقاً إننا مدنبون إلى أخينا الذي رأينا ضيقة نفسه لَمَّا استرحمنا ولم نسمع . لذلك جاءت علينا هذه الضيقة " .

فقص هذا الحدث العرضي هنا ليس إلا كشف لضمير الإخوة ، فتوسلات يوسف أصبحت أكثر سماعاً الآن لمدورها من قلوب الإخوة ، وذلك عن كونها صادرة من داخل البشر ، وهذا هو هدف القصة من التطلع إلى الوراثة هنا ، حيث تتجه إلى كشف مشاعر الإخوة من واقع حديثهم من أجل كشف ندمهم على ما فعلوه في الماضي (٢) .

وكذلك أيضاً ما ورد على لسان بني إسرائيل في بركة سينا بعد الخروج من مصر : "הלא זה הדבר אשר דברנו אליך במצרים לאמר חדל ממנו ועבדה את-מצרים כי טוב לנו - לעבד את מצרים ממתנו במדבר"^(٣) - أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين ولأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية " . فطرح الماضي هنا المقصود منه هو إظهار حالة بني إسرائيل النفسية في هذه اللحظة ، فأحداث الماضي التي تم ذكرها هي حاضرها سواء قالوا أم لا (٤) :

- (١) בדאשית מב, כא.
- (٢) מלאכת הספור במקרא . עמ' 406
- (٣) שמות יד: יב.
- (٤) מבוא פלל' למקרא , עמ' 175 .

"כִּי טוֹב לָנוּ עֲבֹד אֶת-מִצְרַיִם מִמָּוֶתנוּ בַּמִּדְבָּר"

- لأنه خير لنا أن نخضع للمصريين من أن نموت في البرية " .

المكان :

يشترك الزمان والمكان في تحديد الأحداث بواسطة وضع إطار الأحداث فوق إحداثيات الزمان والمكان ، التي تعطى القمة هوية خاصة ، وبعدها واقعياً ..
وفي أغلب قصص التوراة نجد أن أحداث الحكمة تقع في إطار محدد واضح من الزمان والمكان ، حيث يمتد أمامنا عالم واسع الأفاق بالنسبة لعنصر المكان ، فأغلب القصص لا تحدث في مكان واحد محدد ، ولكن رقعتها تمتد فوق أماكن مختلفة ، وأحياناً بلاد مختلفة ومتباعدة ، كارض كنعان ، ومصر ، وآرام النهرين ، وموآب وفلسطين وغيرها ..

وفي معظم الحالات ينتقل القاص إلى كل مكان من الأماكن التي تشهد الأحداث ، ويرينا أو يبلغنا بشكل مباشر ما يحدث هناك ، وفي حالات نادرة فقط نسمع ما حدث في مكان آخر بشكل غير مباشر ، وذلك عن طريق مبشر أو رسول قادم من هناك ، وهو التكنيك الشائع في البناء المسرحي وهو غير معتاد في قصص التوراة ، ولكن أحياناً يستخدم مثلما حدث في قصة عودة يعقوب إلى ارض كنعان ، فعن طريق الرسل الذين أرسلهم يعقوب إلى عيسو أخيه نسمع أن عيسو خرج لملاقاة يعقوب ومعه أربعمائة رجلاً : " וַיֵּשְׁבוּ הַמַּלְאכִים אֵל-יַעֲקֹב לֵאמֹר בְּאֵנִי אֵל גִּחִיךְ אֵל עָשׂוֹ וְגַם הָלַךְ לְקִרְיַתךְ וְאֵדְבַע מֵאוֹת אִישׁ לַמָּוֶה " (١) - فرج الرسل إلى يعقوب قائلين آتينا إلى أخيك إلى عيسو . وهو أيضاً قادم للقائك وأربعمائة رجلاً معه " .

وواضح من هذا التكنيك أن الأحداث في حد ذاتها ليست مهمة ، ولكن المهم هو أفعال متلقى الأنباء ، فيعقوب يتخذ إجراءات كثيرة استعداداً لهذا الموقف الصعب وما يصاحبه من سوء ، فيعبر عن خوفه وعن إحساسه بالذنب :

(١) בראשית לב, ז.

וַיִּקַּח מִגִּבּוֹר מִיָּדוֹ וַיִּבְרַח לוֹ מִסִּין אֶת־הַקָּדָשׁ
 אֲשֶׁר־אֱלֹהֵי וְאֶת־הַקָּדָשׁ וְהַקִּיָּלָיִם לִשְׁנֵי מִחֲנוֹתָיו:
 וַיֹּאמֶר אֲסִיבֻהָ עִשָּׂו אֶל־הַמִּחֲנֶה הָאֶמֶת וְהַבְּהֵי וְהַנֶּחֱ
 הַמִּחֲנֶה הַנִּשְׁאָר לִפְלִיטָה: (1)

فخاف يعقوب جداً وضايق به الأمر . فقسم القوم الذين معه والغنم والبقر
 والجمال إلى معسكرين . وقال إن جاء عيسو إلى الجيش الواحد وضربه يكون
 الجيش الثاني باقياً " .

أما بناء المكان في قصص التوراة فيتم عن طريق حركة الشخصيات داخل
 الأحداث أو ذكر الأماكن مباشرة داخل الأحداث ، وهاتان الوسيلتان تعملان معاً
 في أحيان كثيرة ، حيث تقوم الشخصيات بتنقلاتها ، وبهذه المناسبة تذكر
 أسماء الأماكن التي خرجوا منها ، والتي يطلون إليها أو يمرون بها (2) .

وحينما يتابع شخص ما حركة الشخصيات داخل الأحداث ، ينشأ لديه بصورة
 غير مباشرة إحساس بوجود المكان ، وتبرز هذه الظاهرة في قصص سفر التكوين :
 וַיַּעֲלֵה מִמִּצְרַיִם וּבָאוּ אֶרֶץ כְּנָעַן אֶל־יִשְׂעָקֹב אֲבִיהֶם: וַיָּדֹעַ לוֹ לֵאמֹר עוֹד יוֹסֵף חִי וְכִי־תֵינָא
 מוֹשֵׁל בְּכָל־אֶרֶץ מִצְרַיִם - - - - - "וַיֹּאמֶר וַיִּשְׂרָאֵל רַב עוֹד־יוֹסֵף בְּנִי חִי אֶלְכֶּם וְאֶרְצָם
 בְּטָרֶם אֲמִוּתָּ: (3)

- فصعدوا من مصر وجاءوا إلى أرض كنعان إلى يعقوب أبيهم . وأخبروه قائلين
 يوسف حيّ بعد ، وهو متسلط على كل أرض مصر - فقال إسرائيل : كفى . يوسف
 ابني حيّ بعد . أذهب وأراه قبل أن أموت "

وكذلك : " וַיַּעֲלֵה יוֹסֵף לִקְבֹּר אֶת־אָבִיו וַיַּעֲלֵהוּ אֱלֹהֵי כָל־עַבְדֵי פַרְעֹה
 וַיִּקְבְּנוּ בֵיתוֹ וְכָל זִקְנֵי אֶרֶץ־מִצְרַיִם: - - - - - וּבָאוּ (4)
 עַד־זֶרֶן הָאֲשֶׁר בְּעֶבֶר הַיַּרְדֵּן לִסְבְּרוֹ־שָׁם מִסְכַּד נָדוּל

- (1) בראשית לב, ח-ט.
- (2) העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' 189.
- (3) בראשית מה, כה-כז.
- (4) בראשית נ, ז-יא.

- فصعد يوسف ليدفن أباه . وصعد معه جميع عبيد فرعون شيوخ بيته وجميع شيوخ أرض مصر . وكل بيت يوسف وإخوته وبيت أبيه . غير أنهم تركوا أولادهم وغنهم وبقرهم في أرض جاسان . . فأتوا إلى بيدرأطاد الذي في عبير الأردن وناحوا هناك نوحاً عظيماً " .

فالإحساس بالمكان في هذين المشهدين قد تولد لدى القارئ دون أي تدخل من القاص ، وقد نجد في كثير من قصص التوراة أنه يتم إبلاغنا بحركة الشخصيات من مكان إلى مكان لا بواسطة مناظر الأماكن ، أو بواسطة شخصية أخرى ، أو بالإحساس الذاتي لدى القارئ ، وإنما عن طريق القاص ، فالقاص يخبرنا عن تنقلات إبراهيم من أور الكلدانيين إلى أرض كنعان ، وداخل أرض كنعان ب طولها وعرضها ، ومن أرض كنعان إلى مصر والعودة . .

ومن هذه القصص أيضاً قصة نزول يعقوب وأولاده إلى مصر ، كما أن قصة هروب موسى من مصر وعودته بعد فترة إليها تدخل تحت نفس هذا القصص الذي يحدّد فيه القاص المكان (١) .

وهكذا يبدو أمامنا عالم التوراة كعالم مترامي الأطراف ، ولذلك يمكن القول أن الحركة تسيطر على قصص التوراة ، ورغم وجود قصص كثيرة تأتي فيها حركة الشخصيات - قلت أو كثرت - على هامش الحبكة ، إلا أنه توجد كذلك قصص تستخدم الحركة أساساً بنائياً رئيساً ، وتحتل مكاناً بارزاً في مركز الحبكة كما يبدو ذلك واضحاً في قصة خروج بني إسرائيل من مصر . . (٢) وكذلك أيضاً في القصة الساكنة ، مثل قصة جنة عدن : هناك على ما يبدو حركة ذات معانٍ متعددة : من الأرض إلى الجنة ، ومن الأشجار في الجنة إلى الشجرة التي في داخل الجنة (في الوسط) ، وبعد ذلك في اتجاه عكس : من الشجرة التي داخل الجنة إلى الأشجار في الجنة ، ومن الجنة إلى الأرض (٣) .

(١) קל'צ'וב האמנות' של הספור במקרא . לא' 19٥

(٢) راجع الخروج : ٥ ، ٦ .

(٣) راجع التكوين : ٢ ، ٣ .

ومن الملاحظ أن الأماكن تذكر بكثرة في قصص التوراة ، كاسماء المدن والقرى ، وأيضاً الأنهار الوديان والعدران وينابيع الماء والجبال والغابات ... إلخ ، وتذكر كذلك داخل المدن ، البيوت ، مثل بيت الملك أو شخص ما ، وذكر هذه الأماكن يساهم في بناء مجال الأحداث ويضفي عمقا مكانيا على القصص .. وسواء كان المقصود أماكن جغرافية ، كالمدين والأنهار ، أو تفصيلات داخل المدن كالمنازل والحجرات ، فإن هذه الأماكن لا تذكر في القصة إلا كـ..... لا يتجزأ من الحكمة نفسها ، فالشخصيات تعمل وفي إطار عملها تصل الى مكان ما أو تخرج منه ، فينتقل مركز الأحداث من مكان لآخر وبذلك تحظى الأماكن بوجودها الأدبي . (١)

ومثلما تبرز ظاهرة القفزات الزمنية داخل أحداث القصص في التوراة ، كذلك أيضاً توجد ظاهرة القفزات المكانية حيث يذكر القاص مكان الخروج ومكان الوصول فقط دون التوقف عند الطريق الذي يمل بين هاتين النقطتين ، ولكن في بعض الحالات تذكر الوقفات في الطريق ، حيث تذكر الأماكن للدور الذي تقوم به ، وإن كان يختلف من قصة لأخرى لارتباطه بالسياق .. ولكن لفهم وظيفة هذه الأماكن في بناء القصة ، علينا الأخذ في الحسبان أن القاص يوجه حديثه إلى الجمهور الذي يعرف ويميز هذه الأماكن ، والتي لها معنى وهدف عنده ، وإن كانت أحياناً تخفى عليه بسبب تباعد الزمن وقلة معلوماته بشأن الحقائق الواقعية لفترة التوراة ، ففي قصة يعقوب قيل : וַיֵּלֶךְ מִבְּעֵל מֶלֶךְ מִצְרָיִם - נִשְׁבַּע וַיֵּלֶךְ חֲדָנָה (٢) - وخرج يعقوب من بئر سبع وذهب إلى حاران . لكن في الطريق بين هذين المكانين يذكر مكان آخر وهو " بيت إيل " الذي قضى فيه يعقوب ليلته ، ولادراك الدور الذي يقوم به هذا المكان في بناء القصة دون كل الأماكن التي مكث فيها يعقوب وهو في طريقه من أرض كنعان إلى آرام النهرين ، نلاحظ أن القصة توجه اهتمام القارئ إلى هذا المكان

(١) הע'צוב האמנות' של הספור במקרא . עמ' 191
(٢) בראשית כח , י .

بالإشارة إليه بكلمة (מקום مكان) ثلاث مرات في البداية : "ויפלג ב-
מקום וילן שם פי' בא השמש ויקח מאבני המקום ושם מראש-
ותיו וישכב במקום ההוא" (1) - ومادف مكانا ويات هناك لأن الشمس
كانت قد غابت . وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطج في ذلك
المكان - ومع مواصلة السياق يقول يعقوب : "אכן יש יהוה במקום
הזה ואנכי לא ידעתי" (2) - "حقاً إن الرب في
هذا المكان وأنا لم أعلم - ثم يضيف : "מה נורא המקום הזה אין זה
כי אם בית אלהים וזה שער השמים" (3) - ما أروع هذا المكان .
ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء - وفي النهاية يطلق على هذا المكان
اسم "בית-אל" - بيت إيل - "קורא את שם המקום בית-אל" (4)
- ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل - إذاً التأكيد على هذا المكان في الطريق
لم يأت إلا بسبب أن الله تجلّى ليعقوب في هذا المكان قبل مفادته البلاد ،
وفي هذا التجلّى وعده الله بأنه يمنحه البركة التي وهبها لإبراهيم
ولإسحاق ، وأنه سيحافظ عليه أينما ذهب ، وسيعيده إلى هذه الأرض ، لأنه عند
خروجه إلى الطريق ، إلى أرض غربته يدرك يعقوب أن الله سيكون معه وأنه
سينجح في العودة بسلام إلى منزل أبيه (5) .

ويلاحظ أن الأماكن في قصص التوراة لا يتم تشكيلها بطريقة مجسّدة وملموسة
ولذا يجب التمييز بين ذكر الأماكن ووصفها ، فالأماكن تذكر فقط في شأيا
الحبكة ، ولا يتم رسمها بصورة حيّة وواضحة حيث لا تعرض أمامنا تصويراً للمناظر
الطبيعية ، ولا للمدن أو القرى ، ولا للمنازل من الخارج أو الحجرات من
الداخل ، ففي قصة هروب يعقوب من بئر سبع إلى حاران تطلّعنا القمة على
الطريق الطويل فقط الذي مرّ به يعقوب منذ خروجه من بئر سبع إلى حاران

(1) בראשית כח, יא.

(2) בראשית כח, טז.

(3) בראשית כח, יז.

(4) בראשית כח, יט.

(5) העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' 191-192.

ولم تصفه لنا : " *וישאל יעקב מבאר שבע וילך חדרה* " (١)

- فخرج يعقوب من بئر سبع ونهب نحو حاران " . ولذا نجد أن الأماكن في قصص التوراة تأتي كخلفية للأحداث ، وميدان لأحداث الحكمة فلا مجال للمقارنة بين صورتها ومشاهدتها ، على عكس الزمان الذي يأتي مجرداً ، ولذلك لا يتطلب الإدراك المباشر بواسطة الحواس ، أما المكان فمحسوس ومتجسد ويُدرَك في الواقع عن طريق الحواس ، لذلك في الانتاج الأدبي لا يتم الشعور بالمكان كوجود حقيقي إلا إذا تمَّ وصفه تفصيلاً ، وهذا لا يعنى أن الوصف يجب أن يكون غنياً بتفاصيل دقيقة ، فالمكان يمكن تجسيده في القمة بواسطة دقة التصوير الأسلوبى الذى يُلقي الضوء على رسم الملامح فقط ، وهو ليس موجوداً فى قصص التوراة (٢) .

إن المكان في قصص التوراة يأتي على عكس بناء الزمان ، فالمكان يترك مشوشاً ومبهماً ، ولكن ذلك لا يعنى أن الأدب هو فن الزمن وليس فن المكان (مثل التصوير والنحت) ، لأنه من المعروف جيداً أن فى استطاعة الإبداع الأدبي " رسم " الأماكن والمناظر الطبيعية بواسطة الكلمات بدرجة كبيرة من التكنيك الفنى ... ولذلك فالتوتر الموجود فى قصص التوراة له تأثير كبير فى اختفاء الوصف التفصيلي للمكان ، هذا التوتر بين مفهوم الزمان ومفهوم المكان لا يوجد فى الواقع غير الأدبي ، وهو ناتج من أن العمل الأدبي غير قادر على بناء المكان إلا بواسطة تتابع الكلمات ، ولذلك يستمر زمن القص فى الوقت الذى فيه تأخذ القمة فى وصف مفصل - قل أو كثر - لأماكن أو مساحات ، بينما زمن الحدث المقصود يتوقف عندئذ ، وهذا التوقف يفضى على القمة أساساً ساكناً ، ولذلك فإنه لا يتفق مع الطابع الحركى والسمة النشطة للقمة فى التوراة ، التى تتفرغ كلها لبناء الإحساس الزمنى المتدفق والخذ فى التقدم ، وهذه النتيجة تتحقق بالضرورة على حساب بناء المكان ، فالمكان لكونه عنصراً ثابتاً وماهيته غير متغيرة ، فإنه يُعدّ أساساً غريباً

(١) *בראשית כח* ، ' .

(٢) *העיצוב האמנותי של הספור במקרא* ، עמ' ١٩٦ .

فى قصص التوراة ، التى تكثر من عرض المتغيرات والتطورات ، وتلك هى وظيفة الزمن (١) .

بالإضافة إلى ذلك فإن عدم وجود أوصاف تفصيلية لمظهر الشخصيات من ناحية الملابس والاحتياجات الأخرى فى أحداث حبكة القصص فى التوراة ، قد أدى إلى توقف زمن الحدث المقصود وكسر معدل سرعة تقدم القصة ، فالقصة التورائية لا ترغب فى التوقف والتأمل الهادئ ، ولكنها تتحرك إلى الإمام لى تلاحق الأحداث والتطورات السريعة عن قرب . إذاً تعمل القصة فى التوراة على عدم المساس بتدفق زمن الحدث المقصود ، وذلك من أجل تقدم أحداث الحبكة واستمراريتها بلا توقف . وهذا لأن قصص التوراة تعرض للقارئ حركة الحياة بما فيها من أعمال وأفعال ، ولكونها قصص برامية فإنها تحتاج أولاً لبُعد الزمن لى تمكّن من تطور أحداث الحبكة المتدفقة ، هذا فى حين أن المكان فيها يأخذ بُعداً ثانوياً فى أهميته (٢) .

الشخصيات :

سبق القول أن الشخصيات تقوم بالتعبير عن الآراء والدلالات التى تتضمنها القصة مما يؤدي إلى كشف القيم والمعايير فى الانتاج القصصى ، ولكى تمل مفاهيم ودلالات القصص فى التوراة إلى القارئ بسهولة ويسر ، قل عدد الشخصيات فى كل قصة فلا يزيد عن اثنتين أو ثلاث ، وإذا كانت هناك شخصيات أخرى فى القصة ، فيتم تقسيمها إلى مشاهد ، وفى كل مشهد لا يظهر أكثر من اثنتين أو ثلاث شخصيات معاً (٣) ، وفى قصة " قايين وهابيل " (٤) ، يظهر قايين وهابيل فقط فى المشهد الأول (٥) ، وفى المشهد الثانى الله

(١) سام ، لام' ١٩٨ .

(٢) سام ، لام' ١٩٨ .

(٣) מבוא דבלי' למקרא . لام' ١٥٤

(٤) راجع التكوين : ٤

(٥) راجع التكوين : ٤ : ٤ - ٨

وقايين (١)، أما أبويهما فلم يظهرَا كَلِيَّةً ، أما قمة " العبد ورفقة " (٢)، فتتوزع فيها الشخصيات على المشاهد على النحو التالي :

- ١ - إبراهيم والعبد : الفقرات ١ - ٩ .
- ٢ - العبد ورفقة : الفقرات ١٠ - ٢٨ .
- ٣ - لابان والعبد : الفقرات ٢٩ - ٥٧ .
- ٤ - رفقة والعبد : الفقرات ٥٨ - ٦١ .
- ٥ - إسحاق ورفقة : الفقرات ٦٢ - ٦٧ .

أما الفقرات ٥٨ - ٥٩ فهي تمثل ذروة الحكمة فى القمة ولذلك تظهر رفقة وأسرتهما كاملة مع الفتاة والعبد ...

وفى قصة " بركة اسحاق " (٣) ، يتم توزيع الشخصيات على المشاهد الآتية :

- ١ - إسحاق وعيسو : الفقرات من (١) إلى (٤) .
- ٢ - رفقة ويعقوب : الفقرات من (٥) إلى (١٧) .
- ٣ - إسحاق وعيسو : الفقرات من (٣٠) إلى (٤١) .
- ٤ - رفقة ويعقوب : الفقرات من (٤٢) إلى (٤٥) .
- ٥ - رفقة وإسحاق : الفقرة (٤٦) .

وهذا البناء يعطى للقصة طابعاً درامياً ، حيث يتم تقسيمها إلى مشاهد، وفى كل مشهد يظهر بطلين ، وعندما يدور السرد القصص حول شخصيات كثيرة تظهر معاً ، عندئذ يتم عرضها كشخصية واحدة ، وفى قصة الطوفان (٤) تعرض الإنسانية كلها كشخصية واحدة وكذلك أيضاً فى قصة " برج بابل " (٥) ، وأيضاً الملائكة الذين حضروا لزيارة إبراهيم يتم عرضهم كشخصية واحدة وإبراهيم

-
- (١) راجع التكوين : ٤ : ٩ - ١٥ .
 - (٢) راجع التكوين : الإصحاح ٢٤ .
 - (٣) راجع التكوين : الإصحاح ٢٧ .
 - (٤) راجع القصة فى سفر التكوين الإصحاح (٧) و(٨) .
 - (٥) راجع القصة فى سفر التكوين الإصحاح (١١) .

يخاطبهم بصيغة الافراد : ויאמר אדני אס-נא מצאתי חן בשליך אל-נא סעקר
מקל עבדך: (1)

- وقال يا سيد ان كنت

قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عيذك " .. ويتحدث اخوة ديننا إلى " حمور "
אבי " شکيم " כرجל واحد : ונענו בני-יעקב את-שכם ואת-חמור
אביו במקרה נדברו אשר טמא את דינה אחתם : ויאמרו
אליהם לא נכל לעשות הדבר הזה לתא את-אחלנו לאיש
אשר-לו ערלה כי-חרפה הוא לנו: אף-בזאת נאות לכם
אם תהיו בננו להמול לכם כל-זכר: ונתנו את-בנותינו
לכם ואת-בנותיכם נחמלנו ונשבנו אחכם והיונו לכם
אחר: ואס-לא תשמונו אלינו להמול ולקחנו את-בנותינו
והלכנו: (2)

- فاجاب بنو يعقوب شكيم. وحمور اباہ بمكر وتكلموا لانه كان قد نجس ديننا
اختهم . فقالوا لهما لا نستطيع ان نفعل هذا الامر. ان نعطي أختنا لرجل
أغلف ، لانه عار لنا ، غير أننا بهذا نواتيكم إن صرتم مثلنا بختنكم كل
ذكر ، نعطيكم بناتنا ونأخذ بناتكم ونسكن معكم ونصير شعباً واحداً ، وإن لم
تسمعوا لنا أن تختتنوا نأخذ ابنتنا ونمضی " .. وبذلك يسيطر الوضوح الشديد
على وقائع الحبكة فليس ضرورياً أن يركز القارئ اهتمامه على شخصيات
كثيرة في وقت واحد ، فهو يسمعها الواحدة وراء الأخرى وليس معاً إلا في ذروة
القصة عندما تلتقي الشخصيات كلها ، ومع ذلك فالقارئ لا يحتاج لمجهود
لمعرفة من هي الشخصيات الرئيسية ومن هي الجانبية ففي قصة يوسف ، عندما
تعرف إخوته عليه كان واضحاً أن يوسف هو بطل القصة وهو الشخصية الرئيسية
فيها (3) .

رسم الشخصيات :

رسم الشخصية يقتضي الالتفات إلى أمرين :

- (1) בדאשית יח, ג .
- (2) בדאשית לד, ג-ז .
- (3) מבוא כללי למקרא , עמ' 154 .

١ - التكوين الجسمي والملامح البارزة في الشخصية وهو ما يسمى (البعد

الظاهري) .

ب - التكوين النفسي والطابع المميز للشخصية وهو ما يسمى (البعد

الباطني) .

أولاً - البعد الظاهري :

في قصص التوراة لا يوجد تقريباً وصف دقيق للملامح الخارجية للشخصيات ، فالقاص لا يسعى مطلقاً لرسم المظهر الخارجي للشخصيات ، فلا يذكر شيئاً عن مظهر الأغلبية العظمى لأبطال قصصه ، فالقارىء لا يعلم شيئاً عن قامة وقسمات وجه إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون ، أما الحالات القليلة التى وردت فيها معلومات مختصرة عن المظهر الخارجى للشخصيات ، فإن هذه المعلومات تأتي خلال وصف عام وبدون أى تفاصيل تميز شخصية عن أخرى ، فليس المطلوب هو مقارنة هذا الوصف المختصر بما تراه العيون من أشكال محسوسة ، أو الاستدلال على أوصاف الشخصية ، لأنه في قصص التوراة لا يوجد أى ارتباط بين المظهر الخارجى للشخصية وأوصافها الداخلية (١) وإذا كان هناك وصف خارجي أيّ كان ، يكون له هدف خاص ، ويأتى لفهم سياق الحكمة وأحداثها أو لتوضيح سيرها ، " فسارة " قيل عنها أنها كانت : " אִשְׁתּוֹ מִלְכָּה (٢) - امرأة حسنة المظهر " وذلك من أجل فهم أحداث القصة في مصر ، و " عيسو " رجل أشعر ، بينما " يعقوب " رجل أملس (٣) ، وهاتان الحقيقتان لهما أهمية كبيرة لمتابعة سياق القصة ، التى تنكر فيها يعقوب في هيئة عيسو لكي يحتل بالبركة المخصصة للأخ الأكبر ، وكذلك في قصة زواج يعقوب نجد أن القاص ذكر أن " ليئة " عيناها ضعيفتان في حين أن " راحيل " جميلة وحسنة المظهر (٤) ،

(١) מבוא כללי למקרא , עמ' ١٥٦.

(٢) راجع التكوين ١٢ : ١١ .

(٣) راجع التكوين ٢٧ : ١١ .

(٤) راجع التكوين ٢٩ : ١٧ .

وذلك من أجل توضيح حبّ يعقوب لراحييل وعدم حبّ ليثة ، واهتمام خاله " لايان" بزواج ليثة أولاً ، ولذلك يخدع " يعقوب " إلا أن حب يعقوب لراحييل استمر في علاقته الخاصة بابنيها " يوسف " و " بنيامين " (١) .

وما قيل عن المظهر الخارجى للشخصيات ينطبق أيضاً على ملابسها، فملابس الشخصيات في قصص التوراة لا يتم وصفها بتفصيل دقيق إلا في حالات نادرة جداً ولضرورة فهم سياق أحداث الحكمة أو توضيح الحالة النفسية للشخصيات ، ففي قصة " شامار " ويهوذا " قيل عن شامار : " *וְתָסַר בְּגָדוֹ אֶלְמָנוּתָהּ מֵעַל-יָהּ וְתָכַס בְּכַעֲלֶיךָ וְתִתְעַלֶּיךָ* " (٢) - فخلعت عنها ثياب ترمّلها وتغطت ببرقع وتلففت - إذاً هدف تبديل الملابس واضح فشامار قلقاً من عدم معرفة " يهوذا " لها ، وكذلك خوفاً من أن يعتبرها زانية (٣) .

وكذلك في قصة يوسف ، حيث نجد أن تميّمه الحرير كان أساساً لبناء عقدة القصة لأنه مصدر كراهية لإخوته له ، ورمز لغيرتهم وانتقامهم منه (٤) .

حقاً ، أحياناً نجد في قصص متفرقة وصفاً ما للمظهر الخارجى للشخصيات في قصص التوراة ، ولكنه وصف استثنائى مقابل المنهج العام المتبع في مثل هذه القصص من تجاهل الملامح الخارجية للشخصيات. ويبدو لعدم ارتباطها بالبعد الباطنى للشخصيات .

ثانياً - البعد الباطنى :

يختلف رسم الملامح الداخلية للشخصيات في قصص التوراة ، عن مثيله في القصص الحديث ، ففي قصص التوراة ليس هناك من حديث عن مشاعر وأفكار البطل، فالتكوين النفسى والطابع الاخلاقى من قيم وأوصاف الشخصيات تتضح خلال أعمالها وأحاديثها ، ولذلك يقال أن القصة في التوراة هي قصة درامية سرديّة ، وذلك

(١) העיצוב האמנותי של הספור במקרא עמ' 75.

(٢) בראשית לח, י"ד.

(٣) העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' 77.

(٤) מבוא כלל למקרא , עמ' 156 .

على عكس القصة الحديثة حيث الحبكة الداخلية جوهرية فيها ، أما قصص التوراة فالجوهر فيها هو الفعل والحديث (١) .

ورسم الملامح الداخلية للشخصيات القصصية في التوراة قد يأتى عن طريق التشخيص المباشر الذى يحمل طابع التقويم ، فعندما يقال عن إنسان ما أنه صادق أو شريير ، حكيم أو أحمق فإن هذا القول يحمل طابع التشخيص والتقويم فى آن واحد ، ولذلك فإن الشائع فى قصص التوراة أن يأتى التشخيص المباشر للشخصيات بواسطة أفعالها وأحاديثها ، على طريقة العرض المشهدى الدرامى ، وإن كانت هناك حالات قليلة قد يأتى فيها التشخيص من قبيل القاص أو إحدى شخصيات القصة ، فقد قيل عن " نوح " أنه : **אִישׁ כַּדִּיק תָּמִים** **הָיָה בְּדַרְתּוֹ אֶת-הָאֱלֹהִים הַתְּהֵלֵךְ - נֹחַ** (٢) - كان نوح رجلاً باراً كاملاً فى أجياله . وسار نوح مع الله " - ، وقيل عن رجال سدوم أنهم : **" רַעִים וְחַטָּאִים לַיהוָה מְאֹד "** (٣) - كانوا أشراراً وخطاة لدى الرب جداً " ، وبالإضافة إلى هذا التشخيص الذى يتعامل مع أخلاقيات الشخصيات فهناك تشخيص ينظر إلى أوصاف عقلية وغيرها ، فيخبرنا القاص عن الحياة فى جنة عدن أنها : **עֲדֵן מְכַל חַיַּת הַשָּׂדֶה אֲשֶׁר לְאִשָּׁה יְהוָה** **אֱלֹהִים** (٤) - أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله " ، وقيل عن " عيسو " أنه كان : **" אִישׁ יוֹדֵעַ כִּיד אִישׁ שָׂדֶה "** - إنساناً يعرف الصيد إنسان البرية ، فى حين كان " يعقوب " : **" אִישׁ תֵּם יוֹשֵׁב גְּזֵהִים "** (٥) - إنساناً كاملاً يسكن الخيام " - وموسى وفقاً لتشخيص القاص كان : **" לָרָו מְאֹד מְכַל הָאָדָם אֲשֶׁר עָלָ פָּנָי הָאֲדָמָה "** (٦) - حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض " .

(١) שם , עמ' 156 .

(٢) בראשית ١, ٣٠ .

(٣) בראשית ١٠, ١٠ .

(٤) בראשית ١٠, ١٠ .

(٥) בראשית ١٠, ١٠ .

(٦) במדבר ١٠, ١٠ .

أحياناً أيضاً يتبنى القاص نقطة المراقبة الخاصة بإحدى الشخصيات ويتفتح ذلك من الأسماء والألقاب التي يطلقها القاص على الشخصيات في القصة ، ففي قصة " طرد إسماعيل " (١) تدور القصة حول " إسماعيل " ، ولكن القاص لا يناديه باسمه بل بالألقاب وأسماء مختلفة تكشف عن علاقة الشخصيات الأخرى به وتظهر مشاعرهم تجاهه (٢) على النحو التالي :

١-٢- "ותדא שרה את בן הגר המצרית אשר ילדה לאברהם מצחק" (٣)

- ورات سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لابراهيم يمزح - (٤)

ب- "וירע הדבר מאד בעיני אברהם על אודות בנו"

- ففبح الكلام جداً في عيني ابراهيم لسبب ابنه -

ج- "ויקח לחם וחמת מים ויתן אל הגר שם על שכמה
ואת הילד וישלחה" (٥).

- فأخذ خبزاً وقرية ماء وأعطاها لهاجر وافعاً إياهما على كتفهما -

والولد وصرفها -

د- "ויכלו המים מן החמת ותשלך את הילד תחת אחד
השיחים" (٦).

- وفرغ الماء من القرية فطرح الولد تحت إحدى الأشجار - (٧)

ه- "וישמع אלהים את קול הנער.

- فسمع الله صوت الغلام -

(١) راجع التكوين : ٢١ : ٩ - ١٧ .

(٢) נ. ל"בוביץ, כיצד לקרוא פרק בתנ"ך, נפש ושיר.
עיונים למדריך ולמורה. י"ט/כ. ירושלים, תשי"ד
עמ' 22.

(٣) בדאשית כא, ט.

(٤) בדאשית כא, יא.

(٥) בדאשית כא, יד.

(٦) בדאשית כא, טו.

(٧) בדאשית כא, יז.

ו- "ויהי אלהים את הנער וגדלו" (1)

- وكان الله مع الغلام فكبر -

إدأ فهذه الألقاب والمسميات المختلفة تشير إلى أن "إسماعيل" فلى نظر "سارة" ليس إلا (ابن) "هاجر" المصرية، وفي نظر "إبراهيم" (ابنه)، وفي نظر "هاجر" (الولد)، في حين أنه عند الله هو (الغلام) (2).

2- في قصة العبد ورفقة (3)، يكنى القاص عبد إبراهيم: "הלל-العبد" وذلك عندما يكون تحت إمرة إبراهيم، لكن عندما يستقل بذاته يكنى القاص: "האיש - الرجل" (4).

3- في قصة بيع يوسف يكنى القاص يوسف بعدة ألقاب، فيطلق عليه لقب "לצר - غلام" (5) و "בן זקונים - ابن الشيخوخة" (6) وذلك للإشارة إلى حب يعقوب ليوسف، أما الإخوة فيطلقون عليه: "בגלל המלומות הלזה" صاحب الأحلام هذا (7) للتعبير عن كراهيتهم وغيبتهم منه، أما أخيه يهوذا الذي يرغب في إنقاذه فيسميه "אחיו" (8) أخانا، أما "ראובين - البكر فيسميه "הילד - الولد" (9)، وهكذا أحب يعقوب يوسف من كل أبنائه، لكن إخوة يوسف أرادوا: "אותו אהב אב'הם - מפל אחיו" (10) - أن أبيهم أحبه أكثر من جميع إخوته.

- (1) בדאשית כא, כב.
- (2) מלאכת הסיפור במקרא, עמ' 403.
- (3) בדאשית כד.
- (4) בדאשית כא, כה, כז, לב.
- (5) בדאשית לז, ב.
- (6) בדאשית לז, ג.
- (7) בדאשית לז, ט.
- (8) בדאשית לז, כו.
- (9) בדאשית לז, ל.
- (10) בדאשית לז, ד, מבוא כללי למקרא, עמ' 174.

٤ - فى قصة عبادة بنى إسرائيل للعجل دار حوار بين الله وموسى ،
أطلع الله فيه على بنى إسرائيل لقب "لامך" (١) - شعبك " وذلك عندما
كان المقصود : شعب موسى ، وأطلق موسى عليهم لقب "لامך" (٢) - شعبك " ،
عندما كان المقصود شعب الله ، والقاص يختتم الحوار بهذا الأسلوب : "וַיֹּחַם
יְהוָה עַל הָרָעָה אֲשֶׁר דָּבַר לַעֲשׂוֹת לְעַמּוּי . (٣) . فندم الرب
على الشر الذى قال أنه يفعله بشعبه " ، وهو يوضح بذلك التغيير الذى حدث
فى علاقة الرب ببنى إسرائيل ، ولكن هذا التوضيح لم يأت بشكل صريح ولكن
بأسلوب رمزى (٤) .

لاشك أن هذا التشخيص المباشر للتكوين الداخلى للشخصيات سواء أتى من
قبل القاص أو الشخصيات نفسها ، أو شخصيات أخرى ، يلقي الضوء على التكوين
النفسى للشخصيات ويساهم مساهمة فعّالة فى بنائها ، حيث تكمن أهميته فى
نوعيته وذلك لاتسامه بالوضوح والعانى المحددة ، إلا أن هناك تشخيص غير
مباشر وهو يوجد بكثافة أكثر فى قصص التوراة حيث تكمن أهميته فى كمنه ،
لأنه يقوم بنصيب كبير فى رسم الملامح الداخلية للشخصيات ، وكونه غير
مباشر يجعله يوظف كل المظاهر الخارجية التى يستدل منها على فهم الملامح
الداخلية ، وهذه المظاهر تتمثل فى حديث الشخصيات وأعمالها ، الأمر الذى
يتطلب من القارئ مجهوداً ذهنياً وفكرياً لتفسير هذه المظاهر ، مما يؤدي
إلى المشاركة الإيجابية من القارئ فى تقويم أحداث الحكمة (٥) .

٢ - الحديث :

يحتل حديث الشخصيات مكاناً مهماً بين الوسائل غير المباشرة لرسم ملامح
الشخصيات ، فإحياناً يكشف الحديث عن التكوين النفسى ومكانة المتحدثين ،

- (١) שמות לב, ٢ .
- (٢) שמות לב - א .
- (٣) שמות לב, ד .
- (٤) מלאכת הסיפור במקרא , עמ' 404 .
- (٥) העיצוב האמנותי של הסיפור במקרא , עמ' 88, 89 .

ولكن لا نجد في قصص التوراة أسلوباً مميزاً لحديث شخصية ما من مثيلاتها، حيث يتفق أسلوب حديث الشخصيات - قل أو كثر - مع أسلوب القاص، فيتميز - باستثناء حالات نادرة - بنغمة موضوعية، تفتقر المشاعر وتفتقر البلاغة، وذلك لوقوعه تحت سيطرة القواعد الأسلوبية التي تسيطر على القصة كلها والتي تمنحها الوحدة. . . وحديث الشخصية الموجه إلى الغير شائع جداً في قصص التوراة، حيث يهدف إلى إثارة مشاعر أو علاقات معينة - وهو الحديث الذي يتطور دائماً إلى حوار - بين المتحدثين (١)، ففي قصة "ضربات مصر" قام الحديث بدور فعال في بناء حبكة القصة، حيث يبرز بصورة واضحة اتجاه تطور الحبكة مع استمرار الحديث بين موسى وفرعون، ورغم عدم منهجيته إلا أنه واضح إلى حد ما، وفرعون الحاكم المطلق والواثق من وسائل قوته، يندهش من الضربات الأولى، وتتأرجح ردود أفعاله بين الصمت المتعنت والصرامة، والتنازلات الخادعة وغير الصادقة التي يهدف من ورائها فقط إلى إزالة آثار الضربات، ثم يظهر عنده الاستعداد للتفاوض بعد الضربات الأخيرة، وهكذا قصدت القصة إلى وصف المراحل الأخيرة لتبدل الأمور بين فرعون وموسى، أيضاً كان حديث موسى يرمز إلى التطور، ففي البداية يظهر علاقة التحدي السمح فيقول له: **הַתַּפָּאָר עָלַי לְמַעַן אֶעֱתִיר לָךְ וְלַעֲבָדֶיךָ וְלַעֲמָךְ לְהַכְרִיחַ הַכְּפָרִדִּים מִמֶּנִּי וּמִכְּתִידָךְ בְּיָד הַשָּׂאֲרָנָה** (٢) - عيّن لي متى أصلي لاجلك ولجل عبيدك وشعبك لقطع الففادع عنك وعن بيوتك. ولكنها تبقى فلى النهر "، بعد ذلك نجده يصرخ في وجه فرعون مرخة ممزوجة باللم: **רַק אֶל-יֹסֵף פָּרַעֲהוּ הָמַל לְבַלְתִּי שָׁלַח אֶת-הָעָם לִזְבֹּחַ לַיהוָה** فقط لا يزد فرعون المخاتلة حتى لا يطلق الشعب ليذبح للرب "، ثم متأخراً جداً يعتبر صراحة عن عدم ثقته في تنازلات فرعون: **וְאַתָּה וְעַבְדֶּיךָ יִדְעוּ כִּי טָרַם תִּירָאֵן מִפְּנֵי יְהוָה אֱלֹהִים** (٤) - وأما

(١) 'שם, עמ' 94.

(٢) 'שמות ח, ה.

(٣) 'שמות ח, כה.

(٤) 'שמות ט, ל.

أنت وعبيدك فأننا أعلم أنكم لم تخشوا بعد من الرب إلهه " ، وهكذا مع نهاية الحديث أصبح موسى هو المهاجم والمخاتل ، ويتفتح بذلك التغيير والتطور مع سير الحكمة ، وكلما أصبح فرعون ليئلاً وراغباً في التفاوض ، يصير موسى — صعباً وصلباً ، وهكذا إلى أن تصل القصة إلى ذروتها مع ضربة اليكوري — وبذلك نرى أن الحديث سار من خلال تصوير محسوب مع خط التوتر الصاعد ، وتمكن من جذب القارئ طوال المسيرة المعقدة لحديث موسى وفرعون (١) .

وهناك حديث يهدف إلى التحفيز للقيام بعمل ، ويميزه صيغة " الأمر " ، وفي حالات نادرة توجه الشخصية الحديث إلى نفسها أي " تحفيز ذاتي " لهذا للقيام بعمل ما ، إلا أن توجيه الحديث إلى الغير هو الغالب في قصص التوراة ويأتي في صيغة طلب إذا كان موجهاً إلى إنسان آخر ، وإن كان الحديث إلى الله فيأتي في صيغة رجاء أو توسل .. وهذا النوع من الحديث يكشف للقارئ عن نيات وتطلعات المتحدثين وبذلك يمكن الوقوف على دخالهم النفسية ، " إبراهيم " عليه السلام كشخصية مضيافة لا يتم التعبير عن ضيافته وكرمه فقط بالدعوة التي وجهها إلى ضيوفه الثلاثة الواقفين عند باب خيمته ، بل أيضاً بأسلوب ولغة الدعوة :

וַיֵּצֵא אֱבְרָהִם אֶת-שְׁנֵי אֲדָמָיו הַנֶּחֱבָלִים מִלִּפְנֵי הַדְּבָרִים
וַיִּשְׁתַּחֲוּ אֶת-הָאֱלֹהִים וַיֹּאמְרוּ אֵלֵינוּ יְהוָה וְהָאֱלֹהִים
עִמָּנוּ וְהָאֱלֹהִים יִשְׁתַּחֲוּ אֵלֵינוּ יְהוָה וְהָאֱלֹהִים
עִמָּנוּ וְהָאֱלֹהִים יִשְׁתַּחֲוּ אֵלֵינוּ יְהוָה וְהָאֱלֹהִים
עִמָּנוּ (٢)

- وقال يا سيدى إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك لتأخذوا قليلاً من الماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة . فأخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون لأنكم قد مررتم على عبدكم . فقالوا هكذا تفعل كما تكلمت " .. هذا الحديث ترك لديهم الانطباع بأن إبراهيم ليس هو الذى يفعل الخير معهم ، بل هم الذين يفعلون الخير معه إذا وافقوا على الاستراحة

(١) מנשה גריןברג , אמנות הספור והעריכה בפרשת המכות , עמ' ٧٥ , ٧٦ , מספר , המקרא ותולדות ישראל . העורך בעמ' אופנהיימר . אוניברסיטת תל אביב , הפקולטה למדעי הרוח , תל אביב , תשל"ב .
(٢) בראשית יח , ג-ה .

وتناول الطعام عنده ، فإبراهيم يقلل من شأن أعمال الضيافة التي سيقوم بها
فيقترح عليهم ماء للاغتسال وكسرة خبز فقط ، رغم أنه سيقدم لهم عجلاً وزبدًا
ولبنًا وفطيرًا . وكذلك يكثر " إبراهيم " من التعبير المؤدب : " **לא** (١)
من فضلکم " (ثلاث مرات) ، و " **לאבדך** عبدك " و " **לאבדכם** عبدکم " .

- " سارة " تطلب من " إبراهيم " طرد " هاجر " و " إسماعيل " ، وتستخدم
التعبير بصيغة الأمر " **גרש** اطرד " وتدعوها في احتقار : " **האמה**
הזאת وابن **האמה הזאת** - هذه الجارية وابن هذه الجارية " ،
في مقابل تعبيرها عن ابنها بقولها : " **לאם בני** **לאם** ' **אח** (٢)
مع ابني مع إسحاق " .. وهكذا يلقي هذا الحديث الضوء على شخصيتها ، ومن
ناحية أخرى تختفي من كلمات الرب نغمة الاحتقار المسيطرة على كلمات سارة ،
حيث يختفي اسم الإشارة " **הזאת** " ويكنى إسماعيل بالفلام " **הרלר** " (٣)

وفي قصص التوراة أحاديث أخبارية غريبة بالمعلومات ، وأحياناً تساهم
هذه الأحاديث في تشكيل الشخصيات ، فإله يسأل آدم : " **המן העץ אשר**
אזיתך **לבולת** **אכל** **ממנו** **אכלת** . (٤) هل أكلت من الشجرة
التي أوصيتك أن لا تأكل منها " ، وآدم يجيب : " **האשה אשר נתתה**
לעמדי **הוא נתנה לי** **מן העץ ואכל** (٥) - المرأة التي جعلتها
معى هي أعطتني من الشجرة فأكلت " .. وفي هذه الإجابة يبرىء آدم نفسه من
التهمة بإلقائها على الآخرين : على المرأة التي أعطت له من الشجرة ، وعلى
إله نفسه الذي أعطى له هذه المرأة (٦) .. وفي جو أكثر سلمية تأتي إجابة

- (١) **בראשית** יח , ה-ח .
- (٢) **בראשית** כא , ט-י .
- (٣) **בראשית** כא , יב-ג .
- (٤) **בראשית** ג , א .
- (٥) **בראשית** ג , יב .

(٦) **העצוב** **האמנות** **של** **הסיפור** **במקרא** , **עמ'** ١٩٨ .

" קאיין " على سؤال الرب عن مكان أخيه " هابيل " : " לֹא יָדַעְתִּי הֵשׁוּ-
בְּמַר אַחִי אֲרָכָי " (١) - لا أعلم . أحارب أنا لأخي ؟ " فجابته كذب فاضح ،
هذا بالإضافة إلى إعلانه عن شجاعته العجيبة في إعادة الهجوم بتوجيه سؤال
جدّي إلى الله ، ولكن من ناحية أخرى نجد " إبراهيم " بكل شهامة ونبل ففى
الرد على تساؤل ابنه : " הֲנֵה הָאִישׁ וְהַלָּזִים וְאִיהָ הֵשָׁה לְעֹלָה . (٢)
- هوذا النار والخطب ولكن أين الخروف للمحرقة ؟ " ، بإجابة ملتوية ذكيّة :
" אֱלֹהִים יִרְאֶה לָּזֶה הֵשָׁה לְעֹלָה בְּנִי " (٣) - الله يرى له الخروف
للمحرقة يا ابنى " ، ومن هذه الإجابة تبرز صفات " إبراهيم " : لباقتسه
لعدم إزعاج ابنه بدون داع ، واستقامته فى عدم رغبته فى الكذب على ابنه ،
وكذلك تدينه ، وإيمانه العميق فى ثقته المطلقة فى الله (٤) .

وهكذا يلعب حديث الشخصيات فى قصص التوراة دورين رئيسيين ، فهو
أداة تنفيذ الحدث ، وهو بصفة عامة لا يتضمن كلمات فلسفية ، وإنما يعنى
بنشاط شخصيات القصة ، وهو فى أغلب الأحوال يعنى بالمستقبل ، حيث يعكس
تطلعات الشخصيات والمشروعات التى تخطط لها ، ومن ناحية أخرى يستخدم الحديث
أيضاً لإلقاء الضوء على الدور الإنسانى ، كما أنه يظهر العوامل والدوافع
لدى شخصيات القصة .

ب - الأعمال :

لا شك أن الأعمال التى تتكون منها أحداث الحكمة يكون بينها وبين
الشخصيات علاقات متبادلة ، فالشخصيات هى وظيفة الأعمال ، والأعمال هى
وظيفة الشخصيات ، أى كما تستخدم الشخصيات الحكمة ، كذلك تستخدم الحكمة
الشخصيات حيث تلقى عليها الضوء وتساهم فى رسم ملامحها ، وليس ذلك فقط بل

(١) בראשית ד, ט.

(٢) בראשית כב, ז.

(٣) בראשית כב, ח.

(٤) העיצוב האמנותי של הספור במקרא, עמ' 198.

بل يوثر طابع الشخصيات على سير أحداث الحبكة ، وسير الأحداث يوثر على طابع الشخصيات (١) ..

وهكذا فإن القصة في التوراة لا تخبرنا بوجه عام عن أوصاف شخصياتها ، وذلك حتى لا يبدى القارئ رأياً مسبقاً عليها ، فهي لم تذكر أن " قايين " كان شريراً ، أو أن " لابان " كان مخادعاً ، أو أن " إبراهيم " كان كريماً مضافاً ، إلا أن القصص تعرض لنا أعمال هذه الشخصيات بصورة واضحة ، ومن خلال أعمالها نستطيع التعرف على ملامحها وطباعها ، وأسلوب حديثها كما ذكرنا من قبل ، " فقاين " كان قادراً على قتل أخيه ، ثم قتله (٢) ، وهذا العمل كشف لنا عن قسوته وغلظته ، رغم أن القصة لم تذكر شيئاً عن طباعه ؛ وكذلك تبكير " إبراهيم " في النهوض في الصباح لتنفيذ أمر الله بتقريب ابنه ، يشير إلى مدى إيمانه العميق بالله ، بدون ذكر ذلك بشكل صريح ؛ وأيضاً القصة لم تذكر أن " إبراهيم " أشفق على " هاجر " و " إسماعيل " ، عندما أرسلهما بعيداً عن سارة ، حسب طلبها ، إلا أن إشفاقه وقلقه يتضحان من أفعاله : " ויקח לחם וחמת מים ויתן אל הגר, נשם על שבמה ואת הילד " (٣) - وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما لهاجر ، وأضعاً إياهما على كتفها والولد " .

في قصة يعقوب وعيسو وبعد عودة يعقوب إلى أرض كنعان ذكر هذا العمل

ليعقوب :

נָשָׂא יַעֲקֹב עִלְיוֹ נִרְאָה וְהָיָה עִשָׂו כְּאִשׁ וְעָלָם אֶרְבַּע מֵאוֹת
אִישׁ בְּמִין אֲחֵיהֶם לָדִים עַל-לֶאֱלֵהוּ וְעַל-רָחֵל וְעַל שְׁתֵּי
הַשָּׂפָחוֹת: וְהָיָה אֲחֵיהֶם שָׂפָחוֹת וְאֲחֵיהֶם לָדִים וְאֲחֵיהֶם
לֶאֱלֵהוּ אֲחֵיהֶם לָדִים וְאֲחֵיהֶם לָדִים: (٤)

(١) نَشَم , עמ' ١٥٥ .

(٢) راجع التكوين : ٤ : ٨ .

(٣) בראשית כא , ד' .

(٤) בראשית לג , א-ב .

- ورفع يعقوب عينيه ، ونظر وإذا ميسو مقبل ومعه أربع مائة رجل ، فقسَّم الأولاد على ليئة وعلى راحيل وعلى الجاريتين ووضَعَ الجاريتين وأولادهما أولاً ، وليئة وأولادها وراهم وراحيل ويوسف أخيراً " - في هذا العمل لم يذكر بوضوح قلق يعقوب أو تفكيره ، لكن نظام تقسيم معسكره يكشف جيداً عن قلقه الزائد على راحيل (١) .

وفي قصة يوسف ذكر أن إخوته بعد أن ألغوا في البئر جلسوا لياكلوا خبزاً : " לֶאֱכֹל לֶחֶם " (٢) ، وهذا العمل يشير إلى عدم مبالاتهم لمصير أخيه (٣) .

ولكن هل العمل الواحد وغير المتكرر الذي تقوم به الشخصية ، يمكنه رسم ملامحها الشخصية ، أو لابد من أن تكرر الشخصية العمل عدة مرات أو تقوم بأعمال متشابهة حتى يمكن التعرف على النزعات الكامنة فيها ؟ فعلى سبيل المثال ، هل من العدل أن تنسب إلى " قايين " صفة القاتل استناداً إلى أنه قتل مرة واحدة ؟ وهل يجب أن نرى " هارون " كشخصية ضعيفة لأنه انصاع لبني إسرائيل وصنع لهم عجلاً ذهبياً ؟ وهل تشير حماية " لوط " للملكيين اللذين جاءا إلى سدوم ، على كرم ضيافته .. في القصة القصيرة لا مجال لوصف أعمال مختلفة أو أعمال متكررة لشخصية واحدة . من هنا فإن العمل الواحد قد يكون وسيلة لرسم ملامح الشخصية ، ولذلك يجب أن يكون هذا العمل جوهرياً ومحسوساً .. وفي المقابل في القصة الطويلة نسبياً - ولا فرق هنا بين قصة واحدة طويلة أو سلسلة قصص قصيرة تظهر فيها نفس الشخصية - توجد إمكانية سرد أعمال مختلفة تشير إلى النزعات أو الملامح الشخصية ، فإبراهيم تظهر طاعته للرب من عدة أعمال منها :

(١) מבוא כללי למקרא , עמ' ١٥٧ .

(٢) راجع التكوين ٢٨ : ٢٥ .

(٣) מבוא כללי למקרא , עמ' ١٥٧ .

أ - عندما يترك موطنه وبيت أبيه وهو فى سن متقدمة من أجل الذهاب إلى أرض مجهولة (١) .

ب - عندما يتلقى الأمر الإلهى بالختان وهو ابن تسع وتسعون سنة (٢) .

ج - عندما يرسل ابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى الصحراء (٣) .

د - عندما ييكر فى الصباح للذهاب لإعداد ابنه قرباناً للرب (٤) .

وهكذا يمكننا القول بوجه عام أن الشخصيات فى قصص التوراة هى شخصيات مسطحة أى تظهر بصورة محددة منذ البداية ، ولكن بالنسبة للشخصيات التى تكون محوراً لقصص عديدة ، مثل شخصية " إبراهيم " التى تتكشف لنا جوانبها وأبعادها مع تطور القصص حيث لا تكتمل لنا صورته إلا بانتهاء القصص نفسها ، فهى تعتبر شخصية نامية أو مركبة ، وكذلك شخصية " يعقوب " ، فما أعظم الفارق بين يعقوب الشاب الذى سرق البركة المخصصة لأخيه البكر عيسو ، ويعقوب نفسه بعد عشرين عاماً من التجارب الصعبة فى أرض غربته ، وعندما يأتى ليتوسل لأخيه ليوافق على حمولة على البركة (٥) . وقد نجح هذا الأثر الفنى لهذا الشكل البنائى لشخصيات القمة فى تشويق القارئ إلى الاستمرار فى متابعة الأحداث فى القمة حتى النهاية لكى يعرف على أى نحو تكون النتيجة .

الشخصيات الأساسية :

الشخص الأساسى هو البطل ، وهو الشخصية المحورية (النامية) والمتطورة التى تتكشف لنا جوانبها وأبعادها شيئاً فشيئاً من خلال المواقف والأحداث ، مثل شخصية " إبراهيم " و " إسحاق " و " يعقوب " و " يوسف " و " موسى " ، فبالرغم من أن " إبراهيم " شخصية تاريخية معروفة إلا أن القاص نجح فى أن يجعل منها شخصية أساسية تتكشف لنا أبعاد جديدة لها كلما أوغلنا معها

(١) راجع التكوين : ١٢ : ١ - ٥ .

(٢) راجع التكوين : ١٧ : ٢٤ .

(٣) راجع التكوين : ٢١ : ١٤ .

(٤) راجع التكوين : ٢٢ .

(٥) *הלאבות האמנות של הספור במקרא* , עמ' ١٠٢-١٠٣ .

في الحركة ، وتشبعنا سلوكها في المواقف المختلفة ..

• وعدد الشخوص الأساسية في قصص التوراة قليل جداً وذلك ناتج من قلّة عدد الشخوص العاملة في القصة ، حتى في القصص ذات الحبكة المركبة والمتطورة مثل قصة يوسف وإخوته ، حيث لا نجد في المشهد الواحد أكثر من شخصيتين أو ثلاث شخصيات ونادراً ما يتطور الحوار الثنائي إلى حوار ثلاثي ، ولكن لقلّة عدد الشخوص أثره الفعال في التركيز على أعمال وأحاديث الشخصية الرئيسية في القصة ، في مقابل إهمال وصف مصائر وطبائع الشخوص الثانوية ، فالقاري يلتقي كثيراً " بيوسف " وقليلًا براؤبين ولم يلتق مطلقاً بنفتالي ، حيث يجتمع أبناء يعقوب في شخصية جماعية توصف أعمالها وأحاديثها وردود أفعالها بخطوط عامّة (١) .

ولقد أوضح " جونكل " ذلك وأرجعه إلى درجة التطور الاجتماعي قديماً ، حيث لم يكن الفرد مميزاً عن العموم ، بالإضافة إلى أن قصاصي التوراة لم يكن لديهم الوعي الكامل برسم الخطوط المميزة للشخصيات مما أدى إلى اشتراكها في مشاهد مشتركة ، ولكن هذا العمل أيضاً له ميزة محددة ، فمن خلال التركيز على الشخصية الرئيسية ، حظت القصة في التوراة بالوضوح الشديد (٢) .

ولتقديم الشخصيات الأساسية في قصص التوراة ، نبحث قصتين من سفسر التكوين تهتمان بالأب وابنه ، حيث يلقي الأب بظلال شخصيته على ابنه ، الأولى هي قصة " إبراهيم وإسحاق " والآخرى قصة " إسحاق ويعقوب " ، ومن خلال المناظرة بين القصتين يمكن القول : أن جوهر قصة بركة إسحاق ليعقوب هو تطهير يعقوب بقدر الإمكان من ذنب سرقة بركة أخيه عيسو ، وهذا على حساب

(١) نوريال סימון: הדמויות המשניות בספר המקראי, עמ' 31, הקונגרס העולמי התמישי' למדע היהדות, ירושלים, תשכ"ט.

(٢) שם, עמ' 31.

الشخصيات الثانوية في القصة - حيث تبادر رفقة بتوجيه يعقوب ، ويرتبط حبّ
إسحاق لابنه البكر بحبه للحم الصيد ، وهذا الارتباط يؤدي إلى تحديد مصير
الأبناء وأبناء الأبناء على مر العصور ..

وتتضح سلبية شخصية إسحاق في مشهد البشارة بـ يعقوب ، بعد أن ألقى
القاص بظلال مشهد بشارة " إبراهيم " " بإسحاق " (١) على هذا المشهد ، مما
أدى إلى تكثيف الإشارة في القصة :

٢ - في مشهد البشارة " بإسحاق " : " إبراهيم " هو الذي يتلقى
البشارة ، وهو في هذا المشهد سلبي تماماً ، حيث لا يدرك شيئاً عن اتجاه
المستقبل ، ولا يعرف هوية ضيوفه ونيّتهم في بشارته بميلاد ابن له :

וַיֹּאמְרוּ אֵלָיו אֵתָּה שְׂרָה אֲשֶׁתְּךָ וַיֹּאמֶר הִנֵּה בְּאֶהְלִי: וַיֹּאמֶר שָׂרָה אֵלָיו
כִּי עָתָה חָלָה וְהִנֵּה-בִנְיָן לְשָׂרָה אֲשֶׁתְּךָ (٢) - وقالوا له : اين سارة امرأتك؟
فقال : ها هي في الخيمة . فقال : إني أرجع إليك نحو زمان حياة ويكون
لسارة امرأتك ابن " - وفي المقابل يأخذ " إسحاق " على عاتقه مهمة المبشر
حيث يريد عن وعى وإدراك تحديد مستقبل ابنه البكر عيسو (٣) .

ب - شخصية " إبراهيم " تتميز بكرم الضيافة ، ويتضح ذلك من استقباله
لضيوفه حيث يقترح عليهم الاغتسال والطعام :
וַיִּקְחֵנָה מִעֲטֹף-לֶחֶם וַיִּקְדְּמוּ בְּלֶחֶם וַיִּשְׁעֲנוּ תַחַת הָעֵץ:
וַאֲקָחָה פַת־לֶחֶם וַיִּשְׁעֲנוּ לִבְרָכָה אֶת־עַבְדֵּהּ כִּי-עַל־בֵּן
עָבְדָהּם עַל-עַבְדָּהּם (٤) - ليؤخذ قليل ماء

واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة . فأخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم
تجتازون لأنكم قد مررتم على عبدكم " -

في المقابل تبرز شخصية " إسحاق " " المبشر " الذي يطلب من ابنه

(١) راجع التكوين : ١٨ .

(٢) בְּרֵאשִׁית ١٨ ، ١٠ - ١١ .

(٣) راجع التكوين ٢٧ : ٤ و ٢٧ و ٢٩ .

(٤) בְּרֵאשִׁית ١٨ ، ٤ - ٦ .

اطعامه من أجل الحصول على البركة : " ועשה-לי מטעמים כאשר אה-
 בתי והביאה לי ואכלה בעבור תבדכך נפשי בטרם אמות"⁽¹⁾
 - واضح لي أظعمة كما أحب وأتني بها لكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت " .
 ج - وهناك تشابه واضح بين أوصاف إعداد الطعام من قِبل " إبراهيم "
 الذي سيتلقى البشارة ، ويعقوب الذي يجتهد لتلبية طلب أمه التي ترغب في
 حصوله على البركة :

ואל הבקר רץ אברהם ויקח בן בקר דך וטוב וימהר לעשות אתו ⁽²⁾	לך נא אל הצאן ויקח לי משם שני גדי עזים טובים ⁽³⁾ ואעשה אתם .
وركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً .. فأسرع ليعمله	الهرب إلى الغنم وأخذ لي من هناك جديين جيدين فأصنعهما

وفي الماديتين يماحب اللحم الخبز : " לאגדת " (4) خبز מلة ؛
 " לחם " (5) خبز .

د - في القصتين تساعد الزوجة - الأم في إعداد الطعام ، لكن الفارق
 كبير بين " سارة " و " رفقة " ، فبينما نجد سارة تُؤمر بالمساعدة دون أن
 تعرف أن الضيوف سيُبشرونها بخلاصها من عقمها (6) ، نجد أن " رفقة " تبارك
 بإعداد الطعام بواسطة يعقوب ، من أجل البشارة ، وهي أيضاً أكثر فعالية منه :

- (1) בדאשית כז, ד.
- (2) בדאשית יח, ז.
- (3) בדאשית כז, ט.
- (4) בדאשית יח, ט.
- (5) בדאשית כז, יז.
- (6) בדאשית יח, ו.

וַתַּעַשׂ אִמּוֹ מִטְעָמִים כְּאֲשֶׁר אָהָב
 יִדְּיוּ וְעַל חֶלְקָהּ צִוְּאוּהָ: וַתֵּחַן אֶת-הַמִּטְעָמִים וְאֶת-הַלֶּחֶם
 אֲשֶׁר עָשְׂתָה בְּיָד גַּעֲקֹב בְּנָהּ: (١) - وصنعت أمه أطعمة كما كان
 أبوه يحب .. وأعطت الأطعمة والخبز الذي صنعت في يد يعقوب ابنها -

هـ - في القمطين تنمت المرأتان من وراء الستار لحديث الرجال :
 (٢) **وְשָׂרָה שָׁמְעָת .** (٣) **וְרַבִּקָּה שָׁמְעָת .**
 وسارة سامعة . ورفقة سامعة .

ونلاحظ أن استخدام صيغتي واو العطف في العبارتين السابقتين على هذا
 النحو : (...) **שָׁמְעָת** و ... سامعة) لم تذكرنا إلا في هاتين الفقرتين
 في التوراة كلها ..

و - في القصة الأولى تسمع " سارة " إلى بركة البشارة وتشكّ فيها ،
 بينما في القصة الأخرى تسمع " رفقة " لنية إسحاق في منح البركة " لعيسو "
 وتعمل جاهدة من أجل إعاقة نيّته ، حيث إنها لا تشك في قوة بركته ..
 ز - في القصة الأولى يقدم الأب الطعام لضيوفه ، الذين يخفون هويّتهم ،
 ويتلقى البشارة ، وفي القصة الثانية يقدم الابن - الذي يخفي هويّته -
 الطعام إلى أبيه ، ويتلقى البشارة (٤) .

ح - ونتيجة البشارة المباركة في القمطين هي أن صغيرا الوالدين قد
 حظيا بالبركة فإسحاق صغير إبراهيم بورك إكراماً لأبيه (٥) ، بينما لم يعرف
 إبراهيم لمن بركته في المستقبل ، أما يعقوب فقد حصل على البركة ، رغم أن
 أبيه وهو الذي يمنح البركة كانت رغبته مباركة عيسو .

ط - إسحاق الذي أراد تحديد المصائر ببركته ، لم يتمكن من تحقيق

(١) **בְּרֵאשִׁית כב, ד' - ז' .**

(٢) **בְּרֵאשִׁית ח, י' .**

(٣) **בְּרֵאשִׁית כב, ה' .**

(٤) قارن التكوين ١٨ : ١٠ ؛ مع التكوين ٢٧ : ٢٧ - ٢٩ .

(٥) راجع الفقرات ١٤ و ١٩ من الإصحاح ١٨ .

ما أرادته ، فكما حمل صغير " إبراهيم " على البركة والإرث المخصص لابنه البكر " إسماعيل " ، فكذلك فإن هدف إسحاق لم يتحقق وحمل صغيره " يعقوب " على البركة وليس بكره عيسو .. يتضح إذآ أن الإنسان لا يقدر على تحديد المصائر وفقاً لمشيئته ، إنما المستقبل يحدده الله ، ووفقاً لذلك فإن يعقوب ورفقة ليسا إلا عاملان مساعدان في تحقيق المشيئة الإلهية (١) .

ولكن بهذا المشهد لم تختتم القصة ولم تنته ، فيعقوب بعد حصوله على البركة اعتقد أن الابن الصغير هو الجدير بالحصول على البركة ، ولذلك عندما شاخ ووهنت عيناه من الشيخوخة وضع يمينه على رأس صغيره " إفرام " الذى أمسك به يوسف ، وشماله على رأس البكر منسى (٢) ، ولكن " يوسف " أراد تصحيح الخطأ الذى وقع فيه أبوه : " וַיֹּאמֶר יוֹסֵף אֶל-אֶבְרָהָם לֹא-בֶן-אֶבְרָהָם הַבְּכֹר שִׁים יְמִינִי עַל-رَأْسוֹ: (٣) - وقال يوسف لأبيه ليس هكذا يا أبى لأن هذا هو البكر . فع يمينك على رأسه " - إذآ سلك " يوسف " منهجاً مغايراً لمسلك يعقوب ورفقة ، فهما أرادا تفضيل الأب الأعمى من أجل نقل البركة من البكر إلى الصغير ، بينما يوسف هن أن الشيخ الأعمى قد أخطأ في منح البركة للصغير دون البكر ، إلا أن يعقوب رفض :

וַיֹּאמֶר אֶבְרָהָם וַיֹּאמֶר יְרֵעָתִי כִּנִּי יִרְעָתִי נָם-הוּא הָיָה-לָעַם
נָם-הוּא יִגְדֹל וְאֵלֶם אֶחָיו הַקָּטָן יִגְדֹל מֵעַנּוֹ וְרָעוֹ הָיָה - פֶּאֶרְסִי
מִלֵּא-הַגִּזְיִם: (٤)
وقال علمت يا ابنى علمت . هو أيضاً يكون شعباً وهو أيضاً يصير كبيراً . ولكن أخاه الصغير يكون أكبر منه ونسله يكون جمهوراً من الأمم " .

وهكذا يمكننا تقويم أعمال الشخصيات الرئيسية في القصة الأولى بالاستعانة بأعمال الشخصيات في القصة الثانية ، فدليل سلبية " إسحاق "

(١) "أيد زكوبى" ، סיפור בבואה - מימד נוסף להערכת הדמויות
בסיפור המקרא' , עמ' ١٦٤ - ١٦٨ . תרביץ שנה נד , חוברת ב' תשמ"ה .
ירושלים .

(٢) راجع التكوين : ٤٨ : ١٠ - ١٤ .

(٣) בדאשית מח , יח .

(٤) בדאשית מח , יט .

يتضح بمقارنته "بإبراهيم"، وإدانة أعمال رفقة ويعقوب تظهر من مقارنتها بظلال الشخصيات في قصة يعقوب وأبنائه، عندما يأخذ يعقوب الشيخ أنموذج بركة الصغير كأمير مقرر ومفهوم، ولم يدع ليوسف الفرصة لتصحيح خطاه (١).

أما عن توقيت ظهور البطل في قصص التوراة فيأتي وفقاً لإيجاز وأغراض القصص في التوراة حيث تتركز القصة في تلك المرحلة الزمنية وفي تلك الوقائع المهمة لأحداثها، ولذلك فالقارئ لا يعرف أحياناً شيئاً عن ماضي البطل وعن حياته، أو عن طفولته وصباه، وتعليمه وثقافته، وإذا وصفت القصة شيئاً من ذلك فإنه يكون ضرورياً لفهم أحداث الحكمة أو لعرض أهداف أخلاقية، فنوح ظهر في قصة الطوفان وهو رجل صادق ابن ستمائة سنة، ولم تسرد القصة شيئاً عن برّه وصدقه حتى الطوفان، أو لماذا استحسنته الله؟ وكذلك "إبراهيم" يقتحم قصصه وهو ابن خمس وسبعون سنة عند تلقيه أمر ربه بالخروج من أرضه، ولا يعرف القارئ شيئاً عن حياة إبراهيم وعن اعتناقه دينه أو أعماله حتى خروجه من حاران. ورغم أن التوراة تحكى عن ميلاد موسى وإنقاذه إلا أنها لا تحكى شيئاً عن حياته طوال ثمانين سنة حتى خروجه من قصر فرعون لرؤية عناء إخوته، وحتى حياة موسى ليست مهمة في التوراة إلا من هذه اللحظة التي بدأ فيها إنقاذ بني إسرائيل، فالمهم فقط في قصص التوراة تلك الأعمال والأحداث التي كان لها تأثير على تاريخ بني إسرائيل أو على تاريخ العقيدة الإسرائيلية أو التي تتجلى فيها العناية الإلهية من أجل بني إسرائيل (٢).

الشخصيات الجانبية :

ومن الشخصيات الجانبية تلك التي تمهد لأحداث الحكمة، وتُكسب القصة عمقاً ودلالة أكثر، حيث تتضح أهمية دورها في إبراز ملامح وخصائص الشخصية

(١) ס'פיר בַּבְרָאָה . לַמ' 168
(٢) מַבּוֹא בַּלֵּל לַמַּסְרָא , לַמ' 155 .

الرئيسية إيجاباً أو سلباً ، وللقاص حرية تعقب الشخصية الجانبية أو تجاهلها ويتضح ذلك في ختام قصة التقريب التي تسرد عودة إبراهيم مع غلاميه إلى بئر سبع : " **וַיֵּשֶׁב אַבְרָהָם אֶל רַעְיָיו וַיְקוּמוּ וַיֵּכְלוּ יַחְדָּו אֶל בְּאֵר שֶׁבַע** , **וַיֵּשֶׁב אַבְרָהָם בְּבֵאֵר שֶׁבַע** (١) - ورجع إبراهيم إلى غلاميه فقاموا وذهبوا معاً إلى بئر سبع وسكن إبراهيم في بئر سبع " .

إن أكثر الشخصيات الجانبية تقوم بدفع البطل على الكلام ، ولذلك فهي تساهم في إيضاح الملابس عندما تأتي كخلفية لأحداث الحكمة ، ورغم المساحة القليلة المخصصة للشخصيات الجانبية في قصص التوراة ، إلا أن قلة أعمالها يمكن أن تكون أداة فعالة للدلالة على جوهر الحكمة ..

ومع ستر المغزى الديني وإخفاء قضايا التقويم الأخلاقي وراء أحداث الحكمة ، فإن الشخصيات الجانبية تقدم لنا في أحيان كثيرة مفتاح فهم القصة (٢) .

وخلاصة القول : أن الشخصية الجانبية ما هي إلا وسيلة للتقويم الأخلاقي للشخصية الأساسية ، وهذا التقويم لا يتم التعبير عنه في كلمات صريحة ، بل بشكل غير مباشر عن طريق الأعمال ونتائجها (٣) ..

- إن أبطال قصص التوراة ليسوا رموزاً مجردة ، ولا يتمتعون بالسواد أو البياض ، لأن كل واحد منهم هو شخصية واقعية أحادية تفعل وتُردّ بطابعها الخاص في ظروف خاصة تحيط بها (٤) .

(١) **בְּאֵר שֶׁבַע, ט.**

وهناك اختلاف بين المفسرين الباطنيين والمفسرين الظاهريين حيث استدل الباطنيون على أن إسحاق لم يعد معهم ، أما الظاهريين فيقولون أن إسحاق عاد مع أبيه ، والحقيقة أن الاستنتاجات الواقعية للباطنيين تتفق مع الاستنتاجات الأسلوبية للظاهريين ، فتجاهل حضور إسحاق هو تعبير شكلي بارز لإخضاع الشخصية الجانبية للشخصية الأساسية . انظر : **אֶל סִמְחָא, הדמויות המשניות בס' פיר המקרא, עמ' 34.**

(٢) **שם שם, עמ' 36.**

(٣) **ש"ד גויט"ן, עיונים במקרא, עמ' 53, ת"א הדפסה ב', 1963.**

(٤) **מבוא פללי למקרא, עמ' 158.**

وقصص التوراة لا تفضي سمات الكمال على أبطالها ، فكما تبرز مزايائهم كذلك أيضا تبرز نواقصهم ، لذلك لا يوجد في قصص التوراة مثالية الأبطال — حيث أنهم بشر من شأنهم السهو والخطأ ، فنوح يشرب ويسكر ، ويعقوب يحصل على بركة أبيه بالخديعة ، وموسى أخطأ في مصدر الماء المتنازع عليه (١) ، ولكن نقط الضعف هذه لا تحط من سمو هذه الشخصيات في عالم التوراة فحيث أنهم " بشر " و " واقعيون " فإن قيمتهم تزداد أكثر ، لأنهم يصارعون غرائزهم الشريرة مثل أى إنسان آخر ، وذلك لأنها تعتمد على الرؤية القائلة: " **אין אדם צדיק בארץ אשר יעשה טוב ולא יחטא.** " (٢) - لا يوجد إنسان صديق في الأرض يعمل صلاحا ولا يخطئ " .

حتى الأمة الإسرائيلية في قصص التوراة لا يتم عرضها في صورة مثالية فمضى الشعب الإسرائيلى ليس مجيداً على الإطلاق ، فأبائهم كانوا عبيداً لفرعون مصر وللمصريين ، وفي الصحراء بعد خروجهم من مصر تمردوا على إلههم ، وصنعوا عجلاً ذهبياً ، واشتاقوا لخبز اللحم .. وهكذا فتاريخ شعب إسرائيل في فترة التوراة هو فصل طويل من الخطايا والجرائم والخianات والإحباطات (٣) .

.. ..

-
- (١) **שדה הלפדין** , **היסוד הטראגי** **בס' פור המקראי** , **עמ' ١٩** , **תשמ"ב** .
 (٢) **קהלת ז, ב** .
 (٣) **מבוא פללי למקרא** , **עמ' ١٥٩-١٦٠** .

أغراض القصة في التوراة

لا شك أن لكل عمل من الأعمال أهداف قد تتحقق جميعها أو يتحقق البعض منها ، وإذا أردنا أن نتحسس أهداف القصة في التوراة فلنأته يمكننا أن نجدها فيما يلي :

أولاً :

تهدف القصة في التوراة إلى التعليم والممارسة أكثر من ترك الانطباع والتسلية ، فهي لم تكتب لمجرد القص والحكاية أو تقديم متعة فنية أو جمالية للمستمع أو القارئ ، ولذلك فهي تتجه إلى الإرادة والإدراك أكثر من اتجاهها إلى الحواس والمشاعر ، ومغزاها ومضمونها يبرزان بشكل واضح من ظاهرها فليست مباهج الوصف الذي يترسم حياة أغلب الشخصيات هي التي تدفع القاص إلى سرد وقائع الحكمة ، إنما التطلع إلى كشف العلاقات بين شخصيات القصة ، وإلقاء الضوء على الروابط بين الشخصيات وتكوينها في فنية قصصية من أجل إدراك معاني الحياة ، ولذلك يفضل القاص تركيز الضوء على نقاط التطور المركزية لهذه العلاقات والروابط بين شخصيات القصة (١) .

ثانياً :

ولكل قصة من تلك القصص أهداف تربوية وتعليمية خاصة بها (٢) ، ففي قصة يوسف هناك تركيز شديد على أن العناية الإلهية توجه أحداث البشر وفقاً لتخطيط مسبق ووفقاً لمنهج العدل الإلهي حيث يجازي الإنسان حسب عمله ، فالصالح بقدر صدقه ، والمخطيء بقدر خطاه ، وكل ذلك بدون تجلّي إلهي مباشر (٣) ، حيث يبدو أن ما هو صفة إنما حدث بإرادة الله ، ويتضح ذلك من التقابل بين قصة بيع يوسف (٤) وقصة شامار ويهوذا (٥) ، عندما أرسل بنو يعقوب قميمص

(١) הדמויות המשניות בספור המקרא' , למ' 34 .

(٢) מבוא כללי למקרא , למ' 152 .

(٣) باستثناء رؤيا الليل ليعقوب في التكوين ٤٦ : ٢ - ٤ .

(٤) راجع التكوين : ٢٧ .

(٥) راجع التكوين : ٢٨ .

يوسف إلى أبيهم وسألوه : تحقق هل هو قميص ابنك أم لا ؟ ، وبعد ذلك مباشرة يتضح كيف أن " يهوذا " صاحب الراى ببيع يوسف ، يلقي جزاءه فى قصصـة " شامار " ، وأيضاً يوجه إليه السؤال : تحقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه ؟ (١) .

ثالثاً :

تهدف قصص التوراة من خلال حياة شخوصها إلى أن الحياة دول بين الناس فليست حياة الإنسان خط متواصل من النجاح أو الفشل ، وإنما تسير فــــوق ارتفاعات وانخفاضات . وهذا المبدأ يبرز بصورة خاصة خلال شخصيات تتصف حياتها بالطول ، مثل إبراهيم ويعقوب ويوسف ، وموسى ، وفى طفولة يوسف سعبادة وطمانينة فى بيت أبيه الذى يؤثـره بحبه على إخوته ، ويحلم بالعظمة والمجد والسلطان ، وفجأة يُلقى به داخل بئر مظلم ثم يُباع عبداً ، وبعد فترة زمنية يرتفع شأنه مرة أخرى ويحقق النجاح فى بيت سيده المصرى وفجأة يُلقى فى السجن ، ويبدو أنه سينهى حياته داخل هذا السجن ، ولكنه يخرج وتظهر براءته ويمعد للقمّة من جديد ليصبح قائماً على خزائن مصر (٢) .

وهذه التحولات الفجائية تظهر فى ذروة القصص فتضى عليها الجاذبية والإشارة ، وفى اللحظة التى يمدّ فيها " إبراهيم " يده ليذبح ابنه يناديه فجأة ملك الله من السماء ليتم إنقاذ ابنه ولذا فالغاية هنا تبدو فى :

أ - أنه على الإنسان ألا يفتخر ويتباهى ويتكبر لنجاحه أو مكانته العالمية ، كما أن عليه أيضاً أن لا يفقد الأمل إذا ما صادفه الفشل فخلاص الله من شأنه أن يأتى فى أى لحظة .

ب - أنه لا يجب على الإنسان أن يُزج إنجازاته ونجاحه إلى حكمته وقوته ، إنما يرجعها إلى الله الذى منح هذه الحكمة والقدرة على تنفيذ أعماله ،

(١) راجع التكوين ٢٨ : ٢٥ .
אֲנִי־קְלוּפְדִּיהַּ מִקְרָאִית , בִּדְךָ ג , לַאֲמ' 614 .

(٢) راجع التكوين من الاصحاح ٢٩ الى ٤١ .

لذلك نجد " يوسف " يؤكد لفرعون : " בלעדי אלהים ילצה את
שלום פדל'ה (١) - ليس لى . الله يجيب بسلامة فرعون " .

ج - إن التقلب فى حياة الإنسان يأتى نتيجة لسلوكياته ، وفى البداية
تم عقاب يوسف لتكبره وأنايته ، ثم بفضل صدقه وتماسكه يرتفع شأنه مرة
أخرى .

د - إن خط سير الإنسان مرتبط بالعناية الإلهية ، فقصص التوراة تشير
مراراً إلى مبدأ الثواب والعقاب فى عالم الإنسان ، فيعقوب يحصل على بركة
أبيه بالخدا ، ولذلك عوقب بخدا لآلان بعد ذلك (٢) .

رابعاً :

يقول " تسفى آدر - ٤٤ , ٦٦٨ " أنه فى كل قصة من قصص التوراة
توجد رقائق بعضها فوق بعض تكون ثلاث طبقات : الطبقة العليا هى الحكمة ،
والوسطى هى مشاعر الأبطال والطبقة الأعمق تشكل الأفكار ومفاهيم الحياة ،
سواء كانت صريحة أم خفية ، ونتيجة لهذا الترقيق تزداد جاذبية وتوتر
القصة وتكون مفهومة لكل جيل ، فالمصطفى يشعر بالحكمة ويتمتع بها ، والشاب
يتأمل روح الأبطال ومقصد القصة ، والرجل البالغ يتفكر فى تسلسل الأفكار
التي تربط بين فصول القصة فى وحدة واحدة . ومن يريد إذاً الاستمتاع الكامل
والفائدة العظيمة من قصص التوراة عليه أن يتأمل جيداً هذه الطبقات الثلاث
ويدرك جيداً أحداث الحكمة وروح الشخصيات والأفكار والخصائص الفنية للقصة ،
بعد ذلك سيتضح أمامه المغزى الأخلاقى لكل قصة ، فكل قصة هى عالم كبير وعجيب
وغنى بحكمة الحياة ، فالقصة فى التوراة وسيلة من وسائل التلقين والتعليم
لأراء وعقائد وقيم أخلاقية ودينية ، وتربوية وقومية (٣) .

(١) בראשית 41: 16 .

(٢) מבוא כללי למקרא , עמ' 160 - 161 .

٣ . ٤ . آدر , הערכים החינוכיים של התנ"ך , עמ' 54 , תל-
אביב , תש"ד .

الفصل الثانى الخصائص المميزة للقصة فى التوراة

الخصائص اللغوية والأسلوبية :

هناك ثلاثة مستويات فى كل قصة :

- أ - مستوى اللغة : أى الكلمات والجمل التى تتركب منها القصة .
 - ب - مستوى الأحداث : أى عالم القصة من شخوص ووقائع ، التى تم عرضها بواسطة المستوى الأول .
 - ج - مستوى المعانى : أى المفاهيم والآراء والقيم التى جسدتها القصة ، وعبرت عنها أفعال الشخوص من قول وعمل ، وسير الأحداث بوجه عام (١) .
- ومن الواضح أن الأساس هو المستوى الأول ، فالكلمات هى المادة الخام التى صُنِعت منها القصة ، ومن خلال هذا المستوى الأول يُؤكد المستوى الثانى ثم ينبع منه المستوى الثالث . وفى الفصل السابق تحدثنا عن المستوى الثانى والثالث فى قصص التوراة ، وفى هذا الفصل نبحث المستوى الأول حيث ننظر إلى قصص التوراة كعمل منظم من أبنية وقوالب لغوية ، خلال الجمل والكلمات .
- وحيث إن أسلوب استخدام الكلمات يحدد طابع عالم القصة ونوعيتها شخوصها ، ويرتبط به فى نهاية الأمر كل المعانى المسجلة فى القصة ، لذلك كان لزاماً البحث فى الخصائص الأسلوبية لقصص التوراة .
- ومع أن هناك مفاهيم وتعريفات مختلفة بخصوص ماهية الأسلوب ، إلا أننا سنلتزم بالتعريف الدالى ، أى دراسة " معانى الكلمات " " Semantics " والذى وفقاً له لا ننظر للأسلوب منفصلاً عن المعنى ، فالأسلوب ذو قيمة تعبيرية ، فهو يثرى ويؤكد المعانى الجوهرية داخل العمل القصصى ... ولهذا لا بد من إلقاء الضوء على الظواهر الأسلوبية الشائعة فى قصص التوراة وذلك من خلال النماذج التالية :

(١) העיצוב האמנותי של הס'פור במקרא , עמ' 11.

١ - الجرس الصوتي :

بما أن جزءاً كبيراً من أدب التوراة كان في البداية أدب شفهي ، خُصص للاستماع بالأذن لا القراءة بالعين ، لذلك نفترض وجود علاقة بين الطبقة الصوتية للكلمات (١) والطبقة الدلالية لها (٢) .. ولكن ارتباط دلالة معينة بنغمة معينة يتطلب معرفة دقيقة بتلفظ تلك الكلمة ، وهو أمر من الصعب الوقوف عليه ، فنصوص التوراة كما هي موضوعة أمامنا اليوم بتشكيلها ونبراتها لا تعطينا صورة صادقة ودقيقة للغة العبرية كما سمعتها الأذن قبل أكثر من ١٥٠٠ سنة من عمل أصحاب الماسورا الذين قاموا بضبط وسلامة القراءة وحددوا الشكل النهائي للنصوص (٣) .

ولذلك نكتفي بالإشارة إلى أن أساليب التنقيط المختلفة والنسخ والترجمات القديمة بالإضافة إلى النصوص المكتوبة بخط اليد تلقى الضوء على أنماط مختلفة من الهجاء ، وتختلف عن بعضها البعض بشكل واضح ، وبذلك لا يمكن معرفة أي من هذه الأنماط أقرب للنطق الذي كان متبعاً في فترة التوراة .. وكذلك البحث المقارن في اللغات السامية لا يقدم إلا القليل من المساعدة في هذا الموضوع ، بالإضافة إلى عدم وحدة النطق في فترة التوراة لا من ناحية الزمن - لحدوث تغييرات في طريقة النطق - ولا من ناحية المكان - لوجود فوارق بين مناطق الأسباط - وعلى ضوء ذلك ، يبدو أنه من الأفضل الآن

(١) لضرورة البحث في الطبقة الصوتية للكلمات يجب التمييز بين النغمة، وتكرار النغمة ، فالنغمة في حد ذاتها قيمة تعبيرية حيث تحاكي الواقع مثل استعمال كلمات يحاكي جرسها الأصوات الطبيعية مثل البقبة - صوت صب الماء - والبرقة موت العصافير - أو قيمة رمزية حيث يعبر جرس الكلمة عن المشاعر أو الأفكار .
أنظر : *העיצוב האמנותי של הסיפור במקרא* , עמ' ١٤ .

(٢) على سبيل المثال الظلام الذي يتم التعبير عنه بحركتي القامص أو الفتحة كما في الكلمات : *זְלָמָה* ظلام دامس ، *לַיְלָה* ليل ، *לַיְלָה* ليل .
أنظر : *א.ל. שטרנאווס, בדרב' הספרות, עמ' ٦٦, ירושלים, תש"ל* .

(٣) *העיצוב האמנותי של הסיפור במקרא* , עמ' ١٤ .

التوقف عن محاولة تفسير دلالات أجراس الكلمات في قصص التوراة (١) .

٢ - تكرار الجرس الصوتي :

هناك أنواع مختلفة ومعروفة لتكرار الجرس الصوتي : منها الجناس والقافية ، ولكن المقصود هنا هو الظواهر الموضوعية التي يمكن معرفتها بدون الوقوف على النطق الدقيق للجرس الصوتي ، بالأخص عندما يكون الجرس المتكرر هو الحرف ، حيث يمكننا من استخلاص النتائج ، فأحياناً يأتي تكرار أجراس في كلمات مختلفة لكي يربط بين هذه الكلمات ويقيم جسراً بين معانيها ، فالعلاقات بين أجراس الكلمات تنشأ أو توجه الاهتمام إلى العلاقات المتوازية أو المتعارضة - بين المعاني . وسنحاول من خلال النماذج التالية إيضاح هذه الظاهرة :

٢ - الجناس من خلال قصة الخلق :

١ - " וַאֲדָם אֵין לַעֲבֹד אֶת-הָאֲדָמָה: וְאֵד נִשְׁלַח מִן-הָאָרֶץ וְהִשְׁקָה אֶת-כָּל-פְּנֵי הָאֲדָמָה: וַיִּדְר וְהָיָה אֱלֹהִים אֶת-הָאָדָם עֹבֵד מִן-הָאֲדָמָה (٤) "

- " وإنسان لم يزرع الأرض . ثم كان ضاب يطلع من الأرض ويسقى كل وجه الأرض .
وخلق الرب إله آدم تراباً من الأرض " .

٢ - וַהֲיוּ שְׂדֵיהֶם עֲרוּמִים הָאָדָם וְאִשְׁתּוֹ וְלֹא יָתַבְּשׁוּ: (٢)
וַהֲקִחַשׁ הָיָה עֲרוֹם מִכָּל תַּנַּח הַשָּׂדֶה (٤) .

- " وكانا كلاهما عريانين آدم وامراته وهما لا يخلجان . وكانت الحيّة أحييل
جميع حيوانات البرية " .

٣ - وفي قصة يعقوب وعيسو :

- (١) הַעֲצִיב הָאֲמִנוֹת' שֶׁל הַסִּפּוּר בַּמִּקְרָא , עַמ' ١٥ .
- (٢) בְּדֹאשִׁית ב, ٧-٢ .
- (٣) בְּדֹאשִׁית ב, ٦ .
- (٤) בְּדֹאשִׁית א, ٦ .

"וַיֹּאמֶר הִבֵּן קָרָא שְׁמוֹ יַעֲקֹב וַיַּעֲקֹבֵנִי עַתָּה כְּשֵׁמִים אֶחָד-בְּכִרְתִּי לָקַח וְהָיָה עִתָּהּ לָקַח בְּכִרְתִּי" (א)

- " וְכָל אֵלָּא אֵן אִסְמֵהּ דְּעֵי יַעֲקֹב . פִּקְדָּה תַעֲקִיבִי אֵלָּא מִרְתִּין . אֲחִיד בְּקוֹרִיתִי-וְהוּדָא אֵלָּא קִד אֲחִיד בְּרִכְתִּי .

4 - كذلك تعتمد على الجناس المسببات والعلل في إطلاق أسماء الأعلام كما نرى في تسمية يعقوب وأدوم :

(c)

" וְאַחֲרֵי-כֵן נִצָּח אֶחָיו וַיִּדּוּ אֶתְּהָא בְּעֵקֶב עֵשָׂי הִקְרָא שְׁמוֹ יַעֲקֹב " .

- " وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب " .

" וַיֹּאמֶר עֵשָׂי אֶל-יַעֲקֹב הֲלִישׁוּבִי נָא מִן-

הָאָדָם הָאָדָם הַזֶּה כִּי עָנָף אֲנִי עַל-בֶּן קִרְאָה-שְׁמוֹ אָדָם" (2) .

5 - " וְכָל עֵיסוֹ לִיעֲקֹב אֲטַעְמֵנִי מִן הַזֶּה הָאָדָם לֹאֵנִי קִד אַעֲיִיב . לְכֵן דְּעֵי-לְכָל דְּעֵי-אִסְמֵהּ אָדָם " .

5 - تكرار الحرف :

- في قمة الخلق :

(4)

" בְּרֵאשִׁית בְּרֵא אֱלֹהִים " .

- " في البدء خلق الله .. " .

6 - تكرار الحركة :

- في قمة الخلق :

(5)

" וְהָאָדָם הָיָה תְּהוֹ / בְּהוֹ " .

- " والأرض كانت خربة وخالية " .

(1) בְּרֵאשִׁית בְּרֵא, לו .

(2) בְּרֵאשִׁית כֵּה, כו .

(3) בְּרֵאשִׁית כֵּה, לו .

(4) בְּרֵאשִׁית א, א .

(5) בְּרֵאשִׁית א, ב .

ב - الإيقاع : (1)

في نهاية قصص إبراهيم تأتي الجمل ساكنة وموزونة ، لكي تعبر عن
الطمأنينة والسكينة ولذلك نحس ببطء الإيقاع : "

ואברהם וזון בא בזמנים ויהיה בדרך את-אברהם בכל: " (2) -
وشاخ ابراهيم وتقدم في العمر وبارك الرب ابراهيم في كل شيء " .

وفي قمة "العبد ورفقة " نجد الجمل مركبة وسريعة الحركة حتى يسرع
الإيقاع ليعبر عن التوتر والتحفز : "

ואבא היום אל-העין ואמר והנה אלהי אדני אברהם אם-
נשק-נא מצלית דרכי אשר אנכי הלך עליה: הנה אנכי
נצב על-עין הנגה והנה העלמה הוצאת לשאב ואמרתי
אליה השקני-נא מעט-מים מפה: ואמרה אלי גם-אתה
שמה וגם לנמליך אשראב הוא האשה אשר-הכים והנה
לכן-אדני: (3)

" أيها الرب إله سيدي إبراهيم إن كنت تنجح طريقى الذى أنا سالك
فيه . فها أنا واقف على عين الماء وليكن أن الفتاة التى تخرج لتستقي
وأقول لها اسقيني قليل ماء من جرتك . فتقول لى اشرب أنت وأنا استقي
لجمالك . هى المرأة التى عينها الرب لابن سيدي " .

(1) وتزداد صعوبة البحث في إيقاع النثر القصصى فى التوراة ، حيث أننا
لا نعرف بدقة طول المقاطع ودرجتها الصوتية ونبرتها فى النطق الذى كان
متبعاً فى فترة التوراة ، ولذلك سنكتفى فى بحثنا فيما يتعلق بطول وقصر
الجمل فى قصص التوراة لأنه لا يتطلب معرفة دقيقة بموضع النبر، بالإضافة
إلى أن طول أو قصر الجمل يحدد شكل الأسلوب وهو ما أطلق عليه "شراوس"
الديناميكية (الحركة) والاستاتيكية (عدم الحركة) .
انظر : *עדרפי הספרות* , *למד' 46-47* .

(2) *בראשית כד, א.*
(3) *בראשית כד, מב-מד.*

٣ - دلالة الكلمة :

١ - في قصة " هاجر " أكد لها المَلِك أنها ستلد ابناً ، وهو سيكون
 " **פלא אדם ידו בכל ויד פל עז** " (١) - انساناً وحشياً
 يده على كل واحد ويد كل واحد عليه .

نجد أن التعبير " **פלא אדם** " - إنسان وحش " في الاستخدام
 اللغوي اليوم يدل على إنسان عديم الحضارة والتربية ، همجي في سلوكه ،
 لكن المَلِك لم يقصد ذلك ، فقد جاء لتشجيع هاجر ، وتبشيرها بأن ابنها الذي
 ستلده سيكون متحرراً ، كابناء تلك الأسباط الصحراوية ، الذين لا يخضعون
 لقيود قواعد الاستيطان (٢) .

ب - في قصة فقد رفقة لبكارتها المعروفة باسم : " **ותפל מעל**
הגמל " (٣) تسرد القصة حكاية " رفقة " التي تنتقل من " حاران "
 إلى فلسطين مع " اليعازر " ثم " **ותשא דבקה את עניה ותדא את**
זחק ותפל מעל הגמל " (٤) - ورفعت رفقة عينيها فـ
 إسحاق فوقعت عن الجمل - وبهذا السقوط - كما ذكرت القصة - فقدت رفقة
 بكارتها وأصبحت : " **מופת לא** " (٥) - " وأدخلها إسحاق إلى خيمة
 سارة أمه وأخذ رفقة فصار له زوجة وأحبها " (٦) .

ومن خلال هذه القصة هناك بعض المفردات والتعبيرات اللغوية ذات الدلالات

- (١) **בדאשית טז, ב.**
- (٢) **העיצוב האמנותי של הספור במקרא , למ' ١٨ .**
- (٣) **בדאשית כד, כד .**
- (٤) **בדאשית כד, כד .**
- (٥) وهو تعبير فني قضائي يطلق على الفتاة التي فقدت بكارتها في حادث ،
 ولذلك تتزوج كما لو كانت بكارتها معها .
- انظر : **יאיר זקוביץ ואביגדור שנאן : 'ותפל מעל הגמל'**
הספרות מס' ٢٩ , למ' ١٥٤ , דצמבר , ١٩٦٩ .
- (٦) التكوين ٦٧/٢٤ .

المتعددة فى قصص التوراة ، والتي يبدو أنها تحمل شحنات جنسية بارزة فى فكر التوراة نفسه أو فى الفكر الشعبى اليهودى :

- **בתולה** : عذراء

لقد أكد القاص بكارة رفقة بلغة مزوجة : " **בתולה ואיש לא ידלה** " (١) - عذراء ولم يعرفها رجل - والقاص يمهّد هنا إلى إشارة قضية جنسية تتعلق برفقة ستتضح مع استمرار القصة (٢) .

- **נזם וצמידים** : قرط وأساور :

أعطى عبد إبراهيم رفقة : " **נזם זהב ושני צמידים** " (٣) - قرط ذهب وسوارين - ويحمل ذكر القرط فى التوراة شحنة جنسية بارزة ، فهارون بعد موافقته على صنع العجل لبنى إسرائيل طلب منهم : " **פרקו נזמי הזהב אשר באזני רשיכם** " (٤) - انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم - وقبل صنع العجل من الأقراط الذهبية قام بنسج إسرائيل باللعب ، وهو عمل فيه إحياء جنسى بارز (٥) .

(١) **בגדאשית כד, ٢٥** .

(٢) فى العهد القديم كله لم يذكر القاص حقيقة كون المرأة عذراء ، إلا فى قصتين أخرتين ، يحتل فيهما الجنس مكاناً بارزاً : فى قصة " فيلجاش فى جبعة " والذي اقترح فيها الفيف تقديم ابنته العذراء لرجال المدينة الذين يحاصرون منزله . (راجع القضاة ١٩ : ٢٤) ، والقصة التى تشكل أساساً لقصة فيلجاش فى جبعة ، هى قصة بنات لوط فى سدوم (راجع التكوين ١٩) ولكن فى هذه القصة لم يذكر القاص كلمة " **בתולה** : عذراء " ، وبدلاً منها ذكر عن بنات لوط " **אנשר לא ידלא איש** " - لم تعرفا رجلاً " . والقصة الثانية هى قصة " آمنون وشامار " التى هى فى جوهرها قصة اغتصاب ، وفيها تقدم شامار من بداية القصة على أنها " **בתולה** عذراء " (راجع صموئيل الثانى ٢ : ١٣) .

انظر : **איך זקוביץ ואביגדוד שנאן** , **ותפל מעל הגמל, למ' ١٥٤** .
(٢) **בגדאשית כד, כב** .
(٤) **שמואל ב: ١٢** .

(٥) انظر التكوين ٢٦ : ٨ ، ٢٩ : ١٧ .

أيضاً الأسورة بدون ارتباط بالقرط ، جاءت فى المقرأ فى سياقات جنسية بارزة : انظر العدد ٥٠ : ٣١ ، حزقيال ١١ : ١٢ ، ٤٣ : ٢٢ - ٤٤ .

- **בשר :**

إن لقاء العبد ورفقة بجوار البئر من شأنه الإشارة إلى العلاقة بين العبد والمرأة التي تقوم بسقيه من ماء البئر . وقد اسهب "יעקב נאכט" یعقوب נאכט (1) في الايحاءات الجنسية التي تحملها كلمة البئر ، وقد استند في ذلك على نصوص مقراية مثل : " **נשתה מים מבורך ונוזלים מתוך בארך** " - **אשר מיהא מן جبك ومياهاً جارية من بئرک** " ومثل : " **כ' שוחה עמוקה זונה , ובאר צדה נכריה** " (2) - **ان الزانية هوة عميقة ، والأجنبية بئر ضيق** " .

- **שדה חقل :**

الحقل الذي شهد اللقاء بين إسحاق ورفقة في هذه القصة ، قد شهد جرائم مختلفة في التوراة (4) ، وارتكبت فيه جرائم جنسية ، مثل الاغتصاب : " **ואם בשדה ימצא האיש את הנערה המאורשה והחזיק בה האיש ושכב עמה... ולנערה לא תעשה דבר... כי בשדה מצאה , צעקה הנערה המאורשה ואין מושיע לה** " (5) - إن وجد الرجل الفتاة المخطوبة في الحقل وأمسكها الرجل واضطج معها .. وأما الفتاة فلا تفعل بها شيئاً .. لأنه في الحقل وجدها فصرخت الفتاة المخطوبة فلم يوجد منقذاً لها " .

- **זמין : خمار :**

ما ذكر عن رفقة في القمة لرفع مكانتها أمام زوجها في المستقبل : **ותקח הצעף ותתכס** (6) - **فأخذت البرقع وتغطت** " ، قد

-
- (1) **יעקב נאכט , סמלי אשה . ועד תלמידיו וחניכיו של המחבר , עמ' מד-מה , ת"א , תשי"ט .**
 (2) **משלי ה , טו .**
 (3) **משלי כג , כז .**
 (4) **راجع التكوين 4 : 8 ; صموئيل الثاني 14 : 6 .**
 (5) **דברים כב , כה - כז .**
 (6) **בראשית כז , כו .**

ذكر أيضاً في التوراة عن شخصية أخرى ، عن " شامار " : **וְהָיָה שָׁמַר** (١) - وتغطت ببرقع - ولكن على عكس تام لمقصد الكلمة في قصة " رفقة " ، "شامار" فعلت ذلك لإشارة انطباع الرضا ، وقد وقف حكماء التلمود على القرابة بين القصتين فقالوا : " اشتان تغطتا بالبرقع ، وولدتا توأمين : رفقة وشامار " ، ولا مجال للافتراض أن خط التشابه هذا من شأنه ألا يطرح محاولات الربط بين القصتين ، حيث لم ترد كلمة " **כָּלָה** " خمار " في التوراة إلا في هاتين القصتين فقط (٢) .

٤ - الترادف :

هناك استخدامات مختلفة للمترادفات في قصص التوراة ، وفقاً لنوعية العلاقة بين المعنى الحرفي للكلمة ومعناها المستعار ، كما يبرز ذلك من خلال هذه الاستخدامات :

أ - الإطار الخارجي يعرض المضمون الداخلي : في قصة الطوفان :
" וַתִּשְׁחַת הָאָדָמָה לִפְנֵי הָאֱלֹהִים וַתִּמְלֹא הָאָרֶץ חָמָשׁ (٣) "
 - وفسدت الأرض أمام الله وامتلات الأرض ظلماً .

ب - المصدر يعرض النتائج : في قصة خروج آدم من جنة عدن : (٤)
אֲדֹמָה הָאֲדָמָה בַּעֲבוּרָךְ בַּעֲצֹבֹךָ תֹּאכֹלָנָה כָּל יְמֵי חַיֶּיךָ "
 - ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تاكل منها كل أيام حياتك - أي من محصول الأرض .

ج - الوسيلة ترمز إلى الهدف : في قصة برج بابل : **" וַיְהִי כֹל הָאָדָם שֹׁפֵה אֶחָד (٥) "** - وكانت الأرض كلها لساناً واحداً .

-
- (١) בדאשית לח, יד.
 - (٢) 'איר זקוביץ ואב'גדור שנאן, ותפל מעל הגמל, עמ' ١٥٧.
 - (٣) בדאשית ו', א.
 - (٤) בדאשית ג', ז.
 - (٥) בדאשית א', א.

- د - الفعل حل محل النتيجة : في قصة إسحاق مع ولديه : " ו'אקב -
 'צחק את לשו כ' ז'ד בפ' (١١)
 - فاحب إسحق عيسو -
 لان في لمة صيدا - أى المقمود الحيوان الذى اصطاده .
- ه - علاقة فرعية خارجية تعرض ماهية الشيء : في قصة الخروج من جنة
 عدن : " בזאת אפ'ך תאכל לחם " (٩)
 - بعهق -
 وجهك تاكل خيرا " - أى بالعمل القاسى .

٥ - الاستعارة :

هناك أيضاً بعض الاستعارات فى قصص التوراة ، وبصورة خاصة فى حديث
 الشخصيات ، مثل :

- أ - قصة قايين وهابيل : " קול דמי אח'ך לעקים אלי " (٢)
 - صوت دم أخيك صارخ إلى من إرض " .
 ب - فى قصة برج بابل : " לבנה לנו עיר ומגדל וראשו בשמים " (٤)
 - نبني لنا مدينة وبرجاً رأسه بالسما " .
 ج - فى قصة موسى وقورح ، يقول موسى : " ופצתה האדמה את
 פיה ובלעה אותם " (٥) - وفتحت الأرض فاهها وابتلعتهم .

٦ - التشبيه :

وهى مثل الاستعارة توجد أيضاً فى قصص التوراة ، وأحياناً يأتى معها
 أسلوب المبالغة وفى هذه الحالة تقوم التشبيهات ، بالإضافة الى وظيفتها ،
 بالتعزيز والتقوية مثل :

- (١) פראשית כד , כח .
 (٢) פראשית ג , ט .
 (٣) פראשית ד , י .
 (٤) פראשית א , ד .
 (٥) פראשית טז , ל .

١ - فى قصة إبراهيم والذبيح قال له مَلِكُ الرب : "

כִּי־בָרַךְ אֱבְרָהָם וְהִרְבָּה אֲרֻכָּה אֶת־יָוֶקֶן בְּבִזְבְּגֵי הַשָּׁמַיִם
וּבְחֹלֹל אֲשֶׁר עַל־שִׁפְתֵי הָאֵם " (١) - أبارك مبارك وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم
السماء وكالرمل الذى على شاطئ البحر .

ب - فى قصة موسى وهارون ، وبعد أن تحدث هارون ومريم عن موسى وغضب
الرب عليهما " וְהָרָה מַדִּים מִצִּרְעֹת כְּשֶׁלֶג (٢) - وإذا مريم برصاء
كالثلج " .

٧ - التكرار :

إن تكرار الكلمة أو جذرها هو ظاهرة أسلوبية شائعة فى قصص التوراة ،
وهناك أنواع مختلفة لهذا التكرار ، وفقاً لموضعه فى القصة أو للوظائف
التي يقوم بها .

٢ - الازدواجية :

أى تتكرر الكلمة نفسها مرات متوالية ، ويحدث فى الغالب للتعبير عن
حالة عاطفية خاصة مثلما نجد فى قصة إبراهيم : " וְהָקְרָא אֱלֹהֵי מִלְאָךְ
וְהִנֵּה לִבְנֵי הַשָּׁמַיִם נִאֶמְרָ אֲבָרָהָם אֲבָרָהָם " (٣) - فناداه ملك الرب من
السماء وقال إبراهيم إبراهيم .

وفى قصة يعقوب وعيسو : " הֲלֹעֵיטָה נֶאֱמַן הָאָדָם הָאֵדוֹם
הַזֶּה " (٤) - أطمعنى من هذا الأحمر الأحمر .

ب - كلمة مكررة مرشدة :

" وهى كلمة أو جذر لغوى يتكرر داخل القصة أو مجموعة قصصية تكررأ

- (١) בְּרָאשִׁית כב , ٢٠ .
- (٢) בְּרָאשִׁית יב , ١٤ .
- (٣) בְּרָאשִׁית יב , ١٤ .
- (٤) בְּרָאשִׁית כה , ١٤ .

متعدد الدلالات " (١) ، وبحيث تتضح دلالة واحدة في القصة أو يتم كشفها أمام القارئ عن طريق هذا التكرار (٢).

في قصة " قايين وهابيل " تتكرر كلمة " אָח ، أخ " بإضافات مختلفة " אָח ' ، أخى " - " אָחִיךָ أخيك " - " אָחִיו أخيه " - وهى كلمة شائعة في التوراة ، حيث وردت سبع مرات في العهد القديم كله ، منها ست مرات في قصة قايين وهابيل ، أى تكررت بكثافة كبيرة في قصة واحدة ، في مقابلها يتكرر التعبير " לָךְ לָךְ اذهب " وهو نادر جداً في العهد القديم (٣) ، حيث جاء مرة واحدة في بداية قصص إبراهيم : " לָךְ לָךְ מֵאֲדָמָךְ וּמִמּוֹלַדְתְּךָ וּמִבֵּית־אֲבִיךָ " (٤) - اذهب من أرضك ومن موطنك ومن بيت أبيك -

فالكلمة المرشدة كما يقول " بوبر " توجد علاقة بين مراحل القصة المختلفة ، وهذه العلاقة تكشف مباشرة جوهر ما تم سرده من القصة ، بالإضافة الى أنها تكشف دلالة القصة ، ومكمنها ، وهى تفعل ذلك بدون المساس بالشكل الفني للقصة (٥) .

فالكلمة المرشدة " אָח ، أخ " في قصة " قايين وهابيل " رمزت إلى الأمر المخيف والخطير في القصة كلها وهو قتل الأخ ، وحيث أن كل البشر وفقاً لمفهوم التوراة هم ذرية زوج من الناس فإن بنى آدم كلهم إخوة ، كما قيل : " וּמִיֵּד הָאָדָם מִיֵּד אִישׁ אָחִיו אֲדָרָשׁ אֶת רִפְשׁ הָאָדָם " (٦) - ومن يد الإنسان أطلب نفس الإنسان - من يد الإنسان أخيه " - أى أن أى قتل

(١) דָּרְפוֹ שֶׁל מִקְרָא ، עמ' 284 .

(٢) נֶשֶׁם נֶשֶׁם ، עמ' 284 .

(٣) بالإضافة إلى ذلك جاء بصيغة المخاطبة في نشيد الأنشيد ٢ : ١٠ ، ١٣ : " לָכֵךְ לָךְ " اذهبى ...

(٤) בְּרַאשִׁית י"ב ، א . דָּרְפוֹ שֶׁל מִקְרָא ، עמ' 285 .

(٥) בְּרַאשִׁית ט"ה .

هو بمشابة قتل أخ ، أما لغة יָדָה יָדָה فقد جاءت لتربط بين قصتي إبراهيم - قصته في بداية الدعوة في أول طريقه باقتلاع نفسه من أرضه ، ومن موطنه - ومن بيت أبيه ، والذهاب وفقاً للأمر الإلهي إلى أرض غير معروفة له : " إلى الأرض التي أريك " ، ثم قصته في ختام دعوته ، وهي الدعوة الصعبة ، حيث يؤمر بالذهاب إلى أرض المورية ، وأن يقرب ابنه وحيدته هناك . وهكذا يرمز التعبير " יָדָה יָדָה " إلى أن كل حياة إبراهيم تختتم وتتركز في هاتين الدعوتين ، وباجتيازه لها أثبت بمسيرة عملية عظمتها الدينية وعقيدته الراسخة ، وأصبح بذلك قدوة وأ نموذجاً للقادمين بعده من الرسل والأنبياء (١) .

وهذه الكلمات المتكررة تكون مفتاحاً لفهم القصة أو القصص التي تكررت فيها ، ففي قصص يعقوب ، تقصّ التوراة عن صراع دار بين يعقوب ، ورجل غامض - غير مستعد للكشف عن اسمه - ثم عن لقاء آخر في اليوم التالي للصراع ، بين يعقوب وأخيه عيسو - في اللقاء الأول طلب يعقوب من الرجل أن يباركه بعد تغييره لاسمه " يعقوب " - الذي يحمل دلالة ثانوية للتعقب والمكر - إلى اسم " إسرائيل " - الذي يحمل دلالة ثانوية للسيطرة والنفوذ - يتضح إذاً أن يعقوب هو " رجل الله " ، لكن مع مواصلة السرد ، وفي اللقاء مع عيسو ، يقول

يعقوب لأخيه : " אֲנִי-נָא מִצְאָתִי הֵן בְּעֵינֶיךָ וְלִקְחָתָם מִנִּי
מִיָּדִי כִּי עַל-כֵּן רָאִיתִי פָנֶיךָ בְּרָצָתָ כִּי אֱלֹהִים וְתַרְגְּמִי (٢) - إن وجدت
استحساناً عندك تأخذ هديتي من يدي . لأنني رأيت وجهك كما يرى وجه الله فرضيت
عليّ " . وفي اللقاء الأول وبعد صراع يعقوب مع الرجل ، أطلق يعقوب على
المكان اسم " פְּנֵי אֱלֹהִים " أي وجه الله " وقال : " כִּי רָאִיתִי
אֱלֹהִים פְּנֵים אֶל פְּנֵים וְתַרְגְּלָהּ רַפְשִׁי " (٣) - لأنني رأيت الله وجهاً لوجه
وأنقذت نفسي " .

(١) העיצוב האמנותי של הסיפור במקרא , עמ' 23 .

(٢) בדאשית לג , י .

(٣) בדאשית לג , ג .

من تكرار الكلماء : " ראה " رأى " ، " פנים " وجهه " ،
 " אלהים " الله " يتضح لنا أنها استخدمت مفتاحاً لفهم القصتين (١) .

- فى قصة يوسف وإخوته ، يقدم الإخوة قميص يوسف إلى أبيهم ويقولون
 له : " הכר נא הפתונת בנך היא אם לא " (٢) - تحقق
 أقميص ابنك هو أم لا " - وفى قصة يهوذا - صاحب اقتراح بيع يوسف - وشامار
 تقول شامار ليهوذا : " הכר נא למי החותמת " (٣) - تحقق لمن
 الخاتم - إذاً تكرار التعبير " הכר נא " - تحقق " يربط عمل الأبطال
 فى القصتين بعلاقة السبب والمسبب أى بمبدأ العين بالعين ، والسن بالسن (٤) .
 والكلمات المتكررة تربط أحياناً بين الوحدات القصصية أو مشاهد
 مختلفة فى قصة طويلة ، وفى قصة يوسف وإخوته ترتبط المشاهد بواسطة رداء
 يوسف ، فقميصه الحرير الذى ينفرد بردائه يرمز إلى إيثار والده له ، ثم إلى
 براءته ، ثم إلى مكانته المرموقة فى بلاط فرعون ، فالإخوة ينزعون قميصه
 تعبيراً عن حسدهم وانتقامهم ، أما زوجة فوطيفار فهى تمسك برداء يوسف ،
 وهنا يرمز الرداء إلى براءته ؛ وبذلك يرمز الرداء فى كل مشهد إلى نقطة
 تحول هامة فى حياة يوسف ، فى قصته مع فوطيفار تتكرر كلمة " תלבוש " ثوب " שבת
 ست مرات - ونلاحظ ارتباطها وكلمة " תלבושת " خيانة " - حيث تؤكد صدق
 يوسف ، وعند دعوة فرعون له يبدل ثوبه ، وعندما عُيّن وزيراً ارتدى
 " בגדי נש " ثياب من الحرير الأبيض (٥) ، أى أن كل مرحلة من مراحل
 حياة يوسف ارتبطت عنده بهذا القميص (٦) .

(١) העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' 24 .

(٢) בראשית לז, לב .

(٣) בראשית לח, כה .

(٤) מבוא פללי למקרא , עמ' 164 .

(٥) راجع التكوين ٤١ : ٤٢ .

(٦) מבוא פללי למקרא , עמ' 165 .

- بعد دعوة يوسف لتفسير أحلام فرعون ، قال له يوسف : " בְּלַעֲדִי
אלהים יענה את נשואים פרעה⁽¹⁾ בדוני . אלה יגיב
 سلامة فرعون . ثم يقول له : " את אשר אלהים עושה הגיד
לפרעה " (2) - قد أخبر الله فرعون بما هو صانع . ثم يؤكد :
 " הקוא הדבר אשר דברתי אל פרעה אשר האלהים עושה הראה
את פרעה " (3) - هو الأمر الذي كلمت به فرعون . قد أظهر الله لفرعون
 ما هو صانع .. " פי נכון הדבר מעם האלהים וממהר האל-
הים לעשות " (4) - لم الأمر مقرر من قبل الله ، والله مسرع ليصنعه . هنا
 يكرر يوسف هذه الكلمات التوجيهية :
 الله ، الله صانع " لكي يلفت اهتمام فرعون إلى أن الله هو الذي أظهر
 له أحلامه وهو مفسرها ومحققها أيضاً (5) .

8 - تركيب الجملة :

1 - تركيب الجملة في قصص التوراة يمكن أن يضيف تعبيراً بلاغياً
 جديداً في القمة ، حيث يقدم القاص تركيباً بنائياً للجملة يشير إلى هدف
 الشخصية المتحدثة بدون أي توضيح إضافي من قبل القاص ، وهناك نماذج كثيرة
 في قصص التوراة تشتمل جملها ذات البناء التركيبي على تعبيرات بلاغية
 تشير إلى أمر أو استفهام : (6)

- في قصة إبراهيم والملائكة : " וַיַּמְהַר אַבְרָהָם הָאֵהָלָה אֶל-
שְׂרָה וַיֹּאמֶר] מהרי שלש סאים קמח סלת לוש' ועש' עיגות " (7) -

- (1) בדאשית מא, טז.
- (2) בדאשית מא, כה.
- (3) בדאשית מא, כח.
- (4) בדאשית מא, לב.
- (5) מבוא פללי למקרא , עמ' 164.
- (6) גלוריה ש"נ טור ועוזיאל מאל , לקראת ניתוח אילוקוציוני
 של השיחה בספור המקרא : עמ' 27 , הספרות , מס' 30-31
- (7) אפריל 1981 .
 בדאשית יח, ו.

- " (فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال) أسرع بثلاث كيلات ممن
الدقيق السميد اعجنى واصنعي خبز ملة " . أسلوب إنشائي غرضه البلاغى الأمر .
- فى قصة إسحاق : (וַתֵּלֶד אֵלֶיזָבֶת בֶּן־יִשְׂחָק אֱלֹהֵי יִשְׂרָאֵל) (وظهر له الرب وقال) لا تنزل إلى مصر .
اسكن فى الأرض التى أقول لك " . هنا نجد أن أمر الرب لإسحاق تم التعبير عنه
بجملة أمر منفية (אַל) بمعنى لا + فعل فى زمن الاستقبال مسند إلى
ضمير الخطاب (אַתָּה) وفعل أمر للمخاطب : " נִשְׁכַּח " اسكن " .

- وفى قصة رفقة والعبد :
(וַתֵּלֶד אֵלֶיזָבֶת בֶּן־יִשְׂחָק אֱלֹהֵי יִשְׂרָאֵל) (وظهر له الرب وقال) لا تنزل إلى مصر .
اسكن فى الأرض التى أقول لك " . هنا نجد أن أمر الرب لإسحاق تم التعبير عنه
بجملة أمر منفية (אַל) بمعنى لا + فعل فى زمن الاستقبال مسند إلى
ضمير الخطاب (אַתָּה) وفعل أمر للمخاطب : " נִשְׁכַּח " اسكن " .

- وفى قصة إسحاق مع ولديه :
(וַתֵּלֶד אֵלֶיזָבֶת בֶּן־יִשְׂחָק אֱלֹהֵי יִשְׂרָאֵל) (وظهر له الرب وقال) لا تنزل إلى مصر .
اسكن فى الأرض التى أقول لك " . هنا نجد أن أمر الرب لإسحاق تم التعبير عنه
بجملة أمر منفية (אַל) بمعنى لا + فعل فى زمن الاستقبال مسند إلى
ضمير الخطاب (אַתָּה) وفعل أمر للمخاطب : " נִשְׁכַּח " اسكن " .

- وفى قصة إسحاق مع ولديه :
(וַתֵּלֶד אֵלֶיזָבֶת בֶּן־יִשְׂחָק אֱלֹהֵי יִשְׂרָאֵל) (وظهر له الرب وقال) لا تنزل إلى مصر .
اسكن فى الأرض التى أقول لك " . هنا نجد أن أمر الرب لإسحاق تم التعبير عنه
بجملة أمر منفية (אַל) بمعنى لا + فعل فى زمن الاستقبال مسند إلى
ضمير الخطاب (אַתָּה) وفعل أمر للمخاطب : " נִשְׁכַּח " اسكن " .

- (١) בראשית כו, ב.
- (٢) בראשית כד, סה.
- (٣) בראשית כז, כ.

- فی قصة یعقوب مع الرعاة : " (וַאֲמַר לָהֶם יַעֲקֹב) אֲחִי מַעֲיֵן אַתֶּם (וַאֲמַר)

מִדָּבָר אֲנִי) (וַאֲמַר לָהֶם) הִנֵּדעֶתֶם אֶת־לִבְּךָ בֶּן־נָחוֹר

(וַאֲמַר) יָדַעְנוּ: (וַאֲמַר לָהֶם) הִשְׁלֹם לוֹ (וַאֲמַר) שְׁלֹם וְהִנֵּה

רָחֵל בָּתּוֹ בָּאָה עִם־הַצֹּאן: " (1) - (וְכָל לֵהֶם יַעֲקֹב):

یا אחوتی من این انتم . (فقالوا) : نحن من حاران . (فقال لهم) : هل

تعرفون لابان بن ناحور . (فقالوا) : نعرفه . (فقال لهم) : هل له

سلامة ؟ . (فقالوا) : له سلامة . وهذا راحيل ابنته آتية مع الغنم .

هذه السلسلة من الاسئلة تتطلب معلومات ، ويتقدم كل سؤال منها أداة

الاستفهام " / 72 / ، من أين " أو " هاء الاستفهامية 71 ، " ، ويجب

الرعاة بمعلومات وفقاً للسئلة ، ولكنهم يضيفون بعد إجابتهم الثالثة معلومة

لم يسأل عنها وهي : " وهذا راحيل . . " (2) .

ب - وهناك حالات في قصص التوراة لا يعكس فيها البناء التركيبي للجملة

هدف المتحدث مباشرة ، ففي قصة " ضربات مصر " ، وبعد أن عانى المصريون

من الضربات السبع الأولى ، وعلموا تهديد " موسى " بالضربة الثامنة ، ضربة

الجراد قالوا لفرعون : " (וַאֲמַרְוּ עֲבָדֵי פַרְעֹה) אֱלֹהֵי עַד־מִתִּי יִהְיֶה נֶחֱמָה

לָנוּ לְמוֹקֵשׁ שֶׁלַח אֶת־הָאֲנָשִׁים וְנַעֲבְדוּ אֶת־יְהוָה אֱלֹהֵינוּ

הַטָּרֶם חֲדָע כִּי אֶבְרָהָ מִצְרַיִם: " (2) - (فقال عبيد

فرعون له) : إلى متى يكون لنا هذا فخاً . اطلق الرجال ليعبدوا الرب إلههم .

ألم تعلم بعد أن مصر قد خربت - هذه الكلمات تكون ثلاث جمل جاء بناؤها

التركيبي على النحو التالي :

(1) سؤال يبدأ بأداة استفهام : " לָדָב כִּמְתִי ' إلى متى " ؟

(1) בראשית כט, ד-1.

(2) לקראת פתוח אילוציות של השיחה בס' פור המקראי

עמ' 72.

(3) שמות ' 2.

(ب) جملة طلبية : **שָׁלַח אֶת הָאֲנָשִׁים** • أطلق الرجال ••

(ج) سؤال آخر يبدأ بهاء الاستفهامية التي تفيد الاستنكار •

إن معرفتنا بظروف المصريين ، تمكننا من الفهم أنه في هذين السؤالين لا يطلب عبید فرعون معلومات منه ، وبذلك لا يحصلون على إجابات عليهمها ، وإنما تعبّر الأسئلة عن شكوى العبيد على الوضع القائم ، ولهذا يقترحون على فرعون - بأن يستجيب لطلب الرجال ويطلقهم ، السؤالان إذاً من نوع الأسئلة ذات التأثير الخطابى البلاغى ، فهذهما ليس السؤال ، بل التعبير عن مضمون خطابى آخر بصورة غير مباشرة • إن هدف السؤال الثانى هو تدعيم الاقتراح باطلاق الرجال بانتقاد فرعون لموقفه الذى يتجاهل حقيقة " خراب مصر " ، ومع هذا فإن السؤالين يتضمنان تساؤلاً صادقاً : حيث يطلبون فى السؤال الاول معرفة ميعاد انتهاء معاناتهم ، وفى السؤال الثانى يطلبون التوضيح : هل فرعون يعلم بخراب مصر (١) •

ج - البناء المعقوف أو العكس للجملة :

يعتبر البناء المعقوف للجملة " **הַפִּי'אֵם** " (٢) أحد الظواهر الاسلوبية البارزة فى قصص التوراة ، وقد عرّفه " سيجل " (٣) بقوله :

(١) **לְקִרְאת נְתוּחַ אֵילֻקְצִיּוֹת שֶׁל הַשִּׁיחָה בַּשִּׁפּוֹר הַמִּקְרָא עַמ' 74.**

(٢) الاسم "معقوف أو صليبي" مأخوذ من شكل الحرف اللاتينى وقد أطلقه الباحثون على بناء أدبى يتلائم مع رسمه

٢	٢	٢	١	١	١
٢	٢	٢	١	١	١

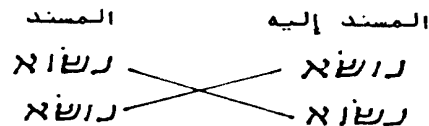
 ومثال لهذا البناء الأدبى نجده فى فقرة التكوين ٩: ٦ : **שָׁפַךְ דָּם הָאָדָם בָּאָדָם** **דָּמוֹ שִׁפַּךְ** : سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه " • وقد أثبت الباحث السويدي " لوند " فى بحثين شاملين أن هذا المبدأ الشكلى يحدد فى العهد القديم بناء وحدات أدبية كاملة ، وقد قدم نماذج عديدة أظهرت مرونة هذا البناء الشكلى الذى يعطى للكاتب حرية كبيرة فى طرق التطبيق • أنظر :

- N.W. Lund: The presence of chiasmus in the old testament, pp. 104-126. AJSL. 46.1930.

- N.W. Lund: Idem chiasmus in the Islams pp. 281-312. AJSL. 49.

(٣) م. ص. س. ج. : **מבוא המקרא . ספר ראשון . עמ' 58**
הדפסה תש"ע . הוצאת קרית-ספר . ירושלים
תשל"ז

هو ترتيب عناصر الجملة في الجزء الثاني على عكس الترتيب في الجزء الأول :



وبالإضافة إلى ما ذكره " سيجل " فإن هناك أكثر من تبادل ترتيب الفاعل

والمفعول ، فمثلاً في قصة الطوفان : " (١)

" וַיֵּרָא אֱלֹהִים אֶת-הָאָרֶץ וְהִנֵּה נִשְׁחָתָה כִּי-הִשְׁחִית כָּל-בָּשָׂר אֶת-דְּרָכָו עַל-הָאָרֶץ:"

ورأى الله الأرض فاذا هي فسدت . إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض .

وهكذا لا ينطبق تعريف " سيجل " على هذه الجملة فمن تحليلها البنائي يتضح :

ورغم أنه لا يتطابق وتعريف " سيجل " فإنه بناء معقوف ، فالكلمات

العملية في الفقرة السابقة هي " נִשְׂחָתָה - הִשְׁחִית " وبهما

تنطوي فكرة الجزاء والعقاب ، وصاع بصاع ، وقد تم وضعهما في وسط الفقرة ،

كما لو كانا في قمتها ، ولذا فالبناء المعقوف ليس ظاهرة تركيبية في

الجملة القصصية ، أو زخرفة أسلوبية ، بل هو وسيلة لإبراز الفكرة الرئيسية

التي وضعت في وسط الوحدة الأدبية ، ولذلك فهو تكتيك فني يقوم على تعديل

الإيقاع والبناء القممي السلمي ، ومثال لهذا البناء المعقوف ما نجده في

قصص سفر التكوين : - " וַאֲבֹרָכָה מְבָרְכְךָ וּמְקַלֵּלְךָ אָאֵד " (٢)

- وأبارك مباركك ، ولعنك لعنه " .

- " וַיֹּשַׁע יְהוָה אֶל הַבֶּל וְאֶל מְנַחֲתוֹ וְאֶל קִין וּמְנַחֲתוֹ לֹא שָׁעָה " (٣)

- ونظر الرب إلى هابيل وقربانه ، وإلى قايين وقربانه لم ينظر .

(١) בְּרֵאשִׁית ו', ג'.

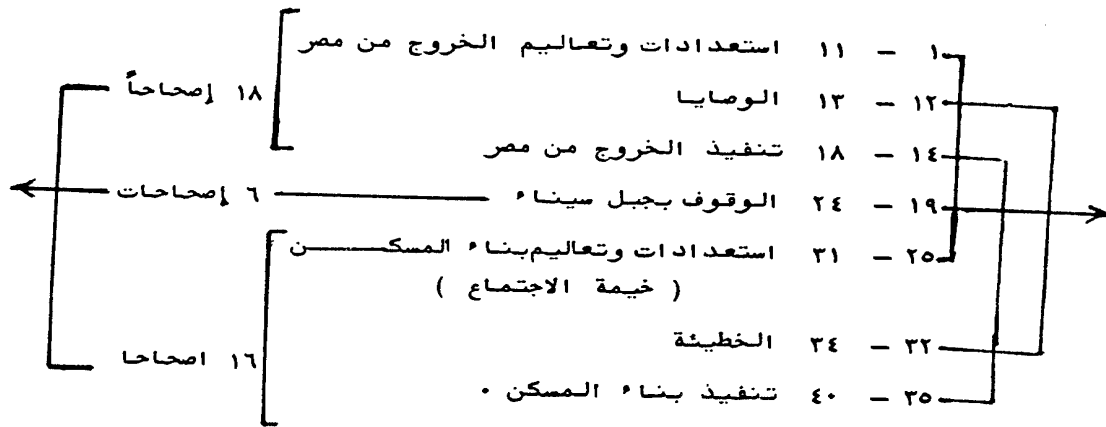
(٢) בְּרֵאשִׁית י', ג'.

(٣) בְּרֵאשִׁית ד', ד-ה'.

"- ויבדל אלהים את האדם בצלמו, בצלם אלהים ברא אותו " (١)

- فخلق الله الإنسان على صورته ، على صورة الله خلقه .

إذاً فالبناء المعقوف في قصص التوراة يشير دائماً إلى رغبة النص في أن يكون لمضمونه أسلوب موثر يشير فكر واهتمام القارئ ويجذبه إليه ، ولذلك نجد أن البناء المعقوف مألوف جداً في قصص التوراة ، ومن الواضح أن إعداد حبكة قصصية وفقاً لبناء معقوف يتطلب كفاءة فنية كبيرة ، الأمر الذي دعا " مكدونالد MacDonald " إلى التشكيك في وجود هذا الشكل الفني في قصص التوراة حيث قال عن سفر الخروج : إن هو إلا أطلال وخرائب من المشاهد القصصية التاريخية البراقة (٢) ، ولكن من الإنصاف القول إن السفر الذي يحتوي مادة تاريخية روائية وتشريعية معا ، ليس من المألوف فيه بناء معقوفاً دقيقاً ، كما هو الأمر في أسفار أخرى ، وإنما يأتي فيه البناء المعكوس في خطوط عريضة على النحو التالي :



يتضح من هذا البناء المعقوف أن رأس مثلثه هو " الوصايا العشر " ، وهي بناء معقوف أيضاً ، ولكن من المهم القول أن في هذا السفر إصحاحاً واحداً فقط ، وهو الإصحاح الثاني (١ - ٢٢ فقرة) على نظام البناء المعقوف

(١) גזרא'שית א, כז.

D.C. MacDonald: The Hebrew Literary Genius, P. 81. Princeton, 1933.

(٢)

وبدا يكون كاتبه قد أراد أن يوجه اهتمام وفكر القارئ إلى هذا الإصحاح لدلالته الكبيرة ، وحيث أن الإصحاح الثانى هذا هو الإصحاح الوحيد فى السفر الذى يتناول كله التاريخ الشخصى لموسى ، إذاً فهذا الإصحاح مهم جداً لفهم شخصية موسى، ومن هنا أتى البناء معقوفاً على النحو التالى :

- ١ - ولادة موسى (١ - ٤) .
- ٢ - بنت الملك تتبنى موسى (٥ - ١٠) .
- ٣ - موسى ينجذ أخاه العبرانى (١١ - ١٢) .
- ٤ - أبناء الشعب يتنكرون لموسى (١٣ - ١٤) .
- ٥ - موسى ينجذ بنات مدين الغربيات (١٥ - ٢٠) .
- ٦ - ابنة الكاهن أصبحت زوجة موسى (٢١) .
- ٧ - ولادة ابن موسى (٢٢) .

وبناءً على هذه الفرضية فإن البناء الرأسى المعكوس من الخصائص البارزة فى القصص النموذجية فى التوراة (١) .

٩ - اطلاق لفظ المفرد والمراد الجمع :

أحياناً فى قصص التوراة يطلق لفظ المفرد على الاسم الجمع نحو ما جاء فى قصة الخروج من مصر : (٢)

”וַיִּרְדּוּ מִצְרַיִם אַחֲרֵיהֶם“
فطاردهم المصريون

”וַיִּשְׁגּוּ אוֹתָם חֲנוֹם עַל הַיָּם“
وَأدركوهم واقفين عند البحر

”כָּל סוֹס רֶכֶב פָּרַעַה וּפָרָשָׁיו וְחֵילָיו“
جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه

(١) ”הוֹדָה תִּי רַדְאִי : עַל הַפִּיאָזִם בְּסִיפּוֹר הַמִּקְרָא , בֵּית מִקְרָא ט', עמ' 58-59 . יְרוּשָׁלַיִם תַּשְׁכִּ"ד .

(٢) راجع الخروج ١٤ : ٩ - ١٠ .

أم لا ، والفائدة من ذلك هي أن تعبر بهذه الطريقة على دلالة خاصة ، يمكن
تحديدها في كل حالة على أساس المضمون والسياق على النحو التالي :

- " ויאכל וישת ויקם וילך ובז עשו את הבכדה " (١)
- فاكل وشرب وقام ومضى • احتقر عيسو البكورية •

ويشير توالى الأفعال هنا إلى صورة عيسو الحالية ، فليست لديه أهداف
معيّنة يسعى لتحقيقها مستقبلاً :

- " ובני ישראל פרו וישדעו וירבו ועצמו במאד מאד "
- وبنو إسرائيل أثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جداً " •

وهذا الترتيب يعطى صورة واضحة للمبالغة في الزيادة في أعداد بنى
إسرائيل •

وأحياناً يتم ترتيب الأسماء بشكل تدريجي من الأقل إلى الأكثر أهمية
ليتم التأكيد المطلوب بصورة فعّالة نحو :

- " לך לך מארצך וממולדתך ומבית אביך " (٢)
- " اذهب من أرضك ومن موطنك ومن بيت أبيك " •

- " קח נא את בנך את יחידך אשר אהבת את יצחק " (٣)
- " خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق " •

وأحياناً يتم ترتيب الكلمات فى الجملة من أجل إبراز التضاد الذى
يعبر أحياناً عن الشمول :

- " זרע וקציר וקר וחם וקיץ וחורף ויום ולילה לא ישבתו " (٤)
" زرع وحصاد وبرد وحرّ وصيف وشتاء ونهار وليل لا تزال " •

ويأتى اختلاف الترتيب لكلمات الجملة فى قصص التوراة لتأكيد ماياتى

(١) בראשית כה, לד.

(٢) בראשית יב, א.

(٣) בראשית כב, ג.

(٤) בראשית ח, כב.

فى بداية الجملة ، وأحياناً للتعبير عن التعارض . فالترتيب المعتاد هو

ما نجده فى قصة قايين وهابيل فى هذه الجملة : " **וַיִּשְׁלַח יְהוָה אֶל**
הַבֵּל וְאֶל מִנְחָתוֹ " (١) - فنظر الرب إلى هابيل وقربانه . ثم

يأتى الاختلاف فى الجملة التالية : " **וְאֶל קַיִן וְאֶל מִנְחָתוֹ**
לֹא שָׁעָה " (٢) - وإلى قايين وقربانه لم ينظر . ويتم التعبير عن
التعارض بتغيير الترتيب العادى للكلمات فى الجملة كما نلاحظ فى النماذج
الآتية : (٣)

- " **לֹא תִקַּח אִשָּׁה לְבִנִּי מִבְנוֹת הַכְּנַעֲנִי אֲשֶׁר אֲנִכִּי יוֹשֵׁב**
בְּבִקְדּוֹ כִּי אֵל אֲדָמִי וְאֵל מוֹלֶדֶתִי תִלָּךְ " (٤)

- لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم . بل إلى
أرضى وإلى موطنى تذهب .

بدلاً من : **תִּלָּךְ אֵל אֲדָמִי וְאֵל מוֹלֶדֶתִי** - تذهب إلى أرضى وإلى موطنى .
- " **וַיֹּאחֲזֶה יִצְחָק אֶת עִשָּׂו בְּנֵשׁוֹ כִּי צִיד בָּפִיו וְדִבְקָה אֲהָבַת אֶת יַעֲקֹב** (٥)
وَأَحَبَّ إِسْحَاقَ عִيسُو لأن فى فمه ميذاً وأما رفقة فكانت تحب يعقوب .
بدلاً من : **וְתֹאחֲזֶה דִּבְקָה אֶת יַעֲקֹב** - وأحبت رفقة يعقوب .

- ويتم إبراز المقصد الإلهى عن طريق ترتيب الكلمات فى الجملة . نحو :
" **מִיָּהוּה יֵצֵא הַדָּבָר** " (٦) - من عند الرب خرج الأمر .
بدلاً من : **הַדָּבָר יֵצֵא מִיָּהוּה** - الأمر خرج من عند الرب .

- ويتم إبراز الألام وشدتها بواسطة ترتيب الكلمات فى الجملة . نحو :
" **אֶת לַעֲזִי וְאֶת יָגִיעַ כָּפִי דָּאָה אֱלֹהִים** " (٧)
- مشقتى وتعب يدي قد نظر الله .

بدلاً من : **אֱלֹהִים דָּאָה אֶת לַעֲזִי וְאֶת יָגִיעַ כָּפִי** " -
الله نظر مشقتى وتعب يدي .

(١) בְּרֵאשִׁית ד, ד.	(٢) בְּבֵרֵאשִׁית ד, ה.
(٣) הַעֲצוּב הָאֲמֹנֹתִי שֶׁל הַסִּפּוּר בְּמִקְרָא, עמ' 26-27.	(٤) בְּרֵאשִׁית כד, ג-ד.
(٥) בְּרֵאשִׁית כה, כח.	(٦) בְּרֵאשִׁית כד, ג.
(٧) בְּרֵאשִׁית לא, מב.	

الفصل الثالث

توزيع القصص في التوراة

على الرغم من أن الملاحظ في ترتيب أسفار التوراة أنها تأتي في تسلسل تاريخي حيث تبدأ بالتكوين يليه الخروج ثم اللاويين والعدد وتنتهي بموت موسى في سفر التثنية ، إلا أن الملاحظ في ذلك أن سرد القصص في هذه الأسفار يأتي مرة واحدة دون العودة إليها بعد ذلك . مع مراعاة أن مجموعة القصص التي يكون بطلها واحداً لا تعتبر أكثر من قصة ، وإنما هي قصة واحدة وإن اختلفت أحداثها . مع ملاحظة أن كل قصة في هذه المجموعة القصصية ، يمكن قراءتها بمفردها رغم ارتباطها مع ما قبلها وما بعدها من قصص ، بينما الأمر يختلف في القصة الطويلة حيث يقص كل مشهد فيها جزءاً من مراحل الحكمة ولا يمثل وحدة قصصية مستقلة ، فمثلاً قصة يوسف في التوراة تقابل في إطارها العام مجموعة قصص إبراهيم ، ولكنها ليست في نطاق مجموعة قصصية عامة ، وإنما قصة واحدة طويلة . ويمكن القول بأن القصة القصيرة في التوراة تضم قصة واحدة مستقلة تقابل القصة القصيرة الحديثة - وإن كانت هناك مجموعة قصص قصيرة في التوراة تكون مجموعة قصصية مختلفة الأحداث - بينما القصة الطويلة في التوراة مقابلة للرواية ، إذ أن جوهرها يتناول أناساً مختلفين وأحداثاً متنوعة في نطاق حدث رئيسي (١) .

واهتمامنا هنا ليس البحث في طريقة نشوء هذا التكوين الأدبي في حد ذاته ، ولكن اهتمامنا ينصب على إيضاح الجوهر ، حيث لا يوجد تطور إلا بمقياس توضيح الجوهر ، فالقصة الواحدة المنفردة والإطار القصص الشامل هما طرفان تربطهما عدة مراحل بينية : فالقصص المستقلة تتجمع في دورة قصصية حول

(١) *עב' אדר, הספור המקראי, עמ' ١١٣, המחלקה לחינוך ול-
תרבות בגולה של הקהילות הציוניות העולמיות, מה-
דורה שביעת, ירושלים תשל"ט.*

شخصية واحدة ، وبدلاً من القصة القصيرة الواحدة ، تأتي أحياناً القصة الطويلة الواحدة ، ومن القصص المستقلة والقصص الطويلة يتم تكوين السفر في حبكة واحدة . وإذا جمعنا هذه المراحل الثلاث البينية إلى الطرفين السابقين سيتضح لنا خمس مراحل في ترتيب تصاعدي : القصة القصيرة ، فالمجموعة القصصية المتحدة البطل ، فالقصة الطويلة ، ثم السفر ، ثم البناء القصص في التوراة كلها . ويهمننا هنا البحث في المراحل الثلاث الأولى : (١)

أولاً : القصة الواحدة القصيرة :

إن أساس الأدب القصص في التوراة هو القصة الواحدة المنفردة ، قصة إطارها العام صفحة أو اثنتين ، وهذه القصص تمت حكايتها في البداية شفاهة من جيل لآخر ، أي أنها أقوال موروثة مختلفة جمعها - بشكل يقل أو يزيد - محررون وضعوا تارة ما جمعوا جنباً إلى جنب وطوّروا غيروا من شكل هذه الروايات بهدف إيجاد وَحْدَةٍ مركبة (٢) ، وأبرز مثال على ذلك قصة الطوفان في التوراة فقد ضمنها الإصحاحات ٦ و٧ و٨ و٩ من سفر التكوين ، وبشكل أدق هناك روايتان غير موضوعيتين جنباً إلى جنب ، إنما هما تنفصلان في مقاطع متداخلة كل في الآخر وبمنطق ظاهر في تعاقب مختلف الأحداث . الحقيقية أن في هذه الإصحاحات الأربعة تناقضات صارخة ، ترجع إلى وجود مصدرين متميزين بشكل جلي ، وهما المصدر اليهودي والمصدر الكهنوتي ، وهذان المصدران يشكلان تجميعاً متنافراً ، فقد قُطِعَ كل نص أصلي إلى فقرات أو عبارات / هذا مع تعاقب عناصر كل مصدر مع عناصر المصدر الآخر ، بحيث أننا ننتقل من مصدر لآخر في الرواية سبع عشرة مرة ، وذلك خلال مائة سطر تقريباً من النص .

والرواية في شمولها هي ما يلي :

لما عمّ فساد البشر قررّ الله تدميرهم مع كل المخلوقات الحية الأخرى .

(١) **נשם נשם** ، **לדבר** ٦ .

(٢) **موريس بوكاي : القرآن والتوراة والإنجيل والعلم** . ص ٢٩٠ .

فحدّر نوحاً وأمره ببناء السفينة التى سيدخل فيها زوجته وأولاده الثلاثة
بزوجاتهم الثلاث وكائنات حية أخرى ، ويختلف الممدران بالنسبة للكائنات
الحية : فالمصدر الكهنوتى فيها يشير إلى أن نوحاً قد أخذ زوجاً من كل نوع ،
ثم يحدّد المصدر اليهودى المقطع التالى أن الله قد أمر بأخذ من كل نوع
ذكر وأنثى من الحيوانات المسماة بالطاهرة ، وزوجاً واحداً من الحيوانات
المسماة بغير الطاهرة (١) .

ولكن بعد ذلك يتحدّد أن نوحاً لن يدخل إلى السفينة فعلاً إلا زوجاً من
كل نوع من الحيوانات . ونجد هناك فقرة (وهى من المصدر اليهودى) تشير
إلى أن عامل الطوفان هو ماء المطر وحده ، بينما تذكر فقرة فى المصدر
الكهنوتى أن سبب الطوفان يرجع إلى عاملين هما : ماء المطر والينابيع
الأرضية ، التى غطت الأرض حتى قمم الجبال ، وتدمرت فيها الحياة كلها .
وبعد سنة خرج نوح من السفينة التى رست على جبل أرارات بعد الانحسار (٢)

(١) ميّزت الشريعة اليهودية بين حيوانات وطيور اعتبرتها طاهرة ، وأخرى
اعتبرتها نجسة . اذ جاء فى سفر اللاويين " فتميزون بين البهائم الطاهرة
والنجسة ، والطيور النجسة والطاهرة . فلا تدنسوا نفوسكم بالبهائم
والطيور ولا بكل ما يذب على الأرض مما ميّزته لكم ليكون نجساً " (اللاويين
٢٥:٢٠) . ويمكن حصر الحيوانات التى اعتبرتها الشريعة اليهودية نجسة فى
البهائم التى تجتر ولا تشق الظلف وتقسمه ظلفين (اللاويين ٣: ١١ و٤) وكل ما
يمشى على كفوئه الأربع (العدد ٢٧) والطيور آكلة اللحوم (اللاويين
١١ : ٣-١٩ ، التثنية ١٤ : ١٢-١٨) والحشرات المجنحة التى تدب على
أربع إلا ما له كراعا فوق رجليه يشب بهما على الأرض كالجراد وماشاكله
(اللاويين ١١ : ٢٠-٢٢) وكل ما فى المياه وليس به زعانف وحرشف (العدد ٩-١٠)
والدبيب (اللاويين ١١ : ٢٩ و٣٠) كل ما يمشى منه على بطنه أو على أربع ،
وما كثرت أرجله (العدد ٤١ و٤٢) .

ويعتقد حكماء اليهود أن هذا التقسيم قد تم قبل نزول التوراة على موسى
حيث تعلم نوح التوراة وعلمها وعرف الأنواع التى ستكون طاهرة فى المستقبل
قبل أن تنزل فى التوراة ويتلقاها موسى . (لاويين ٢٢ : ح) .

انظر : אנציקלופדיה אוצר ישראל , חלק שני , עמ' 308 .

(٢) צב' אדר , הסיפור המקראי , עמ' 52 .

ونحاول الآن أن نعمل الروایتين فصلاً دقيقاً ونقدم القصة في صورتها الأدبية المعقولة دون أن نضيف شيئاً إلى النص الأصلي أو نحذف منه شيئاً .
كذلك نراعى أن يكون نفس الترتيب في الجمل كما هو وارد في النص ، ولكن نضع كل قصة منهما في شكلها الأصلي :

أولاً : الرواية اليهودية :

وهي على الشكل الآتي : الإصحاح السادس الفقرات من ١ - ٨ ، ثم الإصحاح السابع من ١ - ٥ ، ٧ ، ١٠ ، ١٢ ، والنصف الثاني من الفقرتين ١٦ ، ١٧ ، ثم ٢٢ ، ٢٣ . والإصحاح الثامن من النصف الثاني من الفقرة الثانية ، إلى النصف الأول من الفقرة الثالثة ، ٦ - ١٢ ثم ١٣ في نصفها الثاني ، ٢٠ - ٢٢ وأخيراً الإصحاح التاسع من الفقرة ١٨ - ١٩ . وعلى هذا فرواية المصدر اليهودي كالآتي :

וַהֲלִי כִי־הִתַּל הָאָדָם לִלְבַּעַל־פָּנֵי הָאֲדָמָה וּבְנֹתֶיהָ
לָהֶם: מָרְאוּ בְנֵי־הָאֱלֹהִים אֶת־בְּנוֹת הָאָדָם כִּי טָבַחַת הָנָחַ
מִקְחֵיהֶם לָהֶם נָשִׁים מִכָּל אֲשֶׁר בָּחָרוּ: וַיֹּאמֶר יְהוָה לֹא־יִדְּוּ
רוּחִי בָאָדָם לְעֹלָם כִּשְׁגָם הוּא בָשָׂר וְהֵנוּ יָמֶיךָ מֵאָה וְעֶשְׂרִים
שָׁנָה: הַנִּפְלִיִּם הֵנוּ בָּאָרֶץ בְּיָמֵינוּ הָאֵלִים וְגַם אֲחֵרֵינוּ אֲשֶׁר
יָבֹאוּ בְנֵי הָאֱלֹהִים אֶל־בְּנוֹת הָאָדָם וַיִּלְדּוּ לָהֶם הַנָּחַ
הַנִּבְרִיִּים אֲשֶׁר מַעֲוֹלָם אִשֵּׁי הַשָּׁמַיִם:
וַתֵּרָא יְהוָה כִּי רָבָה רָעַת הָאָדָם בָּאָרֶץ וּכְל־יִצֹר מִחֲשַׁבְתּוֹ
לָבֹר קֶם קַע כָּל־הַקּוֹם: וַיִּנָּחֶם יְהוָה כִּי־עָשָׂה אֶת־הָאָדָם
בָּאָרֶץ מִחֲעֵצָב אֶל־לֵבֹ: וַיֹּאמֶר יְהוָה אֲמַחֶה אֶת־הָאָדָם
אֲשֶׁר־בָּרָאתִי מֵעַל פָּנֵי הָאֲדָמָה מֵאָדָם עַד־בְּהֵמָה עַד־
רֶמֶשׂ וְעַד־עוֹף הַשָּׁמַיִם כִּי נִחְמָתִי כִּי עָשִׂיתִם: וְלֹחַ מֵצָא חֵן
בְּעֵינֵי יְהוָה:

ונאמר ויהי לנח בא-אשה וכל-ביתו אל-התבה כִּי-
 אהתך ראיתי צדיק לפני בדור הזה: מכל הבהמה השְׂהוּרָה
 תִּקַּח-לָךְ שְׁבָעָה שְׁבָעָה אִישׁ וְאִשְׁתּוֹ וּמִן-הַבְּהֵמָה אֲשֶׁר לֹא
 טְהוֹרָה הִוא שְׁנַיִם אִישׁ וְאִשְׁתּוֹ: גַּם מִעוֹף הַשָּׁמַיִם שְׁבָעָה
 שְׁבָעָה זָכָר וְנִקְבָּה לַחַיֹּת זָרַע עַל-פְּנֵי כָל-הָאָרֶץ: כִּי
 לְיָמַי עוֹד שְׁבָעָה אֲנֹכִי מִמָּטִיר עַל-הָאָרֶץ אַרְבָּעִים יוֹם
 וְאַרְבָּעִים לַיְלָה וְקִחִיתִי אֶת-כָּל-הַקָּיָם אֲשֶׁר עָשִׂיתִי מֵעַל
 פְּנֵי הָאֲדָמָה:
 וְאִשְׁתּוֹ וְנָשֵׁי-בָנָיו אִתּוֹ אֶל-הַתֵּבָה מִפְּנֵי מִי הַמַּבּוּל:
 וַיְהִי לְשִׁבְעַת-הַיָּמִים וּמִי הַמַּבּוּל הָיוּ עַל-הָאָרֶץ:
 וַיְהִי הַנֶּשֶׁם עַל-הָאָרֶץ אַרְבָּעִים יוֹם וְאַרְבָּעִים לַיְלָה:
 וַיִּסָּר וַיָּהֲרֹק בַּעֲדוֹ: וַיִּרְבּוּ הַמָּיִם וַיֵּלֶא אֶת-הַתֵּבָה וַיִּסָּר
 מֵעַל הָאָרֶץ: כָּל אֲשֶׁר נִשְׁמַת-רוּחַ חַיִּים
 בָּאֲפִיו מִכָּל אֲשֶׁר בַּחַרְבָּה מָתוּ: וַיִּמָּח אֶת-כָּל-הַתְּקָוָה
 אֲשֶׁר עַל-פְּנֵי הָאֲדָמָה מֵאֲדָמָה שָׂדֶה-בְּהֵמָה שָׂדֶה-בְּחַיִּים וְעַד-
 עוֹף הַשָּׁמַיִם נִמְתּוּ מִן-הָאָרֶץ מִשָּׁאֵר אֲדָמָה וְאֲשֶׁר אִתּוֹ
 בַּתֵּבָה: וַיִּבְלֵא הַנֶּשֶׁם מִן-הַשָּׁמַיִם: וַיַּחֲסְרוּ
 הַמָּיִם מִקְצֵה הַמָּסִים וּמֵאֶחָד יוֹם:
 וַיְהִי מִקֵּץ אַרְבָּעִים יוֹם וַיִּפְתַּח נֹחַ אֶת-חַלּוֹן
 הַתֵּבָה אֲשֶׁר עָשָׂה: וַיִּשְׁלַח אֶת-הָעֶרֶב וַיֵּצֵא וַיָּצוּא וְשׁוּב עַד-
 וַיִּבְשֹׁת הַמָּיִם מֵעַל הָאָרֶץ: וַיִּשְׁלַח אֶת-הַיּוֹנָה מֵאִתּוֹ לִרְאוֹת
 הַקָּלִי הַמָּיִם מֵעַל פְּנֵי הָאֲדָמָה: וְלֹא-מָצְאָה הַיּוֹנָה קִנּוּת
 לְכַף-רַגְלָהּ וַתָּשָׁב אֵלָיו אֶל-הַתֵּבָה כִּי-מָיִם עַל-פְּנֵי כָל-
 הָאָרֶץ וַיִּשְׁלַח יָדוֹ וַיִּקְחֶהּ וַיָּבֵא אֹתָהּ אֵלָיו אֶל-הַתֵּבָה: וַיִּחַל
 עוֹד שְׁבָעַת יָמִים אַחֲרָיו וַיִּסָּף שַׁלַּח אֶת-הַיּוֹנָה מִן-הַתֵּבָה:
 וַתָּבֵא אֵלָיו הַיּוֹנָה לֵעֵת עָרֵב וַתֵּנֶה עַל-הַצֵּיָת טָרֵף בִּפְיוֹ
 וַיִּבַּע נֹחַ כִּי-קָלִי הַמָּיִם מֵעַל הָאָרֶץ: וַיִּחַל עוֹד שְׁבָעַת
 יָמִים אַחֲרָיו וַיִּשְׁלַח אֶת-הַיּוֹנָה וְלֹא-הִסִּיכָה שׁוּב-אֵלָיו עוֹד:
 וַיִּסָּר נֹחַ אֶת-מִבְסָה הַתֵּבָה וַיֵּרָא וַתֵּנֶה חֲרָבּוֹ פְּנֵי הָאֲדָמָה:

וַיָּבֶן נֹחַ מִזְבֵּחַ לַיהוָה וַיִּקַּח מִכָּל הַבְּהֵמָה
הַטְּהוֹרָה וּמִכָּל הָעוֹף הַטְּהוֹר וַיַּעַל עֲלֵהּ בְּמִזְבְּחֹהּ: וַיִּכַּח יְהוָה
אֶת־רֵיחַ הַנִּיחֹחַ וַיֹּאמֶר יְהוָה אֶל־לִבּוֹ לֹא אֶקַּף לְקַלִּיל עוֹד
אֶת־הָאָדָמָה בַּעֲבוּר הָאֵדָם
וְלֹא־אֶקַּף עוֹד לְהַכּוֹת אֶת־כָּל־חַי כַּאֲשֶׁר עָשִׂיתִי: עוֹד
כָּל־יֹגֵר הָאָרֶץ זָרַע וְקָצִיר וְקָר וְחֹם וְצִיָּן וְתִרְחָף וְנוֹם וְלֹלָה
לֹא יִשָּׁבְחוּ:
וַיְהִי בִּנְיַנָם הַיָּצְאִים מִן־הַתֵּבָה שָׁם וְתָם וּנְפַת וְחֹם הוּא
אָבִי בְּנֵשֶׁן: שְׁלֹשָׁה אֱלֹהִים בִּנְיַנָם וּמֵאֵלֶּה גִבְעָה כָל־הָאָרֶץ:

- عندما بدأ الناس يكثرون على الأرض وجاء لهم بنات . رأى أبناء الله بنات الناس أنهن جميلات فاتخذوا لأنفسهم نساءً من كل ما اختاروا . فقال الرب لن تظل روحى فى الإنسان إلى الأبد لأنه بشر تزوج عينه وستكون أيامه مائة وعشرين عاماً ، وكان فى الأرض طفلة فى تلك الأيام وبعدها حيث دخل أبناء الله على بنات البشر وولدن لهم أولاداً وهم الجبابرة . ورأى الرب أن شر الإنسان فى الأرض قد كثر وأن كل أفكاره شريرة كل يوم . فغضب الرب أنه جعل الإنسان فى الأرض وحزن فى قلبه . وقال الرب سامحو عن وجه الأرض والإنسان الذى خلقتة وكذلك البهائم والزواحف وطيور السماء لأنى حزنت على خلقهم . ولكن نوح حمل على رضا الرب ، ١/٧ - ٥ . وقال الرب لنوح أدخل أنت وجميع بنيك إلى الفلك لأنى وجدتكم باراً أمامى فى هذا الجيل وتأخذ معك من جميع البهائم الطاهرة سبعة سبعة ذكراً وأنثى ومن البهائم غير الطاهرة اثنين ذكراً وأنثى ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى لاستبقاء نسلنى على وجه الأرض لأنى بعد سبعة أيام أمطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة وأمحو كل ما صنعتته من على وجه الأرض ففعل نوح حسب كل ما أمره الرب به . فدخل نوح وبنوه وامراته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان . وبعد الأيام السبعة صارت مياه الطوفان على الأرض وظل المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة وأغلق الرب عليه وتكاثرت المياه ورفعت الفلك عن الأرض ومات كل ما كان على الأرض مما فيه روح ومحا الله كل ما كان على الأرض من الناس والبهائم والزحافات وطيور السماء وبقي نوح والذين معه فى الفلك وامتنع المطر من السماء ونقصت المياه بعد مائة وخمسين يوماً ، وبعد أربعين يوماً فتح نوح طاقة الفلك التى عملها وأرسل الغراب فخرج متردداً حتى جفت المياه على الأرض ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه على الأرض فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها فرجعت إليه إلى الفلك لأن المياه كانت على الأرض . فمدّ يده وأخذها وأدخلها إلى الفلك ، وبعد سبعة أيام آخر أرسل الحمامة مرة أخرى من الفلك فعادت إليه الحمامة عند المساء

وفى فمها ورقة زيتون خضراء ، فعلم نوح أن المياه قد جفت على الأرض وبعد سبعة أيام أخرى أرسل الحمامة فلم تعد ، فكشف نوح الفطاء عن الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد جف وبنى نوح مذبحاً للرب وأعد محرقات على المذبح من كل البهائم الطاهرة والطيور الطاهرة فتنسم الرب رائحة الرضا . وقال الرب فى نفسه لن العن الأرض مرة أخرى من أجل الإنسان ولن أميت كل حي مرة أخرى كما فعلت وسوف تكون كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل . وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافت . وحام هو أبـــــــــو كنعان . هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت الأرض .

أما الرواية الكهنوتية ، فإنها تقع فى الفقرات التالية : الإصحاح السادس من الفقرة ٩ - ٢٢ ، والإصحاح السابع من الفقرة السادسة إلى التاسعة ، والفقرة (١١) و(١٣) إلى النصف الأول من الفقرة (١٦) ، ثم النصف الأول من الفقرة (١٧) ، ومن الفقرة ١٨ - ٢١ ، والفقرة (٢٤) وإصحاح الشامــــــــــــن الفقرة (١) إلى النصف الأول من الفقرة (٢) ثم النصف الثانى من الفقرة (٣) إلى الفقرة (٥) ثم النصف الأول من الفقرة (١٣) والفقرات من ١٤ - ١٩ ، ثم الإصحاح التاسع الفقرات من (١) إلى ١٧ .

وتكون الرواية على النحو التالى :

אלה תולדת נח נח איש צדיק תמים הנה בדרתיו את
האלהים תהלה-נח: תולד נח שלשה בנים אחדשם את
חם ואחד יפת: נחשם את-ארץ לבן האלהים נחקלא את-ארץ
חם: ונח אלהים את-הארץ ונח נשחקה ביד-השקות

כל-בשר את-הדרך על-הארץ: ויאמר אלהים לנח
בן כל-בשר בא לפני כי-מלאה הארץ חמס מפניהם
והנני משחיתם את-הארץ: עשה לך סבת עצי-נפר קנים
תעשה את-הסבה וקפרת אתה מיבית ומחיון בכפר: וזה
אשר תעשה אתה שלש מאות אתה ארך הסבה חמשים
אתה רחבה ושלשים אתה קומתה: צמר תעשה לסבה
ואל-אתה תכלה מלמעלה ופתח הסבה בצנה חשים
תחתים שנים ושלשים תעשה: ואני הנני מביא את-המבול
מים על-הארץ לשתת כל-בשר אשר-בו חיות חיים מתחת
השמים כל אשר-בארץ וענ: ותקמתי את-בריתי אתך
ובאת אל-הסבה אתה ובניך ואשתך ונשי-בניך אתך:
ומכל-החיות מכל-בשר שנים מכל חיה אל-הסבה להחיות
אתך זכר ונקבה נהיו: מהעוף למינהו ומן-הבהמה למינה
מכל רמש האדמה למינהו שנים מכל ובהו אליך להחיות:
ואתה קח-לך מכל-מאכל אשר יאכל ואכלת אליך ונהיה
לך ולחם לאכלה: ונעש נח ככל אשר צוה אתו אלהים
בן עשה:
מאות שנה והמבול הזה מים על-הארץ: ובה נח ובניו
ואשתו ונשי-בניו אתו אל-הסבה מבני נח המבול: מן-
הבהמה הטהורה ומן-הבהמה אשר איננה טהרה ומן-
העוף וכל אשר-רמש על-האדמה: שנים שנים באו אל-
נח אל-הסבה זכר ונקבה כאשר צוה אלהים את-נח:
בשנה
שש-מאות שנה לחי-נח בחרש השני בשבעה-עשר וזה
לחרש ביום הזה נבקעו כל-מענות הקיום רבה וארבת
השמים נפתחו:

בשנים היום הזה בא נח ושם-וחם ויפת
בני-נח ואשת נח ושלשת נשי-בניו אתם אל-התבה: המה
וכל-התיה למינה וכל-הבהמה למינה וכל-הרמש הרמש
על-הארץ למינהו וכל-העוף למינהו כל צפור כל-כנף:
תבאו אל-נח אל-התבה/שנים שלם מקל-הקשר אשר-בו
רוח חיים: ותבאים זכר ונקבה מקל-קשר כאו באשר
צוה אתו אלהים: ויחי המבול ארבעים יום על-הארץ
ונגברו המים וקברו מאד על-הארץ וכל-התבה
על-פני המים: והמים גברו מאד מאד על-הארץ ויבסו
כל-ההרים הגבוהים אשר-קמה כל-השמים: חמס עשרה
אמה מלמעלה גברו המים ויבסו ההרים: ויגוע כל-בשר
הרמש על-הארץ בעוף ובבהמה ובחיה ובכל-השרץ
השקין על-הארץ וכל האדם:
ונגברו המים על-הארץ חמשים ומאת יום:
ויוצר אלהים את-נח ואת כל-התיה ואת-כל-הבהמה
אשר אתו בתבה ויעבר אלהים רוח על-הארץ וישבו
המים: ויסקרו מעינת היום וארבת השמים ויחכרו
המים מקצה חמשים ומאת יום: ותנח התבה בחרש השביעי
בשבעה-עשר יום לחדש על הרי אררט: והמים היו הלוח
וחסור עד החדש העשירי באחד לחדש נראו
ראשי ההרים:
ויהי באחת וישי-מאות שנה בראשון באחד לחדש חרבו
המים מעל הארץ: ובחדש השני בשבעה ועשרים יום
לחדש גבשה הארץ: ויבבר אלהים אל-נח לאמר:
צא מן-התבה/אתה ואשתך ובניך ונשי-בניך אתך: כל-
החיה אשר-אתך מקל-קשר בעוף ובבהמה ובכל-הרמש
הרמש על-הארץ הוצא אתך ושרצו בארץ ופרו ורבו על-
הארץ: ויצא-נח ובניו ואשתו ונשי-בניו אתו: כל-החיה
כל-הרמש וכל-העוף כל רמש על-הארץ למשפחתיהם
וצאו מן-התבה:

וַיִּבְרָךְ אֱלֹהִים אֶת־נֶחֱם וְאֶת־בְּנוֹ וַיֹּאמֶר לָהֶם פְּרוּ וְרַבּוּ
וּמָלְאוּ אֶת־הָאָרֶץ: וַיִּמְדְּאֶתְכֶם וַהֲתַכֶּם יְהוָה עַל כָּל־חַטַּת
הָאָרֶץ וְעַל כָּל־עֵוִף הַשָּׁמַיִם בְּכָל־אֲשֶׁר תִּרְמֹשׁ הָאֲדָמָה
וּבְכָל־דָּג הַיָּם בְּהַדְּבָם נִחְמִי: כָּל־רֹמֶשׁ אֲשֶׁר הוֹאֵדְתִּי לָכֶם
יִהְיֶה לְאֹכְלָהּ בְּנֶרֶק לְשֹׁב נִחְמִי לָכֶם אֶת־כָּל־: אֲדָרְבָּשׁ
בְּנִפְשֵׁי דָמֹו לֹא הֶאֱכִילוּ: וְאֵךְ אֶת־דָּמְכֶם לְנִפְשֵׁיכֶם אֲדָרְשׁ
מִיָּד כָּל־חַטַּת אֲדָרְשֵׁנִי וּמִיָּד הָאָדָם מִיָּד אִישׁ אֶחָד אֲדָרְשׁ
אֶת־נִפְשׁ הָאָדָם: שִׁפְךָ דָּם הָאָדָם הָאָדָם דָּמֹו וְשִׁפְךָ דָּם
בַּעֲלָם אֱלֹהִים עֲשֵׂה אֶת־הָאָדָם: וְאַתָּה פְּרוּ וְרַבּוּ שְׂרֹטוּ
בְּעָרֶיךָ וּבְיִבְרֵיכֶם: וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים אֶל־נֶחֱם וְאֶל־בְּנוֹ
אֲתִי לְאֶמְרִי: וְאַתָּה הֵנִי מִקִּים אֶת־בְּרִיתִי אִתְּכֶם וְאֶת־
זֶרְעֶכֶם אֶשְׁבְּרִיכֶם: וְאַתָּה כָּל־נִפְשׁ חַיָּה אֲשֶׁר אִתְּכֶם דָּשִׁוּ
בְּבִטְחוֹנָהּ וּבְכָל־חַטַּת הָאָרֶץ אִתְּכֶם מִכָּל־זֶרַע חֲסִידָהּ לְכָל־
חַטַּת הָאָרֶץ: וְהִקְמַמְתִּי אֶת־בְּרִיתִי אִתְּכֶם וְלֹא־יִשְׁכַּחַת כָּל־
בָּשָׂר עוֹד מִמֶּנִּי לְמַבּוּל וְלֹא־יִחַתַּח עוֹד מִבְּרִיתִי לְשִׁתְתּוֹ הָאָרֶץ:
וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים וְאַתָּה אֶת־הַבְּרִית אֲשֶׁר־אֲנִי נֹתֵן בֵּינִי וּבֵינֶיכֶם
וּבֵין כָּל־נִפְשׁ חַיָּה אֲשֶׁר אִתְּכֶם לְדֹרֹת טוֹלָב: אֶת־קִשְׁתִּי
נִחְמִי בַּגֹּגֶן וְהַחֶסֶד לְאוֹת בְּרִיתִי בֵּינִי וּבֵין הָאָרֶץ: וְהָיָה בִּשְׁנֵי
עָנֻן עַל־הָאָרֶץ וְנִרְאָתָה הַקִּשְׁתׁ בַּשָּׁמַיִם: וְהִבְדִּיתִי אֶת־בְּרִיתִי
אֲשֶׁר בֵּינִי וּבֵינֶיכֶם וּבֵין כָּל־נִפְשׁ חַיָּה בְּכָל־בָּשָׂר וְלֹא־
יִחַתַּח עוֹד חַיָּים לְמַבּוּל לְשִׁכַּחַת כָּל־בָּשָׂר: וְהַחֶסֶד הַקִּשְׁתׁ
בַּשָּׁמַיִם וְנִרְאָתָה לְזִכָּר בְּרִיתִי עִינֵיכֶם בֵּין אֲנִיכֶם וּבֵין כָּל־נִפְשׁ
חַיָּה בְּכָל־בָּשָׂר אֲשֶׁר עַל־הָאָרֶץ: וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים אֶל־נֶחֱם
וְאַתָּה אֶת־הַבְּרִית אֲשֶׁר הִקְמַמְתִּי בֵּינִי וּבֵין כָּל־בָּשָׂר אֲשֶׁר
עַל־הָאָרֶץ:

- هذه مواليد نوح ، كان نوح رجلاً تقياً كاملاً فى أيامه وسار نوح مع الله وأنجب ثلاثة بنين سام وحام ويافث وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلماً ورأى الله الأرض وقد فسدت حيث أفسد كل بشر طريقه على الأرض . فقال الله لنوح لقد أتت نهاية كل بشر أمامى لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم وسوف أهلكهم مع الأرض . اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر تجعل الفلك مساكن وتظليهم بالقار من الداخل والخارج وتجعل طوله ثلاثمائة ذراع وعرضه خمسين ذراعاً وارتفاعه ثلاثين ذراعاً وتجعل له كواً مرتفعاً حوالى ذراع ، وتجعل باب الفلك من الجانب ، ويكون مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية حيث أجب على الأرض طوفاناً لأهلك كل ما هو فيه روح حياة تحت السماء ويموت كل من على الأرض ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامراتك ونساء بنيك معك وتدخل إلى الفلك اثنين من كل حي من كل ذى جسد لاستبقائها معك ويكون ذكراً وأنثى ، اثنين من كل الطيور كاجناسها ومن البهائم كاجناسها ومن كل الزواحف كاجناسها وخذ لنفسك من كل طعام يؤكل وأخزنه عندك ليكون لك ولها طعاماً ، ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله . ولما كان عمره هو ستمائة عام حدث طوفان على الأرض وأدخل نوح إلى الفلك اثنين ذكراً وأنثى من البهائم الطاهرة وغير الطاهرة ومن الطيور وكل ما يذب على الأرض أمره الله . وفى الشهر الثانى ، فى اليوم السابع عشر من عام ستمائة من عمر نوح انفجرت المياه من الأرض وانفتحت عيون السماء ودخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه إلى الفلك فى ذلك اليوم وكل الوحوش والبهائم والزحافات والطيور ، كل عصفور وكل ذى جناح . وأدخل نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل ما فيه روح ذكراً وأنثى فى كل جسد كما أمره الله ، وظل الطوفان على الأرض أربعين يوماً . وكثرت المياه على الأرض كثرة كبيرة وكان الفلك يسيّر على المياه . وتزايدت المياه على الأرض وغطت جميع الجبال الشامخة التى تحت السماء ووصل ارتفاع المياه إلى خمسة عشر ذراعاً فغطت الجبال فمات كل ما كان على الأرض ، وزادت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً . ثم ذكر الله

نوحاً وكل الوحوش والبهائم التى معه فأرسل الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه وانفلقت عيون السماء والأرض ونقصت المياه بعد مائة وخمسين يوماً واستقر الفلك على جبال أراراط فى الشهر السابع فى اليوم السابع عشر ، وظلت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر وظلت رؤوس الجبال فى أول الشهر العاشر وفى السنة الواحدة بعد الستمئة فى الشهر الأول فى أول الشهر جفت المياه وفى الشهر الثانى فى اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض وكلم الله نوحاً قائلاً أخرج أنت وامراتك ونساء بنيك من الفلك ، وأخرج معك كل الحيوانات من كل ذى جسد والطيور والبهائم والزواحف التى تدب على الأرض ولتتوالد فى الأرض وتثمر وتكثر فى الأرض فخرج نوح وبنيه وامراتهم ونساء بنيهم معه وكل الحيوانات وكل الزواحف وكل الطيور من الفلك ، وبسار الله نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا واملأوا الأرض . ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء مع كل ما يدب على الأرض وحتى أسماك البحر جعلتها فى أيديكم وتكون كل دابة حية طعاماً لكم كالعشب الأخضر . دفعت إليكم كل شئ . ولا تأكلوا لحماً فيه دم ، وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط ، من يد كل حيوان أطلبه ومن يد الإنسان أطلب نفس الإنسان من يد الإنسان أخيه ، ومن يسفك دم الإنسان يسفك دمه لأن الله جعل الإنسان على صورته . فاثمروا وأكثروا وتوالدوا فى الأرض وتكاثروا فيها . وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً . ها أنا أقيم ميثاقى معكم ومع نسلكم من بعدكم ومع كل ذوات الأنفس الحية التى معكم ، الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التى معكم من جميع من خرجوا من الفلك حتى كل حيوان الأرض أقيم ميثاقى معكم فلا ينقرض كل ذى جسد بمياه الطوفان ولا يكون طوفان ليخرب الأرض . وقال الله هذه علامة الميثاق الذى أضعه بينى وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التى معكم مع أجيال الدهر ، وضعت قوس فى السحاب ليكون علامة ميثاق بينى وبين الأرض ومتى أنشر سحاباً على الأرض ويظهر القوس فى السحاب أذكر ميثاقى الذى بينى وبينكم وبين كل نفس حية فى كل جسد فلا تصير المياه طوفاناً ليهلك كل ذى

جسد ومتى كان القوس فى السحاب أبصره لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وكل نفس حية فى كل جسد على الأرض . وقال الله لنوح هذه علامة الميثاق الذى أقمته بينى وبين كل دى جسد على الأرض .

إذا نظرنا إلى الروايتين فى المصدرين سالفى الذكر نجد أن كلا منهما تناول الرواية من منطلق خاص به وعالجهما بأسلوب مختلف عن أسلوب الآخر . ونستطيع من خلال استعراض الروايتين أن نخرج ببعض السمات العامة التى تميز كل منهما :

١ - تميل رواية المصدر اليهودى إلى إعطاء الرب صفات بشرية وعدم تنزيهه عن هذه الصفات (١) ، فى حين أن رواية المصدر الكهنوتى تتميز بتنزيه الرب عن مثل هذه الصفات فهو القادر على كل شئ (٢) .

٢ - يميل الكاتب اليهودى إلى الأسطورة فى حديثه عن سبب الطوفان (٣) ، ولكن المصدر الكهنوتى يرجع السبب فى الطوفان إلى الظلم الذى تفشى بين البشر وفساد الأرض (٤) .

٣ - يظهر التضارب والاختلاف بين الروايتين واضحاً حيث يذكر الكاتب اليهودى أمر الرب لنوح أن يأخذ معه من البهائم الطاهرة سبعة سبعة ذكراً وأنثى ، ومن البهائم غير الطاهرة اثنين ذكراً وأنثى ومن طيور السماء سبعة سبعة ذكراً وأنثى (٥) . . ولكن رواية المصدر الكهنوتى تقول : " تدخل أنت وبنوك وامراتك ونساء بنيك وتأخذ معك من كل حي اثنين ذكراً وأنثى من الطيور والبهائم والزواحف " (٦) .

وهكذا يتضح لنا أن الكاتب اليهودى استطاع أن يميز بين صنف الحيوان

-
- (١) راجع التكوين ٦/٦ .
 - (٢) راجع التكوين ١٢/٦ ، ٧/٦ - ٨ .
 - (٣) راجع التكوين ١/٦ - ٤ .
 - (٤) راجع التكوين ١١/٦ .
 - (٥) راجع التكوين ٣/٧ - ٤ .
 - (٦) راجع التكوين ١٨/٦ - ٢٠ .

الطاهر والنجس في حين لم يميز الكاتب الكهنوتي بين الصنفين ، وكذلك يستخدم المصدر اليهودي تعبير " الرجل وزوجته ، بينما المصدر الكهنوتي يقول الذكر والأنثى " (١) .

٤ - يشير المصدر اليهودي إلى القربان الذي قدّمه نوح بعد الطوفان (٢) بينما المصدر الكهنوتي ركّز على منح البركة لنوح دون مقابل (٣) .

٥ - يهتم الكاتب الكهنوتي بالتشريعات ويوضح لنوح الحلال والحرام (٤) ، وفي الجانب الآخر نجد المصدر اليهودي يفرّق بين أبناء نوح ويفضل أحدهم على الآخر (٥) .

٦ - نلاحظ على المصدر الكهنوتي الميل إلى الدقة في الوصف وذكر تفصيل للأحداث : ففي رواية بناء الفلك يذكر أن طوله ثلاثمائة ذراع وعرضه خمسون وارتفاعه ثلاثون ذراعاً . وفي روايته للطوفان يقول : في سنة ستمائة من حياة نوح ، في الشهر الثاني ، في اليوم السابع عشر من الشهر انفجرت كل ينابيع القمر وانفتحت طاقات السماء . وظل الطوفان أربعين يوماً على الأرض وكثرت المياه ووصل ارتفاعها خمسة عشرة ذراعاً وظلت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً . وبعد مائة وخمسين يوماً نضمت المياه واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابق عشر على جبال أراراط وبدأت المياه تنقص إلى الشهر العاشر وفي أول الشهر العاشر ظهرت رؤوس الجبال وفي السنة الواحدة والستمائة في أول الشهر جفت المياه ، وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض (٦) . ولكن الرواية اليهودية تحكى

(١) د. عبد الخالق بكر : قصة الطوفان في التوراة وفي المصادر القديمة . ص ٢٠٦ - ٢٠٧ مجلة كلية اللغات والترجمة العدد التاسع عشر . جامعة الأزهر القاهرة . سنة ١٩٨٩ .

(٢) راجع التكوين : ٨ : ٢٠ - ٢٢ .

(٣) راجع التكوين : ٩ : ١ - ١٧ .

(٤) راجع التكوين : ٩ : ٢ - ٦ .

(٥) راجع التكوين : ٩ : ٢٠ - ٢٣ .

(٦) راجع التكوين : ٧ : ١١ .

أن الامطار ظلت أربعين يوماً وأربعين ليلة ثم بقى نوح فى الفلك بعد ذلك ثلاثة أسابيع قبل أن ينحسر الماء بمقدار يَمَكِّنه من الرسو وعلى ذلك يكون الفيضان قد استمر واحد وستين يوماً . ويبدو لنا من رواية المصدر الكهنوتى أن الكاتب كان على علم بالتقويم العبرى حتى أنه استطاع أن يحسب الشهور ويعرف الفرق بين السنة الشمسية والسنة القمرية (١) .

كما نلاحظ اختلاف المصدرين فى تحديد مدة الطوفان ، إذ تقول الرواية اليهودية أربعون يوماً فيضاً ، على حين يقول الكهنوتى مائة وخمسون يوماً ، ولم تشر الرواية اليهودية إلى عمر نوح عند حدوث الطوفان ، بينما نجد الرواية الكهنوتية تحدد بأنه كان قد بلغ عامه الستمائة ، وتعطى الرواية نفسها إشارات عن موقعه الزمنى بالنسبة لآدم وبالنسبة لإبراهيم ، ذلك من خلال قائمة الأنساب المذكورة فى سفر التكوين (٢) .

وبعد الرجوع إلى سفر التكوين نجد أن الطوفان قد شمل كل الجنس البشرى الموجود فى ذلك الوقت كما شمل أيضاً كافة الكائنات الحية الموجودة آنذاك . وطبقاً لهذه الرواية الواردة فى التكوين نجد أن البشرية قد بدأت فى إعادة كيانها بداية من أولاد نوح وزوجاتهم ، حتى أنه عندما ولد إبراهيم بعد ذلك بثلاثة قرون تقريباً ، فإنه يجد الإنسانية قد أعادت تكوين نفسها فى مجتمعاتها ، وهنا يتساءل البعض عن كيفية إعادة مثل هذا البناء فى فترة وجيزة قوامها ثلاثة قرون (٣) .

وبالنظر الدقيق إلى هاتين القمتين نلاحظ أن السياق فيهما مرتبط ومفكك ويغلب عليهما الاتجاه الأسطورى ، ويغيب عن كاتبيهما الربط بين الأحداث المختلفة والتناسق الفنى بين الفترة الزمنية والحدث فى القمتين .

(١) قصة الطوفان فى النوراة وفى المصادر القديمة . ص ٢٠٩ .

(٢) راجع التكوين الإصحاح الخامس .

(٣) موريس بوكاي : القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم . ص ٥٣ .

ولم يستطع مدونو التوراة أن يفصلوا هاتين القمتين عن بعضهما أو يختصرا أحدهما أو أن يدمجوا أحدهما معاً بحيث نقرأ قصة كاملة منسقة ، الأمر الذى يجعلنا نقول بتضارب الأحداث فيهما (١) .

ثانياً : المجموعة القصصية :

وهى عدد من القصص ، كل منها تكون وحدة قصصية كاملة فى حد ذاتها ، تتجمع فى التوراة من أجل خلق وحدة شاملة ، وبدا تصبح القصة المستقلة عنصراً فى حبكة قصصية واسعة وبناء أكثر اتساعاً ، وتتحدد نسبة وحدة الحبكة الواسعة بين القصص بواسطة نوعية الاتحاد بين هذه القصص ، ونوعية العلاقات بينها ، وفى الغالب تحصل القصة المستقلة على دلالة إضافية بعد مزجها فى حبكة واسعة (٢) .

والعلاقات بين مجموعة القصص المستقلة قد تنشأ من روابط مختلفة بينها: قليل منها خارجى ، وأكثرها داخلى ، والعلاقة الخارجية البسيطة هى التى تنشأ أحياناً بواسطة واو التوالى مثل : " **והאדם ידע את חוה** **אשתו** " (٢) - وعرف آدم حواء امرأته . وذلك فى بداية قصة " **קיינ וهابיל** " ، أو : " **ויעל אדם ממצרים** " - فبعد إبراهيم من مصر . وذلك فى بداية قصة انفصاله عن لوط .. وأحياناً يستخدم التعبير " **ויהי** " - وكان " ليربط بين القمتين ، أو تعبيرات مثل : " **אחר הדברים האלה** " - بعد هذه الأمور " (٥) ، " **ויהי בעת ההוא** " - وحدث فى ذلك الزمان " (٦) .. ومع أن تكنيك الربط

- (١) د. عبد الخالق بكر : قصة الطوفان فى التوراة وفى المصادر القديمة ص ١٩٩ .
- (٢) **העיצוב האמנותי של הספור במקרא** , עמ' ١١٤ .
- (٣) **בראשית ד** , א .
- (٤) **בראשית ו** , א .
- (٥) **בראשית טו** , א .
- (٦) **בראשית כא** , כב .

يبدو خارجياً إلا أنه أحياناً ترمز صيغ الربط إلى علاقة داخلية بين القصص التي تتمثل ببعضها البعض عن طريق هذه الصيغ ، لأنه هناك قصص عديدة فـ في التوراة تتمثل ببعضها لتكوّن مجموعة قصصية ، بدون صيغ ربط على الإطلاق ، إلا أن المجموعات القصصية التي تتمثل ببعضها عن طريق صيغ رابطة ، تشير إلى علاقات جوهرية وثيقة بين قصصها ، فمثلاً تبدأ قصة التكريب " بعبارة : "וְהָיָה אִמְרֵי הַדְּבָרִים הָאֵלֶּה" - وحدث بعد هذه الأمور " . فهذا التعبير الرابط يشير إلى العلاقة الجوهرية بين هذه القصة ، وما تم قصصه من قبل عن ولادة إسحاق وفضامه ، لأن الاختبار العظيم الذي اجتازه إبراهيم ، تنضج خطورته بناءً على تلك الحقائق المذكورة في القصة السابقة ، فبعد سنوات عديدة من انتظار الإنجاب والذي جاء بعد معجزة لإبراهيم وسارة وبعد سعادتهما بالمولود وتربيته وفضامه ، " بعد كل هذه الأمور ٦٧٨ - הדברים האלה " يتلقى إبراهيم الأمر الإلهي بتقديم ابنه محرقة للرب (١) .

ويلاحظ أن امتزاج القصص المستقلة في مجموعة واحدة متناسقة وأكثر اتساعاً ، من شأنه أن يؤدي أحياناً إلى الازدواجية ، وأحياناً أخرى إلى التعارض ، وعندما يحدث ذلك نجد انتساباً واضحاً أو رمزياً داخل إحدى القصص الأخرى المقابلة لها أو المعارضة لها ، فمثلاً قصة " إسحاق ورفقة مع أبيمالك ملك جرار " (٢) تقابل إلى حد كبير ، قصة " إبراهيم وسارة مع فرعون مصر " (٣) ، فليس في القصة فقط يتم عرض الزوجة على أنها أخت الزوج لكي لا يقتل زوجها في هذه الأرض الغريبة ، بل إنها تبدأ بالكلية : "וְהָיָה דְּלֵב בְּאֵרֶץ" وحدث جوع في الأرض " ، إلا أنه في القصة الثانية أضيفت الكلمات : "מִלֵּב הַדֵּלֶב הָרָשָׁן אֲשֶׁר הָיָה בִּימֵי אַבְרָהָם" -

(١) העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' ١٤٤ .

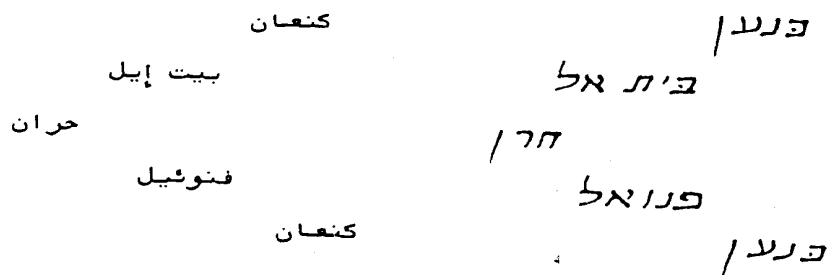
(٢) راجع التكوين الأصحاح ٢٦ .

(٣) راجع التكوين ١٢ : ١٠ وما بعدها . وكذلك أيضاً التكوين (٢٠) في قصة إبراهيم وسارة مع أبيمالك ملك جرار .

غير الجوع الأول الذى كان فى أيام إبراهيم " . وذلك من أجل توضيح أن القصتين رغم التشابه الكبير بينهما إلا أنهما تحكيان أحداثاً مختلفة .

ومع أن ترتيب قصص المجموعة يأتى فى ترتيب خطى بسيط الواحددة وراء الأخرى ، إلا أنه توجد مجموعات قصصية يتم فيها ترتيب القصص فى هيئة حلقات ، وأنموذج لذلك قصص يعقوب ، فيتم ترتيبها هكذا : فى البداية مجموعة قصصية عن يعقوب وعيسو فى أرض كنعان ، ثم بعد ذلك سلسلة قصصية عن يعقوب ولابان فى حاران ، وفى النهاية عودة أخرى ليعقوب وعيسو فى أرض كنعان ، وبين القصص عن يعقوب فى أرض كنعان ، والقصص عنه فى حاران يفصل الحدث العرضى فى " بيت إيل " ، وبين القصص عنه فى حاران والقصص عنه فى أرض كنعان يفصل الحدث العرضى فى فنوئيل ، وهذان الحدثان متشابهان ، فيعقوب بات فى بيت إيل : " כִּי עָבַד הָעַמָּשׁ (١) - لأن الشمس قد غابت " ، وعندما ترك فنوئيل : " וַיֵּצֵא לוֹ הָעַמָּשׁ (٢) - أشرقت له الشمس " ، وفى هذين المكانين حظى يعقوب بالتجلى الإلهى ليلاً ومباركة الله له ، وقد حدّد يعقوب اسمى المكانين بناءً على التجلى الإلهى الذى كابده فيهما .

وتحدد الأماكن التالية تسلسل الأحداث فى تلك المجموعة القصصية عن يعقوب : (٢)



وأحياناً يتم بناء جسر بين القصص المستقلة لتكوين مجموعة قصصية

- (١) בראשית כח, יא.
 (٢) בראשית לב, לא.
 (٣) העיצוב האמנותי של הספור במקרא, עמ' ١٤٦.

متناسقة عن طريق تكرار بعض الكلمات أو الموتيفات ، والتي بظهورها المتكرر ترمز إلى العلاقة الجوهرية بين القمص المستقلة وإلى الخط المتحد بينها وإلى المغزى الذى يكمن فى الحكمة الكاملة للمجموعة القصصية. فمثلاً فى مجموعة القصص عن إبراهيم تتكرر الكلمات والجذور التالية : " - اذهب " ، " לך " - بارك " ، " ברך " - اجاب " ، " אמר " - بر وعدل " (١) .

وأحياناً أخرى يتم الربط الداخلى بين القصص عن طريق اشتراك الشخصية الرئيسية فى كل هذه القصص . وفى هذه الحالة تبحث كل واحدة من القصص حدثاً واحداً من أحداث شخصيتها الرئيسية التى تكسب الوحدة العضوية للقصص المستقلة . ليس لأنها تظهر فيها كلها . وإنما أيضاً لاتحاد طبائعها التى تحددها أسس مشتركة ، والتى يتم التعبير عنها فى القصص المختلفة . وبذلك تنشأ مجموعة أبنية كاملة من القصص ، تعرض وفقاً لترتيب زمنى أحداثاً عرضية مختلفة من حياة الشخصية وأحياناً أحداثاً رئيسية ، وأحياناً أخرى سيرة حياته من الولادة حتى الممات ، ولكن لا يوجد فى التوراة اتصال مطلق وغير متقطع لحياة شخصية محورية سواء فى قمة واحدة أو مجموعة قصصية (٢) .

مجموعة قصص إبراهيم :

تعتبر مجموعة قصص إبراهيم أنموذجاً لمجموعة القصص فى التوراة ، فهناك خط واضح يربط القصص المختلفة عن إبراهيم فى مجموعة قصصية واحدة رغم سعتها وشمولها ، حيث تم انتقاء القصص لكى تنسج معاً " بيوجرافيا " عن حياة إبراهيم ، وهى لا تقص ثلاثة أو أربعة أحداث بل سيرة حياته . . ولذلك صار الإيقاع القصص أكثر بطناً ، والكاتب وجد متسعاً من الوقت ليظهر شخصية إبراهيم من كل جوانبها ، ومع هذا لم ينجح القاص فى تقديم " بيوجرافيا " .

(١) דברו של מקרא , עמ' 292 וא"ל .
(٢) העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' 146 .

كاملة عن حياة إبراهيم ، فلم يقدم شيئاً عن حياة إبراهيم قبل الأمر الإلهي بالهجرة من موطنه إلى أرض كنعان (١) .

ولقد نجح الكاتب إلى حد ما في تجميع القمص حيث أظهر وَحدة الفرض في حياة إبراهيم ، ويتضح لنا هذا الفرض خلال الرواية الشاملة للقصص :

تتصل الإصحاحات من ١٢ إلى ٢٥ في سفر التكوين بشخصية إبراهيم ، وهي تبدأ بأمر إلهي لإبراهيم بالذهاب إلى أرض كنعان ليكون هناك شعباً عظيماً :
"وَيَأْمُرُ يְהוָה אֱלֹהֵי אַבְרָהָם לֵאמֹר לֵךְ מֵאֶרֶץ מِצְרַיִם וּמִמּוֹלַדְתְּךָ וּמִבֵּית אָבִיךָ אֶל-
הָאֶרֶץ אֲשֶׁר אֲדַע , וְאַעֲשֶׂךָ לְגוֹי גָּדוֹל וְאַבְרָכְךָ וְאַגְדֹּלְהָ שְׁמֶךָ וַיְהִי בְדִכְהָ" (٢)
وقال الرب لإبراهيم اذهب من أرضك ومن موطنك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك . فاجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك : وتنتهي بذكر موطنه :

" וַיְגַדֵּל וַיָּמָת אַבְרָהָם בְּשֵׁבַע טוֹבָה זָקֵן וְשִׁבְעֵי וְאַסָּף אֶל-
לִבְמִי" (٣) - وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيخة سالحة شيخاً متقدماً في السن وانضم إلى قومه . ثم تتوالى الأحداث في تسلسل منطقي ، فبعد تلقي الأمر الإلهي ، يذهب إبراهيم إلى أرض كنعان ويتوقف في النقب (١٢ : ١ - ٩) ، ولكن بسبب المجاعة ينزل إلى مصر ، ثم تأخذ سارة زوجته إلى بيت فرعون مصر ، ولكن بمساعدة الله تعود إلى إبراهيم (١٢ : ١٠ - ٢٠) ، ويعود إبراهيم إلى أرض كنعان بثروة كبيرة ، وبعد نزاع بين رعاته ، ورعاة لوط ، يقترح إبراهيم تقسيم ميراث الأرض مع لوط ، وبذلك يظل لوط يسكن في مـدـن دائرة الأردن ، وإبراهيم في حبرون (١٣) ، ومع اندلاع حرب ملوك الشرق ضد ملوك دائرة الأردن يسقط لوط في الأسر فيفطر إبراهيم إلى القتال ، ويطلق لوط الغزاة ، وينقذ لوط ورجاله (١٤) . ومع أن إبراهيم لا ذرية له ، فلم يوضح الله له كيف سيخرج منه أمة عظيمة ، الأمر الذي جعل إبراهيم يشكو من عدم

(١) הַסִּפּוּר הַמַּקְרָאִי , עמ' ٨٥ .

(٢) בְּרֵאשִׁית י"ב , א-ב .

(٣) בְּרֵאשִׁית כ"ה , ח .

إنجابه ، ثم يقطع الله معه عهداً بين أشلاء القرايين التي قرَّبها لله تعالى (١٥) ، ووفقاً لهذا العهد يعده الله ولنسله بهذه الأرض (١٥) ولكن الابن المنتظر لم يأت بعد ، فقدمت سارة لإبراهيم ، هاجر أمتها ، لكن عندما حملت هاجر نشب نزاع بين المرأتين ، وهربت هاجر إلى الصحراء ، ولكن ملك العرب الذى بشرها بولادة إسماعيل يأمرها بالعودة إلى إبراهيم وسارة (١٦) ، ثم يوصى الله إبراهيم بالختان ، ولكن لم يختن إسماعيل فقط وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، بل أيضاً إبراهيم وكل أبناء بيته اختنوا (١٧) ، وفى هذا الوقت المناسب يجدد الله وعده لإبراهيم ولسارة بأنهما سيلدان ابناً ، فيحضر إليهما ثلاثة ضيوف من الملائكة مبشرين وهم فى طريقهم لتدمير دائرة الأردن (١٨ : ١٠) . ويحاول إبراهيم إنقاذ أهل سدوم من أجد صديقيها ، والله يستجيب له بشرط تواجد عشرة صديقين ، ولكن مع حضور الملائكة يتضح أن أهل المدينة كلهم عصاة ، باستثناء لوط وابنتيه ، الذين تناسل منهم بعد ذلك مواب وعمون ، وبذلك يتم تدمير المدينة وسكانها (١٩) . ثم يأخذ أبيمالك ملك جرار سارة إلى بيته ، كما فعل فرعون من قبل ، وبمساعدة الله أيضاً تعود إلى إبراهيم (٢٠) ، وأخيراً تمت ولادة إسحاق ، وعند الوليمة التى أعدت بمناسبة طعامه ، تغضب سارة على هاجر وإسماعيل ، وترسلهم إلى الصحراء مع عدم رضا إبراهيم (٢١ : ١ - ٢١) . ثم ينهى إبراهيم نزاع الآبار مع أبيمالك ، ويقطع معه عهداً ، ويسكن فى بئر سيع (٢١ : ٢٢ - ٣٤) . وفى ذلك الوقت يأتى أمر الله بتقريب إبراهيم ابنه إسحاق للرب طبقاً لرواية التوراة ، ويقوم إبراهيم بتنفيذ الأمر الإلهى إلا أن الله يخلصه ويعلن لإبراهيم أنه لم يطلب منه ذلك إلا لاختبار إيمانه (٢٢) . وبعد ذلك تموت سارة ويشتري إبراهيم مغارة المكفيلة من الحيثيين ويدفنها هناك (٢٣) ، وبعد موت سارة يهتم إبراهيم الشيخ بزواج إسحاق من امرأة من أرضه ومن موطنه (٢٤) ، ثم تنتهى حياته فى شبة طيبة .

- ونخلص مما سبق أن هذه المجموعة على الرغم مما يبدو أنها قصص تحكى أحداثاً متعددة منها نزاعات الرعاة، وفيها قصتين عن خصام سارة وهاجر، وقصتين عن أخذ حاكم أجنى لسارة . إلا أنه نظراً لاتحاد هذه القصص فى شخصيتها الرئيسية وهو إبراهيم فإننا نعتبرها قصة واحدة . ويبرز من خلالها الطابع الشعبى ، فالموتيف الأساسى فى هذه المجموعة القصصية هو عقم سارة باستثناء قصص نزاعات الرعاة والآباء على الحدود .

كما يلاحظ أن قصة تدمير سدوم يمكن اعتبارها قصة مستقلة حيث أن اتصالها بقصص إبراهيم ضعيف جداً (١) .

- وبما أن قصص إبراهيم هى جزء من قصص الآباء ، وقصص الآباء تلتحم مع قصص أخرى لتكوّن سفر التكوين ، فإننا نلاحظ أن هذه الأحداث المتعددة فى قصص إبراهيم تخلو من التطور الحكى الوثيق والمُعد جيداً من ناحية علاقة السببية الداخلية بين كل عناصر البناء ، ولكن وَحْدَ الشخصية فى هذه المجموعة القصصية أضفى عليها قدراً بسيطاً من الوحدة (٢)

- تحتوى هذه المجموعة القصصية على عدة اقتباسات (٣) نذكر منها على

سبيل المثال :

- (١) הסיפור המקראי , עמ' 84 .
- (٢) הלאבות האמנות' של הסיפור במקרא , עמ' 149 .
- (٣) المقصود هو اقتباس فقرة أو عدة فقرات متقاربة فى القصة الواحدة ، وحينما تكون الفقرة التالية مكررة تقريباً بشكل حرفى عن الفقرة التى سبقتها ، ويكون الاقتباس من النص أو اقتباس من المتحدث الأول قام به المتحدث الثانى ، ويجوز فى هذا الاقتباس تغيير ترتيب الكلمات واستبدال كلمة بأخرى ، أو حذفها أو إضافة كلمة جديدة . وهذه التغييرات ليست فوارق ! سلوبية فقط ، وإنما هى تعبير عن معنى رئيسى فى القصة ، وقد لاحظت ذلك نحما ليبوبيتش وقالت : " لقد أخطأ رابى إبراهيم بن عزرا ، ورابى داود قمحى حينما اعتقدا أن النص يحافظ على الإيقاعات لا الكلمات ، ولم يشعرا بأنه حتى مع تغيير كلمة واحدة يتغير الإيقاع كله .
انظر : לאורם חדשים בספר שמות , עמ' 72 , הערה 4 ,
ירושלים , תשל"ג .

ות צחק שרה בקרבה לאמר: ויאמר יהוה אל אברהם:
 "אחרי בלתי היתה לי עדנה? למה זה צחק שרה, לאמר:
 ואדני זקן (١) "האף אמנם אלד
 ואני זקנת (٢)

فضحكت سارة في نفسها قائلة فقال الرب لإبراهيم:
 "أبعدَ فئاضى يكون لى تنعم؟ لماذا ضحكت سارة ، قائلة
 وسيدى قد شاخ " هل حقاً ألد
 وأنا عجوز "

القول الأول ينسب لسارة وهو ليس تعبيراً كلامياً موتياً ، وإنما خواطر
 داخلية فقط ، بينما القول الثانى ينسب للرب ، وواضح أنه اقتباس لكلمات
 سارة ، وقبل القولين المباشرين لسارة وللرب نجد كلمة " לאמר " قائلا ،
 ونلاحظ أيضا أن السطر الأول فى " الاقتباس " ليس مقتبساً تماماً ، وإنما هو
 تفسير نشرى بلاغى لكلمات سارة ، وفى السطر الثانى يحدث تغيير ، فمع أن
 الجذر " אץ " شاخ " موجود هنا وهناك ، إلا أن هناك تغيير دلالى :
 فسارة تقول أن ابراهيم قد شاخ ، بينما يقتبس الرب قولها فى تعبير دلالى
 جديد ويقول : إنها هى العجوز (٣) .

ونخلص مما سبق الى أن :

- ١ - الانتقال من القصة الواحدة المستقلة إلى المجموعة القصصية هو
 تركيز قصص مختلفة ذات أحداث متعددة فى مجموعة قصصية واحدة بطلها واحد .
- ٢ - اختلاف مصادر هذه القصص ، الأمر الذى أدى إلى اختلاف روحها ،
 وتنوعها .
- ٣ - تخلو المجموعة القصصية من الوحدة البسيطة التى توجد فى القصة
 الواحدة ، ولكن تتفح وحدتها عن طريق شخصيتها الرئيسية وارتباطها بمجموعة
 الأحداث فيها .

(١) בדאשית יח, ב' (٢) בדאשית יח, ג' .

(٣) ويفسر راشى ذلك بأن الرب لا يريد المساس بالمكانة العظيمة لإبراهيم .
 انظر : אר"ה סולה, לעקרון "נשנוי המובאה" בס' פור' המקרא,
 עמ' 256 , בית מקרא (28) תשמ"ג .

ثالثاً : القصة الطويلة :

على الرغم من أنه من الملاحظ في قصص التوراة أنها تتميز بالتركيز والتكثيف إلا أن اتساع الرقعة في بعض هذه القصص قد يسمح للقصة بأن تسرد عالماً كاملاً بعمومه ووقائعه ، ومن هذا النوع من القصص نجد قصة يوسف التي تنقلنا من بيئة الآباء الرعوية إلى البيئة الحضارية المصرية ، وتصف لنا اللقاء بين بنى إسرائيل الذين اعتادوا على الترحال والتجوال في أرض كنعان ، والحضارة المصرية العظيمة ، فالقصة تسرد لنا حياة " يوسف " بكل تفاصيلها ، بالإضافة إلى أنها تقدم رؤية للحياة خلال دراما حياة يوسف وإخوته بفصولها المختلفة (١) ، ويهمننا أن ندرس تلك القصة من بعض جوانبها الفنية والتعرف على مصادرها فيما يلي :

أولاً : المصادر :

امتزجت في القصة ثلاثة مصادر هي : اليهوى (ي) والإلهيمي (أ) ، وحواشي الكهنة (ك) ، ويبرز هذا الامتزاج في الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين الخاص بفصل من فصول القصة . وطبعاً لا أثر هنا للتثنية (ث) وهي المصدر الثالث لاستقلالها بمكان معين في التوراة هو السفر الذي يحمل هذا الاسم (٢) .

في الإصحاح السابع والثلاثين المذكور يبدأ السياق بمقدمة تمهيدية من حواشي الكهنة تستغرق الفقرة الأولى وصر الفقرة الثانية ونصها :

(١) וַיֵּשֶׁב יַעֲקֹב בְּאֶרֶץ מִצְרָיִם אַבְרָהָם בְּאֶרֶץ כְּנָעַן .

- وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان .

(٢) אֱלֹהֵי תוֹלְדוֹת יַעֲקֹב - هذه مواليد يعقوب .

وبعد ذلك يمكننا أن نحلل العنصرين اليهوى والإلهيمي كلا برؤايتهم المتمثلة

المتكاملة القائمة بنفسها كما يلي :

(١) הַסְּפֵר הַמִּקְרָא' , לַכַּל' ١١٣ .

(٢) د. حسن ظاظا : الفكر الديني الإسرائيلي . ص ٣١ .

- (צ) וישראל אהב את יוסף מפל
כנו פי-בן-זקנים הוא לו
ועשה לו פתנת פסים.
(ע) וידאו אחיו פי-אתו אהב
אברהם מכל-אחיו וישנאו
אותו ולא יכלו דברו לשלם.
(כ) וילכו אחיו לרעות את
צאן אביהם בשכם.
(כז) ויאמר ישראל אל-יוסף
הלא אחיך רעים בשכם
לכה ואשלמך אליהם ויא-
מר לו הנני.
(כח) וביא שכמה.
(כט) ובטרם יקרב אליהם
ויתנבלו אתו להמיתו⁽¹⁾
(ל) וישמע ראובן (יהודה)
ויצלהו מידם ויאמר לא נפנו
נפש.
(לז) היה יוסף רעה את אחיו
בצאן והוא נער את בני בל-
הה ואת-בני זלפה נשי אביו
ויבא יוסף את-דבתם רעה אל
אביהם.
(מ) ויחלם יוסף חלום ויגד לאחיו
ויוספו עוד שנא אתו.
(נ) ויאמר אליהם שמעו-נא
החלום הזה אשר חלמתי.
(ז) והנה אנחנו מאלמים אלו-
מים בתוך השדה והנה קמה
אלומתי וגם-נצבה והנה תס-
ובינה אלומתיכם ותשתחוין
לאלומתי.
(ח) ויאמרו לו אחיו המלך
תמלך עלינו אם משל תמ-
של בני ויוספו עוד שנא א-
ותו על חלמתי ועל דבריו.

(1) هذا التصحيح من اقتراح لوسيان جوتيه . اعتمدا على أن المذكور في السياق (الفقرة 26) هو يهوذا لا رأوبين ، إذ أن رأوبين إنما يظهر في القصة بروايتها عن المصدر الألوهيمي بدلا من يهوذا الذي لا يذكر هناك .
انظر : د. حسن ظاظا : الفكر الديني الاسرائيلي . ص 22 .

- (א) ויהי כאשר-בא יוסף אל אחיו .
- (ב) וישבו לאכל-לחם ויש-או עיניהם ויראו והנה ארחת ישמעאלים באה מגלעד וגמליהם נשאים נכאת וצדי זלט קולכים להוריד מצרימה .
- (ג) ויאמר יהודה אל-אחיו מה-בצע פי נהלג את-אחינו וכסינו את דמו .
- (ד) לכו ונמכרנו לישמעאלים וידנו לא-תהי-בו פי-אחינו בשכנו הוא וישמע-אחיו .
- (ה) וימכרו את יוסף לישמעאלים בעשרים כסף .
- (ו) ויקחו את כתנת יוסף .
- (ז) ויביאו אל-אברהם ויאמרו: זאת מצאנו הכר-נא הפתנת בנך הוא אם-לא ?
- (ח) ויחלם עוד חלום אחר ויספר אתו לאחיו ויאמר הנה חלמתי חלום עוד והנה השמש והירח ואחד עשר כוכבים משתחוים לי .
- (ט) ויספר אל-אביו ואל-אחיו ויאמר לו מה החלום הזה אשר חלמת הבוא נבוא אני ואמך ואחייך להש-תחות לך ארצה .
- (י) ויקנאו-בו אחיו ואביו שמר את-הדבר .
- (יא) ויאמר לו לך-נא ראה את-שלום אחייך ואת-שלום ה-צאן והשבני דבר וישלחהו מעמק חברון .
- (יב) וימצאהו איש והנה תעה בשדה וישאלהו האיש לאמר מה-תבקש ?
- (יג) ויאמר את-אחי אנכי מבקש הגידה-נא לי איפה הם לעים .

(טז) ויפירה ויאמר פתנת בני (יז) ויאמר האיש נסעו.
 חיה רעה אכלתהו טרוף - מזה כי שמעת' אמרים
 טרוף יוסף. נלכה דתינה וילך יוסף.
 (יח) ויקמוי כל-בניו וכל-בנתו: אחר אחיו ומצאם בדותן:
 לנחמו וימאן להתנחם ויאמר: (יט) ויראו אותו מרחק.
 כי-ארד אל בני אבל שאלה (יט) ויאמרו איש אל-אחיו
 ויבך אתו אביו. הנה בעל החלמות הלזה
 בא.
 (כ) ועתה לכו ונהרגהו: (כא) ונשלכהו באחד הברות
 נהו. [פוטיופך סריס פרעה ש- ואמרנו חיה רעה אכלת-
 ר הטבחים] איש מצרי מיד הו. ונראה מה-יהיו חל-
 הישמעאלים אשר הורדהו: מלתו.
 שמה. (כב) ויאמר אלהים ראובן
 אל-תשפכו-דם השליכו
 אתו אל הבור הזה אשר
 במדבר ויד אל-תשלחו-בו
 למען הציל אתו מידם ל-
 השיבו אל-אביו.

(1) مابين قوسين في كلا العمودين من مصدر حواشي الكهنة . (ك) .

(43) ויפשיטו את-יוסף את-כתנתו
[את-כתנת הפסים אשר עליו].
(44) ויקחוהו וישלכו אתו הברה
[והבור גק אין בו מים].
(45) ויעברו אנשים מדינים סחריים
וימשכו ויעלו את-יוסף מן-הבור.
(46) ויביאו את-יוסף מצרימה.
(47) וישב ראובן אל-הבור והנה
אין-יוסף בבור ויקרע את בגדיו.
(48) וישב אל-אחיו ואמר הילד איננו.
וואנ' אנה אנ' בא.
(49) וישחטו שער עדים ויטבילו את
הכתנת בדם.
(50) וישלחו את-כתנת הפסים.
(51) ויקרע יעקב שמלתו וישם -
שק במתנו ויתאבל על-בנו ימים
רבים.
(52) והמדינים מכרו אתו אל-מצ-
רים לפוטיפר סריס פרעה שר הטבחים.

(١٠)

(٣) وأحب إسرائيل يوسف أكثر من سائر بنيهِ ، لأنه ابن شيخوخته . فصنع له قميصاً ملوناً .

(٤) فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من كل إخوته ، أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام .

(١٢) ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم .

(١٣) فقال إسرائيل ليوسف: إخوتك يراعون عند شكيم . تعال فأرسلك اليهم . فقال له هانذا .

(١٤/ب) فأتى إلى شكيم .

(١٨/ب) وقبل أن يقترب منهم تأمروا عليه ليقتلوه .

(٢١) فسمع راوبين (يهوذا؟) وأنقذه من بين أيديهم ، وقال لا نقتله .

(٢٣/١) فكان لما جاء يوسف إلى إخوته .

(٢٥) وجسوا لياكلوا طعاماً ، أن رفعوا

عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين

قادمة من جلعاد ، وجمالهم محملة

بالتوابل والعطر واللادن . ذاهبين

بها إلى مصر .

(٢٦) فقال يهوذا لإخوته : ما الفائدة

أن نقتل أخانا ونخفي دمه ؟

(٢٧) تعالوا فنبيعه لإسماعيليين ولا

(٢)

(٢/ب) كان يوسف يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام ، عند بني بلهة ، وبنتى زلفة ، امرأتى أبيه . وأتى يوسف بنميتمهم الرديئة إلى أبيهم .

(٥) وحلم يوسف حلماً وأخبر إخوته ، فأزدادوا كذلك بغضاً له .

(٦) فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذى حلمت .

(٧) إذ كنا نضم حزمنا فى الحقل ، وإذا حزمتى قامت وانتصبت فاحتاطت بها حزمكم وسجدت لحزمتى .

(٨) فقال له إخوته : أهلك تملك علينا ملكاً أم تتسلط علينا تسلطاً . وازدادوا أيضاً بغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه .

(٩) ثم حلم أيضاً حلماً آخر وقصه على إخوته فقال إنى قد حلمت حلماً أيضاً ، وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً تسجد لى .

(١٠) وقصه على أبيه وعلى إخوته . فانتهره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذى حلمت ؟ هل أتى أنا وأممك وإخوتك لنسجد لك أرضاً ؟

(١١) فحمده إخوته . وأما أبوه فإنه أسر الأمر .

- تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا .
 فسمع له إخوته .
 (٢٨/ب) وباعوا يوسف لإسماعيليين
 بعشرين من الفضة .
 (٢٩/أ) وأخذوا قميص يوسف .
 (٣٢/ب) وأحضروه إلى أبيهم وقالوا:
 وجدنا هذا . انظر أقميص ابنك هو
 أم لا ؟
 (٣٣) فتحققه وقال : قميص ابني .
 حيوان مؤد أكله . افترس يوسف
 افتراساً .
 (٣٥) فقام جميع بنيهِ وجميع بناتهِ
 ليعزّوه . فأبى أن يتعزى وقال : إنى
 أنزل إلى ابني نائحاً حتى الهاوية .
 وبكى عليه أبوه .
 إصحاح ٣٩ :
 (١) وأما يوسف فأنزل إلى مصر ،
 واشتراه رجل مصرى (فوطيفار خصى
 فرعون ، رئيس الشرط) من يـــــــد
 الإسماعيليين الذين أنزلوه إلى هناك .
 (١٤/أ) وقال له : اذهب أنظر سلامة
 إخوتك وسلامة الغنم وردّ لى خبيراً .
 وأرسله من وادى حبرون .
 (١٥) فوجده رجل ، وإذا هو ضال فى
 البرية . فسأله الرجل قائلاً : عمّ
 تبحث ؟
 (١٦) فقال أبحت عن إخوتى . أخبرنى
 أين يرعون ؟
 (١٧) فقال الرجل : لقد ارتحلوا من
 هنا لأنى سمعتهم يقولون لنذهب إلى
 دوشان . فذهب يوسف وراء إخوته
 فوجدهم فى دوشان .
 (١٨/أ) فلما أبصروه من بعيد .
 (١٩) قال بعضهم لبعض هوذا صاحب
 الأحلام قادم .
 (٢٠) والآن هيا نقتله ونطرحه فى بعض
 الآبار ونقول إن حيواناً مؤذياً أكله ،
 ونرى ماذا تكون أحلامه .
 (٢٢) فقال لهم رأوبين : لا تسفكوا
 دماً . اطرحوه فى هذه البئر التى فى
 البرية ، ولا تلقوا أيديكم عليه
 وقصده أن يخلصه من أيديهم ويرده إلى
 أبيه .
 (٢٣/ب) فخلعوا عن يوسف قميصه (القميص
 الملون الذى عليه) .

(٢٤) وأخذوه وطرحوه فى البئر (والبئر

كانت فارغة ليس فيها ماء) .

(٢/٣٨) واجتاز رجال مدينيون تجار ،

فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر .

(٣٨/ج) وأتوا بيوسف إلى مصر .

(٢٩) ورجع رأوبين إلى البئر وإذا

يوسف لم يعد فى البئر . فمـزق

ثيابه .

(٣٠) ورجع إلى إخوته وقال : الولد

غير موجود ، وأنا إلى أين أذهب ؟

(٣١/ب) فذبحوا تيساً من الماعـز

وغمسوا القميص فى الدم .

(١/٣٢) وأرسلوا القميص الملوّن .

(٣٤) فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً

على حقويه وناح على ابنه أياماً

كثيرة .

(٣٦) وأما المدينيون فباعوه للمصريين

لفوظيفار خـمى فرعون رئيس الشرط .

ويقول " لوسيان جوتيه " إنه من الشهل أن نلاحظ فى نتيجة هذا التحليل

أن السياق (ى) يذكر أن الإسماعيليين التقطوا يوسف معهم ، بينما (أ) يذكر

المدينيين . كذلك تقول القصة فى روايتها (ى) أن أبناء يعقوب يتخلصون من

يوسف ببيعه ، أما فى قصة (أ) فإنهم يلقونه فى الجب الذى ينقذه منه ، على

غير علم إخوته ، جماعة من التجار الذين مروا بالمكان ثم يحضرونه معهم

إلى مصر (١) .

(١) د. حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى . ص ٣٥ .

واختلاف المصادر هنا يجعلنا نقول أن هذه القصة مثلها مثل العديد من قصص التوراة تتألف من قصتين متباينتين مزجت كل منهما بالآخرى دون تدقيق أو تنسيق ، الأمر الذى أدى إلى شيوع التكرار فيما يتصل ببعض أجزاء القصة وشيوع التناقض فى أجزاء منها . .

ثانياً : الخصائص الفنية فى قصة يوسف :

لاشك أن قصة يوسف فى التوراة غنية بخصائص فنية عديدة ، بعضها تشترك فيه مع بقية قصص التوراة ، والبعض الآخر تختص به وحدها . ومن هذه الخصائص :
١ - ترد أحياناً أحداث عرفية فى مواقع مختلفة من القصة يعرفها القاص ولا يعرفها أحد الأبطال ، فأحياناً عند تكوين نسيج الحكمة يضطر القاص لسرد أحداث وقعت فى وقت واحد فى أماكن مختلفة . ترد بصورة متقطعة لتعبر عن وجهات نظر شخصيات مختلفة . من ذلك :

١ - عندما ذهب يوسف خلف إخوته وعثر عليهم : "فى" دوشان " تخطى القاص وجهة نظره قبل أن يمل إليهم وقصّ رؤية الإخوة بحيث جعل القارىء يحس بقوة بالمسافة بينه وبينهم ، فمؤامرة الاحتيال التى تم نسجها فى مكان وجودهم ، موجهة ضد يوسف ، فى حين أنه ، كمحور لحبكة الأحداث التى سبقت فى القصة ، لا يعلم شيئاً عن ذلك ، لبعده المكانى عن مجال حديثهم (١) . هذه المؤامرة التى يعلمها القارىء قبل أن يعلمها يوسف ، تترك انطباعاً قوياً لدى القارىء ؛ لأن ما تم قصه من قبل عن موافقة يوسف أبيه فى طاعة تامة لرؤية سلامة إخوته فى شكيم قد جرى فى الواقع بشكل تهكمى : "וַיִּשְׁכַּם יוֹסֵף בְּעֵינָיו" (٢) - فقال له هاأندا " . لقد كان رد فعل يوسف فورياً . بدون شروط ، عندما أمره أبوه برؤية سلامة إخوته ، ونلاحظ ذلك من كلمة "וַיִּשְׁכַּם" هاأندا "لينبهننا القاص إلى أنه رغم علم يوسف بكراهية إخوته له ، إلا أنه أعرب بلغة سريعة عن طاعته لأمر أبيه ، وهذه الأحداث التى قصّها القاص بشكل تهكمى هى أول

(١) راجع التكوين ٣٧ : ١٨ - ٢٢ .

(٢) راجع التكوين ٣٧ : ١٣ .

مرحلة من مراحل بيع يوسف ، وبعد ذلك تقدم القصة ، وليس ذلك من طريقــة التوراة فى عرض القصص - تفاصيل واقعية وافية عن ضلال يوسف فى الطريقــق ليؤكد تمسك يوسف بتنفيذ أمر أبيه وأنه لم يرغب فى العودة بعد عدم عشوره عليهم فى شكيم ، ولكنه بحث عنهم حتى وجدهم ، وهنا يسهب القاص فى هذا الموقف ليشير إلى أنه كانت هناك أسباب عديدة تجعل يوسف يعود إلى أبيه ، ولكنه تحمّل كل شيء من أجل احترام كلمة أبيه ، وأن تمسك يوسف برؤية سلامة إخوته تتعارض مع احتيال إخوته لقتله ، وهذه المقابلة تحمل فى طياتها مؤشرات لها دلالات قوية تؤثر بشدة على وعى وإدراك القارئ (١) .

إن ظهور يوسف المفاجئ أشار فى الإخوة فكرة الاحتيال لقتله ، فكونه مازال بعيداً عنهم سمحت لهم بوقت كاف للتشاور من أجل تخفيف الحكم بقتله ، ويتضح ذلك من موقف أخيه راوبين (٢) . وهكذا أدت عملية الاضرار والافساح ما بين موقف يوسف وموقف إخوته إلى وجود مؤشر درامى فعال أدى بدوره إلى مشاركة القارئ فى هذا التحوار الدرامى ، الذى وضع يوسف فى كفة الميزان ، بدون أن يعرف أن قدميه اللتين تقودانه إلى إخوته ، إنما تقودانه إلى الموت ، ولذلك استخدم القاص طريقة " الميزان " لكى يخفف قليلا من إحساس

(١) *נפתלי טוקר: עיונים נוספים במלאכת סיפור פרשת מב' ידת יוסף, לאמ' 269, ע'ל' ש"ח 17-18 'ירושלים תשמ"ג 1983.*

(٢) " وقال لهم راوبين لا تسفكوا دماً . أطرحوه فى هذه البئر التى فى البرية ولا تمدوا إليه يدآ . لكى ينقذه من أيديهم ليردّه إلى أبيه " (تكوين ٣٧ : ٢٢) ويلاحظ فى هذا الحديث دلالة على إيمان العبريين بالمذهب الحيوى وخوفهم من انتهاك تابو الدم ، فالدم عندهم ينطوى على مادة الحياة . راجع (التثنية ١٢ : ٢٣) و(مزامير ٥١ : ١٤) فإذا سفاك الدم خرجت معه روح القتل وأنشأت تقتص من سفك دمه . وفى نهاية القصة دلالة أخرى على تغفل هذه العقيدة فى نفوسهم ، فعندما عثف يوسف فى مصر بإخوته - وهم لا يعرفونه - تذكروا ما فعلوه بأخيهم الذى فقدوه من قبل : " فأجابهم راوبين قائلاً ألم أكلّمكم قائلاً لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا فهذا دمه يطلب " (التكوين ٤٢ : ٢٢) .

انظر : عصام الدين حفى ناصف : الأسطورة والوعى . ص ٧٢ - ٧٣ .

القارىء بهذا الموقف الكئيب ، ولكن بعد عشرين سنة من هذا الموقف ، عندما أتى الإخوة أمام يوسف ووقفوا موقف المتهمين ، نجد فى كلامهم مدى ليكساء يوسف داخل الجب وتوسله لإخوته وهم عنه لاهون (١) ، ومع ذلك لم ينجح القاص فى وضع هذا الصدى فى مكانه الصحيح ، فمع مواصلة لقائه مع إخوته فى دوشان ثم إلقاءه فى الجب ثم بيعه ، نجد أن القاص لم يذكر شيئاً عن ردود أفعال يوسف حيث إلترزم القاص الصمت تجاهها ، ويبدو أنه أراد أن يقلل من مدى خطيئة الإخوة وقت قيامهم بها ومن أجل أن يحسم تماماً الكفة ضدهم (٢) .

ب - لقد كان اختيار القميص الملون من قبل الإخوة ليشير إلى سخريتهم وتهكمهم ، فهم يعملون انتقامهم من أخيهام بواسطة المادة نفسها التى أشارت غيرتهم وكراهيتهم ، فرغم أن هذا الاختيار مرتبط وموتيف القميص فى القصة إلا أنه كان وسيلة بارزة بالضغط على الأب . بالإضافة إلى أن القاص استخدم التعبير : " ויכירה ויאמר פלגרת בני " (٣) - فتحققه وقال قميص ابنى - ومن قبله التعبير المجرد : וישלחה את - כתר הפסים (٤) وأرسلوا القميص الملون - الذى استخدمه

(١) حيث سبب لإخوته بموء لقائه إياهم مرة بعد أخرى ضيقاً وغتاً إذ أنه :
١- اتهمهم بالتجسس : " فتذكر لهم وتكلم معهم بجفاء .. وقال لهمم جواسيس أنتم لتروا عورة الأرض جئتم " (التكوين ٤٢: ٧-٩) . وأودعهمم غياهب السجن بهذه التهمة المزرية التى يعاقب مقترفها بالقتل .
٢- دسّ فضتهم التى اشتروا بها القمح فى أعدالهم دون أن يعلمهم بذلك ، فلما ألفوها فى أعدالهم طارت قلوبهم شتاتاً وأحسوا أنهم قد أهدقوا بهم تهمة جديدة ذات عقوبة شديدة " فطارت قلوبهم وارتعدوا بعضهمم فى بعض " . (التكوين ٤٢ : ٢٨) .
٣- أرغمهم على أن يحضروا معهم أخاهم الأصغر تاركين أباهم فى قلق ولوعة
٤- وضع طاس الفضة فى عدل شقيقه بنيامين ثم أرسل من ضبطه . راجع (التكوين ٤٤ : ١٣-١٥) .

انظر : عصام الدين حفى ناصف : الأسطورة والوعى . ص ٨٨ - ٨٩ .

- (٢) עיונים נוספים במלאכת ספוד פרשת מפידת יוסף , עמ' 270 .
(٣) בדאשית לז, ٢٦ .
(٤) בדאשית לז, ٢٦ .

القاص لإشارة إلى جريمتهم ، قد ألمح إلى أنهم لم يحضروا القميص ، بأنفسهم إلى أبيهم ، وإنما أرسلوه مع بعض الرسل الذين لم يعلن لنا القاص من هم هؤلاء الرسل ، وإنما ذكر على لسانهم قولهم : " **זאת מצאנו** "

הפתנת בנך " (١) - وجدنا هذا. أقميص ابنك - ولو أحضره الأخوة لكانوا يقولون : " **הפתנת יוסף** " أقميص يوسف " ، ولذلك لم يشهد إخوة يوسف رد فعل أبيهم عند رؤيته قميص ابنه ، وذلك لوجودهم في ذلك الوقت في دوشان ، ومع هذا يحتمل أنهم لم يجدوا لديهم الشجاعة لمواجهة أبيهم وتفليله وجهاً لوجه ، ولذلك أرسلوا القميص إليه مع رسل آخرين (٢) .

ج - هناك ارتباط وثيق يشير إلى التهمك والسخرية ، وذلك بين افتتاحية مشهد إرسال يوسف إلى أخوته ، وختام هذا المشهد ، حيث افتتح المشهد بقول يعقوب لابنه : " **לכה ואשלחך אליהם** " (٣) - تعال فأرسلك إليهم . ثم يستخدم القاص الأسلوب نفسه بعد ذلك " **וישלחו מעמק חבדון ויבוא שכמה** " (٤) - فأرسله من وطاء حبيرون

فاتى إلى شكيم. وبمقابلة ذلك بارسال القميص إلى يعقوب فى ختام المشهد : " **וישלחו את בתנת-הפסים וביאוי אל אביהם** " (٥) - وأرسلوا القميص الملون وأحضروه إلى أبيهم .. وهكذا اختتم هذا المشهد بنهاية مأساوية ... فقد طلب يعقوب من يوسف إرساله إلى إخوته لرؤية سلامتهم ، ثم أرسل الإخوة قميص أخيه مغموساً بالدم إلى أبيهم (٦) .

٢ - دور القاص فى قمة يوسف :

- مما سبق يتضح لنا أن القاص يجد أحياناً من الضروري أن يقص أحداثاً

- (١) **בדאשית לז, לא.**
- (٢) **עיונים נוספים במלאכת סיפור פרשת מכירת יוסף, עמ' 270.**
- (٣) **בדאשית לז, ג.**
- (٤) **בדאשית לז, ד.**
- (٥) **בדאשית לז, לב.**
- (٦) **עיונים נוספים במלאכת סיפור פרשת מכירת יוסף, עמ' 270.**

معينة يتعين على القارئ معرفتها ، وأحياناً أخرى يقص أجزاء من أحداث يجد أنه ليس من الضروري تفصيلها . وعلى هذا الأساس يشعر القارئ بانتقاء القاص لأحداث معينة في القصة لكي يعرفها القارئ ، وبذلك يخلق القاص فجوات في مشاهد القصة لكي يشير خيال القارئ لملئها باحتمالات مختلفة ، بناءً على أسانيد موضوعية ورموز إرشادية قدمها القاص . ومن ناحية أخرى فإن انتقاء القاص لأحداث معينة ركّز الاهتمام حولها وجعلها مفتاحاً مؤقتاً لما سوف يطرأ بعد ذلك من أحداث مستقبلية في القصة ، وأنموذج ذلك يتضح خلال وصفه لعمل يوسف : "וַיִּבְנֵה יוֹסֵף אֶת דְּבַתָּם רֶעָה אֶל אֲבִיהֶם" (١) - وأتى يوسف بنميتهم الرديئة إلى أبيهم . حيث لم يجد القاص ضرورة لذكر مضمون هذه النميمة ، فيحتمل أنه أخير أبيه نميمة كانوا يقولونها فـد بعضهم البعض ، بالإضافة إلى أن عدم ذكر النميمة لا يعرقل تطور حبكة القصة أو فهمها ، فضلاً عن أنه يدفع القارئ إلى حب الاستطلاع ، الأمر الذي يشير خياله . . . والواقع أنه آيّا كان محتوى هذه النميمة الرديئة ، فقد أصبحت خلفية أساسية لكراهية إخوة يوسف له ، ولذلك يسرع القاص في أن يعقبها بقوله : "הַיִּשְׂרָאֵל אָהַב אֶת יוֹסֵף מִכָּל בְּנָיו" (٢) - وأما إسرائيل فاحبّ يوسف أكثر من سائر بنيهِ .

- إن القاص في قصة يوسف لم يتعمق في التحليل النفسي لأبطال قصته ، فمع اهتمامه بالحالات النفسية لأبطاله إلا أنه لم يكن في استطاعته تقديمها في أسلوب واضح ، ويتضح لنا ذلك من طريقته في نسج الحبكة القصصية ، حيث يمهّد مسبقاً بالحالة النفسية للبطل لكي يشير إلى طبيعة أقوال البطل التي يوشك على قولها ، فبعد قصّة لحلم يوسف مهّد القاص وذكر : "וַיֹּאמֶר בְּ" (٣) - فانتهره أبوه . ثم قال بعد ذلك : "וַיֹּאמֶר -

(١) בראשית כז, ב .

(٢) בראשית לז, ג .

(٣) בראשית לז, ט א .

לֹא מִה הַחֲלֹם הַזֶּה אֲשֶׁר חֲלָמָתָּ (١) - וְקָאֵל לֵהּ מָה זֶה הַחֲלֹם הַזֶּה
 חֲלָמָתָּ . וְעַתָּה רְאוּיָהּ צִמְיִם יוֹסֵף , הַמְּגֻמָּס בַּדָּם , יִמְהַד הַצָּאֵן וַיִּקְרָא
 " וַיִּפְרֹדָהּ " (٢) - فَتִּחְקֶקْ . ثُمَّ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ : " וַיֹּאמֶר כִּתְּרֵנִי -
 בְּנֵי חַיִּיהֶם דַּעַה אֲכָלְתֶּהּ . טָרֶף טָרֶף יוֹסֵף " (٣) - וְקָאֵל צִמְיִם אֲבִנִי . وَحֶשׁ
 رَدِيءٌ أَكَلَهُ . افْتَرَسَ يَوْسُفَ افْتِرَاسًا . وَعِنْدَمَا قَامَ كُلُّ أَبْنَائِهِ وَبَنَاتِهِ لَتَعْزِيَّتِهِ ،
 مَهَّدَ الْقَاصِ وَقَالَ : " וַיֹּאמֶן לְהַתְּנַחֵם " (٤) - قָאֵבִי אֲנִי יִתְעַزֵּי , ثُمَّ
 ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً قَوْلَ يَعْقُوبَ : " וַיֹּאמֶר פִּי אֲדַד אֵל בְּנֵי אֲבִל
 שְׂאֵלָה " (٥) - وَقَالَ إِنِّي أَنْزِلُ إِلَى ابْنِي نَاحِثًا إِلَى الْهָאוِيَّةِ .
 وَعِنْدَمَا طَلَبَ يَوْسُفَ مِنْ أَبِيهِ أَنْ يَرْفَعَ يَمِينَهُ مِنْ عَلَى رَأْسِ " اِفْرَايִם " وَيَضَعَهَا
 عَلَى رَأْسِ " مَنَسֵי " ذَكَرَ الْقَاصِ فِي الْبِدَايَةِ : " וַיֹּאמֶן אֲבִי " (٦) -
 قָאֵבִי אֲבוֹה . وَتִלָּה بَعْدَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً قَوْلِهِ : " וַיֹּאמֶר יָדַעְתִּי בְנֵי יָדַעְתִּי , גַּם הוּא
 יִהְיֶה לָעַם , וְגַם הוּא יִגְדֹל , וְאֹלָם אַחִיו הִקְטִין יִגְדֹל מִמֶּנּוּ וְזֶ-
 דַּעַו יִהְיֶה מֶלֶךְ הַגּוֹיִים " (٧) - وَقَالَ عَلِمْتُ يَا أَبْنִי
 عَلِمْتُ . هُوَ أَيْضًا يَكُونُ شַעْبًا وَهُوَ أَيْضًا يَصِيرُ عَظِيمًا ، وَلَكِنْ أَخَاهُ الصَّغِيرَ يَكُونُ
 أَعْظَمَ مِنْهُ ، وَنَسْلُهُ يَكُونُ جُمْهُورًا مِنَ الْأُمَمِ . . . وَهَذِهِ التَّحْدِيدَاتُ الْمُسَبِّقَةُ الَّتِي
 ذَكَرَهَا الْقَاصِ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِيَعْقُوبَ فَقَطْ ، فَقَدْ حָدَدَ أَيْضًا قَوْلَ يَوْسُفَ مُسَبِّقًا فَقَالَ :
 " וַיֹּאמֶן " (٨) - قָאֵבִי . وَذَلِكَ رَدًّا عَلَى كَلِمَاتِ زَوْجَةِ " فَوُطِيفَار " -
 ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً : " וַיֹּאמֶן הֵן אֲדֹנִי לֹא יָדַע אֶת -
 מִה , בְּבֵית " (٩) - وَقَالَ - هُوَذَا سَيِّدِي لَا يَعْرِفُ مَعِيَ مَا فِي الْبَيْتِ ،

- (١) בְּדֹאשִׁית לִז, ט ב.
- (٢) בְּדֹאשִׁית לִז, ל ג.
- (٣) בְּדֹאשִׁית לִז, ל ג.
- (٤) בְּדֹאשִׁית לִז, לָה א.
- (٥) בְּדֹאשִׁית לִז, לָה ב.
- (٦) בְּדֹאשִׁית מַח, יט א.
- (٧) בְּדֹאשִׁית מַח, יט ב.
- (٨) בְּדֹאשִׁית לִט, ח א.
- (٩) בְּדֹאשִׁית לִט, ח ב.

وكذلك : " וידבר אתם קשות " (١) وتكلم معهم بجفاء . ثم
قوله لهم بعد ذلك مباشرة : " ויאמר אליהם מאין באתם " (٢)
- وقال لهم من أين جئتم .

يتضح مما سبق أن القاص قد كشف هذه الحالات النفسية لشخصياته لكي
يمهد لأحداث القصة ، وقد رسمها القاص في خطوط محددة ومركزة لإبراز عامل
الدوق الفني الذي يلقي الضوء على الأهداف التربوية في القصة ، ومن ناحية
أخرى فإنها تبدو رؤية صادقة لمصادقية المعرفة الشاملة للقاص (٣) .

- وأحياناً يتدخل القاص ليكشف عن دوافع نفسية لدى شخصياته ، وذلك
ليقدم التبريرات التي تمهد لعملهم مستقبلاً ، فحياناً يصف القاص في بداية
حلقة جديدة من الأحداث ملخصاً مجملًا لحدث سابق ، وذلك ليكون هذا الملخص
سبباً نفسياً لتطور جديد في الحبكة ، وبهذا الشكل تتوثق العلاقة السببية
بين حلقة وأخرى في سلسلة الأحداث وتتماسك الحبكة ويزداد الإدراك بالتدفق
الزمني فمثلاً قول القاص : " ויראו אחיו פי אתו אהב אביהם מכל אח
חיו ושנאו אתו ולא יכלו דבריו לשלם " (٤) - فلما رأى إخوته أن أباهم
أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام . ويتضح
من هذا القول أن مضمون حلقة الحدث الجديدة يمثل عنصراً رئيساً : " וישאר
אני אתו " - فأبغضوه " . ولكن القاص يفع قبله عنصراً سببياً :
" ויראו אחיו פי אתו אהב אביהם מכל אחיו " - ورأى إخوته
أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته . والقاص هنا استخدم حلقة الحدث التي
سبقها العنصر الرئيسي : " וישאר את אהב את יוסף מכל אחיו " (٥)

(١)	בראשית לב, ٢	أ.
(٢)	בראשית מב, ٢	ب.
(٣)	נפתלי טוקר: לדרכו של הכותב המקראי בתאור מצבים נפשיים של הדמויות, עמ' 232. ב'ת המקרא, ירושלים 1982.	
(٤)	בראשית ٢, ٢٠	د.
(٥)	בראשית ٢, ٢١	هـ.

מתעاقבין זמניא : قول ثم توصية بالفعل : " וירא יוסף כי 'שית אביו'
 יד ימינו על ראש אפרים וירע בעינו ויתמך יד אביו -
 להסיר אתה מעל ראש אפרים על ראש מנשה ויאמר
 יוסף אל אביו לא בן אבי, כי זה הבכור, שים ימינך על ראשו" (1) -
 فلما رأى يوسف أن أباه وضع يده اليمنى على رأس إفرايم ساء ذلك في عينيه .
 فامسك بيد أبيه لينقلها عن رأس إفرايم إلى رأس منسى . وقال يوسف لأبيه
 ليس هكذا يا أبى لأن هذا هو البكر . فعلى يمينك على رأسه . ولكن وضع
 يعقوب يده اليمنى على رأس إفرايم قد تم وصفه في الحلقة السابقة :
 " וישלח ישלח את ימינו וישת על ראש אפרים והוא הצעיר,
 ואת שמאלו על ראש מנשה " (2) - فمد إسرائيل يمينه ووضعها على
 رأس إفرايم وهو الصغير ، ويساره على رأس منسى . - إذاً تكرر هذا العمل في
 الحلقة التالية ليصبح عنصراً سببياً للتطور الجديد في الأحداث . ولكن على
 عكس النماذج السابقة جاء رد الفعل هذه المرة من قبل يوسف : "
 ויתמך יד אביו להסיר אתה " (3) - فامسك بيد أبيه لينقلها -
 وتلاه رد فعل لفظي : " ויאמר יוסף אל אביו לא בן אבי " .
 .. وقال يوسف لأبيه : ليس هكذا يا أبى .

- وأحياناً يتدخل القاص لتبرير أو تفسير ظاهرة مبهمة على القارئ -

العبري : " וישימו לו לבדו ולחם לבדם ולמזכרים האכלים
 אחד לבדם כי לא יוכלון המזכרים לאכל אחד מהם
 לחם כי יעבה הוא למזכרים " (4) - فقدموا له وحده . وللمصريين الذين ياكلون عنده

-
- (1) בראשית מח, ז' - ח'.
 - (2) בראשית מח, יד.
 - (3) בראשית מח, ז'.
 - (4) בראשית מח, ח'.
 - (5) וانتظر : לדרכו של הבתוב המקראי, עמ' 234 - 235.
 - (6) בראשית מג, לב.

وخدمهم ، لأن المصريين لا يقدرّون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين .. وكما هو واضح فإن هذا المشهد المستغرب لدى القارئ العبري يحتاج إلى توضيح من القارئ لكي يزيل دهشة القارئ العبري بشأن دلالة هذه الظاهرة . ومما لا شك فيه أن هذا التبرير يوقف مؤقتاً الترتيب الزمني للقصة ، ولكنه من ناحية أخرى يجسد حضور القاص واستعراضه لمعلوماته الوفيرة حول أحداث القصة (١) .

ويفسر القاص أيضاً المدة التي استغرقها تحنيط يعقوب وذلك بقوله :
 " כִּי בֶן יַמְלֵאוֹ יִמֵּי הַחַנוּטִים " (٢)
 - لأنه هكذا تكمل أيام المحنطين (٣) .

وهكذا حرص قاصو قصة يوسف على أن يكفلوا لها الذبوع والانتشار ، ولذا جعلوها تنطوي على عواطف جيّاشة وتتخلّلها دسائس ومغامرات ولكن نظراً لتعدد مصادر القصة فقد وقع القصاصون في أخطاء تاريخية عديدة مما أدى إلى شيوع التناقض في أجزاء منها .

- (١) לדרפו של הפתוב המקראי, עמ' 236 .
 - (٢) בראשית ל, ג .
 - (٣) ويحتوى سفر التكوين كذلك على عدد من الموضوعات والظواهر التي لم تذكر إلا في هذا السفر دون أسفار العهد القديم ، أو على الأقل هناك أنموذج لها فقط في الآداب القديمة ، فلم يذكر في أي موضع آخر في العهد القديم عادة التحنيط على سبيل المثال أو وضع الميت في تابوت . (راجع التكوين ٥٠ : ٢٦) .
- انظر : 'חזקאל קויפמן, תולדות האמונה הישראלית
 כרך א', עמ' 2٥9, מוסד ביאליק ירושלים, הדפסה
 תשי"ט תשל"ו .

الباب الثالث الدراسة المقارنة

مقدمة :

إن دراستنا المقارنة تهتم بعناصر التوازي على أساس من علاقته المشابهة والمخالفة، فلا تغفل الدراسة عن المغايرة الشكلية والمضمونية بين قصص القرآن الكريم، الذي جاء به نبي واحد هو سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وكَمَّلَ كلَّه في حياته، على مدى ثلاث وعشرين سنة، كان أشنأها حريماً على تقييده بالكتابة، يأمر بذلك كتبة الوحي ويمليه عليهم، ويراجعه معهم؛ وقصص التوراة، التي ليس في الوسخ تحديد قاطع لها، وإنما هي اجتهادات الباحثين والعلماء التي ترجح أن معظمها كان موجوداً ومعتزفاً بقداسته لدى اليهود منذ عهد الاسكندر الأكبر (عام ٣٣٠ ق.م)، "كما اتفق معظم الباحثين والمفسرين على تعدد المصادر التي جمعت منها التوراة، وأهمها المصنوع الإلهي، والمصنوع اليهودي، والذائع أن بعض هذه المصادر كُتِبَ حوالي القرن العاشر ق.م، على أيام المملكة الإسرائيلية، وبعضها الآخر كُتِبَ في القرن السادس ق.م. أشنأ السبي البابلي، وأيما كان الأمر فإن أقدمها عهداً يروى أحداً تعزى إلى زهاء ألف سنة مضت قبل تسجيلها، بالإضافة إلى تأثر كاتبها بالتوراة بالتراث الأدبي والأسطوري لشعوب الشرق الأدنى القديم، هذا التراث الذي كان إحدى مواد البناء داخل التوراة" (١)

وهذه الأمور كلها تنطوي ضمناً على أن تدوين التوراة تعرض لتعديلات كثيرة

(١) م.د. كاسوتو، تורת התעודות וסידורם של ספרי התורה، עמ' ٦١، ירושלים، תשי"ג.
- מ.ז. סגל، נשיטת המקורות בחיבור התורה، עמ' ١-١٤، ספר אודבך، ירושלים، תשט"ו.

حتى تكون أكثر مطابقة للأغراض التي دعت إلى كتابتها ، إذ أن هذا الكتاب الذي بين أيدي المسلمين أصبح من المؤكد أنه لاسبيل إلى تشبيهه من قريب أو من بعيد بالتوراة التي بين أيدي المسلمين . وبالرغم مما يقال في الأوساط الدينية اليهودية من أن أسفار التوراة تتفق بعضها مع بعض ، وأنها ترتفع - بطريقة تعبدية ميتافيزيقية بحتة - إلى ميدان موسى - عليه السلام - فإن التطشُّور الفكري مع الزمن ، والتأثر بالتيارات الروحية والفلسفية الأجنبية يبدو واضحاً . ويكفي أن فترة تدوين التوراة قد استغرقت أكثر من ألف عام جُمع خلالها كما يقول المؤرخون للعهد القديم نص هذا الكتاب ، وتم تدوينه على مدى فترات متباعدة ، وبأيدي أعداد مختلفة الفكر والاتجاهات من اليهود حتى بعد تدوينه وقيام مدارس ضبط النص وتقييده بالحركات فيما يعرف " بالماسورا " واختلاف اليهود حول ذلك (١) .

ولذلك لا تنشغل دراستنا بعملية التأثير والتأثر ، حيث إنها تفتقر وجود عمليين ، العمل الذي يصدر عنه التأثير ، والعمل الذي ينصب عليه التأثير . وهذا لا يتوفر في بحثنا إذ لا توجد صلة مباشرة أو غير مباشرة لتأثير ^{فصل} من التوراة على القرآن الكريم ، أو من القرآن الكريم على التوراة ، ولكن المغايرة الشكلية والمضمومية - فيما تؤكد الدراسة - لا تنفي التشابه على مستوى الدلالة الأعمق ، واكتشاف أبعاد التجاوب والتناظر والتعارض الذي ينطوي عليه التوازي عن طريق التوجه مباشرة إلى دلالة الشكل ^{الذي هو} النص القصص القرآن ^{مادة} التوراة ، بوصفه أداة أساسية لانتاج موقف موضوعي ، تجاه ظاهرة بعينها وهي تقويم سلوك الإنسان وبسط سيادته على الطبيعة ، وانتصاره آخر الأمر على الشر .

(١) يقول ليبرمان - ش. ل. ب. د. م. ن. : يحق لنا أن نقسم عمل الكتابة داخل نص التوراة إلى ثلاثة أنواع : (أ) هم اجتهدوا في تحديد النص الأصلي الذي تلقاه موسى .

(ب) هم أدخلوا التنقيط ، وربما أيضاً علامات أخرى على نص التوراة .

(ج) هم غيروا وفقاً - لرويتهم - من طابع نص التوراة ، وذلك وقت الضرورة ولأسباب معينة .

انظر: ش. ل. ب. د. م. ن. ، יונת ויונות בארץ ישראל ، למ' 164 - 165 ، ירושלים 1962 .

الفصل الأول

موضوع القصص بين القرآن الكريم والتوراة

تتميز قصص القرآن الكريم بالتنوع الموضوعي حيث تمثل أحداثها قطاعات متكاملة من حياة المجتمعات ، فرحابة الموضوعات ، وتنوعها شيء فريد ففى قصص القرآن ، طبقاً لتعبير القرآن نفسه فى قوله تعالى : " مَا فَرَّطْنَا فِيهِ الْكِتَابَ مِنْ شَيْءٍ " (١)

أما التوراة فهى تشمل مجموعة من الأحداث المتصلة المرتبطة ، تبدأ بخلق العالم وتنتهى بموت النبی موسى عليه السلام ، ورغم أنها عُيِّنَتْ بتدوين التاريخ كما تدل على ذلك فاتحتها إلا أن الباحث يخطئ إذا نظر إلى التوراة على أنها كتاب فى التاريخ ، إذ لا يمكن تطبيق المقاييس التاريخية المعروفة على الأحداث التاريخية التى عرضتها التوراة ، حيث إنها تستخدم المادة التاريخية لهدف دينى أخلاقى . وهى فى هذه الحالة لا تستخدم هذه المادة لتقديمها لنا كتاريخ مجرد بحث ، ولكن تستعين بها لِمَا فيها من دروس ومواعظ دينية وأخلاقية يستعان على توضيحها بالحادثة التاريخية " (٢)

أى أن الرؤية التاريخية التورأوية نشأت من خلال الإدراك النبوى لأحداث بنى إسرائيل ، حيث ساد التقويم التاريخى الدينى . " وتجسدت فكرة تجلّى الإله فى التاريخ الإنسانى أو الإسرائيلى بوجه خاص ، فتاريخ إسرائيل هو كلمة الله الذى يتحقق من خلال الرؤية الإلهية ، ولذلك فالحدث عند المؤرخ الإسرائيلى

(١) سورة الأنعام : من الآية ٢٨ .
(٢) 'חזקאל קויפמן, תולדות האמונה הישראלית, כרך ב' ,
לעמ' ١٥٣, מוסד ביאליק, ירושלים, הדפסה שביעית , -
תשל"א .

موضوع دائماً داخل إطار الفكرة الدينية^(١)، " ومن شَمَّ أصبحت علاقة الإنسان بالآله تنعكس على المجتمع ، فأصبح الإنسان ممثلاً للآله على الأرض ، فأكدت التوراة على خلق الإنسان في صورة الآله^(٢) .

أما فاتحة القرآن الكريم فقد أشارت إلى أن القصد منه الهداية إلى دين قويم ، والإرشاد إلى صراطه المستقيم . ومع أن قصص الأنبياء أبرز ما في القرآن من تاريخ ، إلا أن القصص القرآنية تعددت فيه المحاور ورواها الرؤية وأبرز إلى جوار الأنبياء شخصاً قاموا بأدوار إيجابية في تأييد الرسالة^(٣) .

أما التوراة فإن أبرز ما فيها من قصص هي التي تدور أحداثها حول تاريخ الآباء ، وخلاصة مضمونها أن الآباء الإسرائيليين ، ابتداءً من آدم ~~إلى~~ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف^{الآدم} ، قد تلقوا وعداً إلهياً ، ولذلك نجد أن سفر التكوين قد أهتم بتدوين تاريخ الإنسانية من آدم وحتى يوسف لكي يربط بصورة خاصة بين نشأة الآباء وأرض كنعان والعهد الأبدى بين الرب والآباء والذي سينتقل من بعدهم إلى نسلهم . وحيث إن الآله ^{إله إسرائيل} الإسرائيلي إله يسيطر على التاريخ وحركته ، لذا كان من الضروري بداية هذا التاريخ بأحداث قصة الخلق ، وقد تمت عملية الربط هذه بتكرار العهد المعطى لموسى مع عدد من الآباء السابقين ومن أهمهم إبراهيم^(٤) ، وإسحاق^(٥) ، ويعقوب^(٦) ، بل والعودة بفكرة العهد إلى

(١) שמעון , ١٥٣ : ١٥٣ .

(٢) راجع التكوين ١ : ٢٦ - ٢٧ .

وانظر : John Bright : A History of Israel. p.120 2nd edition. The Westminster press, Philadelphia, 1972.

(٣) راجع قصة ذي القرنين مثلاً في سورة الكهف من الآية ٨٣ إلى الآية ٩٨ .

(٤) راجع التكوين ١٢ : ١ - ٣ : ١٧ ؛ ٢٥ - ٣ : ٨ .

(٥) راجع التكوين ٢٦ : ٢٤ - ٢٥ وفيها يتجدد العهد مع إسحاق .

(٦) راجع التكوين ٢٨ : ٣ - ٤ وفيها يتجدد العهد مع يعقوب وراجع أيضاً التكوين

٣٥ : ٩ - ١٢ . ويلاحظ في هذه العهود التقارب الشديد في الأسلوب والألفاظ المستخدمة في هذه العهود المتكررة على الرغم من المسافة الزمنية الفاصلة

نوح وآدم حتى يصبح التاريخ وَحْدَةً واحدة لا تتجزأ ، ويصبح الإله الإسرائيلي خالقاً لكل التاريخ ، وهكذا يبدو من أول وهلة أن العهد بين الإله وإسرائيل هو الموضوع الرئيس للتوراة كلّها بوجه عام والتاريخ التوراي بوجه خاص . فإن أى حدث تاريخي كان له تأثيراً إيجابياً أو سلبياً على تاريخ العهد ، يتم إقحامه في قصة تاريخية ، والحدث الذي ليس له هذا التأثير يتم إغفاله . ولذلك يطيل سفر التكوين ويسهب في أحداث تاريخ الآباء من حيث إنهم القاعدة التي قامت عليها الأمة الإسرائيلية ونشأة عقيدتها والعهد بينها وبين الإله . . . ومن ناحية أخرى توجز التوراة في قصص أحداث عبودية العبرانيين في مصر ، ولكنها تسهب جداً في قصة ضربات مصر والخروج ، والوقوف بجبل سيناء والرحلة في الصحراء ، لأن هذه الأحداث حسب رؤية المؤرخ الإسرائيلي هي التي شكّلت شخصية الأمة الإسرائيلية وعهدا مع إلهها (١) .

ويبدو أن اعتقاد اليهود بأنهم شعب ~~المختار~~ ^{مربى} جعلهم يسجلون في أسفارهم أخباراً وقصصاً عن أفعال ~~الطوبى~~ ^{الطوبى} وتدخله من أجلهم في توجيه حركة التاريخ لصالحهم ، ومثال ذلك قصة الخروج من مصر التي أبرزت تحقيق الوعد الإلهي المعطى للآباء الإسرائيليين والمعطى لموسى ، وبالإضافة إلى ذلك فإنها ترمز أيضاً إلى

= بين كل أب من هؤلاء الآباء . وهذا يدل على أن هذه الصيغ المتكررة للعهد إنما وضعت جميعها بيد كاتب واحد . ويعتقد بعض الدارسين أنه موسى ، بينما يعتقد آخرون أنها من نتاج عصر النبوة في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد .

انظر تفاصيل ذلك في :
W.Eichrodt : Theology of the Old Testament . Vol.I. pp.36-45
Philadelphia 1961.

(١) מבוא כללי למקרא , עמ' ١٦٦ .
وانظر أيضاً : רב' יהודה הלוי , ספר הפזרי , תרגום מנו-
קד ומפוסק מאת : יהודה ב"ר שמואל אבן
שמואל . מאמר א' , הוצאת דב"ר , ת"א , תשל"ג .

الخلاص الإلهي . وبذلك توضح لنا قصة الخروج تطوير مفهومى الوعد والخللاص ،
للذين أصبحوا من أسس الديانة اليهودية . . . وقصة الخروج تعتبر أيضاً بداية
الشعور القومى الحقيقى لدى الإسرائيليين ، فخرجهم من مصر فى شكل جماعة تحت
قيادة موسى أعطاهم صفة القومية ، وكانت فى نفس الوقت بداية للإحساس بالشعور
التاريخى . . . ولأن أحداث القصة تدور حول المعجزة الإلهية ، فقد أضفت بُعداً
دينيّاً إلى الإحساس القومى التاريخى . وعندما بدأ الله حديثه فوق جبل سيناء
قال : "أَنْزَيْتُكَ إِلَهُكَ أَتَىكَ الْخُرُوجُ مِنْ مِصْرَ" (١) - أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية -
لهذه الأسباب يعتبر الباحثون قصة الخروج أهم قصص التوراة نظراً لما لها من
تأثير على الفهم التاريخى الدينى لدى الإسرائيليين (٢) .

ومن هنا يمكن القول بأن المحور الأساسى الذى يُبنى عليه ما يُسمى
بالقصص التاريخى فى التوراة ، وكذا المحتوى الذى تتضمنه هذه القصص ، والمنهج
الذى سلكته فى عرض أحداث التاريخ لايهدف بالدرجة الأولى إلى تسجيل حوادث
تاريخية أو تحليلها أو التنقيب عن الحقائق التاريخية المجردة ، وإنما كان
الهدف هو محاولة تفسيرها فى إطار منظور مستقبلى يُحدّد الهدف الدينى ، وعلى
ذلك يرى بعض الباحثين أنه " لما كان ماضى اليهود وحاضرهم ومستقبلهم يمثل
قصة وجودهم فى العالم ، فقد حاول مفسروهم وضع تقسيم زمنى لتاريخ العالم
يخدم الهدف الذى يسعون إليه ، وهو ربط أنظار اليهود بما سوف يحدث مستقبلاً" (٣)

وعلى هذا فإن المتصفح لقصص التوراة بمنظور تاريخى ثابت يستطيع بسهولة
أن يدرك أن هذه القصص تحاول أن تبرز تاريخ اليهود على أنه تاريخ يعبر عن
الإرادة الربانية ، إذ نجد أن إله إسرائيل كما ورد الحديث عنه فى قصص التوراة

(١) שמות, כ, ב.
(٢) שמעון דיבשן, דברי ימי עם עולם, כרך ראשון, חלק
ראשון, עמ' ٩, הוצאת דבר תל אביב, תשט"ו .

(٣) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ - قراءة فى التراث التاريخى
العربى . ص ٢٢-٢٣ ط ٢ . دار المعارف سنة ١٩٨٥ .

له وجود دائم ومستمر فى التاريخ اليهودى ، ويتدخل فى هذا التاريخ من آونة إلى أخرى^(١)، ليثبت أن هؤلاء اليهود لم يأتوا إلى الوجود عن طريق تطوُّر تاريخى محدد الأطوار ، وإنما كان وجودهم عن طريق تدخل إلههم المباشر، وهذا يعنى من وجهة نظرهم ونظر مؤرخيهم أن الخالق سبحانه وتعالى قد حلَّ فيهم وفى تاريخهم ، مما يفضى قدسية على هذا التاريخ ، وخصوصية لهذا الشعب ، الأمر الذى أدى إلى فكرة الشعب المختار بعد ذلك ، والتي أصبحت معتقداً راسخاً عند السواد الأعظم، منهم تكاد أن تتساوى مع المعتقد الدينى لديهم ، وهم بذلك لم يحاولوا قط أن يميّزوا بين ما يطلق عليه القيم التاريخية، والقيم المقدسة كما لم يميّزوا بين المثاليات ومسار الواقع القائم ، وذلك لأن التاريخ كله بالنسبة لهم إنما يهدف إلى الكشف عن الغرض الإلهى الذى هو فى النهاية لصالحهم ، وهم رغم هذا الاهتمام الزائد بالتركيز على التاريخ قد جردوه من أهم مميزاته وهو الجدل الذى يُعدّ سمة بارزة من سماته ، والذى يجعل من هذا التاريخ " تاريخاً " بالمعنى الإنسانى المتعارف عليه بين البشر ، الأمر الذى دفع بعض الباحثين إلى أن يعلن: "أنه يمكننا القول أن الاهتمام اليهودى القديم هو اهتمام فى صميمه معاد للتاريخ لأنه ارتقاء فى أحضان رؤية دينية مثالية لا يؤمن بها اليهودى كعقيدة وكمثل أعلى وحسب ، وإنما ينظر إلى التاريخ من خلالها متجاهلاً تعين الوقائع التاريخية وقوانينها الخاصة . هذا إلى جانب أن كثيراً من القصص التى وردت فى التوراة والتى تدعى لنفسها التاريخية لا يمكن إثباتها بالعودة للتاريخ ذاته ، وتظل قصصاً دينية يختلف المفسرون فى معناها " (٢).

-
- (١) راجع قصص إبراهيم فى سفر التكوين فى الإصحاحات السادس عشر والسابع عشر، والحادى والعشرين وغيرهما من قصص إسحاق ويعقوب فى التكوين ٢٦، ٢٧، ٣٢.
(٢) د. عبد الوهاب المسيرى : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ص ١٢٦ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة سنة ١٩٧٤.

أما فكرة التاريخ في قصص القرآن الكريم ، فإننا نجد أنها تجسّد للصور الإسلامي لرسالة الإنسان في الحياة ، فالإنسان ، حسب المفهوم القرآني ، خليفة الله في الأرض ، وقد تحمّل أمانة إعمار هذه الأرض وبناء الحضارة ونشر الحق والعدل في ربوعها وفق سنة الله ، ويتضح ذلك في قوله تعالى : " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ " (١) ، وفي قوله تعالى : " وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ . إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ " (٢) .

وهنا نلاحظ " أن فكرة التاريخ في القرآن الكريم تقوم أساساً على أن التاريخ فعل إنساني في التحليل الأخير ، فالفعل التاريخي نتاج لتفاعـل الإنسان مع بيئته في إطار الزمان ، وهو أيضاً خير وسيلة لكشف ماهية الإنسان" (٣) ولذلك نجد المادة التاريخية في القرآن الكريم تحكي قصة الأقوام والحضارات التي شهدتها مسيرة البشر عبر الزمان ، مثل قوم نوح وعاد وشمود ، وقوم لوط ومدين وغيرهم (٤) . ولذلك فقد أجاد الباحثون في هذا الموضوع عندما ذكروا أن : " القصص التاريخية في القرآن الكريم ليست هدفاً في حد ذاتها ، وإنما تهدف إلى إشارة الفكر البشري ، ودفعه إلى التساؤل والبحث عن الحق باستمرار والهدف هنا عمليّ علميّ وتربويّ أيضاً ، فالقرآن يصدر في وضوح شديد أن شمة قوة في الحق ، وأن الفشل يحيق بالباطل في النهاية ، فما يناله الإنسان ، فرداً وجماعة ، يكون نتيجة طبيعية للدور التاريخي الذي مارسه ، ومن ناحية أخرى ، يوضح القرآن الكريم أن التغير التاريخي لا يحدث فجأة ، إذ يحدث تراكم

(١) سورة البقرة : آية ٣٠ .

(٢) سورة الأنعام : آية ١٦٥ .

(٣) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ ، ص ٥٥ .

(٤) انظر على سبيل المثال القصص في سور : الأعراف وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والقصص .

بطيء عبر الزمان للأسباب التي ينتج عنها تغير تاريخي كبير بعد فترة زمنية طويلة" (١). وهذا ما لم يتوفر فيما نعرف من قصص عديدة وردت مسبقاً في التوراة ونستطيع أن نقف على أمثلة عديدة في التنوع الموضوعي لقصص القرآن الكريم حيث نجد الأساس العقائدي في قصة إبراهيم (٢)، وكما نجد الجوانب التي تتعلق بالناحية الاقتصادية في قصة شعيب (٣)، والصناعية في قصة داود (٤) والقضائية في قصة سليمان (٥)، والتخطيطية في قصة يوسف (٦)، والتبشيري والإنذار في قصة يحيى (٧)، والاتجاه الروحي في قصة عيسى (٨) والذي جاء ليوازي إيغال اليهود وقتئذ في ماديتهم .. ثم تأتي الجهود المتكاملة في تكوين الفرد والأسرة والمجتمع والدولة ، مع الاستفادة من التراث الإنساني السابق - وبناء المستقبل في خاتم النبيين محمد عليه وعليهم جميعاً الصلاة والسلام فيقول الله عز وجل :

" قُلْ يَسَّيِّئَهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ، الَّذِي لَهُ، مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ . فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ " (٩).

- (١) قاسم عبده قاسم : تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية . ص ١٨٤ . مجلة هالم الفكر . المجلد العشرون . الكويت سنة ١٩٨٩ .
- (٢) راجع قصة إبراهيم في سور : البقرة وهود والتوبة وإبراهيم والصفات .
- (٣) راجع قصة شعيب في سورة الأعراف وهود .
- (٤) راجع قصة داود في سور : الأنبياء والنمل و ص .
- (٥) راجع قصة سليمان في سور : النمل وسبا و ص .
- (٦) راجع قصة يوسف في سورة يوسف .
- (٧) راجع قصة يحيى في سورة مريم .
- (٨) راجع قصة عيسى في سور : البقرة وآل عمران والمائدة ومريم .
- (٩) سورة الأعراف : آية ١٥٨ .

ويقول العقاد : لقد تقدمت نبوة الإسلام دعوات كثيرة ، ولكننا لو عرضناها على مؤرخ ينظر في أدوار التاريخ لم يستطع أن يختتم دور النبوة في تاريخ الإنسانية بدعوة من تلك الدعوات على جلالة شأنها ، لأنها جميعاً قد بدأت وانتهت قبل أن توجد في أذهان الناس فكرة الإنسانية العامة وفكرة الإنسان المسئول المحاسب على أمانة العقل والضمير .. فنبوات بني إسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة تنعزل بحاضرها ووعود مستقبلها

والملاحظ هنا أن المحور الأساسي لقصص الأنبياء في القرآن الكريم هو تنوع الموضوعات لتنوع الأغراض والأهداف ، إلا أننا نجد أن هذا المحور الأساسي يتوازى معه محاور فرعية لقصص بعضها ملحق بها وبعضه مستقل عنها ، كقصة ذي القرنين وأصحاب الكهف ، وقصة الرجلين ولأحدهما جنتان ؛ وتنوع الأنشطة في هذه المحاور الفرعية ، كما تنوعت في قصص الأنبياء ، فتبدو متعددة الأهداف : في قصة ذي القرنين : عدلاً وتشيداً ومشاركة في المشروعات ونشراً للدين كما في قوله تعالى : " حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَهَذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجُ وَمَا جُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا . قَالَ مَا مَكْنِيَ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا . حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا . فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا . قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ . وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا " (١) .

وتبدؤ إيماناً بالله يعمم الإنسان من الاغترار بماله ، والاستطالة به
على الناس ، فهذه الاستطالة الظالمة باب من أبواب الشر وزوال النعمة ، كما فى
قصة صاحب الجنتين التى وردت أحداثها فى سورة الكهف فى قوله تعالى : "وَأَضْرِبْ
لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا
زُرْعًا . كِلَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهُمَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلْلَهُمَا نَهْرًا .

عن سائر الأمم . وعيسى عليه السلام قد نقل الرسالة نقلة واسعة حين أدخل أبناء إبراهيم بالروح في عداد أبنائه بالجسد ، ولكنه أدى رسالته وبقي الإنسان بعده محتاجاً أشد الحاجة إلى رسالة تخلصه من الاعتماد على غيره في النجاة من أوزاره والتكفير عن سيئاته والنهوض بتبعات صلاحه وتربيته روحه . . ولما جاءت نبوة التكليف ، صَحَّ في حكم العقل أن تختتم بها النبوة لأنها حاضرة في كل وقت يحضره الإنسان العاقل المسئول ، وتحضره آيات الله ليقوم يعقلون .

انظر : عباس محمود العقاد : الإنسان فى القرآن الكريم ، ص ٢١ - ٢٢ دار الهلال ، القاهرة سنة ١٩٧١ .

(١) سورة الكهف : ٩٣ - ٩٨ .

وانظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم . ج ٣ . ص ١٠٠ .

وَكَانَ لَهُ شَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَطْنُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتُ بِاللَّهِ خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا . لَّئِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا . فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيَمُصَّهَا مَعِيدًا زَلَقًا . أَوْ يُمْصِجَ مَوْؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا . هَٰذَا الَّذِي لَكَ الْوَلِيُّ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا " . (١)

وإذا انتقلنا إلى القصص في التوراة نحده ، يتصف بعدم الاستمرارية في رواية المادة التاريخية داخل القصة - حيث يتوقف السرد القصص فجأة في بعض الأحيان بإدخال بعض العبارات التشريعية . هذا بالإضافة إلى أن الأحداث التاريخية داخل القصة ينقصها التنسيق المطلوب في عرضها ، وكذلك الاتساق الذي يربط الأحداث بعضها ببعض . ففي سفر التكوين نجد أن قصة خلق السموات والأرض تتوقف عند الإصحاح الثاني الفقرة الرابعة - لتبدأ قصة خلق جديدة للسموات والأرض ، وفي الإصحاح الثاني الفقرة السادسة والأربعين يعود النص ليحكى تاريخ فترة سحيقة في القدم وتعداد رواية خلق الإنسان وبقية المخلوقات من جديد ، وتشكر قصة آدم ومولد ابنه " شيث " مرتين في الإصحاح الرابع الفقرة السادسة والعشرين والإصحاح الخامس الفقرة الأولى . (٢)

وفي الإصحاح السابع الفقرة السابعة يذكر النص دخول نوح إلى السفينة مع أولاده، والحيوانات المختلفة ليبدأ الطوفان ، ثم تنقطع الرواية فجأة ابتداء

(١) سورة الكهف : ٣٢-٤٤ .

(٢) ويقول كاسوتو : إن بعض الأمور المقصومة في قصة الخلق التوراتية قد تأثرت بتيارات تراثية مختلفة ، وليس ذلك من ناحية الفترات الزمنية فقط ، بل أيضاً من ناحية المضمون ، حيث التقطت التوراة المادة الأصلية وصهرتها من جديد لتخلق قصة خلق جديدة .

انظر : م. د. קאסוטו , מאדם עד נח , עמ' ٦٥ . 'ירושלים , תשי"ד .

من الإصحاح السابع الفقرة العاشرة ، لتبدأ رواية جديدة للطوفان - ويعود النص لذكر صعود نوح وأبنائه إلى السفينة - كما لو أنها لم تذكر من قبل (١).

- وفي قصة إبراهيم نجد الإصحاح العشرين من سفر التكوين يبدأ بعبارة " وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب .." بينما لم يحدث ذكر لإبراهيم في الفقرات السابقة على الإصحاح (٢).

- وفي سفر الخروج في قصة موسى في الإصحاح التاسع عشر الفقرة الخامسة والعشرين يقول النص " فنزل موسى إلى الشعب وقال لهم :". وينتهي الإصحاح دون أن يعطينا النص ما قاله موسى للشعب ، ويبدأ الإصحاح العشرون بموضوع مختلف تماماً لا يتسق مع المضمون السابق في الإصحاح التاسع عشر.. (٣)

ومن الممكن أيضاً توحيد القصص والروايات المتعددة التي تدور حول إحدى شخصيات التوراة ، وبناء التطور العام لحياة وأعمال هذه الشخصية فالروايات - المتعلقة بحياة إبراهيم عليه السلام يمكن جمعها لتكون سلسلة كاملة لحياته تبدأ بقصص تجواله (٤) ، ثم انفصاله عن لوط (٥) ، وميثاقه مع الله (٦) ، ثم ميلاد إسماعيل (٧) ، ثم الوعد بميلاد إسحاق .. (٨)

ومن الخصائص الأخرى التي تتصف بها قصص التوراة ظاهرة التكرار اللفظي والموضوعي ، وهي نتيجة مباشرة للظاهرة السابقة الذكر ، وهي عدم اتساق النص. فمعالجة أحد مفاهيمه أو إحدى شخصياته في أكثر من مكان في التوراة ، يؤدي بطبيعة الحال إلى تكرار للألفاظ المستخدمة وتكرار للأفكار المعروضة ،

(١) מבוא כללי למקרא , עמ' 86.
ولمزيد من تفصيل ذلك انظر : ש. א. ליוורנטس , המבוא , ספר טור-
ס' , עמ' 3-26 , 'דושלים , תשכ"ה .

(٢) راجع القصة في الإصحاح العشرين من سفر التكوين .

(٣) راجع القصة في سفر الخروج الإصحاح التاسع عشر .

(٤) راجع التكوين : ١٢ .

(٥) راجع التكوين : ١٣ .

(٦) راجع : التكوين : ١٥ .

(٧) راجع : التكوين : ١٦ .

(٨) راجع التكوين : ١٨-١٩ .

وإن كان التكرار أحياناً يعود إلى اختلاف في المصادر التي استندت إليها الرواية ، وليس هناك ضابط لعملية التكرار هذه ، فأحياناً ترد الحادثة الواحدة أكثر من مرة ، وفي كل مرة تقابلنا تعبيرات وتفاصيل وأساليب مختلفة ، ومن الأمثلة التي تبرز فيها عملية التكرار قصة الخلق كما سبق الذكر وكذلك نجد قائمتين لأنساب آدم مع تكرار لمعظم الأسماء الواردة في القائمتين . (١)

ويتضح من ظاهرة التكرار والروايات المتعددة للقصة الواحدة - أنه من الممكن تمييز أكثر من مصدر لروايات التوراة ، وتعدد المصادر يرجع إلى تعدد في وجهات النظر ، مما يوكد أن كل رواية إنما تُعبّر عن وجهة نظر مستقلة . فعلى الرغم من التشابه الملحوظ في الألفاظ وفي طريقة العرض والوصف - إلا أن كل رواية من هذه الروايات لها نسيجها الأدبي الخاص ؛ ولا يتوقف الأمر عند الاختلاف في الشكل الأدبي ؛ ولكن يلاحظ أيضاً الاختلاف الواضح في وجهة النظر الدينية والخلقية وفي العوامل الاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي تكون الخلفية العامة الملونة للشكل القصصي .

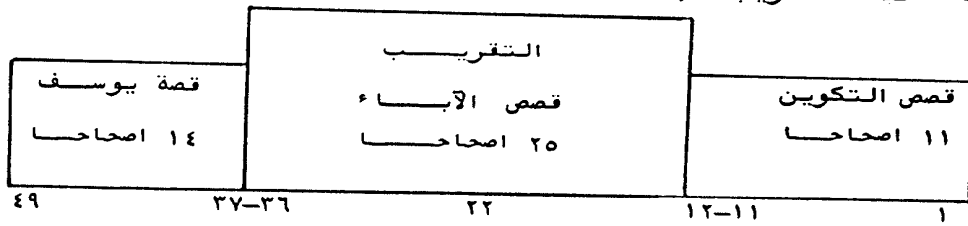
وَحْدَةُ الْقِصَّةِ وَوَحْدَةُ السَّفَرِ :

من الواضح أن لكل من القرآن الكريم والتوراة منهجه الخاص في عرض القصص فيه ، ولقد لاحظ الباحثون أن هناك خلافاً أساسياً بين نهج التوراة فن عرض القصص ونهج القرآن حيث : تتبع التوراة السرد التاريخي المتتابع فيبدأ سفر التكوين بخلق السموات والأرض ، ثم خلق الإنسان ، وقصة آدم وحواء والخطيئة ونزول آدم وزوجه الأرض وتتابع ذريته ، وتوزيع الإصحاحات في السفر - الذي يتكون من خمسين إصحاحاً - يأخذ توزيعاً مركزياً ، فالإصحاحات من (٢) إلى (٣٦) والتي تتضمن قصص الآباء ، تم وضعها بين " تمهيد في السماء " ويشمل الإصحاحات من (١) إلى (١١) ، وختام بقصة " يوسف " ويشمل الإصحاحات من (٢٧) إلى (٥٠) ، وتمثل قصص الآباء نصف السفر تماماً : ٢٥ إصحاحاً ، في حين أن النصف

(١) מבוא כללי למקרא , עמ' 182-181 .
- האנציקלופדיה המקראית , כרך ג' , ערך 'סח' .
עמ' 663 .

الشانى موزع تقريباً بالتساوى بين التمهيد والختام ، وبذا تعطى التوراة لكل شخص من شخوصها ثلث أجزاء السفر : فى المجموعة الأولى يكون التوزيع — نمطياً : (الـ " إنسان " و الـ " شر " — قايين ، الـ " صديق " — نوح) وتعالج هذه المجموعة قضايا إنسانية تماماً ، أما المجموعة الثانية فالإنفرادية تطفى على معالجة شخصيات الحبكة ، من إبراهيم : الشخصية ذات الأبعاد الكثيرة حتى يعقوب ، وتصل الإنفرادية إلى ذروتها فى المجموعة الثالثة فهى سيرة ذاتية مفصلة لشخصية واحدة فقط وهى شخصية يوسف . (١)

والسفر يأخذ نهج البناء المعقوف الذى يقوم على ثلاثة مضامين أدبية على رأسها " قصة التقريب " :



وقصة التقريب ليست فقط قصة قصص الابطاء ، بل هى أيضاً ترمز إلى أمرين

بارزين :

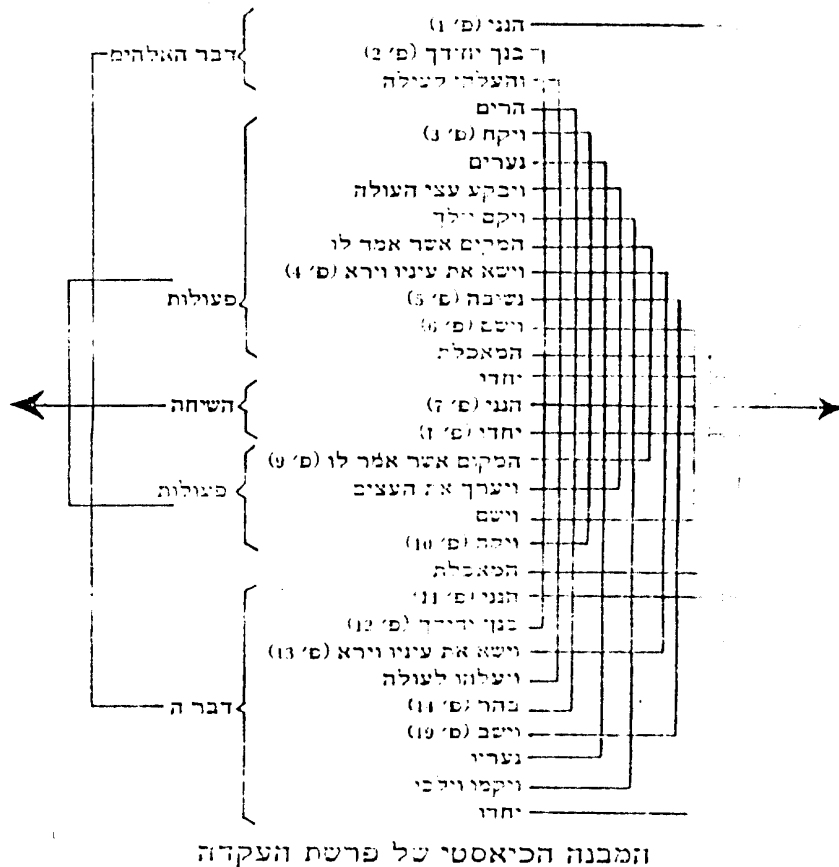
ب - حب كبير

أ - استعداد تام

وهذان الأمران تربطهما كلمتان : 'רר' - هاندا و 'רר' - معاً الأولى من " إبراهيم " رداً للأمر الإلهى بتقديم ابنه محرقة ، و 'רר' هاندا استجابة للرب الذى يمنعه من ذبح ابنه ، وبينهما 'רר' هاندا " أخرى جاءت بين الكلمتين 'רר' - 'רר' معاً " فى ختام القصة ، وبذلك يكون حديث الأب والابن هو رأس مثلث القصة ، حيث يتم ترتيب أطراف القصة : الحكم - الرحمة - أفعال إبراهيم من حيث الاستعداد للطريق والاستعداد لتقديم ابنه ، التى تمت فى صمت . ومما لاشك فيه أن البناء المعقوف للقصة وأسلوبها

(١) 'הידה ת' דדא' : על הכאזים בס'פור המקראי , עמ' 64.

המקשר והמחבר מנסה להבהיר את המאכלת לשחט את בנו⁽¹⁾ - ואخذ הסנין לידבך איננו . ופנא לתפקיר
המקשר , ונמא חדיט האב מע איננו הו זרוע הצמא , ולדכ ייקול המפסרון
היהוד : " פנבא קלאהמא מעא - הذا ליריב וזאכ ליריב , הذا לידבך וזאכ לידבך
ולדכ ופנא לבנא האלל :



	الفقرة (١)	هأنذا
كلمة الرب	الفقرة (٢)	ابنك وحيدك وأصعده محرقة على أحد الجبال وأخذ غلمان وشقق حطباً لمحرقة وقام وذهب إلى الموضع الذى قيل له وربع عينيه وأبصر اجلسا ووضع السكين معاً
أعمال	الفقرة (٣)	هأنذا معاً الموضع الذى قال له ورتب الحطب ووضع وأخذ السكين هأنذا ابنك وحيدك فرفع عينيه ونظر وأصعده محرقة فى جبل وسكن
	الفقرة (٤)	
	الفقرة (٥)	
	الفقرة (٦)	
الحديث	الفقرة (٧)	
	الفقرة (٧)	
	الفقرة (٩)	
أعمال	الفقرة (١٠)	
	الفقرة (١١)	
	الفقرة (١٢)	
كلمة الرب	الفقرة (١٣)	
	الفقرة (١٤)	
	الفقرة (١٩)	

غلمانه
فقاموا وذهبوا
معاً

وتسرد قصص " إبراهيم " عشرة اختبارات اجتازها إبراهيم . آخرها اختبار تقريب ابنه ، الذى يرتبط بالاختبار الأول وهو خروجه من بيت أبيه حيث كان الانفصال عن الأب فى الاختبار الأول ، وعن الابن فى الاختبار الأخير ، والانقطاع عن الماضى فى الأول ، وعن المستقبل فى الأخير ، وكذلك أيضاً أسلوب الاختبار الأخير يتضمن إشارات تعود إلى أسلوب الاختبار الأول على النحو التالى (١)

- ١- الانفصال عن الأب : الإصحاح (١٢)
- ٢- سارة فى بيت فرعون : الإصحاح (١٢)
- ٣- الانفصال عن لوط : الإصحاح (١٣)
- ٤- إنقاذ لوط من أيدي الملوك : الإصحاح (١٤)
- العهد الذى قطعه الرب لسيدنا إبراهيم بين أشلاء القرايين التى قربها إليه .
- ٥- هروب هاجر : الإصحاح (١٦)
- ٦- الختان : الإصحاح (١٧)
- بشارة الملائكة : الإصحاح (١٨)
- ٧- إنقاذ لوط من هلاك سدوم : الإصحاح (١٩)
- ٨- سارة فى بيت أبيمالك : الإصحاح (٢٠)
- ٩- الانفصال عن إسماعيل : الإصحاح (٢١)
- ١٠- التقريب : الإصحاح (٢٢)

هذا فيما يتعلق بالمنهج الذى نجد عليه القصص فى التوراة .
أما منهج القرآن فمختلف فهو غير مسبوق ، ولم يتبعه المسلمون من بعد فى كتابة السيرة النبوية ، أو التاريخ الإسلامى ، أو التاريخ العام ، فالقصة فى القرآن الكريم ترد أحياناً أكثر من مرة دون أن يكون هناك تكرار فى السرد القصصى كما أشرنا إلى ذلك فى حينه ، وإنما هو عرض لزوايا
(١) על ה'אזם בס'פור המקרא' , עמ' 66-67 .

متعددة لقصة واحدة . ويرجع تعدد زوايا الرواية إلى تعدد أهداف العرض التاريخي في القرآن كما توضحها الآيتان التاليتان :

يقول تعالى :

١- " وَكَلَّا تَقْصُ عَلَيْنِكَ مِنْ آثَانِ الرُّمْلِ مَا نَشِيتُ بِهِ فُؤَادَكَ . وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ " . (١)

٢- " لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " . (٢)

والآية الأولى في خواتيم سورة هود وفيها تتعدد القصص ، والثانية في ختام سورة يوسف وهي مخصصة لقصة برأسها . (٣)

وَحْدَةُ السُّورَةِ :

إذا عرضت السورة من القرآن لمجموعة من القصص ، فإنها تعرضها من زاوية روية أساسية تركز من خلالها على هدف من أهداف القصص القرآني ، وكان السورة في ذاتها وَحْدَةً ، والقصة وَحْدَةً فيها ، لها اتساقها مع بقية القصص في ذات السورة ، واتساقها مع زوايا أخرى من القصة ذاتها في مواقع أخرى من القرآن والأمثلة على ذلك عديدة في ثنايا القرآن الكريم منها على سبيل المثال :

(١) في سورة الذاريات وهي سورة (مكيّة) يأتى القسم في مطلعها والقصص المعروض فيها - بعد وصف الكافرين والمؤمنين - : إبراهيم ولوط وموسى وعاد وشمود ونوح . ثم ختام فيه أخذ شديد للكافرين وتشبيت للمؤمنين . والسورة ستون آية ، وآياتها قصيرة لا يتعدى البعض منها كلمتان ، كما في قوله تعالى : " وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا . فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا . فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ... " والبدء بالذاريات وهي : الرياح ، فيه دلالة على سرعة إيقاع السورة . ومما

(١) سورة هود : الآية ١٢٠ - راجع أهداف القصص في القرآن الكريم . ص من البحث .

(٢) سورة يوسف : الآية ١١١ .

(٣) د. عبدالعزيز كامل : القرآن والتاريخ . ص ٢٤ .

يزيد من الإحساس بسرعة الإيقاع ، قَصُر الآيات وسرعة الانتقال من معنى إلى آخر ومن قضية إلى أخرى ، بما يحمل إلى النفس سرعة التبدل والتغير ، فبعد آيات الْقَسَم تاتى آيات سريعة فى وصف الكافرين يختتم مقطعها بكلمة " تستعجلون " لتتناسب مع " الذاريات " و " الجاريات " ، ونحس بعد هذا هدوءاً فى الإيقاع فى الآيات التالية فى وصف المؤمنين ، وإن ربط بسرعة بين العمل الدنيوى والجزاء الأخرى فى تعاقب وتداخل ، ثم تنتقل السورة إلى قصة إبراهيم فى سرعة تبدو حتى فى حركته وهو يكرم ضيفه : " فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ . قَالَ : أَلَا تَتَذَكَّرُونَ " (١) ويبشرونه بغلام عليم . . وفــــى " عليم " دلالة على حياته - وصف فيه اختصار الزمن - وأنه سيكون على علم . ثم يسأل عن خطيبتهم ، ويعلم أنهم جاءوا لعذاب قوم لوط . وفى سرعة نقرأ قوله تعالى عن القرية الظالمة : " قَالُوا إِنَّا أَنزَلْنَاهُ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ ثُمَّ مَرَّتْهُمْ عِندَ رَبِّكَ الْمُرْسِفِينَ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِمَّنِ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ " (٢) ونلاحظ السرعة فى الانتقال من حديثهم مع إبراهيم إلى عذاب المسرفين ونجاة المؤمنين ، ولنا أن ندرك سرعة الإيقاع ، إذا نظرنا إلى تكشف قصة موسى ، وكيف أن الهدف من العرض السريع واحد ، وهو سرعة أخذ ربنا القرى وهى ظالمة وانتصاره لأوليائه :

" وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَتَوَلَّىٰ وَرُكْنِهِمْ وَقَالَ سَحَرَأَوْ مَا جِئْتُمُونِ فَاخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ " (٣) .

وهكذا تتعاقب قصص عاد وشمود . حتى نوح ، تاتى قصته فى آية واحدة :
" وَقَوْمَ نوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ " (٤) .

-
- (١) سورة الذاريات : آية ٢٦ - ٢٧ .
 - (٢) سورة الذاريات : آية ٣٢ - ٣٧ .
 - (٣) سورة الذاريات : آية ٢٨ - ٤٠ .
 - (٤) سورة الذاريات : آية ٤٦ .

يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ . يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ . إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ
وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ
وَنُكَفِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ " (١)

ومع بروز أطراف الصراع وأهدافه ، نتساءل عن القائد الذي سيدير هذا
أمام فرعون . أين هو ؟ ماعمره ؟ وماكفائه ؟ فإذا بنا نقرأ في الآية التالية
مباشرة : " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالَتْ فِيهِ فِي الْيَوْمِ
وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي . إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ " (٢) . وتسير القصة
ونجد فيها تفاصيل عن موسى وكيف رعته امرأة فرعون ، وكيف أنقذه ناصح أمين من
قوم فرعون ، ويمضي سنوات في أهل مدين ، ثم يكلمه الله في سيناء ، ويبدأ
مرحلة جديدة من الصراع بينه وبين الملا من قوم فرعون . هذا البسط في القصة
يتبعه قول الله مخاطباً رسوله :

" وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ
وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ . وَمَا كُنْتَ
شَاوِيئًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتَلَوَّا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ " (٣) . إن كلمات :
القرون الأولى . تطاول عليهم العمر . تحمل إلى نفس السامع والقارئ طول
الصراع بين الإيمان والجحود . . ويأتي ختام السورة محصلة للصراع فيها :
" وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَكُمُ
الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " (٤) .

مما سبق يتبين لنا التركيز على زوايا ثلاث من أهداف القصص القرآني :

١- انتصار الله للمؤمنين من الكافرين : في سورة " الذاريات " .

(١) سورة القصص : آية ١-٦ .

(٢) سورة القصص : آية ٧ .

(٣) سورة القصص : ٤٣ - ٤٥ .

(٤) سورة القصص : آية ٨٨ .

٢- الربط على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين : فى سورة "طه".

٣- شدة الصراع بين الإيمان والكفر : فى سورة القصص .

وهناك أهداف ومناهج أخرى غير هذه ، ولكن المقصود فى هذه المرحلة - بيان تعدد زوايا الرؤية فى عرض الأحداث ، ومع تعدد هذه الزوايا تسقط قضية التكرار ليحل محلها التكامل . وأن هناك وَحْدَة فى القصة ، وَوَحْدَة فى السورة مع تعدد القصص فيها ، وهو منهج تفرد به القرآن الكريم فى عرض الأحداث "(١) .

وإذا قارنا بين ماورد فى التوراة ، وماورد فى القرآن من قصص ، ظهر الفرق جلياً فى الأسلوب وفى المحتوى ، فقصة هبوط آدم من الجنة مثلاً تعتبر نقطة البدء فى التاريخ الإنسانى ، وفى سفر التكوين نقرأ قصة آدم بعد خلق السماوات والأرض ، ونقرأها فى مطالع سورة البقرة ، بعد الفاتحة ، وبيان صنوف الناس : المؤمن والكافر والمنافق ، ودعوة الله الناس جميعاً إلى عبادته . ويتضح لنا أسلوب القرآن فى عرض هذه القصة عندما نقارنه بقصة سفر التكوين ، فهنا نقطة البدء التى يلتقى فيها عرض القرآن بالتوراة فى جوانب ، ويختلفان فى جوانب جوهرية :

الاتفاق فى أب أول وأم أولى ، وفى كرامة البدء ، ثم فى تعرض الأبوين للاختبار . أما نقط الخلاف الجوهرية فهى ١- التوبة : إن الله سبحانه وتعالى تاب على آدم وغفر له ذنبه :

" فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " (٢)

" وَعَمَّا آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى " (٣)

" إذاً فرواية القرآن الكريم تقوم على أن آدم وزوجه أزلهما الشيطان الذى يوسوس فى صدور الناس فذاقوا من ثمار الشجرة : " فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ . وَقُلْنَا

(١) د. عبدالعزيز كامل : القرآن والتاريخ : ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢) سورة البقرة : آية ٣٧ .

(٣) سورة طه : ١٢١ - ١٢٢ .

اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ" (١). على حين رواية التوراة تقوم على أن الانسان طُرد من جنة عدن فور عصيانه الأول ، وأن الله أقام فى الجانب الشرقى ملائكة وسيفاً من لهب يتحرك فى جميع الجهات لحراسة طريق شجرة الحياة " (٢).

٢- تلحن التوراة الأرض لعصيان آدم . أما القرآن فيجعل الأرض مستقراً ومتاعاً للإنسان ينهى أن يشكر الله عليه : " وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ " (٣)، كما أنه ليس هناك من سبب لافتراض أن كلمة " جنة " (أى حديقة) استعملت فى هذا السياق للدلالة على جنة وراء الحسّ، يفترض أن الإنسان هبط منها إلى هذه الأرض ، وطبقاً للقرآن ، ليس الإنسان غريباً عن هذه الأرض ، إذ يقول : " وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا " (٤)، فالجنة التى ورد ذكرها فى القصة لا يمكن أن يقصد بها الجنة التى جعلها الله مقاماً خالداً للمتقين ، حيث وصفها سبحانه وتعالى بقوله : " يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْسِيمٌ " (٥)، وفى مقام آخر يصفها بقوله : " لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ " (٦)، " على أن الجنة التى ورد ذكرها فى القصة كان أول ما وقع فيها معصية الإنسان لربه ثم خروجه من الجنة ، فالهبوط أريد به بيان ارتقاء الإنسان من بداية الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة على الشك والعصيان ، وليس يعنى الهبوط أى فساد أخلاقى ، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس ، هو نوع من اليقظة من ظلم الطبيعة أحدثتها خفقة من الشعور بأن للإنسان صلة عليّة شخصية بوجوده " (٧) وإذا سرنا مسرد الأحداث فى هذه القصة كما جاءت فى الكتاب الكريم نجد أن :

٣- " القرآن يسقط من روايته اسقاطاً تاماً ذكر الحيّة ، وحكاية خلق حواء من

(١) سورة البقرة من آية ٣٦.

(٢) محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام . ص ٩٨.

(٣) سورة الأعراف : آية ١٠.

(٤) سورة نوح : آية ١٧.

(٥) سورة الطور : آية ٢٣.

(٦) سورة الحجر : آية ٤٨.

(٧) محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام . ص ٩٧ - ٩٨.

ضلع من ضلوع آدم . وحذف حكاية الحيّة تجريد للقصة من طابعها الجنسي ، ومما توحى به أصلاً من النظر إلى الحياة نظرة متشائمة ، وحذف حكاية الضلع يقصد به الإشارة إلى غرض القرآن من رواية القصة ليس السرد التاريخي ، كما هو الحال في التوراة التي تعطينا وصفاً لأصل الرجل والمرأة تمهيداً لبيان تاريخ إسرائيل (١) . ويبدو التباين واضحاً بين رواية القرآن الكريم ورواية التوراة في هذه القصة حيث يتضح :

٤- " ان القرآن لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب سُجّت فيه إنسانية شريفة العنصر بسبب ارتكابها خطيئة أصلية ، فالمعمية الأولى للإنسان كانت أول فعل له تتمثل فيه حرية الاختيار ، ولهذا تاب الله على آدم وغفر له " (٢) . وإذا كان البحث العلمي قد أثبت خضوع النص التوراي للتحريف والتبديل في أكثر من موضع فإننا نجد ذلك واضحاً في هذه القصة إذ تعتبر التوراة أن :

١- مبعث الخطيئة الكبرى - كما يستفاد من نص التوراة - هي طموح الإنسان إلى العلم والخلود اللذين استأثر الله بهما . فهو على هذه الصورة مالك يكره من رعاياه أن ينفخوا عليه أسرار الحكم والبقاء ، أو يتساموا إلى منازعته في المعرفة والخلود والسلطان ، فيبتليهم بالعجز والحرمان ، ويحدّ حظوظهم في النعمة والحياة ، أو نحو ذلك مما يتنافى مع الكمال الإلهي الذي بيّنه القرآن لذلك يجب القطع بأن هذه النقطة محرّفة في التوراة كتحرّيف نقطة شمول الخطيئة لأن القرآن كشف عما جاء في التوراة نفسها : وهو أن الخطيئة لا تتعدى بالوراثة لمن لم يرتكبها " (٣) إذ يعلن الحق سبحانه وتعالى ذلك في قوله : " أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِنِّبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى . أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى " (٤) .

(١) المرجع السابق : ص ٩٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ٩٩ .

(٣) د . التهامي نفرة : سيكولوجية القصة في القرآن . ص ١٠٢ .

(٤) سورة النجم : ٣٦ - ٣٩ .

٦- " ويختتم القرآن الكريم قصة آدم في كل مرة بالهبوط ، فإذا زاد فإنما يزيد استغفار آدم من ذنبه وقبوله عند ربه ، ثم لايزيد على ذلك شيئاً مما وقع له في الأرض بعدها - كما تزيد التوراة - ذلك لأن الهدف الدينى يتم بهبوط آدم من الجنة جزاءً لاتباعه مشورة عدوه القديم ، ونسيانه لأمر ربه الكريم . أما الفن فيجد في هذا الختام كل مايبغيه الفنان : الهبوط من الجنة ، وترك القصة مفتوحة بعد هذا للخيال يتبع آدم وزوجه في الأرض غريبين لم يعرفا أقطارها ، ولم يتعودا حياتها ، وليس لهما من خبرة بالمعاش فيها .. إلى آخر مايتملاه الخيال من مشاهد وفروض ، يقضى على جمالها الفن كل إسهاب فى القصة بعد هذا الختام" (١) .

التوراة

" وقال للمرأة لاكثرن مشقتك وحملك وبمشقة تلدين الأولاد ، والى بعلك يكون قيادك وهو يتسلط عليك " .
" وقال لآدم : لما قبلت قول زوجتك فأكلت من الشجرة التى نهيتك عنها فملعون الأرض بسببك .
بمشقة تأكل منها طول حياتك " .
" وشوكا وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل . ويعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها . لأنك تراب وإلى تراب تعود " .

القرآن

- " وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ .
فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " (٢) .
- " قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ .
قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ " (٣) .
- " قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ

(١) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن . ص ١٤٥ .

(٢) سورة البقرة : ٣٦ - ٣٨ .

(٣) سورة الأعراف : ٢٤ - ٢٥ .

القرآن

لِبَعْضِ عَدُوِّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ
اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى " (١)

التوراة

" ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها
أم كل حي . وضع الرب الإله
لآدم وامرأته أقمصاً من جلد
والبسهما ."

" وقال الرب إلهه : هوذا الإنسان
قد صار كواحد منا عارفاً للخير
والشر . والآن لعلّه يمدّ يده ويأخذ
من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا
إلى الأبد . فأخرجه الرب إلهه من جنة
عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها .
فطرد الإنسان وأقام شرقى جنة
عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب
لحراسة طريق شجرة الحياة " (٢)

" ويتضح لنا من قصص موسى عليه السلام في القرآن الكريم أن القصص
القرآنية تذهب مباشرة إلى القصد في القصة من خلال الإيجاز في القول والبساطة
في الأسلوب . فالجوّ الذي تخلقه الألفاظ التي استعملها القرآن الكريم ، في بيان
وتصوير مشهد كلام الله مع موسى ، جوّ يرتفع بالواقعة من مستواها البشري المادي
إلى مستوى روحى نحسّ فيه ، بجلال الموقف ، وإرتفاعه عن دنيا الناس ، فمع أن
نص القرآن ، لم يستعمل حرفاً واحداً ليضفي إلى المشهد وصفاً أو نعتاً من أوصاف
ونعوت التعظيم ، وإضفاء المهابة ، تاركاً ذلك كله ، للفظ البسيط والسيّاق
المفهوم ، والنظم السهل الذي يتدفق إلى النفس ثم يشيع فيها الطمأنينة
والتمديد والاعتناء ، ويمح القول أن اللفظ الذي استعملته التوراة في قصص

(١) سورة طه : آية ١٢٣ .
(٢) سفر التكوين : ٣ : ١٧ - ٢٤ .

موسى بالغ الحد في البساطة ، ولكن هذه البساطة تغلب على الموقف الخصائص البشرية ، في حين أن البيان القرآني مع سهولته وتجرده من أدوات التأثير البيانية التي يألّفها الكتاب والمتحدثون في مختلف اللغات ، وعلى تباين العصور من المبالغة ، واختيار الألفاظ ذات الرنين ، وتصوير ملايسات الموقف من زمان ومكان ، فإنه يحقق كل ما يطمناه الكتاب والشعراء ، من مراتب التأثير الكبرى ، بأقل القليل من اللفظ ، ومع إسقاط كل التفاصيل ^(١) ، أما قصص موسى في التوراة فيبدو فيها خطوط دنيوية عديدة ، وضعت في إطار من العقيدة الدينية للوسيط العظيم بين الربّ والشعب ، وهناك قصص قليلة تخرج من إطار العقيدة الدينية خروجاً بارزاً ، ومن بين هذه القصص تذكر التوراة أن الشعب تقبل بشارة الرب من فم " موسى " ، وسار وراءه ، ولكنها تضيف أن بني إسرائيل يتراجعون ويندمون من حين لآخر ، حيث أن اتباعهم لموسى قد سبّب لهم العناء والفقر ، فتذمروا ضده وتمردوا عليه ، وفي أثناء المفاوضات التي أجراها " موسى " مع " فرعون " ، وجه الشعب اتهامات شديدة إلى " موسى " لأنه بسببه أثقل " فرعون " نيرهم ثم كرّروا هذه الشكاوى والاتهامات ضد " موسى " عندما افتقدوا في الصحراء بسبب نقص المياه والطعام واشتياقهم إلى وفرة أيام عبوديتهم في مصر ^(٢) .

ومن بين شكاوى الشعب المتميزة في الصحراء نخص بالذكر التذمر في قصة شق " بحر سوف " ^{١٥ : ١٠} ، والخروج إلى الصحراء : " ^{١٦ : ١٧} " ^{١٧ : ١٨} " ^{١٨ : ١٩} " ^{١٩ : ٢٠} " ^{٢٠ : ٢١} " ^{٢١ : ٢٢} " ^{٢٢ : ٢٣} " ^{٢٣ : ٢٤} " ^{٢٤ : ٢٥} " ^{٢٥ : ٢٦} " ^{٢٦ : ٢٧} " ^{٢٧ : ٢٨} " ^{٢٨ : ٢٩} " ^{٢٩ : ٣٠} " ^{٣٠ : ٣١} " ^{٣١ : ٣٢} " ^{٣٢ : ٣٣} " ^{٣٣ : ٣٤} " ^{٣٤ : ٣٥} " ^{٣٥ : ٣٦} " ^{٣٦ : ٣٧} " ^{٣٧ : ٣٨} " ^{٣٨ : ٣٩} " ^{٣٩ : ٤٠} " ^{٤٠ : ٤١} " ^{٤١ : ٤٢} " ^{٤٢ : ٤٣} " ^{٤٣ : ٤٤} " ^{٤٤ : ٤٥} " ^{٤٥ : ٤٦} " ^{٤٦ : ٤٧} " ^{٤٧ : ٤٨} " ^{٤٨ : ٤٩} " ^{٤٩ : ٥٠} " ^{٥٠ : ٥١} " ^{٥١ : ٥٢} " ^{٥٢ : ٥٣} " ^{٥٣ : ٥٤} " ^{٥٤ : ٥٥} " ^{٥٥ : ٥٦} " ^{٥٦ : ٥٧} " ^{٥٧ : ٥٨} " ^{٥٨ : ٥٩} " ^{٥٩ : ٦٠} " ^{٦٠ : ٦١} " ^{٦١ : ٦٢} " ^{٦٢ : ٦٣} " ^{٦٣ : ٦٤} " ^{٦٤ : ٦٥} " ^{٦٥ : ٦٦} " ^{٦٦ : ٦٧} " ^{٦٧ : ٦٨} " ^{٦٨ : ٦٩} " ^{٦٩ : ٧٠} " ^{٧٠ : ٧١} " ^{٧١ : ٧٢} " ^{٧٢ : ٧٣} " ^{٧٣ : ٧٤} " ^{٧٤ : ٧٥} " ^{٧٥ : ٧٦} " ^{٧٦ : ٧٧} " ^{٧٧ : ٧٨} " ^{٧٨ : ٧٩} " ^{٧٩ : ٨٠} " ^{٨٠ : ٨١} " ^{٨١ : ٨٢} " ^{٨٢ : ٨٣} " ^{٨٣ : ٨٤} " ^{٨٤ : ٨٥} " ^{٨٥ : ٨٦} " ^{٨٦ : ٨٧} " ^{٨٧ : ٨٨} " ^{٨٨ : ٨٩} " ^{٨٩ : ٩٠} " ^{٩٠ : ٩١} " ^{٩١ : ٩٢} " ^{٩٢ : ٩٣} " ^{٩٣ : ٩٤} " ^{٩٤ : ٩٥} " ^{٩٥ : ٩٦} " ^{٩٦ : ٩٧} " ^{٩٧ : ٩٨} " ^{٩٨ : ٩٩} " ^{٩٩ : ١٠٠} " ^{١٠٠ : ١٠١} " ^{١٠١ : ١٠٢} " ^{١٠٢ : ١٠٣} " ^{١٠٣ : ١٠٤} " ^{١٠٤ : ١٠٥} " ^{١٠٥ : ١٠٦} " ^{١٠٦ : ١٠٧} " ^{١٠٧ : ١٠٨} " ^{١٠٨ : ١٠٩} " ^{١٠٩ : ١١٠} " ^{١١٠ : ١١١} " ^{١١١ : ١١٢} " ^{١١٢ : ١١٣} " ^{١١٣ : ١١٤} " ^{١١٤ : ١١٥} " ^{١١٥ : ١١٦} " ^{١١٦ : ١١٧} " ^{١١٧ : ١١٨} " ^{١١٨ : ١١٩} " ^{١١٩ : ١٢٠} " ^{١٢٠ : ١٢١} " ^{١٢١ : ١٢٢} " ^{١٢٢ : ١٢٣} " ^{١٢٣ : ١٢٤} " ^{١٢٤ : ١٢٥} " ^{١٢٥ : ١٢٦} " ^{١٢٦ : ١٢٧} " ^{١٢٧ : ١٢٨} " ^{١٢٨ : ١٢٩} " ^{١٢٩ : ١٣٠} " ^{١٣٠ : ١٣١} " ^{١٣١ : ١٣٢} " ^{١٣٢ : ١٣٣} " ^{١٣٣ : ١٣٤} " ^{١٣٤ : ١٣٥} " ^{١٣٥ : ١٣٦} " ^{١٣٦ : ١٣٧} " ^{١٣٧ : ١٣٨} " ^{١٣٨ : ١٣٩} " ^{١٣٩ : ١٤٠} " ^{١٤٠ : ١٤١} " ^{١٤١ : ١٤٢} " ^{١٤٢ : ١٤٣} " ^{١٤٣ : ١٤٤} " ^{١٤٤ : ١٤٥} " ^{١٤٥ : ١٤٦} " ^{١٤٦ : ١٤٧} " ^{١٤٧ : ١٤٨} " ^{١٤٨ : ١٤٩} " ^{١٤٩ : ١٥٠} " ^{١٥٠ : ١٥١} " ^{١٥١ : ١٥٢} " ^{١٥٢ : ١٥٣} " ^{١٥٣ : ١٥٤} " ^{١٥٤ : ١٥٥} " ^{١٥٥ : ١٥٦} " ^{١٥٦ : ١٥٧} " ^{١٥٧ : ١٥٨} " ^{١٥٨ : ١٥٩} " ^{١٥٩ : ١٦٠} " ^{١٦٠ : ١٦١} " ^{١٦١ : ١٦٢} " ^{١٦٢ : ١٦٣} " ^{١٦٣ : ١٦٤} " ^{١٦٤ : ١٦٥} " ^{١٦٥ : ١٦٦} " ^{١٦٦ : ١٦٧} " ^{١٦٧ : ١٦٨} " ^{١٦٨ : ١٦٩} " ^{١٦٩ : ١٧٠} " ^{١٧٠ : ١٧١} " ^{١٧١ : ١٧٢} " ^{١٧٢ : ١٧٣} " ^{١٧٣ : ١٧٤} " ^{١٧٤ : ١٧٥} " ^{١٧٥ : ١٧٦} " ^{١٧٦ : ١٧٧} " ^{١٧٧ : ١٧٨} " ^{١٧٨ : ١٧٩} " ^{١٧٩ : ١٨٠} " ^{١٨٠ : ١٨١} " ^{١٨١ : ١٨٢} " ^{١٨٢ : ١٨٣} " ^{١٨٣ : ١٨٤} " ^{١٨٤ : ١٨٥} " ^{١٨٥ : ١٨٦} " ^{١٨٦ : ١٨٧} " ^{١٨٧ : ١٨٨} " ^{١٨٨ : ١٨٩} " ^{١٨٩ : ١٩٠} " ^{١٩٠ : ١٩١} " ^{١٩١ : ١٩٢} " ^{١٩٢ : ١٩٣} " ^{١٩٣ : ١٩٤} " ^{١٩٤ : ١٩٥} " ^{١٩٥ : ١٩٦} " ^{١٩٦ : ١٩٧} " ^{١٩٧ : ١٩٨} " ^{١٩٨ : ١٩٩} " ^{١٩٩ : ٢٠٠} " ^{٢٠٠ : ٢٠١} " ^{٢٠١ : ٢٠٢} " ^{٢٠٢ : ٢٠٣} " ^{٢٠٣ : ٢٠٤} " ^{٢٠٤ : ٢٠٥} " ^{٢٠٥ : ٢٠٦} " ^{٢٠٦ : ٢٠٧} " ^{٢٠٧ : ٢٠٨} " ^{٢٠٨ : ٢٠٩} " ^{٢٠٩ : ٢١٠} " ^{٢١٠ : ٢١١} " ^{٢١١ : ٢١٢} " ^{٢١٢ : ٢١٣} " ^{٢١٣ : ٢١٤} " ^{٢١٤ : ٢١٥} " ^{٢١٥ : ٢١٦} " ^{٢١٦ : ٢١٧} " ^{٢١٧ : ٢١٨} " ^{٢١٨ : ٢١٩} " ^{٢١٩ : ٢٢٠} " ^{٢٢٠ : ٢٢١} " ^{٢٢١ : ٢٢٢} " ^{٢٢٢ : ٢٢٣} " ^{٢٢٣ : ٢٢٤} " ^{٢٢٤ : ٢٢٥} " ^{٢٢٥ : ٢٢٦} " ^{٢٢٦ : ٢٢٧} " ^{٢٢٧ : ٢٢٨} " ^{٢٢٨ : ٢٢٩} " ^{٢٢٩ : ٢٣٠} " ^{٢٣٠ : ٢٣١} " ^{٢٣١ : ٢٣٢} " ^{٢٣٢ : ٢٣٣} " ^{٢٣٣ : ٢٣٤} " ^{٢٣٤ : ٢٣٥} " ^{٢٣٥ : ٢٣٦} " ^{٢٣٦ : ٢٣٧} " ^{٢٣٧ : ٢٣٨} " ^{٢٣٨ : ٢٣٩} " ^{٢٣٩ : ٢٤٠} " ^{٢٤٠ : ٢٤١} " ^{٢٤١ : ٢٤٢} " ^{٢٤٢ : ٢٤٣} " ^{٢٤٣ : ٢٤٤} " ^{٢٤٤ : ٢٤٥} " ^{٢٤٥ : ٢٤٦} " ^{٢٤٦ : ٢٤٧} " ^{٢٤٧ : ٢٤٨} " ^{٢٤٨ : ٢٤٩} " ^{٢٤٩ : ٢٥٠} " ^{٢٥٠ : ٢٥١} " ^{٢٥١ : ٢٥٢} " ^{٢٥٢ : ٢٥٣} " ^{٢٥٣ : ٢٥٤} " ^{٢٥٤ : ٢٥٥} " ^{٢٥٥ : ٢٥٦} " ^{٢٥٦ : ٢٥٧} " ^{٢٥٧ : ٢٥٨} " ^{٢٥٨ : ٢٥٩} " ^{٢٥٩ : ٢٦٠} " ^{٢٦٠ : ٢٦١} " ^{٢٦١ : ٢٦٢} " ^{٢٦٢ : ٢٦٣} " ^{٢٦٣ : ٢٦٤} " ^{٢٦٤ : ٢٦٥} " ^{٢٦٥ : ٢٦٦} " ^{٢٦٦ : ٢٦٧} " ^{٢٦٧ : ٢٦٨} " ^{٢٦٨ : ٢٦٩} " ^{٢٦٩ : ٢٧٠} " ^{٢٧٠ : ٢٧١} " ^{٢٧١ : ٢٧٢} " ^{٢٧٢ : ٢٧٣} " ^{٢٧٣ : ٢٧٤} " ^{٢٧٤ : ٢٧٥} " ^{٢٧٥ : ٢٧٦} " ^{٢٧٦ : ٢٧٧} " ^{٢٧٧ : ٢٧٨} " ^{٢٧٨ : ٢٧٩} " ^{٢٧٩ : ٢٨٠} " ^{٢٨٠ : ٢٨١} " ^{٢٨١ : ٢٨٢} " ^{٢٨٢ : ٢٨٣} " ^{٢٨٣ : ٢٨٤} " ^{٢٨٤ : ٢٨٥} " ^{٢٨٥ : ٢٨٦} " ^{٢٨٦ : ٢٨٧} " ^{٢٨٧ : ٢٨٨} " ^{٢٨٨ : ٢٨٩} " ^{٢٨٩ : ٢٩٠} " ^{٢٩٠ : ٢٩١} " ^{٢٩١ : ٢٩٢} " ^{٢٩٢ : ٢٩٣} " ^{٢٩٣ : ٢٩٤} " ^{٢٩٤ : ٢٩٥} " ^{٢٩٥ : ٢٩٦} " ^{٢٩٦ : ٢٩٧} " ^{٢٩٧ : ٢٩٨} " ^{٢٩٨ : ٢٩٩} " ^{٢٩٩ : ٣٠٠} " ^{٣٠٠ : ٣٠١} " ^{٣٠١ : ٣٠٢} " ^{٣٠٢ : ٣٠٣} " ^{٣٠٣ : ٣٠٤} " ^{٣٠٤ : ٣٠٥} " ^{٣٠٥ : ٣٠٦} " ^{٣٠٦ : ٣٠٧} " ^{٣٠٧ : ٣٠٨} " ^{٣٠٨ : ٣٠٩} " ^{٣٠٩ : ٣١٠} " ^{٣١٠ : ٣١١} " ^{٣١١ : ٣١٢} " ^{٣١٢ : ٣١٣} " ^{٣١٣ : ٣١٤} " ^{٣١٤ : ٣١٥} " ^{٣١٥ : ٣١٦} " ^{٣١٦ : ٣١٧} " ^{٣١٧ : ٣١٨} " ^{٣١٨ : ٣١٩} " ^{٣١٩ : ٣٢٠} " ^{٣٢٠ : ٣٢١} " ^{٣٢١ : ٣٢٢} " ^{٣٢٢ : ٣٢٣} " ^{٣٢٣ : ٣٢٤} " ^{٣٢٤ : ٣٢٥} " ^{٣٢٥ : ٣٢٦} " ^{٣٢٦ : ٣٢٧} " ^{٣٢٧ : ٣٢٨} " ^{٣٢٨ : ٣٢٩} " ^{٣٢٩ : ٣٣٠} " ^{٣٣٠ : ٣٣١} " ^{٣٣١ : ٣٣٢} " ^{٣٣٢ : ٣٣٣} " ^{٣٣٣ : ٣٣٤} " ^{٣٣٤ : ٣٣٥} " ^{٣٣٥ : ٣٣٦} " ^{٣٣٦ : ٣٣٧} " ^{٣٣٧ : ٣٣٨} " ^{٣٣٨ : ٣٣٩} " ^{٣٣٩ : ٣٤٠} " ^{٣٤٠ : ٣٤١} " ^{٣٤١ : ٣٤٢} " ^{٣٤٢ : ٣٤٣} " ^{٣٤٣ : ٣٤٤} " ^{٣٤٤ : ٣٤٥} " ^{٣٤٥ : ٣٤٦} " ^{٣٤٦ : ٣٤٧} " ^{٣٤٧ : ٣٤٨} " ^{٣٤٨ : ٣٤٩} " ^{٣٤٩ : ٣٥٠} " ^{٣٥٠ : ٣٥١} " ^{٣٥١ : ٣٥٢} " ^{٣٥٢ : ٣٥٣} " ^{٣٥٣ : ٣٥٤} " ^{٣٥٤ : ٣٥٥} " ^{٣٥٥ : ٣٥٦} " ^{٣٥٦ : ٣٥٧} " ^{٣٥٧ : ٣٥٨} " ^{٣٥٨ : ٣٥٩} " ^{٣٥٩ : ٣٦٠} " ^{٣٦٠ : ٣٦١} " ^{٣٦١ : ٣٦٢} " ^{٣٦٢ : ٣٦٣} " ^{٣٦٣ : ٣٦٤} " ^{٣٦٤ : ٣٦٥} " ^{٣٦٥ : ٣٦٦} " ^{٣٦٦ : ٣٦٧} " ^{٣٦٧ : ٣٦٨} " ^{٣٦٨ : ٣٦٩} " ^{٣٦٩ : ٣٧٠} " ^{٣٧٠ : ٣٧١} " ^{٣٧١ : ٣٧٢} " ^{٣٧٢ : ٣٧٣} " ^{٣٧٣ : ٣٧٤} " ^{٣٧٤ : ٣٧٥} " ^{٣٧٥ : ٣٧٦} " ^{٣٧٦ : ٣٧٧} " ^{٣٧٧ : ٣٧٨} " ^{٣٧٨ : ٣٧٩} " ^{٣٧٩ : ٣٨٠} " ^{٣٨٠ : ٣٨١} " ^{٣٨١ : ٣٨٢} " ^{٣٨٢ : ٣٨٣} " ^{٣٨٣ : ٣٨٤} " ^{٣٨٤ : ٣٨٥} " ^{٣٨٥ : ٣٨٦} " ^{٣٨٦ : ٣٨٧} " ^{٣٨٧ : ٣٨٨} " ^{٣٨٨ : ٣٨٩} " ^{٣٨٩ : ٣٩٠} " ^{٣٩٠ : ٣٩١} " ^{٣٩١ : ٣٩٢} " ^{٣٩٢ : ٣٩٣} " ^{٣٩٣ : ٣٩٤} " ^{٣٩٤ : ٣٩٥} " ^{٣٩٥ : ٣٩٦} " ^{٣٩٦ : ٣٩٧} " ^{٣٩٧ : ٣٩٨} " ^{٣٩٨ : ٣٩٩} " ^{٣٩٩ : ٤٠٠} " ^{٤٠٠ : ٤٠١} " ^{٤٠١ : ٤٠٢} " ^{٤٠٢ : ٤٠٣} " ^{٤٠٣ : ٤٠٤} " ^{٤٠٤ : ٤٠٥} " ^{٤٠٥ : ٤٠٦} " ^{٤٠٦ : ٤٠٧} " ^{٤٠٧ : ٤٠٨} " ^{٤٠٨ : ٤٠٩} " ^{٤٠٩ : ٤١٠} " ^{٤١٠ : ٤١١} " ^{٤١١ : ٤١٢} " ^{٤١٢ : ٤١٣} " ^{٤١٣ : ٤١٤} " ^{٤١٤ : ٤١٥} " ^{٤١٥ : ٤١٦} " ^{٤١٦ : ٤١٧} " ^{٤١٧ : ٤١٨} " ^{٤١٨ : ٤١٩} " ^{٤١٩ : ٤٢٠} " ^{٤٢٠ : ٤٢١} " ^{٤٢١ : ٤٢٢} " ^{٤٢٢ : ٤٢٣} " ^{٤٢٣ : ٤٢٤} " ^{٤٢٤ : ٤٢٥} " ^{٤٢٥ : ٤٢٦} " ^{٤٢٦ : ٤٢٧} " ^{٤٢٧ : ٤٢٨} " ^{٤٢٨ : ٤٢٩} " ^{٤٢٩ : ٤٣٠} " ^{٤٣٠ : ٤٣١} " ^{٤٣١ : ٤٣٢} " ^{٤٣٢ : ٤٣٣} " ^{٤٣٣ : ٤٣٤} " ^{٤٣٤ : ٤٣٥} " ^{٤٣٥ : ٤٣٦} " ^{٤٣٦ : ٤٣٧} " ^{٤٣٧ : ٤٣٨} " ^{٤٣٨ : ٤٣٩} " ^{٤٣٩ : ٤٤٠} " ^{٤٤٠ : ٤٤١} " ^{٤٤١ : ٤٤٢} " ^{٤٤٢ : ٤٤٣} " ^{٤٤٣ : ٤٤٤} " ^{٤٤٤ : ٤٤٥} " ^{٤٤٥ : ٤٤٦} " ^{٤٤٦ : ٤٤٧} " ^{٤٤٧ : ٤٤٨} " ^{٤٤٨ : ٤٤٩} " ^{٤٤٩ : ٤٥٠} " ^{٤٥٠ : ٤٥١} " ^{٤٥١ : ٤٥٢} " ^{٤٥٢ : ٤٥٣} " ^{٤٥٣ : ٤٥٤} " ^{٤٥٤ : ٤٥٥} " ^{٤٥٥ : ٤٥٦} " ^{٤٥٦ : ٤٥٧} " ^{٤٥٧ : ٤٥٨} " ^{٤٥٨ : ٤٥٩} " ^{٤٥٩ : ٤٦٠} " ^{٤٦٠ : ٤٦١} " ^{٤٦١ : ٤٦٢} " ^{٤٦٢ : ٤٦٣} " ^{٤٦٣ : ٤٦٤} " ^{٤٦٤ : ٤٦٥} " ^{٤٦٥ : ٤٦٦} " ^{٤٦٦ : ٤٦٧} " ^{٤٦٧ : ٤٦٨} " ^{٤٦٨ : ٤٦٩} " ^{٤٦٩ : ٤٧٠} " ^{٤٧٠ : ٤٧١} " ^{٤٧١ : ٤٧٢} " ^{٤٧٢ : ٤٧٣} " ^{٤٧٣ : ٤٧٤} " ^{٤٧٤ : ٤٧٥} " ^{٤٧٥ : ٤٧٦} " ^{٤٧٦ : ٤٧٧} " ^{٤٧٧ : ٤٧٨} " ^{٤٧٨ : ٤٧٩} " ^{٤٧٩ : ٤٨٠} " ^{٤٨٠ : ٤٨١} " ^{٤٨١ : ٤٨٢} " ^{٤٨٢ : ٤٨٣} " ^{٤٨٣ : ٤٨٤} " ^{٤٨٤ : ٤٨٥} " ^{٤٨٥ : ٤٨٦} " ^{٤٨٦ : ٤٨٧} " ^{٤٨٧ : ٤٨٨} " ^{٤٨٨ : ٤٨٩} " ^{٤٨٩ : ٤٩٠} " ^{٤٩٠ : ٤٩١} " ^{٤٩١ : ٤٩٢} " ^{٤٩٢ : ٤٩٣} " ^{٤٩٣ : ٤٩٤} " ^{٤٩٤ : ٤٩٥} " ^{٤٩٥ : ٤٩٦} " ^{٤٩٦ : ٤٩٧} " ^{٤٩٧ : ٤٩٨} " ^{٤٩٨ : ٤٩٩} " ^{٤٩٩ : ٥٠٠} " ^{٥٠٠ : ٥٠١} " ^{٥٠١ : ٥٠٢} " ^{٥٠٢ : ٥٠٣} " ^{٥٠٣ : ٥٠٤} " ^{٥٠٤ : ٥٠٥} " ^{٥٠٥ : ٥٠٦} " ^{٥٠٦ : ٥٠٧} " ^{٥٠٧ : ٥٠٨} " ^{٥٠٨ : ٥٠٩} " ^{٥٠٩ : ٥١٠} " ^{٥١٠ : ٥١١} " ^{٥١١ : ٥١٢} " ^{٥١٢ : ٥١٣} " ^{٥١٣ : ٥١٤} " ^{٥١٤ : ٥١٥} " ^{٥١٥ : ٥١٦} " ^{٥١٦ : ٥١٧} " ^{٥١٧ : ٥١٨} " ^{٥١٨ : ٥١٩} " ^{٥١٩ : ٥٢٠} " ^{٥٢٠ : ٥٢١} " ^{٥٢١ : ٥٢٢} " ^{٥٢٢ : ٥٢٣} " ^{٥٢٣ : ٥٢٤} " ^{٥٢٤ : ٥٢٥} " ^{٥٢٥ : ٥٢٦} " ^{٥٢٦ : ٥٢٧} " ^{٥٢٧ : ٥٢٨} " ^{٥٢٨ : ٥٢٩} " ^{٥٢٩ : ٥٣٠} " ^{٥٣٠ : ٥٣١} " ^{٥٣١ : ٥٣٢} " ^{٥٣٢ : ٥٣٣} " ^{٥٣٣ : ٥٣٤} " ^{٥٣٤ : ٥٣٥} " ^{٥٣٥ : ٥٣٦} " ^{٥٣٦ : ٥٣٧} " ^{٥٣٧ : ٥٣٨} " ^{٥٣٨ : ٥٣٩} " ^{٥٣٩ : ٥٤٠} " ^{٥٤٠ : ٥٤١} " ^{٥٤١ : ٥٤٢} " ^{٥٤٢ : ٥٤٣} " ^{٥٤٣ : ٥٤٤} " ^{٥٤٤ : ٥٤٥} " ^{٥٤٥ : ٥٤٦} " ^{٥٤٦ : ٥٤٧} " ^{٥٤٧ : ٥٤٨} " ^{٥٤٨ : ٥٤٩} " ^{٥٤٩ : ٥٥٠} " ^{٥٥٠ : ٥٥١} " ^{٥٥١ : ٥٥٢} " ^{٥٥٢ : ٥٥٣} " ^{٥٥٣ : ٥٥٤} " ^{٥٥٤ : ٥٥٥} " ^{٥٥٥ : ٥٥٦} " ^{٥٥٦ : ٥٥٧} " ^{٥٥٧ : ٥٥٨} " ^{٥٥٨ : ٥٥٩} " ^{٥٥٩ : ٥٦٠} " ^{٥٦٠ : ٥٦١} " ^{٥٦١ : ٥٦٢} " ^{٥٦٢ : ٥٦٣} " ^{٥٦٣ : ٥٦٤} " ^{٥٦٤ : ٥٦٥} " ^{٥٦٥ : ٥٦٦} " ^{٥٦٦ : ٥٦٧} " ^{٥٦٧ : ٥٦٨} " ^{٥٦٨ : ٥٦٩} " ^{٥٦٩ : ٥٧٠} " ^{٥٧٠ : ٥٧١} " ^{٥٧١ : ٥٧٢} " ^{٥٧٢ : ٥٧٣} " ^{٥٧٣ : ٥٧٤} " ^{٥٧٤ : ٥٧٥} " ^{٥٧٥ : ٥٧٦} " ^{٥٧٦ : ٥٧٧} " ^{٥٧٧ : ٥٧٨} " ^{٥٧٨ : ٥٧٩} " ^{٥٧٩ : ٥٨٠} " ^{٥٨٠ : ٥٨١} " ^{٥٨١ : ٥٨٢} " ^{٥٨٢ : ٥٨٣} " ^{٥٨٣ : ٥٨٤} " ^{٥٨٤ : ٥٨٥} " ^{٥٨٥ : ٥٨٦} " ^{٥٨٦ : ٥٨٧} " ^{٥٨٧ : ٥٨٨} " ^{٥٨٨ : ٥٨٩} " ^{٥٨٩ : ٥٩٠} " ^{٥٩٠ : ٥٩١} " ^{٥٩١ : ٥٩٢} " ^{٥٩٢ : ٥٩٣} " ^{٥٩٣ : ٥٩٤} " ^{٥٩٤ : ٥٩٥} " ^{٥٩٥ : ٥٩٦} " ^{٥٩٦ : ٥٩٧} " ^{٥٩٧ : ٥٩٨} " <

وقالوا لموسى لأنه ليس فى مصر قبور أخذتنا لنموت فى البرية ، ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر ، اليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر ، قائلين: كَفَّ عنا فنخدم المصريين من أن نموت فى البرية - . وهكذا تصف لنا هذه الشكاوى ضيق الشعب ، والتوتر بين القائد الذى كرّس حياته لفكرة سامية شجاعة ، والشعب الذى يتبعه ؛ هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى تصف لنا التطلع إلى حياة الاستقرار والرزق ، وبذلك فهذه القصص لا يوجد فيها أساس دينى عقائدى فى حد ذاته ، ولكن التوراة هى التى وضعتها فى هذا الإطار العقائدى المسبوك ، فلا فصل هنا بين التمرد على رسول الرب والتمرد على الرب نفسه ، ولكن من قوة الرب يستمد " موسى " قوته مرة بعد أخرى ليواجه تمرد بنى إسرائيل (١) .

والحقيقة أننا لو حاولنا أن نجمع محصول الأفكار عن موسى فى توراته ، لكان عندما مزيج فى التوراة من مصادر كثيرة مختلفة ، ومزيج مماثل فى مآوئته الذاكرة الشعبية اليهودية عن صاحب هذه التوراة . " ويبدو أن اليهود قد أرادوا بهذا التخليط أن يجعلوا من موسى ستاراً يخفون وراءه أشياء لم يقل بها ولم يدع إليها ، منها أنه لم يُرسل بشريعته لا إلى فرعون ولا إلى قومه من المصريين ، بل لبنى إسرائيل وحدهم فهو لم يقيم بدعوة فرعون ولا المصريين بالإيمان قط " (٢)

(١) ومن القصص التى لا يبرز فيها الأساس الدينى ، أو يعتنر غير جوهري فيها ، قصة نصيحة شيرو كاهن مديان لموسى ، والتى أعد موسى بمقتضاها تنظيمًا من القضاة ، وهذا العمل الذى قام به موسى بناء على نصيحة بشرلامثيل له فى التوراة كلها . وفى إطار القصص عن " مديان " ينسب طلب موسى إلى " حوباب بن رعوثيل " المديانى باستخدامه مرشداً للشعب فى الصحراء ، ويبدو أن نصوص التوراة سارعت برفض بقية النص حيث ذكرت أن الشعب تم إرشاده فى الصحراء بعمود من نار وسجانه ، وتابوت .

انظر الخروج ١٨ : ١٣ - ١٧ وإيضاً : *אשר יצא מדין* ، *מקראי* ، *חלם ה'* ، ٤٩٤ .
(٢) د . حسن ظاضا : الفكر الدينى الإسرائيلى . أطواره ومذاهبه . ص ٢١ - ٢٣ .

ومما يؤكد المناقفة في رواية التوراة أنها تقول : **וַדַּבֵּר יְהוָה אֶל-مֹשֶׁה**
פְּנִים אֶל-פְּנִים כְּאִשֶּׁר וַדַּבֵּר אִישׁ אֶל-רֵעֵהוּ (١) - ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما
 يكلم الرجل صاحبه . ثم إذا بها تقول : **וְלֹא-מָדָה לָא-תִּשְׁכַּח אֶת-פָּנַי כִּי-לֹא-**
יִדְרֹגֵנִי הָאָדָם נֶחֱמִי (٢) - وقال (أى الرب) لا تقدر أن ترائنى ، لأن الانسان
 لا يرائنى ويعيش . فبينما تؤكد على رؤية موسى لربه بكل الدقة والشمول كما يرى
 المرء صاحبه ، إذا بها تقطع بأن ذلك لن يحدث أبداً . ثم تقول التوراة بعد ذلك :
וְנֹאמַר יְהוָה הִנֵּה מִקְדָּם אִשֶּׁר וְנִשְׁבַּח עַל-
הַדָּבָר : וְהָיָה כְּעֶשֶׂר כִּבְדֵי וְשִׁמְשִׁיף בְּנִקְבַת הַצֹּהַר וְשִׁבְחֵי
כִּפְיָ עֲלִיף עַד-עֲבָרֵי : וְהִסְתֵּי אֶת-כִּפְיָ וְרָאִיתָ אֶת-אַחֲרֵי
וּפָנַי לֹא-נִרְאִי (٣) - وقال الرب : هوذا عندى

مكان فتقف على الصخرة ، وأسترك بيدي حتى أجتاز ، ثم أرفع يدي فتتنظر ورائى .
 وأما وجهى فلا يرى . هنا نرى أثر التحريف واضحاً ، فهذا ربه يعطيه ظهره ومؤخرته ،
 وهذا هو بدوره يتمثله جسداً معيناً محدوداً في المكان ، ويلمح إلى شكله وتقاسيمه
 بما ينافى ماورد صريحاً في الوصايا العشر من حيث تنزيهه عن كل صورة في السماء
 والأرض مما يُرى أو لا يرى .. على أن تلك التناقضات لاتنفى وجود أثر للأصل الصحيح
 الذى حرّفه اليهود ، وذلك حيث تقول التوراة : **וְתִמְצַח 'הוָה' 'בְּיָד' 'ט'**
 - وشبه الرب ينظره فهو إذاً لايعاين " الرب " بل يعاين شبه الرب ، أى مخلوقاً
 عظيم الشأن من مخلوقاته ، له تفويض أن يؤدي رسالته إليه ، ويقوم معه بعمل
 ربه . أما القرآن الكريم فيذكر سؤال موسى لربه أن يراه على هذا النحو الجميل
 الذى يتأكد فيه سمو الموقف القرآنى وحكمته حيث قال : **" وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ**
لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ : رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ . قَالَ : لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى
الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي . فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ
سُجَّدًا . فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ : سُبْحَنَكَ ثَبَّتْ إِلَيْكَ وَاتَّخَذَ الْأُولُ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ : يٰمُوسَىٰ

(١) **שמות לג, יא.**

(٢) **שמות לג, כ.**

(٣) **שמות לג, כא-כג.**

(٤) **במדבר יב, ח.**

يَأْتِي اضْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ " (١).
" فهو هنا لا يرى لربه وجهاً ولا ظهراً ، بل يتلقن الدرس الذى كان عليه أن يلقنه
لقومه الذين أزلقوه إلى هذا المنحدر بسبب ما تغلغل فى نفوسهم من وشنية " (٢).

ومما ينبغى الالتفات إليه ، والوعى بمغزاه ، اختلاف القرآن والتوراة فى
الإشارة إلى المدة التى أقامها موسى بالجبل ، فبينما تذكرها التوراة مُجَمَّلة ،
إذا بالقرآن يوردها بتفصيل كأنه يومٌ ، إلى سر يريد تنبيهنا إليه :
تقول التوراة : **וַיְהִי כַּמֶּשֶׁה בַּהֲרָא אֲדַבְעִים יוֹם וְאַבְעִים לַיְלָה** (٣)
(وكان موسى فى الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة) .

ويقول القرآن : **" وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ، وَاتَّمَمْنَاهَا بِعَشْرِ . فَتَمَّ**
مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً " (٤) .

والواقع أن خبر القرآن أقرب إلى تعليل ما حدث ، وإلى روح القصة التورائية
داتها ، حيث تقول : **וַיְהִי כַּמֶּשֶׁה בַּהֲרָא אֲדַבְעִים יוֹם וְאַבְעִים לַיְלָה**
קַל-אֶחָדָן קִיאָמְרוּ אֵלָיו קוֹם וְעַשְׂה-לָּנוּ אֱלֹהִים אֲשֶׁר נִלְבֹּד
לְפָנֶינוּ כִּי-זָנָה מֹשֶׁה הָאִישׁ אֲשֶׁר הָעֵלָנוּ מִמִּצְרָיִם מִקְדָּשָׁם לֹא
נִקְדְּנוּ מִחֲדָקָהּ לָא: (٥)

(ولما رأى الشعب أن موسى أبطل فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على
هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى الرجل الذى
أبعدنا من أرض مصر لانعلم ماذا أصابه) .

فهذا السبب الذى تعلقوا به ، وهو أنه : أبطل فى النزول من الجبل)
لادلالة له إلا أن يكون قد تجاوز مدة حددها لهم . ومن ثم فأمامنا مدتان :
- المدة التى أعلنها لهم .

-
- (١) سورة الأعراف : ١٤٣ - ١٤٤ .
 - (٢) حسنى يوسف الأطير: على هامش الحوار بين القرآن واليهود ص ٤٠ - ٤٢ ط ١ .
 - (٣) **נשמות לד, ח.**
 - (٤) الأعراف من آية ١٤٢ .
 - (٥) **נשמות לב, נ.**

- والمدة التي جدت ولم يعلموا بها (١).

وإذا كان من المسلّم به أنه عاد في تمام الأربعين ، وإذا كانوا لم يطلبوا ماطلبوا إلا بعد أن (أبطأ في النزول من الجبل) حسب قولهم ، فالحاصل الصحيح إذاً هو التسليم برجحان خبر القرآن ، لأنه فضلاً عن انصافه لهم . وكونه يمهّد لهم عذراً فيما داخلهم من قلق عليه فإنه يلّمح أيضاً إلى احتمال التدبير لاختبارهم ، وكشف سفاهاتهم ، وضعف يقينهم ، بما يبترّ منح رسولهم مزيداً من التفويض فـلى تدبيرهم ، والتشديد في كبّح جماح رعونتهم وتمردهم . وقد أكد القرآن هذه الدلالة حيث قال : " ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ، وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا " (٢).

كما يختلف القرآن مع التوراة أيضاً فيما علمه موسى عن نكسة قومه وهو في حضرة ربه . فالقرآن يوصي إلى أنه كان مجرد علم بوقوع فتنة في قومهم ، وأن للسامري دوراً فيها دون تعيين أو تحديد لما عسى أن يكون . فيقول : " قَالَ : فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ " (٣)

بينما تدعى التوراة التي بين أيديهم أنه علم ذلك بالتفصيل والتحديد :

וַיְדַבֵּר יְהוָה אֶל-مֹשֶׁה לֵּאמֹר בִּי שָׁחַת עַמִּי אֲשֶׁר הָעֵלִיתָ
מִמִּצְרָיִם מִצְרָיִם : כִּי מָה מִן-הַחֹדֶק אֲשֶׁר הָיִיתִם עֹשִׂי
לָהֶם עֵגֶל מִסִּבָּה וְשִׁשְׁחָה-לָהֶם וְנִסְחָה-לָהֶם וְנִאֲמָרוּ אֵלֶּה
אֱלֹהֵינוּ וְשָׂרָאֵל אֲשֶׁר הָעֵלִיתָ מִמִּצְרָיִם מִצְרָיִם : (٤)

- فقال الرب لموسى : اذهب ! انزل ! لأنه قد فسد شعبك الذي أصدتته من أرض مصر . راغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به ، صنع لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا لـه وذبحوا له وقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصدتتك من أرض مصر .

(١) والتوراة لم تذكر المدة التي حددها موسى لقومه وإنما ذكرت فقط المدة التي

مكثها موسى فوق الجبل . راجع الخروج ٢٤ : ١٧ ؛ ٢٤ : ٢٨ .

(٢) سورة النساء من آية ١٥٣ .

(٣) سورة طه : ٨٥ .

(٤) שמות ٢٠ : ٢٢-٢٣ .

وظاهر أن النص القرآني أقرب إلى التمهيد للمفاجأة ، وإحداث الصدمة التي تدفع موسى إلى ارتكاب بعض التصرفات المفرطة في الغضب والحدة ، بينما يجعله نص التوراة مهياً لمواجهة الموقف ، ولأن يكون في مناعة من صدمة المفاجأة .. ولكن التوراة لم تفعل ذلك ، فقد ذكرت أنه أثناء هبوط موسى مع خادمه يشوع من الجبل اختلفا حول ما بلغ آذانهما من صوت الشعب إن كان صوت قتال أو غناء ، حتى إذا وقعت عينه على ما حدث أخذه الغضب ، وغلبته الحدة ، فكسر الألواح ومرق إلى عجل الذهب يدمره ، ويبيد أثره (١) .. " وهذه تصرفات أولى بها أن تكون ممن لا يعلم ، خاصة من عظيم مثل موسى لا يتكلفها وهو يعلم من قبل ، وإلا فلو كان يعلم. فما باله لم يغضب عندما أخبره ربه ، و " حمى غضبه " عندما رأى بعينى رأسه ..

وهكذا يجبّ القرآن رواية التوراة بما يكشف عن تناقضها وزيفها عن الصواب والحكمة والتحقيق " (٢) أما عن موضوع قصة يوسف - وإن لم يكن جديداً عند أهل الكتاب - هو من أنباء الغيب بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم: " ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ . وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ " (٣) ولكن عند المقارنة يتضح الفرق بين القرآن الكريم والتوراة سواء في المدخل إلى هذه القصة ، أو في أسلوب عرض الأحداث أو في الأحداث نفسها ..

" فالقرآن يضع القصة في إطار ديني تنفذ منه أشعة روحية إلى النفوس ببيان العبرة الأخلاقية والتربوية التي من أجلها أنزل الله القصة . أما الأحداث فيها ، فهي مرتبة ترتيباً منطقياً تجرى في تناسق وتسلسل ، وتتأججها مبنية على مقدمات يتقبلها العقل ويطمئن إليها . إنه يحرك المشاهد ، ويدير الحوار في صدق وحرارة ، فيبرز سمات النبوة في يعقوب بقدر ما يبرز صفات الأبوة فيه ،

(١) راجع الخروج : ٣٢ : ١٧ - ٢٠ .

(٢) حسنى يوسف الأطير : على هامش الحوار بين القرآن واليهود ص ٥١ - ٥٥ بتصرفه

(٣) سورة يوسف : ١٠٢ .

ويعترف بيوسف كنبى اجتباه الله ، وآتاه العلم والحكمة ، ليعمل جاهداً على تخلص النفوس من آفات الباطل .. ويمثل بامرأة العزيز التى يغلبها الهوى، فيسد عليها منافذ الحكمة ، ثم يوقظ فيها الضمير بوخز الندم ، فتقرّ بخطيئتها .. أما التوراة فقد وضعت القصة فى إطار عائلى ، يحمل طابع السرد التاريخى المجرّد ، دون أن تشير كالقرآن إلى ما وراء الأحداث من عظات بالغة ، فيجعل منها صوراً حيّة للإنسان ، حين يطفئ عليه الحسد ، فيكيد لأخيه ، وينصب له شراك الشر ، ولكنه فى النهاية يتعثر ، فيفتضح أمره ، وتنكشف حقيقته " (١) .

ولعل من المفيد أن نشير بإيجاز إلى أهم النقاط الفنيّة والنفسية فى قصة يوسف بمقارنة بعض مشاهدتها بين القرآن والتوراة ليتضح لنا ما بينهما من فروق فى الشكل والمضمون : ويبدأ الخلاف فى هذه القصة بين القرآن الكريم والتوراة برؤيا يوسف :

التوراة	القرآن الكريم
سفر التكوين	سورة يوسف
(٧) رأيت كأنا نحزم حزماً فى الصحراء فإذا حزمتهى وقفت ثم انتصبته فأحاطت بحزمكم وسجدت لحزمتهى .	(٣) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ .
(٨) فقال له إخوته : أهلك تملك علينا ، أو تتسلط علينا؟ وازدادوا أيضاً حنفاً عليه لأجل أحلامه وكلامه .	(٤) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ .
(٩) ورأى أيضاً حلماً آخر، فقصّه على إخوته ، وقال : رأيت حلماً أيضاً : كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لى .	(٥) قَالَ : يَبْنَئِي لَاتَقْصُرْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا . إَنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

(١) د. التهامي نفرة : سيكولوجية القصة فى القرآن . ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

(١٠) وإذ قصّ على أبيه وإخوته زجره أبوه ،
وقال له : ما هذا الحلم الذى رأيته ؟
أترانا نجى أنا وأمك وإخوتك
فنسجد لك إلى الأرض ؟

إنّا لانجد فى القرآن إلا رؤيا واحدة ، ولانجد ما يبرّر هذا الزجر ، أو يفسر
الاستفهام الإنكارى فى رواية التوراة ، على لسان يعقوب ، وهو النبی الأب الذى
ما ينبغى لمثله أن يحسد أحداً من أبنائه على ما سَمِنَ الله به عليه من منزلة سامية .
أما فى موقف تأمر إخوة يوسف عليه ، تذكر التوراة : أن يوسف هو الذى ذهب إلى
إخوته ليتفقد سلامتهم بأمر من أبيه . ويذكر القرآن : أن إخوته احتالوا على
أبيهم حتى يرسله معهم ، رجاء أن ينالوا منه ، ويحولوا بينه وبين ملازمته
لوالده ، ولكن رؤيا يوسف جعلت يعقوب يخشى عليه من إخوته ، فيحذره من إخبارهم
برؤياه . ويقتضى ذلك أن يمنعه من الخروج معهم . بينما نجد فى التوراة ، كأنه
أرسل بنفسه الفريسة لمن يتلفه عليها . وهذا يتنافى والترتيب المنطقي لسياق
القصة . ومن ناحية أخرى فليس فى القرآن ما يدل على أن يوسف خالف نصح أبيه ،
وقصّ على إخوته ما رأى ، حتى يقولوا له : " ألعك تتسلط علينا ؟ فيكيدوا له من
أجل ذلك ، كما يستفاد من نص التوراة ..

" ويزداد الاختلاف بين الروايتين اتساعاً وعمقاً فى وصف حالة يعقوب ، لمّا
بلغه نبأ الفجيعة ، ووقع المحذور بفقد أعز ولد عليه ، فالقرآن يصوّر لنا
صدق ما توقعه بما رآه من أبنائه ، وربما كشف له الغيب عن مكروه سيحصل ،
ولكن الحذر لا يمنع القدر ، فاعتم بالتجلّد ، ولاد بالصبر الجميل ، أما التوراة
فقد صوّرت لنا يعقوب فى صورة مفرعة من الهلع والجزع لاتليق بمقام من اصطفاه
الله بالنبوة ، ومن ينظر إلى الغيب ببصيرة نافذة " (١)

القرآن

- (١١) قَالُوا يَبْنَائَ مَا لَكَ لَاتَأْمَنَّا عَلَى
يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصَحُونَ ؟
- (١٢) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعْ وَيَلْعَبُ
وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .
- (١٣) قَالَ : إِنِّي لَخَزِينَتِي أَن تَذْهَبُوا
بِهِ . وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ
وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ .
- (١٤) قَالُوا : لَئِن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ
عَصَبَةٌ إِنَّا إِذَا لَتَخْسِرُونَ .
- (١٥) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن
يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ
هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .
- (١٦) وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ
- (١٧) قَالُوا : يَبْنَائَ إِنَّا ذَهَبْنَا
نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَةٍ
فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ . وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ
لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ .
- (١٨) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ .
قَالَ : هَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً
فَصَبِّرْْ جَمِيلٌ . وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ
عَلَى مَا تَمْطِفُونَ .

التوراة

- (١٢) ومضى إخوته ليرعوا أغنام أبيهم
عند شكيم
- (١٣) فقال لإسراييل ليوسف : إن إخوتك
يرعون عند شكيم . هلم أبعثك اليوم
قال : ها نذا .
- (١٤) فقال له : امض فتفقد سلامة إخوتك
وسلامة الغنم ، واثنى بالخبر .
- (١٨) فلما رآوه عن بعد قبل أن يقرب
منهم ائتمروا عليه .
- (١٩) فقال بعضهم لبعض : ها هو صاحب
الأحلام مقبل .
- (٢٢) وبعثوا بالقميص الموشى ، فأنفذوا
إلى أبيهم ، وقالوا : وجدنا هذا ،
أقميص ابنك هو ؟
- (٢٣) فأشبهته وقال : قميص ابني ! وحش
ضار أكله ! افترس يوسف افتراساً !
- (٢٤) ومزق يعقوب ثيابه ، وشد مسحاً
على حقويه ، وناح على ابنه
أياماً .

(٢٥) وقام جميع بنيهِ وبناته يعزّونه
فأبى أن يتعزّى وقال : إني أنزل
(١)
إلى ابني ناثحاً إلى الجحيم .

لقد بيّن القرآن أن دموع إخوة يوسف مفتعلة ، ولم يقولوا لأبيهم : " وما
أنت بمؤمن لنا " إلا لارتباكهم وشعورهم بأن أباهم لا يصدق دعواهم . وكان ممّا يدلّ
على كذبهم أنهم قدّموا جميع الشواهد التي تبرّتهم من العدوان في رباطة جأش
دون أن يصيبهم ما يصيب الذاهل من أسى وحيرة في مثل هذه الفاجعة ، وقد أحسّ
يعقوب بأن في الأمر سرّاً ، فقال لهم : " بل سّوّلت لكم أنفسكم أمراً " . ولكنه لم
يشأ أن يرميهم صراحة بالكذب والخيانة ، وهم أولاده جميعاً ، لأن الأمر لم يبلغ
عنده بعد مبلغ اليقين .. وكل ذلك مخالف لما جاء في التوراة ، وهو انخداع
يعقوب وانطلاء حيلة أبنائه عليه ..

ومن مواطن الاختلاف : ما أشار إليه القرآن عندما راودت امرأة العزيز
يوسف عن نفسه لمحاولة إغرائه . وقد قدّمت قميصه من خلف وهو يتخلص بالفرار ،
مما أقام الدليل على براءته ، وكما شهد بذلك شاهد من أهلها . ونص القرآن
صريح وقاطع في أن ردّ يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التّأبى ،
المصحوب بتذكر نعمة الله عليه ، ويتذكر حدوده وجزاء من يتجاوزون هذه الحدود .
فلم تكن هنا استجابة في أول الموقف لما دعتّه إليه دعوة غليظة جاهرة بعد
تغليق الأبواب ، وبعد الهمّات باللفظ الصريح الذي يتجمل القرآن في روايته :
(٢) " وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ " .. هذا بينما تذكر التوراة أنه ترك قميصه عندها لمّا
أمسكت به ، فتركه بيدها وفر هارباً إلى الخارج ..

" أما قول القرآن " وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ جُرْحَهَا رَبَّهُ " فهو نهاية

(١) راجع سفر التكوين الإصحاح ٢٧ .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن . المجلد الرابع . ص ١٩٨١ .

موقف طويل من الإغراء ، بعدما أبى يوسف فى أول الأمر واستعصم .. وهو تموير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة ، فى المقاومة والضعف ، ثم الاعتصام بالله فى النهاية والنجاة .. ولكن السياق القرآنى لم يُفصل فى تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبية ، لأن المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته المناسبة فى محيط القصة ، وفى محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك . فذكر طرفى الموقف بين الاعتصام فى أوله والاعتصام فى نهايته ، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً " (١) .

التوراة

- (٧) وكان بعد هذه الأمور أن امرأة مولاه طمحت عينها إلى يوسف وقالت : ضاجعنى .
(٨) فأبى ، وقال لامرأة مولاه : هو ذا مولى لا يعرف معى شيئاً مما فى البيت ، وجميع ما هو له جعله فى يدي .

القرآن

- (٢٣) وَرَأَى وَدَّتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ ، وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ ! قَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ ! إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاى . إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

- (٢٤) وَلَعَدَّ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ، لَوْلَا أَنْ رَآهُ بُزْهَنَ رَبِّهِ . كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوَءَ وَالْفَحْشَاءَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ
(٢٥) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ . مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ : مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

- (٩) وليس فى هذا البيت شئ فوق يدي ، ولم يمسك عنى شيئاً غيرك ، لأنك زوجته ، فكيف أصنع هذه السيئة العظيمة ، وأخطئ إلى الله ؟
(١٠) وكلمته يوماً بعد آخر ، فلم يقبل منها أن ينام بجانبها ليكون معها .

- (٢٦) قَالَ : هِيَ رَأَتْ دَنِيَّ عَنْ نَفْسِي
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ
قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهُوَ
مِنَ الْكَذِبِينَ .
- (٢٧) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ
فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ .
- (٢٨) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ
قَالَ : إِنَّهُ مِّنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ
كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ .
- (٢٩) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا ، وَاسْتَغْفِرِي
لِدُنْيِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ .
- (٣٠) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ : امْرَأَتُ
الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ
نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا . إِنَّا
لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .
- (٣١) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ
إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَنًا
وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ،
وَقَالَتْ أَخْرِجِي عَلَيَّهِنَّ . فَلَمَّا
رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
وَقُلْنَ : حَسْبُ لِلَّهِ ! مَا هَذَا بَشَرًا
إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ .
- (٣٢) قَالَتْ : فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي
فِيهِ . وَلَقَدْ رَأَى دَنِيَّهُ عَنْ نَفْسِهِ
فَاسْتَعَصَمَ . وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ
مَاءَ امْرَأَتِهِ لَيِشْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِّنَ
الصَّاغِرِينَ .
- (١١) فاتفق في بعض الأيام أنه دخل
البيت ليتعاطى أمره ، ولم يكن
في البيت أحد .
- (١٢) فأمسكت بثوبه قائلة : ضاجعني
فترك رداءه بيدها ، وفرَّ هارباً
إلى الخارج .
- (١٣) فلما رأت أنه قد ترك رداءه
وهرب خارجاً .
- (١٤) صاحت بأهل بيتها ، وقالت لهم :
انظروا كيف جاءنا برجل عبراني
ليتلاعب بنا ؟ أتأني ليفضاجعني
فصرخت بصوت عال .
- (١٥) فلما سمعني قد رفعت صوتي
وصرخت ، ترك رداءه بجانبى ،
وفرَّ هارباً إلى الخارج .
- (١٦) ووضعت رداءه بجانبها حتى قدم
مولاه إلى بيته .
- (١٧) فكلمته بمثل هذا الكلام وقالت :
أتأني العبد العبراني الذي
جئتنا به ليتلاعب بي .

- (٣٣) قَالَ : رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ . وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَضْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ .
- (٣٤) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .
- (٣٥) ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُ رُحْتَى حِينٍ .
- (١٨) وكان عندما رفعت صوتي ، وصرخت أن ترك رداؤه بجانبى ، وهرب خارجاً .
- (١٩) فلما سمع مولاة كلام امرأته الذى أخبرته به ، قالت : كذا صنع بى عبدك ! فاستشاط عليه غضباً .
- (٢٠) فأخذ يوسف مولاة وأودعه السجن حيث كان سجناء الملك محبوسين فكان هناك فى السجن (١)

فى رواية القرآن الكريم يدين الزوج زوجته لما ثبت لديه براءة يوسف ، بينما فى التوراة يغضب عليه ، ويودعه السجن ؛ وفى القرآن يشيع الخبر بين نساء المدينة فتجمعهن امرأة العزيز حتى يكففن عن تعنيفها فى حبها ، ولكن التوراة لم تذكر شيئاً من ذلك ، "والآيتان (٢٣ - ٢٤) فى رواية القرآن ، وهما فى منتهى الإيجاز تلقتان فى حرارة من خلال عرضهما لهذه الحادثة أسى المبادئ الأخلاقية ، وماذاك إلا لأن المعانى سبكت فيهما ونضدت بطريقة فنية تترك الخواطر تنساب حرة فى إطار الخطوط العامة التى رسمتها ؛ وأين بلاغة القرآن وإحكام إيجازه ، وجمال أسلوبه وقوة تأثيره ، مما حكته التوراة عن نفس المشهد الذى عرضته الآيتان (٢) !

٤/ غم
ويبتلى يوسف فى محنته الثالثة والأخيرة ، فيدخل السجن - (غم) مارأوا من براءته - مدة لم يحددوا زمنها ، لأن غرضهم أن ينسى الناس قصته مع امرأة العزيز . ويكاد القرآن والتوراة يتفقان فى عرضهما لأحداث هذا المشهد ، لكن

(١) راجع سفر التكوين الإصحاح ٣٩ .

(٢) د. التهامي نغرة : سيكولوجية القصة فى القرآن . ص ٥٣٤ .

التوراة تستغرق أكثر من القرآن فى تفاصيل رؤيا السجينين ، بينما ينفرد القرآن بذكر دعوة يوسف وهو فى السجن إلى توحيد الله ، وبث العقيدة الصحيحة .

التوراة	القرآن الكريم
الإصحاح الأربعون	
(١) وكان بعد هذه الأمور : أن ساقى ملك مصر والخباز أجراً إلى سيدهما ملك مصر .	(٣٦) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ . قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا . وَقَالَ الْآخَرُ : إِنِّي أَرَانِي أَخْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .
(٢) فسخط فرعون على خصيّه : رئيس السفاة ، ورئيس الخبازين .	(٣٧) قَالَ : لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا . ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيَ . إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ . ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ .
(٣) وجعلهما فى حبس بيت رئيس الشرطة فى السجن حيث كان يوسف مسجوناً .	(٣٨) فَكُلَّ اللَّيْلِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ .
(٤) فوكل رئيس الشرطة بهما يوسف . فاهتم بهما . وأقاما مدة فى السجن .	(٣٩) يَلْمِزُحِبِي السِّجْنِ : أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرًا مِّنْ اللَّهِ الْوَلَدُ الْفَهَّارُ .
(٥) فرأيا حلمًا فى ليلة واحدة .	
(٦) فدخل عليهما يوسف بالغداة . فإذا هما قلقان .	
(٧) فسألهما وقال : مآبال وجوهكما مكتوبة اليوم ؟	
(٨) فقالا له : رأينا حلمًا وليس لنا من يعبّره . فقال لهما يوسف : أليس الله علمنى التعبير ؟ فما على !	
(٩) فقص رئيس السفاة حلمه على يوسف وقال له : رأيت كأن جفنة كرم بين يدى .	(٤٠) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ

(١٠) وفى الجفنة ثلاثة قضبان ، وكانى بها أفرغت وصارت عنباً .

(١١) وكانت كأس فرعون فى يدي . فأخذت العنب وعصرته فى كأس فرعون ، وناولت الكأس لفرعون .

(١٢) فقال له يوسف : هذا تعبيره :
الثلاثة قضبان هى ثلاثة أيام .
(١٣) بعد ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك ويردك إلى منزلتك ، ويتناول فرعون كأسه كالعادة الأولى حين كنت ساقية .

(١٤) إنما إذا جاء أمرك فاذكرنى فى نفسك ، واصنع لى رحمة ، وأجر ذكرى لدى فرعون ، وأخرجنى من هذا البيت .

(١٥) لأنى قد خطفت من أرض العبرانيين وهاهنا طرحونى أيضاً فى هذا الجب ، من غير أن أفعل شيئاً .

(١٦) ولما رأى رئيس الخبازين أنه قد عبّر له بخير ، قال ليوسف : رأيت أنا أيضاً فى حلم : كان ثلاث سلال حواري على رأسى .

اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . إِنْ أُلْحِمُوا لَلَّهِ . أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ . ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ . وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٤١) يَلْمِزُكَ السَّخَنُ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَالْأَخْرُ . فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا . وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ . فَبِئْسَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ .

(١٧) وفى السلة العليا من جميع طعام

فرعون مما يصنعه الخباز، والطير

تأكله من السلة من فوق رأسى.

(١٨) فأجاب يوسف وقال له : هذا

تعبيره : الثلاث السلال هى ثلاثة

أيام.

(١٩) بعد ثلاثة أيام ينزع فرعون رأسك

عن بدنك ، ويعلقك على خشبة

فتأكل الطير لحملك .

الإصحاح ٤١

(٤١) وقال فرعون ليوسف : انظرا قد

أقمتك على أرض مصر

(٤٢) ونزع فرعون خاتمه من يده

وجعله فى يد يوسف ، وألبسه

ثياب خز ، وجعل طوقاً من الذهب

فى عنقه .

(٤٣) وأركبه مركبته الثانية ونادوا

أمامه : اركعوا ، وأقامه على

جميع أرض مصر.

(٥٤) وَقَالَ الْمَلِكُ اقْتُونِي بِمِ-

اَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي. فَلَمَّا كَلَّمَهُ

قَالَ : إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ

أَمِينٌ .

(٥٥) قَالَ : اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ

الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ .

(٥٦) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ

يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .

نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ

وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ .

وتفاجئنا التوراة بصورة غريبة عندما يدخل عليه إخوته فيعرفهم دون أن

يعرفوه . فقد ذكرت أنه وصفهم بالتجسس ، وحبسهم ثلاثة أيام ، ثم أطلق سبيلهم ،

واستبقى أخاهم " شمعون " وقبده بمراى منهم ، حتى يعودوا إليه ، ومعهم أخوهم

الصغير " بنيامين " . وهذا التهديد من يوسف إن حملناه محمل الجد ، فلا بد

من القول بأنه يحمل حقاً دفيناً على إخوته وهو ما يجب أن يبرأ منه . أما القرآن

فقد ذكر أن يوسف أكرم وفادتهم ، وردَّ إليهم ما دفعوه من ثمن دون أن يشعرهم ، رجاء أن يغريهم هذا بإحضار شقيقه ، وهددهم بلطف إن لم يأتوا به . ولم يرد شيء مما ورد في التوراة من إساءته لإخوته ، إذ أن ذلك لا يتفق والصورة التي رسمها القرآن وأبرز معالمها لشخصية يوسف ، وما اتَّسمت به من حلم وإخلاص وبرٍّ ، وهو الذي علَّمه ربُّه وأحسن هدايته وطهر قلبه من الحسد . فقال متَّوهاً بشانه : "كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَخْشَاءَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ" (١) . وألم يقل لإخوته لما رجعوا إليه وذكَّروهم بما فعلوا : " لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ . يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ . وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ" (٢)

التوراة

الإصحاح ٤٢

- (٧) وَلَمَّا رَأَى يُوسُفُ إِخْوَتَهُ عَرَفَهُمْ ، فَتَنَكَّرَ لَهُمْ وَكَلَّمَهُمْ بِجَفَاءٍ . وَقَالَ لَهُمْ :
من أين قدمتم ؟ قالوا : من أرض كنعان لتبتاع طعاماً .
(٨) وعرف يوسف إخوته ، وأما هم فلم يعرفوه .
(٩) فقال لهم : أنتم جواسيس ، وإنما جئتم لتجسَّوا ثغور الأرض .
(١٧) فجعلهم في الحبس ثلاثة أيام .
(٢٤) فتحوَّل عنهم ويكى . ثم عَادَ إِلَيْهِمْ . وَخَاطَبَهُمْ وَأَخَذَ مِنْ بَيْنِهِمْ شَمْعُونَ ، وَقَيْدَهُ أَمَامَ عَيْنِهِمْ .

القرآن

- (٥٨) وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ .
(٥٩) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَفْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ . أَلا تَكْرُونَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ
(٦٠) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ .
(٦١) قَالُوا سُرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ .
(٦٢) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

(١) سورة يوسف : من ٢٤ .

(٢) سورة يوسف : من ٩٢ .

وقد احتج بعض الفقهاء بقصة يوسف عليه السلام فى القرآن الكريم على أنه يجوز للإنسان التوصل إلى أخذ حقه من الغير بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا من عليه الحق (١)، وذلك استناداً إلى ما جاء فى القصة من حيلة يوسف فى إبقاء أخيه عنده والتى قدمها القرآن على النحو التالى: " وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ . قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مَوْلَاهُ لِلَّتِي هِيَ أَشَدُّ بَغْيًا وَأَقْبَلُوا عَلَىٰ يَاقُونَ . قَالَ أَتَقْنَدُونَ . قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ . قَالُوا سَالِّهِ لَعَلَّ لَكَ عِلْمٌ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ . قَالُوا فَمَكَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ . قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ . فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ . كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ . قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُونُسُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ . قَالَ أَنُنَّمِ سُرًّا مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ " (٢).

ومما نقله ابن القيم عن الإمام ابن تيمية فى هذا الشأن قوله :
" ومما قد يظن أنه من جنس الحيل التى بينا تحريمها وليس من جنسها قصة يوسف حين كاد الله له فى أخذ أخيه كما قص ذلك تعالى فى كتابه فإن فيه ضروباً من الحيل الحسنة ... فإن يوسف لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه ولم يكن هذا الأخ ممن ظلم يوسف حتى يقال أنه قد اقتص منه وإنما

(١) أحمد عز الدين عبد الله خلف الله : يوسف بن يعقوب عليهما السلام .

ص ٤٢٩ . ط ١ . مطبعة السعادة . القاهرة ١٩٧٨ م .

(٢) سورة يوسف : الآيات من ٦٩ إلى ٧٧ .

سائر الأخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك . نعم تخلفه عنده كان يوم ذبيهم من أجل تآذى أبيهم والميثاق الذى أخذه عليهم وقد استثنى فى الميثاق بقوله (إلا أن يحاط بكم) وقد أحيط بهم . ولم يكن قصد يوسف باحتباس أخيه الانتقام من إخوته . فإنه كان أكرم من هذا ، وكان فى ذلك من الإيذاء لأبيه أعظم مما فيه من إيذاء إخوته . وإنما هو أمر أمره الله به ليبلغ الكتاب أجله ويتم البلاء الذى استحق به يعقوب ويوسف كمال الجزاء ، وتبلغ حكمة الله التى قضاها لهم نهايتها . . . ولو كان يوسف قصد القصص منهم بذلك فليس هذا موضع الخلاف بين العلماء ، فإن الرجل له أن يعاقب بمثل ما عوقب به ، وإنما موضع الخلاف : هل يجوز له أن يسرق أو يخون من سرقه أو خانته إياه ؟ وقصة يوسف لم تكن من هذا الضرب " . (١)

" ومما لاشك فيه أن فى هذا المشهد ما يفيد بطلان الحيل التى تتصادم مع الشرع ، وأن من كاد كيداً محرماً فإن الله يكيد ويعامله بنقيض قصده وهذه سنة الله تعالى فى أصحاب الحيل المحرمة . . وفى القصة تنبيه على أن المؤمن المتوكل على الله تعالى إذا كاده الخلق فإن الله تعالى ينتصر له ويكيد له بغير حَوْل من العبد ولا قوة " . (٢)

أما التوراة فقد جعلت مسلك يوسف إزاء إخوته صيانياً وفيه خديعة لاتليق بصادق كريم فاتهمهم بالتجسس وأودعهم السجن ثم اقترح عليهم أن يطلق واحدا منهم ليرجع إلى بلادهم فيأتى بالآخ الأصغر بنيامين الذى قالوا أنهم تركوه هناك ، زاعماً أنه يرى فى حضور هذا الآخ ما يبرئهم من تهمة التجسس ، ثم عاد إليهم فى يوم تال وقد عدل مقترحه مجتزئاً باستيقفاء واحد منهم فى السجن رهينة وإطلاق الباقيين ليؤدبوا إلى بلادهم ويحضروا الآخ المنشود : " أنا خائف الله . إن كنتم أمناء فليحبس آخ واحد منكم فى بيت حبسكم وانطلقوا أنتم وخذوا قمحاً لمجاعة بيوتكم . واحضروا آخاكم الصغير إلى . فيتحقق كلامكم ولا تموتوا " . (٣)

(١) الإمام ابن القيم : أعلام الموقعين عن رب العالمين . ج ٣ . ص ٢٢٨/٢٢٩ القاهرة . طبعة سنة ١٣٧٥هـ .

(٢) أحمد عز الدين عبد الله : يوسف بن يعقوب عليهما السلام . ص ٤٣٠ .

(٣) التكوين ٤٢ : ١٨-٢٠ .

" من المقارنة بين هذا الموقف من القصة في القرآن وبينه في التوراة نجد الخلاف كبيراً ، فالقرآن يذكر أن يوسف آوى إليه أخاه وقال (إني أنسا أخوك) ، والتوراة تجعل يوسف مجهولاً من بنيامين إلى أن أخبرهم جميعاً بأنه أخوهم بعد ذكر قصة الطاس . والقرآن ذكر قوله (أن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) والتوراة لم تذكرها . والقرآن يذكر عودة إخوة يوسف إلى أبيهم وإخباره بأن ابنه قد سرق واستعبد في مصر ، والتوراة لم تذكره " (١)

وهكذا فإن المتأمل في هذه القصة يُدرك بعد المقارنة انفراد القرآن الكريم بالإيجاز البليغ في عرض أحداثها ، وإبراز المعالم الروحية فيها ، " فرواية القرآن تنغمر باستمرار في مناخ روحاني شعري به في مواقف وكتلام الشخصيات التي تحرك المشهد القرآني . فهناك قدر كبير من حرارة السروح في كلمات يعقوب ومشاعره في القرآن ، فهو نبي أكثر منه أباً ، وتبرز هذه الصفة على الأخص في طريقته في التعبير عن يأسه عندما يعلم باختفاء يوسف كما تتجلى في طريقته في تصوير أمله حين يدفع بنيه إلى أن يتحسسوا من يوسف وأخيه . وامرأة العزيز نفسها تتحدث برواية القرآن بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الندم ، وأرغمتها طهارة الضحية ونزاهتها على الاستسلام للحق ، فلماذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطتها . وفي السجن يتحدث يوسف بلغة روحية محلقة ، سواء مع صاحبيه . أم مع السجان ، فهو يتحدث كنبي يؤدى رسالته إلى كل نفس يرجو خلاصها " . (٢)

" إن قصة يوسف - كما جاءت في هذه السورة - تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة ، بقدر ما تمثل النموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقدي والتربوي والحركي أيضاً - ومع أن المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه ، إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص

(١) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء . ص ١٣٦ . مطبعة مصر ط ٣ . القاهرة ١٩٥٣ .

(٢) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية . ص ٢٤٢ ، دمشق سنة ١٩٨٥ . ترجمة عبدالمصور شاهين - دار الفكر .

فى عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأدباء . فالقصة تعرض شخصية يوسف - وهى الشخصية الرئيسية فى القصة - عرضاً كاملاً فى كل مجالات حياتها ، بكل جوانب هذه الحياة ، وبكل استجابات هذه الشخصية فى هذه الجوانب وفى تلك المجالات .. وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسية فى القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز، وفى مساحات متناسبة من رقعة العرض ، وعلى أبعاد متفاوتة من مركز الرواية ، وفى أوضاع خاصة من الأضواء والظلال " (١)

وفى مقابل ذلك نجد رواية التوراة تتبالغ بعض الشيء فى وصف الشخصيات المصرية - الوثنية بالطبع - بأوصاف عبرانية ، فالسجان يتحدث كمؤد (٢) ، وفى القسم الخاص بتعبير الرواية فى القصة يرتسم رمز المجاعة فى صورة أقل إجابة ، فعبرة التوراة هى : " فابتلعت السنايل الجياد " (٣) ورواية التوراة تكشف أيضاً عن أخطاء تاريخية تثبت صفة " الوضع التاريخى " للفقرة التى نناقشها ، فمثلاً فقرة " لأن المصريين لا يجوز لهم أن يأكلوا مع العبرانيين - لأنه رجس عند المصريين " (٤) يمكننا التأكيد بأنها من وضع النساخ المياليين إلى أن يذكروا فترة المحن التى أصابت بنى إسرائيل فى مصر ، وهى بعد زمن يوسف ، وكذلك استخدام إخوة يوسف فى سفرهم " حميراً " بدلاً من " العير " فى رواية القرآن ، على حين أن استخدام الحمير لا يمكن أن يتسنى للعبرانيين إلا بعد استقرارهم فى وادى النيل ، بعد ما صاروا حضريين ، إذ الحمار حيوان حضرى عاجز فى كل حالة عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكى يجيء من فلسطين ، وفضلاً عن ذلك فإن ذرية إبراهيم ويوسف كانوا يعيشون فى حالة الرعاة الرحّل رعاة المواشى والأغنام ..

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن . المجلد الرابع ص ١٩٥١ - ١٩٥٢ .

(٢) راجع سفر التكوين ٣٩ : ٢٤ .

(٣) راجع سفر التكوين ٤١ : ٥٧ .

(٤) راجع سفر التكوين ٤٣ : ٣٢ .

أما القصة فى القرآن فإنها تتجاوز الشخصيات والأحداث لترسم ظلال الفترة التاريخية التى تجرى فيها أحداث القصة ، فترسم مسرح الأحداث بأبعاده العالمية فى تلك الفترة فتشير إلى أن مصر فى هذه الفترة لم يكن يحكمها الفراعنة من الأسر المصرية ، إنما كان يحكمها " الرعاة " الذين عاش إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب قريباً منهم ، فعرفوا شيئاً عن دين الله منهم فأخذ هذا من ذكر القرآن للملك بلقب " الملك " فى حين يُسمّى الملك الذى جاء على عهد موسى - عليه السلام من بعد بلقيه المعروف " فرعون " - ومن هذا يتحدد زمن وجود يوسف - عليه السلام - فى مصر . فهو كان مابين عهد الأسرة الثالثة عشرة ، والأسرة السابعة عشرة ، وهى أسر " الرعاة " الذين سماهم المصريون " الهكسوس " كراهية لهم ، إذ يقال : ان معنى الكلمة فى اللغة المصرية القديمة : " الخنازير " أو " رعاة الخنازير " . وهى فترة تستغرق نحو قرن ونصف قرن . . . والقصة تشير أيضاً إلى آثار باهتة للعقيدة الإسلامية التى عرف الرعاة شيئاً عنها فى أول القصة ، كما تشير إلى انتشار هذه العقيدة ووضوحها بعد دعوة يوسف بها :

والإشارة الأولى وردت فى حكاية قول النسوة حين طلع عليهن يوسف :
" فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ : حَسْبُ لِلَّهِ ! مَا هَذَا بَشَرًا . إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ " . (١)

ووردت فى قول العزيز لامراته :
" يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ، إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ " . (٢)
أما الإشارة الثانية الواضحة فقد جاءت على لسان امرأة العزيز التى يتجلى أنها آمنت بعقيدة يوسف وأسلمت فى النهاية ، فيما قصه عنها السياق القرآنى :
" قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ : الْتَزِمَ حَمَمَ الْحَقِّ ، أَنَا رَأَيْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ

(١) سورة يوسف من ٣١ .

(٢) سورة يوسف : ٢٩ .

لِمَنِ الصّٰدِقِيْنَ ، ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ اَنِّيْ لَمْ اَخْنُهُ بِالْغَيْبِ ، وَاَنَّ اللّٰهَ لَا يَهْدِيْ كَيْدَ
الْخٰيْنِيْنَ . وَمَا اُبْرِيْءُ نَفْسِيْ . اِنَّ النَّفْسَ لَمّٰرَةٌ بِالسُّوْءِ اِلَّا مَارَحِمَ رَبِّيْ . اِنَّ رَبِّيْ
غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ " . (١)

"ومن اللوحات الدالة على طبيعته الفترة التاريخية التي وقعت فيها
أحداث القصة ما يشير إلى تجاوز حدود الرقعة المصرية ، وتسجيل طابع العصر
كله . فواضح تماماً انطباع هذه الفترة الزمنية بالروءى والتنبؤات التي
لا تقتصر على أرض واحدة ، ولا على قوم بأعيانهم .. ونحن نرى هذه الظاهرة واضحة
في روءى يوسف وتعبيرها وتأويلها في النهاية ، وفي روءى القتيبن صاحبى
السجن ، وفي روءى الملك في النهاية .. وكلها تتلقى بالاهتمام سواء ممن
يرونها أو يسمعونها مما يشى بطابع العصر كله " . (٢)

وأخيراً فإن " حلّ " عقدة القصة يحمل طابع السرد التاريخى فى رواية
التوراة ، حيث يشتمل فى الفصول الأخيرة - التى آثرنا حذفها كيما نتجنب
الإطالة المملة - على تفاصيل مادية عن استقرار العبرانيين فى مصر .. أما
فى القرآن فإنّ هذا الحل يدور حول الطابع المميّز للشخصية المحورية : يوسف
.. الذى يختم هذا الختام المنتصر :

" يٰٓأَبَتِ هٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّيْ حَقًّا . وَقَدْ أَحْسَنَ
بِيْ اِذْ اَخْرَجَنِ مِنَ السِّجْنِ . وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ . مِنْ بَعْدِ اَنْ تَزْعَ الشَّيْطٰنُ بَيْنِيْ
وَبَيْنَ اِخْوَتِيْ . اِنَّ رَبِّيْ لَطِيْفٌ لِّمَآ يَشَآءُ . اِنَّهٗ هُوَ الْعَلِيْمُ الْحَكِيْمُ " . (٣)

ثم ننتقل إلى قصة أخرى يشترك فى موضوعها القرآن الكريم والتوراة ،
وإن كانت التوراة قد أفردت لها مساحة كبيرة وهى قصة " ضربات مصر " أو " آيات
الله على فرعون وقومه " ولعلّ عرضنا للقصة فى التوراة يفسر لنا مبعث

(١) سورة يوسف : ٥١ - ٥٣

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن . المجلد الرابع ص ١٩٥٩-١٩٦٢

(٣) سورة يوسف : ١٠٠

ذلك الإسهاب ، برجوعه إلى حقد بنى إسرائيل على فرعون وقومه لرويتهم الذل والهوان فى ملك المصريين.

وقبل عرض القصة كما وردت فى القرآن الكريم والتوراة نشير إلى أننا آثرنا فى هذا الباب من الدراسات المقارنة أن ندرس المواقف العامة للقصص ورومية كل من القرآن والتوراة لها دون أن يكون الغرض من ذلك وضع القرآن الكريم وهو كلام الله العلى القدير فى كفة ميزان متساوية مع أحاديث بشرية مختلفة المصادر ممثلة فيما يسميه اليهود الآن بالتوراة ولذلك كان من المفيد عرض قصة الضربات أو الآيات لنكشف مدى خداع التشابه بين القصص فى القرآن الكريم ، وقصص التوراة :

القصة فى التوراة : لقد قصّت التوراة قصة الضربات التى جاء بها موسى إلى فرعون وملئه وجعلتها عشر ضربات من الفقرة ١٤ من الإصحاح السابع من سفر الخروج إلى الإصحاح الحادى عشر من السفر نفسه ، ولمّا كان الإتيان بنى ذلك كله يبطيل المقام ، آثرنا ذكر تلك الضربات مع الإشارة إلى مواضع نصوصها طلباً للاختصار ، ثم نعرض لملاحظاتنا عليها .

عرضت التوراة القصة خلال وحدات ثلاثية (١) تتدرج فى شدتها وخطورتها وتشمل كل وحدة ثلاث ضربات ، حيث تأتى الضربة الأولى والثانية يماحيهما الإنذار ، أما الثالثة فبدون إنذار ، ثم تختتم الوحدات الثلاثية الثلاثة بأشدّ الضربات وهى الضربة العاشرة . (٢)

(١) وأول من أشار إلى هذا البناء هو " رابى يهوذا " فى تفسيره للضربات العشر ، ثم جاء بعده وأسهب فى عرض هذا البناء " رابى صموئيل بن مائير " أما " رابى يحيى " فقد أضاف لمحة جمالية حيث قال : " كان موسى يخبر فرعون بالضربة ، وكان يعطيه إنذاراً فى المرة الأولى عند النهر ، وفى الثانية فى قصره ، وذلك لأن فرعون كان يفتخر بنهره ويقتصره ، أى سخرية من ناحية وامتحان شكله من ناحية أخرى .

انظر: *משה גריןברג, אמנות הספור והלכה בפרשת המכות, למ' 69.*

(٢) وقد قارن رجال المدراس هذه الضربات بحيل الملوك فى إخضاعهم للمتمردين عليهم فيقول (مدراس تنخوما ١١ : ٤) : " يحكى أن ملكاً شار عليه ==

وقد تم تقسيم الضربات إلى عشرة مشاهد وفقاً لعدد الضربات والتي تتم ترتيبها على النحو التالي : ١/٣-٣-٣

٢ - ٥٧ : انقلاب نهر النيل دماً سبعة أيام وثن مائه ، من الفقرة (١٤) من الإصحاح السابع - خروج ، إلى الفقرة (٢٥) منه .

٣ ٧٧٧٧ : صعود الفقادع من النهر إلى أرض مصر ومضايقتها للمصريين حتى غطت أرض مصر ، من أول الإصحاح الثامن إلى الفقرة (١٥) منه .

٤ ٧٧ : كثرة البعوض بأرض مصر على الناس والبهائم - ولعله المعبر عنه بالقمل - والبعوض هو الذي يعبر عنه الناس بالبق - من الفقرة (١٦) إصحاح (٨) إلى آخر الفقرة ١٩ منه .

ب - ٧٧٧ : تفسير الكلمة غير واضح ، فيقول رابى شلومو يسحق (١) في تفسيرها : كل أنواع الحيوانات والشعابين

== المتمردون من أبناء شعبه ، فأرسل إليهم جنوده ليحاصروهم ، ثم منع وصول المياه إليهم حتى يعودوا إلى طاعته ثم جلب عليهم المضايقات ، ثم رماهم بالسهم ، ثم أطلق عليهم الوحوش ثم أرسل إليهم الأوبئة ، ثم ألقى عليهم النفط ، ثم رشقهم بأحجار المنجنيق ، ثم أشار ضدهم حشود السكان ، ثم ألقاهم في السجود ، ثم قتل زعمائهم " . وهكذا رأى مفسرو اليهود أن الرب قد هاجم مصر بعرف الملوك ، فقارتوا منع الماء ، بجعل مياه الأنهار دماً ، والمضايقات بالفقادع ، والسهم بالقمل ، والوحوش بالبعوض ، والأوبئة بالوباء ، والنفط بالدمامل ، وأحجار المنجنيق بالبرد والحشود الغفيرة بالجراد ، والحبس في السجون بالظلام ، وقتل زعمائهم بقتل كل بكر " .

(١) דש"י: דב' שלמה 'אחז רב'י שלומו ישحق أكبر مفسري الكتاب المقدس والتلمود من اليهود . عاش في القرن الحادي عشر في فرنسا .

انظر: אברהם אבן-שושן: המלון העברי המדויק , למ' 892 , הוצאת קרית ספר , בע"מ , ירושלים , תשמ"ד .

والعقارب ، أما الترجمة السبعينية فتذكر أنها
ذباية البقر - من الفقرة (٢٠) من الإصحاح الثامن
خروج ، إلى آخر الفقرة (٢٤) منه .

: تفشى الوباء فى مواشى المصريين من الخيل والحمير
والجمال والبقر والغنم . من أول الإصحاح التاسع
إلى الفقرة (٧) منه .

דָּבַר

: فشو الدمامل فى الناس والبهائم : من الفقرة (٨)
من الإصحاح التاسع من سفر الخروج إلى الفقرة (١٢)
منه .

שחין

: نزول البرد العظيم يهلك ما أصاب من المواشى
والناس ، من الفقرة ١٣ من الإصحاح التاسع خروج
إلى الفقرة (٣٥) منه .

גָּדַד

ج -

: وجود الجراد بكثرة وأكله الزرع والشمار ، من أول
الإصحاح العاشر من سفر الخروج إلى الفقرة (١٥) منه .
: اظلام أرض مصر ثلاثة أيام ، من الفقرة ٢١ من
الإصحاح العاشر إلى الفقرة (٢٣) منه .

אֲדָבָה

חֹשֶׁךְ

מִפֶּתַח בְּכוֹרוֹת : موت كل بكر من الناس والبهائم فى مصر ، من أول
الإصحاح الحادى عشر من سفر الخروج إلى الفقرة ٢٩
من الإصحاح الثانى عشر .

وقد تم صياغة الأمر بإنذار فرعون فى كل مرة على النحو التالى :

الضربة الأولى من الثلاثية الأولى :

"לֹךְ אֶל פְּרֹעֹה בְּזֶמְרַת הַנֶּחֱלָה הַמִּימָה וְנִכְבַּת
לְמִקְדָּשָׁהּ"

(خروج ١٥:٧)

- اذهب إلى فرعون فى الصباح . إنه يخرج إلى الماء وقِفْ للقاءه .

الضربة الأولى من الثلاثية الثانية : "הַשֵּׁנִים בְּזֶמְרַת וְהַתְּלָא

לְפָנַי פְּרֹעֹה הַנֶּחֱלָה הַמִּימָה" (خروج ٢٠:٨)

- بَكّر فى الصباح وقِفْ أمام فرعون . إنه يخرج إلى
الماء .

الضربة الأولى من الثلاثية الثالثة :

השכם בזקר והתעב לפני פרעה (خروج ١٣:٩)

- بكر في الصباح وقف أمام فرعون.

الضربة الثانية من الثلاثية الأولى بدون ذكر الزمان والمكان :

"בא אל פרעה ואמרת אליו" (خروج ٢٦:٧)

- ادخل إلى فرعون وقُل له .

الضربة الثانية من الثلاثية الثانية بدون ذكر الزمان والمكان :

"בא אל פרעה ודברת אליו" (خروج ١:٩)

- ادخل إلى فرعون وتحدث إليه .

الضربة الثانية من الثلاثية الثالثة بدون ذكر الزمان والمكان :

"בא אל פרעה" (خروج ١:١٠)

- ادخل إلى فرعون.

أما الضربة الثالثة من كل ثلاثية فلم تتضمن أى إنذار مسبق ، وإنما يأمر الله موسى بالعمل مباشرة والإتيان بالضربة . (١)

التعليق :

(١) هناك فقرات غنائية تتخلل القصة من بدايتها إلى ختامها ، وهذه الفقرات تضاف على القصة وَحْدَةً عضوية خارجية ، فست مرات يكرر موسى ويطلب من فرعون باسم الرب : **שָׁלַח אֶת לַחֲמֵי וְיַעֲבֹדֵנִי** (٢) - أطلق شعبي ليعبدوني " ، وتسع مرات يتكرر رفض فرعون مع اختلاف بسيط في صياغة هذا الرفض . (٢)

(١) העיצוב האמנותי של הספור במקרא , עמ' ١23 .

(٢) שמות ז : טז , כו ; ח : טז ; ט : א , י' ; י : ג .

(٣) שמות ז : י' , כב ; ח : א , טז , כח ; ט : ז , י' , לה ; י : ב .

(٢) أما الوحدة العضوية الداخلية فتتجلى في هذه القصة من تكرار الفكرة الرئيسية التي تتركز في أمر الرب إلى موسي وهارون : **وידעו מצרים כי-אני יהוה ברטתי את ידי על-מצרים והוצאתי את בני ישראל מתוכם** (١) ليعرف المصريون إني أنا الرب حينما أمد يدي على مصر وأخرج بني إسرائيل من بينهم "

وهذه الفكرة تتكرر مع بعض الاختلاف في صياغتها خلال سياق القصة حيث نجد : **"פה אמר יהוה בזאת תדע כי-אני יהוה"** (٢) - هكذا قال الرب : بهذا تعرف إني أنا الرب " . وذلك إثر ضربة الدم .

ب- **למען תדע כי-אין כיהוה אלהינו** (٣) لكي تعرف أن ليس مثل الرب إلها " وذلك إثر ضربة الضفادع .
ج- **"למען תדע כי-אני יהוה במדב ה ארץ"** (٤) - لكي تعلم إني أنا الرب في الأرض " وذلك إثر ضربة الذبّان .

د- **בעבור תדע כי-אין פמני בכל-הארץ... בעבור זאת העמדתך בעבור האמתך את-כחי ולמען ספר שמי בכל-הארץ** (٥) لكي تعرف أن ليس مثلي في كل الأرض ... لأجل هذا أقمتك لكي أريك قوتي ولكي يخبر باسمي في كل الأرض " وذلك إثر ضربة الوباء .

هـ - **"למען תדע כי-ליהוה הארץ"** (٦) - لكي تعرف أن للرب الأرض ، وذلك إثر ضربة البرد .

-
(١)	שמות ז, ה.
(٢)	שמות ז, יז.
(٣)	שמות ח, ו.
(٤)	שמות ח, יח.
(٥)	שמות ט, יד; טז.
(٦)	שמות ט, כט.

وبذلك يكون الغرض من تكثيف هذه الفكرة هو إعلام " فرعون " بالرب وجبروته حيث تتكاثر رموز الإعجاز في هذه الضربات من أجل التفرقة بينهما وبين عمل السحرة من ناحية ، وبين الكوارث الطبيعية من ناحية أخرى . (١)

(٣) فشل السحرة في إبطال " ضربة القمل " دليل على إعجازها وعلى أن وجودها فوق السحر .

(٤) بداية الضربات مع حركة يد موسى أو هارون وهما ممسكان بالعصا ثم إزالتها بناء على استجابة موسى وفي الموعد الذي حدّده مسبقاً تظهر سلطان رب موسى وهارون على الوجود ، وأنهما رسوله ، ويتحدثان باسمه .

(٥) يبرز خلال القصة عملية التبادل في إنزال الضربات بين موسى وهارون لكن هذا التبادل لم يتم بشكل كافي تماماً ، حيث نجد " موسى " يعطى الإذن فى الضربات الثلاثة الأولى ، لكن " هارون " يعطى الإشارة بإنزال الضربة ، وفى المقابل العرافون يعملون ضده ، واضح إذاً أن الثلاثية الأولى هى استمرار للصراع بين موسى وهارون من ناحية والعرافون من ناحية أخرى وهو الصراع الذى لم يحسم الا بعد ضربة " القمل " حيث يعترف العرافون بأنها :

- اصبح الله ، وبعد هذه الثلاثية لم يعد هارون والعرافون أبطالاً رئيسيين ، بل نواب عن الخصوم الأساسيين فظهورهم فى الثلاثية الأولى يرمز إلى المرحلة الأولى من الصراع وهى أهدأ مرحلة فى الحبكة القصصية ، وهى من ناحية أخرى تمهيد للثلاثية الثالثة حيث يقف " موسى " بمفرده يُنذر ويُنزل الضربات ، حيث تعتبر الثلاثية الثالثة قمة الوحدات الثلاثة ، فبسببها يقرّ فرعون بذنبه ويبدأ فى التفانى الجدى مع موسى .. أما الثلاثية الوسطى فيعتبرها تغيير فى توزيع الأدوار إلى حد ما ، حيث يبدأ الرب بالضربتين الأولى والثانية بعد إنذار موسى ، وموسى بمساعدة هارون يأتى بالضربة الثالثة .. أما الضربة العاشرة والأخيرة فيقوم بها الرب بنفسه من أجل عظمته . (٢)

(١) אמנות הסיפור והעריכה בפרישת המכות, עמ' 66.

(٢) שם שם, עמ' 68.

ولكى نقف على كيفية توزيع الأدوار في إنزال الضربات خلال الوحدات الثلاثية الثلاثة يجب تناول الأفكار الأساسية لكل ثلاثية بشيء من التفصيل :

أ - أشارت الثلاثية الأولى إلى أن رسولا الله إنما جاء باسم القوة التي تفوق السحر ، ورمزت الثلاثية الثانية إلى التفرقة في الضربات بين المصريين والإسرائيليين ، أما الثلاثية الثالثة فتشير إلى أنه لم يكن لها مثيل في مصر منذ كونها شعبا ..

ب - في الضربة الأولى لكل ثلاثية تأتي " جملة " في كلام الله لموسى ، تجسد الفكرة الأساسية التي تميز الضربة : في الضربة الأولى من الثلاثية الأولى : " **בְּזֹאת תִּדְּלָה פֶּ' אֲנִי יְהוָה** " ^(١) - بهذا تعرف إني أنا الرب " ، وهي امتداد للفكرة السابقة لها : " **וְיִדְּלָאוּ מִכָּרִים פֶּ' אֲנִי יְהוָה בְּנִטּוֹת יְדִי לִלֵּל מִצִּיִּים** " ^(٢) - فيعرف المصريون إني أنا الرب حينما أمد يدي على مصر " ، وفي بداية الثلاثية الثانية : " **לִמְעַלְלָן תִּדְּלָה פֶּ' אֲנִי יְהוָה בְּקִרְבְּ הָאָדָם** " ^(٣) لكي تعلم إني أنا الرب في الأرض " - ويتضح من مغزى هذا التعبير أن الله يهتم بالكون ويهتم بأن تكون العناية الإلهية واضحة بين البشر ، حيث أثبت ذلك بالتفرقة بين المصريين والإسرائيليين ، وهي التي تميز ضربات الثلاثية الثانية ، أما الثلاثية الأخيرة فتبدأ بجملة هادفة ، " **בְּפֶלַם הַזֹּאת אֲנִי שׁוֹלַח אֶת כָּל מַגְפּוֹתַי אֵלָיְכֶם כִּבְךְ ... בְּעַבְדִּי כִי אֵין כִּמּוֹנִי - בְּכָל הָאָדָם** " ^(٤) - هذه المرة أرسل جميع ضرباتي إلى قلبك ... لكي تعرف

(١) שמות ٢, ٢١.

(٢) שמות ٢, ١٧.

ويقول رابي ميوحاس في تفسيره لهذه الفقرة : " اعرّفوا إني الذي اسمي " الرب " وهذا الاسم جدير بي حسب قوتي وعظمتي ومعجزاتي " فمعرفة الله طبقاً لقوته وعظمته أدركها المصريون بعد فشل العرافين في نهاية الأولى وبعد ضربته " القمل " التي اعترفوا فيها بأن " أصبح الله " واضحة وبارزة فيها وليست مجرد سحر

انظر : **אמנות הס' פיר והעריכה בפרשת המכות** , עמ' 69 .
(٣) **שמות ١٠, ٢٢** . وهي أقوال مثل : **הָאֵל פֶּ' אֵין אֱלֹהֵי בְּקִרְבִי מִצִּיִּים** ^(١) **הַדְּלִיּוֹת הָאֵלֶּה** . وكذلك " **ה' ש' יהוה בקרבנו אם אין** " ^(٢) **הַדְּלִיּוֹת הָאֵלֶּה** . وفي وسطنا الرب أم لا " **שמות ٢, ٢١** .
(٤) **שמות ١٠, ٢٢** .

أن ليس مثلى فى كل الأرض " ، وهذه الجملة تتكرر أربع مرات فى الضربتين التاليتين لها :

١ - **בַּדָּד מֵאֵד אֲשֶׁר לֹא הָיָה כְּמוֹהוּ.** (١) - **בְּרֹדָא** عظيمًا جدًا لم يكن مثله فى مصر منذ يوم تأسيسها إلى الآن " .

٢ - **בַּדָּד מֵאֵד אֲשֶׁר לֹא הָיָה כְּמוֹהוּ בְּכָל אֶרֶץ מִצְרַיִם** **מֵאֵז הָיְתָה לָגוֹי** (٢) - **שֵׁי** ثقيل جدًا لم يكن مثله فى كل أرض مصر منذ صارت أمة " .

٣ - **"אֲדַבָּה אֲשֶׁר לֹא רָאוּ אֲבוֹתֶיךָ וְאֲבוֹת אֲבוֹתֶיךָ מִיּוֹם הַיּוֹם** **עַל הָאֲדָמָה עִם הַיּוֹם הַזֶּה "** (٣) - **גְּרָאֵד** لم يره أبائك ولا آباء آبائك منذ يوم وجدوا على الأرض إلى هذا اليوم " .

٤ - **לִפְנֵי לֹא הָיָה כֵן אֲדַבָּה כְּמוֹהוּ וְאַחֲרָיו לֹא יִהְיֶה כֵן** (٤) - **לִמֵּן** لم يكن قبله جراد هكذا مثله ، ولا يكون بعده كذلك " .

الفكرة فى الثلاثية الاولى إذاً هى أن قوة الرب فوق قوة سحرة مصر ، وفى الثلاثية الثانية يبرز وجود الرب فوق الأرض ويميّز بين الاخيار والاشرار ، وفى الثلاثية الثالثة تبرز إلى أى مدى تصل قوة الرب - فيما وراء تجارب الإنسان .

٦ - التنفيذ الإلهى المباشر نجده فى إنزال الضربة العاشرة التى نزلت من أجل : **"לִמְעַן תַּזְעִיז אֲשֶׁר יִפְלֶה בֵּין מִצְרַיִם** **וּבֵין יִשְׂרָאֵל "** (٥) - **לִמֵּן** تعرفون أن الله يميّز بين المصريين والإسرائيليين .

(١)	שְׁמוֹת ט, ח.
(٢)	שְׁמוֹת ט, כד.
(٣)	שְׁמוֹת לא, ו.
(٤)	שְׁמוֹת לא, ד.
(٥)	שְׁמוֹת יא, ז.

٧ - من خلال عرضنا للأفكار في الوحدات الثلاثة والضربة العاشرة ، نستطيع القول أن الأفكار متداخلة وغير مرتبة ، بالإضافة إلى تكديسها ، فالثلاثية الثانية تختتم بذكر العرافين المذكورين في الثلاثية الأولى ، والثلاثية الثالثة تشير مرات إلى فكرة التمييز التي تُنسب للثلاثية الثانية ، أما الإنذار في الضربة العاشرة فقد شمل أيضاً التمييز وكذلك فكرة الإله الذى لا مثيل له : " לֹא הָיָה כַּמּוֹהָ " لم يكن مثله " . وبذلك يتضح عدم ترابط وتناسق الأفكار في القصة .

٨ - في الثلاثية الثالثة نجد موعداً لوقوع الضربات مع كل إنذار: (לַמַּחֲרָ - غدا) ، بالإضافة إلى كثرة عدد فقراتها ، فعدد فقرات كل ضربة في الثلاثية يعادل عدد فقرات ضربتين مقابلتين في الوحدتين السابقتين ، فعلى سبيل المثال عدد فقرات البرد (٢٣) يعادل عدد فقرات الدم (١٢) والبعوض (١٣) ، ويبدو أن هذه الإطالة في عدد فقرات الوحدة الثالثة ، مقصودة من المعد حيث رأى أن هذه الوحدة هي قمة الوحدات الثلاثة (١) .

٩ - من العرض السابق لقصة " ضربات مصر " كما وردت في سفر الخروج يتضح أن :
١ - القمة لم تأخذ الإعداد الكافي ، فالأجزاء متفرقة ، كل منها يعمل من خلال معدّ خاص (٢) .

(١) אֲמֵנוֹת הַסִּפּוּר וְהַלְבִּיחָה בַּפִּרְשָׁת הַמִּכּוֹת , לַבַּי ٧٥ .
(٢) فالقصة مؤلفة من مصادر مختلفة مُزجت كل منها بالأخرى دون انسجام فالإصحاحات (٧) و(٨) و(٩) تنسب إلى المصدرين الإلهويين واليهوي؛ وإلى المصدر اليهودي وحده الإصحاحات (١٠) و(١١) والفقرة (٢٩) من الإصحاح الثاني عشر . وإلى المصدر الكهنوتي الإصحاح السابع من الفقرة الأولى إلى الثالثة عشر ، والفقرة (١٩) إلى (٢٠) والفقرة (٢١ ب) إلى (٢٢) ، والإصحاح الثامن : (١) - (٣) ، (١١ ب) - (١٥) ، والإصحاح التاسع (٨) - (١٢) ، والإصحاح الحادي عشر الفقرة (٩) والإصحاح الثاني عشر الفقرة (٢٠) و(٢٨) .
هذا بالإضافة إلى مصادر أخرى غير هذه ولكنها تقل عنها في الأهمية فالفقرة (١٥ ب) و(١٧ ب) من الإصحاح السابع تنتسب إلى المصدر " غير الكهنوتي " وكذلك الفقرات (٢١) - (٢٧) من الإصحاح الثاني عشر . انظر :
د. محمد خليفة حسن : علاقة الإسلام باليهودية . ص ٨٧ إلى ص ٩٣ يتصرف .

ب - هناك كثير من المحسنات تخلّت البناء القصصى ، مما أدى إلى خلق زخرفة تتعارض كثيراً مع بساطة الخطوط الرئيسية فى القصة .

جـ - رغم التكرارات الكثيرة التى وضعت داخل إطار كل وحدة ، فإن القصة سارت على وتيرة واحدة ، أى بشكل نمطى ، بسبب تنوع أشكال الممزج بين الأسس الرئيسية فى القصة والموتيفات وردود الأفعال المتغيرة ، مما أدى بدوره إلى عدم تقدم الحكمة بشكل منطقى ووفق منهج مُتَقَنَّ من وحدة إلى أخرى .

أما القصة في القرآن الكريم فأحداثها موزعة توزيعاً معجزاً في عدة سور ، يبرز منه الترتيب المنطقي للأحداث، والآيات حيث تجري في تناسق وتسلسل ، ونتائجها مبنية على مقدمات يتقبلها العقل ويطمئن إليها كما يتضح من مشاهد القصة في السور التالية :

١ - سورة الأعراف : " وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ إِلَّا إِنَّمَا ظَنَرُوهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ . وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يٰمُوسَىٰ اادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَمَّا عَاهَدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِلِغْوِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ " (١) .

— تبدأ قصة آيات الله على فرعون وقومه بمشهد فرعون وآله ، يأخذهم الله بعاقبة الظلم والظغيان ، ويحقق وعد موسى لقومه ، ورجاءه في ربّه ، ويمدق النذير الذي يظلل جو السورة ، وتساق القصة كلها لتصديقه .

- " فى هذا المشهد تاتى إشارة التحذير الاولى .. الجذب ونقص الثمرات .
و " السنين " بتطلق فى اللغة على سنى الجذب والشدة والقحط . وهى فى أرض
مصر ، المخصصة المثمرة ، تبدو ظاهرة تلفت النظر وتدعو إلى اليقظة والتفكر
.. ولكن لم ينتبه فرعون وآله لهذه الظاهرة التى شامت رحمة الله بعباده
أن تبرزها لأعينهم . ولكنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة حسبوها حقاً طبيعياً
لهم ، وإذا أصابتهم السيئة نسبوا هذا إلى شؤم موسى ومن معه عليهم ..

- ولقد جمع السياق هنا تلك الآيات المفصلة ، التى جاءتهم مفرقة .
واحدة واحدة للإيذاء والإبتلاء .. آيات مفصلات .. واضحة الدلالة ، منسقة
الخطوات ، تتبع الواحدة منها الأخرى ، وتمدق اللاحقة منها السابقة .. وهم
فى كل مرة يطلبون من موسى تحت ضغط البلية أن يدعو لهم ربه لينقذهم منها ،
ويعدونه أن يرسلوا معه بنى إسرائيل إذا أنجاهم منها ، وإذا رفع عنهم
هذا العذاب الذى لا قبل لهم بدفعه .. ولكنهم فى كل مرة ينقضون عهدهم ،
ويعودون إلى ما كانوا فيه قبل العذاب وفق قدر الله فى تأجيلهم إلى أجلهم
المقدور لهم .

- فى هذا المشهد جمع السياق الآيات كلها ، كأنما جاءتهم مرة واحدة .
وكانما وقع النكت منهم مرة واحدة . ذلك أن التجارب كلها كانت واحدة ،
وكانت نهايتها واحدة كذلك . وهى طريقة من طرق العرض القرآنى للقصص يجمع
فيها البدايات لتماثلها ، ويجمع فيها النهايات لتماثلها كذلك ... ذلك
لأن القلب المغلق يتلقى التجارب المتنوعة وكأنها واحدة ، لا يفيد منها
شيئاً ، ولا يجد فيها عبرة " (١) .

٢ - سورة الإسراء : " وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَا كَانَ بِرَأْسِهِ

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن . ج ٣ . ص ١٣٥٨ .
وانظر أيضاً : أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى . تفسير
القرطبى . الجامع لأحكام القرآن . ج ٤ . ص ٢٧٠٠ - ٢٧٠٨ . كتاب الشعب .
القاهرة بدون تاريخ .

إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ يَا نَسِيكَ لَأُظَنِّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا . قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأُظَنِّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا " (١) .

- هذا المشهد من القصة يُذكر في هذه السورة لتناسقه مع سياقها -
وذكر المسجد الأقصى في أولها ، وطرف من قصة بنى إسرائيل وموسى . وكذلك
يعقب عليه بذكر الآخرة والمجىء بفرعون وقومه لمناسبة مشهد القيامة القريب
في سياق السورة ..

- والآيات التسع المشار إليها هنا هي اليد البيضاء والعصا وما أخذ
الله به فرعون وقومه من السنين ونقص الثمرات والظوفان والجراد والقمل
والضفادع والدم (٢) .

٣ - سورة طه : " مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً
أُخْرَىٰ . وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ " (٣) .

- للتذكير بالأرض هنا مناسبة في مشهد الحوار مع فرعون الطاغية
المتكبر ، الذى يتسامى إلى مقام الربوبية ، وهو من هذه الأرض وإليها ،
ولذلك يناسب السياق الإشارة إلى الآيات الكونية التى وجهه إليها موسى -
عليه السلام - فيما حوله ، وما فى الكون منها أكبر وأبقى ، لذلك لا يفصل
السياق هنا عرض الآيات على فرعون ، فهذا مفهوم ضمناً .

٤ - سورة النمل : " يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَأَلْقِ عَصَاكَ
فَلَمَّا رَاَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ . يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ
لَدَى الْمَرْسَلُونَ . إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسَنًا بَعْدَ سَوْءٍ فَأِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَأَدْخِلْ
يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ . فَمِنْ شَرِّ مَا يَبْذُلُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ . إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .

(١) سورة الإسراء : ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن . ج ٤ - ص ٢٢٥٢ .

(٣) سورة طه : ٥٥ - ٥٦ .

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ^(١) .

- موضوع سورة النمل - كساثر السور المكيّة - هو العقيدة : الإيمان بالله ، وعبادته وحده ، والإيمان بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب . والإيمان بالوحي وأن الغيب كله لله ، لا يعلمه سواه . والإيمان بأن الله هو الخالق الرازق واهب النعم ، وتوجيه القلب إلى شكر أنعم الله على البشر . والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله ، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله . ويأتى القصص فى هذه السورة لتثبيت هذه المعانى ، وتموير عاقبة المكذبيين بها ، وعاقبة المؤمنين ، فتأتى حلقة من قصة موسى - عليه السلام - تلى مقدمة السورة . حلقة رؤيته للنار وذهابه إليها ، وندائه من الملائكة الأعلى ، وتكليفه الرسالة إلى فرعون وملئه . ثم يعجل السياق بخبر تكذيبهم بآيات الله وهم على يقين من صدقها وعاقبة التكذيب مع اليقين . وقد ذكر السياق آيتى العصا واليد ولم يعدد بقية الآيات التسع ، التى كشف عنها فى سورة الأعراف ، وهى سنون الجذب ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والصفادع ، والدم . لأن التركيز هنا على قوة الآيات لا على ماهيتها ، وعلى وضوحها وجود القوم لها . (٢) .

٥ - سورة القصص : " فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ . وَقَالَ مُوسَى رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنِ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ . إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ^(٣) " .

- ونلاحظ فى هذا المشهد مدى سرعة الإيقاع فى أحداث هذه الحلقة لأن قوم فرعون لم يأتوا بحجة ليناقشها موسى معهم ولم يطلبوا دليل ليعطيهم لهم ، وإنما هم يمارون ، ولذلك فالاختصار أولى والإعراض أكرم ، فترك موسى

(١) سورة النمل : ٩ - ١٤ .

سيد قطب : فى ظلال القرآن . ج ٥ . ص ٢٦٣٠ .

وانظر أيضاً : تفسير القرطبي . ج ٧ . ص ٤٨٧٩ .

(٢) سورة القصص : ٣٦ - ٣٧ .

الأمر بينه وبينهم إلى الله .. ولذا يتضح أن الإسراع في هذه الحلقة مقصود، متناسق مع اتجاه القصة في السورة : وهو تدخل يد القدرة بلا ستار من البشر ، فما أن يواجه موسى فرعون حتى يعجل الله بالعاقبة وتضرب يد القدرة ضربتها الحاسمة ، بلا تفصيل في المواجهة أو تطويل (١) .

٦ - سورة الزخرف : " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَفْضَحُونَ . وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَقَالُوا يَسَاءَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ " (٢)

- تشير هذه الحلقة إشارة سريعة إلى الآيات التي عرضها موسى ، وينتهي هذه الإشارة بطريقة استقبال القوم لها ، ثم تلى ذلك إشارة إلى ما أخذ الله به فرعون وملاه من الابتلاءات المبطلة في سور أخرى . ونخلص من هذا المشهد أن هذه الآيات التي ظهرت على يد موسى لم تكن مدعاة إيمان ، وهى تأخذهم متتابعة ، كل آية أكبر من أختها ، مما يصدق قول الله في مواضع كثيرة ، وفحواه أن الخوارق لا تهدى قلباً لم يتأهل للهدى .

٧ - سورة القمر : " وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ . كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا . فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ " (٣) .

- " في هذا المشهد تختصر قصة فرعون وملئه في طرفيها : مجيء النذر لآل فرعون وتكذيبهم بالآيات التي جاءهم بها رسولهم . وأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر

(١) ويذكر القرطبي أن هذه الآيات التي وردت بدون تفصيل لها في سورة القصص هي الحجج العقلية التي احتج بها موسى في إثبات التوحيد .

انظر : تفسير القرطبي . ج ٧ . ص ٥٠٤ .

(٢) سورة الزخرف : ٤٩ - ٥٠ .

(٣) سورة القمر : ٤١ - ٤٢ .

وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصة حين يراد إبراز إيجابيات معينة من إيرادها في هذا النسق " (١) ..

وهكذا نجد أن قصة آيات الله على فرعون وقومه قد توزعت في عدة مواضع من سور القرآن الكريم وفي كل موضع تأتي بشيء جديد أو تخضع لمما يقتضيه سياق السورة من توجيهات ، وفي كل موضع يبرز شعاع روي يتجه إلى النفس الإنسانية مباشرة ليبين لها العظة والعبرة التي من أجلها قص الله هذه القصة .

- وبعد عرضنا السابق من المقارنة بين قصص القرآن والتوراة يتضح لنا الفرق الهائل بين القمصين في المعنى والروح ، بل في المنهج من حيث القواعد والأسلوب ، " فالقصة في القرآن هي " الصدق " و " الواقع " فقد أقرّ القرآن " الصدق " كمنهج أدبي ، ورفض أعذب الشعر المبالغيات ، وصحّ الأخبار وحرّر الوقائع كلها من الأساطير والخرافات ، وأبعدها عن التهاويل والمفريّات بحيث تصبح الصورة الحقيقية هي ما يقدم بين أيدي الناس . وبذلك ظل القرآن وحده إلى اليوم : النص الموثق البعيد عن خطئ التحريف " (٢) .

- إن مفهوم القصة في اللغة العربية كما ذكرنا من قبل هو الإخبار بالوقائع المجرد وتتبع آثار الحقيقة ، ولا يفهم منه تأليف الحكايات أو تلفيق الوقائع أو اصطناع الأخبار المكذوبة التي يلفقها الكبت والظلم فتسعى سعيها لإخفاء عارها وكذبها ، ثم تنتحل الصدق انتحالاً لهذا الفن فتسميه صدقاً فنياً . وقد سجل القرآن على نفسه هذا المنهج في قوله تعالى :
" إِنْ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ " (٣) ، " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي

-
- (١) سيد قطب : في ظلال القرآن . ج ٥ . ص ٣٤٣٥ .
(٢) أنور الجندي : خصائص الأدب العربي . ص ٣٣٤ . دار الكتاب اللبناني . بيروت . بدون تاريخ .
(٣) سورة آل عمران : من الآية ٦٢ .

الْأَنْبِلِب " (١) ، " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ " (٢) ، " إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْخَاتِلِينَ " (٣) .

ومع أن القصص القرآني ذات هدف ديني بحت ، حيث يأتى للموعظة والتربية والتوجيه إلا أنه يعنى مع ذلك بكل مطالب الفن القصصى الخالص كما عرضنا سابقاً .

- والقرآن الكريم مصدق لما سبقه من الكتب المنزلة ومهيمن عليها ، وتصديق القرآن لما بين يديه من الكتب المنزلة معناه أن ما وافقه من قضايا فهو حق وما خالفه فهو باطل . وليس من المخالفة المقصودة أن تذكر شيئاً لم يذكره القرآن ؛ ولكن أن تذكر فى الأمر الواحد شيئاً يذكر القرآن خلافه ، ففى حالة الاختلاف هذه يكون القرآن هو الأعلى ، ويكون قوله الفصل ، ومن أجل هذا وصفه الله بالهيمنة على الكتب المنزلة قبله . فالقرآن شاهد للكتب قبله بالصدق عند الاتفاق ، وشاهد عليها ومصحح لها عند الاختلاف ففى أمر من الأمور ..

وأمثلة هيمنة قصص القرآن على قصص التوراة قد اتضحت لنا من عرضنا فى البابين السابقين ، إلا أننا نقدم هنا لمحة سريعة لهذه الهيمنة تعطى ملخصاً موجزاً لما سبق عرضه :

" فى قصص سفر التكوين أمور كثيرة يصححها القرآن ، ففى قصة آدم والخروج من الجنة ، أن حواء هى التى حملت آدم على الأكل من الشجرة ، وأن الذى وسوس لحواء وحملها على الأكل من الشجرة قبل آدم هى الحيّة ، من غير ذكر للشيطان كأنه لا يد له فى الإغواء ، والذين يريدون الجمع بين هذا وما فى القرآن يقولون إن الشيطان كَبَسَ الحيّة ، ولسانها أغوى آدم وحواء ،

(١) سورة يوسف : من الآية ١١١ .

(٢) سورة يوسف : من الآية ٣ .

(٣) سورة الأنعام : من الآية ٥٧ .

ولكن القرآن الكريم لم يذكر الحية ولا يحمل حواء وزر البدء بالأكل من الشجرة ، خلافاً لما أمر الله ، بل مفهوم القصة فى صورة (طه) أن آدم هو الذى اقتنع أولاً بالأكل طلباً للخلود بإغواء الشيطان وتزيينه ، وأن زوجه - ولم تذكر باسمها قط فى القرآن - تابعته فى ذلك فهى على أسوأ تقدير أكلت معه إن لم تكن أكلت بعده " (١) .

هذا هو المتبادر من قوله تعالى : " فَوَسْوَسَ إِلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ . قَالَ يَهَادِمُ هَلْ أَذْكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى فَاَكَلَا مِنْهَا " (٢) .

والشيطان وسوس إلى زوج آدم أيضاً ، حين وسوس إلى آدم وهذا ما أضافه مشهد القصة فى سورة الاعراف : " فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ، لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا . وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن تَرَاقِيهِمَا فَتَكَرَّرا " (٣) .

لكن ليس فى قصة القرآن آية تخص زوج آدم بالوسوسة ، أو تنسب الوسوسة والإغراء بالشجرة إلى غير الشيطان ، فالقرآن فى هذا المثل مهيم على التوراة ومصحح لما جاء فى سفر التكوين .

وقد ذكر سفر التكوين من قصص نوح وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ويوسف وإخوته ، وفى كل ذلك ما يهيم عليه القرآن بالتصحيح تارة وبالتنويه أخرى . وفى قصص إبراهيم ولوط ، ينكر مثلاً أن يكون الضيوف الملائكة أكلوا الطعام عند إبراهيم أو عند لوط كما تقول التوراة ، كما ينكر ما تقرره من أن إبراهيم حين اصطفاه الله كان شيخاً ، ويقول إنه كان فتى كما فى سورة

(١) محمد أحمد الغمراوي : الإسلام فى عصر العلم ص ١٨١ . اعداد د. احمد

عبد السلام الكردانى . دار الكتب الحديثة . القاهرة ١٩٧٨ .

(٢) سورة طه : آية ١٢٠ - ١٢١

(٣) سورة الاعراف : ٢٠ - ٢٢ .

الأنبياء : " قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ " (١) .. فالضمير في يذكرهم يعود إلى آلهة قومه التي جعلها جذاداً ، والتي لم تذكر التوراة من قصتها وقصة قومه شيئاً .

ومن العجيب أن التوراة فيما قصت من قصص الأنبياء والمرسلين في سفر التكوين ، لم تذكر شيئاً في أمر رسالتهم وما لقوا في سبيل الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ، فليس في قصة نوح في التوراة شيء مما قص القرآن من نهيه قومه عن عبادة غير الله ، وما كان بينه وبينهم من حجاج ، واقتصرت قصة التوراة على التمهيد لحديث الطوفان بأن الله غضب على أهل الأرض غضباً شديداً لفجورهم وعصيانهم ، بل تزعم أن الله جلّ وعلا حمله فجور أهـل الأرض إذ ذاك على الندم على خلق الإنسان (٢) ، تعالى الله عن افتراء المفترين علواً كبيراً .. أما نوح فوصفته بالاستقامة على مراط الله فأطلعـه الله على ما يريد من إهلاك أهل الأرض ، وأمره أن يبني الفلك بأبعادهـا في الطول والعرض والارتفاع لينجو بها وأهله من الطوفان ، إلى غير ذلك من تفاصيل ليست في الدين في شيء ، فشتان بين قصة نوح كما جاءت في التوراة ، وبين قصة نوح الرسول في أي موطن من مواطنها المتعددة في القرآن الكريم .

ومثل ذلك فيما ذكرت التوراة من أمر لوط أو إسحاق أو يعقوب أو يوسف ليس فيما ذكرت من ذلك شيء من الدعوة إلى الله والاحتجاج لوحـدانـيته سبحانه ، المملوءة بهما قصصهم في القرآن .

وأخيراً فإن القرآن الكريم لا تنقضى عجائبه ، ولا تنفذ غرائبه ، فلكل أمرى أن يتدبره بعقله ويفهمه على الوجه الذي يستقر في اعتقاده ، بشرط عدم الإخلال بفصاحته أو بشيء من مقاصد الدين ، فعسى أن تكون النماذج التي قدمناها من القصص كافية في توضيح جانب من جوانب عظمة القرآن وهو الجانب المتمثل فيما وصف الله به كتابه العزيز من أنه مصدق لما أنزل الله من كتاب قبله ومهيمن عليه .

(١) سورة الأنبياء : آية ٦٠ .

(٢) راجع القصة في سفر التكوين : الإصحاح السابع .

الفصل الثانى

الإعجاز فى قصص القرآن الكريم والتوراة

١ - مفهوم الإعجاز فى القرآن الكريم والتوراة :

"الإعجاز لغة مصدر أعجز وأعجزه إذا أوقعه فى العجز . وهو مصدر مضاف إلى فاعله . والمفعول محذوف ، وهو البشر ، أو الإنس والجن معاً ، والنسبة هنا مجازية ، فقد عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن " (١) . ويقول ابن منظور فى معنى المعجزة : " والمعجزة بفتح الجيم وكسرهما ، مفعلة من العجز : عدم القدرة . وفى الحديث : كل شيء بقدر ، حتى العجز والكيس . وقيل أراد بالعجز ترك ما يجب فعله بالتسوية ، وهو عام فى أمور الدنيا والدين . والمعجزة : واحد معجزات الأنبياء عليهم السلام " (٢) .

- (١) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث فى قصص القرآن ، ص ١٤١ .
(٢) ابن منظور : لسان العرب ، ج ٤ ، ص ٢٨١٧ .
وفى التنزيل العزيز " وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء " .
قال الفراء : يقول القائل كيف وصفهم . بأنهم لا يعجزون فى الأرض ولا فى السماء ، وليسوا فى أهل السماء ؟ فالمعنى ما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء بمعجز .
وقال أبو إسحق : معناه ، والله أعلم ، ما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا لو كنتم فى السماء ..
وقال الأخفش : معناه ما أنتم بمعجزين فى الأرض ، ولا فى السماء أى لا تعجزوننا هرباً فى الأرض ولا فى السماء .
قال الأزهري : وقول الفراء أشهر فى المعنى ولو كان قال : ولا أنتم لو كنتم فى السماء بمعجزين لكان جائزاً ، ومعنى الإعجاز الفوت والسبق .
ويقال أعجزنى فلان أى فاتنى ، ومنه قول الأعشى :
فَذَاكَ وَلَمْ يَعْجِزْ مِنَ الْمَوْتِ رَبَّهُ ... وَلَكِنْ أَتَاهُ الْمَوْتُ لَا يَتَأَبَّقُ
انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ج ٤ ، ص ٢٨١٧ .

أما الإعجاز عند أهل الاصطلاح : " فهو الحجة التي يقدمها القرآن إلى خصومه من المشركين ليعجزهم بها " (١).

أما عندما نريد تحديد هذا المصطلح في حدود التاريخ أى في تطوُّر إدراك البشر لـ (حجة) الدين ، وإدراك المسلم لـ (حجة) الإسلام بخاصة ، فلا بد من مراجعة القضية في ضوء تاريخ الإسلام واليهودية .

فإذا نظرنا إلى الآيات التي تدل على الإعجاز في القرآن الكريم ، وإليه تلقت النظر فإننا نجد لها كثيرة رغم أنها اقتصرنا على التحدى على طلب المعارضة بمثل القرآن كله كما في قوله عز وجل : " قُلْ لِّمَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجَنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا " (٢) ، ثم طلب الإتيان بعشر سور مثله مفتريات لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة ، وليس إلا النظم والأسلوب ، وهم أهل اللغة ، وذلك في قوله تعالى : " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ . قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَفْتَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ . وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ " (٣) . ثم قرن التحدى بالتأنيب والتفريع ، ثم استفزهم بعد ذلك جملة واحدة ، فقال عز وجل : " وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ (٤) مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ " (٥) ..

(١) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ص ٦٠ .

(٢) سورة الإسراء : آية ٨٨ .

(٣) سورة هود : ١٣ و ١٤ .

(٤) هذا هو رأى المفسرين القدامى بترتيب التحدى على النحو التالى : القرآن كله أولاً ثم عشر سور ثم بسورة واحدة .

(٥) سورة البقرة : ٢٣ و ٢٤ . ويشير صاحب إعجاز القرآن إلى مافى هاتين الآيتين من معانى خفية بقوله : " وعندما نتأمل نظم هاتين الآيتين نجد عجباً ، فقد بالغ في احتياجه واستفزازهم ليثبت أن القدرة فيهم على المعارضة كقدرة الميت على أعمال الحياة : لن تكون ولن تقع ، فقال لهم : لن تفعلوا ، أى هذا منكم فوق القوة وفوق الحيلة . وفوق الاستعانة وفوق الزمن ، ثم جعلهم وقوداً ، ثم قرنهم إلى الحجارة ، ثم سماهم كافرين ، فلو أن فيهم قوة بعد ذلك لانفجرت . ولكن الرماد غير النار . انظر : مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ١٧٠ .

وبذلك قطع لهم أنهم لن يفعلوا، وهى كلمة يستحيل أن تكون إلا من الله عز وجل، وهو ذو القوة والحول الذى لا راد لأمره .
وفيما يتعلق بأراء قدامى المفسرين من أن " التحدى " كان على الترتيب بالقرآن كله، ثم عشر سور ثم بسورة واحدة . فإن هناك من المفسرين المحدثين من يرى أن هذا الترتيب ليس عليه دليل . بل الظاهر أن سورة يونس سابقة، والتحدى فيها بسورة واحدة، وسورة هود لاحقة والتحدى فيها بعشر سور ١٠ والواقع أن ترتيب الآيات فى النزول ليس من الضرورى أن يتبع ترتيب السور، فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة فى النزول . إلا أن هذا لا يحتاج إلى ما يثبت، وليس فى أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود . والترتيب التحكمى فى مثل هذا لا يجوز " (١).

ويقول " محمد رشيد رضا " فى تفسير " المنار " : " قال بعض علماء الكلام أن الله تعالى تحدى الناس أولاً بالقرآن فى جملته فى آية " الإسراء " ثم تحداهم بعشر سور مثله فى آية هود، ثم تحداهم بسورة واحدة مثله فى آية " يونس " وكل ذلك بمكة. ثم بسورة من مثله فى آية " البقرة " بالمدينة . وهذا ترتيب معقول لو ساعد عليه تاريخ النزول، والظاهر أن التحدى فى سورتي يونس وهود خاص ببعض أنواع الإعجاز، وهى ما يتعلق بالأخبار كقصص الرسل مع أقوامهم، وهو من أخبار الغيب الماضية التى لم يكن لمن أنزل عليه القرآن علم بها ولا قومه، كما قال تعالى عقب " قصة نوح " من سورة هود : " تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ . مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا . فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ " (٢) . . . وكما قال فى سورة القصص عقب قصة موسى :

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ١٨٦١ .

(٢) سورة هود : آية ٤٩ .

"وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ . وَمَا كُنْتَ شَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" (١) ... وكما قال في سورة آل عمران عقب قصة مريم : " ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ" (٢)

ولعل وجه التحدى بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة ، هو إرادة نوع خاص من أنواع الإعجاز وهو الاتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية في البلاغة " (٣) .

أى أنه يقصد بالتحدى هنا القصص القرآنى ، وإنه بالاستقراء يظهر أن السور التى كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشرا . فتحداهم بعشر ٠٠ أى أن تحديهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحديهم بعشر نظراً لتفرق القصص وتعدد أساليبه ، واحتياج المتحدى إلى عشر سور كالتى ورد فيها ليتمكن من المحاكاة ، إن كان سيحاكى ٠٠ والأفضل هنا القول أن الحالات الثلاث لم يسبقها القرآن لتنشئ الحجة ، وإنما جاءت إعلاناً هنا ، وإشهاراً لوجودها فى سائر القرآن ، كيما توءتى تأثيرها فى العقول والقلوب . ويقول الباقلانى عن الإعجاز فى القرآن الكريم : " لو لم تكن إلا سورة واحدة لكفت عن الإعجاز ، فكيف بالقرآن العظيم ٠٠ ولو لم يكن إلا من حديث من سورة لكفى ، وأقنع وأشفى ٠٠٠ ولو عرفت قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء ،

(١) سورة القصص : ٤٤ - ٤٦ .

(٢) سورة آل عمران : آية ٤٤ .

(٣) الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار . ج ١ ، ص ١٩٣ . الطبعة الثالثة ، دار المنار ، القاهرة ، ١٣٦٧ هـ .

لما طلبت بينه سواها "(١).

فهو هنا لا ينظر إلى إعجاز القرآن في عدد سوره وإنما يغوص إلى المعنى ، ولو كان في آية واحدة إذ يرى فيها ما يكفي من الإعجاز : أما عن رأى السكاكسى

(١) أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى : إعجاز القرآن . ص ١٩٥ ، تحقيق السيد أحمد صقر . دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٦٣ .

وقد أشار الباقلانى إلى الوجوه والمعانى التى يشتمل عليها نظم القرآن وتأليفه وبلاغته فذكرها فى عشرة وجوه :

المعنى الأول : ما يرجع إلى جملة .

المعنى الثانى : كون كلام العرب غير مشتمل على فصاحة القرآن وغرابته ولطيف معانيه ، وغزير فوائده ، وما إلى ذلك .

المعنى الثالث : عدم التفاوت والتباين فى عجيب نظم القرآن ، وبديع تأليفه المعنى الرابع : كون كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً ظاهراً فى الفصل والوصل والعلو والنزول وغير ذلك .

المعنى الخامس : كون نظم القرآن - من حيث البلاغة خارجاً عن عادة كلام الثقليين . ودفع ما قد يرد على ذلك .

المعنى السادس : اشتمال القرآن على جميع أنواع الخطاب عند العرب ، مع تجاوزه حدود المعتاد بينهم .

المعنى السابع : تضمن القرآن ما يمتنع عن البشر من المعانى فى أصل وضع الأحكام والقواعد والاحتجاج فى العقائد والرد على المعانى .

المعنى الثامن : كون الكلمة من القرآن يتمثل بها خاصة فى تضاعيف كلام كثير .

المعنى التاسع : كون الحروف التى بنى عليها كلام العرب : تسعة وعشرين حرفاً . مع أن عدد سور القرآن - المفتتحة بذكر الحروف : ثمان وعشرون سورة ، وجملة الحروف المذكورة فى أوائل السور أربعة عشر حرفاً .

المعنى العاشر : سهولة سبل القرآن ، وخروجه عن الوحش المستكره ، والغريب المستنكر ، وبعده عن التمنع والتكلف ، وقربه إلى الفهم .

انظر : المرجع السابق ، ص ٣٥ - ٤٧ .

فى إعجاز القرآن فيظهر فى قوله أن : " المنقول عن العرب فى حق كلام ربّ العزة :
إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وأن أسفله لمعذق ، وأن أعلاه لمثمر ، وأنه
يعلو ومايعلى ، وماهو بكلام البشر ، فتستغنى بذلك عن قرع باب الاستبدال ،
وأن لاتتجاذبك أيدي الاحتمالات فى وجه الإعجاز .. لاشك أن قارعى بــــــــــــــــاب
الاستدلال بعد الاتفاق على أنه معجز مختلفون فى وجه الإعجاز - فمنهم من يقول
وجه الإعجاز هو أنه عزّ وجلّ صرف المتحدين لمعارضة القرآن عن الإتيان بمثله
بمشيئته لا أنها لم تكن مقدوراً عليها فيما بينهم فى نفس الأمر ، لكن لازم هذا
القول كون المصروفين عن الإتيان بالمعارضة على التعجب من تعذر المعارضة
لا من نظم القرآن مثله .. ومنهم من يقول وجه إعجاز القرآن وروده على
أسلوب مبتدأ مبين لأساليب كلامهم فى خطبهم وأشعارهم .. لكن ابتداء أسلوب
لو كان يستلزم تعذر الإتيان بالمثل لاستلزم ابتداء أسلوب الخطبة أو الشعر
إد لا شبهة فى انهما مبتدآت تعذر الإتيان بالمثل واللازم كما نرى منتصف ..
ومنهم من يقول وجه إعجازه سلامته من التناقض . لكنه يستلزم كون كل كلام
إذا سلم من التناقض وبلغ مقدار سورة من السور أن يعد معارضة ، والــــــــــــــــلازم
بالإجماع منتف .. ومنهم من يقول وجه الإعجاز الاشتمال على الغيوب . لكنـــــــــــــــــه
يستلزم قصر التحدى على السور المشتملة على الغيوب دون ماسواها ، والــــــــــــــــلازم
بالإجماع أيضاً منتف .. فهذه أقوال أربعة يخمسها مايجده أصحاب الذوق من
أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة وهذا لايتأتى بفضل إلهــــــــــــــــى
بهذين العلمين يهيهما الله بحكمته من يشاء ، وهى النفس المستعدة لذلك ،
فكل ميسر لما خُلق له ، ولا استبعاد فى إنكار هذا الوجه ممن ليس معه مايطلع
عليه " (١) .

(١) أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على السكاكى : مفتاح العلوم ، ص ٢٤٢ -
٢٤٣ ، الطبعة الأولى . مطبعة مصطفى البابى الحلبي ، وأولاده بمصر ، سنة
١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م .

ويقول " عبد القاهر " فى دلائل إعجازه : لقد أعجز القرآن العـرب بمزايا ظهرت لهم فى نظمهم وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها ، ومجارى ألفاظها ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام ، وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة برهان ، وصفة ، وتبيان ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا فى الجميع كلمة يَنبُو بها مكانها ، ولفظة ينكسر شأنها أو يرى أن غيرها أطلع هناك أو أشبه ، أو أخرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول وأعجز الجمهور . ونظاماً والتزاماً وإتقاناً وإحكاماً لم يدع فى نفس بليغ منهم ... " (١)

تلك كانت خلاصة آراء قدامى المفكرين الإسلاميين حول مسألة إعجاز القرآن الكريم وهى وإن كان يبدو فى ظاهرها بعض التباين إلا أنها جميعاً تؤكّد إعجاز القرآن الكريم فى أسلوبه ونظمه ونعته وتفردته فى ذلك . أما فيما يتعلق بآراء المحدثين فى هذا الشأن فهم وإن كانوا لا ينكرون على الإطلاق مذهب إليه أسلافهم إلا أنهم يدلّون بدلوهم فى هذا المجال من منظور تطور المجتمعات الحديثة ، وانتشار الأفكار المختلفة والثقافات الوافدة إلى الإسلام والمسلمين . ومن أفضل ما قيل فى هذا الشأن مانوجزه فيما يلى حيث يذكر الكاتب : أنه " لا بد من إعادة النظر فى قضية الإعجاز فى نطاق الظروف الجديدة التى يمرّ بها المسلم اليوم ، مع الضرورات التى يواجهها فى مجال العقيدة والروح " (٢) . ورغم ما يبدو فى القضية من تعقّد ، بسبب موقفنا التقليدى إزاءها ، فإننا نعتقد أن مفتاحها موجود فى قوله تعالى :

(١) الإمام عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز فى علم المعانى ، ص ٤٢ ، صححه أصله الاستاذ محمد عبده . تصحيح وتعليق وطبع السيد محمد رشيد رضا . ط ٦ ،

مكتبة ومطبعة محمد صبيح وأولاده . القاهرة ، سنة ١٩٦٠م .

(٢) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ص ٦٥ .

"قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاءٍ مِّنَ الرُّسُلِ ، وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ . إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ" (١) فإذا اعتبرنا هذه الآية على أنها حجة يقدمها القرآن للنبي كـي يستخدمها في جداله مع المشركين ، فلا بد أن نتأمل محتواها المنطقي من ناحيتين :

فهي تحمل ، أولاً ، إشارة خفية إلى أن تكرار الشيء في ظروف معينة يدل على صحته ، أي أن سوابقه في سلسلة معينة تدعم حقيقته كـ (ظاهرة) بالمعنى الذي يسيغه التحديد العلمي على هذه الكلمة : فالظاهرة هي (الحدث الذي يتكرر في نفسه والنتائج كذلك) .

وهي تحمل في مدلولها ، ثانياً ، ربطاً واضحاً بين الرسل والرسالات خلال العصور ، وأن الدعوة المحمدية يجرى عليها أمام العقل ما يجرى على هذه الرسالات . ومن هذا نستخلص أمرين :

- ١ - إنه يمح أن ندرس الرسالة المحمدية في ضوء ماسبقها من الرسالات .
- ٢ - كما يمح أن ندرس هذه الرسالات في ضوء رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - على قاعدة أن (حكم العام ينطبق على الخاص قياساً ، وحكم الخاص ينطبق على العام استنباطاً) .

ولا مانع إذاً من أن نُعيد النظر في معنى (الإعجاز) في ضوء منطق الآية الكريمة ، وحاصل هذا أننا إذا اعتبرنا الأشياء في حدود الحدث المتكرر، أي في حدود الظاهرة ، فالإعجاز هو :

- ١ - بالنسبة إلى شخص الرسول : الحجة التي يقدمها لخصومه ليعجزهم بها .

- ٢ - وهو بالنسبة إلى الدين : وسيلة من وسائل تبليغه :

وهذان المعنيان للإعجاز يضيفان على مفهومه صفات معينة :

(١) سورة الأحقاف ، من آية ٩ .

أولاً : إن الإعجاز - ك (حجة) لابد أن يكون فى مستوى إدراك الجميع ، وإلا فانت فائدته ، إذ لا قيمة منطقية لحجة تكون فوق إدراك الخصم ، فهو ينكرها من حسن نية إحياناً ..

ثانياً : ومن حيث كونه وسيلة لتبليغ دين : أن يكون فوق طاقة الجميع ..
ثالثاً : ومن حيث الزمن : أن يكون تأثيره بقدر ما فى تبليغ الدين من حاجة إليه ..

وهذه الصفة الثالثة تحدد نوع صلته بالدين ، الصلة التى تختلف من دين إلى آخر ، باختلاف ضرورات التبليغ ..

فهذا هو المقياس العام الذى نراه ينطبق على معنى الإعجاز ، فى كل الظروف المحتملة بالنسبة إلى الأديان المنزلة ..

فإذا قسنا به فى نطاق رسالة " موسى عليه السلام " ، نرى أن الله اختار لهذا الرسول معجزتى السيد والعصا ، وإذا تأملناهما وجدناهما - " كحجة " يدعم الله بها نبيّه - يتصفان بأنهما :

١ - ليستا من مستوى العلم المصرى القديم الذى كان من اختصاص أشخاص معدودين ، يكونون هيئة الكهنوت ، بل كانت المعجزة ، فى كلتا صورتيهما ، من مستوى السحر الذى يقع أثره فى إدراك الجميع عن طريق المعاينة الحسية ، دون إجهاد فكر .

٢ - هاتان المعجزتان تتملكان بتاريخ الدين الموسوى ، لا بجوهره إذ ليس للسيد أو العصا صلة بمعانى هذا الدين ولا بتشريعه ، فهما على هذا مجرد توابع للدين ، لا من صفاته الملازمة له .

٣ - ودلالة هاتين المعجزتين على صحة الدين محدودة بزمن معين ، إذ لا تتصور مفعول السيد والعصا ك (حجة) إلا فى الجيل الذى شاهدهما ، أو الجيل الذى بلغته تلك الشهادة بالتواتر من التابعين وتابع التابعين ، أى أن مفعوليه لا يكون إلا فى زمن محدد ، لحكمة أرادها الله . ولو تأملنا فى هذه الحكمة

لوجدنا أنها تتفق مع حقائق نفسية ، وحقائق تاريخية سجلها الواقع فعلاً :
وهى :

أولاً : إن القوم الذين يدينون اليوم بدين موسى - أى اليهود - يفقدون لأسباب نفسية ، نزعة التبليغ ، بحيث لا يشعرون بضرورة تبليغ دينهم إلى غيرهم من الأمم ، أى : الأميين - كما يقولون - حتى أننا إذا استخدمنا لغة الاجتماع قلنا : إن (الإعجاز) قد أُلغاه في هذا الدين عدم الحاجة إليه .

ثانياً : إن مشيئة الله قد قدرت أن يأتى عيسى رسولاً من بعد موسى ، وأتى الدين الجديد لينسخ الدين السابق ، فينسخ طبعاً جانب الإعجاز فيه ، حيث تزول الحجة بزوال ضرورتها التاريخية . ولكن دلالة ما أوتى عيسى من إعجاز ستزول أيضاً مع زوال موضوعها ، ولنفس الأسباب التى أُلغت جانب الإعجاز ، فى دين موسى حيث يأتى - بعد عيسى - رسول جديد ، ودين جديد يلغيان الدين السابق ، دين عيسى عليه السلام ، فليغى ضرورة التدليل على صحة الإنجيل (١) .

يتضح من العرض السابق أن الإعجاز : إما حسي ، يجابه الحواس ، ويتحدثى القدر ، مثل الإعجاز الذى صاحب موسى وعيسى عليهما السلام ، فقد كان من هذا النوع ، أى أنه كان يقع فى مجال الحس ، وخاصة حاسة النظر ، إذ تكشف للناس على صورة تكاد تكون واحدة ، لا اختلاف عليها بينهم ، لأن الناس لا يختلفون كثيراً فى مدلول المرئيات ، على حين يختلفون اختلافاً بعيداً فى مدلول ما يقع للحواس الأخرى من مسموعات ، ومذوقات ، ومشمومات ، ولموسسات . وإما أن يكون الإعجاز عقلياً يواجه العقل ، ويلقاه بكل ما فيه من قوى الإدراك والاستبصار . وهذا النوع من الإعجاز لا يقع من الناس موقعاً متقارباً ، وإنما يلقيه كل إنسان بما لديه من إدراك وفهم ، وقدرة على التمييز بين المدركات ، والتفرقة بين الخير والشر (٢) .

(١) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ص ٦٥ - ٦٦ .

(٢) عبد الكريم الخطيب : الإعجاز فى دراسات السابقين . ص ٨٧-٨٨ ، دار الفكر العربى ط١ ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المفكرين المسلمين السابقين قد أدركوا هذه الظاهرة الإعجازية أيضاً حيث ، يقول السيوطي : " وأكثر معجزات بنى إسرائيل كانت حسية .. لبلاذتهم ، وقلة بصيرتهم .. ، وأكثر معجزات هذه الأمة - الإسلامية - عقلية . لفطر ذكائهم ، وكمال إلهامهم .. ولأن هذه الشريعة لمّا كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة ، خُصّت بالمعجزة العقلية البالية .. ليراها ذوو الأبصار " (١) .

واختلاف المعجزات في أجيال الناس هو ما اقتضته دواعي الحكمة التي جاءت المعجزات من أجلها .. ذلك أن الناس يختلفون باختلاف أزماتهم وأمكنتهم ، وإذا كانت غاية المعجزة أن يرى الناس فيها صدق الرسول المرسل من قبيل قوة أعلى من إدراكهم وإمكاناتهم ، وقيام الدليل على صحة دعواه ، فكان لابد أن تكون هذه المعجزة جارية مع تفكير من تلقاهم وتتحدّاهم ، آخذة بعقولهم وقلوبهم ..

" هذا وإن يكن من الممكن أن يتحقق في المعجزة المادية الواحدة أن تتكرر جيلاً بعد جيل ، فتظل أبداً متحدية قاهرة - إلا أن ذلك يذهب بكثير من تأثير المعجزة وينزل بقدر كبير من قدرها في أعين الناس ، فلو أن عصا موسى كانت هي المعجزة التي يتناولها الرسل رسلاً بعد رسول ، وكانت في كل مرة ، وفي كل حال تطلع على الناس بتلك المعجزات التي كانت لها عند موسى ، أو بمعجزات أخرى غيرها - لو أن ذلك حدث لمّا كان لها على الناس ذلك السلطان الذي للمعجزة التي تجيء متفردة بوجودها ، والتي تجيء إلى الناس على غير انتظار ، وعلى خلاف أية صورة يتصورونها - ذلك أن أقل ما يقع للناس من المعجزة الواحدة المتكررة أنها ربما كانت وليدة الصدفة ، توارثها أصحابها .. خلفاً عن سلف ، ثم إن حصر إمارات السماء في أمر واحد على صورة واحدة ، متكررة ، فيه اتهام لقدرة الله ، وفتح باب واسع للشك في صدق الرسول ..

(١) السيوطي : إلتقان في علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ١١٦ .
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . ط ٢ ، دار التراث . القاهرة ١٩٨٥ م .

إذ أن القدرة الإلهية لا حدود لها ، فكيف لا يراها الناس إلا فى صورة واحدة
تتكرر على الأجيال ؟

لهذا كان من تدبير الحكيم العليم القادر أن يكون فى يد كل نبيٍّ
دليل صدقه الذى لا يشاركه فيه غيره ، وأن تكون معجزته التى يلقى بها الناس
حدثاً فريداً ، لم يقع لهم فى خاطر ، ولم يحل لهم فى تفكير" (١)

وهكذا تأتى رسالة الرسول الأمين - صلى الله عليه وسلم - فتتسم بصفة
خاصة تميزها عما سبقها من الرسائل ، إذ أنها الحلقة الأخيرة فى سلسلة
البعث ، ولذا وجب أن يكون (إعجاز) القرآن صفة ملازمة له عبر العصور
والأجيال ، وهى صفة يدركها العربى فى الجاهلية بذوقه الفطرى ، وعالم اللغة
بتذوقه العلمى ، ومع أن المسلم اليوم فقد فطرة العربى الجاهلى ، وإمكانات
عالم اللغة ، إلا أن القرآن الكريم لم يفقد جانب إعجازه لأنه ليس من توابعه ،
بل من جوهره ، وإنما أصبح المسلم مضطراً إلى أن يتناوله فى صورة أخرى
بوسائل أخرى ، فهو يتناول الآية من حيث تركيبها النفسى الموضوعى ، أكثر
مما يتناولها من ناحية العبارة ، فيطبق فى دراسة مضمونها طرقاً للتحليل
النفسى والأدبى (٢) ، الأمر الذى سنبحث جانباً منه فى وجوه الإعجاز القصصى فى
القرآن الكريم .

(١) عبد الكريم الخطيب : الإعجاز فى دراسات السابقين ، ص ٨٩ - ٩١ .

(٢) مالك بنى نبي : الظاهرة القرآنية ، ص ٦٧ .

١ - الإعجاز القصصى فى القرآن الكريم

ذكرنا من قبل أن القصة فى القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً فى موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه كما هو الشأن فى القصة الفنية الحرة التى ترمى إلى أداء غرض فنى طليق ، إنما هى وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية. والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شئ ، وحيث أن حاجة التبليغ مستمرة والقصة إحدى وسائل هذا التبليغ ، لذلك فإن الإعجاز فى القصة القرآنية سيظل صفة ملازمة لها ، وقد آن أن ننقل إلى بيان موجز لما فى قصص القرآن من إعجاز بيانى وعلمى :

١ - البيان والبلاغة :

١ - يتميز القصص القرآنى بما فيه من نظم عجيب لا يقل فى إعجازه عن غيره مما عنى الفحول بتصويره دون تفرقة بين آيات الكتاب فى الفضاءات والمزاجات العجائب ، فإذا نظرنا فى " قصة نوح " وجدنا أنفسنا فى بعض مواضعها أمام تصوير رائع فى سورة أفردت لذلك من بين سور القرآن ٥٥ فهى تبسط حواراً بينه وبين قومه ٥٥ ثم ضراعة منه إلى ربه ، بعد أن يئس من هدايتهم ، فإذا انتقلنا بعد ذلك لنتصور كيف كانت نجات نوح وما صورته فى ذلك سورة هود ، وكيف أمره الله سبحانه أن يصنع الفلك بعينه وحيه ، وكيف أدخل فيها مَن شاء الله نجاته ، وكيف جرت به فى موج يشبه فى التصوير القرآنى بأنفسه كالجبال ، وكيف اتجه الخطاب إلى الأرض بأن تبلع الماء وللسماء بأن تقلع ، وكيف ذهب الذى طاف بجميع الأرجاء ، وكيف صدر الله سبحانه بالفعل المبنى للمجهول ونائب الفاعل كلاً من غيض الماء ، وقضاء أمر الهلاك ونجات المؤمنين ، وإبعاد الظالمين فى هذه الجمل الثلاث الآتية : " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِعِي . وَغِيضَ الْمَاءُ . وَخُضِيَ الْأَمْرُ . وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى . وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " (١).

(١) سورة هود : ٤٣ - ٤٤ . وانظر د. أحمد أحمد بدوى : أسس النقد الأدبى عند العرب ، ص ٣٩ ، دار نهضة مصر . القاهرة ، بدون تاريخ .

ومن خير ما قيل عن وجوه البلاغة والفصاحة ، فى القصة ما نقله عن السكاكى فى مفتاح العلوم حيث قال : " أما النظر فيها من جهة علم البيان ، فهو أنه تعالى لما أراد أن يبين معنى أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها ، فارتد ، وأن نقطع طوفان السماء ، فانقطع ، وأن يغيض الماء النازل من السماء ، فغاض ، وأن يقضى أمر نوح ، وهو إنجاز ما كنا وعدناه من إغراق قومه ، فحضى ، وأن نسوى السفينة على الجودى ، فاستوت ، وأبقينا الظلّة غرقى - بنى الكلام على تشبيه المراد منه ، بالأمور الذى لا يتأتى منه لكمال هيئته العصيان ، وتشبيه تكوين المراد ، بالأمر الجزم النافذ فى تكوين المقصود ، تصويراً لاقتداره تعالى ، وأن السماوات والأرض وهنّ فى الأجرام العظام تابعة لإرادته كأنها عقلاء مميزون ، قد عرفوه حق معرفتهم وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره ، وتحتّم بذل المجهود عليهم فى تحصيل مراده ، ثم بنى على تشبيهه هذا نظم الكلام ، فقال تعالى : (قِيلَ) . على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل . وجعل قرينة المجاز خطاب الجماد ، وهو (يَا أَرْضُ) ، و (يَا سَمَاءُ) ، مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة ، للشبه المذكور ، ثم استعار لغور الماء فى الأرض بالبلع الذى هو إعمال الجاذبة فى المطعوم ، بجامع الذهاب إلى مقر خفى ، واستتبع ذلك تشبيه الماء بالغذاء على طريق الاستعارة بالكناية ، لتقوى الأرض بالماء فى الإنبيات للزرع والأشجار ، وجعل قرينة الاستعارة لفظ (ابْلَعِ) ، لكونه موضوعاً للاستعمال فى الغذاء دون الماء ، ثم أمر على سبيل الاستعارة ، للشبه المقدم ذكره ، ثم قال : ماءك ، بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز ، تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض باتصال الملك بالمالك ، واستعار لحبس المطر الإقلاع الذى هو ترك الفاعل الفعل ، للشبه بينهما فى عدم ما كان ، وخاطب فى الأمرين أى قال : ابْلَعِ ، وأَقْلِعِ ، ترشيحاً للاستعارة : (أى استعارة النداء فى (يَا أَرْضُ) و (يَا سَمَاءُ)) ، ثم قال : وَغِيضَ الْمَاءِ ، وَقَضَى الْأَمْرُ ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى ، وَقِيلَ : بَعْدَ اللَّفْظِ الظُّلُمِينَ ، فلم يصرح بالغائض ، والقاضى ، والمسوى ، والقائل ،

كما لم يصرّح بقائل (يا أرض) و (يا سماء) سلوكاً فى كل واحد من ذلك سبيل الكناية عن تلك الأمور العظام لايتأتى إلّا من ذى قدرة لا تكتنه ، قَهَّـار لا يغالب ، فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون الفاعل لشيء من ذلك غيره ، ثم ختم الكلام بالتعريض لسالكى مملكتهم فى تكذيب الرّسل ظلماً لأنفسهم حتّى إظهار لمكان السخط ، ولجهة استحقاقهم إياه .

وأما النظر فيها من حيث علم المعانى ، وهو النظر فى فائدة كل كلمة فيها ، وجهة كل تقديم وتأخير بين جملها ، فذلك : أنه اختير (يا) دون سائر أخواتها ، لكونها أكثر استعمالاً ، ولدالتها على بعد المنادى الذى يستدعيه مقام إظهار العظمة ، ويؤذن بالتهاون به ، ولم يقل : (يا أرض) بالكسر ، تجنباً لإضافة التشريف ، تأكيداً للتهاون ، ولم يقل : (يا أيتها الأرض) للاختصار ، مع الاحتراز عمّا فى (أيتها) ، من تكلف التنبيه غير المناسب للمقام ، لكون المخاطب غير صالح للتنبيه على الحقيقة . واخير لفظ الأرض دون سائر أسمائها ، لكونه أخف وأدور . واختير لفظ السماء لمثل ذلك مع قصد المطابقة . واختير (ابلعى) على (ابتلعى) ، لكونه أحضر ، ولمجئ حظ التجانس بينه وبين (أقلعى) أوفر . وقيل (ماءك) بالإفراد دون الجمع لدلالة الجمع على الاستكثار الذى ياباه مقام إظهار الكبرياء ، وهو الوجه فى إفراد الأرض والسماء . ولم يحذف مفعول (ابلعى) لئلا يفهم ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وغيرها ، نظراً إلى مقام ورود الأمر الذى هو مقام عظمة وكبرياء . ثم إذ بيّن المراد اختصر على (أقلعى) ، فلم يقل : اقلعى عن إرسال الماء ، احترازاً عن الحشو المستغنى عنه من حيث الظاهر ، وهو الوجه فى أنه لم يقل يا أرض ابلعى ماءك ، فبلعت ، ويا سماء أقلعى فأقلعت ، واختار (غيض الماء) على (غيظ) المشددة ، لكونه أخمر وأخف ، وأوفق للقول . وقيل (الماء) دون أن يقال : (ماء طوفان السماء) ، وكذلك (الأمر) دون أن يقال (أمر نوح) ، للاختصار ، ولم يقل (سويت على الجودى) بمعنى

أقرت ، على نحو قليل وغيض ، وقضى فى البناء للمفعول ، اعتباراً لبناء الفعل للفاعل مع السفينة فى قوله (وهى تجرى بهم) مع قصد الاختصار ، ثم قيس (بَعْدَ الْقَوْمِ) ، دون أن يقال : (ليبعد القوم) ، طلباً للتوكيد مع الاختصار ، وهو نزول (بَعْدَ) منزلة (ليبعدوا بَعْدَ) ، مع إفادة أخرى ، وهى استعمال اللام مع "بَعْدَ" الدال على معنى أن البعد حق لهم . ثم أطلق الظلم ، ليتناول كل نوع ، حتى يدخل فيه ظلمهم لأنفسهم بتكذيب الرسل .

هذا من حيث النظر إلى الكلم ، وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل الجمل ، فذلك أنه قدّم النداء على الأمر ، فليل (يا أرض ، ابلعى) و (يا سماء اقلعى) دون أن يقال : (ابلعى يا أرض) و (اقلعى يا سماء) ، جرياً على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه ، ليتمكن الأمر الوارد عقيبهِ فى نفس المنادى ، قصداً بذلك لمعنى الترشيح . ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء ، لابتداء الطوفان منها ونزولها لذلك فى القصة منزلة الأمل . ثم اتبعهما قوله : (وغيض الماء) ، لاتماله بقصة الماء . ثم اتبعه ما هو مقصود من القصة ، وهو قوله : (وقضى الأمر) ، أى أنجز الوعد : من إهلاك الكفرة وإنجاء نوح ومن معه فى السفينة . ثم اتبعه حديث السفينة ، ثم ختمت القصة بما ختمت ..

هذا كله من جانب البلاغة ، وأما جانب الفصاحة المعنوية (أى خلوص المعنى من التعقيد) فهى نظم للمعاني لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة ، لاتعقيد يعثر الفكر فى طلب المراد ، ولا التواء يشبك الطريق إلى المرتداد ، بل ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها . وأما جانب الفصاحة اللفظية ، فألفاظها عربية مستعملة ، جارية على قوانين اللغة ، سليمة عن التنافر ، بعيدة عن البشاعة ، عذبة ، كل منها كالماء فى السلاسة ، وكالعسل

فى الحلاوة ، وكالنسيم فى الرقة " (١) .

ومما ينبغى أن يذكر أن تلك الجمل الثلاث قد تناولها بالدراسة كثير من النقاد ، فنجد عبد القاهر فى " دلائل الإعجاز " يتخذها أنموذجاً للبلاغة الساحرة ، مبرهنات بها على أن الإعجاز إنما جاء من النظم ، وارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها ، لا من حيث هى كلمة مفردة " (٢) .

ولقد عاد كل شئ إلى وضعه واستقر فى مقره بهذه الجمل الثلاث ، ولقد شاء القدر أن يستريح نوح والمؤمنون معه بعد كفاح استمر ألف سنة إلا خمسين عاماً مع قوم الكافرين والمعاندين فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ، لقد أمر كل من السماء والأرض ، وأمرهما من له الأمر دون داعٍ إلى التصريح باسمه ، فاستمر كل بما أمر ، ولقد أبعد الظالمون بأمره ..

وعن هذا المعنى ذاته عبّر الله سبحانه فى سورة القمر ، بقوله : " فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ . تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ . وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ؟ " (٣)

ويشير بعض الباحثين إلى تلك المعانى الرائعة التى تضمنتها هذه الآيات ، بما موجزه أن : " هذه معان فى أصلها إخبار عن وقائع جرت ، وأحداث حدثت على أن معانيها - إذا تركنا النظر فى أهلوها إحالة على ماسبق أمره - جديدة لا محالة ، فوصف إطلاق المياه من السماء بأنه فتح لأبواب السماء معنى جديد لم يطرُق ... ووصف ارتفاع المياه من بطون الأرض بقوله : " وفجّرنا الأرض عيوناً " معنى مبتكر لا يلحق .. ثم الكناية عن السفينة - بأنها ذات ألواح ودسر ، وعن

(١) السكاكى : مفتاح العلوم ، ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) انظر : عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ، ص ٣٦ .

(٣) سورة القمر : من الآية ١١ إلى الآية ١٥ .

نوح ، بأنه كان كفر ، ثم وصف التسجيل التاريخي بقوله سبحانه : " ولقد تركناها آية " كل ذلك تجديد وأى تجديد (١) .

" ثم ننتقل إلى التوازن بين الآيات - وإن لم يكن على صورة الشعر فى تعادل التفعيلات بين صدر البيت وعجزه - قد جعل النغم الموسيقى ممسكاً بها جميعاً فى لحن واحد متسق الإيقاع ، يجرى قوياً متدفقاً كتدفق السيل ، حتى يلق على " القرار " فيستقر عنده ، ويسكن إليه . . ولننظر أى قرار يحمّل هذا البحر المتدفق ويحويه فى صدره ؟ إنه حرف واحد هو حرف " الراء " (٢) . وهو أقوى حرف فى حروف اللغة العربية ، وأشدّها تماسكاً ، فإذا وقف عليه بالسكون انبعج فى رخامة ، ولين ، وصار أشبه بالوادي العميق الرحب ، بين يــــــدى جبل تنهمر عيونــه ، وتتدفق سيولــه " (٣) .

وهكذا لو أننا ذهبنا نقف عند كل كلمة من الكلمات لأسهبنا إذاً فى تصوير نواح من الأسرار البيانية يتحقق فى مجموعها معنى الإعجاز فيما وصل إليه البحث البلاغى ، والعلم البيانى ممّا علمناه . فكيف بما علمه غيرنا؟ فكيف بما لم يعلمه أحد إلا الله سبحانه ؟

٢ - الإعجاز فى المعانى والأفكار :

ننتقل إلى الإعجاز فى معانى القصص ، ومافيه من أفكار جديدة ، وأخيلة ، بديعة وصور رفيعة . . فالمعانى والأخيلة عند البلغاء تقمّد إلى فكرة سامية فى أى غرض من أغراض القول ، وتشتمل عند كثير منهم على ما اخترعه المتكلم من معنى غير مطروق ، مما يملأ النفوس روعة وإعجاباً بالفكر المبتكرة المخترعة ،

(١) السيد عبد الحافظ عيد ربه : بحوث فى قصص القرآن ، ص ١٦٧ ، أشبه بشطر البيت
(٢) لقد جاءت آيات الأقصوصة كلها على وزن يكاد يكون واحداً ، أشبه بالشعر ، وجاءت الفواصل كلها على صورة واحدة ، أشبه بالقافية فى الشعر ،
حرف الروى فيها هو الراء مسبوقة بحرفين متحركتين قبلها .
(٣) عبد الكريم الخطيب : الإعجاز فى دراسات السابقين ، ص ٤٠٤ .

ولذلك إمتاز عن معنى الأسلوب الذى هو طريقة النظم وما يشتمل عليه من إيجاز أو إطباب ، وذكر أو حذف ، وتقديم أو تأخير ، كما أنه يتميز عن الفرض العام الذى هو الفن من القول والضرب منه كالمدح والذم وما يتصل بذلك بالهدف والغاية .

فلنتحدث فى شيء من معانى القصص وما فيه من أفكار جديدة ، فإذا قوله سبحانه فى قصة نوح : " وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ " (١) إلى أن يقول : " وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ " (٢) .. ولعله لا جديد فى أصل المعنى ، وإنما هو إخبار عن نوح بأنه سأل ربه والمستول مصرح به فى سورة نوح : قال : " رَبِّ إِنَّهُمْ عَمَّوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ... " (٣) إلى أن قال : " وَقَالَ نُوحٌ : رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا " (٤) ، ولكن هذا المعنى العجيب : " وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ " هو موضع الجدة الرائعة ، فهذه فكرة مستجدة وإيماءة من القرآن مستمدة ، فإنها تضيف جديداً إلى المعانى التى لم يسبق إبراهيم أن يسأل ربه ، وهو أن الله سبحانه ترك على نوح فى سائر الأمم أن يسلموا عليه إلى الأبد الأبدىين ودهر الداهرين .. فلننظر كيف أن الله سبحانه قد سمى ذلك التقدير العالمى والثناء الإنسانى : " تَرَكْنَا عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ " وعن مثل هذا المعنى عبر الله سبحانه فى قصة إبراهيم عليه السلام وهو يسأله . فيقول : " وَاجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ " (٥) بمعنى الذكر الحسن والثناء الجميل ، ولكن التصوير مختلف فى المقامين ، مع أنه فى كل منهما رائع وجميل ، وتلك من معارف الأنبياء التى تهدى إليها

(١) سورة الصافات : ٧٥ - ٧٦ .

(٢) سورة الصافات : ٧٨ - ٧٩ .

(٣) سورة نوح : الآية ٢١ .

(٤) سورة نوح : الآية ٣٦ .

(٥) سورة الشعراء : آية ٨٤ .

الطيانة ، وتكشف عنها الزكاة ، ويمررها القرآن ذلك التصوير ليلهمنا إياه
كما ألهمه نبيّه ومصطفىاه (١).

ويتمل بذلك أن يقول سبحانه : " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي
بِرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " (٢).

مامعنى " جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " إنها نفيد معنى
كريماً .. وهو أن إبراهيم عليه السلام ركّز على معنى التوحيد ونفى الشرك ،
كما قال سبحانه فى تصوير آخر : " إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ . قَالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ . يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ
الدِّينَ . فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ " (٣).

"وكلّ هذه المعانى الكريمة متجاوبة فى محيط دعوة الأنبياء ومهمّة
المرسلين ، وعلى رأسهم إبراهيم الخليل الذى تتحاظه الأمم وتتزاحم عليه
جميع الأجناس ، حتى عبّاد الأوثان ولهذا يقول الله سبحانه : " لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " ،
دفعاً للمعارضين ، ودحضاً للمجرمين " (٤).

وهذا ونحوه من المعانى التى ميّزت القصص القرآنى بقوة خارقة فى معانيه
الخاصة الرفيعة ، وأفكاره العجيبة الغريبة ممّا ضاعف نواحي الإعجاز فى
أسلوبه ، فإن المعنى الشريف الذى تنتج به إلى النفوس قوّة الله القدير
إذا صبّ فى ذلك الأسلوب البديع العجيب أنزل العمم من أماكنها ، وطأطأ الروءوس
إلى أذقانها ..

(١) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث فى قصص القرآن ، ص ١٦٧ .

(٢) سورة الزخرف : من آية ٢٦ إلى آية ٢٨ .

(٣) سورة البقرة : من ١٣١ - ١٣٢ .

(٤) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث فى قصص القرآن ، ص ١٦٧ .

فإذا انتقلنا إلى قوله سبحانه في عذاب عاد: "إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا مَّرْمَرًا فِي يَوْمٍ نَخِيسُ مَسْتَمِرًّا" (١). فهو يصف إنزال العذاب بالإرسال ، ويصور تصريف الريح بالمجرمين وقلقلة المعاندين بأنه نزع للناس من أماكنهم وإلقاء لهم فلا حراك بهم كما ترى أعجاز النخل المنقعر وهي منطرفة ملقاة على الأرض . وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى قوله هنالك: "إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ . وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُخْتَصِرٌ . فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي" (٢) كل تلك أوصاف تلبيس كسئ من الألفاظ لايهتدى إليها إلا خالق القوى والقدر ."

" الحقيقة أن هذه النواحي لاترجع إلى الأساليب والألفاظ فهي تختلف عن ذلك ، فهذه معان يسميها الأدباء أخيلة وأفكاراً ، ويعتبرون الأسلوب شيئاً يرجع إلى اللفظ في مفرداته وترتيب تلك المفردات وماتوصف به من فصل أو وصل ، وذكر أو حذف ، وتقديم أو تأخير ، ولذلك فهي ناحية تختلف عن ناحية الإعجاز البياني الذي يوءديه الجرجاني والباقلاني والجاحظ وغيرهم من علماء البيان والبلاغة وركزوا فيه على الناحية الإجمالية التي جرت عليها العرب " (٣) .

٣ - الإعجاز الأسلوبى :

ان الذين راولوا فن التعبير والذين لهم بصر بالأداء الفنى يدركون أكثر من غيرهم مدى ما فى الأداء القصصى من إعجاز فى هذا الجانب ، ومن المقطوع به أن الأحاديث النبوية الشريفة والوحى القرآنى يمثلان أسلوبين لكل منهما طابعه وصياغته الخاصة ، فالعبارة القرآنية لها نسق ، وجـَـرْس

(١) سورة القمر ، آية ١٩ .

(٢) سورة القمر ، من آية ٢٧ إلى آية ٣٠ .

(٣) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث فى قصص القرآن ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

تعرفه الأذن ، ولها هيئة تركيبية ، وألفاظ خاصة ، فليس من الخطأ أو الغلو فى شيء أن يقال : أن الأسلوب القرآنى معجز ، لا يتسنى لأحد الإتيان بمثله (١).

ولقد كان حتماً على القرآن - إذا ما أراد أن يدخل فى اللغة العربية فكرته الدينية ، ومفاهيمه التوحيدية - أن يتجاوز الحدود التقليدية للأدب الجاهلى . والحق أنه قد أحدث انقلاباً هائلاً فى الأدب العربى بتغييره الأداة الفنية فى التعبير ، فهو من ناحية قد جعل الجملة المنظمة فى موضع البيت الموزون ، وجاء من ناحية أخرى بفكرة جديدة ، أدخل بها مفاهيم وموضوعات جديدة ، لكى يمل العقلية الجاهلية بتيار التوحيد . على أن هذه المفاهيم ليست مترجمة فى آيات القرآن فحسب ، بل إن القرآن قد ضمها وتمثلها ، ثم كيّفها حتى تناسب العقلية العربية .

" ولقد تعرضت الثروة اللفظية التى جاء بها القصص القرآنى لتكييف رائع ، كما حدث لذلك الاسم الخاص " فوطيفار Putiphare " وهو اسم الشخصية الكتابية التى أطلقت عليها رواية القرآن لقب " العزيز " فى قصة يوسف ، ولنا أن نتساءل عما إذا كانت هناك صلة فى المعنى بين الاسم العبرى واللقب القرآنى ، فالتفسير التوراوى يبدو أنه يقصد بكلمة " فوطيفار " اشتقاقاً مصرياً يبدأ من الأصل : Puti = Favori : " عزيز " ، والأصل Phare "مستشار أو ناصح " . ونقلاً عن بحث القسيس " فيجورو Vigroueux " فى الموضوع نعرف أن هذه الكلمة مصرية مركبة معناها " عزيز الإله شمس " .

وعلى أى من الرايين نرى أن التكييف الاشتقاقى القرآنى قد حذف اللفظ المكمل - الإضافى ، ليمثله فى صورة أكثر تطابقاً مع روح التوحيد الإسلامية ، فإذا به يكتفى بلفظة " العزيز " . ومما يذكر أن هذا التكييف الذى تجنب صعوبة الترجمة الصوتية للحروف الأولى ، قد حلَّ مشكلة لغوية لا يتسنى لجاهل بالدراسات المصرية أن يحلّها ، حتى ولو كان فى أتم حالات وعيه " (٢).

(١) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ص ١٦٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٨٥ - ١٨٦ .

٤ - الإيجاز المعجز :

إن القصص القرآني لشدة إيجازه وإحكامه ، تكاد كلماته تتحوّل رموزاً تنطوي كل كلمة منها على معانٍ كثيرة ، لذلك فإن الفهم الدقيق لإيجازات القرآن وإشاراته تستدعي يقظة متواصلة في قراءته ، وفكراً واعياً لتدبير مراميّه ، وحساً مرهفاً لتذوق معانيه ، فعندما نتأمل الآية التالية التي وردت في سياق قصة يوسف ، نجد أنها كانت مصدراً لإيجاد كثير من المعاني التي تحتلها : " وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا . إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ " (١) .

قال ابن قيم الجوزية : " هذا الكلام متضمن لوجوه من المكر :

أحدها : قولهن : " امرأة العزيز تراود فتاها " ولم يسموها باسمها ، بل ذكروها بالوصف الذي ينادى عليها بقبيح فعلها بكونها ذات بعل . فصدور الفاحشة ممن لها زوج أقبح من صدورها ممن لا زوج لها .
الثاني : أن زوجها عزيز مصر ، ورئيسها ، وكبيرها ، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها .

الثالث : أن الذي تراوده مملوك لا حرّ . وذلك أبغض في القبح .

الرابع : أنه فتاها الذي تراوده هو في بيتها . وتحت كنفها ، فحكمه حكم أهل البيت ، بخلاف من تطلب ذلك من الأجنبي البعيد .

الخامس : أنها هي المراودة الطالبة .

السادس : أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ ، حتى وصل حبّها لــــه

إلى شغاف قلبها .

السابع : أن في ضمن هذا : أنه أعفّ منها وأبرّ وأوفى ، حيث كانت هي

المراودة الطالبة ، وهو الممتنع ، عفاً وكرماً وحياءً وهذا غاية الذمّ لها .

الثامن : أنهنّ اتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على

الاستمرار ، والوقوع حالاً واستقبلاً ، وأنّ هذا شأنها ، ولم يقلن : راودت فتاها .

(١) سورة يوسف : الآية ٢٠ .

وفرق بين قولنا : فلان أكرم ضيفاً ، وفلان يكرم الضيف ويطعم الطعام ، ويحمل الكَلَّ ، فإن هذا يدل على أن هذا شأنه وعادته .

التاسع : قولهن : " إنا لنراها فى ضلال مبين " أى إِنَّا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقبح ، فنسب الاستقبح إليها ، ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضاً على الهوى ، ولا يكدن يرين ذلك قبيحاً ، كما يساعد الرجال بعضهم بعضاً على ذلك . فحيث استقبحن منها ذلك ، كان هذا دليلاً على أنه من أقبح الأمور ، وأنه ممَّا لا ينبغي ، أن تساعد عليه ، ولا يحسن معاونتها عليه .

العاشر : أنهن جمعن لها فى هذا الكلام واللّوم بين العشق المفرط ، والطلب المفرط ، فلم تقتصد فى حبّها ، ولا فى طلبها .

أمّا العشق فقولهن : " قد شغفها حبّاً " أى وصل حبه إلى شغاف قلبها . وأما الطلب المفرط فقولهن " تراود فتاها " . والمرادة : الطلب مرة بعد مرة ، فنسبوها إلى شدة العشق ، وشدة الحرص على الفاحشة ، فلمّا سمعت بهذا المكر هيات لهن مكرّاً ، أبلغ منه ، لأنها قابلت مكرهن القولى بهذا المكر الفعلى (١) .

ومثل هذا فى إيجازه المحكم ، وغزارة معانيه ما ينطبق على قصص موسى فى السور الخمسة التى جاءت فيها أكبر عناصر الحديث عنه ، وهى سور : الأعراف ويونس وطه والشعراء والقصص .

هـ - مفهوم التاريخ فى القصص القرآنى :

إننا حين ننظر إلى القرآن كمصدر تاريخى نجد أننا لانملك كتاباً آخر ولا أثراً تاريخياً آخر فى تاريخ البشرية كلّها توافرت له أسباب التحقيق

(١) محمد بن قيس الجوزية : التفسير القيم ، ص ٣١٤ - ٣١٥ ، مصر ، سنة ١٩٤٩ ، وانظر : د. التهامى نفرة : سيكولوجية القصة فى القرآن ، ص ٤٩٦ - ٤٩٨ .

العلمى البحتة كما توافرت لهذا الكتاب ، فالقرآن من الوجهة التاريخية أقوى إسناداً من كل مرجع تاريخى آخر فى الوجود ، فراوى هذا الكتاب هو محمد بن عبد الله ، وهو رجل يعترف خصومه قديماً وحديثاً ، بأنه رجل صادق ، ولا يشذ على هذا إلا شذاذ أفاكون متعصبون ، وقد جمع هذا الكتاب بطريقة علمية لا يظعن فيها أحد حتى المستشرقون ، ومثل هذا التحقيق العلمى لم يتهيا لكتاب آخر لا من الكتب المقدسة ولا من الكتب التاريخية ولا من الآثار التاريخية أيضاً ، فالكتب المقدسة الأخرى قد انقضت فترات طويلة بين حياة أصحابها وعصر تدوينها ولم ترو بالأسناد الذى روى به القرآن والكتب التاريخية والآثار التاريخية لا ترتفع فوق مستوى الشبهات وليسست هناك حادثة تاريخية واحدة فى تاريخ البشرية تعد يقينية يقيناً علمياً خالصاً (١).

والذين يفسرون التاريخ الإنسانى تفسيراً "اقتصادياً" أو "سياسياً" والذين يفسرونه تفسيراً "بيولوجياً" ، والذين يفسرونه تفسيراً "روحيّاً" أو "نفسياً" ، والذين يفسرونه تفسيراً "عقلياً" .. كل أولئك ينظرون نظرة ساذجة إلى جانب واحد من جوانب العوامل المتشابكة ، والعوالم المتباعدة ، التى يتعامل معها الإنسان ، ويتألف من تعامله معها تاريخه ، والتفسير الإسلامى للتاريخ هو وحده الذى يلمّ بهذا الخضم الواسع ، ويحيط به ، وينظر إلى التاريخ الإنسانى من خلاله (٢).

وبعد هذا " فإننا نستطيع أن نحتفظ للقصاص القرآنى بقسطه من الإعجاز من ناحية أنها معارف عجيبة ، وأخبار غريبة من أمى لا يكتب ، ولا يحسن أن يقرأ ، ولم يكن يعرف شيئاً من قصص المتقدمين وأقاصيصهم وأنبيائهم وسيرهم ، ثم أتى بجملة ما وقع منذ بدء الخليقة من أخبار آدم وبنيه ، ونوح ومكذبيه ، وهود وقومه ، وشمود وملثه ، وأعرق فى تاريخ بنى إسرائيل ، وقصص موسى

(١) د. السيد تلى الدين : من الوجهة الأدبية فى دراسة القرآن الكريم ، ص ١٧٦ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن ج ٣ ، ص ١٣٠٣ .

وفرعون ، وما فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . وشمود الذين جابوا
الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد ، وأصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ،
وعيسى وآياته ومريم أمه ، والحواريين من أنصار الله ، ومكر اليهود
وكذبهم " وَقُولِهِمْ : إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ . وَمَا
قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ " (١) ، وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا
مُصْرِحِينَ وَلَا يَسْتَنْشُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ " (٢) . وما تبع
ذلك مما فيه العبرة لكل ماكر خبيث ، ونبا صاحب الجنتين وأخيه وحوار
فيه يمثل معسكر الإيمان والكفر ، والخبيث والطيب ، وأصحاب الأخدود النار
ذات الوقود ، ثم تلك التفاصيل الدقيقة فى أمر سليمان ، والريح المسخرة
له ، والجن وما يعملون بين يديه ، وحديث النمل والهدد ، وملك سبأ
وقد تولته امرأة وهى وقومها يسجدون للشمس من دون الله وما انتهى إليه
أمرها مع سليمان إذ اسلمت لله رب العالمين " (٣) .

لقد كانت تلك المعجزات فى القصص القرآنى واقعا سجله التاريخ
وشهده الناس ، وإذا فإن ظهور هذه المعجزة بعد ذلك وإعادة عرضها على
مسرح الحياة من جديد بهذا الأسلوب المعجز ، إنما هو ظهور خارقة من
خوارق الحياة يعيش فيها الناس بكل وجودهم كلما طلعت عليهم فى أية
صورة ، وعلى أى حال فى هذا العرض الرائع المعجز الذى يعرضه
القرآن فيه .

(١) سورة النساء من آية ١٥٧ .

(٢) انظر القصة فى سورة القلم ، آيات (١٧ - ٢٣) .

(٣) السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث فى قصص القرآن ، ص ١٦٩ و ١٧٩ .

ج - العنصر البشرى فى التوراة

يكاد الباحثون أن يتفقوا على أن النص الأسمى للتوراة لا وجود له ،
و " أن التوراة الحالية اعتمدت فى بنائها على مصادر إنسانية استفادت من
نص قديم للتوراة ، فعدلت منه وغيّرت بالزيادة والنقصان " (١) .

وعلى الرغم من اختلاف الباحثين حول النص نفسه ، وأن هناك مصادر
عديدة يمكن إرجاع النص إليها ، وتبدو واضحة جلية فى أسفار كثيرة ، بل
يصل الأمر أحياناً إلى أنه يمكن إرجاع سفر بأكمله إلى أحد هذه المصادر ،
نقول أنه على الرغم من كل ذلك فإنه مما لا شك فيه " أن قسماً من النصوص التى
تتألف منها التوراة كان يؤلف أدباً دينياً قبل ذلك . إلا أن تجميع النصوص
فى كتاب واحد وصيغه بطابع التقديس لم يتم إلا فى عهد " نحemia " فى القرن
الخامس ، وعلى يد الكاتب عزرا " (٢) .

- (١) د. محمد خليفة حسن : علاقة الإسلام باليهودية ، ص ٨ .
(٢) د. إسماعيل راجى الفاروقى : أصول الصهيونية فى الدين اليهودى ، ص ٤ .
معهد الدراسات العربية العالمية . القاهرة سنة ١٩٦٤ .
و " عزرا ٨٦٢٢ " هو كاهن بن سرايا . كُتب بالكاتب . من يهود شباب
بابل . انتقل إلى القدس بإذن من ملك فارس لتنظيم الحياة الروحية
والاجتماعية لليهود بعد عودتهم من السبي البابلى (راجع الملوك الثانى
٨: ٢٢-١٠) . وباستثناء قليل من الباحثين الذين يزعمون أن (عزرا) ليس
إلا ثمرة خيال كاتب سفر الملوك ، يعتقد معظم الباحثين أنه شخصية
تاريخية ، إلا أنهم يختلفون فى زمن وتاريخ من الملوك الذين كانوا
يحملون اسم " ارتحتشتا " كان يعيش . والرأى القوى أنه كان فى زمن
" ارتحتشتا الأول " أى فى سنة ٤٥٨ ق . م تقريباً .
ويعتقد اليهود أن عزرا هو الذى جمع الأسفار ونظمها ، وأنه الذى حمل إلى
فلسطين الأحرف الآرامية المربعة الشكل ، المعروفة بالخط الآشورى ، التى
مهدت لنشوء الأبجدية العبرية الحالية ، وقد أوصى عزرا بتنقية السدم
اليهودى ، وإبعاد الزوجات الأجنبية .

أنظر : *לכסיקון מקראי* . ל"ת , למ' 694-

- George L. Robinson: Leaders of Israel pp. 210-212
Association Press. New York. 1920.

وعلى هذا يمكن أن نتفق مع بعض الباحثين الذين سبق وأن أعلنوا : " أن هذا الذى يسمى بالتوراة ليس كتاباً واحداً ذا مؤلف واحد ، بل هو مجموعة نصوص من عدة أقلام مدى العصور الكثيرة " (١) ، وهو " أشبه بالنهر الذى يجرى من رأس العين إلى المصب . بيد أنه يستقبل عدداً من الأنهار الفرعية أثناء الطريق ، فتمتزج مياهه بمياه هذه الأنهار ، فماء النهر عند المصب هو التوراة التى بين أيدينا الآن ، فيها القديم جداً ، أى مياه رأس العين ، أى ما لم يتبخر من مياه رأس العين ولم يرفع للسقاية ، ولم يفتح فى الطريق من مياه رأس العين ، وفيها المتوسط أى المياه التى دخلت النهر فى الطريق ، وفيها الحديث ، ففى كل صفحة من صفحاتها تلتقى عناصر متفاوتة فى القِدَم نسجت على القالب الذى نقرؤه فى النص الذى وصل إلينا ٥٠ . إلا أن المصادر نفسها وكذلك عمليات النسخ والتقميش متفاوتة الأعمار ، ولكن لحسن الحظ ، ليس الأمر كما فى النهر ، فالخيوط التوراتية احتفظت بمميزات اللغوية وغير اللغوية الخاصة ، فإن امتزجت مع بعضها البعض فأغلبيتها لم تُصهر حتى تضيع هويتها - وذلك سهّل على الباحثين أمر اكتشافها وعزلها عن بعضها " (٢)

وفى هذا المجال يقدم لنا القرآن الكريم المقياس الحقيقى لتحديد ما هو من الوحي فى التوراة الحالية ، فعن طريق المقارنة اللفظية والمعنوية لنص التوراة الحالية بما ورد فى القرآن الكريم عن تاريخ اليهودية وتاريخ بنى إسرائيل نستطيع الوصول إلى تحديد بعض الفقرات والعبارات التى يمكن أن تكون مؤشراً إلى لغة ومعانى ما هو وحي فى التوراة ، ومقاييسنا فى هذا التحديد هو أن ما يوافق تعاليم القرآن الكريم من التوراة الحالية فهو من الوحي ، أو قريب من ذلك ، مع الوضع فى الاعتبار أن الاتفاق بين النصين يكون فى المعنى لا فى اللفظ فكلنا نعلم أن القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب والأمر غير ذلك فى التوراة ٥٥

(١) מבוא בללי למקרא , עמ' 84-85 .

(٢) د . إسماعيل راجى الفاروقى : أصول المهيونية فى الدين اليهودى . ص ٨١ .
وأنظر أيضاً المعنى نفسه فى : תולדות האמונה וישראלית ,
פרק ראשון , עמ' 13 .

وتعدّ مصادر التوراة كما نعلم يدفعنا باستمرار إلى أن نتساءل : هل نجح محرروها وكاتبو مادتها في إظهار التوراة كوَحدة لا تعرف التجزئة ، أم فشلوا في ذلك ؟ .. الأرجح أن مصادر التوراة جميعها اعتمدت على مصدر أولى قد يكون هو النص الأصلي للتوراة ، وهو في الغالب مصدر قديم قريب العهد بنص التوراة الأصلي الموحى به ، واعتماد هذه المصادر على هذا المصدر القديم لم يكن اعتماداً سلبياً على طول الخط ، فقد تم إخضاع هذا المصدر القديم للعديد من التعديلات والتغييرات التي تعبر عن وجهة نظر المصدر الجديد . وفيما يختص بعملية تركيب مادة هذه المصادر ، وتوحيدها في عمل واحد ، فقد تمت هذه العملية التركيبية على مراحل متوالية تفصل بينها فترات زمنية مختلفة الطول والقصر ، ولكنها تمل جميعها إلى ما يقرب من الألف عام (١) ، ما بين تاريخ أقدم المصادر وأحدثها قبل تثبيت نص التوراة على الوضع الذي نعرفه اليوم (٢) .. " ولذا يمكن القول أن صاحب كل مصدر من مصادر التوراة هو مؤلف ومحرر في نفس الوقت ، فهو مؤلف لأنه صاحب مادة جديدة كتبها بنفسه ، أو وجدها ، وأراد إضافتها إلى نص التوراة الموجود أمامه .. وهو محرر لأنه جمع هذه المادة الجديدة إلى مواد المصادر الأخرى في شكل يجعل من العمل وَحدة واحدة .. وفي سبيل ذلك أجرى كثيراً من التعديلات

- (١) د. محمد خليفة حسن : علاقة الإسلام باليهودية . ص ٢٣ . وأنظر أيضاً :
לבוש קוראן מקראי, ל"ת. ב. מדל המקרא, למ' 466-468.
- (٢) اتفق الباحثون على أن المصادر الأساسية للتوراة هي أربعة مصادر ، وترتيبها وفقاً لزمان تأليفها هو : اليهوى - الإلهيمي - التثنوي - الكهنوتي . والنظرية التي تبحث في مصادر التوراة وزمن تأليفها ترتبط بصورة خاصة باسم *ויליאם סול הכהן* (١٨٤٤ - ١٩١٨) الذي تبني رأى الباحث جراف *גרף* وقام بتطويره إلى أسلوب شامل في عدة مؤلفات كبيرة تعتبر الكتب الأساسية في علوم التوراة حتى اليوم . وتستند نظرية المصادر على نقطتين أساسيتين الأولى : تمييز المصادر المختلفة كما هي وتقسيم النص وفقاً للمصادر . الثانية : تحديد زمن تأليف أو إعداد المصادر ومن قام تأليفها .
أنظر : *מבוא פללי למקרא, למ' 83, 88.*

بالحذف والإضافة والتصحيح والتبديل ، إلى غير ذلك من الوسائل التي تمكّنه من صيغ نص التوراة الصبغة المعبرة عن نظرتة الدينية والتاريخية . وهذه الأمور أدت إلى فقدان النص وَحْدَتَهُ العفوية " (١) ولكن رغم أن معظم اليهود ينظرون إلى توراتهم نظرة دينية بحتة - مما أدى إلى طغيان الشعور الدينى على التحليل العقلى لديهم إلا أن هناك من المفسرين اليهود مَن أدرك مشاكل النقد الأدبى من اختلافات نصّية وتناقضات فى المعنى ، ومن هؤلاء " رابى إبراهيم بن عزرا " (٢) وقد أشار فى تفسيره إلى عدد من المشاكل النقدية الهامة ، منها صحة نسبة الأسفار الخمسة إلى موسى عليه السلام ، وفى رأيه أن هذه الأسفار كبيرة فى حجمها ولا يعقل أن تكون جميعاً قد كتبت على الاثنى عشر لوحاً التى يذكرها سفر التثنية (٣) ، ويتعرض ابن عزرا أيضاً بالنقد لعبارة " جيل الرب **הָרַב יְהוָה** " الواردة فى سفر التكوين (٤)

والتي فسرها الكثيرون فى أيامه على أنها إشارة إلى هيكل سليمان . ويعترض ابن عزرا على هذا الرأى بأن هيكل سليمان لم يبن قبل عصر سليمان ، ومن المستحيل أن يشير إليه سفر التكوين - وقد أشار ابن عزرا أيضاً إلى استحالة أن يكون النبی موسى قد كتب العبارات المتعلقة بموته فى سفر التثنية والتي حكمتها التوراة على النحو التالى : **"וַיִּמָּת שֵׁם מֹשֶׁה לְאַבְדָּ"** **יְהוָה בְּאַרְץ מִזְרָאֵל לַעֲלֹף יְהוָה : וַיִּקְבֹּר אֹתוֹ בְּגִ' בְּאַרְץ מִזְרָאֵל בֵּית פְּעֹזֹר וְלֹא יָדַע אִישׁ אֶת-קְבֻרָתוֹ לַעֲדָ"**

(١) د. محمد خليفة حسن : علاقة الإسلام باليهودية . ص ٣٤ .
(٢) **ר' אברהם אבן לאזרא** (١٠٩٢-١١٦٧) شاعر وفيلسوف يهودى ، ويعتد أعظم النحويين فى عصره . وكان على معرفة تامة باللغة العبرية ، بالإضافة إلى تميزه بالتحرر من الآراء والأفكار القديمة . ويعتبر تفسيره أحد التفسيرات المهمة للتوراة حيث يمتزج فيه الأسس اللغوية بالرؤية الفلسفية .
أنظر : **מבוא כללי למקרא** , **למ' 72** .

(٣) راجع سفر التثنية ٢٧: ٢-٧ وسفر يوشع ٨ : ٣٥ .

(٤) راجع سفر التكوين ٢٢ : ١٤ .

היום הזה : ומשה בן-מאה ועשרים שנה במותו לא
כהתה עינו ולא-נס לחה : ויבכו בני ישראל את-משה
בערבית מואב שלשים יום ויתמו ימי בכי אבל משה^(١) .

- فتوفى موسى عبد الله بذلك الموضع فى أرض مؤاب مقابل بيت فغور ولم
يعرف آدمى موضع قبره إلى اليوم ، وكان موسى يوم توفى ابن مائة وعشرين
سنة لم ينقص بصره ولا تحركت أسنانه ، فنعاه بنو إسرائيل فى أوطنة مؤاب
ثلاثين يوماً وأكملوا نعيه " .

ويعلق ابن حزم فى (الفِصَل) على تلك الفقرات بقوله : " هذا آخر
توراتهم وتمامها ، وهذا الفصل شاهد عدل ، وبرهان تام ، ودليل قاطع ، وحجة
صادقة فى أن توراتهم مبدلة ، وأنها تاريخ مؤلف ، كتبه لهم من تحرض بجهله ،
أو تعمّد بفكره ، وأنها غير منزلة من عند الله تعالى ، إذ لا يمكن أن يكون
هذا الفصل منزلاً على موسى فى حياته .. فهذا محض الكذب . وقوله لم يعرف
قبره آدمى إلى اليوم بيان كاف على أنه تاريخ ألف بعد دهر طويل ولا بد " (٢) .

ومع تأكيد القرآن الكريم على تدخل اليد الإنسانية فى نص التوراة
الاصلية الموحى بها من عند الله سبحانه وتعالى ، فقد عكف علماء نقد
التوراة المسلمون - قديماً وحديثاً - على دراسة نص التوراة الحالى من أجل
الوصول الى تحديد المصدر الانسانى ، وقد اتخذ هؤلاء العلماء من القرآن
الكريم دليلهم النقدى الأول ، والمقياس الذى يمكن عن طريقه معرفة ما هو
من الوحى ، وما هو من غير الوحى فى نص التوراة ، وفى هذا الشأن يقول
" ابن قيم الجوزية " : " وقد اختلفت أقوال الناس فى التوراة - التى
بأيديهم - هل هى مبدلة ؟ أم التهديل والتحريف وقع فى التأويل دون التنزيل؟
على ثلاثة أقوال : طرفين ووسط . فأفرطت طائفة وزعمت بأنها كلها أو أكثرها

(١) דברים ה, ח .

(٢) الإمام ابن حزم الظاهرى الأندلسى : الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل .
ج ١ . ص ١٤٦ - ١٤٧ . مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده . القاهرة .
١٢٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

مبدلة مغيرة . ليست التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام ، وتعرض هؤلاء لتناقضها وتكذيب بعضها لبعض ، وغلا بعضهم ، فجسور الاستجمار بها من البول . وقابلهم طائفة أخرى من أئمة الحديث والفقه والكلام . فقالوا : بل التبديل وقع في التأويل ، لا في التنزيل . وهذا مذهب عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (١) .

ويستعرض الاستاذ أحمد أمين آراء علماء المسلمين في هذا الشأن فيقول : " وقد اختلفت أنظر المسلمين إلى التوراة على أقوال ثلاثة : فقال قوم : إنها كلها أو أكثرها مبدلة مغيرة ، ليست هي التوراة التي أنزلها الله على موسى ، وتعرض هؤلاء لتناقضها وتكذيب بعضها لبعض (ابن حزم في الفصل) وذهبت طائفة أخرى من أئمة الحديث والفقه والكلام إلى أن التبديل وقع في التأويل لا في التنزيل ، وهذا مذهب البخاري . قال في صحيحه : " يحرفون الكلم عن مواضعه " ، يزيلون ، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله تعالى . ولكنهم يتأولونه على غير تأويله ، وهذا ما اختاره الرازي في تفسيره . وذهبت طائفة ثالثة : إلى أنه قد زيد فيها ، وغيّر ألفاظ يسيرة . ولكن أكثرها باق على ما أنزل عليه ، والتبديل في يسير منها جداً . وممن اختار هذا القول : " ابن تيمية " في كتابه : " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح " ، ومثّل لذلك بما جاء فيها : ان الله سبحانه وتعالى قال لإبراهيم عليه السلام : " اذبح ولدك بكرك - أو واحدك - إسحاق " . فإسحاق زيادة منهم في لفظ التوراة - لدلة ذكرها " (٢) .

ومما لاشك فيه أن القرآن الكريم قدّم للناقد المسلم أشكالا متعددة لامكانية تطبيق النقد النمى المصدري على التوراة ، وأعطى وسائل كثيرة تبين كيفية إحداث التغيير في نص التوراة ، نذكر منها :

- (١) ابن قيم الجوزية : إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان . ج ٢ . ص ٣٥١ .
- (٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام . ج ١ . ص ٣٢٧ - ٣٢٨ . مطبعة الاعتماد بمصر . سنة ١٩٣٤ .

لبس الحق بالباطل :

قال تعالى : " وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ . وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ " (١)
لقد صرحت التوراة بأن " إسماعيل " أكبر من " إسحاق " عليهما السلام بأربع
عشرة سنة ، أى أن إسماعيل هو الابن المولود أولاً (٢) ، وقد امتحن الله
" إبراهيم " - عليه السلام - فأمره بذبح ابنه الوحيد فقال له : " خذ
ابنك وحيدك الذى تحبه (إسحاق) واذهب إلى أرض المريا ، وأصعده هناك
محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك " (٣) .

ومن الملاحظ فى هذه الفقرة أن ما ورد بها عن تحديد الذبيح بأنه
(إسحاق) عمل مصنوع لم تتقن صنعته ، لأن وضع الاسم (إسحاق) مع كلمة
(وحيدك) تناقض ظاهر لأن " إسحاق " لم يكن وحيداً لإبراهيم فى يوم من
الأيام كما نصت التوراة ..

ودليل آخر نسوقه على كون الذبيح " إسماعيل لا " إسحاق " ، ذلك هو
أن كاتبى التوراة دأبوا على محاولة إسناد الفضائل إلى أجدادهم ، فإذا
كان فى قصة الذبح طاعة وامتثال فإنهم ينسبونها لإسحاق (٤) .

أما القرآن الكريم فقد جاء فيه قصة ذبح إبراهيم لولده وهّمه بذلك
إلى أن نودى بالكف عن ذبحه ، وأنه فدى بكبشٍ يذبح عوضاً عنه ، والآيات الخاصة
بهذه الحادثة لم تذكر اسم ذلك الولد ، ولكن سياق الكلام وذكر تبشير
إبراهيم بإسحاق بعدها لا يكاد يَبْقَى شكاً فى أن الذبيح إسماعيل ، فقد قال
الله تعالى : " وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ .

(١) سورة البقرة : آية ٤٢ .

(٢) راجع التكوين ١٦ : ١٦ ؛ ٢١ : ٥ .

(٣) راجع التكوين ٢٢ : ١ - ٢ .

(٤) د. أحمد شلبي : اليهودية . مقارنة الأديان . ص ١٤١ . مكتبة النهضة
المصرية . الطبعة الخامسة . القاهرة سنة ١٩٧٨ .

فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَسُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ أَرَى فِي الْمَنَامِ
أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى . قَالَ يَكَابَتَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ
مِنَ الْمَسِيرِينَ . فَلَمَّا أَتَمَّ أَسْلَمًا وَتَلَّهِ لِلْحَبِيبِ وَتَدِينَهُ أَنْ يَكَابِرَ إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَّقْتَ
الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ
بِذَبْحٍ عَظِيمٍ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ
وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ . وَمِن دُرَرِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ " (١) .

ولاشك أن الضمير في " عليه " راجع إلى الذبيح . فالإتيان بالبشرى
بإسحاق بعد ذكر القصة صريح في أن إسحاق غير الغلام الذي ابتلى الله
إبراهيم بذبحه ، وعود الضمير إلى الغلام الذبيح وذكر اسم إسحاق معه صريحاً ،
يقتضى التغاير بين الذبيح وإسحاق (٢) .

كذلك يؤكد نسق الآيات القرآنية التي وردت مبشرة بمولد إسحاق ، على
أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق ، فقد ارتبطت بشارة المولد بأن الوليد
سيكون نبياً وبأنه سيكبر ويتزوج ويولد له ولد يسمى يعقوب ، قال تعالى :

- " وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ " (٣) .
- " فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ " (٤) .

ومن التناقض أن يكلف الله إبراهيم بذبح غلام وعد الله أنه سيكون
نبياً وأنه سيتزوج ويعقب (٥) .

-
- (١) سورة الصافات ٩٩ - ١١٣ .
(٢) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء . ص ١٠١ - ١٠٢ . مطبعة مصر . الطبعة
الثالثة سنة ١٩٥٣ .
(٣) سورة الصافات : ١١٢ .
(٤) سورة هود : من آية ٧١ .
(٥) د . أحمد شلبي : مقارنة الأديان . اليهودية . ص ١٤١ .

إذاً قول كاتب التوراة : " خذ ابنك وحيدك الذى تحبه " هذا حق . وهو أصل الكلام . والمناسب أن يقول " إسماعيل " . فقلوه : " إسحاق " لبس للحق بالباطل ، لأن الوعد بتكثير نسل إبراهيم فى هذا النص منصرف إلى نسل الذبيح . فجعلوه " إسحاق " لقصر الشريعة عليهم وحدهم . والدليل على أن المكان الذى ذهب إليه إبراهيم حسبما أمره الله تعالى ، هو مكة لأن التوراة نفسها تقول : " وفى اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد ، فقال إبراهيم لغلاميه : اجلسا أنتما ههنا مع الحمار ، وأما أنا والغلام فنذهب الى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما " (١) . فإبصاره الموضع من بعيد فى اليوم الثالث يدل على سفر طويل ، وذهابه إلى هناك للسجود دليل على أن مكاناً كان معداً للسجود من قبل ، وأن الغلامين يعرفانه . ثم أن الكاتب بعد ذكر هذا النص ، يذكر أن ملك الله قال لإبراهيم : " فلم تمسك ابنك وحيدك عنى " - " ولم تمسك ابنك وحيدك عنى " (٢) أى كرر " ابنك وحيدك " مرتين ولم يذكر " إسحاق " ، حيث أنه قد تعمد اللبس فى النص الأول . وعاد يجرى الحديث كالأصل (٣) .

ويذكر القرآن الكريم أن إبراهيم - عليه السلام - طلب من الله علامة ليطمئن بها قلبه على كيفية إحياء الموتى ليستيقن بيوم القيامة ، إلا أن التوراة قد غيرت هذا المعنى تماماً ، وبيّنت أن الطلب كان ليستيقن كيف يرث نسله أرض كنعان ، ولأن التحريف هنا يحدث دون رهبة من الله لغرض لبس الحق بالباطل ، فقد نقل كاتبوا التوراة خطأ أنهم كانوا طيرين ، لا أربعة من الطير : " فقال أيها السيد الرب : بماذا أعلم أى أرضها ؟ فقال له : خذ عجلة ثلاثية ، وعنزة ثلاثية . . وكبشاً ثلاثياً ويمامة وحمامة . فأخذ هذه كلها ، وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه . وأما الطير فلم يشقه .

(١) راجع التكوين ٢٢ : ٤ - ٥ .

(٢) راجع التكوين ٢٢ : ١٢ ، ١٦ .

(٣) د . أحمد حجازى السقا : نقد التوراة . أسفار موسى الخمسة . ص ١٤٩-١٥٠ . مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة سنة ١٩٧٦ .

فنزلت الجوارح على الجثث وكان إبراهيم يزجرها .. ثم لما غابت الشمس فصارت العتمة ، وإذا تتّور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع - فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً قائلاً : لنسلك أمتى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات " (١) . والمناسب لذبح الحيوانات والطيور فى النص وإحيائها ، هو اطمئنان قلب إبراهيم على إحياء الموتى ، لا لآثار الأرض ، وقد عمد كاتبوا التوراة هذا اللبس ليبينوا لقومهم : أن النعيم المقيم هو فى الدنيا ، وسيطرتهم على هذه المناطق هو قمة ذلك النعيم ، وتعمدّهم واضح لأنهم يريدون التصريح بالبعث بعد الموت (٢) .

وقد يتناول التحريف قصة ما لتبريز وضع اجتماعى أو سياسى ظالم سار عليه بنو إسرائيل فى مرحلة ما من مراحل تاريخهم ، ومن ذلك قصة نوح مع ابنه بعد الطوفان ، إذ تحكى التوراة أن نوح شرب خمرأ فسكر وتعرى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان (٣) عورة أبيه نوح ، وأخبر أخويه بذلك ، فأخذ سام وياث الرداء ، ووضعاه على اكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء .. فلم يبصرا عورة أبيهما ، فلمسا استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير . فقال ملعون . عبد العبيد يكون لإخوته .. (٤)

وقد حدّثنا القرآن الكريم عن هذه القصة وجاءت على النحو التالى :

"وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ"

- (١) راجع التكوين : ١٥ : ٨ - ١٨ .
- (٢) د. أحمد حجازى السقا : نقد التوراة . ص ١٥٥ .
- (٣) العجيب أن المذنب بالنظر إلى عورة أبيه هو "حام" ، لا كنعان ابن حام . وأخذ الابن بذنب الأب هو خلاف العدل كما تدل عليه فقرة التثنية ١٦:٢٤ ، ولو فرضنا أن حمل إثم الأب على الابن ليس خلاف العدل . فإن عرض الكاتب من التحريف يتضح فى تخصيص كنعان باللعنة ، لا أحد من أبناء حام الآخرين وهم كوش ومصرابيم وفوط .
- راجع التكوين الإصحاح العاشر .
- (٤) راجع التكوين : الإصحاحات ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ .

قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَفْعِمْنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ " (١)

والاختلاف بين ما فى التوراة وما فى القرآن ، إمّا أن يكون سببه أنهم نسوا حظاً مما ذكروا به وإمّا أن الكاتب له غرض فيما كتبه . ويبدو أن الكاتب له أكثر من غرض ، فمن أغراضه :

١ - أن نوحاً كان باراً قبل الطوفان ، وكان باراً بعده . بدليل أنه بنى المذبح - والمذبح بيت العبادة - فلماذا تحوّل إلى رجل سكير شارب خمر ، يفقد عقله وينسى ربه ؟ يبدو أن الكاتب يريد أن يقول لقومه : لقد كنتم أبراراً من قبل أن تحرف التوراة . . . والآن فى مقدوركم أن تتحولوا إلى حياة اللذة والشهوة - اقتداءً بنوح البار فقد شرب الخمر وسكر وتعرّى (٢) .

٢ - تبرير الأوضاع الشاذة الظالمة التى كان يسير عليها بنو إسرائيل حيال الكنعانيين إذ يقتلون رجالهم ويسبون نساءهم وأطفالهم ويتخذون منهم عبيداً وإماء ، زاعمين أنهم بذلك يحققون دعوة " نوح " عليهم ويرجعونها - إلى الوضع الذى كتب عليهم فى الأزل أن يكونوا عليه (٣) .

وإلى جانب التحريف والتبديل ، هناك وسائل أخرى ذكرها القرآن الكريم لا تقل خطورة فى تأشيرها عن التحريف والتبديل ، فأصحاب هذه الوسائل آثروا عدم التلاعب بالنص ، أو الاقتراب منه بالتغيير فيه ، ولكنهم اكتشفوا وسائل أخرى تحقق الغرض المنشود دون إلحاق أى تغيير فى النص الأسمى (٤) . ومن هذه الوسائل يذكر القرآن الكريم ما يلى :

-
- (١) سورة هود : ٤٢ - ٤٣ .
 - (٢) د . أحمد حجازى السقا : نقد التوراة . ص ١٧٧ .
 - (٣) د . على عبد الواحد وافي : الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام . ص ٥٥ - ٦٦ . دار نهضة مصر . القاهرة . بدون تاريخ .
 - (٤) د . محمد خليفة حسن : علاقة الإسلام باليهودية . ص ٤٣ .

١ - الإخفاء

كما يبدو من قوله تعالى : " تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا " (١)
وكذلك قوله تعالى : " يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا
مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ " (٢)

٢ - الكتمان :

كما يتضح في قوله تعالى : " الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ
ابْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ " (٣) .
وكذلك قوله تعالى : " وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ
لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّضُ
مَا يَشْتَرُونَ " (٤) .

٣ - الكذب والتكذيب :

كما يتضح في قوله تعالى : " قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .
فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " (٥) .

٤ - لوى الألسنة بالكذب :

في قوله تعالى : " وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ
الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ " (٦) .

٥ - التعطيل :

المقصود تعطيل أحكام التوراة وعدم إقامتها كما يتضح في قوله تعالى :

-
- (١) سورة الأنعام من ٩١ .
 - (٢) سورة المائدة من ١٥ .
 - (٣) سورة البقرة : ١٤٦ .
 - (٤) سورة آل عمران : ١٨٧ .
 - (٥) سورة آل عمران من ٩٣ - ٩٤ .
 - (٦) سورة آل عمران : ٧٨ .

" وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ . مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ " (١) .

٦ - الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض :

كما يتضح في قوله تعالى : " أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ " (٢) .

٧ - الإهمال :

كما يتضح في قوله تعالى : " وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " (٣) .

٨ - الظن :

كما يتضح في قوله تعالى : " وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِينَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا . فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ " (٤) .

٩ - النسيان :

ويتضح في قوله تعالى : " فِيمَا نَقُصُّهُمْ مَيِّشُهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ... " (٥) .

وتوضح هذه الوسائل مجتمعة الطرق التي تحولت بها التوراة من نص إلهي إلى نص إنساني خطه رجال الدين اليهود بأيديهم .. ويجب أن نذكر هنا أن هذه الإشارات النقدية القرآنية تقر بتعدد مصادر التوراة ، وأنها في شكلها الحالي لم تعد تمثل الوحي بسبب تدخل اليد البشرية في بنائها (٦) .

- (١) سورة المائدة : ٦٦ ، وكذلك أيضاً سورة الجمعة : ٥ ، والمائدة : ٦٨ .
- (٢) سورة البقرة ص ٨٥ .
- (٣) سورة البقرة : ١٠١ ، وانظر أيضاً سورة آل عمران : ١٨٧ .
- (٤) سورة البقرة : ٧٨ .
- (٥) سورة المائدة : من الآية ١٣ .
- (٦) د . محمد خليفة حسن : علاقة الاسلام باليهودية . ص ٤٥-٤٦ .

وإلى جانب ما أشار إليه القرآن الكريم من اختلاط النص الأصلي الإلهي الموحى به بالعنصر الإنساني إلا أن الاكتشافات الأثرية الحديثة في منطقة الشرق الأدنى القديم قد أسهمت أيضاً في تحديد هذا المصدر البشري في التوراة وهو التأثيرات الأجنبية .. وفي هذا الصدد يقول " كريمر " : " من بين أهم النتائج التي حققها ذلك النشاط في البحوث الأثرية في " بلاد التوراة " أن ضوءاً قوياً كاشفاً قد سلط على أصل التوراة نفسها ومنشئها . فقد أصبح فـى وسعنا الآن أن ندرك أن هذه المجموعة العظيمة من المآثر الأدبية أي التوراة لم تظهر إلى الوجود وهي كاملة النمو كالازهار الاصطناعية النامية في الفراغ وإنما تمتد جذورها امتداداً عميقاً في الماضي البعيد ، وتنتشر انتشاراً واسع المدى في البلدان المجاورة . فإن أسفار التوراة في صيغتها ومضمونها كليهما ليست بالقليلة الشبه بالآداب التي خلقتها وأوجدتها الحضارات القديمة في الشرق الأدنى ... فمما لا شك فيه أن هناك أوجه شبه بين قصة آدم وحواء في التوراة والأسطورة السومرية (أنكى ونخرساج) رغم أن السومريين ما كان بإمكانهم أن يؤثروا في العبرانيين رأساً وبدون واسطة لأنهم (أي السومريين) كانوا قد زالوا من الوجود قبل أن يظهر العبرانيون في الوجود . ولكن لا يوجد أدنى شك أيضاً أن السومريين قد أثروا تأثيراً عميقاً في الكنعانيين الذين سبقوا العبرانيين في استيطان البلاد التي عُرفت باسمهم .. ولعل أهم نتيجة توصل إليها البحث المقارن ذلك التفسير الذي تقدمه القصيدة السومرية (دلمون) لتلك الفكرة التورائية التي تعمد من أشد الأمور المحيرة في قصة آدم وحواء في التوراة ، وهي العبارة المشهورة التي تصف خلق حواء (أم جميع البشر) ، من (ضلع آدم) . فلماذا خلقت من الضلع ؟ وما الذي دفع القصاص العبراني أن يختار الضلع دون سائر أعضاء الجسم الأخرى لتُخلَق منه المرأة التي يعنى اسمها (حواء) بحسب تفسير التوراة له " تلك التي تحيي ، أي تسبب الحياة " . إن سبب ذلك أن القصة التورائية قد استندت إلى القصيدة السومرية (دلمون) ، ففي هذه القصيدة

كان أحد أعضاء إلهه (أنكى) الذى أصابه المرض هو (الضلع) والكلمة السومرية للضلع هى (تى) . ودعيت الإلهة التى خلقت من أجل أن تشفى (ضلع) انكى باسم (نن - تى) ، أى (سيدة الضلع) . ولكن الكلمة السومرية (تى) تعنى أيضاً (أحياء) أو (جعله يحيا) . وعلى هذا يعنى اسم الإلهة (نن - تى) : السيدة التى تحيى ، أو (سيدة الضلع) . وهكذا صار (سيدة الضلع) ، فى الأدب السومرى تعنى أو تطابق بطريق التوريث (السيدة التى تحيى) . فكانت هذه التوريث التى تعد أقدم تورية أدبية من نوعها قد نقلت إلى القمة التوراثية ، على الرغم من أن هذه التوريث تفقد صلاحيتها فى استعمال التوراة ، لأن الكلمة العبرانية للضلع والكلمة التى تعنى " من يحيى " لا تتشابهان ، أى غير مشتركين فى اللفظ " (١) .

بالإضافة إلى ما سبق ذكره فإن هناك كثيراً من المتناقضات والمفارقات ، والغفلة عن حقائق سبق إيرادها ، والخطأ فى جمع الأرقام وفى الحساب . . ما يجلب عن الحصر وما يضيف إلى الوسائل السابقة أدلة جديدة قاطعة بشأن أسفار التوراة هذه من صنع أيديهم ، ولم يكتبها موسى ، ولا حتى تمت كتابتها فى عصره ، وسنقتصر فيما يلى على إيراد بضعة أمثلة تنطوى على نمـالـج مختلفات فى أقاصيص أسفار التوراة :

١ - قصّ سفر التكوين فى الفقرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة من الإصحاح التاسع عشر أن المَلَكَيْن اللذين أرسلتا لتدمير قريتى " سدوم وعمورة " قالا للوط أخرج بنيك وبناتك (المتزوجات وغير المتزوجات ، وكان منهم اثنتان غير متزوجتين) وأصهارك (أزواج بناته) وكلّ من لك فى المدينة لأننا سندمرها . . . ثم قصّت فى الفقرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة من الإصحاح نفسه أنه لما طلع الفجر كان الملكان يستعجلان لوطاً قائلين له : قم خذ امرأتك وبناتك (غير المتزوجتين) وأخرجوهن . . . ويتبين من ذلك أن

(١) صمويل كريمير : من ألواح سومر . ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ : ترجمـة طه باقر . مكتبة الخانجى بالقاهرة . بدون تاريخ .

الْمَلَكِينَ قَدْ تَنَاقَضَا فِي أَمْرِهِمَا الْمَكْلُفِينَ بِهِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى . فَقَدْ طَلَبَا
أَوَّلًا إِلَى لُوطَ أَنْ يَخْرِجَ بَنِيهِ وَأَصْهَارَهُ وَجَمِيعَ بَنَاتِهِ الْمُتَزَوِّجَاتِ مِنْهُنَّ وَغَيْرِ
الْمُتَزَوِّجَاتِ وَجَمِيعِ أَهْلِهِ ، وَلَكِنَّهُمَا فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ لَمْ يَطْلُبَا إِلَيْهِ أَنْ يَخْرِجَ
إِلَّا أَمْرَاتِهِ وَبَنَاتِهِ غَيْرَ الْمُتَزَوِّجَتَيْنِ . وَيُظْهَرُ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّ بَنِيهِ ، وَبَنَاتِهِ
الْمُتَزَوِّجَاتِ وَأَزْوَاجَهُنَّ قَدْ هَلِكُوا مَعَ مَنْ هَلَكَ فِي الْمَدِينَةِ . وَهَذَا يَتَنَاقَضُ مَعَ
مَا ذَكَرَهُ الْمَلَكَانِ مِنْ قَبْلِ مَنْ أَنَّهُمَا مَكْلَفَانِ الْإِبْقَاءَ عَلَى هَؤُلَاءِ (١) .

٢ - يَذْكُرُ سَفَرُ التَّكْوِينِ فِي إِصْحَاحِهِ الثَّانِي عَشَرَ ، فَفَقْرَتِهِ السَّادِسَةُ :
" وَالْكَنْعَانِيُّونَ عِنْدَئِذٍ فِي الْأَرْضِ " . وَفِي إِصْحَاحِهِ الثَّالِثِ عَشَرَ . فَفَقْرَتِهِ السَّابِعَةِ :
" وَالْكَنْعَانِيُّونَ وَالْفِرْزِيُّونَ حِينَئِذٍ سَاكِنِينَ فِي الْأَرْضِ " .. هَاتَانِ الْفَقْرَتَانِ
تَشِيرَانِ الْإِنْطِبَاعَ بِأَنَّهُمَا قَبْلَتَا فِي زَمَنِ لَمْ يَكُنِ الْكَنْعَانِيُّونَ بَعْدَ فِي فِلَسْطِينَ ،
أَي لَيْسَ قَبْلَ أَيَّامِ سُلَيْمَانَ ..

٣ - قَصَّ سَفَرُ التَّكْوِينِ فِي إِصْحَاحِهِ (٣٦) . الْفَقْرَةَ (٣١) : " وَهَؤُلَاءِ هُمُ
الْمُلُوكُ الَّذِينَ مَلَكَوا فِي أَرْضِ آدَمَ قَبْلَمَا مَلَكَ مَلِكُ لَبْنَى إِسْرَائِيلَ " . وَهَذِهِ
الْفَقْرَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِنْ كُتُبِ قَائِمَةِ مُلُوكِ آدَمَ حَتَّى مَلَكَ مَلِكُ لَبْنَى إِسْرَائِيلَ لَمْ
يَكُنْ حَيًّا قَبْلَ عَصْرِ شَاوُلَ ..

٤ - هُنَاكَ تَعْبِيرَاتٌ مِثْلُ :
٢ - " אֲשֶׁר יֹאמַר הַיּוֹם בְּהַר יְהוָה יִרְאָה " - حَتَّى يُقَالُ
الْيَوْمَ فِي جَبَلِ الرَّبِّ يَرَى " (٢) ، أَوْ " לַדַּי הַיּוֹם הַזֶּה " - حَتَّى هَذَا
الْيَوْمَ " (٣) .. هَذِهِ التَّعْبِيرَاتُ تَتْرَكُ انْطِبَاعًا بِأَنَّ الْأَحْدَاثَ الَّتِي تَلِيهَا قَدْ تَمَّ
قَمَّهَا بَعْدَ وَقْعِهَا بِفَتْرَةٍ كَبِيرَةٍ (٤) .

(١) د . عَلَى عِيدِ الْوَاحِدِ وَالْفِي : الْأَسْفَارُ الْمُقَدَّسَةُ فِي الْأَدْيَانِ السَّابِقَةِ لِلْإِسْلَامِ .
ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) בְּרֵאשִׁית כב , ד' .

(٣) דְּבָרִים ג' , ד' .

(٤) מִבּוֹא בָלָל לַמַּקְרָא , עַמ' ٨٣ - ٨٤ .

ب - التعبير " לַבַּר הַיָּרְדֵּן / - عبر الأردن " يشير إلى أن قائله إنسان يعيش على الجانب الغربي لنهر الأردن ، لكن موسى - عليه السلام - مات ولم يعبر نهر الأردن (١) .

٥ - في سفر التكوين الإصحاح (٢١) ، الفقرة (٣١) تم تسمية بئر سبع هكذا : " إن إبراهيم أعطى لأبيمالك سبع نعاج وهناك : לַבַּר הַיָּרְדֵּן : حلف كلاهما " .

أما في سفر التكوين الإصحاح (٢٦) ، الفقرة (٢٣) ذُكِرَ أن عبيد "إسحاق" وجدوا بئراً وأطلقوا عليها " לַבַּר הַיָּרְדֵּן شبعة " : לַבַּר הַיָּרְדֵּן / שם הַיָּרְדֵּן - لذلك اسم المدينة بئر سبع إلى هذا اليوم " . إذاً هناك مصدران مختلفان لأصل اسم مدينته "بئر سبع" (٢) .

٦ - قصة الخلق : يبدأ سفر التكوين بروايتين عن الخلق كل منهما موضوعة إلى جانب الأخرى ، وتحتل الرواية الأولى الإصحاح الأول والفقرات الأولى من الإصحاح الثاني ، وأما الرواية الثانية ، فتحتل الإصحاح الثاني والفقرات ٤ ب إلى ٧ .

من زاوية المنطق يمكن أن نتبين عدداً كبيراً من المتناقضات والأمور غير المعقولة في الروايتين . يمكن أن تكون المصادر المختلفة التي استخدمت في تأليف النص هي أصل رواية حدث واحد بشكلين مختلفين ، ولكن هناك أكثر من ذلك : إن التعديلات المختلفة والإضافات اللاحقة إلى النص نفسه كالتعليقات التي أضيفت استدلالياً ثم دخلت فيما بعد على النص عند نسخه مرة أخرى ، أدت إلى كثير من المتناقضات والفروق الجوهرية :

١ - الرواية الأولى تنسب إلى الممدر الإلهيمي ، حيث نجد أن اسم

(١) שם שם , לא' 84 وراجع التكوين ١٠:٥٠ ؛ العدد ١:٢٢ ؛ ٣٢:٣٢ .

(٢) שם שם , לא' 84 .

الخالق : **אלהים** والرواية الثانية تنسب إلى الممدر اليهودى وهى أكثر قُدماً من الاولى بحوالى ثلاثة قرون .

٢ - فى الرواية الاولى ذكر : **זכר ונקבה ברא אותם** - ذكراً وأنثى خلقهم (فقرة ٢٧) ووفقاً للرواية الثانية خلق آدم أولاً ، وبعد فترة زمنية محددة تم خلق الأنثى بمفردها من أحد ضلوع آدم .

٣ - فى الرواية الاولى خلقت النباتات قبل الإنسان ، ووفقاً للرواية الثانية خلقت الأشجار بعد خلق الإنسان .

٤ - فى الرواية الاولى الموضوع الرئيسى هو " الله " ، وفى الرواية الثانية الإنسان .

٥ - فى الرواية الاولى يوصف الله بالغيبية والتسامى والشموخ ، أما فى الرواية الثانية نجد له ملامح ذاتية وشخصية أكثر .

٦ - الأسلوب فى الرواية الاولى محدد ومركّز وإن كان ينقصه التجسيد والتشخيص ، أما الرواية الثانية فإنها رواية قصيرة جداً ولكن أسلوبها متدفق وتصورى وأكثر إفاضة فيما يخص خلق الإنسان وجنة الأرض ، ومما يَحْكُمُ خلق الأرض والسماء الذى تذكره بإيجاز شديد .

٧ - الحوار فى الرواية الاولى حوار من طرف واحد فهو عبارة عن مونولوج إلهى أى حوار من طرف واحد ، أما الرواية الثانية فإله يتحدث مع آدم وحواء ، أى ديالوج (أى حوار يشترك فيه عدة أشخاص) (١) .

٨ - تنتهى رواية الخلق بالفقرات الثلاثة الاولى من الإصحاح الثانى :

נִבְלָו הַשָּׁמַיִם וְהָאָרֶץ וְכָל-צָבָאָם: נִבְלָו אֱלֹהִים בְּיוֹם
הַשְּׁבִיעִי מִלְאכְתּוֹ אֲשֶׁר עָשָׂה נִשְׁבַּח בְּיוֹם הַשְּׁבִיעִי מִכָּל-
מִלְאכְתּוֹ אֲשֶׁר עָשָׂה: נִבְרָךְ אֱלֹהִים אֲחֵרָנוֹם הַשְּׁבִיעִי

וַתִּקְרָא אֱלֹהֵי כֹחַ שְׁמֹת מִקְדָּל-מִלֵּאכֶיהָ אֲשֶׁר-דָּבָר אֱלֹהִים לְעִשְׂוֹת: (١) -
فأكملت السموات والأرض بكل جندها : وفرغ الله في اليوم السابع من عمله
الذى عمله . فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل . وبـــارك
الله اليوم السابع وقّده لأنه فيه استراح من جميع عمله للخلق " ..

أولاً معنى الكلمات : " جند - מַלְאכֵי " تعنى هنا على الأرجح حشــد
الكائنات المخلوقة ، أما فيما يخص التعبير " استراح - נָח " فهى
تعنى ذلك على وجه الدقة ، ومن هنا جاء يوم الراحة عند اليهود (يــــوم
السبت) .

وواضح أن هذه " الراحة " التى يفترض أن الله قد أخذها بعد أن عمل
ستة أيام ، هى أسطورة ، لها تعليل . إذ لا يجب نسيان أن رواية الخلق
تأتى من النص الذى يسمى بالكهنوتى نسبة إلى كتبة الكهنة وهم الوريثون
الروحانيون لحزقيال نبيّ النفى بابل في القرن السادس قبل الميلاد . ومعروف
أن هؤلاء الكهنة قد أعادوا روايتى الخلق اليهودية والإلوهيمية وأعادوا
مياغتهما على مشيئتهم وحسب اهتماماتهم الخاصة التى كتب " الأب ديفــــو "
عنها قائلاً: إن طابعها " التشريعى " كان جوهرياً . على حين لا يشير النص
اليهوى ، الذى يسبق النص الإلوهيمى بعدة قرون ، إلى راحة الله الذى تعب
من عمله طيلة الأسبوع ، يدخلها الكاتب الإلوهيمى فى روايته أنه يقســــم
روايته إلى أيام بالمعنى الدقيق لأيام الأسبوع ، وهو يفع محور الرواية على
راحة السبت التى يعلّلها أمام المؤمنين مؤكداً على هذا بقوله: إن الله هو
أول من احترمها بهدف الحث على الطاعة الدينية ، وابتداءً من هذه الضرورة
العملية انتقاد رواية الخلق بمنطق دينى ظاهر (٢) .

(١) בְּרֵאשִׁית ז', א-ח .

(٢) مورييس بوكاي : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم . ص ٤٤ - ٤٥ .

ونخلص مما سبق الى أنه لا ينبغي أن نطلق اصطلاح " الكتاب المقدس " على نص التوراة المتداول بين اليهود الآن لأنه إذا كانت هذه التسمية مقبولة نصفها الأول بيسر وسهولة لأن كل مكتوب يسمى لغة كتاباً إلا أن النصف الثاني من التركيب : " مقدس " لا يُقبل عقلاً ولا شرعاً ، لأن القدس معناه الطهر . والمقدس أى المطهر . والنص الموجود الآن لم يسلم كما رأينا من التحريف والتبديل والبهتان ، فكيف يوصف بعد هذا بالقدسيه ، فقللاً عن أن المسميات الخاصة بالكتب السماوية لا تخضع لفكر بشر أو اجتهاده وإنما تخضع لتسمية المنزل لها . فقبول المسلمين لهذه التسمية وترديدهم لها إنما هو من باب المجازاة للخصوم دون التسليم بصحة التسمية أو صلاحيتها خاصة أن القرآن الكريم قد سماها بما يغنى عن تسمية هؤلاء لها .

الخاتمة

لا شك أن القمص إحدى الأساليب الرسالية التي تضمنها القرآن الكريم من أجل الوصول إلى عقل الإنسان وشعوره ، حتى يوءمن عن اقتناع بالفكرة - الحق - التي ترتبط بالله وبالطريق المستقيم الذي يصل بالإنسان إلى لبّ الإيمان بالله عز وجل . وبما أن هذا القمص بعض القرآن فيثبت لها ما ثبت لجميعه من إعجاز آياتها المشتملة على أسلوب القرآن التصويري المعجز ففى وحدة فنية رائعة ، لذا كان - وما يزال - القمص القرآنى أدب فنى متكامل لأنه من عند الله سبحانه وتعالى.

أما التوراة فمع تعدد مصادرها وتحفظ البعض فيما تضمنته من قصص إلا أن ذلك لم يمنعنا من البحث الأدبى فى هذه القصص حتى نتمكّن من الوقوف على الملامح الرئيسية فى هذه القصص وتأثيرها الفعال على القارئ من ناحية وللوصول إلى عمق المضمون والإدراك الدينى لهذه القصص من ناحية أخرى ، إذ أنه من المتعارف عليه أن مضمون القصة وموضوعها وخصائصها لا يمكن أن تنفصل عن بنائها الفنى ، ولا يمكن لكل منهما أن يقوم منفرداً فى تحقيق هدف القصة .

وفى بحثنا - وكما سبق أن أوضحت - لم يكن الهدف دراسة مواطن التلاقى والصلات بين القمص القرآنى والقصص التوراوى ، وما لهذه الصلات من تأثير وتأثر ، سواء فيما يتعلق بفنية القصة والأصول المتبعة فى كل من القمص القرآنى والتوراوى ، أو فيما اتصل بالتيارات الفكرية أو مواقف الأشخاص ، أو كانت تهمس مسائل الصياغة الفنية والأفكار الجزئية فى كل من القصصين ، وإنما انصبّت دراستنا حول الروئية العامة والنظرة الكلية فى المقارنة بين قصص القرآن الكريم وقصص التوراة .. وذلك من أجل الوصول إلى موقف موضوعى فى هذه الدراسة المقارنة ، التى تهدف إلى اقتناع المسلم اقتناعاً ذاتياً داخلياً مبينياً على معرفة حقيقية بغير الإسلام وكتابه من أجل الوصول إلى حقيقة الإسلام ، أما بالنسبة لغير المسلم فهذه الدراسة المقارنة دعوة صريحة له لإعادة النظر والبحث الدقيق الواعى فى مضمون

ومحتوى ما يطلق عليه " الكتاب المقدس " الأمر الذى قد يؤدى إلى اتخاذ موقف آخر تجاه الإسلام وتصحيح مسار حياته وتمويبها .

ومن المؤكد أنه لاسبيل إلى تشبيه القرآن الكريم - إلهى المصدر - من قريب أو بعيد بالتوراة البشرية المصادر - الأمر الذى سبق أن فصلناه فى شأنا البحث وتمكنا بعده من أن نخرج ببعض النتائج منها :
أولاً : أثبت البحث أن العرب فى جاهليتهم وإسلامهم كانوا يتمتعون بدوق أدبى راق يدل على ذلك مقدار مابلغته هذه الأمة العربية حينئذ من الفصاحة والبلاغة ويكفى دليلاً على فصاحتهم وبلغتهم من أنهم استوعبوا فهم القرآن الكريم ووعوه رغم أسلوبه الرفيع المعجز .

ثانياً : إن عناصر القصة قد لا تجتمع كلها فى كل قصة ، وإنما لكل عمل فنى ظروفه التى تخضع لظروف المؤلف ، وتصرفه فيما يحكى من أحداث وشخصيات ، وكيف يتدخل فنياً فى عرضها ، مع الأخذ فى الاعتبار أن هذه العناصر تحتاج إلى مواهب فنية حتى تحسن الإفادة منها واستخدام ما هو ضرورى فى بناء حبكة القصة ، فأحياناً يلعب أحد العناصر القصصية دوراً رئيساً فى قصة ما ، بينما هناك قصة أخرى قد تخلو منه تماماً دون أن يمس هذا - فى شيء - روعة القصة وتماسك بنائها الفنى .

ثالثاً : إن الإيحاءات التى يتضمنها القصص القرآنى ، لا يمكن استيعابها جملة ، فالنصوص القرآنية تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن ، وبقدر حاجته الظاهرة إليه ، ويبقى لها رصيدها المدخور تتفتح به على القلوب ، فى شتى المواقف على قدر مقسوم . فالقرآن الكريم يتمثل فى قصصه الصورة الأدبية الكاملة المتكاملة ، التى يجسد فيها كل دوق ما يلائمه ، ولكل امرئ ناحية يتأثر بها ، ويستجيب لها ، حسماً تعينه ملكاته ومداركه ... والله سبحانه وتعالى لا يريد للعقل أن يتبدل فيعطيه كل شيء يلغى الفكر ، ولكنه يريد للذهن أن ينشط وأن يفكر ويتدبر .

رابعاً : فى القرآن الكريم أنباء لاتبلغ حد القصص خلافاً لما توهمه بعض الباحثين. والقرآن لم يسمّها قصصاً لآ لأنها ليست أحداثاً ماضية ، ولا لخلّوها عن تتبع الآثار الماضية فقط .. ولكن لأنه ليس فيها امداد فى التصوير فهى فى حد ذاتها لاتصلح للتسمية بالقصة لعدم انطباق العبرة ووضوح الروئية للعرض القصصى الأصيل .

خامساً : أن القصص القرآنى أحداث تاريخية واقعية لم تتلبس بشيء من الخيال ، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع ، ومع هذا فقد اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من القصص من الإشارة والتشويق مع قيامه على الحقائق المطلقة - الأمر الذى لايمح عليه القصص الأدبى بحال أبداً .

سادساً : ان لكلّ من القرآن الكريم والتوراة منهجه الخاص فى عرض القصص فهناك خلافاً أساسياً بين نهج التوراة فى عرض القصص ونهج القرآن وبعبارة أخرى بين المنهج الإلهى فى القرآن والمناهج البشرية فى التوراة إذ تتبع التوراة السرد التاريخى التتابعى ، أما منهج القرآن فمختلّف وغير مسبوق ، ولم يتبعه المسلمون من بعد فى كتابة السيرة النبوية ، أو التاريخ الإسلامى ، أو التاريخ العام ، فالقصة فى القرآن الكريم تسرد أحياناً أكثر من مرة دون أن يكون هناك تكرار فى السرد القصصى ، وإنما هو عرض لزوايا متعددة لقصة واحدة ، حيث يرجع تعدد زوايا الرواية إلى تعدد الأهداف منها .

سابعاً : إن القرآن الكريم لم يقتصر على عرض لوحات مجردة لماضى الإنسانية فى صراع قوى الخير والشر ، وإنما كان يهدف إلى بعث المثال من التاريخ ، لإشارة الانفعالات الموءدية إلى الهداية والإيمان والاستفادة من الأحداث التاريخية فى التربية ومعالجة النزعات النفسية فى الإنسان ، وأمراض المجتمع الذى يعيش فيه بما لتلك الأحداث من قوة مفروضة على النفس تحدث فيها انصهاراً ووعياً وبقظة وإحساساً .

ثامناً : إن وجود المرأة في القصة القرآني أو عدم وجودها ، ليس له وزن في حساب هذا القصة ، إلا من حيث تقرير الواقع ، وما يقضى به منطق الحدث الذي تصوره القصة القرآنية وتعرضه منها ، وكان لها مكانها البارز فيه كأنموذج من نماذج الحياة الإنسانية ، التي تلمس منها العبرة والموعظة أما إذا لم يكن للمرأة هذا الواقع الحقيقي في الحدث ، ولم يكن لها أثر في إبراز عبرة أو موعظة ، فإنه لا يكون للمرأة مكان في القصة القرآنية بحال أبداً ، لأن القرآن الكريم إنما ينقل قصصاً من واقع الحياة الماضية ويبعث الأحداث الغابرة من مرقدتها على النحو الذي كان من قبل ، وعلى ما كان لها من مؤلف في الحدث الذي تنقله القصة القرآنية .. وليس من أهداف القصة القرآنية أن تستعرض أمثالاً لحب وهوى المرأة وعاطفتها إن لم يكن ذلك لحكمة أرادها الحق سبحانه وتعالى مثلاً وعبرة لأولى الألباب .

تاسعاً : إن القصة القرآني دروس في العقيدة ، ودروس في الوحدانية المطلقة ، وإن كان ثوبه ثوب القصة ، وفيه من الجمال التعبيري والتصوير الفني ما يأخذ بالآلباب ، فإنما كل ذلك لخدمة العقيدة والإيمان بالإلهوية الواحدة .

عاشراً : إن عرض الشخصية الواحدة في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم لا يعد تكراراً ولا تناقضاً ، وإنما هو - الاستجابة للأحداث والمواقف والغاية من القصة ، لأن الشخصية في القصة القرآنية ليست مقصودة لذاتها ولأن عرض الحديث كذلك - ليس مقصوداً لذاته ، وإلا لجمعت كل أحداثها ، ورتبت ترتيباً زمنياً أو هيكلياً ، ثم ذكرت مع شخصيتها في قصة واحدة ، وإلا أصبح لكل قصة معرض واحد تقدم فيه كاملة الأحداث والمشاهد سواء تطلبها المعرض كاملة أو لم يتطلبها .. ولم يسر القرآن هذا المسار في قصصه ولكنه يعرض للشخصية مع حدث معين من أحداثها فيمزج بينهما ، ثم يقدم الشخص متفاعلاً بذلك الحدث لا غير ، لتري العظة والعبرة من خلال هذا الأنموذج مع ذلك الحدث ، ثم تنتهي المشاهد المصورة ، وتطوى القصة نفسها

مع حدث آخر جاءت حلقة أخرى - أو قصة أخرى - ذات مضمون جديد ، وإن تراءت تكراراً لما سبق في صورة أخرى .

الحادى عشر : يغلب الطابع التاريخى على قصص التوراة ولذلك لا تفصّل في وصف الحياة الخاصة للشخصيات التاريخية ، فتاريخ الآباء ليس تاريخاً بالمعنى المجرد ، بل قصص امتزجت ببعض الأسس التاريخية التى ينعدم فيها الانسجام التاريخى .

الثانى عشر : من خلال القصص الأخلاقية فى التوراة نجد أن السياق الذى وردت فيه القصص العديدة للتخلّل الجنسى ما يشير إلى أن " رب " إسرائيلي حسب رؤية التوراة ، كان كثيراً ما يقف من ذلك التخلّل موقفاً " شنائياً " أى موقفاً يجمع بين اتجاهين متعارضين فى نفس الوقت هما الإباحة والإدانة فى آن معاً . فبينما كان يعلن إنكار السلوك الجنسى المبتذل إذا به هذا الإنكار يصاغ فيما يشبه الاعتذار لما حبه والتمجيد لشخصه .

الثالث عشر : أظهر البحث فى قصص التوراة قلة الأحداث التى تمتزج فى السرد القصصى ويمكن التفاضل عنها ، حيث أن دورها هو الإسهاب فى السرد وتعميق المعانى وإلقاء ضوء أكثر على الشخصيات ، لهذا نجد أن القصة فى التوراة ليست مسهبة فى أحداثها ، بل مٌجملّة وموجزة .

الرابع عشر : ليس هناك وصف دقيق للملامح الخارجية للشخصيات فى قصص التوراة . أما الملامح الداخلية للشخصيات فتختلف عن مثيلها فى القصص الحديث ، ففى قصص التوراة ليس هناك من حديث عن مشاعر وأفكار الشخصيات فالتكوين النفسى والطابع الأخلاقى من ليم وأوصاف الشخصيات تتضح من خلال أعمالها وأحاديثها ، ولذلك فالقصة التورائية هى قصة درامية سردية ، وذلك على عكس القصة الحديثة حيث الحبكة الداخلية جهرية فيها ، أما قصص التوراة فالجوهر فيها هو الفعل والحديث .

الخامس عشر : يلعب حديث الشخصيات فى قصص التوراة دورين رئيسيين فهو أداة تنفيذ الحدث ، وهو بصفة عامة لا يتضمن كلمات فلسفية ، وإنما يعنى بنشاط شخصيات القصة ، وهو فى أغلب الأحوال يعنى بالمستقبل ، ومن ناحية أخرى يستخدم الحديث أيضاً للقاء الضوء على الدور الإنسانى .

السادس عشر : إن الشخصيات فى قصص التوراة هى شخصيات مسطحة ، أى تأخذ شكلاً محدداً منذ بداية القصة ، ولكن هناك شخصيات محورية تمثل الركن الأساسى للقصص عديدة ، مثل شخصية " إبراهيم " عليه السلام - التى تتكشف لنا جوانبها وأبعادها مع تطور القصة حيث لا تكتمل لنا صورته إلا بانتهاء القصة نفسها ، فهى تعتبر شخصية نامية أو مركبة .

السابع عشر : تشير التوراة مراراً إلى اعتقاد اليهود بأنهم شعب الله المختار حيث سجلت فى أسفارها أخباراً وقصصاً عن أفعال الله وتدخله من أجلهم فقط فى توجيه حركة التاريخ لصالحهم. ومثال ذلك قصة الخروج من مصر التى أبرزت تحقيق الوعد الإلهى المعطى للآباء الإسرائيليين والمعطى لموسى ، وبالإضافة إلى ذلك فإنها ترمز أيضاً إلى الخلاص الإلهى ، وتوضح هذه القصة أيضاً تطوير مفهوم الوعد والخلاص اللذين أصبحا من أسس الديانة اليهودية . . وقصة الخروج تعتبر أيضاً بداية الشعور القومى الحقيقى لدى الإسرائيليين ، فخروجهم من مصر فى شكل جماعة تحت قيادة موسى عليه السلام أعطاهم صفة القومية ، وكانت فى نفس الوقت بداية للإحساس بالشعور التاريخى . . ولأن أحداث القصة تدور حول المعجزة الإلهية ، فقد أضفت بُعداً دينياً إلى الإحساس القومى التاريخى .

الثامن عشر : أثبت البحث أن المحور الأساسى الذى يبنى عليه ما يسمى بالقصص التاريخى فى التوراة ، وكذا المحتوى الذى تتضمنه هذه القصص ، والمنهج الذى سلكته فى عرض أحداث التاريخ لا يهدف بالدرجة الأولى إلى تسجيل حوادث تاريخية أو تحليلية أو التنقيب عن الحقائق التاريخية المجردة ، وإنما كان الهدف هو محاولة تفسيرها فى إطار منظور

مستقبلي يحدّد الهدف الدينى .. ولهذا نجد أن كثيراً من القصص التى وردت فى التوراة والتى تدعى لنفسها التاريخية لا يمكن إثباتها بالعودة للتاريخ ذاته ، وتظل قصصاً دينية يختلف المفسرون فى معناها .

التاسع عشر : إن القصص التاريخية فى القرآن الكريم ليست هدفاً فى حد ذاتها ، وإنما تهدف إلى إثارة الفكر البشرى ، ودفعه إلى التساؤل والبحث باستمرار والهدف هنا علمى وتربوى أيضاً ، فالقرآن يصرّح فى وضوح أن شمة قوة فى الحق ، وأن الفشل يحيق بالباطل فى النهاية ، فما يناله الإنسان ، فرداً وجماعة ، يكون نتيجة طبيعية للدور التاريخى الذى مارسه ، ومن ناحية أخرى ، يوضح القرآن الكريم أن التغير التاريخى لا يحدث فجأة ، إذ يحدث تراكم بطيء عبر الزمان للأسباب التى ينتج عنها تغير تاريخى كبير بعد فترة زمنية طويلة . وهذا ما لم يتوفر فى قصص عديدة وردت فى التوراة . ومن هنا يمكن أن نقول أن التفاصيل التاريخية ليست من المقاصد التعليمية فى قصص القرآن الكريم فبعد الحادثة أو قريبها فى الزمان والمكان لا يؤثر فيما تحمل من عظة وعبرة .

العشرون : مع أن القصص القرآنى ذات هدف دينى بحت ، حيث يأتى للموعظة والتربية والتوجيه إلا أنه يعنى مع ذلك بكل مطالب الفن القصصى الخالص .

الحادى والعشرون : إن القرآن الكريم مصدّق لما سبقه من الكتب المنزلة ومهيمن عليها وتصديق القرآن لما بين يديه من الكتب المنزلة معناه أن ما وافقه من قضايا فهو حق وما خالفه فهو باطل . وليس من المخالفة المقصودة أن تذكر شيئاً لم يذكره القرآن ، ولكن أن تذكر فى الأمر الواحد شيئاً يذكر القرآن خلافه ، وفى حالة الاختلاف هذه يكون القرآن هو الأعلى ، ويكون قوله الفصل ، ومن أجل هذا وصفه الله سبحانه وتعالى بالهيمنة على الكتب المنزلة قبله فالقرآن شاهد للكتب قبله بالمدق عند الاتفاق ، وشاهد عليها ومصحح لها عند الاختلاف فى أمر من الأمور .

المصادر والمراجع

المصادر :

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الكتاب المقدس : كتب العهد القديم والعهد الجديد . المطبعة الأمريكية . بيروت . سنة ١٩٣٢ .

المراجع :

- ١ - إبراهيم عوفين : البيان القصص في القرآن الكريم . مطبعة السعادة . الطبعة الاولى . القاهرة . سنة ١٩٧٧ .
- ٢ - ابن القيم : اعلام الموقعين عن رب العالمين . ٣ ج . القاهرة . طبعة ١٣٧٥ هـ .
- ٣ - ابن حزم الظاهري الأندلسي : النمل في الملل والأهواء والنحل . مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده . القاهرة . سنة ١٣٨٤ هـ .
- ٤ - ابن كثير : تفسير القرآن العظيم . مكتبة دار التراث . القاهرة . بدون تاريخ .
- ٥ - أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي : تفسير القرطبي . الجامع لأحكام القرآن . كتاب الشعب . القاهرة . بدون تاريخ .
- ٦ - أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني : إعجاز القرآن . تحقيق السيد أحمد مقرر . دار المعارف . القاهرة . سنة ١٩٦٣ .
- ٧ - أبو سليمان محمد بن الخطابي : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام : القاهرة . بدون تاريخ .
- ٨ - أبو هلال العسكري : الفروق اللغوية . ضبطه وحققه حسام الدين القدسي دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . بدون تاريخ .

- ٩ - أبو هلال العسكري : الصناعتين . الطبعة الأولى . القاهرة . بدون تاريخ .
- ١٠ - أبو يعقوب بن أبو بكر محمد بن علي السكاكي : مفتاح العلوم . الطبعة الأولى . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . سنة ١٢٥٦ هـ / ١٩٣٧ م .
- ١١ - أحمد أحمد بدوي : أسس النقد الأدبي عند العرب . دار نهضة مصر . القاهرة . بدون تاريخ .
- ١٢ - أحمد أميين : ضحى الإسلام . مطبعة الاعتماد بمصر . سنة ١٩٣٤ م .
- ١٣ - أحمد حجازي السقا : نقد التوراة . أسفار موسى الخمسة . مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة . سنة ١٩٧٦ م .
- ١٤ - أحمد شلبس : مقارنة الأديان . اليهودية . مكتبة النهضة . القاهرة . سنة ١٩٧٨ م .
- ١٥ - أحمد عز الدين عبد الله خلف الله : يوسف بن يعقوب عليهما السلام . الطبعة الأولى . مطبعة السعادة . القاهرة . سنة ١٩٧٨ م .
- ١٦ - إسماعيل راجي الفاروقي : أصول الصهيونية في الدين اليهودي . معهد الدراسات العربية العالمية . القاهرة . سنة ١٩٦٤ م .
- ١٧ - أنور الجندي : خصائص الأدب العربي . دار الكتاب اللبناني . بيروت . بدون تاريخ .
- ١٨ - التهامي نشرة : سيكولوجية القمة في القرآن . تونس . سنة ١٩٧٤ م .
- ١٩ - الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : الاتقان في علوم القرآن . ج ٢ . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . الطبعة الثالثة . دار التراث . القاهرة . سنة ١٩٨٥ م .
- ٢٠ - السيد تقى الدين : من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة . سنة ١٩٨٤ م .

- ٢١ - السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث فى قصص القرآن . دار الكتاب
اللىبنانى . الطبعة الاولى . بيروت ١٩٧٢ م .
- ٢٢ - الطاهر أحمد مكى : القصة القصيرة . دار المعارف . الطبعة الرابعة .
القاهرة . سنة ١٩٨٥ م .
- ٢٣ - القاضى عبد الجبار : المبنى - تحقيق أمين الخولى . دار الكتاب
المصرية . القاهرة . سنة ١٩٦٠ م .
- ٢٤ - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى : البرهان فى علوم القرآن .
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . مكتبة دار التراث .
الطبعة الثالثة . القاهرة . بدون تاريخ .
- ٢٥ - بكرى شيخ أمين : التعبير الفنى فى القرآن . الطبعة الثانية . دار
الشروق . القاهرة . سنة ١٩٧٦ م .
- ٢٦ - جيمس فريزر : الفولكلور فى العهد القديم . ترجمة د. نبيلة
إبراهيم . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة .
سنة ١٩٧٢ م .
- ٢٧ - حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى . أطواره ومذاهبه . قسم
البحوث والدراسات الفلسطينية . القاهرة . سنة
١٩٧٥ م .
- ٢٨ - حسنى يوسف الأطير : على هامش الحوار بين القرآن واليهود . الطبعة
الأولى . دار الأنصار . القاهرة . سنة ١٩٧٤ م .
- ٢٩ - حفى محمد شرف : إعجاز القرآن البيانى . المجلس الأعلى للشئون
الإسلامية . الكتاب الرابع . القاهرة . سنة ١٩٧٥ م .
- ٣٠ - درويش الجندى : النظم القرآنى فى كشف الزمخشري . طبعة نهضة مصر
سنة ١٩٦٩ م .
- ٣١ - ذكى شنودة : المجتمع اليهودى . مكتبة الخانجى . القاهرة .
بدون تاريخ .

- ٣٢ - رشاد رشدى : فن القصة القصيرة . الطبعة الاولى . مكتبة الانجلو .
القاهرة . سنة ١٩٥٩ م .
- ٣٣ - سعد الدين التفتزاني : تهذيب المنطق . مصر . سنة ١٣١٥ هـ .
- ٣٤ - سيد قطب : فى ظلال القرآن . دار الشروق : الطبعة الثانية عشر
القاهرة . سنة ١٩٨٦ م .
- ٣٥ - _____ : التصوير الفنى فى القرآن . دار المعارف . الطبعة
الثامنة . القاهرة . سنة ١٩٧٥ م .
- ٣٦ - _____ : النقد الادبى . أصوله ومناهجه . دار الفكر العربى
القاهرة . بدون تاريخ .
- ٣٧ - شوقى عبد الحكيم : أساطير وفولكلور العالم العربى . روز اليوسف .
القاهرة . بدون تاريخ .
- ٣٨ - صادق إبراهيم عرجون : الحياة الأدبية عند العرب قبل الإسلام . بينى
وبين الاستاذ محمد فريد وجدى . مطبعة الأرشاد .
القاهرة . سنة ١٩٣٦ م .
- ٣٩ - صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى . عالم
الكتب . الطبعة الاولى . القاهرة . سنة ١٩٧٠ م .
- ٤٠ - صمويل كريمى : من ألواح سومر : ترجمة طه باقر . مكتبة الخانجى .
القاهرة . بدون تاريخ .
- ٤١ - عباس محمود العقاد : جحا الضاحك المضحك . دار نهض مصر . القاهرة .
بدون تاريخ .
- ٤٢ - _____ : المرأة فى القرآن . دار نهضة مصر . القاهرة .
بدون تاريخ .
- ٤٣ - _____ : الإنسان فى القرآن الكريم . دار الهلال . القاهرة .
سنة ١٩٧١ م .
- ٤٤ - عبد الحليم محمود : فى رحاب الأنبياء والرسل . كتاب اليوم . العدد
٢٩٤ . القاهرة . سنة ١٩٨٩ م .

- ٤٥ - عبد الرازق أحمد قنديل : الأثر الإسلامى فى الفكر الدينى اليهودى .
مركز بحوث الشرط الأوسط . دار التراث . القاهرة .
سنة ١٩٨٤ م .
- ٤٦ - عبد الظاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز فى علم المعانى . صح أصله
الاستاذ محمد عبده . تصحيح وتعليق وطبع السيد محمد
رشيد رضا . الطبعة السادسة . مكتبة ومطبعة محمد
صبيح وأولاده . القاهرة . سنة ١٩٦٠ م .
- ٤٧ - عبد الكريم الخطيب : القصص القرآنى فى منظوقه ومفهومه . دار الفكر
العربى . القاهرة . سنة ١٩٦٥ م .
- ٤٨ - _____ : قصص آدم ويوسف عليهما السلام . دار الفكر العربى
القاهرة . سنة ١٩٧٤ م .
- ٤٩ - _____ : الإعجاز فى دراسات السابقين . دار الفكر العربى
الطبعة الأولى . القاهرة . سنة ١٩٧٤ م .
- ٥٠ - عبد المجيد عابدين : الأمثال فى النثر العربى القديم . الطبعة
الأولى . دار مصر للطباعة . القاهرة . سنة ١٩٥٦ م .
- ٥١ - عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء . مطبعة مصر . الطبعة الثالثة .
القاهرة . سنة ١٩٥٣ م .
- ٥٢ - عصام الدين حفى ناصف : الأسطورة والوعى . دار العالم الجديد .
الطبعة الأولى . القاهرة . سنة ١٩٧٦ م .
- ٥٣ - _____ : اليهودية فى العقيدة والتاريخ . دار العالم
الجديد . الطبعة الأولى . القاهرة . سنة ١٩٧٧ م .
- ٥٤ - على الجندى : فى تاريخ الأدب الجاهلى . دار المعارف . القاهرة .
سنة ١٩٨٤ م .
- ٥٥ - على النجدي ناصف : القمة فى الشعر العربى إلى أوائل القرن الثانى
الهجرى . دار نهضة مصر . القاهرة . بدون تاريخ .

- ٥٦ - على اليمنى نردير : أسرار الترادف فى القرآن الكريم . دار ابن حنظل
القاهرة . سنة ١٩٨٥ م .
- ٥٧ - على شلش : فى عالم القمة . الطبعة الاولى . مطبعة دار الشعب
القاهرة . سنة ١٩٨٢ م .
- ٥٨ - على عبد الواحد وافي : الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام .
دار نهضة مصر . القاهرة . بدون تاريخ .
- ٥٩ - _____ : المرأة فى الإسلام . دار نهضة مصر . الطبعة
الثانية . القاهرة . سنة ١٩٧٩ م .
- ٦٠ - فاطمة الزهراء : العناصر الرمزية فى القصة . دار نهضة مصر
للطباعة والنشر . القاهرة . سنة ١٩٨٤ م .
- ٦١ - فتحى أحمد عامر : المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى . منشأة
دار المعارف . الاسكندرية . سنة ١٩٧٦ م .
- ٦٢ - فتحى رضوان : القمة القرآنية . كتاب الهلال . العدد ٣٣٢ .
القاهرة . سنة ١٩٧٨ م .
- ٦٣ - فتحى عبد القادر : من بلاغة القرآن الكريم فى سورة يوسف عليه السلام .
الطبعة الاولى . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة .
سنة ١٩٨٠ م .
- ٦٤ - فؤاد على رضا : من علوم القرآن . الطبعة الثانية . لبنان . سنة
١٩٨٣ م .
- ٦٥ - قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ . قراءة فى التفسيرات
التاريخية العربى . الطبعة الثانية . دار المعارف
القاهرة . سنة ١٩٨٥ م .
- ٦٦ - كامل سفيان : دراسة فى التوراة والإنجيل . الطبعة الاولى . القاهرة .
سنة ١٩٨٦ م .

- ٦٧ - مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية . ترجمة عبد الصبور شاهين .
دار الفكر . دمشق . سنة ١٩٨٥ م .
- ٦٨ - محمد أبو الأنوار : من قضايا الأدب الجاهلي . مكتبة الشباب . القاهرة
سنة ١٩٧٩ م .
- ٦٩ - محمد أحمد العزب : عن اللغة والأدب والنقد . رؤية تاريخية وروائية
فنية . الطبعة الأولى . دار المعارف . القاهرة .
سنة ١٩٨٠ م .
- ٧٠ - محمد أحمد الغمراوي : الإسلام في عصر العلم . اعداد : أحمد عبد السلام
الكرداني . دار الكتب الحديثة . القاهرة . سنة
١٩٧٨ م .
- ٧١ - محمد أحمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم . مكتبة الأنجلو .
الطبعة الثالثة . القاهرة . سنة ١٩٧٢ م .
- ٧٢ - محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام . ترجمة عباس
محمود . مصر . سنة ١٩٥٥ م .
- ٧٣ - محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن . الطبعة الثالثة . المؤسسة
الجامعية . بيروت . سنة ١٩٧٨ م .
- ٧٤ - محمد حسين هيكل : ثورة الأدب . دار المعارف . القاهرة . سنة ١٩٧٨ م .
- ٧٥ - محمد خليفة حسن : علاقة الإسلام باليهودية . دار الثقافة . القاهرة .
سنة ١٩٨٨ م .
- ٧٦ - _____ : دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة .
دار الثقافة . القاهرة . سنة ١٩٨٥ م .
- ٧٧ - محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم المشتهر
باسم تفسير المنار . الطبعة السادسة . دار المنار .
القاهرة . سنة ١٣٦٧ هـ .
- ٧٨ - محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث . دار نهضة مصر . القاهرة .
بدون تاريخ .

- ٧٩ - محمد فتوح أحمد : الرمز والرمزية فى الشعر المعاصر . دار المعارف مصر . سنة ١٩٧٠ م .
- ٨٠ - محمد قطب : منهج الفن الإسلامى . دار الشروق . القاهرة . الطبعة الرابعة . سنة ١٩٨٠ م .
- ٨١ - _____ : دراسات قرآنية . دار الشروق . الطبعة الرابعة . القاهرة . سنة ١٩٨٣ م .
- ٨٢ - محمد متولى الشعراوى : معجزة القرآن . كتاب اليوم . العدد ١٨٧ . القاهرة . سنة ١٩٨١ م .
- ٨٣ - محمد مندور : الأدب وفنونه . دار نهضة مصر . القاهرة . بدون تاريخ .
- ٨٤ - محمود تيمور : دراسات فى القصة والمسرح . المطبعة النموذجية . القاهرة . بدون تاريخ .
- ٨٥ - مصرى عبد الحميد حنورة : الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الرواية . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . سنة ١٩٧٥ م .
- ٨٦ - مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية . دار الفكر العربى . القاهرة . بدون تاريخ .
- ٨٧ - مصطفى على عمر : القصة وتطورها فى الأدب المصرى الحديث . دار المعارف القاهرة . سنة ١٩٨٢ م .
- ٨٨ - موريس بوكاي : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم . دار المعارف القاهرة . سنة ١٩٧٩ م .

دوائر المعارف والمعاجم العربية :

- ١ - ابن منظور : لسان العرب . ٦ ج . دار المعارف . القاهرة . بدون تاريخ .

- ٢ - د. عبد الوهاب محمد المسيرى بالاشتراك مع سوسن حسن : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية . مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام . سنة ١٩٧٤ م .
- ٣ - قاموس الكتاب المقدس . من منشورات مكتبة المشعل . بيروت . سنة ١٩٨١ .
- ٤ - محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . دار الفكر . الطبعة الثانية . القاهرة . سنة ١٩٨١ .

المجلات والدوريات العلمية العربية :

- ١ - د. رشاد عبد الله الشامى : الشخصية اليهودية والروح العدوانية . سلسلة عالم المعرفة . العدد (١٠٢) الكويت . سنة ١٩٨٦ .
- ٢ - د. صبرى حافظ : الخصائص البنائية للأقصوصة . مجلة فصول . المجلد الثانى . العدد السابع . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ٦ سنة ١٩٨٢ م .
- ٣ - د. عبد الخالق بكر عبد الخالق : البناء الأدبى فى قصص يعقوب وعيسو . مجلة كلية اللغات والترجمة . جامعة الأزهر . العدد الثامن عشر . سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- ٤ - د. _____ : قمة الطوفان فى التوراة وفى المصادر القديمة . مجلة كلية اللغات والترجمة . جامعة الأزهر . العدد التاسع عشر . سنة ١٩٨٩ م .
- ٥ - عبد الصبور شاهين : الدلالة العميقة فى الكلمة القرآنية . مجلة منبر الإسلام . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . العدد ١٠ . السنة ٤٥ . سنة ١٩٨٧ م .
- ٦ - د. عبد العزيز كامل : القرآن والتاريخ . مجلة عالم الفكر . المجلد الثانى عشر . القرآن والسيرة النبوية . الكويت . سنة ١٩٨٢ م .

- ٧ - قاسم عبده قاسم : تطور مناهج البحث فى الدراسات التاريخية . مجلة
عالم الفكر . المجلد العشرون . الكويت . سنة ١٩٨٩م
- ٨ - د. محمد حسن عبد الله : الحبّ فى التراث العربى . سلسلة عالم
المعرفة . العدد (٣٦) . الكويت . سنة ١٩٨٠م .
- ٩ - د. محمود محمد عمارة : الدعوة من خلال القصة القرآنية . مجلة منبر
الإسلام . العدد (١١) . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة . سنة ١٩٨٨م .

المراجع العبرية :

- 1- אוריאל סימון : הדמויות המשניות בסיפור המקראי. הקונגרס העולמי החמישי למדעי היהדות. ירושלים תשכ"ט 1969.
- 2- א.ל. שטראוס : בדרכי הספרות. ירושלים, תש"ל.
- 3- יהודה הלוי : ספר הכוזרי. תרגום. יהודה ב"ר שמואל אבן שמואל. הוצאת דביר, תל אביב תשל"ג.
- 4- יחזקאל קויפמן : תולדות האמונה הישראלית. מוסד ביאליק, ירושלים תשל"ו.
- 5- יעקב נאכט : סמלי אשה. ועד תלמידיו וחניכיו של המחבר. תל אביב תשי"ט.
- 6- מ.ד. קאסוטו : מאדם עד נח. ירושלים. תשי"ד.
7. מ.ד. קאסוטו : תורת התעודות וסידורם של ספרי התורה. ירושלים תשי"ג.
- 8- מנשה דובשני : מבוא כללי למקרא. מהדורה שניה. הוצאת ספרים יבנה. ישראל תשל"ח.
- 9- מ.צ. סגל : מבוא ^{מקרא} ספר דאשין. הדפסה תשיעית. הוצאת קרית ספר. ירושלים תשל"ג.
- 10- מ.צ. סגל : שיטת המקורות בחיבור התורה. אורבך, ירושלים תשט"ו.

11. מרדכי מרטין בובר: דרכו של מקרא. עיונים - בדפוס יסגנון בתנ"ך. מוסד ביאליק, ירושלים, תשכ"ד.
12. משה גרינברג: אמנות הסיפור והעריכה בסדר-שת המכות. מספר: המקרא ותולדות ישראל. העורך בנמין אופנהימר, אוניברסיטת תל-אביב. הפקולטה למדעי הרוח תל אביב. תשל"ב.
13. נחמה ליבוביץ: עיונים חדשים בספר שמות. ירושלים תשל"ג.
14. צבי אדר: הערכים החינוכיים של התנ"ך. תל-אביב. ששי"ד.
15. צבי אדר: הסיפור המקראי. המחלקה לחינוך - ולתרבות בגולה של ההסתדרות הציונית העולמית. מהדורה שביעית. ירושלים תשל"ט.
16. ש.א. לינשטם: המבול, ספר טור-סיני, ירושלים תשכ"ה.
17. ש"ד גויטלין. עיונים במקרא, הסדפסה שנה תל אביב 1968
18. ש. טלמון: דרכי הסיפור במקרא, ירושלים תשכ"ה.
19. שמעון בר אפדת: העיצוב האמנותי של הסיפור במקרא, ספרית פועלים, ישראל תש"ם.

20. שמעון דובנוב, דברי ימי עם עולם. כרך רא-
שון. הוצאת דביר תל-אביב, תשט"ו.
21. ש. ליברמן: יוונית ויוונית בארץ ישראל, ירוש-
לים 1962.
22. תורה נביאים וכתובים.

المجلات والدوريات العلمية العبرية :

- 1- אריה סולה: לעקרון "שינוי המובאה" בסיפורי ה-
מקרא. (בית מקרא) (28). תשמ"ג.
2- גלוריה שיינטור ועוזיאל מאיל: לקראת ניתוח -
אליקוציון של השיחה בסיפור המקראי. (הספרות
30-31). אפריל 1981.
3- י. א. זליגמן: יסודות איטיולוגיים בהיסטוריוגרפיה
המקראית. (ציון) (כ"ו) תל אביב. תשכ"א.
4- יאיר זקוביץ: סיפור בבואה-מימד נוסף להער-
כת הדמויות בסיפור המקראי. (תרביץ). שנת -
נד'. חובבת (ב'), ירושלים תשמ"ה.
5- יאיר זקוביץ ואביגדור שונאן: ותפל מעל הגמל.
(הספרות). מס' (29) דצמבר 1979.
6- יהודה ת. דדאי: על הכאזם בסיפור המקראי, -
(בית מקרא) (6) ירושלים תשכ"ד.

- 7- מאיר ו"ס : מלאכת הסיפור במקרא. (מולד)
(פ'). ירושלים 1962 .
- 8- משה אגל-טל : אתות וסימני דרך בסיפור המקראי. (נב המדרשה) (ט"ז-י"ז). ירושלים תש"מ"ג-ד .
- 9- נ. ליבוביץ : כיצד לקרוא פרק בתנ"ך. (נפש ושיר).
עיונים למדריך ולמורה. (י"טן פ'). ירושלים תשי"ד.
- 10- נפתלי טוקר : עיונים נוספים במלאכת סיפור פרש-
ת מכירת יוסף. (עלי שיח). ירושלים תשמ"ג.
- 11- נפתלי טוקר : לדרכו של הכתוב המקראי בת-
אור מצבם נפשניים של הדמויות. (בית מקרא).
ירושלים תשמ"ב.
- 12- שרה הלפרין : היסוד הטראגי בסיפור המקראי.
(דעת) (8) ירושלים תשמ"ב.

دوائر المعارف والمعاجم العبرية :

- 1- אברהם אבן שושן : המלון העברי המדובר, ירו-
שלים, תשי"ד.
- 2- אוצר ישראל, אנציקלופדיה, מהד' ג'. לונדון 1935.
- 3- אנציקלופדיה מקראית, אוצר הידיעות על המ-
קרא ותקופתו, הוצאת מוסד ביאליק, הדפסה-

ה'. ירושלים 1978.

4- אנציקלופדיה עברית, חברה להוצאת אנצ-
יקלופדיות. בע"ם ירושלים.

5- לבסיקון מקראי. אנציקלופדיה, דביר תל-אביב
1976.

6- קונקורדנציה חדשה. לתורה, נביאים וכתובים
כרך א-ב בעריכת אבן שושן. הוצאת קרית-
ספר, מהד' שלישית ירושלים. תשמ"א.

7- ראובן אלקלעי. לקסיקון לועזי-עברי חדש
מסדה דמת גן. ישראל 1976.

دوائر المعارف والمعاجم الأجنبية :

- 1) Judaica Encyclopaedia (Moses). Keter Publishing House.
Jerusalem. LTD. 1972.
- 2) R. Alcalay : The Complete English Hebrew Dictionary.
Volume I Printed in Israel by Massada LTD 1981.

المراجع الأجنبية :

- 1) Charles Chadwick : Symbolism. First Publication. Britain
1977.
- 2) D.C. MacDonald : The Hebrew Literary. Genius Princeton.
1933.
- 3) George L. Robinson : Leaders of Israel. Association Press.
New York. 1920.
- 4) John Bright : A History of Israel. 2nd edition. The West-
minister Press, Philadelphia. 1972.
- 5) N.W. Lund : The presence of chiasmus in the old Testament.
AJSL 46. 1930.
- 6) N.W. Lund : Idem Chiasmus in the Psalms. AJSL. 1932-33.
- 7) W. Eichrodt : Theology of The Old Testament. Vol. I.
Philadelphia. 1961.
- 8) Yitzhak Livny and Moshe Kokhava : A Hebrew Grammer For
Schools and Colleges. Fourth Edition. Rubin
Mass. Jerusalem. 1978.